مركز البحوث الإسلامية
إستانبول



تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/١٥٧٤م)

ينشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق

أ.م. محمد طه بويالق — أحمد أيتب
أ.م. ضياء الدين القالش — محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ.م. محمد طه بويالق

المجلد الرابع

نشريات وقف الديانة التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

إرشاد العقل السليم
إلى مزايا الكتاب الكريم

مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية

تمّ إدراج "مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية" كمشروع إطاري يضم في طياته عدة مشاريع فرعية في جدول الأعمال من قِبَل مركز البحوث الإسلامية (إسام/İSAM) بهدف إخضاعِ التراكم الفكري فيما بين القرنين الهجريين السابع والثالث عشر (١٣-١٩م) -الذي يمكن أن يطلق عليه اسم "العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية"- لدراسة علمية كما يليق به، واستخراجِ ما حملته هذه الفترة من أبعاد علمية وفكرية لما يقارب سبعة قرون. وفي تصور كتابة التاريخ المعاصرة قد سُعي إلى كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية على أساس فرضية أن تطور الحضارة الإسلامية بصفة عامة والفكر الإسلامي وعلومه بصفة خاصة قد تعرض للانقطاع بعد الغزو المغولي. فإن وجهة النظر هذه التي تشكلت في الغرب في القرن التاسع عشر، وانتشرت بين المسلمين أثناء فترة الاستعمار هي التي جعلت أحكامنا المتعلقة بالتاريخ الإسلامي ناقصة، مما حال بيننا وبين أن نتناول تاريخ الإسلام بفكره وفنونه ومؤسساته وشخصياته الرائدة وأدبه وأحداثه في وحدة متماسكة.

ولا تسلّط الدراسات في هذا المجال الضوء على فترة من فترات التاريخ الإسلامي فحسب؛ بل ستجلي أيضا حقبة مهمة من حقب التاريخ البشري. وإن هذا المشروع سيكون وسيلة لبعثِ المسائل العلمية المناقشة في العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية من جديد، وإلحاقِها بقضايا العالم العلمي والفكري، وبالتالي سيستفاد إلى أقصى حد من التراث العريق في بناء عهد جديد واستدراك المسائل الراهنة وتحليلها وانتقادها ومناقشتها.

وفي إطار الأعمال العلمية المتعلقة بهذه الفترة سيفسح هذا المشروع المجال لعقد دراسات عن العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي وتاريخ العلوم الإسلامية التجريبية، وكذلك العلوم البشرية وميادين الفنون في الحضارة الإسلامية إلى جانب الدراسات المقارنة بين الإسلام وسائر الحضارات الأخرى. وسترکّز المشاريع المرتقبة على أراضي الدولة العثمانية وجنوب الصحراء الكبرى، وكذلك على شبه القارة الهندية منذ سلطنة دلهي، بالإضافة إلى آسيا الوسطى وإيران بعد الغزو المغولي. هذا، ويتوقع إصدار منشورات في إطار المشروع مثل الفهرسة والتأليف والتحقيق والترجمة.

المنهج الفكري عند ابن تيمية ونقده للمتكلمين (بالتركية)، مَحمَد سعيد أوزَروارلي، ٢٠٠٨؛ ٢٠١٧.
دراسة فتح الباري وعمدة القاري من جهة تحليل المتن(بالتركية)، ياووز كُوكْطاش، ٢٠٠٩؛ ٢٠٢٠.
الوزارة في العهد المملوكي (بالتركية)، فاتح يحيى آياز، ٢٠٠٩؛ ٢٠١٧.
التاريخ الإداري والاقتصادي للعثمانيين (بالتركية)، خليل إينالجيق، ٢٠١١؛ ٢٠١٨.
مدرسة فخر الدين الرازي في أصول الفقه (بالتركية)، طونجاي باش أوغلو، ٢٠١١؛ ٢٠١٤.
عبد القادر الجيلاني والقادرية، (بالتركية)، عدالت چاقر، ٢٠١٢؛ ٢٠٢١.
فخر الدين الرازي في عهد التحول للفكر الإسلامي (بالتركية)، عثمان دمير - عمر تورك أر (تحرير)، ٢٠١٣.
الكفاية في الهداية، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد آروتشي، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
المنتقى من عصمة الأنبياء، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد بولوط، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
الطرق الصوفية في تركيا: تاريخ وثقافة (بالتركية)، سميح جيحان (تحرير)، ٢٠١٥.
مرشد الشيوخ الثلاثة: الخلوتية وفرع الرمضانية وكوستندلي علي علاء الدين أفندي (بالتركية)، سميح جيحان، ٢٠١٥
تراث الحواشي في التفسير وحاشية شيخ زاده على أنوار التنزيل (بالتركية)، شكري معدن، ٢٠١٥
فهرس الوقفيات لسجلات محاكم إستانبول الشرعية (بالتركية)، إعداد: ب. آيدين، إ. يورداقول، آ. ايشيق، إ. قورت، أ. ييلديز، ٢٠١٥.
كتاب القواعد الكلّيّة في جملة من الفنون العلميّة، محمد الإصفهاني، تحقيق: منصور كوشينكاغ - بلال تاشقين، ٢٠١٧.
عضد الدين الإيجي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، أشرف آلطاش (تحرير)، ٢٠١٧.
القاضي البيضاوي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، مستقيم آريجي (تحرير)، ٢٠١٧.
العلاقة بين النحو وأصول الفقه (بالتركية)، عثمان گومان، ٢٠١٧.
سلامة الإنسان في محافظة اللسان، ميرزا زاده محمد سالم، تحقيق: مراد صولا، ٢٠١٨.
معاني الأسماء الإلهيّة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
شرح الفاتحة وبعضِ سورة البقرة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
دليل تحقيق النصوص لمركز البحوث الإسلامية (إسام) (بالتركية)، إعداد: أوقان قدير يلماز، ٢٠١٨.
شيخ بدر الدين: فقيه عثماني (بالتركية)، مصطفى بولند داداش، ٢٠١٨.
رسالة في أدب المفتي، محمد فقهي العيني، تحقيق: عثمان شاهين، ٢٠١٨.
كتاب تقريب الغريب، قاسم بن قطلوبغا، تحقيق: عثمان كسكين‌أر، ٢٠١٨.
كشف الأسرار وهتك الأستار، يوسف بن هلال الصفدي، تحقيق: بهاء الدين دارما، ١-٥، ٢٠١٩.
تراث الكشاف: أثر الكشاف للزمخشري في تراث التفسير (بالتركية) مَحمَد طه بُويالِق، ٢٠١٩.
التسهيل شرح لطائف الإشارات، الشيخ بدر الدين، تحقيق: مصطفى بُولَنْدْ دَادَاشْ، ١-٣، ٢٠١٩.
جامع الأصول، ركن الدين السمرقندي، تحقيق: عصمت غريب الله شِمْشَك، ١-٢، ٢٠٢٠.
تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد - حاشية التجريد - منهوات الجرجاني والحواشي الأخرى، محمود الإصفهاني - الجرجاني، تحقيق:
أ. آلطاش، م. علي قُوجَا، ص. كونْ آيْدِن، م. يتيم، ١-٣، ٢٠٢٠؛ ١-٢، ٢٠٢١.
لبّ الأصول، ابن نجيم، تحقيق: محمد فال السيد الشنقيطي، ٢٠٢٠.
التسديد في شرح التمهيد، السغناقي، تحقيق: علي طارق زياد يلماز، ١-٢، ٢٠٢٠.
نظام الحقوق العثماني: أساس الدولة العلية، مَحمَد عاكف آيدن (بالتركية)، ٢٠٢٠.
نظرية الجسم في الفلسفة الإسلامية: تراث حكمة العين، مَحمَد سامي باغا (بالتركية)، ٢٠٢٠.
تراث الشروح والحواشي في كتابة السير: مُغُلطاي بن قليج نموذجًا، گُولْلُو ييلديز (بالتركية)، ٢٠٢٠.
علي القوشجي مفسّرًا، مَحمَد چِيجَك (بالتركية)، ٢٠٢١.
حاشية علي القوشجي على شرح الكشاف للتفتازاني، علي القوشجي علاء الدين علي بن محمد السمرقندي، تحقيق: مَحمَد چِيجَك، ٢٠٢١.
شرح عقود رسم المفتي، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحسيني الدمشقي، تحقيق: شَنُول صَيْلان، ٢٠٢١.
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي، تحقيق: محمد طه بويالق، أحمد أيتب،
ضياء الدين القالش، محمد عماد النابلسي، ١-٩، ٢٠٢١.

مركز البحوث الإسلامية
إستانبول
سِلْسِلَةُ عيُونِ التُّراثِ الإسْلَامِيِّ

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)

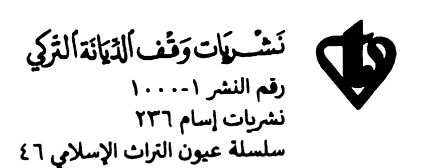
يُنشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق
أ.م. محمد طه بويالق — أحمد أيتب
أ.م. ضياء الدين القالش — محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ.م. محمد طه بويالق

المجلد الرابع

نشريات وقف الديانة التركي



رقم النشر ١-١٠٠٠٠
نشريات إسام ٢٣٦
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٤٦

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي

المجلد الرابع

تحقيق محمد طه بُوتَالِقْ - أحمد أَيْنَبْ [المقدمة - البقرة ٩٨؛ النساء - التوبة]
ضياء الدين القَالِش [البقرة ٩٩ - آل عمران ٣٢؛ يونس - هود؛ الحجر - طه؛ الذاريات - الناس]
محمد عماد النابلسي [آل عمران ٣٣-٢٠٠؛ يوسف - إبراهيم؛ الأنبياء - ق]

تم إعداد كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق
بـ مركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.
İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

İSAM YAYINLARI

إدارة النشر محمد سُعَادْ مَرْتْ أوغْلُو
إشراف الطبع أَرْدَالْ جَساز
تحرير قسم التحقيق أوقَانْ قَدير بِلْمازْ
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَمِيرْآيْ
تنقيح الأسلوب والصياغة لقسم الدراسة (التركي) مَتِين قَرَه بَاشْ أوغْلُو
الترجمة (العربي) مروة داغستاني بازِسِيكْ
التصحيح (العربي) سعيد قاياجي، منذر شيخ حسن، محمد شاهين
(التركي) عيسى قايا أَلْبْ، عبد القادر شَنَلْ، عنايت بَبَكْ
التصميم علي حيدر أولُوصُويْ، إبراهيم درويش مؤذن (تطبيق)،
حسن حسين جَانْ (غلاف)، رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر منذر شيخ حسن، سماء دُوغانْ

تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام / İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طُونْجَايْ بَاشْ أوغْلُو



تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
بتاريخ ٢٠٢٠/٠٦/٠١ ورقم ٢٠٢٠/٠٥.

الطبعة الأولى: أنقرة، يوليو ٢٠٢١م / ١٤٤٢هـ
(مجموعة) ISBN 978-625-7581-31-8
(المجلد الرابع) 978-625-7581-35-6

الطباعة والنشر والتوزيع
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr



شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم / شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي؛ التحقيق: محمد طه بُوتَالِقْ، أحمد أَيْنَبْ، ضياء الدين القَالِش، محمد عماد النابلسي. – أنقرة: وقف الديانة التركي، ٢٠٢١.
المجلد الرابع، ٦٢٨ صفحة؛ ٢٤ سم. – (نشريات وقف الديانة التركي؛ ١-١٠٠٠٠. نشريات إسام؛ ٢٣٦.
سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٤٦)
يحتوي على الفهارس والمصادر
(المجلد الرابع) 978-625-7581-35-6 (مجموعة) ISBN 978-625-7581-31-8

فهرس المحتويات

[٣٨٣و]

/ سورة الأنفال

مدنيّة، ستّ وسبعون آيةً.[١]

[٣٨٣ظ]

/ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِ﴾ النَّفَل: الغنيمة، سُمّيت به لأنّها عطيّة مِن الله تعالى زائدة على ما هو أصل الأجر في الجهاد مِن الثواب الأخرويّ. ويُطلَق على ما يعطَى بطريق التنفيل زيادةً على السَّهم مِن المَغنَم. وقُرئ: "عَلَّنْفَالِ"[٢] بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام نون ﴿عَنۡ﴾ في اللام.

رُوي أنّ المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قِسمتها، فسألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: كيف تُقسَم؟ ولِمن الحُكم فيها، أللمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعًا؟[٣]

وقيل: إنّ الشُّبّان قد أبلَوا يومئذ بلاءً حسَنًا، فقتلوا سبعين، وأسَروا سبعين، فقالوا: «نحن المقاتلون، ولنا الغنائم»، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: «كنّا رِدْءًا[٤] لكم وفئةً تنحازون إليها»، حتّى قال

---

[١] م – سورة الأنفال. مدنيّة. ستّ وسبعون آيةً؛ س: سورة الأنفال، مدنيّة، وهي سبعون آيةً. | وفي هامش م: حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل، به تعالى أثق وإليه أُنيب، مِن سورة الأنفال. | قال ابن عاشور في **التحرير والتنوير**، ٩/٢٤٦: «وعدد آيها في عَدّ أهل المدينة وأهل مكّةَ وأهل البصرة: ستّ وسبعون، وفي عَدّ أهل الشام: سبع وسبعون، وفي عَدّ أهل الكوفة: خمس وسبعون».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠١.

[٣] انظر: **مسند أحمد**، ٣٧/٤٢١-٤٢٢ (٢٢٧٦٢)؛ و**أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٣٦؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢/١٩٤.

[٤] تقول: "أردأتُه بنفسي"، إذا كنتَ له رِدْءًا، وهو العَون. **الصحاح** للجوهري، «ردأ».

سعد بن مُعاذ[1] لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «واللهِ ما منعَنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادةٌ في الأجر، ولا جُبنٌ مِن العدوّ، ولكنْ كرهنا أن نُعريَ مصافّك، فيعطِفَ عليك خيلٌ مِن المشركين»، فنزلت.[2]

وقيل: كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد شرَطَ لِمن كان له بلاءٌ أن يُنفِّله؛ ولذلك فعل الشُّبّان ما فعلوا مِن القتل والأسر، فسألوه عليه السلام ما شرَطه لهم، فقال الشيوخ: «المَغنَم قليل، والناسُ كثير، وإن تُعطِ هؤلاء ما شرطتَ لهم حرَمتَ أصحابَك»، فنزلت.[3]

والأوّل هو الظاهر لِما أنّ السؤال استعلام لحُكم الأنفال بقضيّة كلمة ﴿عَنْ﴾، لا استعطاءٌ لنفسها كما نطق به الوجه الأخير. وادّعاءُ زيادة ﴿عَنْ﴾ تعسّفٌ ظاهرٌ. والاستدلال عليه بقراءة ابن مسعود وسعد بن أبي وقّاص وعليّ بن الحسين[4] وزيدٍ[5] ومحمّدٍ الباقرِ[6] وجعفر الصادق وعكرمةَ وعطاءٍ:

[1] هو سعد بن مُعاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأنصاري الأوسي، أبو عمرو (ت. ٥هـ/٦٢٧م). أسلم بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يدَي مصعب بن عُمير. وشهد بدرًا وأحدًا والخندق. ورُمي يومَ الخندق بسهم، فعاش شهرًا، ثمّ انتقض جُرحه، فمات منه. وفي الصحيحين وغيرهما مِن طرقٍ: أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «اهتزّ العرش لموت سعد بن مُعاذ». انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٢٠/٣-٤٣٦؛ **والإصابة** لابن حجر، ٣٠٣/٤-٣٠٤.

[2] انظر: **سنن أبي داود**، ٣٦٩/٤-٣٧٠ (٢٧٣٧)؛ **وأسباب النزول** للواحدي، ص ٢٣٥. وهو مع قول سعد بن معاذ في **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٢٣/٣-٣٢٤.

[3] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٩٤/٢.

[4] هو عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو الحسن، الملقّب بـ"زين العابدين" (ت. ٩٤هـ/٧١٢م). رابعُ الأئمّة الاثنَي عشر عند الإماميّة، ومِن سادات التابعين. وهو عليّ الأصغر ابن الحسين، وأمّا عليّ الأكبر ابن الحسين، فقُتل مع أبيه بنهر كربلاء، وليس له عُقب. مولده ووفاته بالمدينة. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢١١/٥-٢٢٢؛ **ووفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٢٦٦/٣-٢٦٩.

[5] هو زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو الحسين (ت. ١٢٢هـ/٧٤٠م). إمام الزيديّة. قرأ على واصل بن عطاء، واقتبس منه علم الاعتزال. وكانت إقامته بالكوفة، وأشخص إلى الشام، فضيّق عليه هشام بن عبد الملك، وعاد إلى العراق، ثمّ إلى المدينة، فلحق به بعض أهل الكوفة يحرّضونه على قتال الأمويّين، ورجعوا به إلى الكوفة، وقُتل هناك. وله مِن الكتب: **المجموع في الفقه، وتفسير غريب القرآن المجيد، وكتاب الصفوة**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٨٩/٥-٣٩١؛ **والأعلام** للزركلي، ٥٩/٣.

[6] هو محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب العلوي الفاطمي المدني، أبو جعفر (ت. ١١٤هـ/٧٣٣م [؟]). خامسُ الأئمّة الاثنَي عشر ◄

"يَسْأَلُونَكَ الْأَنْفَالَ"[١] غيرُ متهضٍ؛ فإنّ مَبناها -كما قالوا-[٢] على الحذف والإيصال، كما يُعرب عنه الجواب بقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: حكمُها مختصّ به تعالى، يقسِمها الرسولُ عليه السلام كيفما أُمر به مِن غير أن يدخل فيه رأيُ أحد.

[٣٨٤و] / ولو كان السؤال استعطاءً لَما كان هذا جوابًا له؛ فإنّ اختصاص حكم ما شُرط لهم مِن الأنفال بالله والرسول لا يُنافي إعطاءَها إيّاهم، بل يحقّقه؛ لأنّهم إنّما يسألونها بموجَب شرط الرسول عليه السلام الصادرِ عنه بإذن الله تعالى، لا بحكمٍ سبَقَ أيديهم إليها أو نحو ذلك ممّا يخلّ بالاختصاص المذكور.

وحملُ الجواب على معنى: أنّ الأنفال بالمعنى المذكور مختصّةٌ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لا حقَّ فيها للمُنفَّل كائنًا مَن كان، ممّا لا سبيلَ إليه قطعًا ضرورةَ ثبوت الاستحقاق بالتنفيل. وادّعاءُ أنّ ثبوته بدليلٍ[٣] متأخّرِ التزامٌ[٤] لتكرُّر النسخ[٥] مِن غير علم بالناسخ الأخير.

ولا مساغَ للمَصير إلى ما ذهب إليه مجاهد وعكرمةُ والسدّي مِن أنّ الأنفال كانت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم خاصّةً، ليس لأحد فيها شيءٌ بهذه الآية، فنُسخت بقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال، ٤١/٨]،[٦] لِما[٧] أنّ المراد بـ"الأنفال" فيما قالوا هو المعنى الأوّل حتمًا كما نطَق به قوله تعالى:

< عند الإماميّة. وُلد بالمدينة، وتوفّي بها. وشُهر بـ"الباقر"، مِن: "بقَرَ العلمَ"، أي: شقَّه، فعرف أصله وخفيَّه. وكان ناسكًا عابدًا، له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٠١/٤-٤٠٩؛ والأعلام للزركلي، ٢٧٠/٦-٢٧١.

١ قراءة شاذّة، مرويّة عنهم في المحتسَب لابن جنّي، ٢٧٢/١، إلّا عطاء وعكرمة، فهي مرويّة عنهما في اللباب لابن عادل، ٤٤٣/٩.

٢ اللباب لابن عادل، ٤٤٣/٩.

٣ وفي هامش م: خبر "أنّ". «منه».

٤ وفي هامش م: خبر المبتدأ. «منه».

٥ وفي هامش م: بأن يُنسَخ بهذه الآية استحقاقُ المنفَّل لِما شُرط له بعد مشروعيّته -وإلّا لَما شَرَط عليه السلام لهم ذلك- ثمّ يُنسَخَ بناسخ آخر. «منه».

٦ قول مجاهد وعكرمة والسدّي في جامع البيان للطبري، ٢١/١١-٢٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٧/٩.

٧ تعليل لقوله: "ولا مساغَ للمَصير إلى"... إلخ، وليس للقول بالنسخ.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنفال، ٤١/٨]، على أنّ الحقّ أنّه لا نسخ حينئذ أيضًا حسبما قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛[١] بل بُيّن في صدر السورة الكريمة إجمالًا أنّ أمرها مفوَّض إلى الله تعالى ورسوله، ثمّ بُيّن مصاريفها وكيفيّة قِسمتها على التفصيل.

وادّعاء اقتصار هذا الحكم -أعني: الاختصاصَ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم- على الأنفال المشروطة يومَ بدرٍ بجعل "اللام" للعهد مع بقاء استحقاق المُنفَّل في سائر الأنفال المشروطة، يأباه مقام بيان الأحكام، كما يُنبئ عنه إظهار ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ في موقع الإضمار، على أنّ الجواب عن سؤال الموعود ببيان كونه[٢] له عليه السلام خاصّةً ممّا لا يَليق بشأنه الكريم أصلًا.

وقد رُوي عن سعد بن أبي وقّاص أنّه قال: «قُتل أخي عُمَيرٌ يومَ بدرٍ، فقتلتُ به سعيد بنَ العاص، / وأخذتُ سيفه، فأعجبني، فجئتُ به رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقلتُ: "إنّ الله تعالى قد شفى صدري مِن المشركين، فهَبْ لي هذا السيفَ"، فقال عليه السلام: "ليس هذا لي ولا لك، اطرَحْه في القَبَض"،[٣] فطرحتُه وبي ما لا يعلمه إلّا الله مِن قتل أخي وأخذِ سَلَبي، فما جاوزتُ إلّا قليلًا حتّى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "يا سعدُ، إنّك سألتَني السيفَ وليس لي، وقد صار لي، فاذهبْ فخُذْه"».[٤] وهذا -كما ترى- يقتضي عدمَ وقوع التنفيل يومئذ، وإلّا لَكان سؤال السيف مِن سعد بموجَب شرطه عليه السلام ووعدِه، لا بطريق الهِبَة المبتدأة. [٣٨٤ظ]

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٢/١١-٢٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٧/٤. | هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العُمَري المدني. مولى عمر بن الخطّاب. كان كثيرَ الحديث، ضعيفًا. حدّث عن أبيه وابن المُنكَدر. وروى عنه أصبَغ بن الفرج وقتيبة وهشام بن عمّار، وآخرون. كان صاحبَ قرآن وتفسير، جمع تفسيرًا في مجلّد، وكتابًا في الناسخ والمنسوخ. توفّي بالمدينة في أوّل خلافة هارون سنة اثنتين وثمانين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤١٣/٥؛ وميزان الاعتدال للذهبي، ٥٦٤/٢-٥٦٦.

[٢] أي: كون الموعود.

[٣] القَبَض: ما جُمع مِن الغنائم. تهذيب اللغة للأزهري، ٢٧٣/٨ «باب القاف والضاد».

[٤] انظر: مسند أحمد، ١٢٩/٣ (١٥٥٦)؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٤-٢٣٥؛ والكشّاف للزمخشري، ١٩٤/٢-١٩٥.

وحملُ ذلك مِن سعدٍ على مراعاة الأدب -مع كون سؤاله بموجَب الشرط- يرُدّه ردُّه عليه السلام قبل النزول، وتعليلُه بقوله: «ليس هذا لي» لاستحالة أن يَعِدَ عليه السلام بما لا يقدر على إنجازه، وإعطاؤُه[١] عليه السلام بعد النزول، وترتيبُه[٢] على قوله: «وقد صار لي» ضرورةَ أنّ مناط صَيْرُورته له عليه السلام قولُه تعالى: ﴿ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، والفَرْضُ أنّه المانع مِن إعطاء المسئول.

وممّا هو نصٌّ في الباب قوله عزّ وعلا:[٣] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: إذا كان أمر الغنائم لله تعالى ورسوله، فاتَّقُوه تعالى، واجتنِبوا ما كنتم فيه مِن المشاجرة فيها والاختلاف الموجِب لسَخَطه تعالى؛ أو فاتَّقُوه في كلّ ما تأتون وما تذَرون، فيدخل فيه ما هم فيه دخولًا أوّليًا. ولو كان السؤال طلبًا للمشروط لَما كان فيه محذور يجب اتّقاؤه.

وإظهار الاسم الجليل لتربية المَهابة وتعليل الحكم.

﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ جُعِل ما بينهم مِن الحال لملابستها التامّة لبَيْنِهم صاحبةً له، كما جُعلت الأمور المضمَرة في الصدور "ذاتَ الصدور"،[٤] أي: أَصلِحوا ما بينكم مِن الأحوال بالمواساة والمساعدة فيما رزَقَكم الله تعالى وتفضَّلَ به عليكم.

وعن عُبادة بن الصامت: «نزلتْ فينا، مَعشَر أصحاب بدر، / حين اختلفنا في النَّفَل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله تعالى مِن أيدينا، فجعله لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[٥] فقسَمه بين المسلمين على السواء»،[٦] وكان في ذلك تقوى الله وطاعةُ رسوله وإصلاحُ ذات البَيْن. [٣٨٥و]

وعن عطاء: «كان الإصلاح بينهم أنْ دعاهم وقال: "اقسِموا غنائمكم بالعدل"، فقالوا: "قد أكلنا وأنفقنا"، فقال: "لِيرُدَّ بعضُكم على بعض"».[٧]

---

١ وفي هامش م: أي: يردّه إعطاؤه... إلخ. «منه».

٢ أي: ترتيب إعطاءه عليه السلام.

٣ س: وجلّ.

٤ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران، ١١٩/٣].

٥ م - صلّى الله عليه وسلّم.

٦ هو باختلاف يسير في مسند أحمد، ٤١٠/٣٧-٤١١ (٢٢٧٤٧)؛ وجامع البيان للطبري، ١١/١٤-١٥.

٧ الكشّاف للزمخشري، ١٩٥/٢.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بتسليم أمره ونهيه. وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البَيْن بين الأمر بالتقوى والأمرِ بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام، وليندرجَ الأمر به[١] بعينه تحت الأمر بالطاعة.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متعلِّق بالأوامر الثلاثة، والجوابُ محذوف ثقةً بدلالة المذكور عليه، أو هو[٢] الجواب، على الخلاف المشهور. وأيًّا ما كان، فالمقصود تحقيقُ المعلَّق بناءً على تحقّق المعلَّق به. وفيه تنشيط للمخاطَبين وحثٌّ لهم على المسارعة إلى الامتثال. والمراد بالإيمان كماله، أي: إن كنتم كاملي الإيمانِ؛ فإنّ كمال الإيمان يدور على هذه الخِصال الثلاث: طاعةِ الأوامر واتّقاءِ المعاصي وإصلاحِ ذات البَيْن بالعدل والإحسان.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان مَن أريدَ بـ"المؤمنين"[٣] بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لِما ذُكر مِن الخِصال الثلاث. وفيه مزيدُ ترغيب لهم في الامتثال بالأوامر المذكورة. أي: إنّما الكاملون في الإيمان المخلِصون فيه ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فزِعت لمجرّد ذكره مِن غير أن يذكَر هناك ما يوجِب الفزَعَ مِن صفاته وأفعاله استعظامًا لشأنه الجليل وتهيّبًا منه. وقيل: هو الرَّجل يَهُمّ بمعصية، فيقال له: "اتّقِ الله"، فيَنزع عنها خوفًا مِن عقابه.[٤]

وقُرئ: "وَجَلَتْ"[٥] بفتح الجيم، وهي لغة. وقُرئ: "فَرِقَتْ"،[٦] أي: خافت.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أيّ آيةٍ كانت، ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: يقينًا وطُمأنينة نفسٍ؛ فإنّ تظاهر الأدلّة وتعاضُدَ الحُجج والبراهين موجِبٌ لزيادة الاطمئنان

---

١ أي: الأمر بالإصلاح.
٢ أي: المذكور.
٣ في الآية السابقة.
٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩/٣.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب وإبراهيم النخعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٢.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٢.

وقوّة اليقين. وقيل: إنّ نفس الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، وإنّما زيادتُه باعتبار زيادة المؤمَن به، / فإنّه كلّما نزلت آية صدّق المؤمنُ بها، فزاد إيمانه [٣٨٥ظ] عددًا، وأمّا نفس الإيمان، فهو بحاله. وقيل: باعتبار أنّ الأعمال تُجعَل مِن الإيمان، فيزيد بزيادتها.

والأصوَب أنّ نفس التصديق يقبل القوّةَ. وهي التي عُبّر عنها بـ"الزيادة" للفرق النيّر بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشَفات ويقينِ آحاد الأمّة. وعليه مَبنى ما قال عليّ رضي الله تعالى عنه: «لو كُشف الغِطاء ما ازددتُ يقينًا».[1] وكذا بَيْن ما قام عليه دليل واحد وما قامت عليه أدلّة كثيرة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[2] مالكِهم ومدبّرِ أمورهم خاصّةً ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوِّضون أمورهم، لا إلى أحدٍ سِواه. والجملة معطوفة على الصلة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ مرفوع على أنّه نعتٌ للموصول الأوّل أو بدلٌ منه أو بيانٌ له، أو منصوبٌ على القَطع المُنبِئ عن المدح. ذُكر أوّلًا مِن أعمالهم الحسنة أعمالُ القلوب مِن الخشية والإخلاص والتوكّل، ثمّ عُقّب بأعمال الجوارح مِن الصلاة والصدقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى مَن ذُكرت صفاتهم الحميدة مِن حيث إنّهم متّصفون بها. وفيه دلالة على أنّهم متميّزون بذلك عمّن عداهم أكملَ تميّزٍ، منتظِمون بسببه في سِلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ رُتبتهم وبُعدِ منزلتهم في الشرف.

﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنّهم حقّقوا إيمانهم بأن ضمّوا إليه ما فُصّل مِن أفاضل الأعمال القلبيّة والقالبيّة. و﴿حَقًّا﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: أولئك

---

[1] هو منسوب إلى عليّ رضي الله عنه في الذريعة للراغب الأصفهاني، ص ١٤٩؛ ونظم الدُّرر للبقاعي، ١٣٦/٢. وذكره القشيري في لطائف الإشارات، ٥٨/١، مِن كلام عامر بن عبد القيس، والغزّالي في إحياء علوم الدين، ١٧١/١، مِن كلام الربيع بن خُثَيم.

[2] وفي هامش م: وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة ما لا يخفى مِن المزيّة. «منه».

هم المؤمنون إيمانًا حقًّا، أو مصدر مؤكِّد للجملة، أي: حقَّ ذلك حقًّا، كقولك: "هو عبدُ الله حقًّا".

﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ مِن الكرامة والزُّلفى. وقيل: درجات عالية في الجنّة. وهو إمّا جملة مبتدَأة مبنيّة على سؤالٍ نشأ مِن تَعداد مناقبهم، كأنّه قيل: ما لهم بمقابلة هذه / الخِصال؟ فقيل: لهم كَيْتَ وكَيْتَ، أو خبرٌ ثانٍ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. [٣٨٦و]

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إمّا متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ مؤكِّدة لِما أفادها التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٌ عنده تعالى، أو بما تعلَّق به الخبر -أعني: ﴿لَهُمْ﴾- مِن الاستقرار. وفي إضافة الظرف إلى "الربّ" المضاف إلى ضميرهم مزيدُ تشريف ولطفٍ لهم، وإيذانٌ بأنّ ما وُعد لهم متيقَّنُ الثبوت والحصولِ مأمونُ الفَواتِ.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لِما فرَط منهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا ينقضي أمَدُه ولا ينتهي عدده. وهو ما أُعدَّ لهم مِن نعيم الجنّة.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ "الكاف" في محلّ الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، تقديره: هذه الحال كحال إخراجك، يعني: أنّ حالهم في كراهتهم لِما رأيتَ مع كونه حقًّا كحالهم في كراهتهم لخروجك للحرب وهو حقٌّ؛ أو في محلّ النصب على أنّه صفة لمصدر مقدَّر في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾،[١] أي: الأنفال ثبتتْ لله والرسولِ مع كراهتهم ثباتًا مثلَ ثباتِ إخراج ربّك إيّاك مِن بيتك في المدينة أو مِن المدينة إخراجًا ملتبِسًا بالحقّ.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ أي: والحال أنّ فريقًا منهم كارهون للخروج، إمّا لنفرة الطبع عن القتال أو لعدم الاستعداد.

---

١ الأنفال، ١/٨.

وذلك أنّ عِيرَ قريشٍ أقبلتْ مِن الشام، وفيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون راكبًا، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام،[١] فأخبر جبريلُ رسول الله صلّى الله عليهما وسلّم، فأخبَرَ المسلمين، فأعجَبَهم تلقّي العِيرِ لكثرة الخير وقلّة القوم، فلمّا خرجوا بلغ أهلَ مكّةَ خبرُ خروجهم، فنادى أبو جهل فوق الكعبة: «يا أهلَ مكّةَ، النجاءَ النجاءَ على كلّ صَعب وذَلُول![٢] عِيرَكم أموالَكم![٣] إن أصابها / محمّدٌ لم تُفلِحوا بعدها أبدًا»، وقد رأت أختُ العبّاس بن عبد المطّلِب[٤] رؤيا، فقالت لأخيها: «إنّي رأيتُ عَجَبًا، رأيتُ كأنّ ملَكًا نزل مِن السماء، فأخذ صخرةً مِن الجبل، ثمّ حلّق بها، فلم يبقَ بيتٌ مِن بيوت مكّةَ إلّا أصابه حَجَر مِن تلك الصخرة»، فحدّث بها العبّاسُ، فقال أبو جهل: «ما يرضى رِجالهم أن يتنبّئوا حتّى تتنبّأَ نساؤُهم»، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكّةَ، وهم النفير، فقيل له: «إنّ العِير أخذت طريقَ الساحل ونجتْ، فارجِعْ بالناس إلى مكّةَ»، فقال: «لا واللهِ، لا يكون ذلك أبدًا حتّى ننحَرَ الجَزور ونشربَ الخمور ونُقيمَ القَيْناتِ والمعازفَ ببدرٍ، فيتسامع جميعُ العرب بمَخرَجنا، وأنّ محمّدًا لم يُصب العِيرَ، وأنّا قد أعضَضْناه»،[٥] فمضى بهم إلى بدر -وبدرٌ ماءٌ كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يومًا في السنة- فنزل جبريلُ فقال: «يا محمّدُ، إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين، إمّا العِيرَ، وإمّا قريشًا»، فاستشار النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أصحابه، فقال: «ما تقولون؟ إنّ القوم قد خرجوا مِن مكّةَ على كلّ صَعب وذَلُول، فالعِيرُ أحبُّ إليكم أم النفيرُ؟»، فقالوا: «بل العِير أحبُّ إلينا مِن لقاء العدوّ»، فتغيّر وجهُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ ردَّد عليهم فقال: «إنّ العِير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل»، فقالوا: «يا رسولَ الله، عليك بالعِيرِ، ودع العدوَّ»، فقام عندما غضِب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم

[٣٨٦ظ]

---

١ عمرو بن هشام هو أبو جهل، ولم يكن في العِير، وإنّما كان في النفير كما سيأتي.

٢ ركِبوا كلَّ صَعب وذَلولٍ في أمرهم: إذا بذَلُوا فيه الطاقةَ. أساس البلاغة للزمخشري، «ذلل».

٣ "أموالَكم" بدلُ "عيرَكم".

٤ هي عاتكة بنت عبد المطّلب كما في معالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٢٩.

٥ وفي هامش م: أي: جعلناه عاضًا يدَه ندمًا وتحسّرًا. «منه».

[٣٨٧و] / أبو بكر وعمرُ رضي الله تعالى عنهما، فأحسَنَا،[١] ثـمّ قام سعد بن عُبادةَ[٢] فقال: «انظُرْ أمرك فامضِ، فواللهِ لو سِرتَ إلى عَدَنِ أَبْيَنَ[٣] ما تخلَّفَ عنك رجل مِن الأنصار»، ثـمّ قال المِقداد بن عمرو:[٤] «يا رسولَ الله، امضِ لِما أمرك الله تعالى، فإنّا معك حيثما أحببْتَ، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيلَ لموسى عليه السلام: "اذهبْ أنت وربُّك فقاتِلَا إنّا ههنا قاعدون"،[٥] ولكن: اذهَبْ أنت وربُّك فقاتِلَا إنّا معكما[٦] مقاتلون ما دامت عينٌ منّا تطرفُ»، فضحِك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثـمّ قال: «أَشيروا عليّ أيّها الناس»، وهو يريد الأنصار؛ لأنّهم قالوا له حين بايعوه على العَقَبة: «إنّا بُرَآءُ مِن ذِمامك حتّى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلتَ إلينا، فأنت في ذِمامنا، نمنعك ممّا نمنع منه أبناءنا ونساءَنا»، فكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٧] يتخوّف ألّا يكونَ الأنصارُ لا ترى عليهم نُصرتَه إلّا على عدوّ دَهَمَه بالمدينة، فقام سعد بن مُعاذ فقال: «لَكأنّك تريدنا يا رسولَ الله؟»، قال: «أجَل»، قال: «قد آمنّا بك وصدّقْناك، وشهِدنا أنّ ما جئتَ به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقَنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسولَ الله لِما أردتَ، فوالذي بعثك بالحقّ، لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخُضتَه، لخُضناه معك،

---

١ أي: أحسَنَا الكلامَ في اتّباع مراد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

٢ هو سعد بن عُبادة بن دُليم بن حارثة الأنصاري، أبو ثابت (ت. ١٤هـ/٦٣٥م [؟]). سيّد الخزرج، وأحد الأمراء الأشراف في الجاهليّة والإسلام. كان نقيبًا، شهد العقبة، وبدرًا في قول بعضهم. وكان سيّدًا جوّادًا. وهو صاحب راية الأنصار في المَشاهد كلِّها. وكان وجيهًا في الأنصار، ذا رياسة وسِيادة، يعترف قومه له بها. وكان في الجاهليّة يكتب بالعربيّة، وكانت الكتابة في العرب قليلًا. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٦١٣/٣-٦١٧؛ **والاستيعاب** للنّمري، ٥٩٤/٢-٥٩٩.

٣ العَدَن: موضع باليمن. ويقال له أيضًا: عَدَنُ أَبْيَنَ، نُسب إلى أَبْيَنَ -رجل مِن حِمْير- لأنّه عَدَنَ به، أي: أقام. **لسان العرب** لابن منظور، «عدن».

٤ هو المِقداد بن عمرو بن ثَعْلبة بن مالك البَهراوي، أبو مَعبَد (ت. ٣٣هـ/٦٥٣م). أحد السابقين إلى الإسلام في مكّة ومِن الفضلاء النُّجباء الكِبار الخِيار مِن الصحابة. شهد المَشاهد كلَّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وكان حالفَ الأسود بن عبد يغوث الزهري في الجاهليّة، فتبنّاه، فكان يقال له: المِقداد بن الأسود، فلمّا نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب، ٥/٣٣]، قيل: المِقداد بن عمرو. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ١٦١/٣-١٦٣؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٢٤٢/٥-٢٤٣.

٥ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة، ٢٤/٥].

٦ س: معكم.

٧ س: عليه السلام.

ما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكرَهُ أن تلقى بنا عدوّنا، إنّا لَصُبُرٌ عند الحرب صُدُقٌ عند اللقاء، ولعلّ الله يُريك منّا ما يُقرّ به عينَك، فسِرْ بنا على بركة الله»، ففرح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبسَطه قولُ سعد، / ثمّ قال: «سِيروا على بركة الله، وأَبشِروا، فإنّ الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين، واللهِ لَكأنّي الآنَ أنظرُ إلى مصارع القوم». [1] [٣٨٧ظ]

ورُوي أنّه قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين فرَغ مِن بدر: «عليك بالعِيرِ، ليس دونها شيءٌ»، فناداه العبّاس [2] وهو في وَثاقِه: «لا يصلُح»، فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لِم؟» قال: «لأنّ الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك». [3]

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو تلقّي النفير لإيثارهم عليه تلقّيَ العِير. والجملة استئناف، أو حال ثانية، أي: أخرجك في حال مجادلتهم إيّاك. ويجوز أن يكون حالًا مِن الضمير في ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ منصوب بـ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: بعد تبيّن الحقّ لهم بإعلامك أنّهم يُنصَرون أينما تَواجهوا، ويقولون: ما كان خروجُنا إلّا للعِير، وهلّا قلتَ لنا لنستعدَّ ونتأهّبَ. وكان ذلك لكراهتهم القتالَ.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ "الكاف" في محلّ النصب على الحاليّة مِن الضمير في ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾، أي: مُشبهين بالذين يُساقون بالعُنف والصَّغار إلى القتل.

---

[1] **الكشّاف** للزمخشري، ١٩٧/٢-١٩٨. وأخرج الطبري بعضه عن ابن عبّاس وبعضَه عن عُروة بن الزبير وبعضَه عن السدّي بتقديم وتأخير وزيادة ونقص. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٤١/١١-٤٨. والقصّة بتفصيلها في **سيرة ابن هشام** تحت عنوان "غزوة بدر الكبرى"، إلّا أنّه لم يذكر عمرو بنَ هشام مِن أصحاب العِير.

[2] هو العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم القرشي، أبو الفضل (ت. ٣٢هـ/٦٥٣م). عمُّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وجَدُّ الخلفاء العبّاسيّين. كان مِن أكابر قريش في الجاهليّة والإسلام. وكان محسِنًا لقومه، سديدَ الرأي، واسعَ العقل، مولعًا بإعتاق العبيد، كارهًا للرّقّ. اختُلف في إسلامه، فقيل: إنّه لم يسلم حتّى وقعة بدر، وقيل: أسلم قبل الهجرة وكتَم إسلامَه، وأقام بمكّة يكتب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخبار المشركين، ثمّ هاجر إلى المدينة. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤/٥-٣٣؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٥٧٧/٥-٥٧٨.

[3] انظر: **مسند أحمد**، ٤٦٦/٣ (٢٠٢٢)؛ و**سنن الترمذي**، ٢٦٩/٥ (٣٠٨٠).

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ حال مِن ضمير ﴿يُسَاقُونَ﴾، أي: والحالُ أنّهم ينظرون إلى أسباب الموت ويشاهدونها عِيانًا. وما كانت هذه المرتبة مِن الخوف والجزَع إلّا لقلّة عددهم وعدم تأهّبهم وكونِهم رَجّالةً. رُوي أنّه لم يكن فيهم إلّا فارسانِ.[1]

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان جميل صُنع الله عزّ وجلّ بالمؤمنين مع ما بهم مِن قلّة الحزم ودَناءة الهمّة وقصورِ الرأي والخوفِ والجزَع. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَرٍ خُوطبَ به المؤمنون بطريق التلوين والالتفات، و﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿يَعِدُكُمْ﴾، أي: اذكروا وقتَ وعدِ الله إيّاكم إحدى الطائفتين.

[٣٨٨و] وتذكير الوقت -مع أنّ المقصود تذكيرُ ما فيه مِن الحوادث- لِما مرّ / مرارًا مِن المبالغة في إيجاب ذكرها، لِما أنّ إيجاب ذكر الوقت إيجابٌ لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانيّ، ولأنّ الوقت مشتمل على ما وقع فيه مِن الحوادث بتفاصيلها، فإذا استُحضر كان ما وقع فيه حاضرًا مفصَّلًا، كأنّه مشاهَد عِيانًا.

وقُرئ: "يَعِدْكُمْ"[2] بسكون الدال تخفيفًا. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾، مبيّنٌ لكيفيّة الوعد، أي: يَعِدكم أنّ إحدى الطائفتين كائنةٌ لكم مختصّةٌ بكم مسخَّرةٌ لكم، تتسلّطون عليها تسلّطَ المُلّاكِ، وتتصرّفون فيهم كيف شئتم.

﴿وَتَوَدُّونَ﴾ عطفٌ على ﴿يَعِدُكُمْ﴾، داخلٌ تحت الأمر بالذِّكر، أي: تُحبّون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ مِن الطائفتين، لا ذاتَ الشَّوكة، وهي النفير، رئيسُهم أبو جهل، وهم ألفُ مقاتلٍ. وغيرُ ذاتِ الشَّوكة هي العِير، إذ لم يكن فيها

---

[1] **التفسير البسيط** للواحدي، ١٠/٣٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢/١٩٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي زيد وسلمة بن محارب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٢.

إلّا أربعون فارسًا، ورأسُهم أبو سفيان. والتعبير عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب ودادتهم لملاقاتهم وموجِبِ كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفير. والشَّوكة: الحِدّة، مستعارةٌ مِن واحدة "الشَّوك"، وشَوْكُ القَنَا شَبَاها.[١]

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ عطفٌ على ﴿تَوَدُّونَ﴾، منتظِمٌ معه في سِلك التذكير ليظهرَ لهم عظيم لطف الله بهم مع دناءة هِممهم وقصور آرائهم، أي: اذكروا وقتَ وعدِه تعالى إيّاكم إحدى الطائفتين وودادتِكم لأدناهما وإرادتِه تعالى لأعلاهما؛ وذلك قوله تعالى: ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُثبتَه ويُعليَه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بآياته المنزلة في هذا الشأن، أو بأوامره للملائكة بالإمداد، وبما قضَى مِن أسرهم وقتلهم وطرحهم في قَليب بدر. وقُرئ: "بِكَلِمَتِهِ".[٢]

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: آخِرَهم، ويستأصِلَهم بالمرّة. والمعنى: أنتم تريدون سَفْسافَ الأمور،[٣] واللهُ عزّ وعلَا يريد معالِيَها وما يرجع إلى عُلوّ كلمة الحقّ وسُموّ رُتبة الدين. وشتّانَ بين المرادَين!

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ جملة مستأنَفة سِيقت لبيان الحكمة الداعية إلى اختيار ذات الشَّوكة / ونصرِهم عليها مع إرادتهم لغيرها. [٣٨٨ظ] و"اللام" متعلِّقة بفعلٍ مقدَّر مؤخَّر عنها، أي: لهذه الغاية الجليلة فعَلَ ما فعل، لا لشيء آخرَ. وليس فيه تكرار؛ إذ الأوّل لبيان تفاوتِ ما بين الإرادتين، وهذا لبيان الحكمة الداعية إلى ما ذُكر. ومعنى إحقاقِ الحقّ إظهارُ حقّيّته، لا جعلُه حقًّا بعد أن لم يكن كذلك، وكذا حال إبطال الباطل.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: المشركون ذلك، أي: إحقاقَ الحقّ وإبطالَ الباطل.

---

[١] شَبَاة كلّ شيء: حدُّ طرفِه. والجمع: الشَّبَا والشَّبَوات. **الصحاح** للجوهري، «شبا».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن سلمة بن محارب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٢.

[٣] السَّفْساف: الرديء مِن كلّ شيء والأمرُ الحقير. وفي الحديث: «إنّ الله يُحبّ معاليَ الأمور، ويكرَهُ سَفْسافَها». **الصحاح** للجوهري، «سفف».

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ⁽٩⁾﴾

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمْ﴾،[١] معمولٌ لعامله، فالمراد تذكير استمدادهم منه سبحانه والتجائهم إليه تعالى حين ضاقت عليهم الحِيَل وعيّتْ بهم العِلل وإمدادِه تعالى حينئذ.

وقيل:[٢] متعلِّق بقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ على الظرفيّة. وما قيل[٣] مِن أنّ قوله تعالى ﴿لِيُحِقَّ﴾ مستقبل؛ لأنّه منصوب بـ"أنْ"، فلا يمكن عملُه في ﴿إِذْ﴾؛ لأنّه ظرف لِما مضى، ليس بشيء؛ لأنّ كونه مستقبَلًا إنّما هو بالنسبة إلى زمان ما هو غاية له مِن الفعل المقدَّر، لا بالنسبة إلى زمان الاستغاثة حتّى لا يعملَ فيه؛ بل هما في وقت واحد، وإنّما عُبّر عن زمانها بـ﴿إِذْ﴾ نظرًا إلى زمان النزول، وصيغةُ الاستقبال في ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة.

وقيل: متعلِّق بمضمَر مستأنَف، أي: اذكروا وقتَ استغاثتِكم. وذلك أنّهم لمّا علموا أنّه لا بدَّ مِن القتال، جعلوا يدعون الله تعالى قائلين: أيْ ربُّ، انصُرنا على عدوّك، يا غِياثَ المستغيثين، أَغِثْنا.[٤]

وعن عمرَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نظر إلى المشركين وهم ألفٌ، وإلى أصحابه وهم ثلاثُمائة وبِضعة عشرَ، فاستقبل القبلةَ ومدَّ يديه يدعو: «اللّهمّ أنجِزْ لي ما وعدتَني، اللّهمّ إن تهلِكْ هذه العصابة، / لا تُعبَدْ في الأرض»، فما زال كذلك حتّى سقط رِداؤُه، فأخذه أبو بكر، فألقاه على مَنكِبِه، والتزمه مِن ورائه وقال: «يا نبيَّ الله، كفاك مناشدتُك ربَّك، فإنّه سيُنجِز لك ما وعدك».[٥] [٣٨٩و]

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾، داخلٌ معه في حكم التذكير، لِما عرفتَ أنّه ماضٍ وصيغةُ الاستقبال لاستحضار الصورة. ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ أي:

---

١ الأنفال، ٨/٧.

٢ قاله الطبري في جامع البيان، ١١/٥٠.

٣ قاله ابن عادل في اللباب، ٩/٤٥٩.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٠.

٥ انظر: صحيح مسلم، ٣/١٣٨٣-١٣٨٤ (١٧٦٣)؛ وسنن الترمذي، ٥/٢٦٩-٢٧٠ (٣٠٨١). والألفاظ مِن اللباب لابن عادل، ٩/٤٦٠.

بأنّي، فحُذف الجارّ، وسُلّط عليه الفعل، فنصب محلّه. وقُرئ بكسر الهمزة[١] على إرادة "القول"، أو على إجراء ﴿ٱسْتَجَابَ﴾ مُجرى "قال"؛ لأنّ الاستجابة مِن مقولة القول.

﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي: جاعلين غيرَهم مِن الملائكة رديفًا لأنفسهم، فالمراد بهم رؤساؤهم المستتبعون لغيرهم. وقد اكتُفي ههنا بهذا البيان الإجماليّ، وبُيّن في سورة آل عمرانَ مقدارُ عدّهم.[٢] وقيل: معناه: مُتبِعين أنفسَهم ملائكةً آخَرين، أو مُتبِعين المؤمنينَ، أو بعضهم بعضًا، مِن "أردفتُه" إذا جئتَ بعده؛ أو مُتبِعين بعضَهم بعضَ المؤمنين أو أنفسَهم المؤمنين، مِن "أردفتُه إيّاه فردِفَه".

وقُرئ: "مُرْدَفِينَ"[٣] بفتح الدال، أي: متبَعِين أو متبِعين،[٤] بمعنى: أنّهم كانوا مقدّمةَ الجيش[٥] أو ساقَتَهم.[٦] وقُرئ: "مُرُدِّفِينَ" بكسر الراء وضمّها وتشديدِ الدال،[٧] وأصلُهما "مرتَدِفين" بمعنى "مترادِفين"، فأُدغمت التاء في الدال، فالتقى الساكنان، فحُرّكت الراء بالكسر على الأصل، أو بالضمّ على الإتباع.[٨] وقُرئ: "بِآلَافٍ"[٩] ليوافقَ ما في سورة آل عمران. ووجهُ التوفيق بينه وبين المشهور أنّ المراد بـ"الألْف" الذين كانوا على المقدّمة أو الساقةُ أو وجوهُهم وأعيانهم أو مَن قاتل منهم.

واختُلف في مقاتلتهم، وقد رُوي أخبارٌ تدلّ على وقوعها.[١٠]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٢.

٢ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران، ٣/١٢٤-١٢٥].

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٥.

٤ م ط س – أو متبِعين ["صح" في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٥ وفي هامش م: على أنّه مِن "أردفه" بمعنى "جاء بعده". «منه».

٦ وفي هامش م: على أنّه بمعنى "أردفه إيّاه"، أي: جعله رديفًا له. «منه».

٧ ذكر الخليل بن أحمد مِن رجل مِن أهل مكّة أنّه يقرأه: "مُردِّفِينَ"، واختلفت الرواية عن الخليل في هذا الحرف، فقال بعضهم: "مُرُدِّفِينَ"، وقال آخر: "مُرِدِّفِينَ". انظر: المحتسب لابن جنّي، ١/٢٧٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٢.

٨ أي: على إتباع الميم.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٢.

١٠ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠١.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان أنّ الأسباب الظاهرة بمَعزِل مِن التأثير، وإنّما التأثير مختصّ به عزّ وجلّ ليثِقَ به المؤمنون ولا يقنَطوا مِن النصر عند فُقدان / أسبابه. والجعل متعدٍّ إلى مفعول واحد، هو الضمير العائد إلى مصدرِ فعل مقدَّر يقتضيه المقام اقتضاءً ظاهرًا مُغنيًا عن التصريح به، كأنّه قيل: فأمدَّكم بهم، وما جعل إمدادَكم بهم. [٣٨٩ظ]

﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾[1] وهو استثناء مفرَّغ مِن أعمّ العِلل، أي: وما جعل إمدادَكم بإنزال الملائكة عِيانًا لشيء مِن الأشياء إلّا للبُشرى لكم بأنّكم تُنصَرون، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ﴾ أي: بالإمداد ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وتسكنَ إليه نفوسُكم، كما كانت السكينة لبني إسرائيلَ كذلك. فكِلاهما مفعول له لـ"الجَعل". وقد نُصب الأوّل لاجتماع شرائطه، وبقي الثاني على حاله لفُقدانها، وقيل: للإشارة إلى أصالته في العلّيّة وأهمّيّته في نفسه، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل، ٨/١٦].

وفي قَصر الإمداد عليهما إشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال، وإنّما كان إمدادُهم بتقوية قلوب المباشرين وتكثيرِ سوادهم ونحوه، كما هو رأي بعض السلف.[2]

وقيل: الجعل متعدٍّ إلى اثنين، ثانيهما ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ على أنّه استثناء مِن أعمّ المفاعيل، أي: وما جعله الله شيئًا مِن الأشياء إلّا بِشارةً لكم؛ فـ"اللام" في ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ متعلِّقة بمحذوف مؤخَّر، تقديره: ولِتطمئنَّ به قلوبُكم فعَلَ ذلك، لا لشيء آخرَ.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ أي: حقيقة النصر على الإطلاق ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلّا كائن مِن عنده عزّ وجلّ، مِن غير أن يكون فيه شركة مِن جهة الأسباب والعُدَد، وإنّما هي مظاهرُ له بطريق جريان السنّة الإلهيّة.

---

[1] م س + لكم.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠١.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالَب في حكمه، ولا ينازَع في قضيّته، / ﴿حَكِيمٌ﴾ [٣٩٠و] يفعل كلَّ ما يفعل حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة. والجملة تعليل لِما قبلها، متضمِّنٌ للإشعار بأنّ النصر الواقع على الوجه المذكور مِن مقتضَيات الحِكم البالغة.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١﴾

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ أي: يجعله غاشيًا لكم ومحيطًا بكم. وهو بدلٌ ثانٍ مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمْ﴾[1] لإظهار نعمة أخرى، وصيغة الاستقبال فيه وفيما عُطف عليه لحكاية الحال الماضية كما في ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾؛ أو منصوبٌ بإضمار "اذكُروا". وقيل: هو متعلِّق بالنصر، أو بما في ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مِن معنى الفعل، أو بالجعل، وليس بواضح. وقُرئ: "يُغْشِيكُمْ"[2] مِن "الإغشاء" بمعنى "التغشية"، والفاعل في الوجهين هو الباري تعالى. وقُرئ: "يَغْشَاكُمْ"[3] على إسناد الفعل إلى "النُّعاس".

وقوله تعالى: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ على القراءتين الأُولَيَين منصوبٌ على العلّيّة بفعل مترتِّب على الفعل المذكور، أي: يُغشّيكم النُّعاسَ، فتنعَسون أمنًا كائنًا مِن الله تعالى، لا كَلالًا وإعياءً؛ أو على أنّه مصدر لفعل آخرَ كذلك، أي: فتأمنون أمنًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣٧/٣] على أحد الوجهين. وقيل: منصوب بنفس الفعل المذكور. و"الأَمَنة" بمعنى "الأمان". وعلى القراءة الأخيرة منصوب على العلّيّة بـ"يَغْشَاكم" باعتبار المعنى، فإنّه في حكم "تَنعَسون"، أو على أنّه مصدر لفعل مترتِّب عليه كما مرّ. وقُرئ: "أَمْنَةً"[4] كـ"رَحْمة".

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تقديم الجارّ والمجرور على المفعول به لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر؛ فإنّ ما حقُّه التقدّمُ

---

[1] الأنفال، ٧/٨.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٦/٢.

[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٧٦/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٣.

إذا أُخّر، تبقَى النفسُ مترقِّبةً له، فعند وروده يتمكّن عندها فضلَ تمكّنٍ. وتقديم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لِما أنّ بيان كون التنزيل عليهم أهمُّ مِن بيان كونه مِن السماء. [٣٩٠ظ] / وقُرئ بالتخفيف مِن "الإنزال".[١]

﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: مِن الحَدَث الأصغر والأكبر، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الكلام في تقديم الجارّ والمجرور كما مرّ آنفًا. والمراد بـ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وسوسته وتخويفُه إيّاهم مِن العطش.

رُوي أنّهم نزلوا في كَثيبٍ أَعْفرَ تسُوخُ فيه الأقدام[٢] على غير ماءٍ، وناموا، فاحتلم أكثرهم، وقد غلب المشركون على الماء، فتمثَّلَ لهم الشيطان، فوسوس إليهم وقال: «أنتم يا أصحابَ محمّد تزعُمون أنّكم على الحقّ، وإنّكم تُصَلّون على غير وضوء وعلى الجنابة، وقد عطِشتم، ولو كنتم على الحقّ، ما غلبكم هؤلاء على الماء، وما ينتظرون بكم إلّا أن يَجهَدكم العطش، فإذا قطَعَ أعناقَكم مشَوا إليكم، فقتلوا مَن أَحبّوا، وساقوا بقيّتَكم إلى مكّةَ»، فحزِنوا حُزنًا شديدًا وأشفَقوا، فأنزل الله عزّ وجلّ المطر، فمُطروا ليلًا حتّى جرى الوادي، فاغتسلوا وتوضّئُوا، وسَقَوا الرِّكاب، وتلبَّدَ الرمل الذي كان بينهم وبين العدوّ حتّى ثبتت عليه الأقدام، وزالت وسوسة الشيطان، وطابت النفوس وقويَت القلوب.[٣]

وذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يُقوّيها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعدُ بمشاهدة طلائعه،[٤] ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ ولا تسُوخَ في الرمل. فالضمير لـ"الماء" كالأوّل، ويجوز أن يكون لـ"الرَّبْط"، فإنّ القلب إذا قوي وتمكّنَ فيه الصبر والجرأة، لا تكاد تزِلّ القدمُ في معارك الحروب.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

---

[١] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/٢٠٣.

[٢] قوله: "كثيبٍ أعفَرَ"، أي: رملٍ أبيضَ تَعلُوه حُمرة. و"تسُوخ"، أي: تدخل فيه الأقدام وتغيب. فتوح الغيب للطيبي، ٧/٤٢.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٣. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في جامع البيان للطبري، ١١/٦٣-٦٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٣٤.

[٤] أي: طلائع لطف الله تعالى.

وقوله تعالى: / ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ منصوب بمضمَر مستأنَف، [٣٩١و] خُوطبَ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق التجريد حسبما ينطِق به "الكاف" لِما أنّ المأمور به ممّا لا يستطيعه غيره عليه السلام، فإنّ الوَحي المذكور قبل ظهوره بالوحي المَتلوّ على لسانه عليه السلام ليس مِن النعم التي يقف عليها عامّة الأمّة كسائر النعم السابقة التي أُمروا بذِكر وقتها بطريق الشكر.

وقيل: منصوب بقوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾،[1] فلا بدَّ حينئذ مِن عود الضمير المجرور في ﴿بِهِ﴾ إلى "الرَّبط على القلوب" ليكون المعنى: ويثبِّتَ أقدامَكم بتقوية قلوبكم وقتَ إيحائه إلى الملائكة وأمرِه بتثبيتهم إيّاكم، وهو وقت القتال. ولا يخفى أنّ تقييد التثبيت المذكور بوقت مُبهَم عندهم ليس فيه مزيدُ فائدة.

وأمّا انتصابه على أنّه بدلٌ ثالثٌ مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾[2] كما قيل،[3] فيأباه تخصيص الخطاب به عليه السلام، مع ما عرفتَ مِن أنّ المأمور به ليس مِن الوظائف العامّة للكلّ كسائر أخَواته.

وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن التنويه والتشريف ما لا يخفى. والمعنى: اذكُر وقتَ إيحائِه تعالى إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالإمداد والتوفيق في أمر التثبيت، فهو مفعول ﴿يُوحِي﴾. وقُرئ بالكسر[4] على إرادة "القول" أو إجراءِ "الوحي" مُجراه. وما يُشعِر به دخولُ كلمة ﴿مَعَ﴾ مِن متبوعيّة الملائكة عليهم السلام[5] إنّما هي مِن حيث إنّهم[6] المباشرون للتثبيت صورةً، فلهم الأصالةُ مِن تلك الحيثيّة، كما في أمثال قوله عزّ قائلًا:[7] ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة، ٢/١٥٣؛ الأنفال، ٨/٤٦].

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ إمداده تعالى إيّاهم مِن أقوى موجِبات التثبيت.

---

١ في الآية السابقة.
٢ الأنفال، ٨/٧.
٣ أجازه الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٠٤.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٣.
٥ س – عليهم السلام.
٦ س + عليهم السلام.
٧ س: تعالى.

واختلفوا في كيفيّة التثبيت، فقالت جماعة: إنّما أُمروا بتثبيتهم بالبِشارة وتكثير السواد ونحوهما ممّا تقوى به قلوبُهم وتصِحّ عزائمهم ونِيّاتُهم ويتأكّد جِدّهم في القتال. وهو الأنسب بمعنى التثبيت وحقيقتِه التي هي عبارة عن الحمل على الثبات في موطن الحراب والجِدّ في مقاساة شدائد القتال.

وقد رُوي أنّه كان المَلك يتشبّه بالرجل الذي يعرفونه بوجهه، فيأتي ويقول: «إنّي سمعتُ المشركين يقولون: "واللهِ لَئن حملوا علينا لننْكشفنّ"»، ويمشي بين الصفّين فيقول: «أبشِروا، فإنّ الله ناصِركم».[١]

[٣٩١ظ] / وقال آخَرون: أُمروا بمحاربة أعدائهم، وجعلوا قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، وقولَه تعالى: ﴿فَٱضْرِبُواْ﴾... إلى آخره تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُواْ﴾ مبيّنًا لكيفيّة التثبيت.

وقد رُوي عن أبي داود المازني[٢] رضي الله عنه -وكان ممّن شهد بدرًا- أنّه قال: «اتّبعتُ رجلًا مِن المشركين يومَ بدر لأضرِبَه، فوقعتْ رأسُه بين يديَّ قبل أن يصل إليه سيفي».[٣] وعن سَهل بن حُنيف[٤] رضي الله عنه أنّه قال: «لقد رأيتُنا يومَ بدر، وإنّ أحدنا يُشير بسيفه إلى المشرك، فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف».[٥] وأنت خبير بأنّ قتلهم للكَفَرة -مع عدم ملاءمته لمعنى تثبيت المؤمنين- ممّا لا يتوقّف على الإمداد بإلقاء الرُّعب، فلا يتّجِه ترتيبُ الأمر به عليه[٦] بـ"الفاء".

---

١ انظر: التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٥٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٤.

٢ هو أبو داود الأنصاري ثمّ المازني. اختُلف في اسمه، فقيل: عمرو، وقيل: عُمير بن عامر بن مالك بن خنساء بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجّار. شهد بدرًا وأحدًا. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٢/٩٢-٩٣؛ والإصابة لابن حجر، ١٢/٢٠٣.

٣ جامع البيان للطبري، ٦/٢٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٣٥.

٤ هو سَهل بن حُنيف بن واهب الأنصاري الأوسي، أبو سعد (ت. ٣٨هـ/٦٥٨-٦٥٩). شهد بدرًا والمَشاهد كلّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وثبت يومَ أُحد، وكان بايعه يومئذ على الموت، فثبت معه حين انكشف الناس عنه. روى عنه ابناه: أبو أمامة وعبد الملك، وعبيد بن السباق وأبو وائل وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وغيرهم. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/٤٧١-٤٧٣؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٢/٥٧٢-٥٧٣.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٣٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٣٥.

٦ أي: ترتيب الأمر بقتلهم للكَفَرة على إلقاء الرُّعب.

وقد اعتذر الأوّلون بأنّ قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي﴾... إلى آخره ليس بنصٍّ فيما ذُكر؛ بل يجوز أن يكون ذلك إثر قوله تعالى ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تلقينًا للملائكة ما يثبّتونهم به، كأنّه قيل: قولوا لهم قولي: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟﴾... إلى آخره، فالضاربون هم المؤمنون.

وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك خطاب منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين، فمبناه توهّمُ وروده قبل القتال. وأنّى ذلك، والسورةُ الكريمة إنّما نزلت بعد تمام الوقعة.

وقوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: أعالِيَها التي هي المَذابح أو الهامَات.[1]

﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قيل: البَنان: أطراف الأصابع مِن اليدين والرِّجلين. وقيل: هي الأصابع مِن اليدين والرِّجلين. وقال أبو الهَيثم:[2] «البَنان: المَفاصل، وكلُّ مَفصِل بَنانة».[3] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وابن جُريج والضحّاك: «يعني: الأطراف»،[4] أي: اضربوهم في جميع الأعضاء مِن أعاليها إلى أسافلها. / وقيل: المراد بـ"البَنان" الأداني، وبـ"فوق الأعناق" الأعالي، والمعنى: فاضرِبوا الصناديد والسفلةَ. وتكرير الأمر بالضرب لمَزيد التشديد والاعتناء بأمره. و﴿مِنْهُمْ﴾ متعلّق به أو بمحذوف وقع حالًا ممّا بعده. [٣٩٢و]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما أصابهم مِن العقاب. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجته في الشدّة والفظاعة. والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

[1] الهامَة: وسطُ الرأس. تهذيب اللغة للأزهري، ٢٤٧/٦ «باب الهاء والميم».

[2] هو خالد بن يزيد بن أبي سُويد بن أسد، أبو الهيثم. لغويّ. كان إمامًا في اللغة وعلم العربية والصلابة في السنّة. مات سنة ستٍّ وسبعين ومائتين، وهو ابن تسعين سنةً. انظر: معجم الأدباء للحَموي، ١٢٣٧/٣-١٢٣٨.

[3] لسان العرب لابن منظور، «بنن»؛ اللباب لابن عادل، ٤٧٢/٩.

[4] جامع البيان للطبري، ٧٢/١١-٧٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٤/٤.

أو لكلّ أحد ممّن يَليق بالخطاب. ومحلّه الرفع على الابتداء، خبرُه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ذلك العقاب الفظيع واقعٌ عليهم بسبب مُشاقّتهم ومغالبتهم مَن لا سبيلَ إلى مغالبته أصلًا.

واشتقاق "المُشاقّة" مِن "الشِّق" لِما أنّ كلًّا مِن المُشاقَّين في شِقٍّ خلافِ شِقّ الآخَر، كما أنّ اشتقاق "المُعاداة" و"المخاصمة" مِن "العُدوة" و"الخُصم"، أي: الجانب؛ لأنّ كِلا المتعادِيَين والمتخاصِمَين في عُدوةٍ وخُصمٍ غيرِ عُدوة الآخر وخُصمِه.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الإظهار في موضع الإضمار لتربية المَهابة وإظهار كمال شناعة ما اجترءُوا عليه والإشعارِ بعلّة الحكم. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إمّا نفس الجزاء، قد حُذف منه العائد إلى ﴿مَنْ﴾ عند مَن يلتزمه، أي: شديد العقاب له، أو تعليلٌ للجزاء المحذوف، أي: يعاقِبُه الله؛ فإنّ الله شديد العقاب.

وأيًّا ما كان، فالشرطيّة تكملة لِما قبلها وتقريرٌ لمضمونه وتحقيقٌ للسببيّة بالطريق البرهانيّ، كأنّه قيل: ذلك العقاب الشديد / بسبب مُشاقّتهم لله تعالى ورسولِه، وكلُّ مَن يشاقق الله ورسولَه كائنًا مَن كان، فله بسبب ذلك عقاب شديد، فإذن لهم بسبب مُشاقّتهم لهما عقاب شديد. [٣٩٢ظ]

وأمّا أنّه وعيد لهم بما أُعدَّ لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا كما قيل،[١] فيردّه ما بعده مِن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ فإنّه -مع كونه هو المسوقَ للوعيد بما ذُكر- ناطقٌ بكون المراد بالعقاب المذكور ما أصابهم عاجلًا، سواء جُعل ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةً إلى نفس العقاب، أو إلى ما يفيده الشرطيّة مِن ثبوت العقاب لهم.

أمّا على الأوّل، فلأنّ الأظهر أنّ محلّه النصب بمضمَر يستدعيه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوهُ﴾، و"الواو" في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾... إلخ بمعنى "مع"، فالمعنى: باشِروا ذلكم العقابَ الذي أصابكم، فذُوقوه عاجلًا مع أنّ لكم عذابَ النار آجلًا، فوضع الظاهر موضعَ الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به.

---

[١] قاله ابن عادل في اللباب، ٤٧٤/٩.

وأمّا على الثاني، فلأنّ الأقرب أنّ محلّه الرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، وقولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾... إلخ معطوف عليه، والمعنى: حكمُ الله ذلكم، أي: ثبوتُ هذا العقاب لكم عاجلًا، وثبوتُ عذاب النار آجلًا، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ اعتراضٌ وُسّط بين المعطوفَين للتهديد.

والضمير على الأوّل لنفس المُشار إليه، وعلى الثاني لِما في ضِمنه. وقد ذُكر في إعراب الآية الكريمة وجوهٌ أُخَرُ. ومدار الكلّ على أنّ المراد بـ﴿ٱلْعِقَابِ﴾ ما أصابهم عاجلًا. والله تعالى أعلم.

وقُرئ بكسر ﴿أَنَّ﴾[1] على الاستئناف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمؤمنين بحكم كلّيّ جارٍ فيما سيقع مِن الوقائع والحروب، جِيء به في تضاعيف القصّة إظهارًا للاعتناء بشأنه ومبالغةً في حثّهم / على المحافظة عليه. [٣٩٣و]

﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ الزَّحْف: الدَّبيب، يقال: "زحَف الصبيُّ زحفًا"، إذا دَبَّ على اسْتِهِ قليلًا قليلًا، سُمّي به الجيش الدَّهْم[2] المتوجِّهُ إلى العدوّ؛ لأنّه لكثرته وتكاثفِه يُرى كأنّه يزحَف، وذلك لأنّ الكلّ يُرى كجسم واحد متّصلٍ، فيُحَسّ حركته بالقياس إليه في غاية البُطء، وإن كانت في نفس الأمر على غاية السرعة. قال قائلهم:

وأَرعَنَ مثلِ الطَّوْدِ تحسَبُ أنّهم ... وُقوفٌ لِحَاجٍ[3] والرِّكابُ تُهَمْلِجُ[4]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٣.

[2] الدَّهْم: العدد الكثير. والجمع: الدهوم. الصحاح للجوهري، «دهم».

[3] وفي هامش م: أي: حاجة.

[4] البيت للنابغة الجَعدي في ديوانه، ص ٤٩؛ ولسان العرب لابن منظور، «صرد». وفيهما: "بأرعن" بدل "وأرعن". | الرَّعْن: أنفُ الجبل المتقدِّم، ثمّ يُشبَّه به الجيش فيقال: "جيشٌ أَرعَنُ"، وهو المضطرب لكثرته. وحَاجٌ: جمعُ الحاجة. والهَمْلجة فارسيّ معرَّب، وهي مشيٌ سهلٌ. يقول: حاربنا العدوّ بجيشٍ مثلِ الجبل العظيم تحسب أنّهم وقوفٌ لِحاجٍ، والحالُ أنّ الرِّكاب تُهَملِج وتُسرع. فتوح الغيب للطيبي، ٥٩٢/١١-٥٩٣.

ونصبُه إمّا على أنّه حال مِن مفعول ﴿لَقِيتُمْ﴾، أي: زاحفين نحوَكم، وإمّا على أنّه مصدر مؤكِّد لفعل مضمَر هو الحال منه، أي: يزحَفون زَحفًا.

وأمّا كونه حالًا مِن فاعله أو منه ومِن مفعوله معًا كما قيل،[١] فيأباه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾؛ إذ لا معنى لتقييد النهي عن الإدبار بتوجّههم السابقِ إلى العدوّ أو بكثرتهم؛ بل توجّهُ العدوّ إليهم وكثرتُهم هو الداعي إلى الإدبار عادةً والمُحوِجُ إلى النهي عنه. وحملُه[٢] على الإشعار بما سيكون منهم يومَ حُنينٍ، حيث تَوَلَّوا مُدبِرين وهم زحفٌ مِن الزحوف اثنا عشَرَ ألفًا، بعيدٌ.

والمعنى: إذ لقيتموهم للقتال وهم كثير جَمٌّ وأنتم قليل، فلا تُوَلُّوهم أدبارَكم فضلًا عن الفرار؛ بل قابِلوهم وقاتِلوهم مع قلّتكم فضلًا عن أن تُدانوهم في العدد أو تُساووهم.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ اللقاء ﴿دُبُرَهُۥ﴾ فضلًا عن الفرار. وقُرئ بسكون الباء.[٣] ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ إمّا بالتوجّه إلى قتال طائفة أخرى أهمَّ مِن هؤلاء، وإمّا بالفَرّ للكَرّ / بأن يخيِّل عدوَّه أنّه منهزِم لِيغُرَّه ويُخرجَه مِن بين أعوانه، ثمّ يعطِفَ عليه وحدَه أو مع مَن في الكَمين مِن أصحابه، وهو باب مِن خُدَع الحرب ومكايدِها. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: مُنحازًا إلى جماعة أخرى مِن المؤمنين لينضمَّ إليهم، ثمّ يقاتلَ معهم العدوَّ. [٣٩٣ظ]

عن ابن عمرَ رضي الله عنهما: «أنّ سريّةً فرُّوا، وأنا معهم، فلمّا رجعوا إلى المدينة استحيَوا، ودخلوا البيوت، فقلتُ: "يا رسولَ الله، نحن الفرّارون"، فقال صلّى الله عليه وسلّم: "بل أنتم العَكّارون،[٤] وأنا فئتُكم"».[٥] وانهزم رجلٌ

---

١ أجازه الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٠٦.
٢ أجازه الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٠٦.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٦.
٤ وفي هامش م: أي: الكرّارون، مِن "عكَرَ" إذا رجع. «منه».
٥ انظر: مسند أحمد، ١٠/١٣٥ (٥٨٩٥)؛ وسنن الترمذي، ٤/٢١٥ (١٧١٦). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٦.

مِن القادسيّة،[1] فأتى المدينةَ إلى عمرَ رضي الله عنه، فقال: «يا أميرَ المؤمنين، هلكتُ ففرَرتُ مِن الزَّحف»، فقال رضي الله عنه: «أنا فئتُك».[2]

ووزنُ "متحيّز" "متفَيْعل"، لا "متفعِّل"، وإلّا لكان "متحَوّزًا"؛ لأنّه مِن "حاز يحُوز". وانتصابهما إمّا على الحاليّة، وإلّا لغوٌ لا عمَلَ لها، وإمّا على الاستثناء مِن المُوَلّين، أي: ومَن يُوَلِّهم دُبُرَه إلّا رجلًا منهم متحرِّفًا أو متحيِّزًا.

﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيمٍ لا يقادَر قدره. و﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿غَضَبٍ﴾ مؤكِّدةٌ لِما أفاده التنوين مِن الفخامة والهول بالفخامة الإضافيّة، أي: بغضب كائنٍ منه تعالى. ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: بدلَ ما أراد بفراره أن يأوِيَ إليه مِن مأوى يُنجيه مِن القتل، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. في إيقاع "البَوْء" في موقع جواب الشرط الذي هو "التولية" مقرونًا بذكر "المَأوى" و"المَصير" مِن الجزالة ما لا مزيدَ عليه.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ الفرار مِن الزَّحْف مِن أكبر الكبائر».[3] وهذا إذا لم يكن العدوّ أكثرَ مِن الضِّعف، لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية.[4] وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ رجوع إلى بيان بقيّة أحكام الوقعة وأحوالِها وتقريرِ ما سبق منها. و"الفاء" جوابُ شرط مقدَّر يستدعيه ما مرّ مِن ذكر إمداده تعالى وأمرِه بالتثبيت وغير ذلك، / كأنّه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فلم تقتُلوهم [٣٩٤و]

---

[1] هو موضعٌ بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا. وبهذا الموضع كان يوم القادسيّة بين المسلمين والفُرس في أيّام عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه، في سنة ١٦ مِن الهجرة. انظر: معجم البلدان للحَمَوي، ٢٩١/٤-٢٩٣.

[2] انظر: مصنّف ابن أبي شيبة، ٥٥٥/٦ (٣٣٧٧٤). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٢٠٦/٢.

[3] انظر: جامع البيان للطبري، ٨١/١١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٠٦/٢.

[4] ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال، ٦٦/٨].

أنتم بقوّتكم وقدرتكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاءِ الرُّعب في قلوبهم.

ويجوز أن يكون التقدير: إذا علمتم ذلك، فلم تقتلوهم، أي: فاعلَموا أو فأُخبِرُكم أنكم لم تقتلوهم. وقيل: التقدير: إن افتخرتم بقتلهم، فلم تقتلوهم، على أحد التأويلَين، لِما رُوي أنّهم لمّا انصرفوا مِن المعركة غالبين غانمين، أقبلوا يتفاخرون يقولون: «قتلتُ وأسرتُ وفعلتُ وتركتُ»، فنزلت.[1]

وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين طلعت قريشٌ مِن العَقَنْقَل[2] قال: «هذه قريشٌ جاءت بخُيَلائِها وفخرِها يكذِّبون رسولك، اللّهمّ إنّي أسألك ما وعدتَني»، فأتاه جبريلُ عليهما السلام، فقال: «خُذْ قبضةً مِن ترابٍ فارمِهم بها»، فلمّا التقى الجَمْعانِ قال لعليّ رضي الله عنه: «أعطِني قبضةً مِن حَصْباء الوادي»، فرمى بها في وجوههم وقال: «شاهت الوجوهُ»، فلم يبقَ مشركٌ إلّا شُغِل بعينَيه، فانهزموا؛[3] وذلك قوله عزّ وجلّ بطريق تلوين الخطاب: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ تحقيقًا لكون الرَّمي الظاهر على يده عليه السلام حينئذٍ مِن أفعاله عزّ وجلّ.

وتجريد الفعل عن المفعول به لِما أنّ المقصود الأصلي بيانُ حال الرمي نفيًا وإثباتًا؛ إذ هو الذي ظهر منه ما ظهر، وهو المَنشأ لتغيّرِ المَرميّ به في نفسه وتكثّرِه إلى حيث أصاب عينَي كلّ واحد مِن أولئك الأمّة الجَمّة شيءٌ مِن ذلك، أي: وما فعلتَ أنت -يا محمّدُ- تلك الرَّمْية المستتبِعةَ لهذه الآثار العظيمة حقيقةً حين فعلتَها صورةً / -وإلّا لكان أثرُها مِن جنس آثار الأفاعيل البشريّة- [٣٩٤ظ]

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٨٣-٨٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٦-٢٠٧.

[2] العَقَنْقَل مِن الرِّمال والتِّلال: ما ارتكَمَ واتّسع، ومِن الأودية: ما عرُضَ واتّسع بين حافتَيه. والجمع: عقاقل وعقاقيل. كتاب العين للخليل بن أحمد، ١/١٦١ «باب العين والقاف واللام».

[3] انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٨٤-٨٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٧. اختُلِف هل هذه الرَّمية وقعت يومَ بدر أم لا؟ والحاصل أنّه قد ثبت عن غير واحد مِن الأئمّة أنّها كانت يوم بدر، وإن كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فعل ذلك يومَ حُنين أيضًا. انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/١٨-٢٠ (٥٠٠)؛ والكافي الشاف لابن حجر، ص ٦٨ (٦٤).

ولكنّ الله فعلها، أي: خلقها حيث باشرْتَها؛ لكنْ لا على نهج عادته تعالى في خلق أفعال العباد؛ بل على وجهٍ غيرِ معتاد، ولذلك أثّرت هذا التأثير الخارجَ عن طَوْق البشر ودائرةِ القُوى والقُدر؛ فمدارُ إثباتها لله تعالى ونفيِها عنه عليه السلام كونُ أثرها مِن أفعاله سبحانه، لا مِن أفعاله عليه السلام.

وقُرئ: "وَلٰكِنِ اللهُ"[1] بالتخفيفِ والرفع في المَحلَّين.[2]

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ﴾ أي: ليُعطيَهم مِن عنده تعالى ﴿بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: عطاءً جميلًا غيرَ مَشوب بمُقاساة الشدائد والمَكاره، إمّا متعلِّقةٌ بمحذوف متأخّر، فـ"الواو" اعتراضيّة، أي: وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة فعَلَ ما فعل، لا لشيء غيرِ ذلك ممّا لا يُجديهم نفعًا، وإمّا بـ﴿رَمَىٰ﴾، فـ"الواو" للعطف على علّة محذوفة، أي: ولكنّ الله رمَى ليمحَقَ الكافرين وليُبليَ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائهم واستغاثتهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بنيّاتهم وأحوالهم الداعية إلى الإجابة، تعليلٌ للحكم.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحَسَن. ومحلّه الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ -بالإضافة- معطوفٌ عليه، أي: المقصد إبلاء المؤمنين وتوهينُ كيد الكافرين وإبطالُ حِيلهم. وقيل: المشار إليه القتل أو الرميُ، والمبتدأ "الأمرُ"، أي: الأمر ذلكم، أي: القتل، فيكون قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ الآية مِن قبيل عطف البيان. وقُرئ: "مُوهِنٌ" بالتنوين مخفّفًا ومشدَّدًا ونصبِ ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.[3]

---

[1] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٩.

[2] وفي هامش م: ههنا وفي قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾. «منه».

[3] أي: "مُوهِنٌ كَيْدَ الكَافِرِينَ" مخفّفًا و"مُوَهِّنٌ كَيْدَ الكَافِرِينَ" مشدَّدًا. قرأ بالأولى ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم، وبالثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٦.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾

[٣٩٥و] / ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ خطاب لأهل مكّةَ على سبيل التهكّم بهم، وذلك أنّهم حين أرادوا الخروج تعلّقوا بأستار الكعبة وقالوا: «اللّهمّ انصرْ أعلى الجُندَين وأهدَى الفئتين وأكرمَ الحِزبين»،[١] أي: إن تستنصروا لِأعلى الجُندَين ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ حيث نُصِر أعلاهما، وقد زعمتم أنكم الأعلى، فالتهكّم في المَجيء؛ أو فقد جاءكم الهزيمة والقهر، فالتهكّم في نفس الفتح، حيث وُضع موضعَ ما يقابله.

﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عمّا كنتم عليه مِن الحِراب ومعاداةِ الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ﴿فَهُوَ﴾ أي: الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: مِن الحِراب الذي ذُقتم غائلته، لِما فيه مِن السلامة مِن القتل والأسر. ومَبنى اعتبار أصل الخيريّة في المفضَّل عليه هو التهكّم.

﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ أي: إلى حِرابه عليه السلام، ﴿نَعُدْ﴾ لِما شاهدتموه مِن الفتح.

﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾ بالتاء الفوقانيّة، وقُرئ بالياء التحتانيّة؛[٢] لأنّ تأنيث "الفِئة" غيرُ حقيقيّة وللفصل، أي: لن تَدفعَ أبدًا ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتُكم التي تجمعونهم وتستعينون بهم ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: مِن الإغناء أو مِن المضارّ. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ جملة حاليّة. وقد مرّ التحقيق. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولأنّ الله مُعين المؤمنين كان ذلك، أو والأمرُ أنّ الله مع المؤمنين، ويقرُب منه بحسب المعنى قراءةُ الكسر على الاستئناف.[٣]

وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهُوا عن التكاسل والرغبة عمّا يرغِب فيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم،

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٨. ونحوه في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب وإبراهيم النخعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٤.

[٣] أي: " وَإِنَّ اللهَ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٦.

فهو خير لكم مِن كلّ شيء لِما أنّه مناط لنَيل سعادة الدارَين، وإن تعودوا إليه نعُدْ عليكم بالإنكار وتهييج العدوّ، ولن تُغنيَ حينئذ كثرتُكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر، والأمرُ أنّ الله مع الكاملين في الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ٢٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ﴾ بطرح إحدى التاءين، وقُرئ بإدغامها.[1] ﴿عَنْهُ﴾ أي: لا تتولّوا / عن الرسول، فإنّ المراد هو الأمر بطاعته والنهيُ عن الإعراض عنه، وذكرُ طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أنّ طاعته تعالى في طاعة رسوله عليه السلام: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، ٨٠/٤]. وقيل: الضمير للجهاد، وقيل: للأمر الذي دلّ عليه الطاعة. [٣٩٥ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ جملة حاليّة واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولّي مطلقًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، ٢٢/٢]، لا لتقييد النهي عنه بحال السماع، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء، ٤٣/٤]، أي: لا تتولّوا عنه والحالُ أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سَماعَ فهمٍ وإذعانٍ.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢١﴾

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ تقرير للنهي السابق وتحذير عن مخالفته بالتنبيه على أنّها مؤدّية إلى انتظامهم في سِلك الكَفَرة بكون سماعهم كَلَا سماعٍ، أي: لا تكونوا بمخالفة الأمر والنهي ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ بمجرّد الادّعاء مِن غير فهم وإذعان، كالكَفَرة والمنافقين الذي يدّعون السماع ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ حال مِن ضمير ﴿قَالُواْ﴾، أي: قالوا ذلك والحالُ أنّهم لا يسمعون، حيث لا يصدِّقون ما سمعوه، ولا يفهمونه حقَّ فهمِه، فكأنّهم لا يسمعونه رأسًا.

---
[1] قرأ بها البَزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٣٢/٢.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢﴾

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ استئناف مَسوق لبيان كمال سُوء حال المشبَّه بهم مبالغةً في التحذير وتقريرًا للنهي إثرَ تقريرٍ، أي: إنّ شرّ ما يَدِبّ على الأرض أو شرَّ البهائم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه وقضائه ﴿ٱلصُّمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحقّ، ﴿ٱلۡبُكۡمُ﴾ الذين لا ينطِقون به.

وُصفوا بالصَّمَم والبَكَم؛ لأنّ ما خُلق له الأذن واللسان سماعُ الحقّ والنطقُ به، وحيث لم يوجد فيهم شيءٌ مِن ذلك، صاروا كأنّهم فاقدون للجارحتين رأسًا. وتقديم ﴿ٱلصُّمُّ﴾ على ﴿ٱلۡبُكۡمُ﴾ لِما أنّ صَمَمهم متقدِّم على بَكَمِهم، فإنّ السكوت عن النُّطق بالحقّ مِن فروع عدم سماعهم له، كما أنّ النُّطق به مِن فروع سماعه.

ثمّ وُصفوا بعدم التعقّل فقيل: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ تحقيقًا لكمال سُوء حالهم، / فإنّ الأصمّ الأبكَمَ إذا كان له عقل ربّما يفهم بعضَ الأمور، ويُفهمُه غيرُه بالإشارة، ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه، وأمّا إذا كان فاقدًا للعقل أيضًا، فهو الغاية في الشرّيّة وسوء الحال. وبذلك يظهر كونهم شرًّا مِن البهائم، حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها وبه يفضَّلون على كثير مِن خلق الله عزّ وجلّ، فصاروا أخسَّ مِن كلّ خَسيس. [٣٩٦و]

﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٣﴾

﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ شيئًا مِن جنس الخير الذي مِن جملته صَرفُ قُوَاهم إلى تحرّي الحقّ واتّباع الهدى، ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ سماعَ تفهّمٍ وتدبّرٍ، ولَوَقفوا على حقّيّة الرسول عليه السلام، وأطاعوه وآمنوا به، ولكنْ لم يعلم فيهم شيئًا مِن ذلك لخلوّهم عنه بالمرّة، فلم يُسمِعْهم كذلك لخلوّه عن الفائدة وخروجِه عن الحكمة. وإليه أشيرَ بقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ أي: لو أسمعهم سماعَ تفهّمٍ وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلّيّة، لَتولَّوا عمّا سمعوه مِن الحقّ، ولم ينتفعوا به قطُّ، أو ارتدُّوا بعد ما صدّقوه، وصاروا كأن لم يسمعوه أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ إمّا حال مِن ضمير ﴿لَتَوَلَّواْ﴾، أي: لَتولَّوا على أدبارهم والحالُ أنّهم مُعرِضون عمّا سمعوه بقلوبهم، وإمّا اعتراض تذييليّ، أي: وهم قومٌ عادتُهم الإعراضُ.

وقيل: كانوا يقولون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أَحْيِ قُصَيًّا، فإنّه كان شيخًا مبارَكًا، حتّى يشهدَ لك ونؤمنَ بك»،[1] فالمعنى: ولو أسمعهم كلام قُصَيّ... إلخ. وقيل: هم بنو عبد الدار بن قُصَيّ، لم يُسلِم منهم إلّا مصعب بن عُمير وسُوَيد بن حرملة، كانوا يقولون: «نحن صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ عمّا جاء به محمّد، لا نسمعه ولا نُجيبه»، قاتَلَهم الله تعالى، فقُتلوا جميعًا بأُحد، / وكانوا [٣٩٦ظ] أصحابَ اللواء.[2] وعن ابن جُريج: «أنّهم المنافقون».[3] وعن الحسن رحمه الله: «أنّهم أهل الكتاب».[4]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تكرير للنداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يرِدُ بعده مِن الأوامر، وتنبيهِهم على أنّ فيهم ما يوجِب ذلك. ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بحسن الطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ أي: الرسول، إذ هو المباشِر لدعوة الله تعالى، ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ مِن العلوم الدينيّة التي هي مناط الحياة الأبديّة، كما أنّ الجهل مدار الموت الحقيقيّ، أو هي ماء حياة القلب، كما أنّ الجهل موجِب موته. وقيل: لمجاهدة الكُفّار؛ لأنّهم لو رفضوها لَغلبوهم وقتلوهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة، ٢/١٧٩].

رُوي أنّه عليه السلام مرّ على أُبيّ بن كعب وهو يصلّي، فدعاه، فعجَّل في صلاته، ثمّ جاء، فقال عليه السلام: «ما منعك مِن إجابتي؟»، قال: «كنتُ

---

١ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٣٤٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٥.
٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٤١-٣٤٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٠٩-٢١٠.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢١٠.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢١٠.

في الصلاة»، قال: «ألم تُخبَر فيما أوحِيَ إليّ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾... إلخ [الأنفال، ٨/٢٤]».[1]

واختُلف فيه، فقيل: هذا مِن خصائص دعائه عليه السلام، وقيل: لأنّ إجابته عليه السلام لا تقطع الصلاةَ. وقيل: كان ذلك الدعاء لأمر مهمّ لا يحتمل التأخيرَ، وللمصلِّي أن يقطع الصلاة لمثله.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ تمثيل لغاية قُربه تعالى مِن العبد، كقوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق، ٥٠/١٦]، وتنبيهٌ على أنّه تعالى مطّلِع مِن مكنونات القلوب على ما عسى يغفُل عنه صاحبها، أو حثٌّ على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل إدراك المَنيّة، فإنّها حائلة بين المَرء وقلبِه، أو تصويرٌ وتخييلٌ / لتملّكِه على العبد قلْبَه بحيث يَفسَخ عزائمه، ويغيّر نِيّاتِه ومقاصدَه، ويحُول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته، ويُبدله بالأمن خوفًا وبالذِّكر نِسيانًا، وما أشبه ذلك مِن الأمور المعترضة المفوِّتة للفُرصة. [٣٩٧و]

وقُرئ: "بَيْنَ المَرِّ"[2] بتشديد الراء، على حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الراء وإجراءِ الوصل مُجرى الوقف.

﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ أي: الله عزّ وجلّ أو الشأن ﴿إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ لا إلى غيره، فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم، فسارِعوا إلى طاعته[3] تعالى وطاعة رسوله، وبالِغوا في الاستجابة لهما.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ أي: لا يختصّ إصابتها بمَن يباشِر الظلم منكم؛ بل يعُمّه وغيرَه كإقرار المنكَر بين أظهُرهم والمداهنةِ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر وافتراقِ الكلمة وظهورِ البِدَع والتكاسل

---

[1] انظر: مسند أحمد، ١٥/٢٠٠-٢٠١ (٩٣٤٥)؛ وسنن الترمذي، ٥/١٥٥-١٥٦ (٢٨٧٥). والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والزهري. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٧٦.

[3] س: طاعة الله.

في الجهاد، على أنّ قوله: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾... إلخ إمّا جواب الأمر على معنى: إن أصابتْكم لا تُصيبنَّ... إلخ، وفيه أنّ جواب الشرط متردِّد، فلا يَليق به النون المؤكِّدة،[1] لكنّه لمّا تضمَّنَ معنى النهي ساغَ فيه، كقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ [النمل، ١٨/٢٧]؛ وإمّا صفة لـ﴿فِتۡنَةً﴾، و﴿لَّا﴾ للنفي، وفيه شذوذ؛ لأنّ النون لا تدخل المَنفيَّ في غير القَسم، أو للنهي على إرادة "القول"، كقول مَن قال:

حتّى إذا جَنَّ الظَّلامُ واختلَطْ جاءُوا بمَذْقٍ هل رأيتَ الذِّئبَ قَطْ[2]

وإمّا جواب قَسم محذوف، كقراءة مَن قرأ: "لَتُصِيبَنَّ"،[3] وإن اختلف المعنى فيهما. وقد جُوّز أن يكون نهيًا عن التعرّض للظلم بعد الأمر باتّقاء الذنب، / فإنّ وبالَه يُصيب الظالمَ خاصّةً ويعود عليه. [٣٩٧ظ]

و﴿مِنۡ﴾ في ﴿مِنكُمۡ﴾ على الوجوه الأُوَل للتبعيض، وعلى الأخيرين للتبيين. وفائدته التنبيهُ على أنّ الظلم منكم أقبحُ منه مِن غيركم.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ ولذلك يُصيب بالعذاب مَن لم يباشِر سببَه.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ أي: وقتَ كونِكم قليلًا في العدد. وإيثار الجملة الاسميّة للإيذان باستمرار ما كانوا فيه مِن القلّة وما يتبعها مِن الضَّعف والخوف.

---

[1] وفي هامش م: والتحقيق أنّه لا يكون حينئذ جوابًا للأمر؛ بل لشرط مستأنَف، كما إذا قُدّر "إن لم تتّقوا"، وتكون الجملة صفةً لـ﴿فِتۡنَةً﴾، أي: واتّقوا فتنةً تعُمّ الكلّ عند عدم الاتّقاء. «منه».

[2] البيت للعَجّاج في ملحق ديوانه، ٣٠٤/٢. وهو بلا نسبة في **أسرار البلاغة** للجرجاني، ص ٣٣٦؛ و**الإيضاح** للقزويني، ص ١٣٢؛ و**حياة الحيوان الكبرى** للدميري، ٤٩٨/١. | قال الزمخشري في **الكشّاف**، ٢١٢/٢: «أي: بمَذْقٍ مَقُولٍ فيه هذا القول؛ لأنّه سَمارٌ فيه لون الورقة التي هي لون الذِّئب».

[3] ط س: ليصيبنّ. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر الكشط والتصحيح، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س. | وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي العالية رفيع بن مهران الرياحي والحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٤.

وقوله تعالى: ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ خبرٌ ثانٍ أو صفة لـ﴿قَلِيلٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أرض مكّةَ تحت أيدي قريش، والخطاب للمهاجرين، أو تحت أيدي فارسَ والروم، والخطاب للعرب كافّةً، فإنّهم كانوا أذِلّاءَ تحت أيدي الطائفتين.

وقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ خبر ثالث، أو صفة ثانية لـ﴿قَلِيلٌ﴾، وُصف بالجملة بعد ما وُصف بالمفرد، أو حالٌ مِن المستكنّ في ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾. والمراد بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾ على الأوّل -وهو الأظهر- إمّا كُفّار قريش أو كُفّار العرب لقُربهم منهم وشدّةِ عداوتهم لهم، وعلى الثاني فارسُ والروم، أي: واذكروا وقتَ قلّتكم وذِلّتكم وهَوانكم على الناس وخوفِكم مِن اختطافهم.

﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى المدينة، أو جعَلَ لكم مأوى تتحصّنون به مِن أعدائكم، ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ على الكُفّار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مِن الغنائم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعم الجليلةَ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أصل "الخَوْن" النقص، كما أنّ أصل "الوفاء" التمام، واستعمالُه في ضدّ الأمانة لتضمّنه إيّاه، أي: لا تخُونوهما بتعطيل الفرائض والسُّنن، أو بأن تُضمِروا خلافَ ما تُظهرون، أو بالغلول[1] في الغنائم.

[٣٩٨و] رُوي / أنّه عليه السلام حاصَر بني قُريظةَ إحدى وعشرين ليلةً، فسألوا الصُّلح -كما صالَح بني النضير- على أن يَسيروا إلى إخوانهم بأذرِعاتٍ وأريحاءَ مِن الشام، فأبى إلّا أن ينزلوا على حكم سعد بن مُعاذ رضي الله عنه، فأبَوا وقالوا: «أرسِلْ إلينا أبا لُبابةَ»،[2] وكان مناصِحًا لهم لِما أنّ ماله وعِياله

---

[1] ط س: في الغلول. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر الكشط والتصحيح، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[2] هو بشير -وقيل: رفاعة- بن عبد المُنذر، أبو لُبابةَ الأنصاري. نقيب، شهِد العقبةَ وبدرًا وسائر المشاهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وهو الذي أرسله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى بني قريظة لمّا حاصرهم. واختُلف في تاريخ وفاته، فقيل: مات في خلافة عليّ، وقيل: مات بعد مقتل عثمان، وقيل: عاش إلى بعد الخمسين. انظر: **أسد الغابة** لابن الأثير، ٣٩٩/١-٤٠٠، ٢٨٥/٢-٢٨٦؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٥٧٠/١٢-٥٧١.

كان في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا: «ما ترى؟ هل ننزل على حكم سعدٍ؟»، فأشار إلى حَلْقه: «إنّه الذَّبح». قال أبو لُبابةَ: «فما زالت قَدَماي حتّى علمتُ أنّي خُنتُ الله ورسولَه»، فنزلت، فشدّ نفسَه على سارية مِن سواري المسجد، فقال: «واللهِ، لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتّى أموتَ أو يتوبَ الله عليَّ»، فمكث سبعةَ أيّامٍ حتّى خرَّ مغشيًّا عليه، ثمّ تاب الله عليه، فقيل له: «قد تِيبَ عليك، فحُلَّ نفسَك»، قال: «لا، والله لا أحُلّها حتّى يكونَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم هو الذي يحُلّني»، فجاءه عليه السلام،[1] فحلَّه فقال: «إنّ مِن تمام توبتي أن أهجُرَ دار قومي التي أصبتُ فيها الذنب، وأن أنخلِع مِن مالي»، فقال عليه السلام: «يُجزِئُك الثُّلُثُ أن تتصدّق به».[2]

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ فيما بينكم. وهو مجزوم معطوفٌ على الأوّل، أو منصوب على الجواب بـ"الواو". ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنّكم تخُونون، أو أنتم علماءُ تميِّزون الحَسن مِن القبيح.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ لأنّها سببُ الوقوع في الإثم والعقاب، أو مِحنةٌ مِن الله عزّ وجلّ ليبلُوَكم في ذلك، فلا يحملَنّكم حُبُّهما على الخيانة كـ[أبي][3] لُبابةَ. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لِمن آثَرَ رِضاه تعالى عليهما وراعى حدودَه فيهما، فنِيطُوا هِممَكم بما يؤدّيكم إليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تكرير الخطاب والوصفِ بالإيمان لإظهار كمال العناية

---

[1] س: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

[2] أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢١٣-٢١٤. وانظر: سيرة ابن هشام، ٢/٢٣٦-٢٣٨.

[3] في الأصول الخطّيّة "كلُبابة". والظاهر ممّا سبق أنّه "أبو لبابة"، كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٦.

[٣٩٨ظ] / بما بعده، والإيذانِ بأنّه ممّا يقتضي الإيمان مراعاتَه والمحافظةَ عليه، كما في الخطابين السابقين.

﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في كلّ ما تأتون وما تذَرون، ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ﴾ بسبب ذلك ﴿فُرۡقَانٗا﴾ هدايةً في قلوبكم تفرِّقون بها بين الحقّ والباطل، أو نصرًا يفرِّق بين المُحقّ والمُبطِل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مَخرَجًا مِن الشُّبُهات، أو نجاةً عمّا تحذرون[١] في الدارين، أو ظهورًا يشهِّر أمرَكم وينشر صِيتَكم، مِن قولهم: "بِتُّ أفعلُ كذا حتّى سطَع الفرقانُ"، أي: الصُّبح.

﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي: يسترُها، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ذنوبَكم بالعفو والتجاوز عنها. وقيل: السيّئات: الصغائر، والذنوب: الكبائر. وقيل: المراد ما تقدّمَ وما تأخّرَ؛ لأنّها في أهل بدر، وقد غفرهما الله تعالى لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تعليل لِما قبله وتنبيه على أنّ ما وعده الله تعالى لهم على التقوى تفضّلٌ منه وإحسانٌ، لا أنّه ممّا يوجبه التقوى كما إذا وعد السيّدُ عبدَه إنعامًا على عمل.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَرٍ خُوطبَ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ﴾... إلخ،[٢] مسوقٌ لتذكير النعمة الخاصّة به عليه السلام بعد تذكير النعمة العامّة للكلّ، أي: واذكرْ وقتَ مَكرهم بك ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ بالوثاق -ويعضُده قراءة مَن قرأ: "لِيُقَيِّدُوكَ"-[٣] أو الإثخانِ بالجرح، مِن قولهم: "ضرَبَه حتّى أثبته، لا حِراك به ولا بَراح". وقُرئ: "لِيُثَبِّتُوكَ" بالتشديد، و"لِيُبَيِّتُوكَ" مِن "البَيَات".[٤]

---

[١] ط س: يحذرون.

[٢] الأنفال، ٨/٢٦.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢١٥.

[٤] هما قراءتان شاذّتان، الأولى مرويّة عن يحيى بن وثّاب، والثانية عن إبراهيم النخعي. **اللباب** لابن عادل، ٩/٥٠٢.

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ أي: بسُيوفهم، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي: مِن مكّةَ.

وذلك أنّهم لمّا سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتِهم له عليه السلام، فَرِقوا[١] واجتمعوا في دار النَّدوة[٢] يتشاورون في أمره عليه السلام، فدخل عليهم إبليسُ في صورة / شيخ وقال: «أنا مِن نَجْد، سمعتُ اجتماعكم، فأردتُ أن أحضُركم، ولن تَعدَموا منّي رأيًا ونُصحًا»، فقال أبو البَخْتري:[٣] «رأيي أن تحبِسوه في بيتٍ، وتسُدّوا منافذه غيرَ كُوّةٍ، تُلقُون إليه طعامه وشرابَه منها حتّى يموتَ»، فقال الشيخ: «بئسَ الرأي! يأتيكم مَن يقاتلكم مِن قومه، ويخلّصه مِن أيديكم»، فقال هشام بن عمرو:[٤] «رأيي أن تحمِلوه على جمل وتُخرجوه مِن أرضكم، فلا يضُرّكم ما صَنع»، فقال: «وبئسَ الرأي! يُفسِد قومًا غيرَكم ويقاتلكم بهم»، فقال أبو جهل: «أنا أرى أن تأخذوا مِن كلّ بَطن غُلامًا وتُعطُوه سيفًا، فيضربوه ضربةً واحدةً، فيتفرّقَ دمُه القبائلَ، فلا يقوى بنو هاشم على حربِ قريشٍ كلِّهم، فإذا طلبوا العَقْل عقَلْناه»، فقال: «صدَقَ هذا الفتى»، فتفرّقوا على رأيه، فأتى جبريلُ[٥] النبيَّ عليهما[٦] السلام، وأخبره بالخبر، وأمره بالهجرة، فبيَّت عليًّا رضي الله تعالى عنه على مَضجَعه، وخرج هو مع أبي بكر إلى الغار.[٧] [٣٩٩و]

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ أي: يردّ مكرَهم عليهم، أو يجازيهم عليه، أو يعاملهم معاملةَ الماكرين، وذلك بأنْ أخرجهم إلى بدرٍ، وقلَّل المسلمين في أعيُنهم

---

[١] وفي هامش م: أي: خافوا.

[٢] النَّدِيّ: مجلس القوم ومتحدَّثهم. وكذلك النَّدْوة والنادي والمنتدَى. ومنه سُمّيت دار النَّدوة بمكّةَ التي بناها قُصَيّ؛ لأنّهم كانوا يَندُون فيها، أي: يجتمعون للمشاورة. الصحاح للجوهري، «ندا».

[٣] في أكثر المصادر: أبو البَخْتري، بالخاء. وهو العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العُزّى، أبو البَخْتري. مِن زعماء قريش في الجاهليّة. كان ممّن نقض الصحيفة التي تعاقد فيها مشركو قريشٍ على مقاطعة المسلمين. ولم يُعرَف عنه إيذاء للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ بل كان في بَدء الدعوة يكُفّ الناسَ عنه. ولمّا كانت وقعة بدر، حضَرَها مع المشركين، ونهى النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم عن قتله، إلّا أنّه لمّا لم يقبل الاستسلام قتله المجذَّر بن ذِيَاد البَلَوي. انظر: سيرة ابن هشام، ٦٢٨/١-٦٣١؛ والأعلام للزركلي، ٢٤٧/٣.

[٤] هو هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حُبيب القُرشي العامري. كان مِن المؤلَّفة قلوبهم. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٣٧٨/٥-٣٧٩؛ والإصابة لابن حجر، ٢٣٤/١١.

[٥] س + عليه السلام.

[٦] س: عليه.

[٧] انظر: سيرة ابن هشام، ٤٨٠/١-٤٨٣؛ وجامع البيان للطبري، ١٣٤/١١-١٣٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧/٣.

حتّى حمَلوا عليهم، فلقُوا منهم ما لقُوا. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ لا يُعبَأ بمكرهم عند مَكره. وإسناد أمثال هذا إليه سبحانه ممّا يحسن للمشاكلة، ولا مساغَ له ابتداءً لِما فيه مِن إيهامِ ما لا يَليق به سبحانه.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ التي حقُّها أن تَخِرّ لها صُمُّ الجبال، ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ قاله اللعين النَّضر بنُ الحارث،[1] وإسنادُه إلى الكلّ لِما أنّه كان رئيسَهم وقاضيَهم الذي يقولون بقوله ويأخذون برأيه. وقيل: قاله الذين ائتَمَروا في أمره عليه السلام في دار النَّدوة.[2]

وهذا -كما ترى- غاية المكابرة ونهايةُ العناد؛ كيف لا، ولو استطاعوا شيئًا مِن ذلك، فما الذي كان يمنعهم / مِن المشيئة، وقد تُحُدّوا عشرَ سِنينَ، وقُرّعوا على العجز، وذاقوا مِن ذلك الأمرين، ثمّ قُورِعوا بالسيف، فلم يعارضوا بما سِواه مع أنَفَتِهم وفرطِ استنكافهم أن يُغلَبوا، لاسيّما في باب البيان. [٣٩٩ظ]

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما يسطّرونه مِن القِصص.

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا أيضًا مِن أباطيل ذلك اللعين. رُوي أنّه لمّا قال: «إنْ هذا إلّا أساطيرُ الأوّلين»، قال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «وَيلَك، إنّه كلام الله تعالى»، فقال ذلك.[3] والمعنى: أنّ القرآن إن كان حقًّا مُنزلًا مِن عندك، فأمطِرْ علينا الحجارةَ عقوبةً على إنكارنا، أو ائتِنا بعذاب أليم سِواه. والمراد منه التهكّم وإظهارُ اليقين والجزمِ التامّ على أنّه ليس كذلك، وحاشاه.

---

[1] جامع البيان للطبري، ١٤٢/١١.
[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧/٣.
[3] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧/٣.

وقُرئ: "الحَقُّ"[1] بالرفع على أنّ ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، لا فصلٌ. وفائدة التعريف فيه الدلالةُ على أنّ المعلَّق به كونُه حقًّا على الوجه الذي يدّعيه عليه السلام، وهو تنزيله؛ لا الحقُّ مطلقًا لتجويزهم أن يكون مطابِقًا للواقع غيرَ مُنزل كالأساطير.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ جواب لكلمتهم الشّنعاء، وبيان للموجِب لإمهالهم والتوقّف في إجابة دعائهم. و"اللام" لتأكيد النفي والدلالةِ على أنّ تعذيبهم عذابَ استئصالٍ والنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بين أظهُرهم خارجٌ عن عادته تعالى غيرُ مستقيمٍ في حكمه وقضائه.

والمراد باستغفارهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إمّا استغفارُ مَن بقي منهم مِن المؤمنين، أو قولُهم: «اللّهمّ اغفِرْ»، أو فرضُه، على معنى: لو استغفروا لم يعذَّبوا،[2] كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ[3] ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ[4] وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود، ١١/١١٧].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٤﴾

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بيان لاستحقاقهم العذابَ / بعد بيانِ أنّ المانع [٤٠٠و] ليس مِن قِبلهم، أي: وما لهم ممّا يمنع تعذيبَهم متى زال ذلك؟ وكيف لا يعذَّبون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: وحالُهم ذلك؟ ومِن صدّهم عنه إلجاءُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الهجرة وإحصارُهم عامَ الحُديبية.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ حال مِن ضمير ﴿يَصُدُّونَ﴾، مفيدة لكمال قُبح ما صنعوا مِن الصدّ، فإنّ مباشرتهم للصدّ عنه -مع عدم استحقاقهم لولاية أمره- في غاية القُبح.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٥.

[2] وفي هامش م: فالمراد بالعذاب هو عذاب الاستئصال. «منه».

[3] م س: مهلك.

[4] م س - بظلم.

وهو ردٌّ لِما كانوا يقولون: «نحن وُلاة البيت والحَرم، فنصُدّ مَن نشاء، ونُدخِل مَن نشاء».[١]

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مِن الشرك، الذين لا يعبدون فيه غيرَه تعالى، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه لا ولايةَ لهم عليه. وفيه إشعار بأنّ منهم مَن يعلم ذلك، ولكنّه يعانِد. وقيل: أريدَ بـ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ كلُّهم، كما يراد بالقلّة العدمُ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥﴾

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: دعاؤهم، أو ما يُسَمّونه صلاةً، أو ما[٢] يضعون موضعَها، ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ أي: صفيرًا. "فُعَال" مِن "مَكَا يمكُو" إذا صفَر. وقُرئ بالقصر،[٣] كـ"البُكى". ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي: تصفيقًا. تَفْعِلَة مِن "الصَّدَى" أو مِن "الصدّ" على إبدال أحد حرفَي التضعيف بالياء. وقُرئ: "صَلَاتَهُمْ"[٤] بالنصب على أنّه الخبرُ لـ﴿كَانَ﴾.

ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذابَ أو عدمِ ولايتهم للمسجد، فإنّها لا تَليق بمَن هذه صلاتُه. رُوي أنّهم كانوا يطُوفون عُراةً، الرجال والنساء مشبِّكين بين أصابعهم، يَصفِرون فيها ويصفِّقون.[٥] وقيل: كانوا يفعلون ذلك / إذا أراد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يصلّيَ، يُخلطون عليه، ويُرُون أنّهم يُصَلّون أيضًا.[٦] [٤٠٠ظ]

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: القتل والأسرَ يومَ بدرٍ، وقيل: عذابَ الآخرة. و"اللام" يحتمل أن يكون للعهد، والمعهود ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.[٧] ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ اعتقادًا وعملًا.

---

[١] **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢١٧.

[٢] س: إمّا [مكان "أو ما"].

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٥. وهي غير القراءة المشهورة عن أبي عمرو.

[٤] قرأ بها عاصم في بعض الروايات. انظر: **السبعة** لابن مجاهد، ص ٣٠٥-٣٠٦. ولم يذكرها عنه ابن الجزري في **النشر**. وذكرها الكرماني في **شواذّ القراءات**، ص ٢٠٥، عن أبي البرهسم وأبي الحياة وعاصم.

[٥] **جامع البيان** للطبري، ١١/١٦٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢١٨.

[٦] **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢١٨. وما في معناه في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤/٣٥٣-٣٥٤.

[٧] الأنفال، ٣٢/٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في المُطعِمين يومَ بدرٍ، وكانوا اثنَي عشرَ رجلًا مِن قريش، يُطعم كلٌّ واحد منهم كلَّ يوم عشرَ جُزُرٍ؛[1] أو في أبي سفيان، استأجر ليوم أُحد ألفَين سِوى مَن استجاش مِن العرب، وأنفق فيهم أربعين أُوقيّةً؛[2] أو في أصحاب العِير، فإنّه لمّا أصيبَ قريش يومَ بدر قيل لهم: «أَعِينوا بهذا المال على حرب محمّد، لعلّنا نُدرك ثأرَنا منه»، ففعلوا.[3] والمراد بـ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه واتّباعُ رسوله.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ بتمامها. ولعلّ الأوّلَ إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال، وهو إنفاق يوم بدر، والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل، وهو إنفاق يوم أُحد. ويحتمل أن يُراد بهما واحدٌ، على أنّ مساق الأوّل لبيان الغرض مِن الإنفاق، ومساقَ الثاني لبيان عاقبته، وأنّه لم يقع بعدُ.

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندمًا وغمًّا لفَواتها مِن غير حصول المقصود. جُعل ذاتها حَسْرةً -وهي عاقبة إنفاقها- مبالغةً. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخِرَ الأمر، وإن كان الحرب بينهم سِجالًا[4] قبل ذلك. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: تمّوا على الكفر وأصرّوا عليه ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي: يُساقون، لا إلى غيرها.

---

[1] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤/٣٥٥؛ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٤٠. | الجَزُور مِن الإبل يقع على الذَّكر والأنثى. والجمع: الجُزُر. **الصحاح** للجوهري، «جزر».

[2] **جامع البيان** للطبري، ١١/١٧٠-١٧١؛ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٤٠-٢٤١. | الأُوقيّة: أربعون درهمًا. والجمع: الأواقي، بالتشديد والتخفيف. **المغرب** للمُطَرِّزي، ص ٤٩٢ «الواو مع القاف».

[3] **جامع البيان** للطبري، ١١/١٧٣؛ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٤١.

[4] الحرب بيننا سِجال، معناه: أنّا نُدال عليه مرّةً، ويُدال علينا أخرى. وأصله أنّ المُستَقِيَين بسَجْلَين مِن البِئر، يكون لكلّ واحد منهما سَجْل، أي دَلْو مَلْآنُ ماءً. **تهذيب اللغة** للأزهري، ١٠/٣١٠ «باب الجيم والسين».

[٤٠١و] ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: الكافرَ مِن المؤمن، أو الفسادَ / مِن الصلاح، و"اللام" متعلِّقة بـ﴿يُحۡشَرُونَ﴾ أو بـ﴿يُغۡلَبُونَ﴾؛ أو ما أنفقه المشركون في عداوته عليه السلام ممّا أنفقه المسلمون في نُصرته، و"اللام" متعلِّقة بقوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةً﴾. وقُرئ: "لِيُمَيِّزَ"[١] بالتشديد للمبالغة.

﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي: يضُمَّ بعضَه إلى بعض حتّى يتراكبوا لفرط ازدحامهم فيجمعه، أو يضمَّ إلى الكافر ما أنفقه ليزيدَ به عذابَه كمالِ الكانزين.[٢] ﴿فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ﴾ كلَّه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾، إذ هو عبارة عن الفريق، أو إلى المنفِقين. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتهم في الخبث. ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الكاملون في الخُسران؛ لأنّهم خسِروا أنفسهم وأموالَهم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ هم أبو سفيانَ وأصحابه، أي: قلْ لأجْلِهم: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عمّا هم فيه مِن مُعاداة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالدخول في الإسلام، ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ مِن الذنوب. وقُرئ: "إِنْ تَنْتَهُوا[٣] يُغْفَرْ لَكُمْ"،[٤] و"يَغْفِرْ لَكُمْ"[٥] على البناء للفاعل، وهو الله تعالى.

﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى قتالهم، ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الذين تحزّبوا على الأنبياء عليهم السلام بالتدمير، كما جرى على أهل بدر، فليَتوقَّعوا مثلَ ذلك.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩﴾

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٤.

٢ وفي هامش م: أي: للذهب والفضّة غير المنفِقين لهما في سبيل الله. «منه».

٣ س - إن تنتهوا.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٥.

٥ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/٢٢٠.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿قُل﴾. وقد عُمّم الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمّنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن الوعيد. ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: لا يوجَدَ منهم شرك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ ويضمحِلَّ الأديان الباطلة، إمّا بإهلاك أهلها جميعًا، أو برجوعهم عنها خشيةَ القتل.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامِهم. / وقُرئ بتاء الخطاب،[1] أي: بما تعملون مِن الجهاد المُخرِج لهم إلى الإسلام. وتعليقه بـ"انتهائهم" للدلالة على أنّهم يُثابون بالسببيّة، كما يُثاب المباشِرون بالمباشرة. [٤٠١ظ]

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ ولم ينتهوا عن ذلك ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصرُكم، فثِقوا به ولا تُبالوا بمُعاداتهم. ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لا يُضيع مَن تولّاه. ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لا يُغلَب مَن نصره.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ عن الكلبي: «أنّها نزلت ببدر».[2] وقال الواقدي: «كان الخُمُس في غزوة بني قَيْنُقاع بعد بدر بشهر وثلاثةِ أيّامٍ للنصف مِن شوّال على رأس عشرين شهرًا مِن الهجرة».[3] و﴿مَا﴾ موصولة، وعائدها محذوف، أي: الذي أصبتموه مِن الكُفّار عَنْوةً.[4] وأصل الغنيمة: إصابة الغَنَم مِن العدوّ، ثمّ اتُّسع وأُطلقَ على كلّ ما أُصيبَ منهم كائنًا ما كان.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٥.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٢٢؛ اللباب لابن عادل، ٩/٥٢٤.

[3] انظر: المغازي للواقدي، ١/١٧٦-١٨٠. نقله المصنّف مِن الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٢٢.

[4] العَنْوة: القهر. أخذها عَنْوةً، أي: قهرًا بالسيف. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢/٢٥٢ «باب العين والنون».

وقوله تعالى: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ بيان للموصول، محلُّه النصب على أنّه حال مِن عائد الموصول، قُصد به الاعتناء بشأن الغنيمة، وألّا يشذّ عنها شيء، أي: ما غنِمتموه كائنًا ممّا يقع عليه اسمُ الشيء حتّى الخَيط والمِخيَط؛ خَلَا أنّ سلَبَ المقتول للقاتل إذا نفّله الإمامُ، وأنّ الأسارَى يخيَّر فيها الإمامُ، وكذا الأراضي المغنومة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مبتدأ، خبرُه محذوف، أي: فحقٌّ أو واجبٌ أنّ له تعالى خُمُسه. وهذه الجملة خبرٌ لـ﴿أَنَّمَا﴾... إلخ. وقُرئ بالكسر.[1] والأُولى آكَدُ وأقوى في الإيجاب لِما فيه مِن تكرّر الإسناد، كأنّه قيل: فلا بدَّ مِن ثبات الخُمس، ولا سبيلَ إلى الإخلال به. وقُرئ: "فَلِلهِ خُمُسُهُ".[2] وقُرئ: "خُمْسَهُ"[3] بسكون الميم.

والجمهور على أنّ ذِكر الله تعالى للتعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة، ٦٢/٩]، وأنّ / المراد قِسمة الخُمس على المعطوفِين عليه بقوله تعالى: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. وإعادة "اللام" في ﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ دون غيرهم مِن الأصناف الثلاثة لدفع توهّمِ اشتراكهم في سَهْم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمَزيد اتّصالهم به عليه السلام. [٤٠٢و]

وهم بنو هاشم وبنو المطّلب، دون بني عبد شمس وبني نَوفل، لِما رُوي عن عثمانَ وجُبير بن مُطعِم[4] رضي الله عنهما أنّهما قالا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هؤلاء إخوتُك بنُو هاشم، لا نُنكِر فضلَهم لمكانك الذي جعلك الله منهم،

---

[1] قراءة شاذّة. رواها الجُعفي عن هارون عن أبي عمرو. **اللباب** لابن عادل، ٥١٨/٩. وحكاها ابن عطيّة في **المحرّر الوجيز**، ٥٣١/٢، عن الجُعفي عن أبي بكر عن عاصم.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم النخعي. **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢١/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٥١٨/٩.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مُحيصن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٥.

[4] هو جُبير بن مُطعِم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف بن قُصيّ القرشي النوفلي، أبو محمّد، وقيل: أبو عديّ (ت. ٥٩هـ/٦٧٨-٦٧٩). كان مِن حُلَماء قريش وساداتِهم، وكان يؤخَذ عنه النَّسب لقريش وللعرب قاطبةً. وكان له عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدٌ. وهو أحدُ الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على مقاطعة المسلمين. انظر: **الاستيعاب** للنّمري، ٢٣٢/١-٢٣٣؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٥١٥/١-٥١٧.

أرأيتَ إخوانَنا بني المطّلب أَعطيتَهم وحرَمتَنا، وإنّما نحن وهم بمنزلة واحدة؟»»، فقال عليه السلام: «إنّهم لم يفارقونا في جاهليّة ولا إسلام، إنّما بنو هاشم وبنو المطّلب شيء واحد»، وشبَّك بين أصابعه.[١]

وكيفيّة قِسمتها عندنا أنّها كانت في عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على خمسة أسهُمٍ: سَهْمٌ له عليه السلام، وسَهْمٌ للمذكورين مِن ذَوي قُرباه، وثلاثة أسهُمٍ للأصناف الثلاثة الباقية. وأمّا بعده عليه السلام، فسَهْمه ساقطٌ، وكذا سَهْم ذَوي القُربى، وإنّما يُعطَون لفقرهم، فهم أُسوَة لسائر الفقراء، ولا يُعطَى أغنياؤهم، فيُقسَم على الأصناف الثلاثة.

ويؤيّده ما رُوي عن أبي بكر رضي الله عنه أنّه منع بني هاشم الخُمسَ، وقال: «إنّما لكم أن يُعطَى فقيركم، وتُزوَّج أَيِّمُكم، ويخدَّمَ مَن لا خادم له منكم، ومَن عَداهم،[٢] فهو بمنزلة ابن السبيل الغنيّ، لا يُعطَى مِن الصدقة شيئًا».[٣] وعن زيد بن عليّ مثلُه، قال: «ليس لنا أن نبنيَ منه قصورًا، ولا نركَبَ منه البراذينَ».[٤]

وقيل: سَهْم الرسول صلّى الله عليه وسلّم لوليّ الأمر بعده.[٥]

[٤٠٢ظ] / وأمّا عند الشافعي رحمه الله، فيُقسَم على خمسة أسهُمٍ: سَهْمٌ لرسول الله عليه السلام،[٦] يُصرَف إلى ما كان يصرِفه عليه السلام مِن مصالح المسلمين، كعُدّة الغُزاة مِن الكُراع[٧] والسلاح ونحو ذلك، وسهمٌ لذَوي القُربى مِن أغنيائهم وفقرائهم، يُقسَم بينهم للذكر مثلُ حظّ الأنثيَين، والباقي للفِرَق الثلاث.[٨]

---

[١] مسند أحمد، ٣٠٤/٢٧-٣٠٦ (١٦٧٤١)؛ سنن النسائي، ١٣٠/٧ (٤١٣٧). وبعضه في صحيح البخاري، ٩١/٤ (٣١٤٠).

[٢] ط س - ومَن عداهم. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر الكشط والتصحيح، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٤/٥.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٢. | البِرْذَوْن: الدابّة. والأنثى: بِرذَونة. وجمعُه: بَراذِين. والبَراذِين مِن الخيل: ما كان مِن غير نِتاج العِراب. لسان العرب لابن منظور، «برذن».

[٥] قاله الحسن البصري. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٢.

[٦] س: صلّى الله عليه وسلّم.

[٧] الكُراع: اسمٌ يجمع الخيل والسلاحَ إذا ذُكر مع السلاح. والكُراع: الخيل نفسُها. تهذيب اللغة للأزهري، ٢٠٢/١ «باب العين والكاف مع الراء».

[٨] الكشّاف للزمخشري، ٢٢١/٢.

وعند مالك رحمه الله: الأمر فيه مفوَّضٌ إلى اجتهاد الإمام، إن رأى قسَمَه بين هؤلاء، وإن رأى[١] أعطاه بعضًا منهم دون بعض، وإن رأى غيرَهم أولى وأهمَّ، فغيرهم.[٢]

وتعلّق أبو العالية[٣] بظاهر الآية الكريمة، فقال: «يُقسَم ستّةَ أسهُمٍ، ويُصرَف سهم الله تعالى إلى رِتاج الكعبة»،[٤] لِما رُوي أنّه عليه السلام كان يأخذ منه قَبْضةً، فيجعلها لمصالح الكعبة، ثمّ يقسم ما بقي على خمسة أسهُمٍ.[٥]

وقيل: سهمُ الله لبيت المال.[٦] وقيل: هو مضموم إلى سهم الرسول عليه السلام.

هذا شأن الخُمس. وأمّا الأخماس الأربعة، فيُقسَم بين الغانمين، للراجل سهمٌ وللفارس سهمان عند أبي حنيفة رحمه الله،[٧] وثلاثةُ أسهُمٍ عندهما. قال القرطبي: «لمّا بيّن الله تعالى حُكم الخُمس وسكَتَ عن الباقي، دلَّ ذلك على أنّه ملكٌ للغانمين».[٨]

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ يُنبئ عنه المذكور، أي: إن كنتم آمنتم به تعالى، فاعلَموا أنّ الخُمس مِن الغنيمة يجب التقرّبُ به إلى الله تعالى، فاقطَعوا أطماعكم منه، واقتنِعوا بالأخماس الأربعة. وليس المراد به مجرّدَ العلم بذلك؛ بل العلمُ المشفوع بالعمل والطاعة لأمره تعالى.

---

١ ط س: رآه. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر الكشط، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢١/٢.

٣ هو رُفيع بن مِهران، أبو العالية الرِّياحي (ت. ٩٠هـ/٧٠٩م). المقرئ المفسّر، مِن التابعين. أدرك زمان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو شابٌّ، وأسلم في خلافة أبي بكر الصدّيق. قرأ القرآن على أبيّ بن كعب وغيره. وسمع مِن عمر وابن مسعود وعليّ وعائشة، وطائفة. وعنه قتادة وخالد الحذّاء وداود بن أبي هند وعوف الأعرابي والربيع بن أنس وأبو عمرو بن العَلاء، وطائفة. وله تفسير، رواه عنه الربيع بن أنس البكري. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢٠٧/٤-٢١٣؛ **طبقات المفسّرين** للداوودي، ١٧٨/١-١٧٩.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢٢/٢. | الرِّتَج: الباب العظيم. وكذلك الرِّتاج. **الصحاح** للجوهري، «رتج».

٥ رواه أبو العالية مرفوعًا. انظر: **مصنّف ابن أبي شيبة**، ٥٠٠/٦ (٣٣٢٩٨)؛ **والمراسيل لأبي داود**، ص ٢٧٥ (٣٧٤).

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢٢/٢.

٧ م - رحمه الله.

٨ **تفسير القرطبي**، ١٣/٨.

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ عطفٌ على الاسم الجليل، أي: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ وقُرئ: "عُبُدِنا"،[1] وهو اسمُ جمع، أريدَ به الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنون، فإنّ بعض ما نزل[2] نازلٌ عليهم بالذات، / كما ستعرفه. [٤٠٣و]

﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ يومَ بدر، سُمّي به لفَرْقه بين الحقّ والباطل. وهو منصوب بـ﴿أَنزَلۡنَا﴾ أو بـ﴿ءَامَنتُم﴾. ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: الفريقان مِن المؤمنين والكافرين. وهو بدلٌ مِن ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ أو منصوبٌ بـ﴿ٱلۡفُرۡقَانِ﴾. والمراد ما أُنزلَ عليه عليه السلام يومئذ مِن الوحي والملائكة والفتح، على أنّ المراد بـ"الإنزال" مجرّد الإيصال والتيسير، فينتظم الكلّ انتظامًا حقيقيًّا.

وجعلُ الإيمان بإنزال هذه الأشياء مِن موجِبات العلم بكون الخُمس لله تعالى على الوجه المذكور مِن[3] حيث إنّ الوحي ناطقٌ بذلك، وأنّ الملائكة والفتحَ لمّا كانا مِن جهته تعالى، وجَبَ أن يكون ما حصل بسببهما مِن الغنيمة مصروفةً إلى الجهات التي عيّنها الله تعالى.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ يقدر على نصر القليل على الكثير والذليلِ على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم.

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بدلٌ ثانٍ مِن ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾. والعُدوة، بالضمّ: شَطُّ الوادي، وكذا بالفتح والكسر، وقد قُرئ بهما أيضًا.[4] ﴿وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ أي: البُعدى مِن المدينة. وهي تأنيث "الأقصى". وكان القياسُ قلبَ الواو ياءً،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٦.

[2] وفي هامش م: وهو الملائكة والفتح. «منه».

[3] وفي هامش م: خبر.

[4] قرأ قتادة وأبو السمّال بالفتح شاذّةً. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٦. وقرأ بالكسر ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٦.

كـ"الدنيا" و"العُليا" مع كونهما مِن بنات الواو، لكنّها جاءت على الأصل، كـ"القَوَد" و"استصْوَبَ"، وهو أكثرُ استعمالًا مِن "القُصْيَا".

﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾ أي: العِير أو قُوّادُها ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ أي: في مكانٍ أسفلَ مِن مكانكم، يعني: الساحل. وهو نصبٌ على الظرفيّة، واقعٌ موقعَ الخبر. والجملة حال مِن الظرف قبلها، وفائدتُها الدلالة على قوّة العدوّ واستظهارِهم بالركب وحَوْضِهم على المقاتلة عنها وتوطينِ نفوسهم على ألّا يُخْلُوا مراكزَهم ويبذُلوا منتهى جهدهم وضعفِ شأن المسلمين والْتِياثِ[1] أمرهم واستبعادِ غَلَبتهم عادةً. وكذا ذكرُ مراكز الفريقين، فإنّ العُدوة الدنيا كانت رِخوةً تسُوخُ فيها الأرجل، ولا يمشَى فيها إلّا بتعب، ولم يكن فيها ماء، بخلاف العُدوة القُصوى.

[٤٠٣ظ] وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ / أي: لو تَواعدتم أنتم وهم القتالَ، ثمّ علمتم حالكم وحالَهم، لَاختلَفتم أنتم في المِيعاد هَيبةً منهم ويأسًا مِن الظفر عليهم، ليتحقّقوا أنّ ما اتّفق لهم مِن الفتح ليس إلّا صُنعًا مِن الله عزّ وعلَا خارقًا للعادات، فيزدادوا إيمانًا وشكرًا، وتطمئنَّ نفوسهم بفرض الخُمس.

﴿وَلَٰكِن﴾ جمع بينكم على هذه الحال مِن غير مِيعاد ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ حقيقًا بأن يُفعَل مِن نصر أوليائه وقهر أعدائه، أو مقدَّرًا في الأزل.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ بدل منه أو متعلِّق بـ﴿مَفۡعُولٗا﴾، أي: ليموتَ مَن يموت عن بيّنة عايَنَها، ويَعيشَ مَن يَعيش عن بيّنة شاهَدَها، لئلّا يكونَ له حجّة ومعذرة، فإنّ وقعة بدر مِن الآيات الواضحة؛ أو ليصدرَ كفرُ مَن كفر وإيمانُ مَن آمن عن وضوح بيّنة، على استعارة الهلاك والحياة للكفر والإيمان.

---

[1] ط س: والتثاث. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر الكشط، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س. | وفي هامش م: اللثّ والإلثاث واللّثْلَثة: الضّعف والحبس والتردّد في الأمر. قاموس. والالتياث: الاختلاط والالتفاف والإبطاء والقوّة والسمن والحبس. قاموس. | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «لثث».

والمراد بـ﴿مَنْ هَلَكَ﴾ و﴿مَنْ حَيَّ﴾ المشارفُ للهلاك والحياة، أو مَن حالُه في علم الله تعالى الهلاكُ والحياة. وقُرِئ: "لِيَهْلَكَ"[1] بالفتح، و"حَيِيَ"[2] بفكّ الإدغام حملًا على المستقبل.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: بكفر مَن كفر وعقابه وإيمانِ مَن آمن وثوابه. ولعلّ الجمعَ بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ منصوب بـ"اذكُرْ"، أو بدل آخرُ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، أو متعلّق بـ﴿عَلِيمٌ﴾،[3] أي: يعلم المصالحَ، إذ يقلّلهم في عينك في رؤياك، وهو أن تُخبِر به أصحابك، فيكون تثبيتًا لهم وتشجيعًا على عدوّهم.

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾[4] أي: لَجَبُنتم وهِبْتُم الإقدام، ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: أمرِ القتال، وتفرّقت آراؤكم في الثبات والقرار، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ / سَلَّمَ﴾ أي: أنعم بالسلامة مِن الفشل والتنازع. [٤٠٤و]

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها مِن الجُرأة والجُبن والصبر والجزَع؛ ولذلك دبَّر ما دبَّر.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ منصوب بمضمَر خُوطبَ به الكلّ بطريق التلوين والتعميم معطوفٍ على المضمَر السابق. والضميران مفعولَا

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش ويحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٦.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر يعقوب وخلف والبزّي وأبو بكر. واختُلِف عن قُنبُل. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٦.

[3] وفي هامش م: أي: بما يدلّ هو عليه بنفسه. «منه».

[4] وفي هامش م: ترتّب فشلهم وتنازعهم في الأمر على إراءتهم كثيرًا باعتبار إخباره عليه السلام بما رآه وحكايتِه للمسلمين. «منه».

﴿يُرِى﴾، و﴿قَلِيلًا﴾ حال مِن الثاني. وإنّما قلّلهم في أعيُن المسلمين -حتّى قال ابن مسعود رضي الله عنه لِمن إلى جَنْبه: «أتَراهم سبعين؟»، فقال: «أراهم مائةً»-[١] تثبيتًا لهم وتصديقًا لرؤيا الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتّى قال أبو جهل: «إنّما أصحابُ محمّد أَكَلةُ جَزور».[٢] قلّلهم في أعيُنهم قبل الْتِحام القتال ليجترئوا عليهم ولا يستعِدّوا لهم، ثمّ كثّرهم حتّى رأَوهم مثلَيهم لِيفاجِئَهم الكثرة فيُبهَتوا ويُهابوا. وهذه مِن عظائم آيات تلك الوقعة، فإنّ البصر قد يرى الكثير قليلًا والقليلَ كثيرًا؛ لكنْ لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحدّ، وإنّما ذلك بصدّ الله تعالى الأبصارَ عن إبصار بعضٍ دون بعضٍ مع التساوي في الشرائط.

﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كُرّر لاختلاف الفعل المعلَّل به، أو لأنّ المراد بالأمر ثَمّةَ الالتقاءُ[٣] على الوجه المذكور، وههنا إعزازُ الإسلام وأهلِه وإذلالُ الكفر وحِزبه.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلُّها، يصرّفها كيفما يريد، لا رادَّ لأمره، ولا معقِّبَ لحُكمه، وهو الحكيم المجيد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ صُدّر الخطاب بحرفَي النداء والتنبيهِ إظهارًا لكمال الاعتناء بمضمون ما بعده. ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ / أي: حارَبتم جماعةً مِن الكفَرة. [٤٠٤ظ] وإنّما لم يوصَفوا بالكفر لظهور أنّ المؤمنين لا يحارِبون إلّا الكَفَرةَ. و"اللقاء" ممّا غلَبَ في القتال. ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ أي: للقائهم في مواطن الحرب، ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: في تضاعيف القتال مستمِدّين منه متسعِينين به مستظهِرين بذكره مترقّبين لنصره.

---

[١] وتمام قول ابن مسعود: «فأسرنا رجلًا، فقُلنا: كم كنتم؟ قال: ألفًا». انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٢/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢٥/٢.

[٢] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٣/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٦٤/٣.

[٣] وفي هامش م: أي: التلاقي مِن غيرِ مِيعاد. «منه».

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفُوزون بمَرامكم وتظفَرون بمُرادكم مِن النُّصرة والمَثُوبة. وفيه تنبيه على أنّ العبد ينبغي ألّا يشغلَه شيء عن ذكر الله تعالى، وأن يلتجِئَ إليه عند الشدائد، ويُقبِلَ إليه بكلّيّته فارغَ البال واثقًا بأنّ لطفه لا ينفكّ عنه في حال مِن الأحوال.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في كلّ ما تأتون وما تذَرون، فيندرج فيه ما أُمروا به ههنا اندراجًا أوّليًا. ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر أو أُحد، ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾ جواب للنهي، وقيل: عطفٌ عليه. ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ بالنصب، عطفٌ على جواب النهي. وقُرئ بالجزم[1] على تقدير عطفِ ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾ على النهي.

أي: تذهب دولتُكم وشَوْكتكم، فإنّها[2] مستعارة للدولة مِن حيث إنّها في تمشّي أمرها ونفاذِه مشبَّهةٌ بها في هُبوبها وجرَيانها. وقيل: المراد بها الحقيقة، فإنّ النُّصرة لا تكون إلّا بريحٍ يبعثها الله تعالى. وفي الحديث: «نُصِرتُ بالصَّبَا، وأُهلكتْ عادٌ بالدَّبور».[3]

﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على شدائد الحرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ بالنصرة والكلاءة. وما يُفهَم مِن كلمة ﴿مَعَ﴾ مِن أصالتهم إنّما هي مِن حيث إنّهم المباشِرون للصبر، فهم متبوعون مِن تلك الحيثيّة، ومعيّته تعالى إنّما هي مِن حيث الإمدادُ والإعانةُ.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

/ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ بعد ما أُمروا بما أُمروا به مِن أحاسن الأعمال، نُهُوا عمّا يقابلها مِن قبائحها. والمراد بهم أهل مكّةَ حين خرجوا [٤٠٥و]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان وعاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٣. ولعلّ عاصم هو الجحدري، دون العشرة.

[2] أي: الريح.

[3] صحيح البخاري، ٣٣/٢ (١٠٣٥)؛ صحيح مسلم، ٦١٧/٢ (٩٠٠).

لحِماية العِير ﴿بَطَرًا﴾ أي: فخرًا وأَشَرًا ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ليُثنُوا عليهم بالشجاعة والسماحة؛ وذلك أنّهم لمّا بلغوا جُحْفةَ[1] أتاهم رسول أبي سفيان وقال: «ارجِعوا فقد سلِمت عِيرُكم»، فأبَوا إلّا إظهار آثار الجلادة، فلَقُوا ما لَقُوا حسبما ذُكر في أوائل السورة الكريمة،[2] فنُهي المؤمنون أن يكونوا أمثالَهم مُرائين بَطِرين، وأُمروا بالتقوى والإخلاص مِن حيث إنّ النهي عن الشيء مستلزِم للأمر بضدّه.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿بَطَرًا﴾، إن جُعل مصدرًا في موضع الحال، وكذا إن جُعل مفعولًا له، لكنْ على تأويل المصدر. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيجازيهم عليه.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ منصوب بمضمَر خُوطبَ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين، أي: واذكر وقتَ تزيين الشيطان أعمالَهم في مُعاداة المؤمنين وغيرها بأن وسوس إليهم.

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: ألقَى في رُوعهم،[3] وخيّل إليهم أنّهم لا يُغلَبون ولا يُطاقون لكثرة عُدَدهم وعَدَدهم، وأوهمهم أنّ اتّباعهم إيّاه فيما يظنّون أنّها قُرُبات مُجيرٌ لهم، حتّى قالوا: «اللّٰهمّ انصُرْ أهدى الفئتين وأفضلَ الدينين».[4] و﴿لَكُمْ﴾ خبرُ ﴿لَا غَالِبَ﴾ أو صفتُه، وليس صلته، وإلّا لَانتصب كقولك: "لا ضاربًا زيدًا عندنا".

---

[1] قرية كبيرة ذات مِنبر على طريق المدينة مِن مكّة. وإنّما سُمّيت الجُحْفة؛ لأنّ السيل اجتحفها وحمل أهلها في بعض الأعوام. انظر: معجم البلدان للحَمَوي، ١١١/٢.

[2] انظر: تفسير الأنفال، ٥/٨.

[3] الرُّوع: القلب والعقل. يقال: وقع ذلك في رُوعي، أي: في خَلَدي وبالي. الصحاح للجوهري، «روع».

[4] انظر: تفسير الأنفال، ١٩/٨.

/ ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾ أي: تلاقى الفريقان، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ رجع القَهقَرى،[1] أي: بطل كيده، وعاد ما خيّل إليهم أنّه مُجيرهم سببًا لهلاكهم، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أي: تبرّأ منهم، وخاف عليهم، ويئِسَ مِن حالهم لمّا رأى إمدادَ الله تعالى للمسلمين بالملائكة. [٤٠٥ظ]

وقيل: لمّا اجتمعت قريش على المَسير ذكرت ما بينهم وبين كِنانةَ مِن الإحنة،[2] فكاد ذلك يَثنِيهم، فتمثّل لهم إبليس في صورة سُراقةَ بن مالك الكِناني، وقال: «لا غالبَ لكم اليومَ مِن الناس، وإنّي مُجيركم مِن كِنانةَ»، فلمّا رأى الملائكةَ تنزِلُ، نكَصَ، وكان يدُه في يد الحارث بن هشام، فقال له: «إلى أين؟ أتَخذُلنا في هذه الحالة؟»، فقال: «إنّي أرى ما لا ترَون»، ودفع في صدر الحارث فانطلق، فانهزموا، فلمّا بلغوا مكّةَ قالوا: «هزَم الناسَ سُراقةُ»، فبلغه ذلك فقال: «واللهِ، ما شعَرتُ بمَسيركم حتّى بلغني هزيمتكم»، فلمّا أسلموا علموا أنّه الشيطان.[3]

وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾: أخافه أن يُصيبني بمكروهٍ مِن الملائكة، أو يُهلكَني ويكونَ الوقت هو الوقت الموعود، إذ رأى فيه ما لم يرَه قبله. والأوّل ما قاله الحسن رحمه الله،[4] واختاره ابن بحر.[5]

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ يجوز أن يكون مِن كلامه أو مستأنَفًا مِن جهة الله عزّ وجلّ.

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٤٩﴾

---

١ القَهقَرى: الرجوع إلى خَلْف. فإذا قلتَ: رجعتُ القهقرى، فكأنّك قلتَ: رجعتُ الرجوعَ الذي يعرَف بهذا الاسم؛ لأنّ القهقرى ضرب مِن الرجوع. **الصحاح** للجوهري، «قهر».

٢ الإحنة: الحِقد والغضب. **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «أحن».

٣ انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٦٥/٤؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٢/٣.

٤ س: رضي الله عنه. | **جامع البيان** للطبري، ٢٢٤/١١-٢٢٥.

٥ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٢/٣. | لعلّه محمّد بن بحر، أبو مسلم الأصفهاني (ت. ٣٢٢هـ/٩٣٤). مِن متكلّمي المعتزلة. كان عالمًا بالتفسير وبغيره مِن صنوف العلم. وله شعر. مِن كتبه: **جامع التأويل لمحكم التنزيل في التفسير**، أربعة عشر مجلدًا، جمع سعيد الأنصاري الهندي نصوصًا منه وردت في تفسير الرازي، وسمّاها: **ملتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل**. ومن كتبه: **الناسخ والمنسوخ**، وكتاب في النحو. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٥٩/١؛ **والأعلام** للزركلي، ٥٠/٦.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ منصوب بـ﴿زَيَّنَ﴾، أو بـ﴿نَكَصَ﴾، أو بـ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

[٤٠٦و] ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: الذين / لم تطمئنَّ قلوبهم بالإيمان بعدُ وبقِيَ فيها نوعُ شبهة. وقيل: هم المشركون. وقيل: هم المنافقون في المدينة، والعطفُ لتغايُر الوصفين، كما في قوله:

يا لَهْفَ زيّابةَ للحارثِ الصـ ـابحِ فالغانمِ فالآيبِ[1]

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعنُون المؤمنين. ﴿دِينُهُمْ﴾ حتّى تعرّضوا لِما لا طاقةَ لهم به، فخرجوا وهم ثلاثُمائةٍ وبِضعةَ عشرَ إلى زُهاءِ ألفٍ.[2]

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جواب لهم مِن جهته تعالى وردٌّ لمقالتهم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ، لا يذلّ مَن توكّل عليه واستجار به وإن قلَّ، ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقول ويحار في فهمه ألباب الفحول. وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أي: ولو رأيتَ؛ فإنّ "لو" الامتناعيّةَ تردّ المضارعَ ماضيًا، كما أنّ "إنْ" تردّ الماضيَ مضارعًا. والخطاب إمّا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن له حظّ مِن الخطاب. وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام، ٢٧/٦].

وكلمة ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ظرف لـ﴿تَرَىٰٓ﴾، والمفعول محذوف، أي: ولو ترى الكَفَرةَ أو حالَ الكَفَرةِ حين يتوفّاهم الملائكة ببدر. وتقديم المفعول للاهتمام به. وقيل:[3] الفاعل ضمير عائدٌ إلى الله عزّ وجلّ، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ خبرُه، والجملةُ حال

---

[1] البيت لابن زيّابة في شرح كتاب الحماسة للفارسي، ١٢٠/٢؛ وأمالي ابن الشجري، ٥٠٨/٢؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٤٦٥/١، وبلا نسبة في خزانة الأدب للبغدادي، ١٠٧/٥.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٨/٢.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٩/٢.

مِن الموصول، قد استُغني فيها بالضمير عن "الواو". وهو[١] على الأوّل حال منه، أو مِن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أو منهما لاشتماله على ضميرَيهما.

﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: وأستاهَهم، أو ما أقبَلَ منهم وما أدبَرَ مِن الأعضاء. ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ على إرادة "القول" معطوفًا على ﴿يَضْرِبُونَ﴾ أو حالًا مِن فاعله، أي: ويقولون أو قائلين: ذُوقُوا بشارةً بعذاب الآخرة. وقيل: كانت معهم مَقامعُ مِن حديد، كلّما ضربوا التهبَتْ النار منها.[٢]

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف للإيذان بخروجه عن حدود البيان، أي: لرأيتَ أمرًا فظيعًا، لا يكاد يوصَف.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الضرب والعذاب. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بكونهما في الغاية القاصية / مِن الهَول والفظاعة. وهو مبتدأ، خبرُه ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ذلك الضرب والعذاب واقعٌ بسبب ما كسبتم مِن الكفر والمعاصي. [٤٠٦ظ]

ومحلّ ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: والأمرُ أنّه تعالى ليس بمعذِّب لعَبيده بغير ذنب مِن قِبَلهم. والتعبير[٣] عن ذلك بنفي الظلم -مع أنّ تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعًا على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة، فضلًا عن كونه ظلمًا بالغًا- قد[٤] مرّ تحقيقه في سورة آل عمران.[٥] والجملة اعتراض تذييلي مقرّرٌ لمضمون ما قبلها.

وأمّا ما قيل[٦] مِن أنّها معطوفة على ﴿مَا﴾ للدلالة على أنّ سببيّته مقيّدة بانضمامه إليه، إذ لولاه لأمكن أن يعذّبهم بغير ذنوبهم، فليس بسديدٍ؛ لِما أنّ إمكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب -بل وقوعَه- لا ينافي كونَ تعذيب هؤلاء الكَفَرة

---

[١] يعني قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾.
[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٧/٤.
[٣] وفي هامش م: مبتدأ.
[٤] وفي هامش م: خبر.
[٥] انظر: تفسير آل عمران، ١٨٢/٣.
[٦] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢٢٩/٢.

المعيَّنة بسبب ذنوبهم حتّى يُحتاجَ إلى اعتبار عدمه معه. نعم، لو كان المدّعَى كونَ جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذَّبين، لاحْتِيج إلى ذلك.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في محلّ الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، والجملةُ استئناف مَسوق لبيان أنّ ما حلَّ بهم مِن العذاب بسبب كفرهم، لا بشيء آخرَ مِن جهة غيرهم، بتشبيه حالهم بحال المعروفين بالإهلاك بسبب جرائمهم لزيادة تقبيح حالهم، وللتنبيه على أنّ ذلك سنّة مطّردة فيما بين الأمم المهلَكة، أي: شأنُهم الذي استمرّوا عليه ممّا فعلوا وفُعل بهم مِن الأخذ كدأب آل فرعونَ المشهورين بقباحة الأعمال وفظاعة العذاب والنَّكال، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مِن قبل آل فوعونَ مِن الأمم التي فعلوا مِن المعاصي ما فعلوا ولقُوا مِن العقاب ما لقُوا، كقوم نوح عليه السلام وعادٍ وأضرابهم مِن أهل الكفر والعناد.

وقوله تعالى: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ تفسير لدأبهم الذي فعلوه، لا لدأب آل فرعونَ ونحوهم كما قيل؛[1] فإنّ ذلك معلوم منه بقضيّة التشبيه. وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تفسير لدأبهم الذي فُعل بهم. و"الفاء" لبيان كونه مِن لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرّعةِ عليها. وقوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ لتأكيد ما أفاده "الفاء" مِن السببيّة، مع الإشارة إلى أنّ لهم مع كفرهم ذنوبًا أُخَرَ، لها دخلٌ في استتباع العقاب.

ويجوز أن يكون المراد بـ﴿ذُنُوبِهِمْ﴾ معاصيهم المتفرّعةَ على كفرهم، فيكون "الباء" للملابسة، أي: فأخذهم متلبِسين بذنوبهم غيرَ تائبين عنها. فدأبُهم مجموعُ ما فعلوا وفُعل بهم، لا ما فعلوه فقط كما قيل. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ آلَ فرعونَ أيقنوا أنّ موسى نبيّ الله، فكذّبوه، كذلك هؤلاء، جاء محمّد عليه السلام بالصدق، فكذّبوه، فأنزل الله تعالى بهم عقوبته، كما أنزل بآل فرعونَ».[2]

---

[1] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٢٩.

[2] التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٤٦٦؛ اللباب لابن عادل، ٩/٥٤٣.

وجعلُ العذاب مِن جملة دأبهم -مع أنّه ليس ممّا يُتصوّر مداومتهم عليه واعتيادُهم إيّاه، كما هو المعتبر / في مدلول الدأب- إمّا لتغليب ما فعلوه على ما فُعل بهم، أو لتنزيل مداومتهم على ما يوجبه مِن الكفر والمعاصي منزلةَ مداومتهم عليه لِما بينهما مِن الملابسة التامّة. [٤٠٧و]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله مِن الأخذ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣﴾

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾... إلخ استئناف مَسوق لتعليل ما يفيده النظم الكريم مِن كون ما حلَّ بهم مِن العذاب مَنوطًا بأعمالهم السيّئة غيرَ واقعٍ بلا سابقة ما يقتضيه. وهو[١] المشار إليه، لا نفسُ ما حلَّ بهم مِن العذاب أو الانتقام كما قيل؛[٢] فإنّه، مع كونه معلَّلًا بما ذُكر مِن كفرهم وذنوبهم، لا يُتصوّر تعليله بجرَيان عادته تعالى على عدم تغيير نعمته على قومٍ قبل تغييرهم لحالهم.

وتوهّمُ[٣] أنّ السبب ليس ما ذُكر كما هو منطوق النظم الكريم؛ بل ما يُستفاد مِن مفهوم الغاية مِن جرَيان عادته تعالى على تغيير نعمتهم عند تغيير حالهم،[٤] بناءً على تخيّلِ أنّ المعلَّل ترتّبُ عقابهم على كفرهم مِن غير تخلّف عنه رُكوبُ[٥] شططٍ هائل، وإبعادٌ عن الحقّ بمراحلَ، وتهوين لأمر الكفر بآيات الله، وإسقاط له عن رتبة إيجاب العقاب في مقام تهويله والتحذير منه.

فالمعنى: ذلك، أي: ترتّبُ العقاب على أعمالهم السيّئة دون أن يقع ابتداءً مع قدرته تعالى على ذلك ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: بسبب أنّه تعالى ﴿لَمْ يَكُ﴾ في حدّ ذاته

---

١ الضمير راجع إلى قوله: "ما يفيده النظم الكريم مِن"... إلخ.

٢ قاله الزمخشري في **الكشّاف**، ٢/٢٢٩-٢٣٠.

٣ وفي هامش م: "م" [اختصار "مبتدأ"].

٤ وفي هامش م: عبارة القائل: «وليس السبب عدم تغيير الله ما أنعم عليهم حتّى يغيّروا حالهم؛ بل ما هو المفهوم له، وهو جريُ عادته تعالى على تغييره متى غيّروا حالهم». «منه». | القائل هو البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٣/٦٤.

٥ وفي هامش م: "خ" [اختصار "خبر"].

﴿مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ أي: لم يَنبَغِ له سبحانه ولم يصحَّ في حكمته أن يكون بحيث يغيِّر نعمةً أنعم بها ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ مِن الأقوام، أيَّ نعمةٍ كانت، جلّت أو هانت، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ مِن الأعمال والأحوال التي كانوا عليها وقتَ ملابستِهم بالنعمة، ويتّصفوا بما ينافيها، سواء كانت أحوالهم السابقة مرضيّةً صالحةً، أو قريبةً مِن الصلاح بالنسبة إلى الحادثة، كدأب هؤلاء الكَفَرة، حيث كانوا قبل البعثة كَفَرةً عَبَدةَ أصنامٍ مستمرّين على حالة مصحِّحة لإفاضة نعمة الإمهال وسائر النعم الدنيويّة عليهم، فلمّا بُعث إليهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالبيّنات، غيّروها إلى أسوَأَ منها وأسخطَ، حيث كذّبوه عليه السلام وعادَوه ومَن تبعه مِن المؤمنين، وتحزّبوا عليهم يبغُونهم الغوائلَ، فغيّر الله تعالى ما أنعم به عليهم مِن نعمة الإمهال، وعاجَلَهم بالعذاب والنكال.

وأصل ﴿يَكُ﴾: يكُنْ، فحُذفت النون تخفيفًا لشبهها بالحروف الليّنة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾... إلخ، داخلٌ معه في حيّز التعليل، أي: وبسبب أنّه تعالى سميع عليم يسمع ويعلم جميعَ ما يأتون وما يذَرون مِن الأقوال والأفعال السابقة واللاحقة، فيرتِّبُ على كلٍّ منها ما يَليق بها مِن إبقاء النعمة وتغييرها. وقُرئ: "وَإِنَّ الله"[1] بكسر الهمزة، فالجملة حينئذ استئنافٌ مقرِّر لمضمون ما قبلها.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

[٤٠٧ظ] / وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في محلّ النصب على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: حتّى يغيّروا ما بأنفسهم تغييرًا كائنًا كدأب آل فرعونَ، أي: كتغييرهم، على أنّ دأبهم عبارة عمّا فعلوه فقط، كما هو الأنسب بمفهوم الدأب.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ تفسير له بتمامه. وقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ إخبار بترتّب العقوبة عليه، لا أنّه مِن تمام تفسيره. ولا ضَيْرَ في توسّط قوله تعالى:

---

[1] قال الكرماني في شواذّ القراءات، ص ٢٠٧: «ولو قُرئ: "وَإِنَّ الله سَمِيعٌ" جازَ».

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] بينهما، كما مرّ نظيره في سورة آل عمران، حيث جوّزوا انتصاب محلّ "الكاف" بـ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ مع ما بينهما مِن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾.[2] هذا على تقدير عطف الجملة[3] على ما قبلها. وأمّا على تقدير كونها[4] اعتراضًا، فلا غبارَ في توسّطها قطعًا.

وقيل: في محلّ الرفع[5] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف كما قبله، فالجملة حينئذ استئنافٌ آخَرُ مَسوقٌ لتقرير ما سِيق له الاستئناف الأوّل بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين؛ لكن لا بطريق التكرير المحض، بل بتغيير العنوان وجعلِ الدأب في الجانبين عبارةً عمّا يلازم معناه الأوّل مِن تغيير الحال وتغييرِ النعمة أخْذًا ممّا نطق به قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ الآية،[6] أي: دأبُ هؤلاء وشأنهم الذي هو عبارة عن التغييرين المذكورَين كدأب أولئك، حيث غيّروا حالهم، فغيّر الله تعالى نعمته عليهم، فقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ تفسير لدأبهم الذي فعلوه مِن تغييرهم لحالهم، وقوله تعالى ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾ تفسير لدأبهم الذي فُعل بهم مِن تغييره تعالى ما بهم مِن نعمته. وأمّا دأبُ قريش، فمستفاد منه بحكم التشبيه. فلله دَرُّ شأن التنزيل، حيث اكتُفِي في كلٍّ مِن التشبيهين بتفسير أحد الطرفين.

وإضافة "الآيات" إلى "الربّ" المضاف إلى ضميرهم لزيادة تقبيح ما فعلوا بها مِن التكذيب. والالتفات إلى نون العَظَمة في ﴿أَهْلَكْنَا﴾ جريًا على سَنَن الكبرياء لتهويل الخَطب. والكلام في "الفاء" وفي قوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كالذي مرّ. وعطفُ قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ على ﴿أَهْلَكْنَا﴾ مع اندراجه تحته للإيذان بكمال هول الإغراق وفظاعته، كعطف جبريلَ على الملائكة عليهم السلام.[7]

---

[1] في الآية السابقة.

[2] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾... إلخ [آل عمران، ٣/١٠-١١].

[3] وفي هامش م: وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

[4] س: كونه.

[5] يريد: قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾... إلخ.

[6] في الآية السابقة.

[7] كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٢/٩٨].

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كلٌّ مِن الفِرَق المذكورين، أو كلٌّ مِن هؤلاء وأولئك، أو كلٌّ مِن غرقَى القِبط وقتلى قريشٍ ﴿كَانُواْ / ظَٰلِمِينَ﴾ أي: أنفُسَهم بالكفر والمعاصي، [٤٠٨و] حيث عرّضوها للهلاك، أو واضعين للكفر والتكذيب مكانَ الإيمان والتصديق؛ ولذلك أصابهم ما أصابهم.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥﴾

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ بعد ما شُرح أحوال المهلَكين مِن شِرار الكَفَرة شُرِع في بيان أحوال الباقين منهم وتفصيلِ أحكامهم.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه وقضائه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أصَرّوا على الكفر ولجُّوا فيه. جُعلوا شرَّ الدوابّ -لا شرَّ النّاسِ- إيماءً إلى أنّهم بمَعزِل مِن مجانستهم، وإنّما هم مِن جنس الدوابّ، ومع ذلك شرٌّ مِن جميع أفرادها، حسبما نطق به قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٤٤].

وقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ حكمٌ مترتّبٌ على تماديهم في الفكر ورسوخهم فيه، وتسجيلٌ عليهم بكونهم مِن أهل الطبع، لا يَلويهم صارف، ولا يَثنيهم عاطف أصلًا. جِيءَ به على وجه الاعتراض؛ لا أنّه عطفٌ على ﴿كَفَرُواْ﴾ داخلٌ معه في حيّز الصلة التي لا حكمَ فيها بالفعل.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ بدل مِن الموصول الأوّل، أو عطفُ بيان له، أو نصبٌ على الذمّ، أي: عاهدتَهم.[١] و﴿مِنۡ﴾ للإيذان بأنّ المعاهدة التي هي عبارة عن إعطاء العهد وأخذِه مِن الجانبَين معتبَرةٌ ههنا مِن حيث أخذُه عليه السلام عهدَهم، إذ هو المناط لقباحة ما نُعِي عليهم مِن النقض، لا إعطاؤُه عليه السلام إيّاهم عهدَه، كأنّه قيل: الذين أخذتَ منهم عهدهم. وقيل: هي للتبعيض؛ لأنّ المباشِر بالذات للعهد بعضُهم،[٢] لا كلُّهم.

---

[١] س: عاهدتم.

[٢] وفي هامش م: وهم عُرَفاؤهم. «منه».

﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿عَٰهَدتَّ﴾ / داخلٌ معه في حكم الصلة. [٤٠٨ظ]
وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدّد النقض وتعدّده وكونِهم على نيّته في كلّ حال، أي: ينقُضون عهدهم الذي أخذتَه منهم ﴿فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ أي: مِن مرّات المعاهدة، إذ هي التي يُتوقّع فيها عدم النقض ويُستقبح وجوده؛ لا مِن مرّات المحاربة كما قيل،[١] إذ لا يُتوقّع فيها عدم النقض؛ بل لا يُتصوّر أصلًا حتّى يُستقبح فيها وجوده لكونها مَظِنّةً لعدمه، فلا فائدةَ في تقييد النقض بالوقوع في كلّ مرّة مِن مرّاتها؛ بل لا صحّةَ له قطعًا؛ لأنّ النقض لا يتحقّق إلّا في المرّة الواردة على المعاهدة، لا في المرّات الواقعة بعدها بلا معاهدة.

ولَئِن سُلّم أنّ المراد هي المرّات الواقعة إثْرَ المعاهدة، يبقى النقض الواقع بلا محاربة كبيع السلاح ونحوه خارجًا مِن البيان. ولَئِن عُدَّ ذلك مِن المحاربة، فلا مَحيصَ مِن لزوم خُلوّ الكلام عن الفائدة بالمرّة؛ لأنّ المحاربة بهذا المعنى عينُ النقض، فيئُول الأمر إلى أن يقال: ينقُضون عهدهم في كلّ مرّة مِن مرّات النقض.

وحملُ المحاربة على محاربة غيرهم ليكونَ المعنى: ينقُضون عهدهم في كلّ مرّة مِن مرّات محاربة الأعداء -مع كونه في غاية البُعد والركاكة- يستلزِمُ خروجَ بَدْئهم بالنقض مِن البيان.

﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَنقُضُونَ﴾، أي: يستمرّون على النقض، والحالُ أنّهم لا يتّقون سُبّةَ[٢] الغَدْر، ولا يُبالُون بما فيه مِن العار والنار.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: فإذا كان حالهم كما ذُكر، فإمّا تُصادِفنّهم وتظفَرنّ بهم ﴿فِى ٱلْحَرْبِ﴾ أي: في تضاعيفها، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾

---

[١] وفي هامش م: قاضي. | هو البيضاوي، أجازه في أنوار التنزيل، ٦٤/٣.

[٢] م ط س: سيئة [صُحّح في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

أي: ففرِّقْ عن مناصبتك تفريقًا عنيفًا موجِبًا للاضطرار والاضطراب، ونكِّلْ عنها بأن تفعل بهم مِن النِّكاية والتعذيب ما يوجب أن تُنكِّل.

[٤٠٩و] / ﴿مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: مَن وراءَهم مِن الكَفَرة. وفيه إيماء إلى أنّهم بصدد الحِراب قريبٌ مِن هؤلاء. وقُرئ: "شَرِّذْ"[١] بالذال المعجمة، ولعلّه مقلوبُ "شذِّر"، بمعنى: فرِّق. وقُرئ: "مِنْ خَلْفِهِمْ"،[٢] أي: افعل التشريدَ مِن ورائهم. والمعنى واحد؛ لأنّ إيقاع التشريد في الوراء لا يتحقّق إلّا بتشريد مَن وراءَهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتّعِظون بما شاهدوا ممّا نزل بالناقضين، فيرتدِعوا عن النقض أو عن الكفر.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ بيان لأحكام المشرِفين إلى نقض العهد إثرَ بيان أحكام الناقضين له بالفعل. والخَوف مستعار للعلم، أي: وإمّا تعلَمنَّ مِن قوم مِن المعاهدين نقضَ عهدٍ فيما سيأتي بما لاح لك منهم مِن دلائل الغَدْر ومخايل الشرّ، ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: فاطرَحْ إليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ على طريقٍ مستوٍ قصدٍ بأن تُظهِر لهم النقض وتُخبِرَهم إخبارًا مكشوفًا بأنّك قد قطعتَ ما بينك وبينهم مِن الوصلة، ولا تناجِزْهم الحربَ وهم على توهّم بقاء العهد كيلَا يكونَ مِن قِبلك شائبةُ خيانة أصلًا. فالجارّ متعلِّق بمحذوف هو حال مِن النابذ، أي: فانبِذْ إليهم ثابتًا على سواء. وقيل: على استواءٍ في العلم بنقض العهد، بحيث يستوي فيه أقصاهم وأدناهم، أو تستوي فيه أنت وهم. فهو على الأوّل حال مِن المنبوذ إليهم، وعلى الثاني مِن الجانبين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنَّبْذ، إمّا باعتبار استلزامه للنهي عن المناجزة التي هي خيانة، فيكون تحذيرًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم منها،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٧.

/ وإمّا باعتبار استتباعه[1] للقتال بالآخرة، فيكون حثًّا له عليه السلام على النَّبذ [٤٠٩ظ] أوّلًا، وعلى قتالهم ثانيًا، كأنّه قيل: وإمّا تعلَمنَّ مِن قوم خيانةً، فانبِذْ إليهم، ثمّ قاتِلْهم، إنّ الله لا يُحبّ الخائنين، وهم مِن جملتهم لِما علمتَ حالهم.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أنفُسَهم، فحُذف[2] للتكرار. وقوله تعالى ﴿سَبَقُوٓاْ﴾ أي: فاتوا وأفْلَتوا مِن أن يُظفَر بهم، مفعولٌ ثانٍ لـ﴿يَحْسَبَنَّ﴾. والمراد إقناطهم مِن الخلاص، وقطعُ أطماعهم الفارغة مِن الانتفاع بالنَّبذ، والاقتصارُ على دفع هذا التوهّم مع أنّ مقاومة المؤمنين -بل الغلبةَ عليهم أيضًا- ممّا يتعلّق به أمانيّهم الباطلةُ، للتنبيه على أنّ ذلك ممّا لا يحوم حوله وهمهم وحسبانُهم، وإنّما الذي يمكن أن يدور في خَلَدهم حسبان المَنَاص فقط.

وقيل: الفعل مسنَد إلى "أحَدٍ" أو إلى ﴿مَنْ خَلْفَهُمْ﴾،[3] والمفعول الأوّل الموصولُ المتناوِل لهم أيضًا. وقيل: هو الفاعل، و"أنْ" محذوفة مِن ﴿سَبَقُوٓاْ﴾، وهي مع ما في حيّزها سادّة مسدَّ المفعولَين، والتقدير: ولا يحسَبنَّ الذين كفروا أنْ سبَقوا. ويعضُده قراءة مَن قرأ: "أَنَّهُمْ سَبَقُوا".[4] ونظيره في الحذف قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ [الروم، ٢٤/٣٠]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ[5] ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ الآية [الزمر، ٦٤/٣٩]. قاله الزجّاج.[6]

وقُرئ بالتاء[7] على خطاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهي قراءة واضحة. وقُرئ: "وَلَا تَحْسَبِ الَّذِينَ" بكسر الباء، وبفتحها على حذف النون الخفيفة.[8]

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي: لا يفوتون ولا يجدون طالبَهم عاجزًا عن إدراكهم، تعليلٌ للنهي على طريقة الاستئناف. وقُرئ بفتح الهمزة[9] على حذف

---

١ وفي هامش م: أي: النبذ.
٢ س: فحذفت.
٣ الأنفال، ٥٧/٨.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٧.
٥ م س: أغير.
٦ انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٤٢١/٢.
٧ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.
٨ هما قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن الأعمش. الكشّاف للزمخشري، ٢٣١/٢.
٩ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.

لام التعليل. وقيل: الفعل واقعٌ عليه، و﴿لَا﴾ زائدة، و﴿سَبَقُوٓاْ﴾ حال، بمعنى: سابقين، أي: مُفلِتين هاربين. وهذا على قراءة الخطاب لإزاحة ما عسى يُحذَر مِن عاقبة النَّبذ لِما أنّه إيقاظ للعدوّ وتمكينٌ لهم مِن الهرب والخلاصِ مِن أيدي المؤمنين. وفيه نفيٌ لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجهٍ وآكَدِه كما أشيرَ إليه.

وقيل: نزل فيمن أفلَتَ مِن فَلِّ[1] المشركين.[2] وقُرئ: "لَا يُعْجِزُونِ"[3] بكسر النون، و"لَا يُعَجِّزُونَ"[4] بالتشديد.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ توجيه الخطاب إلى كافّة المؤمنين لِما أنّ المأمور به مِن وظائف الكلّ، كما[5] أنّ توجيهه فيما سبق وما لحق إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لكون ما في حيّزه مِن وظائفه عليه السلام، أي: أَعِدّوا لقتال الذين / نُبِذ إليهم العهد وهَيِّئوا لحِرابهم، أو لقتال الكُفّار على الإطلاق، وهو الأنسب بسياق النظم الكريم.[6] [٤١٠و]

﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ مِن كلّ ما يُتقوّى به في الحرب كائنًا ما كان. وعن عُقبةَ بن عامر:[7] سمعتُه عليه السلام يقول على المِنبر: «ألَا إنّ القوّة الرَّميُ»،

[1] الفَلّ: القوم المنهزِمون. لسان العرب لابن منظور، «فلل».

[2] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٣١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٧.

[4] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/٢٣١.

[5] س: لما.

[6] وفي هامش م: وهو قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾. «منه».

[7] هو عُقبة بن عامر بن عَبس بن مالك الجُهَني، أبو حمّاد (ت. ٥٨هـ/٦٧٨م). أمير. صحِبَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وندَبَ أبو بكر الناسَ إلى الشام، خرج عُقبة بن عامر، فشهد فتوحَ الشام ومصر، وشهد مع معاوية صفّين، ثمّ تحوّل إلى مصر، فنزلها، وابتنى بها دارًا، وتُوفّي بها في آخر خلافة معاوية. كان شُجاعًا فقيهًا شاعرًا قارئًا. وهو أحد مَن جمع القرآن. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/٣٤٣-٣٤٤، ٧/٤٩٨؛ والإصابة لابن حجر، ٧/٢٠٥-٢٠٦.

قالها ثلاثًا.[١] ولعلّ تخصيصَه عليه السلام إيّاه بالذكر لإنافته على نظائره مِن القُوى.

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ الرِّباط: اسم للخيل التي تُربَط في سبيل الله تعالى، "فِعال" بمعنى "مفعول"، أو مصدرٌ سُمّيت هي به، يقال: "ربَط ربطًا ورِباطًا، ورابَطَ مرابطةً ورِباطًا"، أو جمعُ "رَبيط" كـ"فَصيل" و"فِصَال"، أو جمعُ "رَبْط" كـ"كَعب" و"كِعاب" و"كَلب" و"كِلاب". وقُرئ: "رُبطِ الخَيْلِ" بضمّ الباء وسكونها،[٢] جمع "رِباط". وعطفُها على "القوّة" -مع كونها مِن جملتها- للإيذان بفضلها على بقيّة أفرادها، كعطف جبريلَ وميكالَ على الملائكة عليهم السلام.[٣]

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ أي: تخوّفون. وقُرئ: "تُرَهِّبُونَ"[٤] بالتشديد. وقُرئ: "تُخْزُونَ بِهِ".[٥] والضمير لـ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾، أو للإعداد، وهو الأنسب. ومحلّ الجملة النصبُ على الحاليّة مِن فاعل ﴿أَعِدُّواْ﴾، أي: أَعِدّوا مرهِبين به، أو مِن الموصول، أو مِن عائده المحذوف، أي: أَعِدّوا ما استطعتموه مُرهَبًا به.

﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم كُفّار مكّةَ، خُصُّوا بذلك مِن بين الكُفّار -مع كون الكلّ كذلك- لغاية عُتوّهم ومجاوزتهم الحدَّ في العداوة. ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ مِن غيرهم مِن الكَفَرة. وقيل: هم اليهود، وقيل: المنافقون، وقيل: الفُرس.[٦] ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ أي: لا تعرفونهم بأعيانهم، أو لا تعلمونهم كما هم عليه مِن العداوة، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لا غيرُه، فإنّ أعيانهم معلومة لغيره تعالى أيضًا.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾ لإعداد العَتاد، قلَّ أو جلَّ، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي أوضَحُه الجهاد، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: جزاؤه كاملًا، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بترك الإثابة

---

[١] انظر: صحيح مسلم، ١٥٢٢/٣ (١٩١٧)؛ ومسند أحمد، ٦٤٢/٢٨-٦٤٣ (١٧٤٣٢).

[٢] هما قراءتان شاذّتان. القراءة بضمّ الباء مرويّة عن الحسن وعمرو بن دينار وأبي حياة، وبسكونها مرويّة عن أبي حياة أيضًا. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٧.

[٣] كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٩٨/٢].

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٨.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس ومجاهد. الكشّاف للزمخشري، ٢٣٢/٢.

[٦] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤٧/١١-٢٤٩

[٤١٠ظ] أو بنقص الثواب. / والتعبير عن تركها[١] بالظلم -مع أنّ الأعمال غيرُ موجِبة للثواب حتّى يكونَ تركُ ترتيبه عليها ظلمًا- لبيان[٢] كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى مِن القبائح وإبرازِ الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى، كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران، ١٩٥/٣].

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٦١﴾

﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ الجُنوح: المَيل، ومنه: الجَناح، ويُعدّى بـ"اللام" وبـ"إلى"، أي:[٣] إن مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: للصلح بوقوع الرهبة في قلوبهم بمشاهدة ما بكم مِن الاستعداد وإعداد العَتاد، ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ أي: للسَّلْم. والتأنيث لحمله على نقيضه. قال:

السِّلْم تأخُذُ منها ما رضِيتَ به والحربُ يَكفِيكَ مِن أنفاسِها جُرَعُ[٤]

وقُرِئ: "فَاجْنُحْ"[٥] بضمّ النون.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تخَفْ أن يُظهروا لك السَّلمَ وجوانحُهم مطويّة على المَكر والكيد. ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ فيسمع ما يقولون في خلواتهم مِن مقالات الخِداع، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ فيعلم نيّاتِهم، فيؤاخذهم بما يستحقّونه، ويردُّ كيدَهم في نحرهم.

والآية خاصّة باليهود، وقيل: عامّة، نسختْها آية السيف.[٦]

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٢﴾

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بإظهار السَّلم وإبطالِ الحِراب، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: فاعلَمْ بأنّ مُحسِبك الله مِن شرورهم وناصِرك عليهم.

---

١ وفي هامش م: أي: ترك الإثابة. «منه».
٢ وفي هامش م: خبر.
٣ س - أي.
٤ البيت للعبّاس بن مِرداس السلمي في ديوانه، ص ١٠٣؛ وإصلاح المنطق لابن السكّيت، ص ٢٩؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ١٨/٤.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب العُقيلي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٨.
٦ وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة، ٥/٩]. قال بنسخها قتادة والحسن البصري. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٥٢/١١-٢٥٣.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ تعليل لكفايته تعالى إيّاه عليه السلام بطريق الاستئناف، فإنّ تأييده تعالى إيّاه عليه السلام فيما سلف على ما ذُكر مِن الوجه البعيد مِن الوقوع مِن دلائل تأييده تعالى فيما سيأتي، أي: هو الذي أيّدك بإمداده مِن عنده بلا واسطة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران، ١٢٦/٣؛ الأنفال، ١٠/٨]، أو بالملائكة مع خَرْقه للعادات، ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مِن المهاجرين والأنصار.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ مع ما كان بينهم قبل ذلك مِن العصبيّة والضغينة[1] والتهالك على الانتقام / بحيث لا يكاد يأتلِف فيهم قلبانِ، حتّى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة. وهذا مِن أبهر معجزاته عليه السلام. [٤١١و]

﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ أي: لتأليف ما بينهم، ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ استئناف مقرّر لِما قبله، ومبيّن لعزّة المَطلب وصعوبة المَأخذ، أي: تناهى التعادي فيما بينهم إلى حدٍّ لو أنفَقَ منفِقٌ في إصلاح ذاتِ البَيْن جميعَ ما في الأرض مِن الأموال والذخائر، لم يقدر على التأليف والإصلاح. وذكرُ "القلوب" للإشعار بأنّ التأليف بينها لا يتسنّى، وإن أمكن التأليفُ ظاهرًا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ قلبًا وقالِبًا بقدرته الباهرة. ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ كاملُ القدرة والغلبة، لا يستعصي عليه شيء ممّا يريده، ﴿حَكِيمٞ﴾ يعلم كيفيّةَ تسخير ما يريده.

وقيل: الآية في الأوس والخزرج، كان بينهم إحَنٌ[2] لا أمدَ لها، ووقائعُ أفنَتْ ساداتِهم وأعاظِمَهم، ودقّت أعناقهم وجماجمَهم. فأنسى الله عزّ وجلّ جميع ذلك، وألَّف بينهم بالإسلام حتّى تصافَوا وأصبحوا يرمُون عن قَوسٍ واحدةٍ، وصاروا أنصارًا.[3]

---

١ الضِّغن والضغينة: الحِقد. مختار الصحاح للرازي، «ضغن».

٢ الإحْنة: الحِقد. وجمعها: إحَن. مختار الصحاح للرازي، «أحن».

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٣٤/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥٥٩/٩.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ شروع في بيان كفايته تعالى إيّاه عليه السلام في جميع أموره وأمور المؤمنين أو في الأمور الواقعة بينهم وبين الكَفَرة كافّةً، إثرَ بيان كفايته تعالى إيّاه عليه السلام في مادّة[1] خاصّة. وتصدير الجملة بحرفَي النداء والتنبيهِ للتنبيه على مَزيد الاعتناء بمضمونها. وإيراده عليه السلام بعنوان النبوّة للإشعار بعلّيّتها للحكم.

﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافِيك في جميع أمورك، أو فيما بينك وبين الكَفَرة مِن الحِراب. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في محلّ النصب على أنّه مفعول معه، / أي: كَفَاك وكفَى أتباعَك اللهُ ناصرًا، كما في قول مَن قال: [٤١١ظ]

فحَسْبُك والضحّاكَ عَضْبٌ مُهنَّدُ[2]

وقيل: في موضع الجرّ عطفًا على الضمير، كما هو رأي الكوفيّين، أي: كافيك وكافيهم، أو في محلّ الرفع عطفًا على اسم الله تعالى،[3] أي: كفاك الله والمؤمنون.

والآية نزلت في البيداء[4] في غزوة بدر قبلَ القتال.[5] وقيل: أسلم مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثلاثةٌ وثلاثون رجلًا وستُّ نسوةٍ، ثمّ أسلم عمرُ رضي الله عنه، فنزلت؛[6] ولذلك قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «نزلت في إسلام عمرَ رضي الله عنه».[7]

---

[1] وفي هامش م: هي إرادة الخدعة. «منه».

[2] وفي هامش م: صدره:

إذا كانت الهَيْجاء وانشقّت العَصَا

البيت بلا نسبة في اللامع العزيزي للمَعَرّي، ص ٢٨؛ وأمالي القالي، ٢/٢٦٢؛ والصحاح للجوهري، «عصا»؛ ولسان العرب لابن منظور، «حسب»؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٢/٩٠٠. وفي كلّها إلّا الأوّل: "سَيف" مكانَ "عَضْب".

[3] س – تعالى.

[4] البيداء: اسم لأرض مَلساء بين مكّة والمدينة، وهي إلى مكّة أقربُ. معجم البلدان للحَمَوي، ١/٥٢٣.

[5] التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٢٣١-٢٣٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٣٤.

[6] الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٧٠؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٤١-٢٤٢. وفي الثاني: "تسعة وثلاثون رجلًا"، دون التصريح بالنسوة.

[7] م – رضي الله عنه. | التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٢٣٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٣٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بعد ما بيّن كفايته إيّاهم بالنصر والإمداد أُمِر عليه السلام بترتيب مبادي نصره وإمداده. وتكرير الخطاب على الوجه المذكور لإظهار كمال الاعتناء بشأن المأمور به. ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ أي: بالِغْ في حثّهم عليه وترغيبهم فيه بكلّ ما أمكن مِن الأمور المرغِّبة التي أعظمُها تذكيرُ وعده تعالى بالنصر وحكمِه بكفايته تعالى أو بكفايتهم.[١]

وأصل التحريض: الحَرَض، وهو أن يُنهِكَه المرضُ حتّى يُشفيَ على الموت. وقال الراغب: «كأنّه في الأصل: إزالة الحَرَض، وهو ما لا خيرَ فيه ولا يُعتدّ به».[٢] قلتُ: فالأوجه حينئذ أن يُجعَل الحَرَض عبارةً عن ضَعف القلب الذي هو مِن باب نَهْك المرض. وقيل: معنى تحريضهم: تسميتُهم حَرَضًا بأن يقال: "إنّي أراك في هذا الأمر حَرَضًا"، أي: ممرَّضًا فيه لتهييجه إلى الإقدام. وقُرئ: "حَرِّص"[٣] بالصاد المهملة، وهو واضح.

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ وعدٌ كريمٌ منه تعالى بتغليب كلّ جماعة مِن المؤمنين على عشرة أمثالهم / بطريق الاستئناف بعد الأمر بتحريضهم. وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾ -مع انفهام مضمونه ممّا قبله لكون كلٍّ منهما عِدةً بتأييد الواحد على العشرة- لزيادة[٤] التقرير المفيدة لزيادة الاطمئنان، على أنّه قد يجري بين الجمعين القليلين ما لا يجري بين الجمعين الكثيرين مع أنّ التفاوت فيما بين كلٍّ مِن الجمعين القليلين والكثيرين على نسبة واحدة، فبيّن أنّ ذلك لا يتفاوتُ في الصورتين. [٤١٢و]

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بيان لـ"الألف". وهذا القيد معتبَر في المائتين أيضًا، وقد تُرك ذكره تعويلًا على ذكره ههنا، كما تُرك قيد الصبر ههنا مع كونه معتبَرًا حتمًا ثقةً بذكره هناك.

---

[١] وفي هامش م: على تقدير كون ﴿مَن﴾ معطوفًا على اسم الله تعالى. «منه».

[٢] انظر: المفردات للراغب، ص ٢٢٨، «حرض».

[٣] حكاها الأخفش كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٣٥.

[٤] وفي هامش م: خبر لقوله: "وقوله تعالى". «منه».

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿يَغْلِبُوا﴾، أي: بسبب أنّهم قوم جَهَلة بالله تعالى وباليوم الآخر لا يقاتِلون احتسابًا وامتثالًا بأمر الله تعالى وإعلاءً لكلمته وابتغاءً لرضوانه كما[١] المؤمنون، وإنّما يقاتِلون للحَميّة الجاهليّة واتّباعِ خُطُوات الشيطان وإثارةِ ثائرة البغي والعُدوان، فلا يستحقّون إلّا القهرَ والخذلانَ.

وأمّا ما قيل[٢] مِن أنّ مَن لا يؤمن بالله واليوم الآخِر لا يؤمن بالمَعاد، فالسعادة عنده ليست إلّا هذه الحياة الدنيويّة، فيشحّ بها ولا يعرّضها للزوال بمزاولة الحروب واقتحامِ موارد الخُطوب، فيَميل إلى ما فيه السلامة، فيفِرّ فيُغلَب، وأمّا مَن اعتقد أنْ لا سعادةَ في هذه الحياة الفانية، وإنّما السعادة هي الحياة الباقية، فلا يبالِي بهذه الحياة / الدنيا، ولا يُقيم لها وزنًا، فيُقدِم على الجهاد بقلب قويّ وعزمٍ صحيح، فيقوم الواحد مِن مثله مَقامَ الكثير، فكلامٌ[٣] حقٌّ، لكنّه لا يلائِم المقامَ. [٤١٢ظ]

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ لمّا كان الوعد السابق متضمِّنًا لإيجاب مقاومة الواحد للعشرة وثباته لهم، كما نُقل عن ابن جُريج أنّه كان عليهم ألّا يفِرّوا ويثبُتَ الواحدُ للعشرة، وقد بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حمزةَ في ثلاثين راكبًا، فلقي أبا جهل في ثلاثمائةِ راكبٍ، فهزَمهم، ثقُلَ[٤] عليهم ذلك، وضجُّوا منه بعد مدّة، فنُسخ وخُفّف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين.[٥] وقيل: كان فيهم قلّة في الابتداء، ثمّ لمّا كثُروا نزَل التخفيف.[٦]

---

١ وفي هامش م: "ما" إمّا كافّة لـ"الكاف" عن العمل، كما في قولهم: "كُنْ كما أنت"، وقولِه:
كما سيفُ عمرو لم تخُنه مَضاربُهْ
وإمّا مصدريّة موصولة بجملة اسميّة، أي: كما المؤمنون يفعلون. «منه». | صدر البيت:
أخٌ ماجدٌ لم يُخزِني يومَ مَشهَد
وهو لنَهْشَل بن حُرّي الدارمي في شرح ديوان الحماسة للتبريزي، ٣٦٠/١؛ والمستقصى للزمخشري، ٣٦٦/١؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٥٠٢/١.

٢ انظر: تفسير الرازي، ٥٠٥/١٥؛ واللباب لابن عادل، ٥٦٥/٩.

٣ السياق: وأمّا ما قيل... فكلامٌ حقٌّ، لكنّه...

٤ وفي هامش م: جواب "لمّا".

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٣٥/٢.

٦ رُوي عن ابن عبّاس. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٦٦/١١.

والمراد بـ"الضَّعف" ضعفُ البدن، وقيل: ضعفُ البصيرة، وكانوا متفاوتين في الاهتداء إلى القتال؛ لا الضعفُ في الدين كما قيل.[1] وقُرئ: "ضُعْفًا"[2] بضمّ الضاد، وهي لغة فيه، كـ"الفَقْر" و"الفُقْر" و"المَكْث" و"المُكْث". وقيل: الضعف بالفتح ما في الرأي والعقل، وبالضمّ ما في البدن.[3] وقُرئ: "ضُعَفَاءَ"[4] جمع "ضعيف". والمراد بعلمه تعالى بضعفهم علمُه تعالى به مِن حيث هو متحقّق بالفعل، لا علمُه تعالى به مطلقًا؛ كيف لا، وهو ثابتٌ في الأزل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ تفسير للتخفيف، وبيان لكيفيّته. وقُرئ: "تَكُنْ" ههنا وفيما سبق بالتاء الفوقانيّة.[5] ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتيسيره وتسهيله. وهذا القيد معتبَر فيما سبق مِن غلبة المائة المائتين والألفَ وغلبةِ العشرين المائتين، كما أنّ قيد الصبر معتبَر ههنا، وإنّما تُرك ذكره ثقةً بما مرّ، وبقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ / فإنّه اعتراض تذييلي مقرِّرٌ لمضمون ما قبله. [٤١٣و]

والمراد بالمَعيّة معيّةُ نصره وتأييده. ولم يتعرّض ههنا لحال الكَفَرة مِن الخذلان، كما لم يتعرّض هناك لحال المؤمنين -مع أنّ مدار الغلبة في الصورتين مجموعُ الأمرين، أعني: نصرَ المؤمنين وخذلانَ الكَفَرة- اكتفاءً بما ذُكر في كلّ مقام عمّا تُرك في المقام الآخر. وما يُشعِر به كلمة ﴿مَعَ﴾ مِن متبوعيّة مدخولها لأصالتهم مِن حيث إنّهم المباشِرون للصبر كما مرّ مرارًا.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ وقُرئ: "لِلنَّبِيِّ"[6] على العهد. والأوّل أبلغُ لِما فيه مِن بيانِ

---

١ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٣٥.

٢ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٧.

٣ انظر: لسان العرب لابن منظور، «ضعف».

٤ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٧.

٥ قرأ فيهما بالتاء ابن كثير ونافع وابن عامر. وقرأ أبو عمرو بالياء فيما سبق، وبالتاء ههنا. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٧.

٦ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/٢٣٥.

أنّ ما يُذكَر سنّة مطّرِدة فيما بين الأنبياء عليهم السلام، أي: ما صحّ وما استقام لنبيّ مِن الأنبياء عليهم السلام ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ وقُرئ بتأنيث الفعل،[١] و"أُسَارَى" أيضًا.[٢]

﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُكثِر القتلَ ويبالغَ فيه حتّى يذِلَّ الكفر ويقِلَّ حِزبه، ويعِزّ الإسلام ويستوليَ أهله. مِن "أثخَنَه المرض والجُرْح" إذا أثقله وجعله بحيث لا حراك به ولا بَراح. وأصله: الثخانة التي هي الغِلَظ والكثافة. وقُرئ بالتشديد للمبالغة.[٣]

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ استئناف مَسوق للعِتاب، أي: تريدون حُطامها بأخذكم الفِداءَ. وقُرئ: "يُرِيدُونَ" بالياء.[٤] ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: يريد لكم ثوابَ الآخرة الذي لا مقدار عنده للدنيا وما فيها، أو يريد سبب نَيل الآخرة مِن إعزاز دينه وقَمع أعدائه. وقُرئ بجرّ ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾[٥] على إضمار المضاف، كما في قوله:

أكُلَّ امرِئٍ تَحسبِينَ إمْرَأً   ونارٍ تَوقَّدُ بالليل نارًا[٦]

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يغلِّب أولياءَه على أعدائه، ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم ما يَليق بكلّ حال ويخصّه بها، كما أمر بالإثخان ونهَى عن أخذ الفِداء حين كانت الشوكة للمشركين، وخيَّر بينه وبين المَنّ بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد، ٤/٤٧] لمّا تحوّلت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين.

رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أُتِي بسبعين أسيرًا، فيهم العبّاس[٧]

---

١ قرأ بها أبو عمرو يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.
٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.
٣ أي: "يُثَخِّنَ". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٨.
٤ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢٣٧/٢.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن جَمّاز. المحتسَب لابن جنّي، ٢٨١/١.
٦ البيت لأبي داود الإيادي في ديوانه، ص ١١٢؛ والكتاب لسيبويه، ٦٦/١؛ والشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٣٣/١. وهو منسوب لعديّ بن زيد في ديوان عديّ، ص ١٩٩؛ والكامل للمبرّد، ٧٥/٣.
٧ هو العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم القرشي، أبو الفضل (ت. ٣٢هـ/٦٥٣م). عمُّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. سبقت ترجمته.

وعَقيل بن أبي طالب،[١] فاستشار فيهم، فقال أبو بكر: «قومُك وأهلُك، استَبقِهم، لعلّ الله يتوب عليهم، وخُذْ منهم فديةً تُقوّي بها أصحابك»، وقال عمرُ: «اضرِبْ أعناقهم، فإنّهم أئمّة الكفر، وأنّ الله أغناك عن الفِداء، مَكِّنْ عليًّا مِن عَقيل وحمزةَ مِن العبّاس، ومَكِّني مِن فلان -لنسيبٍ له- فلنضرِبْ أعناقهم»، فقال عليه السلام: «إنّ الله ليُليِّن قلوبَ رجالٍ حتّى يكونَ أليَنَ مِن اللَّبَن، وإنّ الله ليُشدِّد قلوبَ رجالٍ حتّى يكونَ أشدَّ مِن الحجارة، وإنّ مَثلك يا أبا بكر مَثَلُ إبراهيمَ، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم، ٣٦/١٤]، ومَثَلك يا عمرُ مثلُ نوحٍ، قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح، ٢٦/٧١]»، فخيَّر أصحابَه، فأخذوا الفِداء، فنزلت، فدخل عمرُ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإذا هو وأبو بكر يبكِيان، فقال: «يا رسولَ الله، أخبِرْني، فإن وجدتُ بُكاءً بكَيتُ، وإلّا تباكيتُ»، فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفِداءَ، ولقد عُرض عليَّ عذابُهم / أدنى مِن هذه الشجرة»، لشجرةٍ قريبةٍ منه.[٢] [٤١٣ظ]

ورُوي أنّه عليه السلام قال: «لو نزَل عذاب مِن السماء، لَما نجَا غيرُ عمرَ وسعدِ بن مُعاذ»،[٣] وكان هو أيضًا ممّن أشار بالإثخان.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: لولا حكمٌ منه تعالى سبَقَ إثباته في اللوح المحفوظ، وهو ألّا يعاقِبَ المخطِئَ في اجتهاده، أو ألّا يعذِّبَ أهل بدر أو قومًا

---

[١] هو عَقيل بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم القرشي، أبو يزيد (ت. ٦٠هـ/٦٨٠م). ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. قدم البصرة، ثمّ الكوفة، ثمّ الشام. شهد بدرًا مشركًا، وأُخرجَ إليها مكرَهًا، فأُسر، ولم يكن له مال، ففداه عمُّه العبّاس، ثم أتى مسلمًا قبل الحُديبية، وشهد غزوة مُؤتة، ثمّ رجع، فعرَض له مرض، فلم يُسمَع له بذكر في غزوة الفتح ولا حُنين ولا الطائف. وكان أعلمَ قريش بالنَّسب وأعلمَهم بأيّامها. وتُوفّي في خلافة معاوية. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤٢/٤-٤٤؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٦١/٤-٦٣.

[٢] انظر: صحيح مسلم، ١٣٨٣/٣-١٣٨٥ (١٧٦٣)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٧٥/١١-٢٧٦. والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٧/٣. وهو حتّى قوله: "فخيَّر أصحابَه" في مسند أحمد، ١٣٨/٦-١٤٠ (٣٦٣٢).

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧٣/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٣٧/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢٨٣/١١.

لم يصرِّح لهم بالنهي. وأمّا أنّ الفدية التي أخذوها ستَحِلّ لهم،[١] فلا يصلح أن يُعدّ مِن موانع مساس العذاب؛ فإنّ الحِلّ اللاحق لا يرفع حكمَ الحُرمة السابقة، كما أنّ الحُرمة اللاحقة -كما في الخمر مثلًا- لا ترفع[٢] حكمَ الإباحة السابقة، على أنّه قادحٌ في تهويل ما نُعي عليهم مِن أخذ الفِداء.

﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي: لَأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ أي: لأجل ما أخذتم مِن الفِداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادَر قدره.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٦٩﴾

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ رُوي أنّهم أمسكوا عن الغنائم، فنزلت.[٣] قالوا: "الفاء" لترتيب ما بعدها على سبب محذوف، أي: قد أبحتُ لكم الغنائمَ، فكُلوا ممّا غنمتم. والأظهر أنّها للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: دَعُوه،[٤] فكلوا ممّا غنِمتم. وقيل: ﴿مَا﴾ عبارة عن الفدية، فإنّها مِن جملة الغنائم. ويأباه سِباق النظم الكريم وسياقُه.

﴿حَلَٰلًا﴾ حال مِن المغنوم، أو صفة للمصدر، أي: أكلًا حلالًا. وفائدته الترغيبُ في أكلها. وقوله تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾ صفة لـ﴿حَلَٰلًا﴾ مفيدةٌ لتأكيد الترغيب. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في مخالفة أمره ونهيه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفِر لكم ما فرَط منكم مِن استباحة الفِداء قبل ورود الإذن فيه، ويرحَمكم ويتوبُ عليكم إذا اتّقَيتموه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٧٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم﴾ أي: في مَلَكَتِكم، كأنّ أيديَكم قابضة عليهم، ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ وقُرئ: "مِنَ الأُسَارَى".[٥] ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾

---

١ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٢٣٧/٢.
٢ ط س: يرفع.
٣ التفسير البسيط للواحدي، ٢٦٠/١٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٧/٣.
٤ وفي هامش م: ما أخذتم. «منه».
٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.

خلوصَ إيمانٍ وصحّةَ نيّةٍ، ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ مِن الفِداء. وقُرِئ: "أَخَذَ"[١] على البناء للفاعل.

رُوي أنّها نزلت في العبّاس، كلّفه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يفدِيَ ابنَي أخيه عَقيل بنَ أبي طالب ونوفل بنَ الحارث،[٢] فقال: «يا محمّدُ، تركتَني أتكفَّفُ قريشًا ما بقيتُ؟»، فقال له عليه السلام: «فأين الذهَبُ الذي دفعتَه إلى أمّ الفضل[٣] وقتَ خروجك مِن مكّةَ / وقلتَ لها: ما أدري ما يُصيبني في وجهي هذا، [٤١٤و] فإنْ حدَثَ بي حدَثٌ، فهو لكِ ولعبد الله وعُبيد الله والفضل؟»،[٤] فقال العبّاس: «ما يُدريك؟»، فقال: «أخبرَني به ربّي»، قال العبّاس: «فأنا أشهد أنّك صادق، وألّا إلهَ إلّا الله، وأنّك عبده ورسوله، واللهِ لم يطّلع عليه أحدٌ إلّا الله، ولقد دفعتُه إليها في سَواد الليل، ولقد كنتُ مرتابًا في أمرك، فأمّا إذا أخبرتَني بذلك، فلا ريب». قال العبّاس بعد حين: «فأبدَلَني الله خيرًا مِن ذلك؛ لي الآنَ عشرون عبدًا، وإنّ أدناهم لَيَضرِبُ في عشرين ألفًا، وأعطاني زمزمَ، ما أُحبّ أنّ لي بها جميعَ أموال أهل مكّةَ، وأنا أنتظر المغفرة مِن ربّي»،[٥] يتأوّل به ما في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ فإنّه وعدٌ بالمغفرة مؤكَّدٌ بما بعده مِن الاعتراض التذييليّ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن شيبة ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٨.

[٢] هو نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب بن هاشم القرشي، أبو الحارث (ت. ١٥هـ/٦٣٦). ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. أُسر يومَ بدر كافرًا، وفداه عمُّه العبّاس، ولمّا فداه أسلم، وقيل: أسلم وهاجر أيّامَ الخندق، وقيل: بل هو فدى نفسه برِماح كانت له. وآخَى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بينه وبين العبّاس، وكانا شريكَين في الجاهليّة متفاوضَين متحابَّين. شهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فتح مكّة وحُنينًا والطائف. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤/٤٤-٤٧؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٥/٣٤٧-٣٤٨.

[٣] هي لُبابة بنت الحارث بن حَزْن بن بُجَير بن الهُزَم، أمّ الفضل. زوجُ العبّاس بن عبد المطّلب والدةُ أولاده الفضل وعبد الله وغيرهما. وهي لُبابة الكبرى، مشهورة بكُنيتها، ومعروفة باسمها. أسلمت قبل الهجرة فيما قيل، وقيل: بعدها. ماتت في خلافة عثمان قبل زوجها العبّاس. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤/٦؛ **والإصابة** لابن حجر، ١٤/١٦٩، ٤٧٦-٤٧٨.

[٤] هم أولاد العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم القرشي. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤/٦؛ **والاستيعاب** للنمري، ٣/٩٣٣-٩٣٩، ١٠٠٩-١٠١٠، ١٢٦٩-١٢٧٠.

[٥] هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في **مسند أحمد**، ٥/٣٣٤-٣٣٦ (٣٣١٠)؛ **وأسباب النزول** للواحدي، ص ٢٤٥. والألفاظ مِن **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣/٦٧-٦٨.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ أي: نكْثَ ما بايعوك عليه مِن الإسلام. وهذا كلام مَسوق مِن جهته تعالى لتسليته عليه السلام بطريق الوعد له والوعيد لهم. ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بكفرهم ونقضِ ما أُخذ على كلّ عاقل مِن ميثاقه، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: أقدَرَك عليهم حسبما رأيتَ يومَ بدر، فإنْ أعادوا الخيانة، فاعلَمْ أنّه سيُمكّنك منهم أيضًا. وقيل: المراد بـ"الخيانة" منعُ ما ضمِنوا مِن الفِداء.[١] وهو بعيد.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما في نيّاتهم وما يستحقّونه مِن العقاب، ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل كلَّ ما يفعله حسبما يقتضيه حكمته البالغة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ هم المهاجرون، هاجروا أوطانهم حُبًّا لله تعالى ولرسوله، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ بأن صرفوها إلى الكُراع[٢] والسلاح وأنفقوها على المَحاويج،[٣] ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوضِ في المَهالك، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾، قيدٌ لنوعَي الجهاد. ولعلّ تقديمَ "الأموال" على "الأنفس" لِما أنّ المجاهدة بالأموال أكثرُ وقوعًا وأتمُّ دفعًا للحاجة، حيث لا يُتصوّر المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصار، آوَوا المهاجرين، وأنزلوهم منازلَهم،

---

١ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٣٩.

٢ الكُراع: اسمٌ يجمع الخيل والسلاحَ إذا ذُكر مع السلاح. والكُراع: الخيل نفسُها. تهذيب اللغة للأزهري، ١/٢٠٢ «باب العين والكاف مع الراء».

٣ المَحاويج: المحتاجون. عاميّ. المغرب للمطرّزي، ص ١٣٢ «الحاء مع الواو».

وبذَلوا إليهم أموالَهم، وآثروهم على أنفسهم ولو كانت بهم خَصَاصة،[١] ونصروهم على أعدائهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذُكر مِن النعوت الفاضلة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ طبقتهم وبُعدِ منزلتهم في الفضيلة. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ إمّا بدل منه، وقوله تعالى:[٢] ﴿أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ خبرُه، وإمّا مبتدأ ثانٍ، و﴿أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ خبرُه، والجملةُ خبر للمبتدأ الأوّل، أي: بعضُهم أولياءُ بعض في الميراث. وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنُّصرة دون الأقارب حتّى نُسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ الآية.[٣] وقيل: في النُّصرة والمظاهرة.[٤] ويردّه قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ بعد نفي موالاتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ كسائر المؤمنين ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ أي: مِن تولّيهم في الميراث، وإن كانوا مِن أقرب أقاربكم، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾. وقُرئ بكسر الواو[٥] تشبيهًا بالعمل والصناعة، كـ"الكتابة" و"الإمارة". ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ فواجبٌ عليكم أن تنصروهم على المشركين، ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ﴾ منهم ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ معاهدة، فإنّه لا يجوز نقض عهدهم بنصرهم عليهم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فلا تخالِفوا أمره كيلَا يحِلَّ بكم عقابه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾

---

[١] الخَصَاصة والخَصَاص: الفقر. **الصحاح للجوهري**، «خصص». | وأشيرَ إليهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر، ٩/٥٩].

[٢] م - تعالى.

[٣] ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَـٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ [الأحزاب، ٦/٣٣]. | انظر: **جامع البيان للطبري**، ٢٨٩/١١-٢٩٣؛ **والكشف والبيان للثعلبي**، ٣٧٤/٤-٣٧٥.

[٤] أجازه البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٦٨/٣.

[٥] أي: "وِلَايَتِهِمْ". قرأ بها حمزة. **النشر لابن الجزري**، ٢٧٧/٢.

[٤١٤ظ] / ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ آخرَ منهم، أي: في الميراث أو في الموازرة.[١] وهذا بمفهومه مفيدٌ لنفي الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وإيجابِ المباعدة والمصارمة، وإن كانوا أقاربَ.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: ما أُمرتم به مِن التواصل بينكم وتولّي بعضِكم بعضًا حتّى التوارث ومِن[٢] قطع العلائق بينكم وبين الكفّار، ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تحصُلْ فتنة عظيمة فيها، وهي ضَعف الإيمان وظهورُ الكفر، ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدارين. وقرئ: "كثيرٌ".[٣]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ كلام مَسوق للثناء عليهم والشهادةِ لهم بفوزهم بالقِدح المعلّى[٤] مِن الإيمان، مع المَوعِد الكريم بقوله تعالى: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تبعةَ له ولا منّةَ فيه. فلا تكرارَ لِما أنّ مساق الأوّل[٥] لإيجاب التواصل بينهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ بعد هجرتكم ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ في بعض مغازيكم، ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ أي: مِن جملتكم -أيها المهاجرون والأنصار- وهم الذين جاءوا مِن بعدهم يقولون: «ربّنا اغفِرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان»،[٦]

---

[١] المؤازرة بالهمز: المساواة والمحاذاة والمعاونة، وبالواو شاذّ. **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «أزر».

[٢] السياق: ما أُمرتم به مِن التواصل... ومِن قطع العلائق...

[٣] قراءة شاذّة، رواها الشيرازي عن الكسائي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٩. وهي غير القراءة المشهورة عن الكسائي.

[٤] القِدح المعلّى: سابع سِهام الميسر، وهو أوفرُ السهامِ نصيبًا. **الكلّيّات** للكفوي، ص ٧٣٣.

[٥] أي: الأنفال، ٧٢/٨.

[٦] ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر، ١٠/٥٩].

ألحَقَهم الله تعالى بالسابقين وجعَلَهم منهم تفضّلًا منه وترغيبًا في الإيمان والهجرة. وفي توجيه الخطاب إليهم بطريق الالتفات مِن تشريفهم ورفع محلّهم ما لا يخفى.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ﴾ آخَرَ منهم في التوريث مِن الأجانب ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حُكمه أو في اللوح أو في القرآن. واستُدلّ به على توريث ذَوي الأرحام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ ومِن جملته ما في تعليق التوارث بالقرابة الدينيّة أوّلًا وبالقرابة النّسَبيّة آخِرًا مِن الحِكَم البالغة.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الأنفال وبراءة، فأنا شفيعٌ[1] له يومَ القيامة وشاهدٌ[2] أنّه بريءٌ مِن النِّفاق، وأُعطِيَ عشرَ حَسَناتٍ بعدد كلِّ مُنافقٍ ومُنافقةٍ، وكان العرشُ وحَمَلَتُه يستغفرون له أيّامَ حياته».[3]

---

١ ط س: فإنّهما تشفعان. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ ط س: وتشهدان. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ ط س + والله تعالى أعلم وأحكم. | **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٢٤/٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٤٠/٢. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٣٤٣/٤-٣٤٧. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد بفضل الله سبحانه وتعالى حامدًا ومصلّيًا، يوم الأربعاء، الرابع والعشرين مِن المحرّم المحترَم، لسنة ثمانٍ وستّين وتسعِمائةٍ، والحمد لله وحدَه.

/ [1] سورة براءة [١ظ]

مدنيّة، وقيل: إلّا آيتَين.[2]

ولها أسماء أخَرُ: سورة التوبة، والمقَشقِشة، والبحوث، والمنقِّرة، والمُبَعثِرة، والمُثيرة، والحافرة، والمُخزية، والفاضحة، والمنكِّلة، والمشرِّدة، والمدَمدِمة، وسورة العذاب؛ لِما فيها مِن ذكر التوبة، ومِن التبرئة مِن النِّفاق، والبحثِ والتنقير عن حال المنافقين وإثارتِها والحفرِ عنها، وما يُخزيهم ويشرِّدهم ويدمدِم عليهم.

واشتهارها بهذه الأسماء يَقضي بأنّها سورة مستقلّة، وليست بعضًا مِن سورة الأنفال. وادّعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلافُ الظاهر، فيكون حكمةُ ترك التسمية عند النزول نزولَها في رفع الأمان الذي يأبى مقامُه التصديرَ بما يُشعر ببقائه مِن ذكر اسمه تعالى مشفوعًا بوصف "الرحمة"، كما رُوي عن ابن عُيَينة رحمه الله؛[3] لا الاشتباهَ في استقلالها وعدمِه، كما يُحكَى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما،[4] ولا رعايةَ ما وقع بين الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين- مِن الاختلاف في ذلك،[5] على أنّ ذلك ينزع إلى القول بأنّ التسمية ليست مِن القرآن، وإنّما كُتبت للفصل بين السوَر، كما نُقل مِن قدماء الحنفيّة،[6] وأنّ مناط إثباتها في المصاحف وتركِها إنّما هو رأي مَن تصدّى لجمع القرآن دون التوقيف.

---

[1] وفي هامش م الفوقاني: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، وبه أستعين، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله أجمعين.

[2] ط: سورة التوبة، وهي مائة وثلاثون، وقيل: تسع وعشرون آيةً؛ س: سورة براءة، مدنيّة، وقيل: إلّا آيتَين مِن قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ [التوبة، ١٢٨/٩]، وهي آخِرُ ما نزلت؛ ط س + بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٤١/٢؛ واللباب لابن عادل، ٥/١٠.

[4] انظر: مسند أحمد، ٤٥٩/١-٤٦٠ (٣٩٩)؛ وسنن الترمذي، ٢٧٢/٥-٢٧٣ (٣٠٨٦).

[5] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٤٢/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤/١٠-٥.

[6] انظر: تفسير الفاتحة، ١/١.

ولا ريبَ في أنّ الصحيح مِن المذهب أنّها آية فَذّة[١] مِن القرآن، أُنزلت للفصل والتبرّك بها، وألّا مَدخَلَ لرأي أحد في الإثبات والترك، وإنّما المتّبَع في ذلك هو الوحي والتوقيف. ولا مِريةَ في عدم نزولها ههنا، وإلّا لامتنَعَ أن يقع في الاستقلال اشتباهٌ أو اختلافٌ.

فهو[٢] إمّا لاتّحاد السورتين، أو لِما ذكَرْنا. لا سبيلَ إلى الأوّل، وإلّا لَبيّنه صلّى الله عليه وسلّم لتحقّقِ مَزيد الحاجة إلى البيان لتعاضدِ أدلّة الاستقلال [٢و] / مِن كثرة الآيات وطُولِ المدّة فيما بين نزولَيهما، فحيث لم يبيّنه عليه السلام تعيَّنَ الثاني؛ لأنّ عدم البيان مِن الشارع في موضع البيان بيانٌ للعدم.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ①﴾

﴿بَرَآءَةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف. وتنوينه للتفخيم. وقُرئ بالنصب،[٣] أي: اسمَعوا براءةً. و﴿مِنْ﴾ في قوله عزّ وجلّ: ﴿مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ابتدائيّة متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً لها ليفيدَها زيادةَ تفخيم وتهويل، أي: هذه براءة مبتدئة مِن جهة الله سبحانه[٤] ورسولِه واصلةٌ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وإنّما لم يُذكَر ما تعلَّق به البراءة حسبما ذُكر في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة، ٩/٣] اكتفاءً بما في حيّز الصلة -فإنّه مُنبئ عنه إنباءً ظاهرًا- واحترازًا عن تكرير لفظة ﴿مِنْ﴾. وقيل: هي[٥] مبتدأ لتخصّصها بالصفة،[٦] وخبرُه ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾... إلخ.

والذي يقتضيه جزالة النظم هو الأوّل؛ لأنّ هذه البراءة أمرٌ حادثٌ لم يُعهَد عند المخاطَبين ذاتها ولا عنوانُ ابتدائها مِن الله تعالى ورسولِه، حتّى يُخرَجَ ذلك العنوان مُخرَجَ الصفة لها، ويُجعَلَ المقصودُ بالذات والعمدةُ في الإخبار شيئًا آخرَ، هو وصولها إلى المعاهَدين. وإنّما الحقيق بأن يُعتنَى بإفادته حدوث تلك البراءة مِن جهته تعالى ووصولُها إليهم؛ فإنّ حقّ الصفات قبل علم

---

١ الفَذّ: الفرد. الصحاح للجوهري، «فذذ».

٢ أي: عدم نزولها ههنا.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. اللباب لابن عادل، ٦/١٠.

٤ س – سبحانه.

٥ وفي هامش م: أي: ﴿بَرَآءَةٌ﴾. «منه».

٦ وفي هامش م: أي: بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾... إلخ.

المخاطَب بثبوتها لموصوفاتها أن تكون أخبارًا، وحقّ الأخبار بعد العلم بثبوتها لِما هي له أن تكون صفاتٍ، كما حُقّق في موضعه.

وقُرئ: "مِنِ اللهِ"[1] بكسر النون على أنّ الأصل في تحريك الساكن الكسرُ. ولكنّ الوجهَ هو الفتح في لام التعريف خاصّةً لكثرة الوقوع. والعهد: العَقد الموثَّق باليمين.

والخطاب في ﴿عَٰهَدتُّمْ﴾ للمسلمين، وقد كانوا عاهدوا مشركي العربِ / مِن أهل مكّةَ وغيرهم بإذن الله تعالى واتّفاقِ الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فنكَثوا إلّا بني ضَمْرةَ وبني كِنانةَ، فأُمر المسلمون بنَبْذ العهد إلى الناكثين، وأُمهلوا أربعةَ أشهُرٍ ليَسيروا أين شاءوا.[2] [٢ظ]

وإنّما نُسبت البراءة إلى الله تعالى ورسوله -مع شمولها للمسلمين واشتراكِهم في حكمها ووجوبِ العمل بموجَبها- وعُلّقت المعاهَدة بالمسلمين خاصّةً -مع كونها بإذن الله تعالى واتّفاق الرسول عليه السلام- للإنباء عن تنجُّزها وتحتُّمها مِن غير توقّف على رأي المخاطَبين؛ لأنّها عبارة عن إنهاء حكم الأمان ورفعِ الحَظْر المترتِّب على العهد السابق عن التعرّض للكَفَرة، وذلك مَنوط بجناب الله عزّ وجلّ؛ لأنّه أمرٌ كسائر الأوامر الجارية على حسب حكمةٍ تقتضيها وداعيةٍ تستدعيها، تترتّب عليها آثارها مِن غير توقّف على شيء أصلًا.

واشتراكُ المسلمين في حكمها ووجوبِ العمل بموجَبها إنّما هو على طريقة الامتثال بالأمر، لا على أن يكون لهم مَدخَل في إتمامها أو في ترتّب أحكامها عليها. وأمّا المعاهدة، فحيث كانت عقدًا كسائر العقود الشرعيّة لا تتحصّل في نفسها ولا تترتّب عليها أحكامها إلّا بمباشرة المتعاقِدين على وجوهٍ مخصوصةٍ اعتبرها الشرعُ، لم يُتصوّر صدورها عنه سبحانه، وإنّما الصادر عنه في شأنها هو الإذن فيها، وإنّما الذي يباشرها ويتولّى أمرَها المسلمون.

---

[1] هي لغة أهل نجران. انظر: المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٨٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٩.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٣. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٥١ (٥٢١).

ولا يخفى أنّ البراءة إنّما تتعلّق بالعهد، لا بالإذن فيه، فنُسبت كلّ واحدة منهما إلى مَن هو أصل فيها على أنّ في ذلك تفخيمًا لشأن البراءة وتهويلًا لأمرها، وتسجيلًا على الكَفَرة بغاية الذُّلّ والهَوان ونهايةِ الخِزي والخذلان، وتنزيهًا لساحة السُّبحان والكبرياء عمّا يوهِم شائبةَ النقض والبداء؛[١] تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. وإدراجه عليه السلام في النسبة / الأُولى وإخراجُه عن الثانية [٣و] لتنويهِ شأنه الرفيع وإجلالِ قدره المنيع في كِلا المقامين، صلّى الله عليه وسلّم.

وإيثار الجملة الاسميّة على الفعليّة -كأن يقال: "قد بَرِئ الله ورسولُه مِن الذين" أو نحو ذلك- للدلالة على دوامها واستمرارها، وللتوسّل إلى تهويلها بالتنوين التفخيمي كما أشيرَ إليه.

﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢﴾

﴿فَسِيحُواْ﴾ السِّياحة والسَّيْح: الذَّهاب في الأرض والسيرُ فيها بسهولة على مقتضى المشيئة،[٢] كسَيْح الماء[٣] على موجَب الطبيعة، ففيه مِن الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ما ليس في "سِيروا" ونظائِره. وزيادة قوله عزّ وجلّ ﴿فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ لقصد التعميم لأقطارها مِن دار الإسلام وغيرها. والمراد إباحة ذلك لهم وتخليتُهم وشأنَهم مِن الاستعداد للحرب أو تحصينِ الأهل والمال أو تحصيلِ المَهرَب أو غير ذلك؛ لا تكليفُهم بالسِّياحة فيها.

وتلوين الخطاب بصرفه عن المسلمين وتوجيهِه إليهم -مع حصول المقصود بصيغة أمر الغائب أيضًا-[٤] للمبالغة في الإعلام بالإمهال حسمًا لمادّة تعلّلهم بالغفلة، وقطعًا لشَأفة اعتذارهم بعدم الاستعداد. وإيثار صيغة الأمر -مع تسنّي إفادةِ ذلك المعنى بطريق الإخبار أيضًا، كأن يقال مثلًا: "فلكم أن تَسيحوا"

---

١ البَداء: ظهور الرأي بعد أن لم يكن. التعريفات للجرجاني، ص ٤٣.

٢ وفي هامش: كما يرشد إليه تتبع مواقع الاستعمال. «منه».

٣ وفي هامش م: أي: جرَيانها. «منه».

٤ وفي هامش م: كأن يقال: فالْيَسيحوا. «منه».

أو نحو ذلك- لإظهار كمال القوّة والغلبة وعدمِ الاكتراث لهم ولاستعدادهم، فكأنّ ذلك أمرٌ مطلوب منهم.

و"الفاء" لترتيب الأمر بالسياحة وما يعقُبه[١] على ما يؤذِن به البراءة المذكورةُ مِن الجِراب، على أنّ الأوّل[٢] مترتِّب على نفسه، والثاني[٣] بكِلا[٤] متعلَّقَيه على عنوان كونه مِن الله العزيز؛ لا لترتيب الأوّل عليه والثاني على الأوّل كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾... إلخ [النمل، ٦٩/٢٧]، كأنّه قيل: هذه براءة موجِبة لقتالكم، فاسعَوا في تحصيل العُدَد والأسباب، وبالِغوا في إعتاد العَتاد مِن كلّ باب ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ / وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ﴾ [٣ظ] بسِياحتكم في أقطار الأرض في العَرْض والطول، وإن ركِبتم متنَ كلّ صَعب وذَلول،[٥] ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي: لا تفوتونه بالهرب والتحصّن.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ وضع الاسم الجليل موضعَ المضمَر لتربية المَهابة وتهويل أمر الإخزاء، وهو الإذلال بما فيه فضيحة وعارٌ. ﴿مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: مُخزيكم ومُذِلّكم في الدنيا بالقتل والأسر وفي الآخرة بالعذاب. وإيثار الإظهار على الإضمار لذمّهم بالكفر بعد وصفهم بالإشراك، وللإشعار بأنّ علّة الإخزاء هي كفرهم. ويجوز أن يكون المراد جنسَ الكافرين، فيدخل فيه المخاطَبون دخولًا أوّليًا.

والمراد بـ"الأشهُر الأربعة" هي الأشهر الحُرُم التي عُلّق القتال بانسلاخها، فقيل: هي شوّال وذو القعدة وذو الحِجّة والمحرّم. وقيل: هي عشرون مِن ذي الحِجّة والمحرّمُ وصَفرُ وشهرُ ربيعٍ الأوّل وعشرٌ مِن شهر ربيعٍ الآخِر، وجُعلت حُرُمًا لحُرمة قتالهم فيها أو لتغليب ذي الحِجّة والمحرّم على البقيّة. وقيل: مِن عشرِ ذي القعدة إلى عشرٍ مِن شهر ربيعٍ الأوّل؛ لأنّ الحجّ في تلك السنة

---

١ وفي هامش م: مِن قوله: ﴿وَٱعْلَمُواْ﴾. «منه».
٢ وفي هامش م: ﴿سِيحُواْ﴾. «منه».
٣ وفي هامش م: ﴿ٱعْلَمُواْ﴾. «منه».
٤ وفي هامش م: أحدهما: ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾، والثاني: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.
٥ ركِبوا كلَّ صَعب وذَلول في أمرهم: إذا بذَلوا فيه الطاقةَ. أساس البلاغة للزمخشري، «ذلل».

كان في ذلك الوقت للنَّسيء[١] الذي كان فيهم، ثمّ صار في العام القابل في ذي الحِجّة، وذلك قوله عليه السلام: «إنّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلق الله السماواتِ والأرضَ».[٢]

رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم أمر أبا بكر رضي الله عنه على موسم سنةِ تسعٍ، ثمّ أتبعه عليًّا رضي الله عنه على العَضْباء[٣] ليقرأَها على أهل الموسم، فقيل له عليه السلام: «لو بعثتَ بها إلى أبي بكر؟»، فقال عليه السلام: «لا يؤدّي عنّي إلّا رجلٌ منّي»، وذلك لأنّ عادة العرب ألّا يتولّى أمرَ العهد والنقض على القبيلة إلّا رجلٌ منها، فلمّا دنا عليّ سمع أبو بكر رضي الله عنهما الرُّغاء، فوقف فقال: «هذا رُغاء ناقة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، فلمّا لحِقه قال: «أميرٌ أو مأمورٌ؟»، قال: «مأمورٌ»، / فمضيَا، فلمّا كان قبل يوم الترويِة[٤] خطَب أبو بكر [٩٤و] رضي الله عنه وحدّثهم عن مناسكهم، وقام عليّ يومَ النحر عند جَمرة العقبة، فقال: «يا أيّها الناس! إنّي رسولُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم إليكم»، فقالوا: «بماذا؟»، فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آيةً، ثمّ قال: «أُمرت بأربع: ألّا يقرَبَ البيتَ بعد العام مشرك، ولا يطوفَ بالبيت عُريان، ولا يدخلَ الجنّة إلّا كلُّ نفس مؤمنة، وأن يُتمّ إلى كلّ ذي عهد عهدَه».[٥]

---

[١] النَّسيء: شهرٌ كانت تؤخّره العرب في الجاهليّة. كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي، ١٦٩٤/٢. وانظر: تفسير التوبة، ٣٧/٩.

[٢] صحيح البخاري، ٦٦/٦ (٤٦٦٢)؛ صحيح مسلم، ١٣٠٥/٣-١٣٠٦ (١٦٧٩). | انظر الأقوال في الأشهُر الحُرُم: جامع البيان للطبري، ٣٠٦/١١-٣١١؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٤٤/٢.

[٣] العَضْب: السيف القاطع. عضَبه يعضِبه عَضْبًا، أي: قطعه. وناقة عَضباء، أي: مشقوقة الأُذُن. ويُقال: هي التي في أحد أُذُنَيها شقٌّ. وسُمّيت ناقة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "العَضْباءَ". كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٩٩/٨ «باب العين والضاد والباء معهما».

[٤] يوم التروِية: الثامن مِن ذي الحِجّة، سُمّي به؛ لأنّ الحُجّاج يتروّون به مِن الماء، وينهَضون إلى مِنى ولا ماء بها، فيتزوّدون رِيّهم مِن الماء. تهذيب اللغة للأزهري، ١٥-٢٢٥، «باب الراء والميم».

[٥] م س - وأن يُتمّ إلى كلّ ذي عهد عهدَه ["صح" في هامش م س]. | أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٠/٣. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في جامع البيان للطبري، ٣١٦/١١-٣١٧. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٩/٢-٥١ (٥٢١).

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي: إعلام منهما. "فَعَال" بمعنى "الإفعال"، كالعَطاء بمعنى الإعطاء. ورفعُه كرفع ﴿بَرَآءَةٌ﴾، والجملة معطوفة على مثلها. وإنّما قيل: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: كافّةً؛ لأنّ الأذان غيرُ مختصّ بقوم دون آخَرين كالبراءة الخاصّة بالناكثين؛ بل هو شاملٌ لعامّة الكَفَرة وللمؤمنين أيضًا.

﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو يوم العيد؛ لأنّ فيه تمامَ الحجّ ومعظَم أفعاله، ولأنّ الإعلام كان فيه، ولِما رُوي أنّه عليه السلام وقف يومَ النحر عند الجَمَرات[1] في حَجّة الوداع، فقال: «هذا يومُ الحجّ الأكبر».[2] وقيل: يومُ عرفةَ؛ لقوله عليه السلام: «الحجّ عرفةُ».[3] ووصفُ ﴿ٱلْحَجِّ﴾ بـ﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾؛ لأنّ العُمرة تسمّى الحجَّ الأصغرَ، أو لأنّ المراد بـ﴿ٱلْحَجِّ﴾ ما يقع في ذلك اليوم مِن أعماله، فإنّه أكبرُ مِن باقي الأعمال، أو لأنّ ذلك الحجّ اجتمع فيه المسلمون والمشركون، أو لأنّه ظهر فيه عزُّ المسلمين وذلُّ المشركين.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: بأنّ الله. وقُرئ بالكسر[4] لِما أنّ "الأذان" فيه معنى "القول". ﴿بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: المعاهدين الناكثين، ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ عطفٌ على المستكنّ في ﴿بَرِيٓءٌ﴾، أو على محلّ ﴿أَنَّ﴾ واسمِها على قراءة الكسر. وقُرئ بالنصب[5] عطفًا على اسم ﴿أَنَّ﴾، أو لأنّ "الواو" بمعنى "مع"، أي: بريءٌ معه منهم؛ وبالجرّ[6] على الجِوار، وقيل: على القَسم.

---

١ الجَمَرات والجِمار: الحَصَيات التي تُرمَى بمِنى، واحدتها: جَمرة. **المخصّص** لابن سِيده، ٤/٦٠.

٢ **جامع البيان** للطبري، ١١/٣٣١-٣٣٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٤٥.

٣ **مسند أحمد**، ٣١/٦٤ (١٨٧٧٤)؛ **سنن الترمذي**، ٣/٢٢٨ (٨٨٩).

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ويحيى بن وثّاب وإبراهيم النخعي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ويحيى بن وثّاب وإبراهيم النخعي ويعقوب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بخلاف. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠٩.

[٤ظ] ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ / مِن الشرك والغَدْر. التفاتٌ مِن الغيبة إلى الخطاب لزيادة تهديد وتشديد. و"الفاء" لترتيب مقدَّم الشرطيّة على الأذان بالبراءة المذيَّلة بالوعيد الشديد المؤذِنِ بلين عَريكتهم وانكسارِ شدّة شَكيمتهم. ﴿فَهُوَ﴾ أي: فالتَّوب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدارين، ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة أو ثبَتُّم على التولّي مِن الإسلام والوفاء، ﴿فَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ غيرُ سابقين ولا فائتين.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تلوين للخطاب وصرفٌ له عنهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّ البِشارة ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وإن كانت بطريق التهكّم، إنّما تَليق بمَن يقف على الأسرار الإلهيّة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استدراك مِن النَّبذ السابق الذي أُخِّر فيه القتال أربعةَ أشهرٍ، كأنّه قيل: لا تُمهِلوا الناكثين فوقَ أربعةِ أشهرٍ، لكن الذين عاهدتموهم ثمّ لم ينكثُوا عهدهم، فلا تُجرُوهم مُجرى الناكثين في المسارعة إلى قتالهم؛ بل أتِمّوا إليهم عهدهم. ولا يضُرّ في ذلك تخلّلُ الفاصل بقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾... إلخ؛ لأنّه ليس بأجنبيّ بالكلّيّة؛ بل هو أمر بإعلام تلك البراءة، كأنّه قيل: وأَعلِموها.

وقيل: هو استثناء متّصلٌ مِن ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ الأوّل.[١] ويردّه بقاء الثاني على العموم مع كونهما عبارةً عن فريق واحد. وجعلُه استثناءً مِن الثاني[٢] يأباه بقاء الأوّل كذلك. وقيل: هو استدارك مِن المقدَّر في ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾،[٣] أي: قولوا لهم: سِيحوا أربعةَ أشهرٍ، لكن الذين عاهدتم منهم، ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ مِن شروط الميثاق، ولم يقتُلوا منكم أحدًا، ولم يضُرّوكم قطّ. وقُرئ بالمعجَمة،[٤] أي:

---

١ اللباب لابن عادل، ١٠/١٥.

٢ انظر: التبيان للعُكبري، ٢/٦٣٥.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٥-٢٤٦.

٤ أي: "لَم يَنقُضُوكُم". قراءة شاذّة، مرويّة عن عطاء بن يسار. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٠.

لم ينقُضوا عهدكم شيئًا مِن النقض. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدّة.

﴿وَلَمْ يُظَاهِرُواْ﴾ أي: لم يعاوِنوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ مِن أعدائكم، كما عدَتْ بنو بكر على خُزاعةَ عَيْبةِ[1] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فظاهرَتْهم[2] قريشٌ بالسلاح،[3] / ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ أي: أدُّوه إليهم كَمَلًا[4] ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [٥و] ولا تفاجئوهم بالقتال عند مُضيّ الأجل المضروب للناكثين، ولا تعامِلوهم معاملتَهم. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «بقي لِحيٍّ مِن كِنانةَ مِن عهدهم تسعةُ أشهُرٍ، فأُتمَّ إليهم عهدهم».[5]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تعليل لوجوب الامتثال، وتنبيه على أنّ مراعاة حقوق العهد مِن باب التقوى، وأنّ التسوية بين الوَفيّ والغادر منافية لذلك، وإن كان المعاهَد مشركًا.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ أي: انقضى. استُعير له مِن الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجَلده. والأغلب إسناده إلى الجَلد.[6] والمعنى: إذا انقضى ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ وانفصلت عمّا كانت مشتملةً عليه ساترةً له انفصالَ الجَلد عن الشاة، وانكشف عنه انكشافَ الحجاب عمّا وراءَه؛ كما ذكره أبو الهيثم[7] مِن أنّه يقال:

[1] عَيْبة الرَّجل: خاصّته وأصحابُ نصحته وسرّه. **كتاب الأمثال** للقاسم بن سلّام، ص ١٧٣.

[2] س: وظاهرتهم.

[3] انظر: **جامع البيان** للطبري، ١١/٣٥٢-٣٥٤؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٤٦-٢٤٧.

[4] أعطِه هذا المالَ كَمَلًا، أي: كلَّه. **الصحاح** للجوهري، «كمل».

[5] **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٤٧.

[6] وفي هامش م: وقد يُسنَد إلى الحيوان. ومنه: الشاة المسلوخة. «منه».

[7] هو خالد بن يزيد بن أبي سُويد بن أسد، أبو الهيثم. لغويّ. كان إمامًا في اللغة وعلم العربيّة والصلابة في السنّة. مات سنة ستٍّ وسبعين ومائتين، وهو ابن تسعين سنةً. انظر: **معجم الأدباء** للحَموي، ٣/١٢٣٧-١٢٣٨.

"أهلَلْنا شهرَ كذا"، أي: دخلنا فيه ولبِسناه، فنحن نزداد كلَّ ليلة لباسًا منه إلى مُضيِّ نِصفه، ثمّ نسلخه مِن أنفُسنا جزءًا فجزءًا حتّى نسلخَه عن أنفُسنا كلَّه، فينسلِخ.[١] وأنشد:

إذا ما سلخْتُ الشهرَ أهلَلْتُ مثلَه كفَى قاتلًا سَلْخي الشهورَ وإهلالي[٢]

وتحقيقه: أنّ الزمان مُحيط بما فيه مِن الزمانيّات مشتمِلٌ عليه اشتمالَ الجَلد للحيوان، وكذا كلُّ جزء مِن أجزائه الممتدّة مِن الأيّام والشهورِ والسنينَ، فإذا مضى فكأنّه انسلخ عمّا فيه. وفيه مزيدُ لطف لِما فيه مِن التلويح بأنّ تلك الأشهُر كانت حِرْزًا لأولئك المعاهَدين عن غوائل أيدي المسلمين، فنِيط قتالهم بزوالها.

والمراد بها إمّا ما مرّ مِن الأشهُر الأربعة فقط، ووضعُ المُظهَر موضعَ المضمَر ليكون ذريعةً إلى وصفها بالحُرمة تأكيدًا لِما يُنبئ عنه إباحة السِّياحة مِن حُرمة التعرّض لهم، / مع ما فيه مِن مَزيد الاعتناء بشأنها؛ أو هي مع ما فُهِم مِن قوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾[٣] مِن تتمّة مدّةٍ بقيتْ لغير الناكثين. [٥ظ]

فعلى الأوّل يكون المراد بـ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الناكثين خاصّةً، فلا يكونُ قتال الباقين مفهومًا مِن عبارة النصّ، بل مِن دلالته؛ وعلى الثاني مفهومًا مِن العبارة، إلّا أنّه يكون الانسلاخ وما نِيط به مِن القتال حينئذ شيئًا فشيئًا، لا دفعةً واحدةً، كأنّه قيل: فإذا تمَّ ميقاتُ كلّ طائفة فاقتُلوهم.

وحملُها على الأشهُر المعهودة الدائرة في كلّ سنة لا يساعده النظم الكريم. وأمّا أنّه يستدعي بقاءَ حُرمة القتال فيها، إذ ليس فيما نزل بعدُ ما ينسَخها،[٤] فلا اعتدادَ به؛ لا لأنّها نُسخت بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾

---

[١] نقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة، ٧٩/٧ «أبواب الخاء والسين»؛ وابن عادل في اللباب، ١٦/١٠.

[٢] البيت لعبدة بن الطبيب في الدرّ الفريد للمستعصمي، ١٩٩/٣، وبلا نسبة في تهذيب اللغة للأزهري، ٧٩/٧ «أبواب الخاء والسين»؛ والبصائر والذخائر لأبي حيّان التوحيدي، ١٣٩/٢.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧١/٣.

[البقرة، ١٩٣/٢؛ الأنفال، ٣٩/٨] كما تُوهّم،[1] فإنّه رَجمٌ بالغيب؛ لأنّه إن أُريدَ به ما في سورة الأنفال، فإنّه نزل عَقيبَ غزوة بدر، وقد صحّ أنّ المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ... إلخ[2] أبو سفيانَ وأصحابُه، وقد أسلَمَ في أواسط رمضانَ عامَ الفتح سنةَ ثمانٍ، وسورةُ التوبة إنّما نزلت في شوّال سنةَ تسعٍ. وإن أُريدَ ما في سورة البقرة، فإنّه أيضًا نزل قبل الفتح كما يُعرب عنه ما قبله مِن قوله: ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾ [البقرة، ١٩١/٢]، أي: مِن مكّةَ، وقد فُعل ذلك يومَ الفتح؛ فكيف يُنسَخ به ما ينزل بعده؟ بل[3] لأنّ انعقاد الإجماع على انتساخها كافٍ في الباب مِن غير حاجة إلى كون سنده منقولًا إلينا. وقد صحّ أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حاصرَ الطائفَ لعشرٍ بَقِينَ مِن المحرّم.[4]

﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ / مِن حِلّ وحَرَم، ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾ أي: ائسِروهم. والأَخيذ: الأسير. ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ أي: قيّدوهم أو امنَعوهم مِن التقلّب في البلاد. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حِيلوا بينهم وبين المسجد الحرام».[5] ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ أي: كلَّ مَمَرٍّ ومُجتازٍ يجتازون منه في أسفارهم. وانتصابه على الظرفيّة، أي: ارصُدوهم وارقُبوهم حتّى لا يمرّوا به. وفائدته على التفسير الثاني دفعُ احتمال أن يُراد بالحصر المحاصرةُ المعهودة. [٦و]

﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الشرك بالإيمان غِبَّما اضطُرّوا بما ذُكر مِن القتل والأسر والحصر، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تصديقًا لتوبتهم وإيمانهم.

---

[1] وفي هامش م: قاله صاحب النهاية ناقلًا عن المبسوط. «منه»». | انظر: المبسوط للسرخسي، ٢٦/١٠-٢٧. | وصاحب النهاية هو الحسين بن عليّ بن حجّاج، حُسام الدين السِّغناقي (ت. ٧١٤هـ/١٣١٤م). فقيه حنفيّ. نسبته إلى سِغْناق، بلدة في تركستان. كان فقيهًا جدليًا نحويًا. تفقّه على محمّد بن محمّد البخاري ومحمّد بن محمّد المايمرغي. وممّن تفقّه عليه قوام الدين محمّد بن محمّد الكاكي والسيّد جلال الدين الكرلاني. ومِن مصنّفاته: النهاية في شرح الهداية، وشرح التمهيد في قواعد التوحيد، والكافي شرح أصول البزدوي. انظر: الفوائد البهيّة للّكنوي، ص ١٠٦-١٠٧.

[2] ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال، ٣٨/٨].

[3] السياق: لا لأنّها نُسخت بقوله تعالى... بل لأنّ انعقاد الإجماع...

[4] تفسير السمرقندي، ٥٦/٢ (التوبة، ٣٦/٩). وانظر: سيرة ابن هشام، ٤٧٨/٢-٤٨٧.

[5] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٤٨/٢.

واكْتفي بذكرهما عن ذكر بقيّة العبادات لكونهما رئيسَي العبادات البدنيّة والماليّة. ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ فدَعُوهم وشأنَهم، ولا تتعرّضوا لهم بشيء ممّا ذُكر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما سلف مِن الكفر والغَدْر ويُثيبهم بإيمانهم وطاعاتهم. وهو تعليل للأمر بتخلية السبيل.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿وَإِنْ أَحَدٌ﴾ شروع في بيان حكم المتَصدِّين لمبادي التوبة مِن سماع كلام الله تعالى والوقوفِ على شعائر الدين إثرَ بيان حكم التائبين عن الكفر والمُصرّين عليه. وهو مرتفع بشرط مضمَرٍ يفسّره الظاهر، لا بالابتداء؛ لأنّ "إنْ" لا تدخل إلّا الفعلَ.

﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ بعد انقضاء الأجل المضروب، أي: سألك أن تُؤمنه وتكونَ له جارًا، ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي: آمِنْه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويتدبّرَه ويطّلعَ على حقيقة ما تدعو إليه. والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخرَ في الفهم لكونهم مِن أهل اللَّسَن والفصاحة.

و﴿حَتَّىٰ﴾ -سواء كانت للغاية أو للتعليل- متعلِّقة بما عندها، لا بقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾؛ لأنّه يؤدِّي إلى إعمال ﴿حَتَّىٰ﴾ في المضمَر، وذلك ممّا لا يكاد يُرتكب في غير ضرورة الشعر، كما في قوله:

فــلَا واللهِ لا يَـلـقَـى أنـاسٌ فـتًـى حَـتَّـاك يـا ابـنَ أبـي يَـزيـدِ[1]

كذا قيل،[2] إلّا أنّ تعلّق الإجارة بسماع كلام الله تعالى بأحد الوجهين يستلزمُ تعلّقَ الاستجارة أيضًا بذلك، أو بما في معناه مِن أمور الدين. وما رُوي عن عليّ رضي الله عنه أنّه أتاه رجل مِن المشركين فقال: «إن أراد الرجل منّا أن يأتيَ محمّدًا بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله تعالى[3] أو لحاجة، قُتِل؟»،

---

[1] البيت بلا نسبة في ضرائر الشعر لابن عصفور، ص ٣٠٩؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٢٠؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٩/٤٧٤.

[2] انظر: اللباب لابن عادل، ١٠/١٩-٢٠.

[3] م - تعالى.

قال: «لا؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾»... إلخ،[1] فالمراد بما فيه مِن الحاجة هي الحاجة المتعلِّقة بالدين، لا ما يعُمّها وغيرَها مِن الحاجات الدنيويّة كما يُنبئ عنه قوله: «أن يأتيَ محمّدًا»؛ فإنّ مَن يأتيه عليه السلام إنّما يأتيه للأمور المتعلِّقة بالدين.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ﴾ بعد استماعه / له إن لم يؤمن ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: مَسكنَه الذي يأمَن فيه، وهو دار قومه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: الأمر بالإجارة وإبلاغ المَأمَن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإسلام وما حقيقته، أو قومٌ جَهَلة، فلا بدّ مِن إعطاء الأمان حتّى يفهموا الحقّ ولا يبقى لهم معذِرة أصلًا. [٦٦ظ]

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ شروع في تحقيق حقّيّة ما سبق مِن البراءة وأحكامها المتفرّعة عليها وتبيينِ الحكمة الداعية إلى ذلك. والمراد بـ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثون؛ لأنّ البراءة إنّما هي في شأنهم. والاستفهام إنكاريّ؛ لا بمعنى إنكار الواقع كما في قوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾... إلخ [البقرة، ٢٨/٢]، بل بمعنى إنكار الوقوع.

و﴿يَكُونُ﴾ مِن الكون التامّ، و﴿كَيْفَ﴾ في محلّ النصب على التشبيه بالحال أو الظرف، وقيل: مِن الكون الناقص، و﴿كَيْفَ﴾ خبرُ ﴿يَكُونُ﴾، قُدّم على اسمه -وهو ﴿عَهْدٌ﴾- لاقتضائه الصدارةَ، و﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿عَهْدٌ﴾، ولو كان مؤخّرًا لكان صفةً له، أو بـ﴿يَكُونُ﴾ عند مَن يجوّز عمل الأفعال الناقصة في الظروف، و﴿عِندَ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع صفةً لـ﴿عَهْدٌ﴾، أو بنفسه؛ لأنّه مصدر، أو بـ﴿يَكُونُ﴾ كما مرّ.

ويجوز أن يكون الخبرُ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾، و﴿عِندَ﴾ كما ذُكر أو متعلِّقٌ بالاستقرار الذي تعلّق به ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾. ويجوز أن يكون الخبرُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، و﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾

---

[1] التفسير البسيط للواحدي، ٢٩٨/١٠-٢٩٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٤٨/٢.

إمّا تبيين، وإمّا حال مِن ﴿عَهْدٌ﴾، وإمّا متعلّق بـ﴿يَكُونُ﴾ أو بالاستقرار الذي تعلّق به الخبر، ولا يبالَى بتقديم معمول الخبر على الاسم لكونه حرفَ جرّ.

و﴿كَيْفَ﴾ على الوجهين الأخيرين نصبٌ على التشبيه بالظرف أو الحالِ كما في صورة الكون التامّ. وهو[1] الأَولى؛ لأنّ في إنكار ثبوت العهد في نفسه مِن المبالغة ما ليس في إنكار ثبوته للمشركين؛[2] لأنّ ثبوته الرابطي فرعُ ثبوته العينيّ، فانتفاءُ الأصل يوجِب انتفاءَ الفرع رأسًا.

وفي توجيه الإنكار إلى كيفيّة ثبوت العهد مِن المبالغة ما ليس في توجيهه إلى ثبوته؛[3] لأنّ كلّ موجود يجب أن يكون وجودُه على حال مِن الأحوال قطعًا، فإذا انتفى جميعُ أحوال وجوده، فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانيّ، أي: على أيّ حال أو في أيّ حال يوجَد لهم عهدٌ معتدٌّ به ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ﴾ يستحِقّ أن يراعَى حقوقه، ويحافَظَ عليه إلى تمام المدّة، ولا يُتعرّضَ لهم بحسبه قتلًا وأخذًا.

وأمّا أن يأمَنوا به مِن عذاب الآخرة كما قيل، فلا سبيلَ إلى اعتباره أصلًا؛ إذ لا دخلَ لعهدهم في ذلك الأمن قطعًا، وإن كان مرعيًّا عند الله تعالى وعند رسوله كعهد غير الناكثين. وتكرير كلمة ﴿عِندَ﴾ للإيذان بعدم الاعتداد به عند كلٍّ منهما على حِدة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ استدراك مِن النفي المفهوم مِن الاستفهام المتبادر شمولُه لجميع المعاهَدين، أي: لكن الذين ﴿عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهم المستثنَون فيما سلف. والتعرّض لكون المعاهَدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والإشعارِ بسبب وكادتها.

ومحلّه الرفعُ على الابتداء، خبره قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ و"الفاء" لتضمّنه معنى الشرط. / و﴿مَا﴾ إمّا مصدريّة منصوبةُ المحلّ [٩٧و]

---

[1] أي: كون ﴿يَكُونُ﴾ مِن الكون التامّ.

[2] وفي هامش م: فيه إشعار بأنّ الأظهر على تقدير كون الكون ناقصًا أن يكون الخبرُ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾. «منه».

[3] وفي هامش م: كِلتاهما على التشبيه.

على الظرفيّة بتقدير المضاف، أي: فاستقِيموا لهم مدّةَ استقامتهم لكم؛ وإمّا شرطيّة منصوبةُ المحلّ على الظرفيّة الزمانيّة، أي: أيَّ زمان استقاموا لكم فاستقِيموا لهم، أو مرفوعةٌ على الابتداء، والعائد محذوف، أي: أيُّ زمان استقاموا لكم فيه فاستقِيموا لهم فيه.

وقيل: الاستثناء متّصل، محلُّه النصب على الأصل أو الجرُّ على البدل مِن ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، والمراد بهم الجنس، لا المعهودُ.

وأيًّا ما كان، فحكمُ الأمر بالاستقامة ينتهي بانتهاء مدّة العهد؛ لأنّ استقامتهم التي وُقّت بوقتها الاستقامة المأمورُ بها عبارةٌ عن مراعاة حقوق العهد، وبعد انقضاء مدّته لا عهدَ ولا استقامةَ، فصار غيرَ[1] الأمر الوارد فيما سلف، حيث قيل: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾؛[2] خلَا أنّه قد صُرّح ههنا بما لم يصرَّح به هناك مع كونه معتبَرًا قطعًا، وهو تقيّدُ الإتمام المأمور به ببقائهم على ما كانوا عليه مِن الوفاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ تعليل للأمر بالاستقامة، وإشعار بأنّ القيام بموجَب العهد مِن أحكام التقوى كما مرّ.

﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾

﴿كَيۡفَ﴾ تكرير لاستنكار ما مرّ مِن أن يكون للمشركين عهدٌ حقيقٌ بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله صلّى الله عليه وسلّم.[3] وأمّا ما قيل مِن أنّه لاستبعاد ثباتهم على العهد،[4] فكما ترى؛ لأنّ ما يُذكَر بصدد التعليل للاستبعاد عينُ عدم ثباتهم على العهد، لا أنّه شيء يستدعيه، وإنّما أعيدَ الاستنكار والاستبعاد تأكيدًا لهما، وتمهيدًا لتَعداد العِلل الموجِبة لهما لإخلال تخلّل ما في البَيْن بالارتباط والتقريب.

---

[1] ط س: عين. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[2] التوبة، ٩/٤.

[3] م - صلّى الله عليه وسلّم.

[4] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٤٩.

وحذفُ الفعلِ المستنكَر للإيذان بأنّ النفس مستحضِرة له مترقِّبةٌ لورود ما يوجِب استنكارَه؛ لا لمجرّد كونه معلومًا[1] كما في قوله:

وخبَّرتُمانِي أنّما الموتُ بالقُرى   فكيف وهَاتَا هَضْبةٌ وقَلِيبُ[2]

فإنّه علّة مصحِّحة، لا مرجِّحةٌ، أي: كيف يكون لهم عهدٌ معتدّ به عند الله تعالى وعند رسوله، ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: وحالُهم أنّهم إن يظهَروا عليكم، أي: يظفروا بكم، ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ أي: لا يرعَوا في شأنكم. وأصل الرُّقوب: النظر بطريق الحفظ والرعاية، ومنه "الرقيب"، ثمّ استُعمل في مطلق الرعاية. و"المراقبة" أبلغُ منه كالمراعاة. وفي نفي الرقوب مِن المبالغة ما ليس في نفيها.

﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: حَلِفًا، وقيل: قرابةً ولا عهدًا، أو حقًّا يُعاب على إغفاله مع ما سبق لهم مِن تأكيد الأيمان / والمواثيق، يعني: أنّ وجوب مراعاة حقوق العهد على كلٍّ مِن المتعاهدين مشروطٌ بمراعاة الآخَر لها، فإذا لم يُراعِها المشركون فكيف تُراعُونها؟ على مِنوال قول مَن قال: [٧ظ]

عَـلَامَ نقبَلُ منهم فِديةً وهُمُ   لا فِضّةً قبِلوا منّا ولا ذَهَبا[3]

وقيل: الإلّ مِن أسماء الله عزّ وعلَا،[4] أي: لا يَرعَوا حقَّ الله تعالى؛ وقيل: الجُؤار، ومآله الحِلفُ؛ لأنّهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتَهم لتشهيره.

ولمّا كان تعليقُ عدم رعاية العهد بالظفر موهِمًا للرعاية عند عدمه، كُشف عن حقيقة شئُونهم الجليّة والخفيّة بطريق الاستئناف، وبُيِّن أنّهم في حالة العجز أيضًا ليسوا مِن الوفاء في شيء، وأنّ ما يُظهرونه مداهَنة، لا مهادَنة،

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٤٩.

٢ البيت لكعب بن سعد الغَنَوي في كتاب سيبويه، ٣/٤٨٧؛ والحماسة البصريّة لأبي الحسن البصري، ١/٢٣٣؛ وإيضاح شواهد الإيضاح للقيسي، ٢/٨٢٦. | الهَضْبة: الجبل المنبسط على وجه الأرض. والقَليب: البئر. الصحاح للجوهري، «هضب، قلب».

٣ وفي هامش م: وقولِ الحماسي:
لا تَطمَعوا أن تُهينُونا ونُكرمَكم
وأن نكُفَّ الأذى عنكم وتُؤذُونَا
البيت في المتن لأبي أذينة في غُرَر الخصائص الواضحة للوطواط، ص ٤٩٦-٤٩٧؛ ونهاية الأرَب للنُّويري، ١٥/٣٢١. ٣٢٠ والبيت بالهامش للفضل بن العبّاس بن عُتبة بن أبي لهب في شرح ديوان الحماسة للأصفهاني، ص ١٦٤؛ والدرّ الفريد للمستعصمي، ١١/١٦٣-١٦٤؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٨/٣٢٧.

٤ س: تعالى.

فقيل: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ حيث يُظهرون الوفاء والمصافاةَ، ويَعِدون لكم بالإيمان والطاعة، ويؤكِّدون ذلك بالأيمان الفاجرة، ويتعلّلون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة. ونسبة "الإرضاء" إلى "الأفواه" للإيذان بأنّ كلامهم مجرّدُ ألفاظ يتفوّهون بها مِن غير أن يكون لها مِصداق في قلوبهم.

﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ ما يفيده كلامهم، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن الطاعة -فإنّ مراعاة حقوق العهد مِن باب الطاعة- متمرِّدون ليست لهم مُروءة رادعةٌ ولا عقيدة وازعةٌ، لا يتسترّون كما يتعاطاه بعضُهم ممّن يتفادَى عن الغَدْر ويتعفّف عمّا يجُرّ أُحدُوثةَ السَّوْء.

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩﴾

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بآياته الآمِرة بالإيفاء بالعهود والاستقامةِ في كلّ أمر، أو بجميع آياته، فيدخل فيها ما ذُكر دخولًا أوّليًا، أي: تركوها وأخذوا بدلها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: شيئًا حقيرًا مِن حُطام الدنيا، وهو أهواؤهم وشهَواتُهم التي اتّبعوها، أو ما أنفقه أبو سفيانَ مِن الطعام وصرَفه إلى الأعراب.[1]

﴿فَصَدُّوا۟﴾ أي: عدَلوا ونكَبوا، مِن "صدَّ صُدودًا"، أو صرَفوا غيرَهم، مِن "صدَّ صَدًّا". و"الفاء" للدلالة على سببيّة الاشتراء لذلك. ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي: الدينِ الحقّ الذي لا مَحيدَ عنه، والإضافةُ للتشريف؛ أو سبيلِ بيته الحرام، حيث كانوا يصُدّون الحُجّاج والعُمّار عنه.

[٩٨و] ﴿إِنَّهُمْ / سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئسَ ما كانوا يعملونه أو عملُهم المستمرّ. والمخصوص بالذمّ محذوف. وقد جُوّز أن يكون كلمة ﴿سَآءَ﴾ على أصلها مِن التصرّف لازمةً بمعنى "قبُحَ"، أو متعدّيةً، والمفعول محذوف، أي: ساءَهم الذي يعملونه أو عملُهم.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾

وقوله عزّ وعلا:[2] ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ناعٍ عليهم عدمَ مراعاة

---

[1] **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٥٠.

[2] س: وجلّ.

حقوق عهد المؤمنين على الإطلاق، فلا تكرارَ. وقيل: هذا في اليهود أو في الأعراب المذكورين ومَن يحذُو حَذْوَهم.[١] وأمّا ما قيل[٢] مِن أنّه تفسير لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أو دليلٌ على ما هو مخصوص بالذمّ، فمُشعِرٌ باختصاص الذمّ والسوء بعملهم هذا دون غيره.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما عُدّد مِن الصفات السيّئة ﴿هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوِزون الغايةَ القُصوى مِن الظلم والشرارة.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿فَإِن تَابُواْ﴾ أي: عمّا هم عليه مِن الكفر وسائر العظائم. و"الفاء" للإيذان بأنّ تقريعهم بما نُعي عليهم مِن مساوئ أعمالهم مزجرةٌ عنها ومظنّةٌ للتوبة. ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: التزموهما وعزَموا على إقامتهما، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم. وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ متعلِّق بـ﴿إِخْوَٰنُكُمْ﴾ لِما فيه مِن معنى الفعل، أي: لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، فعامِلوهم معاملةَ الإخوان. وفيه مِن استمالتهم واستجلابِ قلوبهم ما لا مزيدَ عليه.

والاختلاف بين جواب هذه الشرطيّة وجوابِ التي مرّت مِن قبلُ مع اتّحاد الشرط فيهما؛ لِما أنّ الأُولى سِيقت إثرَ الأمر بالقتل ونظائره، فوجب أن يكون جوابها أمرًا بخلاف ذلك، وهذه سِيقت بعد الحكم عليهم بالاعتداء وأشباهه، فلا بدَّ مِن كون جوابها حُكمًا بخلافه البتّةَ.

[٨ظ] ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نبيّنها. والمراد بها إمّا ما مرّ مِن الآيات / المتعلِّقة بأحوال المشركين مِن الناكثين وغيرهم وأحكامِهم حالتَي الكفر والإيمان، وإمّا جميعُ الآيات، فيندرج فيها تلك الآياتُ اندراجًا أوّليًا. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما فيها مِن الأحكام أو لقوم عالمين. وهو اعتراض للحثّ على التأمّل في الأحكام المندرجة في تضاعيفها والمحافظةِ عليها.

---

[١] ذكرهما البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٣/٣.

[٢] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٣/٣.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾، أي: وإن لم يفعلوا ذلك؛ بل نقَضوا ﴿أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ الموثَّق بها، وأظهروا ما في ضمائرهم مِن الشرّ، وأخرجوه مِن القوّة إلى الفعل حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ﴾ الآية [التوبة، ٨/٩]، أو ثبتوا على ما هم عليه مِن النَّكْث؛ لا أنّهم ارتدّوا بعد الإيمان كما قيل،[١] ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ قدَحوا فيه بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: فقاتِلوهم.

وإنّما أُوثِرَ ما عليه النظم الكريم للإيذان بأنّهم صاروا بذلك ذَوي رياسة وتقدّمٍ في الكفر أحِقّاءَ بالقتل والقتال. وقيل: المراد بأئمّتهم رؤساؤهم وصناديدُهم، وتخصيصُهم بالذكر إمّا لأهمّيّة قتلهم، أو للمنع مِن مراقبتهم لكونهم مظِنّةً لها، أو للدلالة على استئصالهم، فإنّ قتلهم غالبًا يكون بعد قتل مَن دونهم.

وقُرئ: "أَئِمَّةَ" بتحقيق الهمزتين على الأصل،[٢] والأفصحُ إخراج الثانية بينَ بينَ،[٣] وأمّا التصريح بالياء، فلحنٌ ظاهرٌ عند القرّاء.[٤]

﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ أي: على الحقيقة، حيث لا يُراعُونها ولا يعدّون نقضَها محذورًا، وإن أجرَوها على ألسِنتهم. وإنّما عُلّق النفي بها كالنَّكْث فيما سلف[٥] -لا بالعهد المؤكَّد بها- لأنّها العُمدة في المواثيق. وجعلُ الجملة تعليلًا للأمر بالقتال لا يساعده تعليقه بالنَّكْث والطعن؛ لأنّ حالهم / في أنْ لا أيمانَ لهم [٩و] حقيقةً بعد النَّكْث والطعن كحالهم قبل ذلك. وحملُه على معنى عدم بقاء أيمانهم بعد النَّكْث والطعن -مع أنّه لا حاجةَ إلى بيانه- خلافُ الظاهر.

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٥١.

٢ قرأ بها ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ورَوح. النشر لابن الجزري، ١/٣٧٨.

٣ أي: بين مَخرَجِ الهمزة والياء.

٤ قال ابن الجزري في النشر، ١/٣٧٨-٣٧٩: «وسهّل الثانيةَ فيها الباقون، وهم: نافع وأبو عمرو وابن كثير وأبو جعفر ورُويس [...] واختُلف عنهم في كيفيّة تسهيلها، فذهب الجمهور مِن أهل الأداء إلى أنّها تُجعَل بينَ بينَ كما هي في سائر باب الهمزتين مِن كلمة [...] وذهب آخرون منهم إلى أنّها تُجعَل ياءً خالصةً».

٥ س: سبق.

ولعلّ الأَولى جعلُها تعليلًا لمضمون الشرط، كأنّه قيل: وإن نكَثوا وطعنوا، كما هو المتوقَّع منهم،[١] إذ لا أيمانَ لهم حقيقةً حتّى لا ينكُثوها؛ أو لاستمرار القتال المأمور به المستفادِ مِن سياق الكلام، كأنّه قيل: فقاتِلوهم إلى أن يؤمنوا، إنّهم لا أيمانَ لهم حتّى يُعقَدَ معهم عهدٌ آخرُ.

وقُرئ بكسر الهمزة[٢] على أنّه مصدر بمعنى إعطاءِ الأمان، أي: لا سبيلَ إلى أن تُعطُوهم أمانًا بعد ذلك أبدًا، وأمّا العكسُ كما قيل،[٣] فلا وجهَ له لإشعاره بأنّ معاهدتهم معَنَا على طريقة أن يكون إعطاءُ الأمان مِن قِبلهم، وذلك بيّنُ البطلانِ؛ أو[٤] بمعنى الإسلام، ففي كونه تعليلًا للأمر بالقتال إشكال، بل استحالة؛ لأنّه إن حُمل على انتفاء الإسلام مطلقًا، فهو بمَعزِل مِن[٥] العِلّيّة للقتال أو للآمر به كما قبل النكث والطعن، وإن حُمل على انتفائه فيما سيأتي، فلا يلائم جعلَ الانتهاء[٦] غايةً للقتال فيما سيَجيء. فالوجهُ أن يُجعَل تعليلًا لِما ذُكر مِن مضمون الشرط، كأنّه قيل: إن نكَثوا وطعنوا، وهو الظاهر مِن حالهم؛ لأنّهم[٧] لا إسلامَ لهم حتّى يرتدِعوا عن نقض جنس أيمانهم وعن الطعن في دينكم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾، أي: قاتِلوهم إرادةَ أن ينتهوا، أي: لِيكنْ غرضُكم مِن القتال انتهاءَهم عمّا هم عليه مِن الكفر وسائر العظائم التي يرتكبونها، لا إيصالَ الأذيّة بهم كما هو دَيْدن المُؤذِين.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣﴾

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم للإنكار والتوبيخ تدلّ

---

[١] م ط س - كما هو المتوقَّع منهم ["صح" في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[٢] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٨.

[٣] وفي هامش م: ابن عادل. | اللباب لابن عادل، ١٠/٣٣-٣٤.

[٤] السياق: على أنّه مصدر بمعنى إعطاءِ الأمان... أو بمعنى الإسلام...

[٥] ط س: عن.

[٦] وفي هامش م: أي: عمّا هم عليه مِن الكفر والمعاصي. «منه».

[٧] س: لأنّه.

على تخصيصهم على المقاتلة بطريق حملهم على الإقرار بانتفائها، كأنّه أمرٌ لا يمكن أن يُعترف به طائعًا لكمال شناعته، فيُلجَئُون إلى ذلك، ولا يقدرون على الإقرار به، فيختارون المقاتلة.

﴿قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ﴾ التي حلفوها عند المعاهدة على ألّا يعاوِنوا / عليهم، فعاوَنوا بني بكر على خُزاعةَ،[1] ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ مِن مكّةَ حين شاوَروا بدارِ النَّدوة حسبما ذُكر في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال، ٣٠/٨]، فيكون نعيًا عليهم لجنايتهم[2] القديمة. وقيل: هم اليهود، نكَثوا عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وهمُّوا بإخراجه مِن المدينة.[3] [٩ظ]

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ بالمعاداة والمقاتلة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جاءهم أوّلًا بالكتاب المُبين وتَحدَّاهم به، فعدَلوا عن المُحاجّة لعجزهم عنها إلى المقاتلة، أو بدءُوا بقتال خُزاعةَ حُلفاءِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّ إعانة بني بكر عليهم قتالٌ معهم.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أي: أتَخشَون أن ينالكم منهم مكروه حتّى تتركوا قتالَهم؟ وبَّخهم أوّلًا بترك مقاتلتهم وحضَّهم عليها، ثمّ وصَفَهم بما يوجِب الرغبةَ فيها ويحقِّقُ أنّ مَن كان على تلك الصفات السيّئةِ حقيقٌ بألّا تُترَكَ[4] مصادمته ويوبِّخَ مَن فرَّط فيها.

﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ بمخالفة أمره وتركِ قتال أعدائه، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنّ قضيّة الإيمان تخصيصُ الخشية به تعالى وعدمُ المبالاة بمَن سِواه. وفيه مِن التشديد ما لا يخفى.

﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٣٥٢/١١-٣٥٤ (التوبة، ٤/٩)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٤٦/٢-٢٤٧ (التوبة، ٤/٩).

[2] ط س: جنايتهم. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّ التصحيح بعد نسخ ط س. | وفي هامش م: "اللام" لتقوية عمل المصدر. «منه».

[3] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٣/٣.

[4] س: يترك.

﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ تجريد للأمر بالقتال بعد التوبيخ على تركه، ووعدٌ بنصرهم وبتعذيب أعدائهم وإخزائِهم، وتشجيعٌ لهم. ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾ قتلًا وأسرًا، ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يجعَلْكم جميعًا غالبين عليهم أجمعين؛ ولذلك أُخّر عن التعذيب والإخزاء.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ممّن لم يشهَد القتالَ، وهم خُزاعةُ. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هم بُطونٌ مِن اليمن وسبأ، قدِموا مكّةَ فأسلموا، فلَقُوا مِن أهلها أذًى كثيرًا، فبعَثوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يشكُون إليه، فقال عليه السلام: / "أَبشِروا، فإنّ الفرَج قريب"».[1] [١٠و]

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ بما كابدوا مِن المَكاره والمَكايد. ولقد أنجز الله سبحانه جميعَ ما وعدهم به على أجملِ ما يكون، فكان إخبارُه عليه السلام بذلك قبلَ وقوعه معجزةً عظيمةً.

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ كلامٌ مستأنَف يُنبئ عمّا سيكون مِن بعض أهل مكّةَ مِن التوبة المقبولة بحسب مشيئته تعالى المَبنيّة على الحِكم البالغة، فكان كذلك، حيث أسلم ناسٌ منهم وحسُن إسلامُهم.

وقُرئ بالنصب[2] بإضمار "أنْ" ودخولِ التوبة في جملة ما أُجيبَ به الأمرُ بحسب المعنى؛ فإنّ القتال كما هو سببٌ لغَلِّ شَوكتهم وإلَانَةِ شَكيمتهم، فهو سبب للتدبّر في أمرهم وتوبتِهم مِن الكفر والمعاصي، وللاختلاف في وجه السببيّة غُيّر السَّبك. والله تعالى أعلم.

﴿وَٱللَّهُ﴾ إيثار إظهار الجلالة على الإضمار لتربية المهابة وإدخالِ الروعة. ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يأمر إلّا ما فيه حكمة ومصلحة.

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٢.

[2] رواها ابن العلّاف عن النخّاس عن رُويس. وهي قراءة رَوح بن قرّة وفهد بن صقر كِلاهما عن يعقوب، وقراءة يونس عن أبي عمرو، وقراءة زيد بن عليّ. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٨.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطِعة، جِيء بها للدلالة على الانتقال عن التوبيخ السابق إلى آخَرَ. وما فيها مِن همزة الاستفهام الإنكاري توبيخٌ لهم على الحسبان المذكور، أي: بل أحَسِبتم ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾ على ما أنتم عليه، ولا تُؤمَروا بالجهاد، ولا تُبتَلَوا بما يمحِّصكم. والخطاب إمّا لمَن شقَّ عليهم القتال مِن المؤمنين أو للمنافقين.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ "الواو" حاليّة. و﴿لَمَّا﴾ للنفي مع التوقّع. والمراد مِن نفي العلم نفيُ المعلوم بالطريق البرهانيّ، إذ لو شمّ رائحة الوجود لَعلم قطعًا، فلمّا / لم يعلم، لزِم عدمه قطعًا. أي: أم حسِبتم أن تُترَكوا [١٠ظ] والحالُ أنّه لم يتبيّن الخُلّص مِن المجاهدين منكم مِن غيرهم. و﴿مَا﴾ في ﴿لَمَّا﴾ مِن التوقّع منبِّهٌ على أنّ ذلك سيكون. وفائدة التعبير عمّا ذُكر مِن عدم التبيّن بعدم علم الله تعالى أنّ المقصود هو التبيّن مِن حيث كونُه متعلّقًا للعلم ومدارًا للثواب. وعدمُ التعرّض لحال المقصِّرين لِما أنّ ذلك بمَعزِل مِن الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿جَٰهَدُوا۟﴾ داخلٌ في حيّز الصلة، أو حالٌ مِن فاعله، أي: جاهَدوا حالَ كونهم غيرَ متّخِذين ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بِطانةً وصاحبَ سرٍّ. وهو الذي تُطلعه على ما في ضميرك مِن الأسرار الخفيّة. مِن "الوُلوج"، وهو الدخول. و﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بالاتّخاذ إن أُبقيَ على حاله، أو مفعولٌ ثانٍ له إن جُعل بمعنى "التصيير".

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع أعمالكم. وقُرئ على الغَيبة.[١] وهو تذييل يُزيح ما يُتوهّم مِن ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَم﴾... إلخ، أو حال متداخلةٌ مِن فاعله أو مِن مفعوله، والمعنى: ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم، والحالُ أنّه يعلم جميعَ أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن البصري والحسن بن عمران. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٠.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ١٧﴾

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما صحّ وما استقام لهم، على معنى نفي الوجود والتحقّق، لا نفيِ الجواز كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ [البقرة، ١١٤/٢]، أي: ما وقع وما تحقّق لهم ﴿أَن يَعْمُرُوا﴾ عِمارةً معتدًّا بها ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي: المسجد الحرامَ. وإنّما جُمع؛ لأنّه قِبلة المساجد وإمامُها، فعامِرُه كعامرها، أو[1] لأنّ كلّ ناحية مِن نواحيه المختلفةِ الجهاتِ مسجدٌ على حِيالها،[2] بخلاف سائر المساجد؛ إذ ليس في نواحيها اختلاف الجهة. ويؤيّده القراءة بالتوحيد.[3]

[١١و] وقيل:[4] / ما كان لهم أن يعمُروا شيئًا مِن المساجد فضلًا عن المسجد الحرام الذي هو صدرُ الجنس. ويأباه أنّهم لا يتصَدَّون لتعمير سائر المساجد، ولا يفتخرون بذلك، على أنّه مبنيّ على كون النفي بمعنى نفي الجواز واللياقة دون نفي الوجود.[5]

﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ أي: بإظهار آثار الشرك مِن نصب الأوثان حولَ البيت والعبادةِ لها، فإنّ ذلك شهادةٌ صريحةٌ على أنفسهم بالكفر، وإن أبَوا أن يقولوا: نحن كُفّار، كما نُقل عن الحسن رحمه الله.[6] وهو حال مِن الضمير في ﴿يَعْمُرُوا﴾، أي: محالٌ أن يكون ما سمَّوه عمارةً عمارةَ بيتِ الله مع مُلابستهم لِما ينافيها ويُحبطها مِن عبادة غيره تعالى، فإنّها ليست مِن العِمارة في شيء.

وأمّا ما قيل[7] مِن أنّ المعنى: ما استقام لهم أن يجمَعوا بين أمرين متنافيَين: عمارةِ بيت الله تعالى[8] وعبادةِ غيره تعالى، فليس بمُعرِب عن كُنه المرام؛ فإنّ عدم استقامة الجمع بين المتنافيَين إنّما يستدعي انتفاءَ أحدهما لا بعينه، لا انتفاءَ العِمارة الذي هو المقصود.

---

١ وفي هامش م: هذا أنسبُ بالمقام. «منه».
٢ م ط س: حياله [صُحّح في هامش م ط].
٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٧٨/٢.
٤ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٤/٣.
٥ وفي هامش م: الذي هو المراد ههنا. «منه».
٦ التفسير البسيط للواحدي، ٣٣١/١٠؛ اللباب لابن عادل، ٤٤/١٠.
٧ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢٥٣/٢.
٨ م - تعالى.

رُوي أنّ المهاجرين والأنصار أقبلوا على أَسارَى بدرٍ يعيّرونهم بالشرك، وطَفِق عليٌّ رضي الله عنه يوبّخ العبّاسَ[1] بقتال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقطيعةِ الرَّحِم، وأغلَظَ له في القول، فقال العبّاس: «تذكُرون مساوئَنا وتكتُمون محاسننا»، فقالوا: «أوَ لكم محاسنُ؟»، قالوا: «نعم، إنّا لَنعمُر المسجد الحرام، ونحجُب الكعبة، ونَسقي الحَجيج، ونفُكّ العانيَ»، فنزلت.[2]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يدّعُون عمارةَ المسجد وما يُضاهيها مِن أعمال البِرّ مع ما بهم مِن الكفر، ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي يفتخرون بها بما قارَنها مِن الكفر، فصارت هَباءً منثورًا، ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ لكفرهم ومعاصيهم. وإيراد الجملة اسميّةً للمبالغة في الدلالة على الخلود. والظرف / متعلِّق بالخبر، قُدّم عليه للاهتمام به ومراعاة الفاصلة. وكِلتا الجملتين مستأنَفةٌ لتقرير النفي السابق؛ الأُولى مِن جهة نفي استتباع الثواب، والثانيةُ مِن جهة نفي استدفاع العذاب. [١١ظ]

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الكلام في إيراد صيغة الجمع كما مرّ فيما مرّ؛ خلَا أنّ إرادة جميع المساجد وإدراجَ المسجد الحرام في ذلك غيرُ مخالفة لمقتضى الحال، فإنّ الإيجاب ليس كالسلب. وقد قُرئ بالإفراد أيضًا.[3] والمراد ههنا أيضًا قصرُ تحقّق العِمارة ووجودِها على المؤمنين، لا قصرُ جوازِها ولياقتِها، أي: إنّما يصحّ ويستقيم أن يعمُرها عِمارةً يُعتدّ بها ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وحدَه ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ بما فيه مِن البعث والحساب والجزاء حسبما نطَق به الوحي، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على ما عُلم مِن الدين؛ فيندرج فيه الإيمان بنبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتمًا. وقيل: هو مندرِج تحت الإيمان بالله خاصّةً،

---

[1] هو العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم القرشي، أبو الفضل (ت. ٣٢هـ/٦٥٣م). عمُّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وقد سبقت ترجمته.

[2] انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ٢٤٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٣-٢٥٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن والجحدري ومجاهد والشافعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١١.

فإنّ أحد جزأي كلمة الشهادة عَلَمٌ للكلّ. أي: إنّما يعمُرها مَن جمع هذه الكمالاتِ العلميّةَ والعمليّةَ.

والمراد بالعِمارة ما يعمّ مرَمّةَ ما استرَمَّ منها،[١] وقَمَّها،[٢] وتنظيفَها، وتزيينَها بالفُرُش، وتنويرَها بالسُّرُج، وإدامةَ العبادة والذكر ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك، وصيانتَها ممّا لم تُبنَ له كحديث الدنيا.

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الحديث في المسجد يأكلُ الحسَناتِ، كما تأكل البهيمةُ الحَشيشَ».[٣] وقال عليه السلام: «قال الله تعالى: "إنّ بيوتي في أرضي المساجدُ، وإنّ زُوّاري فيها عُمّارُها، فطُوبَى لعبدٍ تطهَّرَ في بيته، ثمّ زارني في بيتي، فحقّ على المَزُور أن يُكرِم زائره"».[٤] وعنه عليه السلام: «مَن أَلِفَ المسجدَ، أَلِفَه الله».[٥] وقال عليه السلام: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجدَ، فاشهَدوا له بالإيمان».[٦] وعن أنس رضي الله عنه: «مَن أسرَجَ في مسجد سِراجًا، لم تزل الملائكة وحَمَلةُ العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضَوءُه».[٧]

[١٢و] / ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ في أمور الدين ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فعمِلَ بموجَب أمره ونهيه، غير آخذٍ له في الله لَومةُ لائم ولا خشيةُ ظالم، فيندرج فيه عدمُ الخشية عند القتال ونحو ذلك، وأمّا الخوف الجِبلّيّ مِن الأمور المَخوفة، فليس مِن هذا الباب، ولا ممّا يدخل تحت التكليف والخطاب. وقيل: كانوا يخشَون الأصنام ويرجُونها، فأريدَ نفيُ تلك الخشية عنهم.

---

[١] استرمَّ الحائط، أي: حان له أن يُرَمّ، وذلك إذا بعُد عهده بالتطيين. **الصحاح** للجوهري، «رمم».

[٢] قممتُ البيت: كنَستُه. **الصحاح** للجوهري، «قمم».

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٥٤؛ **اللباب** لابن عادل، ١٠/٤٦. ولم يخرّجه الزيلعي وابن حجر. وأورده الغزّالي في **إحياء علوم الدين**، ١/١٥٢، وقال مخرّجه أبو الفضل العراقي في **المغني**: «لم أقف له على أصل».

[٤] **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٥٤. وما في معناه في **مصنّف ابن أبي شيبة**، ٧/١١٥ (٣٤٦١٧)؛ وكتاب **الزهد** للسجستاني، ص ٣٧٨-٣٧٩ (٤٦٥).

[٥] **المعجم الأوسط** للطبراني، ٦/٢٦٩ (٦٣٨٣)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٥٥.

[٦] **مسند أحمد**، ١٨/١٩٤ (١١٦٥١)؛ **سنن ابن ماجة**، ١/٥١٣ (٨٠٢). وهو باختلاف يسير في **سنن الترمذي**، ٥/١٢ (٢٦١٧).

[٧] هكذا ذكره الزمخشري موقوفًا في **الكشّاف**، ٢/٢٥٥. وهو مرفوعًا في **بُغية الباحث** لابن أبي أسامة، ١/٢٥٢ (١٢٧). ونحوه مرفوعًا في **مسند الشاميّين** للطبراني، ٢/٢٧٣-٢٧٤ (١٣٢٧).

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى مباغيهم مِن الجنّة وما فيها مِن فنون المطالب العليّة. وإبراز اهتدائهم مع ما بهم مِن الصفات السنيّة في معرض التوقّع لِقطع أطماع الكَفَرة عن الوصول إلى مواقف الاهتداء والانتفاعِ بأعمالهم التي يحسَبون أنّهم في ذلك مُحسِنون، ولتوبيخهم بقطعهم بأنّهم مهتدُون؛ فإنّ المؤمنين -مع ما لهم مِن هذه الكمالات- إذا كان أمرُهم دائرًا بين "لعلّ" و"عسى"، فما بالُ الكَفَرة وهُمْ هُمْ وأعمالُهم أعمالُهم؟

وفيه لطفٌ للمؤمنين وترغيبٌ لهم في ترجيح جانب الخوف على جَناح الرجاء ورفضِ الاغترار بالله تعالى.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: في الفضيلة وعلوّ الدرجة ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ "السِّقاية" و"العِمارة" مصدران لا يُتصوّر تشبيههما بالأعيان، فلا بدَّ مِن تقدير مضاف في أحد الجانبين، أي: أجَعلتم أهلهما كمَن آمن بالله... إلخ، ويؤيّده قراءة مَن قرأ: "سُقَاةَ الحَاجِّ وعَمَرَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ"؛[1] أو أجَعلتموهما كإيمان مَن آمن... إلخ.

وعلى التقديرين، فالخطاب إمّا للمشركين على طريقة الالتفات، وهو المتبادر مِن تخصيص ذكر الإيمان بجانب المشبَّه به، وإمّا لبعض المؤمنين المؤثِرين للسِّقاية والعِمارة ونحوِهما على الهجرة والجهاد ونظائرهما،

[1] وفي هامش م: وكذا قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾. «منه». | روى القراءةَ الشطوي عن ابن هارون في رواية ابن وردان. وهي رواية ميمونة والقورسي عن أبي جعفر. وكذا روى أحمد بن جبير الأنطاكي عن ابن جمّاز. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٧٨/٢.

وهو المناسِب للاكتفاء في الردّ عليهم ببيان عدم مساواتهم عند الله للفريق الثاني وبيانِ أعظميّة درجتهم عند الله تعالى على وجهٍ يُشعِر بعدم حِرمان الأوّلين بالكلّيّة.

وجعلُ معنى التفضيل بالنسبة إلى زعم الكَفَرة لا يجدي كثيرَ نفع؛ لأنّه إن لم يُشعِر بعدم الحِرمان، فليس بمُشعِر للحِرمان أيضًا.

[١٢ظ] / أمّا على الأوّل،[١] فهو توبيخ للمشركين. ومداره على[٢] إنكار تشبيه أنفسهم[٣] مِن حيث اتّصافُهم بوصفَيهم المذكورَين[٤] -مع قطع النظر عمّا هم عليه مِن الشرك- بالمؤمنين مِن حيث اتّصافُهم بالإيمان والجهاد، أو على إنكار تشبيه وصفَيهم المذكورَين[٥] في حدّ ذاتهما -مع الإغماض عن مقارنتهما للشرك- بالإيمان والجهاد.

وأمّا اعتبار مقارنتهما له[٦] كما قيل،[٧] فيأباه المقام؛ كيف لا، وقد بيّن آنفًا حُبوط أعمالهم بذلك الاعتبار بالمرّة وكونُها بمنزلة العدم، فتوبيخُهم بعد ذلك على تشبيههما بالإيمان والجهاد، ثمّ ردُّ ذلك بما يُشعِر بعدم حِرمانهم عن أصل الفضيلة بالكلّيّة كما أشيرَ إليه، ممّا لا يساعده النظم التنزيليّ؛ ولو اعتُبر ذلك لَما احتِيجَ إلى تقرير إنكار التشبيه وتأكيدِه بشيء آخرَ؛ إذ لا شيءَ أظهرُ بطلانًا مِن تشبيه المعدوم بالموجود.

فالمعنى: أجَعلتم أهل السِّقاية والعِمارة في الفضيلة كمَن آمن بالله واليوم الآخر وجاهَد في سبيله، أو أجعلتموهما في ذلك كالإيمان والجهاد، وشتّانَ بينهما؛ فإنّ السِّقاية والعِمارة، وإن كانتا في أنفسهما مِن أعمال البِرّ والخير،

---

١ وفي هامش م: وهو أن يكون الخطاب للمشركين. «منه».

٢ ط س - على.

٣ وفي هامش م: على تقدير المضاف في المشبَّه. «منه».

٤ وفي هامش م: السِّقاية والعِمارة. «منه».

٥ وفي هامش م: على تقدير المضاف في المشبَّه به. «منه».

٦ أي: للشرك.

٧ وفي هامش م: والمعنى: إنكارُ أن يشبَّه المشركون بالمؤمنين وأعمالُهم المُحبَطة بأعمالهم المُثبَتة. كشّاف. | الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٦.

لكنّهما، وإن خَلَتَا عن القوادح، بمَعزِل عن صلاحيّةِ أن يشبّه أهلهما بأهل الإيمان والجهاد، أو يشبَّهَ أنفسهما بنفس الإيمان والجهاد، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يُساوي الفريقُ الأوّل الثانيَ مِن حيث اتّصاف كلٍّ منهما بوصفَيهما، ومِن ضرورته عدمُ التساوي بين الوصفين الأوّلَين[1] وبين الأخيرَين؛[2] لأنّه[3] المدارُ في التفاوُت بين الموصوفين. وإسناد عدم الاستواء إلى الموصوفين[4] لأنّ الأهمّ بيانُ تفاوُتهم.

وتوجيه النفي ههنا والإنكارِ فيما سلف إلى الاستواء والتشبيهِ -مع أنّ دعوى المفتخِرين بالسِّقاية والعِمارة مِن المشركين والمؤمنين إنّما هي الأفضليّة دون التساوي والتشابه- للمبالغة في الردّ عليهم، فإنّ نفي التساوي والتشابهِ نفيٌ للأفضليّة بالطريق الأَولى.

والجملة استئناف لتقرير الإنكار المذكور وتأكيدِه، أو حال مِن مفعولَي "الجَعْل"، والرابط هو الضمير، كأنّه قيل: أسَوَّيتم بينهم حالَ / كونهم متفاوِتين عنده تعالى. [١٣و]

وقوله عزّ وعلا:[5] ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حُكمٌ عليهم بأنّهم مع ظلمهم بالإشراك[6] ومعاداةِ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ضالُّون في هذا الجعل، غيرُ مهتدِين إلى طريق معرفة الحقّ وتمييزِ الراجح مِن المرجوح، وظالمون بوضع كلٍّ منهما موضعَ الآخَر. وفيه زيادةُ تقرير لعدم التساوي بينهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾... إلخ[7] استئنافٌ لبيان مراتب فضلهم إثرَ بيان عدم الاستواء وضلالِ المشركين وظلمهم. وزيادة الهجرة وتفصيلُ نوعَي الجهاد للإيذان بأنّ ذلك مِن لوازم الجهاد؛ لا أنّه اعتُبر بطريق التدارك أمرٌ لم يُعتبر فيما سلف، أي: هم باعتبار

---

١ وفي هامش م: السِّقاية والعِمارة. «منه».
٢ وفي هامش م: الإيمان والجهاد. «منه».
٣ أي: عدمُ التساوي.
٤ وفي هامش م: دون الأوصاف. «منه».
٥ س: تعالى.
٦ وفي هامش م: اعتبار الإشراك ههنا ليس اعتبارًا له مع وصف السِّقاية والعِمارة، ولا مستلزمًا له. «منه».
٧ س - إلخ.

اتّصافهم بهذه الأوصاف الجميلة ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعلى رتبةً وأكثرُ كرامةً ممّن لم يتّصف بها كائنًا مَن كان، وإن حاز جميعَ ما عداها مِن الكمالات التي مِن جملتها السِّقاية والعِمارة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للدلالة على بُعد منزلتهم في الرفعة. ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ المختصُّون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق، كأنّ فوز مَن عداهم ليس بفوزٍ بالنسبة إلى فوزهم.

وأمّا على الثاني،[١] فهو توبيخ لمَن يُؤثِر السِّقاية والعِمارةَ مِن المؤمنين على الهجرة والجهاد. رُوي أنّ عليًّا رضي الله عنه قال للعبّاس رضي الله عنه بعد إسلامه: «يا عمُّ! ألَا تهاجِرون؟ ألَا تَلحَقون برسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟»، فقال: «ألستُ في أفضلَ مِن الهجرة؛ أَسقي حاجَّ بيت الله، وأعمُر المسجد الحرامَ؟»، فلمّا نزلت قال:[٢] «ما أُراني إلّا تاركَ سِقايتنا»، فقال عليه السلام: «أَقيموا على سِقايتكم، فإنّ لكم فيها خيرًا».[٣]

وروى النعمان بن بشير،[٤] قال: كنتُ عند مِنبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، / فقال رجل: «ما أبالي ألّا أعملَ عملًا بعد أن أَسقي الحاجَّ»، وقال آخَرُ: «ما أبالي ألّا أعملَ عملًا بعد أن أعمُر المسجد الحرامَ»، وقال آخرُ: «الجهاد في سبيل الله أفضلُ ممّا قُلتم»، فزجَرهم عمرُ رضي الله عنه وقال: «لا ترفَعوا أصواتكم عند مِنبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم -وهو يوم الجمعة- [١٣ظ]

---

[١] وفي هامش م: وهو أن يكون الخطاب لبعض المؤمنين. «منه». | السياق: أمّا على الأوّل، فهو توبيخ للمشركين... وأمّا على الثاني، فهو توبيخ لمَن...

[٢] القائل هو العبّاس بن عبد المطّلب.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٦. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٠؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٤٨.

[٤] هو النعمان بن بشير بن سعد الخزرجي الأنصاري، أبو عبد الله (ت. ٦٤هـ/٦٨٤م). أمير، خطيب، شاعر، مِن أجلّاء الصحابة. كان ولي الكوفة لمعاوية، ثمّ عزله معاوية، فصار إلى الشام، فلمّا قُتل الضحّاك بن قيس هرَب النعمان من حِمص، فطلبه أهلها، فأدركوه فقتلوه. وهو الذي تُنسَب إليه "مَعَرّة النُّعمان"، كانت تُعرَف بـ"المَعَرّة"، فلمّا مات له ولد فدفنه فيها، نُسبت إليه. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٦/٥٣-٥٤؛ والأعلام للزركلي، ٨/٣٦.

ولكن إذا صلّيتم استفتيتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فيما اختلفتم فيه»، فدخل، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآيةَ.[١]

والمعنى: أجعلتم أهلَ السِّقاية والعِمارة مِن المؤمنين في الفضيلة والرفعة كمَن آمن بالله واليومِ الآخِر وجاهَد في سبيله، أو أجعلتموهما كالإيمان والجهاد. وإنّما لم يُذكَر الإيمان في جانب المشبَّه -مع كونه معتبَرًا فيه قطعًا- تعويلًا على ظهور الأمر، وإشعارًا بأنّ مدار إنكار التشبيه هو السِّقاية والعِمارة، دون الإيمان. وإنّما لم يُترَك ذكره في جانب المشبَّه به أيضًا تقويةً للإنكار، وتذكيرًا لأسباب الرجحان ومبادي الأفضليّة، وإيذانًا بكمال التلازم بين الإيمان وما تلاه.

ومعنى عدمِ الاستواء عند الله تعالى على هذا التقدير ظاهرٌ. وكذا أعظميّةُ درجة الفريق الثاني. وأمّا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فالمراد به عدمُ هدايته تعالى لهم إلى معرفة الراجح مِن المرجوح، وظلمُهم بوضع كلٍّ منهما موضعَ الآخر؛ لا عدمُ الهداية مطلقًا، ولا الظلمُ عمومًا. والقَصر في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ بالنسبة إلى درجة الفريق الثاني، أو إلى الفوز المطلق ادّعاءً كما مرّ. والله أعلم.

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١﴾

﴿يُبَشِّرُهُمۡ﴾ وقُرئ: بالتخفيف.[٢] ﴿رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ﴾ عظيمةٍ ﴿مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾ كبيرٍ ﴿وَجَنَّٰتٖ﴾ عاليةٍ ﴿لَّهُمۡ فِيهَا﴾ في تلك الجنّات ﴿نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ نِعَمٌ لا نفادَ لها. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة تأكيدٌ للمبشَّر به وتربيةٌ له.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: في الجنّات ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد به،

---

[١] صحيح مسلم، ١٤٩٩/٣ (١٨٧٩)؛ مسند أحمد، ٣١٩/٣٠ (١٨٣٦٧)؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٤٧.

[٢] أي: "يَبْشُرُهُمْ". قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

[١٤و] إذ قد يُراد به المكث الطويل. / ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ لا قدرَ عنده لأجور الدنيا أو للأعمال التي في مقابلته. والجملة استئناف وقع تعليلًا لِما سبق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ نهيٌ لكلّ فرد مِن أفراد المخاطَبين عن موالاة فردٍ مِن المشركين بقضيّة مقابلة الجمع بالجمع الموجِبةِ لانقسام الآحاد إلى الآحاد، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة، ٧٢/٥]؛ لا عن موالاة طائفة منهم، فإنّ ذلك مفهوم مِن النظم دلالةً، لا عبارةً.

والآية نزلت في المهاجرين، فإنّهم لمّا أُمروا بالهجرة قالوا: «إنْ هاجرنا قطَعْنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتَنا، وذهبت تجاراتنا، وهلكت أموالنا، وخَرِبت ديارنا، وبقِينَا ضائعين»، فنزلت، فهاجروا، فجعل الرجلُ يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعضُ أقاربه، فلا يلتفتُ إليه، ولا يُنزله، ولا يُنفق عليه، ثمّ رُخّص لهم في ذلك.[١] وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتدُّوا ولحِقوا بمكّةَ، نهيًا عن موالاتهم.[٢]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا يطعَم أحدُكم طعْمَ الإيمان حتّى يُحِبَّ في الله ويُبغِضَ في الله؛ حتّى يُحِبَّ في الله أبعدَ الناس ويُبغِضَ في الله أقربَ الناس إليه».[٣]

﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ﴾ أي: اختاروه ﴿عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وأصَرّوا عليه إصرارًا لا يُرجَى معه الإقلاع عنه أصلًا. وتعليق النهي عن الموالاة بذلك لِما أنّها قبلَ ذلك ربّما تؤدّي[٤] بهم إلى الإسلام بسبب شعورهم بمحاسن الدين.

---

[١] انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢١/٥؛ و**أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٤٨؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢٥٧/٢.

[٢] نقله الثعلبي في **الكشف والبيان**، ٢١/٥؛ والبغوي في **معالم التنزيل**، ٢٤/٤، عن مقاتل بن سليمان. وفي **تفسير مقاتل**، ١٦٤/٢: "السبعة" مكانَ "التسعة".

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٥٧/٢. وقال ابن حجر في **الكافي الشاف**، ص ٧٤ (١٠٢): «لم أجده بهذا اللفظ». وانظر: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٦١/٢ (٥٣٤).

[٤] س: يؤدّي. | عبارة "ربّما تؤدّي" لا تظهر في م بسبب سواد.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ أي: واحدًا منهم، كما أشيرَ إليه. وإفراد الضمير في الفعل لمراعاة لفظ الموصول، وللإيذان باستقلال كلّ واحد منهم في الاتّصاف بالظلم؛ لا أنّ المراد تولّي فردٍ واحدٍ. وكلمة ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ للجنس، لا للتبعيض.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: أولئك المتولُّون ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضعهم الموالاةَ في غير موضعها، كأنّ ظلم غيرهم كَلَا ظلمٍ عند ظلمهم.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وأمرٌ له صلّى الله عليه وسلّم بأن يثبّت المؤمنين، ويقوّيَ عزائمَهم على الانتهاء عمّا نُهوا عنه مِن موالاة الآباء والإخوان، ويزهّدَهم فيهم وفيمَن يجري مَجراهم مِن الأبناء والأزواج، ويقطعَ علائقهم عن زخارف الدنيا وزينتِها على وجه التوبيخ والترهيب.

﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ لم يُذكَر الأبناء والأزواج فيما سلف؛ لأنّ موالاة الأبناء والأزواج غيرُ معتادة، بخلاف المَحبّة. ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي: أقرباؤكم. مأخوذ مِن "العِشرة"، أي: الصحبة، وقيل: مِن "العَشرة"، فإنّهم جماعةٌ ترجع إلى عَقد كعقد العَشرة. وقُرِئ: "عَشِيرَاتُكُمْ"[1] و"عَشَائِرُكُمْ".[2]

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها. وإنّما وُصفت بذلك إيماءً إلى عزّتها عندهم لحصولها بكدّ اليمين. ﴿وَتِجَٰرَةٌ﴾ أي: أمتِعةٌ اشتريتموها للتجارة والربح ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بفوَات وقت رواجها بغَيْبَتكم عن مكّةَ المعظّمةِ في أيّام الموسم، ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: منازلُ تُعجبكم الإقامة فيها مِن الدُّور والبساتين.

---

[1] قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٨-٢٧٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١١.

[١٤ظ] والتعرّض للصفات المذكورة / للإيذان بأنّ اللّوم على مَحبّة ما ذُكر مِن زينة الحياة الدنيا ليس لتناسي ما فيها مِن مبادي المَحبّة وموجِباتِ الرغبة فيها، وأنّها مع ما لها مِن فنون المحاسن بمَعزِل مِن[١] أن يُؤثَر حُبّها على حبّه تعالى وحبِّ رسوله صلّى الله عليه وسلّم، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار، ٨٢/٦].

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بالحُبّ الاختياري المستتبع لأثره الذي هو الملازمة وعدم المفارقة؛ لا الحُبّ الجِبِليّ الذي لا يخلو عنه البشر، فإنّه غيرُ داخل تحت التكليف الدائر على الطاقة. ﴿وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ نُظِم حبّه في سِلك حبّ الله عزّ وجلّ وحبِّ رسوله عليه السلام تنويهًا لشأنه، وتنبيهًا على أنّه ممّا يجب أن يُحَبّ فضلًا عن أن يُكرَه، وإيذانًا بأنّ مَحبّته راجعة إلى مَحبّتهما؛ فإنّ الجهاد عبارة عن قتال أعدائهما لأجل عداوتهم، فمَن يُحبّهما يجب أن يُحبّ قتالَ مَن لا يُحبّهما.

﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: انتظِروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه فتحُ مكّةَ.[٢] وقيل: هي عقوبة عاجلة أو آجلة.[٣]

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة في موالاة المشركين، أو القومَ الفاسقين كافّةً، فيدخل في زمرتهم هؤلاء دخولًا أوّليًا، أي: لا يرشدهم إلى ما هو خير لهم.[٤] وفي الآية الكريمة مِن الوعيد ما لا يكاد يَتخلّص منه إلّا مَن تدارَكَه لطفٌ مِن ربّه. والله المستعان.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

---

[١] ط س: عن. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، ولعلّه صحّحه بعد نسخ ط س.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٧.

[٣] قاله الحسن كما في التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٣٤٣.

[٤] وفي هامش م: أي: إرشادًا مستتبعًا للإيصال إليه قطعًا. «منه».

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الخطاب للمؤمنين خاصّةً. ﴿فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ مِن الحروب، وهي مواقفها ومقاماتها. والمراد بها وَقَعاتُ بدرٍ وقُريظةَ والنَّضيرِ والحُديبية وخَيبر وفتح مكّةَ. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ عطفٌ على محلّ ﴿فِى مَوَاطِنَ﴾ بحذف المضاف في أحدهما، أي: ومَوطِنَ يومِ حُنين، أو في أيّام مواطنَ كثيرةٍ ويومَ حُنين. ولعلّ التغييرَ للإيماء إلى ما وقع فيه مِن قلّة الثبات مِن أوّل الأمر. وقيل: المراد بـ"المَوطِن" الوقتُ، كـ"مَقتل الحسين" رضي الله عنه. وقيل: ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ منصوب بمضمَر معطوفٍ على ﴿نَصَرَكُمْ﴾، أي: ونصركم يومَ حُنين.

/ ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ بدلٌ مِن ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، ولا منعَ فيه مِن عطفه على محلّ الظرف بناءً على أنّه لم يكن في المعطوف عليه كثرة ولا إعجابٌ، إذ ليس مِن قضيّة العطف مشاركةُ المعطوفين فيما أضيفَ إليه المعطوف؛ أو منصوبٌ بإضمار "اذكُرْ". [١٥و]

وحُنينٌ: وادٍ بين مكّةَ والطائفِ، كانت فيه الوَقْعة بين المسلمين -وهم اثنا عشر ألفًا، عشرةُ آلافٍ منهم مَن شهِد فتحَ مكّةَ مِن المهاجرين والأنصار، وألفانِ مِن الطُّلقاء- وبين هَوازِنَ وثقيفٍ -وكانوا أربعةَ آلافٍ فيمَن ضامَّهم مِن أمداد سائر العرب، وكانوا الجمَّ الغفيرَ- فلمّا التقَوا قال رجل مِن المسلمين، اسمه سلَمة بن سلامةَ الأنصاري:[١] «لن نُغلَبَ اليومَ مِن قلّة»، فساءت[٢] رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فاقتَتَلوا قتالًا شديدًا، فانهزم المشركون وخلَّوا الذَّراريَّ، فأكبَّ المسلمون على الغنائم، فتنادَى المشركون: «يا حُماةَ السوء، اذكُروا الفضائحَ!»، فتراجعوا، فأدركت المسلمين كلمةُ الإعجاب، فانكشفوا؛[٣] وذلك قوله عزّ وعلا: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾.

---

١ هو سلَمة بن سلامة بن وقش الأنصاري الأشهلي، أبو عوف. شهِد العقبتين الأولى والثانية، ثمّ شهد بدرًا والمشاهدَ كلَّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. واستعمله عمر على اليمامة. قيل: مات سنةَ أربع وثلاثين، وقيل: بل تأخّر إلى سنة خمسٍ وأربعين. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤٣٩/٣؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٥٢٣/٢-٥٢٤.

٢ وفي هامش م: كلمة. | يعني: فساءت كلِمتُه.

٣ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٦/٤؛ واللباب لابن عادل، ٥٧/١٠.

والإغناء: إعطاءُ ما يُدفَع به الحاجة، أي: لم تُعطِكم تلك الكثرةُ ما تدفعون به حاجتَكم شيئًا مِن الإغناء، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برحْبِها وسَعَتِها، على أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، و"الباء" بمعنى "مع"، أي: لا تجدون فيها مفرًّا تطمئنّ إليه نفوسُكم مِن شدّة الرُّعب، ولا تثبُتون فيها كمَن لا يسعه مكانه.

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ رُوي أنّه بلغ فَلُّهم مكّةَ، وبقي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحدَه، ليس معه إلّا عمُّه العبّاسُ آخذًا بلِجام بَغْلتِه وابنُ عمّه أبو سفيانَ بن الحرث آخذًا بركابه، وهو يركض البَغْلةَ نحو المشركين، وهو يقول: «أنا النبيّ، لا كَذِب، أنا ابن عبد المطّلب».[1] رُوي أنّه عليه الصلاة والسلام / كان يحمِل على الكُفّار فيفِرّون، ثمّ يحملون عليه فيقف لهم، فعَلَ ذلك بِضعَ عشرةَ مرّةً. قال العبّاس رضي الله عنه:[2] «كنتُ أكُفُّ البَغْلة لئلّا تُسرِعَ به نحوَ المشركين».[3] [١٥ظ]

وناهِيك بهذه الواحدةِ شهادةَ صدقٍ على أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان في الشجاعة ورباطة الجأش سبّاقًا للغايات القاصية، وما كان ذلك إلّا لكونه مؤيَّدًا مِن عند الله العزيز الحكيم، فعند ذلك قال: «يا ربّ! ائتِني بما وعدتَني»، وقال للعبّاس، وكان صَيِّتًا:[4] «صَيِّحْ بالناس!»، فنادى الأنصارَ فخِذًا فخِذًا،[5] ثمّ نادى: «يا أصحابَ الشجرة![6] يا أصحابَ سورة البقرة!»، فكَرُّوا عُنُقًا واحدًا، وهم يقولون: «لبَّيْك لبَّيْك»؛[7] وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي: رحمتَه التي تسكن بها القلوب وتطمئنّ إليها اطمئنانًا كلّيًا مستتبِعًا للنصر القريب. وأمّا مطلق السكينة، فقد كانت حاصلةً له عليه السلام قبل ذلك أيضًا.

---

[1] انظر: صحيح مسلم، ١٣٩٨/٣-١٤٠١ (١٧٧٥، ١٧٧٦)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٣/٥.
[2] م - رضي الله عنه.
[3] انظر: صحيح مسلم، ١٣٩٨/٣ (١٧٧٥)؛ ومسند أحمد، ٢٩٦/٣ (١٧٧٥).
[4] الرجل الصيّت: شديدُ الصوت. مختار الصحاح للرازي، «صوت».
[5] الفَخِذ في العشائر: أقلّ مِن البطن؛ أوّلُها الشَّعب، ثمّ القبيلة، ثمّ الفصيلة، ثمّ العِمارة، ثمّ البطن، ثمّ الفَخِذ. الصحاح للجوهري، «فخذ».
[6] هي الشجرة التي في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾... إلخ [الفتح، ١٨/٤٨].
[7] انظر: صحيح مسلم، ١٣٩٨/٣-١٣٩٩ (١٧٧٥)؛ ومسند أحمد، ٢٩٦/٣ (١٧٧٥)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/٢.

﴿وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطفٌ على ﴿رَسُولِهِۦ﴾، وتوسيطُ الجارّ بينهما للدلالة على ما بينهما مِن التفاوت، أي: المؤمنين الذين انهزموا، وقيل: على الذين ثبتوا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو على الكلّ؛ وهو الأنسب، ولا ضيرَ في تحقّق أصل السكينة في الثابتين مِن قبلُ. والتعرّض لوصف الإيمان للإشعار بعلّيّته للإنزال.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ أي: بأبصاركم كما يرى بعضُكم بعضًا. وهم الملائكة عليهم السلام، عليهم البياضُ، على خُيولٍ بُلْقٍ، فنظر النبيّ عليه السلام إلى قتال المسلمين، فقال: «هذا حين حَمِيَ الوَطيسُ»،[1] فأخذ كفًّا مِن التراب، فرمى به نحو المشركين وقال: «شاهَت الوُجوه»، فلم يبقَ منهم أحد إلّا امتلأت به عيناه، ثمّ قال عليه السلام: «انهزَموا وربِّ الكعبة».[2]

واختلفوا في عدد الملائكة يومئذ، فقيل: خمسة آلافٍ، وقيل: ثمانية آلافٍ، وقيل: ستّة عشرَ ألفًا؛[3] وفي قتالهم أيضًا، فقيل: قاتلوا، وقيل: لم يقاتلوا إلّا يومَ بدر، وإنّما كان نزولُهم لتقوية قلوب المؤمنين بإلقاء الخواطر الحسنة وتأييدِهم بذلك / وإلقاءِ الرُّعب في قلوب المشركين.[4] [١٦و]

قال سعيد بن[5] المسيّب: حدّثني رجل كان في المشركين يومَ حُنين، قال: «لمّا كشفنا المسلمين جعلنا نسُوقهم، فلمّا انتهينا إلى صاحب البَغْلة الشَّهباءِ[6] تلقّانا رجالٌ بيضُ الوجوه، فقالوا: "شاهت الوجوه، ارجِعوا"، فرجعنا، فركِبوا أكتافنا».[7]

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالقتل والأسر والسَّبي، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ما فُعل بهم ممّا ذُكر ﴿جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لكفرهم في الدنيا.

---

١ الوَطيس: التَّنُّور. يقال: حَمِيَ الوطيسُ، إذا اشتدّ الحرب. **الصحاح** للجوهري، «وطس».

٢ انظر: **صحيح مسلم**، ٣/١٣٩٨-١٤٠٢ (١٧٧٥، ١٧٧٧)؛ و**مسند أحمد**، ٣/٢٩٦-٢٩٧ (١٧٧٥)؛ و**الكشف والبيان** للثعلبي، ٥/٢٣.

٣ انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥/٢٣-٢٤.

٤ انظر: **اللباب** لابن عادل، ١٠/٥٩.

٥ س: ابن.

٦ يعني: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

٧ **التفسير البسيط** للواحدي، ١٠/٣٥٠. وانظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥/٢٤.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أن يتوب عليه منهم لحكمةٍ تقتضيه، أي: يوفّقه للإسلام. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ يتجاوز عمّا سلف منهم مِن الكفر والمعاصي، ﴿رَّحِيمٞ﴾ يتفضّل عليهم ويُثيبهم.

رُوي أنّ ناسًا منهم جاءوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبايعوه على الإسلام، وقالوا: «يا رسولَ الله، أنت خيرُ الناس وأبرُّ الناس، وقد سُبِي أهلُونا وأولادنا، وأُخذت أموالنا» -قيل: سُبي يومئذ ستّة آلافِ نفسٍ، وأُخذ مِن الإبل والغنم ما لا يُحصَى- فقال عليه السلام: «إنّ عندي ما ترَون، إنّ خير القول أصدَقُه، اختاروا؛ إمّا ذَرارِيَّكم ونساءَكم، وإمّا أموالَكم»، قالوا: «ما كنّا نعدِل بالأحساب شيئًا»، فقام النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: «إنّ هؤلاء جاءونا مسلمين، وإنّا خيّرناهم بين الذّراري والأموال، فلم يعدِلوا بالأحساب شيئًا، فمَن كان بيدِه سَبْيٌ وطابت نفسُه أن يردّه، فشأنه، ومَن لا، فليُعطِنا وليكُنْ قَرضًا علينا، حتّى نُصيبَ شيئًا فنُعطِيَه مكانَه»، قالوا: «قد رضِينا وسلّمْنا»، / فقال عليه السلام: «إنّا لا ندري، لعلّ فيكم مَن لا يرضى، فمُرُوا عُرَفاءَكم، فليرفعوا ذلك إلينا»، فرفعتْ إليه العُرفاء أنّهم قد رضُوا.[١] [١٦ظ]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ وُصفوا بالمصدر مبالغةً، كأنّهم عينُ النجاسة، أو هم ذَوُو نجَسٍ لخُبث باطنهم، أو لأنّ معهم الشركَ الذي هو بمنزلة النجَس، ولأنّهم لا يتطهّرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاساتِ، فهي ملابِسة لهم. عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: «أنّ أعيانهم نجِسة كالكِلاب

---

[١] هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في صحيح البخاري، ١٥٣/٥-١٥٤ (٤٣١٨)؛ ومسند أحمد، ٢٣٠/٣١-٢٣١ (١٨٩١٤). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/٢.

والخنازير».[١] وعن الحسن: «مَن صافح مشركًا توضّأ».[٢] وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين.[٣]

وقُرئ: "نِجْسٌ"[٤] بكسر النون وسكون الجيم، وهو تخفيف "نَجِسٍ"، كـ"كِبْدٍ" في "كَبِدٍ"، كأنّه قيل: إنّما المشركون جنسٌ نِجسٌ أو ضربٌ نِجسٌ. وأكثرُ ما جاء تابعًا لـ"رِجْس".

﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ تفريع على نجاستهم. وإنّما نُهي عن القُرب للمبالغة،[٥] أو للمنع عن دخول الحَرَم، وهو مذهب عطاء.[٦] وقيل: المراد به النهي عن الدخول مطلقًا. وقيل: المراد المنع عن الحجّ والعُمرة، وهو مذهب أبي حنيفةَ رحمه الله؛[٧] ويؤيّده قوله عزّ وجلّ: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ فإنّ تقييد النهي بذلك يدلّ على اختصاص المَنهيّ عنه بوقت مِن أوقات العام، أي: لا يحُجّوا ولا يعتمِروا بعد حجّ عامهم هذا. وهو عامُ تسعةٍ مِن الهجرة حين أُمّر أبو بكر رضي الله عنه على الموسم. ويدلّ عليه قولُ عليّ رضي الله عنه حين نادى ببراءةَ: «ألَا لا يحُجَّ بعد عامِنا هذا مشركٌ».[٨]

ولا يُمنَعون مِن دخول الحرم والمسجد الحرام وسائرِ المساجد عنده. وعند الشافعي يُمنَعون مِن المسجد الحرام خاصّةً.[٩] وعند مالك يُمنَعون مِن جميع المساجد.[١٠] / ونهيُ المشركين أن يقرَبوه راجعٌ إلى نهي المسلمين عن [١٧و] تمكينهم مِن ذلك. وقيل: المراد أن يُمنَعوا مِن تولّي المسجد الحرام والقيامِ بمصالحه، ويُعزَلوا عن ذلك.[١١]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٧٧.

[٢] جامع البيان للطبري، ١١/٣٩٨-٣٩٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١.

[٣] انظر: اللباب لابن عادل، ١٠/٦١-٦٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بن عمران. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٢.

[٥] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٧٧.

[٦] جامع البيان للطبري، ١١/٣٩٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١.

[٧] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١.

[٨] جامع البيان للطبري، ١١/٣١٣ (التوبة، ٩/١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٨-٩ (التوبة، ٩/١).

[٩] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١.

[١٠] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٧٧.

[١١] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقرًا بسبب منعهم مِن الحجّ وانقطاعِ ما كانوا يجلبونه إليكم مِن الأرفاق والمكاسب. وقُرئ: "عَائِلَةً"[١] على أنّها مصدر كـ"العافية"، أو حالًا عائلةً. ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ مِن عطائه أو مِن تفضّله بوجهٍ آخرَ.

فأرسل الله تعالى السماء عليهم مِدرارًا، أغزَرَ بها خيرَهم وأكثَرَ مَيْرَهم، وأسلَمَ أهلُ تَبالةَ وجُرَش،[٢] فحملوا إلى مكّةَ الطعامَ وما يُعاش به، فكان ذلك أعوَدَ عليهم[٣] ممّا خافوا العَيْلة لفوَاته، ثمّ فتح عليهم البلاد والغنائم، وتوجّه إليهم الناس مِن أقطار الأرض.[٤]

﴿إِن شَآءَ﴾ أن يُغنيَكم مَشيئةً تابعةً للحكمة الداعية إليها. وإنّما قُيّد ذلك بها لينقطعَ الآمال إلى الله تعالى، ولأنّ الإغناء ليس مطّردًا بحسب الأفراد والأحوال والأوقات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمصالحكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يُعطي ويمنع.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أمرهم بقتال أهل الكتابين إثرَ أمرهم بقتال المشركين وبمنعهم مِن أن يحُوموا حولَ ما كانوا يفعلونه مِن الحجّ والعُمرة غيرَ خائفين مِن الفاقة المتوهَّمة مِن انقطاعهم، ونبَّههم في تضاعيف ذلك على بعض طُرق الإغناء الموعود على الوجه الكلّيّ، وأرشدهم إلى سلوكه ابتغاءً لفضله واستنجازًا لوعده. والتعبير عنهم[٥] بالموصول للإيذان بعلّيّة ما في حيّز الصلة للأمر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك في سِلك المشركين؛ فإنّ اليهود مُثنِّية

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٢.

[٢] تَبالة: بلدٌ باليمن خَصْبة. وجرش، بضمّ الجيم وفتح الراء: مِخلاف مِن مخاليف اليمن، وهو بفتحهما: بلدٌ بالشام. لسان العرب لابن منظور، «تبل، جرش».

[٣] يقال: هذا الشيء أعوَدُ عليك مِن كذا، أي: أنفعُ. الصحاح للجوهري، «عود».

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١-٢٦٢.

[٥] أي: عن أهل الكتابين.

والنصارى مُثلِّثة، فهُم بمَعزِل مِن أن يؤمنوا بالله سبحانه. ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فإنّ علمهم بأحوال الآخرة كَلَا علم، فإيمانُهم المَبنيّ عليه ليس بإيمان به.

/ ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ما ثبت تحريمه بالوحي متلوًّا أو غيرَ مَتلوّ. وقيل: المراد بـ﴿رَسُولُهُۥ﴾ الرسول الذي يزعمون اتّباعه، أي: يخالفون أصلَ دينهم المنسوخ اعتقادًا وعملًا. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ الثابتَ الذي هو ناسخٌ لسائر الأديان، وهو دين الإسلام، وقيل: دين الله. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ مِن التوراة والإنجيل. فـ﴿مِنْ﴾ بيانيّة، لا تبعيضيّة حتّى يكونَ بعضُهم على خلاف ما نُعت. [١٧ظ]

﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ﴾ أي: يقبَلوا أن يُعطُوا ﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي: ما تقرّرَ عليهم أن يُعطوه؛ مشتقٌّ مِن "جزَى دَيْنَه"، أي: قضاه، أو لأنّهم يَجزُون بها مَن منَّ عليهم بالإعفاء عن القتل. ﴿عَن يَدٍ﴾ حال مِن الضمير في ﴿يُعْطُواْ﴾، أي: عن يدٍ مؤاتيةٍ مطيعةٍ، بمعنى: منقادِين، أو مِن "يدِهم"، بمعنى: مسلِّمين بأيديهم غيرَ باعثين بأيدي غيرهم؛ ولذلك مُنع مِن التوكيل فيه، أو عن غِنًى؛ ولذلك لم تجب الجِزية على الفقير العاجز، أو عن يدٍ قاهرةٍ عليهم، أي: بسبب يدٍ، بمعنى: عاجزين أذِلّاءَ، أو عن إنعام عليهم، فإنّ إبقاء مُهجَتِهم[1] بما بذلوا مِن الجِزية نعمة عظيمة عليهم، أو[2] مِن ﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾، أي: نقدًا مسلَّمةً عن يدٍ إلى يدٍ. وغاية القتال ليست نفسَ هذا الإعطاء؛ بل قبوله كما أشيرَ إليه.

﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ أي: أذِلّاءُ. وذلك بأن يأتيَ بها بنفسه ماشيًا غيرَ راكب، ويسلِّمَها وهو قائم والمتسلِّم جالسٌ، ويؤخَذَ بتَلبيبِه[3] ويقالَ له: «أدِّ الجزيةَ»، وإن كان يؤدّيها.

وهي تؤخَذ عند أبي حنيفة رضي الله عنه مِن أهل الكتاب مطلقًا ومِن مشركي العجم، لا مِن مشركي العرب؛ وعند أبي يوسفَ رحمه الله لا تؤخَذ

---

[1] المُهجَة: دم القلب، ولا بقاءَ للنفس بعد ما تُراق مُهجتُها. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٣٩٧/٣ «باب الهاء والشين والدال معهما».

[2] السياق: حال مِن الضمير في ﴿يُعْطُواْ﴾... أو مِن "يدِهم"... أو مِن ﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾...

[3] التلبيب: مَجمَعُ ما في موضع اللَّبَب مِن ثياب الرجل، يقال: أخذ فلان بتلبيب فلان، ولبَّبتُه، إذا جعلتَ في عُنقه ثوبًا أو حبلًا، وقبضتَ على موضع تلبيبه وأنت تَعتِله. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٣١٨/٨ «باب اللام والباء».

مِن العربي كتابيًا كان أو مشركًا، وتأخَذ مِن الأعجمي كتابيًا كان أو مشركًا؛ وعند الشافعي رحمه الله تؤخَذ مِن أهل الكتاب عربيًا أو عجميًا، ولا تؤخَذ مِن أهل الأوثان مطلقًا. وذهب مالك والأوزاعي[١] إلى أنّها تؤخَذ مِن جميع الكُفّار.

[١٨و] وأمّا المجوس، فقد اتّفقت الصحابة على أخذ الجِزية منهم لقوله / عليه السلام: «سُنُّوا بهم سُنّةَ أهل الكتاب».[٢] ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنّه كان لهم كتابٌ يدرسونه، فأصبحوا وقد أُسريَ على كتابهم، فرُفع مِن بين أظهُرهم.[٣] واتّفقوا على تحريم ذبيحتهم ومناكحتهم لقوله عليه السلام في آخر ما نُقل مِن الحديث «غيرَ ناكحي نسائهم وآكلي ذبيحتهم».[٤]

ووقتُ الأخذ عند أبي حنيفةَ رحمه الله[٥] أوّلُ السنة، وتُسقَط بالموت والإسلام، ومقدارُها على الفقير المعتمل اثنا عشر درهمًا، وعلى المتوسِّط الحالِ أربعةٌ وعشرون درهمًا، وعلى الفَتى ثمانيةٌ وأربعون درهمًا، ولا جزيةَ على فقيرٍ عاجزٍ عن الكسب، ولا على شيخ فانٍ أو زَمِنٍ[٦] أو صبيٍّ أو امرأةٍ؛ وعند الشافعي تؤخَذ في آخر السنة مِن كلّ واحد دينار، غنيًا كان أو فقيرًا، كان له كسبٌ أو لم يكن.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾

١ هو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمِد الأوزاعي، أبو عمرو (ت. ١٥٧هـ/٧٧٤م). إمام أهل الشام. كانت ولادته ببَعْلبكّ، ومنشؤه بالبقاع، ثمّ نقلته أمّه إلى بيروت. وكان فوق الرَّبْعة خفيفَ اللحية به سمرة، وكان يخضب بالحنّاء. ولم يكن بالشام أعلمَ منه، قيل: إنّه أجاب في سبعين ألف مسألة. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ١٢٧/٣-١٢٨؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٠٧/٧-١٣٤.

٢ موطّأ مالك، ٣٩٥/٢ (٢٩٢)؛ مسند الشافعي، ١٣٠/٢ (٤٣٠).

٣ انظر: مسند الشافعي، ١٣١/٢ (٤٣٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٥/٤.

٤ هذه الزيادة ليست في موطّأ مالك ومسند الشافعي. ذكرها البيضاوي منضمًّا إلى الحديث في أنوار التنزيل، ١١٦/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٥٥/٤.

٥ م – رحمه الله.

٦ الزَّمِن: ذو الزَّمانة. والزَّمانة: آفة في الحيوانات. ورجلٌ زمِنٌ، أي مبتلًى بيّنُ الزَّمانة. والزَّمانة: العاهة. لسان العرب لابن منظور، «زمن».

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾ جملة مبتدَأة، سِيقت لتقرير ما مرّ مِن عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه وانتظامِهم بذلك في سِلك المشركين. ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر. وقُرِئ بغير تنوين،[١] على أنّه اسمٌ أعجميٌ كـ"عازَر" و"عيزار"، غيرُ منصرِف للعُجمة والتعريف. وأمّا تعليله بالتقاء الساكنَين أو بجعل "الابن" وصفًا على أنّ الخبر محذوف،[٢] فتعسّفٌ مستغنًى عنه.

قيل: هو قول قدمائهم، ثمّ انقطع، فحكى الله تعالى عنهم ذلك، ولا عبرةَ بإنكار اليهود.[٣] وقيل: قول بعضٍ ممّن كان بالمدينة؛ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه جاء رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم ناسٌ منهم، وهم سلام بن مِشكَم ونعمان بنُ أوفَى / وشاس بنُ قيسٍ ومالك بن الصيف، فقالوا ذلك.[٤] وقيل: قاله فِنحاص بنُ عازوراءَ،[٥] وهو الذي قال: «إنّ الله فقير ونحن أغنياءُ».[٦] [١٨ظ]

وسببُ هذا القول أنّ اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام، فرفع الله تعالى[٧] عنهم التوراةَ ومحاها مِن قلوبهم، فخرج عُزير -وهو غلام- يَسيح في الأرض، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال له: «أين تذهب؟»، قال: «أطلبُ العلم»، فحفَّظه التوراةَ، فأملاها عليهم عن ظَهر لسانه، لا يخرِم حرفًا، فقالوا: «ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام، إلّا أنّه ابنُه».[٨]

قال الإمام الكلبي:[٩] «لمّا قَتل بُخْتَ نصَّرُ علماءَهم جميعًا، وكان عزيرٌ إذ ذاك صغيرًا، فاستصغره ولم يقتله، فلمّا رجع بنو إسرائيلَ إلى بيت المقدِس وليس فيهم مَن يقرأ التوارة، بعَث الله تعالى عُزيرًا ليجدِّدَ لهم التوراة ويكونَ آيةً بعد ما أماته مائةَ عامٍ».

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٩.

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٤١٢.

[٣] اللباب لابن عادل، ١٠/٧٠.

[٤] جامع البيان للطبري، ١١/٤٠٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٣.

[٥] جامع البيان للطبري، ١١/٤٠٨-٤٠٩.

[٦] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٢٢٢.

[٧] س - تعالى.

[٨] تفسير مقاتل بن سليمان، ٢/١٦٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٣.

[٩] وفي هامش م: لباب. | اللباب لابن عادل ١٠/٧١.

يقال: إنّه أتاه مَلك بإناءٍ فيه ماءٌ، فسقاه، فمُثّلت[١] في صدره، فلمّا أتاهم فقال لهم: «إنّي عزيرٌ»، كذّبوه فقالوا: «إنْ كنتَ كما تزعُم، فأَمْلِ علينا التوراةَ»، ففعل، فقالوا: «إنّ الله تعالى لم يقذِف التوراةَ في قلب رجل إلّا لأنّه ابنُه»،[٢] تعالى اللهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما «أنّ اليهود أضاعوا التوارة وعمِلوا بغير الحقّ، فأنساهم الله تعالى التوراةَ، ونسَخها مِن صدورهم، ورفع التابوتَ، فتضرّع عُزير إلى الله تعالى وابتهل إليه، فعاد حِفظ التوراة إلى قلبه، فأنذَرَ قومه به، ثمّ إنّ التابوت / نزل، فعرضوا ما تلاه عزيرٌ على ما فيه، فوجدوه مثلَه، فقالوا ما قالوا».[٣] [١٩و]

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ هو أيضًا قول بعضهم، وإنّما قالوه استحالةً لأن يكون ولدٌ بغير أبٍ، أو لِأن[٤] يفعل ما فعله مِن إبراء الأكمهِ والأبرص وإحياءِ الموتى مَن لم يكن إلهًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما صدر عنهم مِن العظيمتين. وما فيه مِن معنى البُعد للدلالة على بُعد درجة المشار إليه في الشناعة والفظاعة. ﴿قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ إمّا تأكيد لنسبة القول المذكور إليهم ونفيٌ للتجوّز[٥] عنها، أو إشعارٌ بأنّه قولٌ مجرَّدٌ عن برهان وتحقيق، مماثِلٌ للمهمَل الموجود في الأفواه مِن غير أن يكون له مِصداق في الخارج.

﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي: في الكفر والشناعة. وقُرئ بغير همز.[٦] ﴿قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: يشابِهُ قولُهم -على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه عند انقلابه مرفوعًا- قولَ الذين كفروا ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: مِن قبلهم، وهم المشركون الذين يقولون: «الملائكة بناتُ الله» أو «اللاتُ والعُزّى بناتُ الله»؛[٧] لا قدماؤهم

---

١ وفي هامش م: توراة.
٢ معالم التنزيل للبغوي، ٣٧/٤؛ اللباب لابن عادل، ٧١/١٠.
٣ جامع البيان للطبري، ٤٠٩/١١-٤١٠.
٤ وفي هامش م: أي: استحالةً لِأنْ... إلخ.
٥ ط س: التجوّز. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر التصحيح، ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.
٦ أي: "يُضَاهُونَ". قرأ بها السبعة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٤٠٦/١.
٧ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٥٥/٩ (الأنعام، ١٠٠/٦)، ٤٦/٢٢ (النجم، ٢٠/٥٣).

كما قيل،[١] إذ لا تعدّدَ في القول حتّى يتأتّى التشبيهُ. وجعلُه[٢] بين قولَي الفريقين[٣] مع اتّحاد المَقول ليس فيه مزيدُ مزيّة.

وقيل: الضمير لـ﴿ٱلنَّصَٰرَى﴾، أي: يضاهِي قولُهم: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ قولَ اليهود: ﴿عُزَيْرٌ﴾... إلخ؛[٤] لأنّهم أقدمُ منهم.[٥] وهو أيضًا كما ترى؛ فإنّه يستدعي اختصاصَ الردّ والإبطال بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بقول النصارى.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم جميعًا / بالإهلاك، فإنّ مَن قاتَله الله هلك، أو تعجّبٌ مِن شناعة قولهم. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُصرَفون مِن الحقّ إلى الباطل، والحالُ أنّه لا سبيلَ إليه أصلًا؟ [١٩ظ]

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ زيادةُ تقرير لِما سلف مِن كفرهم بالله تعالى. ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم علماء اليهود. واختُلف في واحده؛ قال الأصمعي: «لا أدري أهو "حَبر" أم "حِبر"».[٦] وقال أبو الهيثم: «بالفتح، لا غير».[٧] وكان الليث وابنُ السِّكّيت يقولان: «"حِبر" و"حَبر" للعالِم -ذِمّيًا كان أو مسلمًا- بعد أن كان مِن أهل الكتاب».[٨]

﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ وهم علماء النصارى مِن أصحاب الصوامع. أي: اتّخذ كلُّ واحد مِن الفريقين علماءَهم -لا الكلُّ الكلَّ- ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحلّه الله تعالى وتحليلِ ما حرّمه، أو بالسجود لهم. ونحوُه

---

[١] وفي هامش م: ابن عادل. | اللباب لابن عادل، ١٠/٧٣-٧٤. قاله أيضًا الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٦٤.

[٢] أي: جعلُ التشبيه. قاله القتيبي كما في اللباب لابن عادل، ١٠/٧٤.

[٣] وفي هامش م: هما: الأسلاف والأخلاف. «منه».

[٤] س: ابن الله.

[٥] قاله قتادة والسدّي كما في اللباب لابن عادل، ١٠/٧٣-٧٤.

[٦] تهذيب اللغة للأزهري، ٥/٢٣ «باب الحاء والراء مع الباء»؛ اللباب لابن عادل، ١٠/٧٤.

[٧] تهذيب اللغة للأزهري، ٥/٢٣ «باب الحاء والراء مع الباء»؛ اللباب لابن عادل، ١٠/٧٤.

[٨] كلام الليث -وهو الخليل بن أحمد- في كتاب العين، ٣/٢١٨ «باب الحاء والراء والباء معهما». وقول ابن السكّيت في اللباب لابن عادل، ١٠/٧٤.

تسميةُ اتّباع الشيطان عبادةً له في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ [مريم، ٤٤/١٩] وقولِه تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ [سبأ، ٤١/٣٤].

قال عديّ ابن[١] حاتم: أتيتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفي عُنقي صَليبٌ مِن ذهَب -وكان إذ ذاك على دينٍ يسمّى الرَّكوسيّةَ، فريق مِن النصارى- وهو يقرأ سورةَ براءةَ، فقال: «يا عديُّ، اطرَحْ هذا الوثن»، فطرحتُه، فلمّا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قلتُ: «يا رسولَ الله، لم يكونوا يعبدونهم»، فقال عليه السلام: «أليس يحرِّمون ما أحلّ الله فتحرِّمونه، ويُحِلّون ما حرّم الله فتستحلّونه؟»، فقلتُ: «بلى»، قال: «ذلك عبادتهم».[٢]

[٢٠و] قال الربيع:[٣] قلتُ لأبي العالية:[٤] «كيف كانت تلك الربوبيّةُ / في بني إسرائيلَ؟»، قال: «إنّهم ربّما وجدوا في كتاب الله تعالى ما يخالِف أقوالَ الأحبار، فكانوا يأخذون بأقوالهم ويتركون حُكمَ كتاب الله».[٥]

﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ عطفٌ على ﴿رُهۡبَٰنَهُمۡ﴾، أي: اتّخذه النصارى ربًّا معبودًا بعد ما قالوا: إنّه ابنُه، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. وتخصيص الاتّخاذ به يشير إلى أنّ اليهود ما فعلوا ذلك بعُزيرٍ. وتأخيره في الذكر -مع أنّ اتّخاذهم له عليه السلام ربًّا معبودًا أقوى مِن مجرّد الإطاعة في أمر التحليل والتحريم، كما هو المرادُ باتّخاذهم الأحبارَ والرهبانَ أربابًا- لأنّه مختصّ بالنصارى. ونسبته عليه السلام إلى أمّه مِن حيث دلالتُها على مربوبيّته المنافيةِ للربوبيّة للإيذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاءِ عليهم بنهاية الجهل والحماقة.

---

١ س: بن.

٢ انظر: سنن الترمذي، ٢٧٨/٥ (٣٠٩٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٤١٧/١١-٤١٨.

٣ هو الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني. كان عالمَ مزو في زمانه. سمع أنس بن مالك وأبا العالية الرِّياحي -وأكثر عنه- والحسن البصري؛ وعنه سليمان التيمي والأعمش والحسين بن واقد وأبو جعفر الرازي وعبد العزيز بن مسلم وابن المبارك، وآخرون. يقال: تُوفّي سنةَ تسعٍ وثلاثين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٦٩/٦-١٧٠.

٤ هو أبو العالية رُفيع بن مِهران الرِّياحي (ت. ٩٠هـ/٧٠٩م). تابعيّ. سبقت ترجمته.

٥ جامع البيان للطبري، ٤٢٠/١١؛ اللباب لابن عادل، ٧٥/١٠.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي: والحالُ أنّ أولئك الكَفَرةَ ما أُمروا في كتابَيهم ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ عظيمَ الشأن، هو الله سبحانه وتعالى، ويُطيعوا أمره، ولا يُطيعوا أمر غيره بخلافه؛ فإنّ ذلك مُخِلّ بعبادته تعالى، فإنّ جميع الكتب السماويّة متّفِقة على ذلك قاطبةً. وقد قال المسيح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [المائدة، ٧٢/٥]. وأمّا إطاعة الرسول عليه السلام وسائرِ مَن أمر الله تعالى بطاعته، فهي في الحقيقة إطاعة لله عزّ وجلّ.

أو[1] وما أُمر الذين اتّخذهم الكَفَرةُ أربابًا مِن المسيح والأحبار والرهبانِ إلّا ليوحِّدوا الله تعالى، فكيف يصِحّ أن يكونوا أربابًا وهم مأمورون مستعبَدون مثلَهم؟ ولا يقدح في ذلك كونُ ربوبيّة الأحبار والرهبان بطريق الإطاعة؛ فإنّ تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقّق إلّا بتخصيص الطاعة أيضًا به تعالى، وحيث لم / يخُصّوها به تعالى، لم يخصّوا العبادة به سبحانه. [٢٠ظ]

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفةٌ ثانية لـ﴿إِلَٰهٗا﴾ أو استئنافٌ مقرِّر للتوحيد. ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عن الإشراك به في العبادة والطاعة.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ إطفاء النار عبارة عن إزالة لَهَبها الموجِبة لزوال نورها، لا عن إزالة نورها كما قيل؛ لكن لمّا كان الغرض مِن إطفاء نار لا يراد بها إلّا النورُ كالمصباح إزالةَ نورها، جُعل إطفاؤها عبارةً عنها، ثمّ شاع ذلك حتّى كان عبارةً عن مطلق إزالة النور، وإن كان لغير النار. والسرّ في ذلك انحصارُ إمكان الإزالة في نورها.

والمراد بـ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه إمّا حُجّته النيّرة الدالّةُ على وحدانيّته وتنزُّهِه عن الشركاء والأولاد، أو القرآن العظيم الناطقُ بذلك، أي: يريد أهل الكتابين أن يردّوا القرآن ويكذّبوه فيما نطق به مِن التوحيد والتنزّه عن الشركاء والأولاد والشرائع التي مِن جملتها ما خالفوه مِن أمر الحِلّ والحُرمة ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾

---

[1] السياق: أي: والحالُ أنّ أولئك الكَفَرةَ... أو وما أُمر الذين...

بأقاويلهم الباطلة الخارجةِ عنها، مِن غير أن يكون لها مِصداقٌ تنطبِق عليه أو أصلٌ تستنِد إليه[١] حسبما حُكي عنهم. وقيل: المراد به نبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. هذا، وقد قيل: مُثّلت حالُهم فيما ذُكر بحال مَن يريد طَمْس نور عظيم مُنبَثٍّ في الآفاق بنفخة.[٢]

﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾ أي: لا يريد ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بإعلاء كلمة التوحيد وإعزازِ دين الإسلام. وإنّما صحّ الاستثناء المفرَّغ مِن الموجَب لكونه بمعنى النفي كما أشيرَ إليه لوقوعه في مقابلة قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ﴾، وفيه مِن المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس في نفي الإرادة،[٣] أي: لا يريد شيئًا مِن الأشياء إلّا إتمامَ نوره، فيندرج في المستثنَى منه بقاؤه على ما كان عليه، فضلًا عن الإطفاء. وفي إظهار "النور" في مقام الإضمار مضافًا إلى ضميره عزّ وجلّ / زيادةُ اعتناء بشأنه [٢١و] وتشريف له على تشريف وإشعار بعلّة الحكم.

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ جواب ﴿لَوۡ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملةُ معطوفة على جملةٍ قبلها مقدَّرةٍ، وكِلتاهما في موقع الحال، أي: لا يريد الله إلّا إتمامَ نوره، لو لم يكرَه الكافرون ذلك ولو كرهوه، أي: على كلّ حال مفروض. وقد حُذفت الأولى في الباب حذفًا مطّردًا لدلالة الثانية عليها دلالةً واضحةً؛ لأنّ الشيء إذا تحقّق عند المانع، فلَأنْ يتحقّقَ عند عدمه أَولى. وعلى هذا السرّ يدور ما في "إنْ" و"لو" الوصليّتين مِن التأكيد. وقد مرّ زيادةُ تحقيق لهذا مِرارًا.[٤]

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٣٣﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ ملتبسًا ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: القرآنِ الذي هو هدًى للمتّقين، ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الثابتِ، وهو دين الإسلام، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ أي: رسولَه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾

---

١ الضمير في "تنطبق" و"تستنِد" راجع إلى "أقاويلهم".
٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٦٥.
٣ وفي هامش م: لأنّ الإباء أقصى مراتب عدم الإرادة، والمفهوم مِن الاستثناء هو إثبات الإرادة، لا نفي الإباء، فتدبّر. «منه».
٤ انظر: تفسير المائدة، ٥/١٠٠.

أي: على أهل الأديان كلِّهم، أو ليُظهِرَ الدينَ الحقّ على سائر الأديان بنسخه إيّاها حسبما يقتضيه[1] الحكمة. والجملة بيان وتقريرٌ لمضمون الجملة السابقة. والكلام في قوله عزّ وعلا:[2] ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ كما فيما سبق؛ خلَا أنّ وصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر للدلالة على أنّهم ضمُّوا الكفر بالرسول إلى الكفر بالله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ شروع في بيان حال الأحبار والرُّهبان في إغوائهم لأراذلهم إثرَ بيان سوء حال الأتباع في اتّخاذهم لهم أربابًا يُطيعونهم في الأوامر والنواهي واتّباعِهم لهم فيما يأتون وما يذَرون.

﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ يأخذونها بطريق الرِّشوة لتغيير الأحكام والشرائع والتخفيف والمسامحة فيها. وإنّما عُبّر عن ذلك بالأكل بناءً على أنّه معظم الغرض منه، وتقبيحًا لحالهم، وتنفيرًا للسامعين عنهم. ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الإسلام أو عن المَسلك المقرَّر في التوراة والإنجيل إلى ما افترَوه وحرَّفوه بأخذ الرُّشى، أو يصُدّون عنه بأنفسهم بأكلهم الأموالَ بالباطل.

[٢١ظ] / ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ أي: يجمعونهما ويحفظونهما، سواء كان ذلك بالدفن أو بوجهٍ آخرَ. والموصول عبارة إمّا عن الكثير مِن الأحبار والرُّهبان، فيكون مبالغةً في الوصف بالحِرص والضِّنّ بهما بعد وصفهم بما سبق مِن أخذ الرُّشى والبراطيل في الأباطيل،[3] وإمّا عن المسلمين الكانزين غيرِ المنفِقين، وهو الأنسب بقوله عزّ وجلّ ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيكون نظمُهم

---

١ س: تقتضيه.

٢ س: وجلّ.

٣ البِرطيل: الحجر المستطيل. ومنه: ألقمه البِرطيل، وهو الرِّشوة؛ وإنّ البراطيل تنصُر الأباطيلَ. وبُرطِلَ فلان: رُشِيَ. أساس البلاغة للزمخشري، «برطل».

في قرن المُرتشِين مِن أهل الكتاب تغليظًا ودلالةً على كونهم إسوةً لهم في استحقاق البِشارة بالعذاب الأليم.

فالمراد بالإنفاق في سبيل الله الزكاة؛ لِما رُوي أنّه لمّا نزل كبُرَ ذلك على المسلمين، فذكر عمرُ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «إنّ الله تعالى لم يفرِض الزكاةَ إلّا ليطيِّبَ بها ما بقِي مِن أموالكم»،[١] ولقوله عليه السلام: «ما أُدّيَ زكاته، فليس بكنزٍ»،[٢] أي: بكنزٍ أُوعِد عليه؛ فإنّ الوعيد عليه مع عدم الإنفاق فيما أمَرَ الله بالإنفاق فيه.

وأمّا قوله عليه السلام: «مَن ترك صفراءَ أو بيضاءَ، كُويَ بها»[٣] ونحوُه، فالمراد بها ما لم يؤدَّ حقُّها؛ لقوله عليه السلام: «ما مِن صاحبِ ذهبٍ ولا فضّةٍ لا يؤدِّي منها حقَّها إلّا إذا كان يومَ القيامة صُفحتْ له صفائح مِن نار، فيُكوَى بها جَنبه وجَبينه وظهرُه».[٤]

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ خبرٌ للموصول. و"الفاء" لتضمّنه معنى الشرط. ويجوز أن يكون الموصولُ منصوبًا بفعل يفسّره ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿يَوْمَ﴾ منصوب بـ﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أو بمضمَر يدلّ عليه ذلك، أي: يعذَّبون، أو بـ"اذكرْ". ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يومَ تُوقَد النار ذاتَ حَمْيٍ شديد عليها. وأصله: "تُحمَى بالنار"، فجُعل الإحماء للنار مبالغةً، ثمّ حُذفت "النار"، وأُسندَ الفعل إلى الجارّ والمجرور تنبيهًا على المقصود، فانتقل مِن صيغة التأنيث إلى التذكير، كما تقول: "رُفعت القصّة إلى الأمير"، فإنْ طرحتَ "القصّة"، قلتَ: "رُفع إلى الأمير".

---

[١] انظر: سنن أبي داود، ٣/٩٧ (١٦٦٤)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٥/٤٠-٤١.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٦. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٦٦-٦٧ (٥٣٩).

[٣] انظر: مسند أحمد، ٣٥/٣٨٠-٣٨١ (٢١٤٨٠)؛ وجامع البيان للطبري، ١١/٤٢٧-٤٢٨.

[٤] انظر: صحيح مسلم، ٢/٦٨٠-٦٨٢ (٩٨٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤/٤١-٤٢.

وإنّما قيل: ﴿عَلَيْهَا﴾ والمذكورُ شيآنِ؛ لأنّ المراد بهما دنانيرُ ودراهمُ / كثيرةٌ، كما قال عليّ رضي الله تعالى عنه: «أربعةُ آلافٍ وما دُونها نفقةٌ، وما فوقها كنزٌ».[1] وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾.[2] وقيل: الضمير للأموال والكنوز، فإنّ الحكم عامٌّ، وتخصيصُهما بالذِّكر لأنّهما قانون التموّل؛ أو للفضّة، وتخصيصُها لقُربها ودلالةِ حكمها على أنّ الذهَب كذلك، بل أَولى. [٢٢و]

﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ لأنّ جمعهم لها وإمساكَهم كان لطلب الوجاهة بالغِنى والتنعّمِ بالمطاعم الشهيّة والملابس البهيّة؛ أو لأنّهم ازوَرُّوا عن السائل وأعرضوا عنه وولَّوه ظهورَهم؛ أو لأنّها أشرفُ الأعضاء الظاهرة، فإنّها المشتملة على الأعضاء الرئيسيّة التي هي الدِّماغ والقلب والكبِد؛ أو لأنّها أصول الجهات الأربع التي هي مقاديم البَدن ومآخيرُه وجَنْباه.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ على إرادة "القول". ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ لمنفعتها، فكان عينَ مَضرّتها وسببَ تعذيبها، ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: وبالَ كنزِكم أو ما تكنِزونه. وقُرئ بضمّ النون.[3]

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ أي: عددَها ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه. وهو معمول لها؛ لأنّها مصدر. ﴿ٱثْنَا عَشَرَ﴾ خبرٌ لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿شَهْرًا﴾ تمييزٌ مؤكِّد، كما في قولك: "عندي مِن الدنانير عشرون دينارًا". والمراد الشهور القمريّة، إذ عليها يدور فلك الأحكام الشرعيّة. ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ أو فيما أثبته وأوجبه. وهو صفة ﴿ٱثْنَا عَشَرَ﴾، أي: اثنا عشرَ شهرًا مُثبَتًا في كتاب الله.

---

[1] مصنّف عبد الرزّاق، ٤/١٠٩ (٧١٥٠)؛ جامع البيان للطبري، ١١/٤٢٦-٤٢٧.

[2] في الآية السابقة.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم وأبي السمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٢.

وقوله عزّ وعلا: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ متعلِّق بما في الجارّ والمجرور مِن معنى الاستقرار، أو بـ"الكتاب" على أنّه مصدر، والمعنى: إنّ هذا أمرٌ ثابتٌ في نفس الأمر مُنذ خلق الله تعالى الأجرامَ والحركاتِ والأزمِنةَ.

﴿مِنْهَآ﴾ أي: مِن تلك الشهور الاثنَي عشرَ ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي ذو القعدة وذو الحِجّة والمحرّم ورجب. ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم في خُطبته في حَجّة الوداع: / «ألَا إنّ الزمان قد استدارَ كهيئته يومَ خلَقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشرَ شهرًا، منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثٌ متوالِياتٌ: ذو القعدة وذو الحِجّة والمحرّم، ورجبُ مُضَرَ الذي بين جمادَى وشعبان».[1] [٢٢ظ]

والمعنى: رجعت الأشهرُ إلى ما كانت عليه مِن الحِلّ والحُرمة، وعاد الحجُّ إلى ذي الحجّة بعد ما كانوا أزالوه مِن محلّه بالنسيء الذي أحدثوه في الجاهليّة. وقد وافقت حَجّةُ الوداع ذا الحِجّة، وكانت حجّة أبي بكر رضي الله تعالى عنه قبلها في ذي القعدة.[2]

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تحريم الأشهُر الأربعة المعيَّنة المعدودة. وما في ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البُعد لتفخيم المشار إليه؛ هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم، دينُ إبراهيمَ عليه السلام وإسماعيلَ عليه السلام، وكانت العرب قد تمسّكت به وِراثةً منهما، وكانوا يعظِّمون الأشهر الحُرُمَ ويكرَهون القتال فيها، حتّى إنّه لو لقي رجلٌ قاتِلَ أبيه أو أخيه، لم يُهِجْه،[3] وسمَّوا رجبًا "الأصمَّ" و"مُنصِلَ الأسِنّة"،[4] حتّى أحدثوا[5] النسيء، فغيّروا.[6]

---

[1] صحيح البخاري، ٦/٦٦ (٤٦٦٢)؛ صحيح مسلم، ٣/١٣٠٥-١٣٠٦ (١٦٧٩).

[2] جامع البيان للطبري، ١١/٤٥٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٩.

[3] هاجَ هائجُه، أي: ثار غضبُه. وهدَأ هائجُه، أي: سكنت فَوْرته. والهَيْجا: الحرب. ويوم الهِياج: يوم القتال. الصحاح للجوهري، «هيج».

[4] نصَلَ السهمُ، إذا خرج منه النَّصْل، ويقال أيضًا: نصَلَ السهمُ، إذا ثبت نصلُه في الشيء فلم يخرج، وهو مِن الأضداد. وكان يقال لرجب في الجاهليّة: مُنصِل الأسِنّة ومُنصِل الألّ؛ لأنّهم كانوا ينزعون الأسِنّة فيه، ولا يغزُون، ولا يُغير بعضُهم على بعض. الصحاح للجوهري، «نصل».

[5] وفي هامش م: أي: العرب. «منه».

[6] الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٩.

﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بهَتْك حُرمتهنّ وارتكابِ ما حُرِّم فيهنّ. والجمهور على أنّ حُرمة القتال فيهنّ منسوخةٌ، وأنّ الظلم ارتكابُ المعاصي فيهنّ، فإنّه أعظمُ وزرًا كارتكابها في الحَرَم. وعن عطاء: «أنّه لا يحِلّ للناس أن يغزُوا في الحَرَم ولا في الأشهر الحُرُم إلّا أن يقاتَلوا، وما نُسخت».[١] ويؤيِّد الأوّلَ أنّه عليه السلام حصر طائفًا وغزَا هَوازنَ بحُنين في شوّال وذي القعدة.[٢]

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أي: جميعًا، وهو مصدر "كفّ عن الشيء"، فإنّ الجميع مكفوف عن الزيادة، وقع موقعَ الحال. / ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: معكم بالنصر والإمداد فيما تباشرونه مِن القتال. وإنّما وُضع المُظهَر موضعَه مدحًا لهم بالتقوى، وحثًّا للقاصرين عليه، وإيذانًا بأنّه المدارُ في النصر. وقيل: هي بِشارة وضَمان لهم بالنُّصرة بسبب تقواهم. [٢٣و]

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ هو مصدر "نسَأه -إذا أخّره- نَسأً ونَساءً ونَسيئًا"، نحو "مسَّ مسًّا ومَساسًا ومَسيسًا"، وقُرئ بهنّ جميعًا.[٣] وقُرئ بقلب الهمزة ياءً وتشديدِ الياء الأولى فيها.[٤]

كانوا إذا جاء شهرٌ حرامٌ -وهم محارِبون- أحلُّوه، وحرَّموا مكانه شهرًا آخرَ، حتّى رفضوا خصوص الأشهُر، واعتبروا مجرّد العدد، وربّما زادوا في عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثةَ عشرَ أو أربعةَ عشرَ ليتّسعَ لهم الوقت، ويجعلوا

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٣/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٩/٢.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٣/٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٠/٣.

[٣] الأولى: "النَّسْءُ"، قرأ بها ابن كثير في رواية شبل كما في السبعة لابن مجاهد، ص ٣١٤، وهي غير القراءة المشهورة عن ابن كثير. والثانية: "النَّساءُ"، وهي قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢٧٠/٢. والثالثة: "النَّسِيءُ"، وهي القراءة المتواترة المشهورة.

[٤] أي: "النَّسِيُّ". قرأ بها ورش مِن طريق الأزرق وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٤٠٥/١.

أربعةَ أشهرٍ مِن السَّنة حُرُمًا؛[١] ولذلك نُصَّ على العدد المعيَّن في الكتاب والسنّة،[٢] أي: إنّما تأخيرُ حُرمة شهر إلى شهر آخَرَ ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ لأنّه تحليلُ ما حرّمه الله وتحريمُ ما حلّله، فهو كفرٌ آخرُ مضمومٌ إلى كفرهم.

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ضلالًا على ضلالهم القديم. وقُرئ على البناء للفاعل مِن الإفعال،[٣] على أنّ الفعل لله سبحانه، أي: يخلُق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه. وهو المعنى على القراءة الأولى أيضًا، وقيل: المُضِلّون حينئذ رؤساؤهم، والموصول عبارة عن أتباعهم. وقُرئ: "يَضَلُّ"[٤] بفتح الياء والضاد، مِن "ضَلِل يَضلَلُ"، و"نُضِلُّ"[٥] بنون العَظَمة.

﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ أي: الشهرَ المؤخَّر ﴿عَامًا﴾ مِن الأعوام، ويحرِّمون مكانه شهرًا آخرَ ممّا ليس بحرام، ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾ أي: يحافِظون على حُرمته كما كانت. والتعبير عن ذلك بالتحريم باعتبار إحلالهم له في العام الماضي، أو لإسنادهم له إلى آلهتهم كما سيَجيء. ﴿عَامًا﴾ آخرَ إذا لم يتعلّق بتغييره غرضٌ مِن أغراضهم.

قال الكلبي: «أوّلُ مَن فعل ذلك رجلٌ مِن كِنانةَ، يقال له: نُعَيم بن ثعلبة، وكان إذا همّ الناسُ بالصدور مِن الموسم يقوم، فيخطب ويقول: "لا مردَّ لِما قضيتُ، وأنا الذي لا أُعاب ولا أُجاب"، فيقول[٦] له المشركون: "لبَّيك"، ثمّ يسألونه أن يُنسِئَهم شهرًا يَغيرون فيه، فيقول: "إنّ صَفَرًا العامَ حرامٌ"، فإذا قال ذلك حَلّوا الأوتار ونزعوا الأسِنّة والأزِجّةَ، وإن قال: "حلالٌ" عقَدوا الأوتار وشدّوا الأزِجّة وأغاروا».[٧]

وقيل: هو جُنادة بن عوفٍ الكِناني، وكان مُطاعًا في الجاهليّة، كان يقوم على جَمَل في الموسم، فينادِي بأعلى صوته: «إنّ آلهتكم قد أحلّت لكم المحرَّم،

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٤٥٤-٤٥٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٠.

٢ انظر: تفسير الآية السابقة.

٣ أي: "يُضِلُّ". قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الرجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٣.

٦ كأنّ المصنّف رحمه الله ضبطها بتشديد الواو.

٧ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٤٥؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٩٠. ونحوه في جامع البيان للطبري، ١١/٤٥٣-٤٥٤.

فأَحِلّوه»، ثمّ يقوم في العام القابل فيقول: «إنّ آلهتكم قد حرّمت عليكم المحرّم، فحرِّموه».[1] وقيل: هو رجلٌ مِن كِنانةَ، يقال له: القَلَمَّس، قال قائلهم:

ومِـنّـا نـاسِـئُ الـشـهـرِ الـقَـلَـمَّـس[2]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أوّلُ مَن سنَّ النسيءَ عمرو بنُ لُحيّ بنِ قمعةَ بنِ خِندِف».[3]

والجملتان تفسيرٌ للضلال، أو حال مِن الموصول، والعامل عاملُه.

﴿لِيُوَاطِـُٔواْ﴾ أي: / ليوافِقوا ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ مِن الأشهُر الأربعة. و"اللام" متعلِّقة بالفعل الثاني أو بما يدلّ عليه مجموعُ الفعلين. ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بخصوصه مِن الأشهُر المعيَّنة. [٢٣ظ]

﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾ وقُرئ على البناء للفاعل،[4] وهو الله سبحانه، والمعنى: جعل أعمالَهم مشتهاةً للطبْع محبوبةً للنفس، وقيل: خذَلهم حتّى حسِبوا قبيحَ أعمالهم حَسَنًا، فاستمرّوا على ذلك.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هدايةً موصِلةً إلى المطلوب البتّةَ، وإنّما يهديهم إلى ما يوصِل إليه عند سلوكه، وهم قد صدُّوا عنه بسوء اختيارهم، فتاهُوا في تِيه الضلال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ رجوع إلى حثّ المؤمنين وتجريدِ عزائمهم على قتال الكَفَرة إثرَ بيان طرفٍ مِن قبائحهم الموجِبة لذلك. ﴿مَا لَكُمۡ﴾ استفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ. ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ تباطَأتم وتقاعستم.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٠. وانظر: جامع البيان للطبري، ١١/٤٥١-٤٥٢.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٤٥٦؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٩٠.

٣ التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٤٢٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤/٤٧.

٤ أي: "زَيَّنَ". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٣.

أصله: "تَثاقَلتم"، وقد قُرئ كذلك.[١] أي: أيُّ شيء حصل أو حاصلٌ لكم، أو ما تصنعون حين قال لكم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ -أي: اخرُجوا إلى الغَزو في سبيل الله- متثاقِلِين؟ على أنّ الفعل ماضٍ لفظًا مضارعٌ معنًى، كأنّه قيل: تتثاقلون؛ فالعامل في الظرف الاستقرارُ المقدَّرُ في ﴿لَكُمْ﴾ أو معنى الفعل المدلولِ عليه بذلك، ويجوز أن يعمل فيه الحالُ، أي: ما لكم متثاقِلين حين قيل لكم: ﴿ٱنفِرُواْ﴾. وقُرئ: "أَثَّاقَلْتُمْ"[٢] على الاستفهام الإنكاري التوبيخي، فالعاملُ في الظرف حينئذ إنّما هو الأوّل.[٣]

﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ على تضمينه معنى المَيل والإخلاد، أي: اثّاقَلتم مائلين إلى الدنيا وشهَواتها الفانيةِ عمّا قليلٍ، وكرِهتم مَشاقَّ الغزو ومتاعبه المستتبِعةَ للراحة الخالدة، كقوله تعالى: ﴿أَخۡلَدَ/ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [٢٤و] [الأعراف، ١٧٦/٧]، أو إلى الإقامة بأرضكم وديارِكم.

وكان ذلك في غزوة تَبُوك في سنة تسع[٤] بعد رجوعهم مِن الطائف، استُنفِروا في وقت عُسرةٍ وقَحطٍ وقَيْظٍ،[٥] وقد أدركت ثِمارُ المدينة وطابت ظِلالها مع بُعد الشُّقّة[٦] وكثرةِ العدوّ، فشقَّ عليهم ذلك.[٧] وقيل: ما خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في غزوةٍ غزاها إلّا ورَّى[٨] بغيرها، إلّا في غزوة تبوك، فإنّه عليه السلام بيَّن لهم المقصد فيها ليستعِدّوا لها.[٩]

﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وغرورِها ﴿مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: بدلَ الآخرة ونعيمِها الدائم؛ ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أُظهرَ في مقام الإضمار لزيادة التقرير، أي:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٣.

[٢] قراءة شاذّة. ذكرها ابن عادل بلا نسبة في اللباب، ٩٢/١٠.

[٣] وفي هامش م: أي: الاستقرار المقدّر في ﴿لَكُمْ﴾ أو معنى الفعل المدلول عليه بذاك، لا قولُه "أَثَّاقَلْتُمْ"؛ لأنّ الاستفهام لا يعمل ما بعده فيما قبله. «منه».

[٤] ط س: عشر. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[٥] وفي هامش م: حرّ شديد.

[٦] الشُّقّة: السفر البعيد. الصحاح للجوهري، «شقق».

[٧] انظر: جامع البيان للطبري، ٤٥٩/١١-٤٦٠. وفي الكشّاف للزمخشري، ٢٧١/٢، أنّها في سنة عشر، والصواب ما ذكره المصنّف رحمه الله.

[٨] وَرَّيتُ الخبر توريةً، إذا سترتَه وأظهرتَ غيرَه، كأنّه مأخوذ مِن وراء الإنسان، كأنّه يجعله وراءَه، حيث لا يُظهر. الصحاح للجوهري، «وري».

[٩] انظر: صحيح البخاري، ٤٨/٤ (٢٩٤٨)؛ وصحيح مسلم، ٢١٢٨/٤ (٢٧٦٩).

فما التمتّعُ بها وبلذائذها ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: في جَنْب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: مستحقَر لا يُؤبَه له. وفي ترشيح الحياة الدنيا بما يُوذِن بنفاستها ويستدعي الرغبةَ فيها وتجريدِ الآخرة عن مثل ذلك مبالغةٌ في بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعِظَمِ شأن الآخرة وعلوّها.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ أي: إن لا تنفِروا إلى ما استُنفِرتم إليه ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ أي: الله عزّ وجلّ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: يُهلككم بسبب فظيع هائل كقَحط ونحوه، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بكم بعد إهلاككم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وصَفهم بالمغايَرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد في التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفيّة والذاتيّة المستلزِمةِ للاستئصال، أي: قومًا مُطيعين مُؤثرين للآخرة على الدنيا، ليسوا مِن أولادكم ولا أرحامِكم كأهل اليمن وأبناء فارس. وفيه مِن الدلالة على شدّة السخط ما لا يخفى.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ / أي: لا يقدح تثاقُلكم في نُصرة دينه أصلًا؛ فإنّه الغنيُّ عن كلّ شيء في كلّ شيء. وقيل: الضمير للرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ فإنّ الله عزّ وجلّ وعده بالعِصمة والنُّصرة، وكان وعدُه مفعولًا لا محالةَ. [٢٤ظ]

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على إهلاككم والإتيانِ بقوم آخَرين.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إن لم تنصروه فسيَنصُره الله الذي قد نصره في وقتِ ضرورةٍ أشدَّ مِن هذه المرّة، فحُذف الجزاء وأقيمَ سببُه مُقامَه؛ أو إن لم تنصروه فقد أوجب له النُّصرة، حتّى نصره في مثل ذلك الوقت، فلن يخذُله في غيره.

﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: تسبّبوا لخروجه، حيث أُذن له عليه السلام في ذلك حين همُّوا بإخراجه. ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ حال مِن ضميره عليه السلام. وقُرئ بسكون الياء[1] على لغة مَن يُجري الناقص مُجرى المقصور في الإعراب.

أي: أحدَ اثنين، مِن غير اعتبار كونه عليه السلام ثانيًا؛ فإنّ معنى قولهم: "ثالثُ ثلاثةٍ" و"رابعُ أربعةٍ" ونحو ذلك أحدُ هذه الأعداد مطلقًا، لا الثالثُ والرابعُ خاصّةً؛ ولذلك منع الجمهور أن ينصب ما بعده بأن يقال: "ثالثٌ ثلاثةً" و"رابعٌ أربعةً". وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة، ٧٣/٥] مِن سورة المائدة. وجعلُه عليه السلام ثانيَهما لمَشْي الصدِّيق أمامَه ودخولِه في الغار أوّلًا لكَنْسه وتسويةِ البِساط كما ذُكر في الأخبار، تمحّلٌ مستغنًى عنه.

﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ بدل مِن ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ﴾ بدلَ البعض، إذ المراد به زمانٌ متّسعٌ. والغار: ثقبٌ في أعلى ثَوْرٍ، وهو جبلٌ في يَمَنِيِّ[2] مكّةَ على مَسيرة ساعةٍ، مَكَثَا فيه ثلاثًا.

﴿إِذۡ يَقُولُ﴾ بدلٌ ثانٍ أو ظرفٌ لـ﴿ثَانِيَ﴾. ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أي: الصدّيق: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعَون والعِصمة. والمراد بالمعيّة الولاية الدائمةُ التي لا تحُوم حولَ صاحبها شائبةُ شيء مِن الحزن. وما هو المشهور مِن اختصاص "مع" بالمتبوع، فالمراد بما فيه مِن المتبوعيّة هو المتبوعيّة في الأمر المباشَر.

رُوي أنّ المشركين طلعوا فوق الغار، فأشفَقَ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «إنْ تُصَبِ اليومَ ذهَبَ دينُ الله»، فقال عليه السلام: «ما ظنُّك باثنَين اللهُ ثالثُهما؟».[3] وقيل: لمّا دخلَا الغارَ بعَث الله تعالى حمَامتَين فباضتَا في أسفله، والعنكبوتَ فنسَجت عليه، وقال رسول الله

---

[1] قراءة شاذّة. ذكرها بلا نسبة الزمخشري في الكشّاف، ٢٧٢/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٩٤/١٠.

[2] م ط س: يمينى [صُحّح في هامش م ط س]. | وفي هامش م: أي: في الجانب اليَمَنِيّ منها. «منه». | وفي هامش م: تغليبًا لليمين على اليسار لتعظيم مكّة، كذا قيل. «منه».

[3] انظر: صحيح البخاري، ٦٦/٦ (٤٦٦٣)؛ وصحيح مسلم، ١٨٥٤/٤ (٢٣٨١). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٢٧٢/٢.

صلّى الله عليه وسلّم: «اللّٰهمّ أَعْمِ أبصارَهم»، فجعلوا يتردّدون حولَ الغار، / ولا يفطنون[1] قد أخذ الله تعالى بأبصارهم عنه.[2] [٢٥و]

وفيه مِن الدلالة على علوّ طبقة الصدّيق رضي الله عنه وسابقةِ صحبته ما لا يخفى. ومِن ذلك قالوا: «مَن أنكر صحبةَ أبي بكر رضي الله عنه، فقد كفر لإنكاره كلامَ الله سبحانه وتعالى».[3]

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أَمَنَته التي تسكُن عندها القلوب ﴿عَلَيْهِ﴾ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فالمراد بها ما لا يحُوم حولَه شائبةُ الخوف أصلًا، أو على صاحبه، إذ هو المنزعِج، وأمّا النبيّ عليه السلام، فكان على طُمَأنِينة مِن أمره.

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ عطفٌ على ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾. والجنود هم الملائكة النازلون يومَ بدرٍ والأحزابِ وحُنينٍ. وقيل:[4] هم الملائكة، أنزلهم ليحرِسوه في الغار؛ ويأباه وصفُهم بعدم رؤية المخاطَبين لهم وقولُه عزّ وعلا:[5] ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ يعني: الشركَ أو دعوةَ الكَفَرة؛ فإنّ ذلك الجعلَ لا يتحقّق بمجرّد الإنجاء؛ بل بالقتل والأسر ونحو ذلك.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ أي: التوحيد أو دعوة الإسلام ﴿هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ لا يدانيها شيء. وتغيير الأسلوب للدلالة على أنّها في نفسها كذلك، لا يتبدّل شأنُها ولا يتغيّر حالها دون غيرها مِن الكلِم؛ ولذلك وُسّط ضمير الفصل. وقُرئ بالنصب[6] عطفًا على ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالَب، ﴿حَكِيمٌ﴾ في حكمه وتدبيره.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

---

١ وفي هامش م: "فطن" كـ"فرِح" و"نصَر" و"كرُم". «منه».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٢؛ اللباب لابن عادل، ١٠/٩٥.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٢. وممّن قال ذلك الحسين بن الفضل كما في اللباب لابن عادل، ١٠/٩٥.

٤ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٨١.

٥ س: تعالى.

٦ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٩.

﴿ٱنفِرُواْ﴾ تجريد للأمر بالنفور بعد التوبيخ على تركه والأنكارِ على المساهلة فيه. وقوله تعالى: ﴿خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ حالانِ مِن ضمير المخاطَبين، أي: على أيّ حال كان مِن يُسرٍ وعُسرٍ حاصِلَين بأيّ سبب كان مِن الصحّة والمرض أو الغِنى والفقر أو قلّةِ العِيال وكثرتِهم / أو غير ذلك ممّا ينتظمه مساعدة [٢٥ظ] الأسباب وعدمُها بعد الإمكان والقدرة في الجملة.

وما ذُكر في تفسيرهما[١] مِن قولهم: خِفافًا لقلّة عِيالكم وثِقالًا لكثرتها، أو خِفافًا مِن السلاح وثِقالًا منه، أو رُكبانًا ومُشاةً، أو شُبّانًا وشيوخًا، أو مهازيلَ وسِمانًا، أو صِحاحًا ومِراضًا، ليس لتخصيص الأمرين المتقابلَين بالإرادة مِن غير مقارنةٍ للباقي.

وعن ابن أمّ مكتوم أنّه قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أعليَّ أن أنفِرَ؟»، قال عليه السلام: «نعم»، حتّى نزل ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ [الفتح، ١٧/٤٨].[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: «نُسخت بقوله عزّ وجلّ: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ الآية [التوبة، ٩١/٩]».[٣]

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، وبأحدهما عند إمكانه وإعوازِ الآخَر، حتّى إنّ مَن ساعده النفس والمال يجاهد بهما، ومَن ساعده المال دون النفس يُغزي مكانَه مَن حالُه على عكس حاله؛ إلى هذا ذهب كثيرٌ مِن العلماء. وقيل: هو إيجاب للقِسم الأوّل فقط.[٤]

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: ما ذُكر مِن النفير والجهاد. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلته في الشرف. ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: خيرٌ عظيمٌ / في نفسه، [٢٦و] أو خيرٌ ممّا يبتغَى بتركه مِن الراحة والدعة وسَعةِ العيش والتمتّع بالأموال والأولاد. ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: تعلمون الخير علمتم أنّه خيرٌ، أو إن كنتم تعلمون أنّه خير؛ إذ لا احتمال لغير الصدق في إخبار الله تعالى، فبادِروا إليه.

---

١ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧٢/٢-٢٧٣.

٢ **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ٤٤٩/٢؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧٣/٢.

٣ **معالم التنزيل** للبغوي، ٥٤/٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧٣/٢.

٤ انظر: **اللباب** لابن عادل، ٩٩/١٠.

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢﴾

﴿لَوۡ كَانَ﴾ صرفٌ للخطاب عنهم وتوجيهٌ له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تعديدًا لِما صدَر عنهم مِن الهَنات فعلًا وقولًا على طريق المباثّة، وبيانًا لدَناءة هِممهم وسائر رذائلهم، أي: لو كان ما دُعُوا إليه ﴿عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ العرَض: ما عرَض لك مِن منافع الدنيا، أي: لو كان ذلك غُنمًا سهلَ المأخذِ قريبَ المنالِ ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ ذا قصدٍ بين القريب والبعيد، ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ في النفير طمعًا في الفوز بالغنيمة. وتعليق الاتّباع بكِلا الأمرين يدلّ على عدم تحقّقه عند توسّط السفر فقط.

﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة الشاطّة الشاقّة التي تُقطَع بمشقّة. وقُرئ بكسر العين والشين.[1] ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ﴾ أي: المتخلِّفون عن الغزو. وقوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ﴾ إمّا متعلِّق بـ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾ أو هو مِن جملة كلامهم، والقولُ مرادٌ على الوجهين، أي: سيحلِفون بالله اعتذارًا عند قُفولك قائلين: ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا﴾ / أو سيحلِفون قائلين: بالله لو استطعنا... إلخ، أي: لو كان لنا استطاعةٌ مِن جهة العُدّة، أو مِن جهة الصحّة، أو مِن جهتهما جميعًا حسبما عَنَّ لهم مِن الكذِب والتعلّل. [٢٦ظ]

وعلى التقديرين، فقوله تعالى: ﴿لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ سادٌّ مَسدَّ جوابَي القَسم والشرط جميعًا. أمّا على الثاني، فظاهرٌ. وأمّا على الأوّل، فلأنّ قولهم: ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا﴾ في قوّة "بالله لو استطعنا"؛ لأنّه بيان لقوله تعالى:[2] ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ وتصديقٌ له.

والإخبار بما سيكون منهم بعد القُفول -وقد وقع حسبما أخبر به- مِن جملة المعجزات الباهرة. وقُرئ: "لَوُ اسْتَطَعْنا"[3] بضمّ الواو تشبيهًا لها بواو الجمع، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [البقرة، ٢/٩٤؛ الجمعة، ٦٢/٦].

---

[1] أي: "بَعِدَتْ" و"الشِقّةُ". وهما قراءتان شاذّتان، الأولى مرويّة عن أبان بن تعلب والأعرج واليماني، والثانية مرويّة عن ابن عمير واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٤.

[2] م - تعالى.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٤.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بدل مِن ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾؛ لأنّ الحلِف الكاذب إهلاكٌ للنفس؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «اليمين الفاجرةُ تدَعُ الدِّيارَ بَلاقِعَ»،[١] أو حالٌ مِن فاعله، أي: مُهلِكين أنفسَهم، أو مِن فاعل ﴿خَرَجْنَا﴾، جِيء به على طريقة الإخبار عنهم، كأنّه قيل: نُهلك أنفسَنا، أي: لَخرَجْنا معكم مهلِكين أنفسَنا، كما في قولك: "حلَف لَيفعلنّ" مكانَ "لَأفعلنّ".

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ أي: في مضمون الشرطيّة وفيما ادّعَوا ضِمنًا مِن انتفاء تحقّق المقدَّم، حيث كانوا مستطيعين للخروج، ولم يخرجوا.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

[٢٧و] / ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ صريح في أنّه سبحانه وتعالى قد عفَا عنه صلّى الله عليه وسلّم ما وقع منه عند استئذان المتخلِّفين في التخلّف معتذِرين بعدم الاستطاعة وإذنِه اعتمادًا على أيمانهم ومواثيقِهم لخلوّها عن المزاحم مِن ترك الأَولى والأفضل الذي هو التأنّي والتوقّفُ إلى انجلاء الأمر وانكشافِ الحال.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أي: لأيّ سبب أذِنتَ لهم في التخلّف حين اعتلُّوا بعِللهم، بيانٌ لِما أشيرَ إليه بالعفو مِن ترك الأَولى، وإشارة إلى أنّه ينبغي أن يكون أمورُه عليه السلام مَنوطةً بأسباب قويّة موجِبةٍ لها أو مصحِّحةٍ، وأنّ ما أبرزوه في معرض التعلّل والاعتذارِ مشفوعًا بالأيمان كان بمَعزِل مِن كونه سببًا للإذن قبل ظهور صِدقه.

وكِلتا اللامَين متعلِّقة بالإذن لاختلافهما في المعنى؛ فإنّ الأُولى للتعليل والثانية للتبليغ. والضمير المجرور لجميع المستأذِنين. وتوجّهُ الإنكار إلى الإذن باعتبار شموله للكلّ، لا باعتبار تعلّقِه بكلّ فردٍ فردٍ لتحقّق عدم استطاعة بعضهم كما يُنبئ عنه قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: فيما أخبَروا به

---

[١] السنن الصغير للبيهقي، ٩٧/٤-٩٨ (٣١٥٩)؛ مسند الشهاب القضاعي، ١٧٦/١-١٧٧ (٢٥٥).
| البَلقَع: القَفْر لا شيء فيه. مَنزِل بَلقَعٌ ودِيار بَلاقِعُ. كتاب العين للخليل بن أحمد، «باب الرباعيّ مِن العين».

عند الاعتذار مِن عدم الاستطاعة مِن جهة المال، أو مِن جهة البدن، أو مِن جهتهما معًا حسبما عنَّ لهم هناك.

﴿وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في ذلك، فتُعامِلَ كلًّا مِن الفريقين بما يستحقّه. وهو بيان لذلك الأولى الأفضل وتحضيضٌ له عليه السلام عليه؛ فإنّ كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ -سواء كانت بمعنى "اللام" أو بمعنى "إلى"- لا يمكن تعلّقُها بقوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ﴾ لاستلزامه أن يكون إذنُه عليه السلام لهم معلَّلًا أو مُغيًّا[1] بالتبيّن والعلم، ويكونَ توجّهُ الاستفهام إليه مِن تلك الحيثيّة، وذلك بيّنُ الفساد؛ بل بما يدلّ عليه ذلك، كأنّه قيل: لِمَ سارعتَ إلى الإذن لهم، وهلّا تأنّيتَ حتّى ينجليَ الأمر كما هو قضيّة الحزم؟

قال قتادة وعمرو بن ميمون:[2] «اثنانِ فعَلَهما رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم لم يؤمَر فيهما بشيء: إذنُه للمنافقين وأخذُه الفداءَ مِن الأسارَى، فعاتَبه الله تعالى كما تسمعون».[3]

وتغيير الأسلوب بأن عُبّر عن الفريق الأوّل بالموصول الذي صلتُه فعلٌ دالٌّ على الحدوث، وعن الفريق الثاني باسم الفاعل المفيدِ للدوام، للإيذان بأنّ ما ظهر مِن الأوّلين صدقٌ حادثٌ في أمر خاصّ غيرُ مصحِّح لنظمهم في سِلك الصادقين، / وأنّ ما صدر عن[4] الآخِرين، وإن كان كذبًا حادثًا متعلّقًا بأمر خاصّ، لكنّه أمرٌ جارٍ على عادتهم المستمرّة ناشئٌ عن رسوخهم في الكذب. [٢٧ظ]

والتعبير عن ظهور الصدق بـ"التبيّن" وعمّا يتعلّق بالكذِب بـ"العِلم" لِما هو المشهور مِن أنّ مدلول الخبر -هو الصدق والكذب- احتمالٌ عقليٌّ،

---

[1] المُغيَّا، كـ"مُعظَّم": انتهاء الغاية. تاج العروس للزبيدي، «غيي».

[2] هو عمرو بن ميمون الأودي، أبو عبد الله (ت. ٧٤هـ/٦٩٣م). مِن كِبار التابعين مِن الكوفيّين. أدرك الجاهليّة، وأسلم في حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على يد معاذ وصحبه، ثمّ قدِم المدينة وصحب ابنَ مسعود، وحدّث عنهما وعن عمر وأبي ذرّ وسعد وأبي هريرة وعائشة وغيرهم. وروى عنه سعيد بن جبير وعبد الملك ابن عمير والشعبي وعمرو بن مرّة وحصين ابن عبد الرحمن، وآخرون. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٢٦٣/٤؛ والإصابة لابن حجر، ٢٢٢/٨-٢٢٣.

[3] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٥٠/٥؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٤٥٥/١٠.

[4] ط س: مِن.

فظهور صِدقه إنّما هو تبيّنُ ذلك المدلول وانقطاعُ احتمال نقيضه بعد ما كان محتملًا له احتمالًا عقليًا، وأمّا كذِبُه فأمرٌ حادثٌ، لا دلالةَ للخبر عليه في الجملة حتّى يكونَ ظهورُه تبيّنًا له؛ بل هو نقيض لمدلوله، فما يتعلّق به يكون عِلمًا مستأنفًا.

وإسناده إلى ضميره عليه السلام -لا إلى المعلومين ببناء الفعل للمفعول، مع إسناد التبيّن إلى الأوّلين- لِما أنّ المقصود ههنا علمُه عليه السلام بهم ومؤاخذتُهم بموجَبه، بخلاف الأوّلين، حيث لا مؤاخذةَ عليهم. ومَن لم يتنبَّهْ لهذا، قال:[1] حتّى يتبيّنَ لك مَن صدَق في عُذره ممّن كذَب فيه.

وإسناد التبيّن إلى الأوّلين وتعليقُ العلم بالآخِرين -مع أنّ مدار الاستناد والتعلّق أوّلًا وبالذات هو وصفُ الصدق والكذب كما أشيرَ إليه- لِما أنّ المقصد هو العلم بكِلا الفريقين باعتبار اتّصافهما بوصفَيهما المذكورَين ومعاملتُهما بحسب استحقاقهما، لا العلمُ بوصفَيهما بذاتَيهما أو باعتبار قيامهما بموصوفَيهما.

هذا، وفي تصدير فاتحة الخطاب ببِشارة العفو دون ما يوهِم العتابَ مِن مراعاة جانبه عليه السلام وتعهّدِه بحُسن المفاوضة ولُطفِ المراجعة ما لا يخفى على أُولي الألباب. قال سفيان بن عُيَينةَ: «انظُروا إلى هذا اللطف؛ بدأ بالعفو قبل ذِكر المعفوّ».[2]

ولقد أخطأ وأساء الأدبَ وبئسما فعل فيما قال وكتب مَن زعم[3] أنّ الكلام كناية عن الجناية، وأنّ معناه: "أخطأتَ وبئسَ ما فعلتَ". هَبْ أنّه كناية؛ أليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف في الخطاب والتخفيفِ في العتاب؟ وهَبْ أنّ العفو مستلزِم للخطأ، فهل هو مستلزِم لكونه مِن القُبح واستتباعِ اللائمة بحيث يصطِح هذه المرتبةَ مِن المشافهة بالسوء، أو يسوّغُ إنشاءَ الاستقباح بكلمة "بئسما" المُنبئةِ عن بلوغ القُبح إلى رتبةٍ يُتعجّب منها؟

---

[1] هو الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٧٤.

[2] التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٥٠٠؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤/٥٥.

[3] هو الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٧٤.

ولا يخفى أنّه لم يكن في خروجهم مَصلحة للدين أو منفعة للمسلمين؛ بل كان فيه فساد وخَبال حسبما نطَق به قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ﴾... إلخ [التوبة، ٤٧/٩]، وقد كرِهه سبحانه كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ الآية [التوبة، ٤٦/٩].

[٢٨و] نعم، كان الأَولى / تأخيرُ الإذن حتّى يظهر كذبُهم آثِرَ ذي أثيرٍ،[١] ويفتضحوا على رءوس الأشهاد، ولا يتمكّنوا مِن التمتّع بالعيش على الأمن والدعة، ولا يتسنّى لهم الابتهاجُ فيما بينهم بأنّهم غرُّوه عليه السلام وأرضَوه بالأكاذيب، على أنّه لم يهنأ لهم عيشٌ وما قرّت لهم عينٌ، إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان؛ بل كانوا على خوفٍ مِن ظهور أمرهم، وقد كان.

﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ٤٤﴾

﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ تنبيه على أنّه كان ينبغي أن يُستدلّ باستئذانهم على حالهم ولا يُؤذَنَ لهم، أي: ليس مِن عادة المؤمنين أن يستأذِنوك في ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ وإنّ الخُلَّص منهم يبادِرون إليه مِن غير توقّف على الإذن، فضلًا عن أن يستأذِنوك في التخلّف، وحيث استأذَنك هؤلاء في التخلّف، كان ذلك مَئِنَةً[٢] للتأنّي في أمرهم؛ بل دليلًا على نِفاقهم.

وقيل: المستأذَن فيه محذوف، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾: كراهةَ أن يجاهِدوا. ثمّ قيل: المحذوف هو التخلّف، والمعنى: لا يستأذِنك المؤمنون في التخلّف كراهةَ الجهاد، فيتوجّه النفيُ إلى القيد، وبه يمتاز المؤمن مِن المنافق؛ وهو، وإن كان في نفسه أمرًا خفيًّا لا يوقَف عليه بادئَ الأمر، لكنّ عامّةَ أحوالهم لمّا كانت مُنبئةً عن ذلك، جُعل أمرًا ظاهرًا مقرَّرًا.

---

[١] أفعلُ هذا آثِرَ ذي أثيرٍ، أي: أوّلَ كلّ شيء. الصحاح للجوهري، «أثر».

[٢] المَئِنَة: العلامة. الصحاح للجوهري، «مأن».

وقيل: هو الجهاد، أي: لا يستأذِنك المؤمنون في الجهاد كراهةَ أن يجاهِدوا، بناءً على أنّ الاستئذان في الجهاد ربّما يكون لكراهته. ولا يخفى أنّ الاستئذان في الشيء لكراهته ممّا لا يقع؛ بل لا يُعقَل. ولو سُلّم وقوعه، فالاستئذان لعلّة الكراهة ممّا لا يمتاز بحسب الظاهر مِن الاستئذان لعلّة الرغبة. ولو سُلّم، فالذي نُفي مِن المؤمنين يجب أن يُثبَت للمنافقين، وظاهرٌ أنّهم لم يستأذِنوا في الجهاد لكراهتهم له؛ بل إنّما استأذَنوا في التخلّف.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالانتظام في زُمرة المتّقين، وعِدَةٌ لهم بأجزل الثواب، وتقريرٌ لمضمون ما سبق، كأنّه قيل: والله عليم بأنّهم كذلك، وإشعارٌ بأنّ ما صدر عنهم معلَّل بالتقوى.

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥﴾

[٢٨ظ] ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾ أي: في التخلّف مطلَقًا على الأوّل،[١] / أو لكراهة الجهاد على الثاني، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بهما في الموضعَين للإيذان بأنّ الباعث على الجهاد ببذل النفس والمالِ إنّما هو الإيمان بهما، إذ به يتسنّى للمؤمنين استبدالُ الحياة الأبديّة والنعيم المُقيم الخالدِ بالحياة الفانية والمتاعِ الكاسد.

﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ عطفٌ على الصلة. وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقّق الريب وتقرُّره. ﴿فَهُمۡ﴾ حالَ كونهم ﴿فِي رَيۡبِهِمۡ﴾ وشكِّهم المستقرّ في قلوبهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيّرون، فإنّ التردّد دَيْدن[٢] المتحيِّر، كما أنّ الثبات دَيْدن المستبصِر. والتعبير عنه به ممّا لا يخفى حسنُ موقعه.

﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾

---

[١] انظر: تفسير الآية السابقة.

[٢] الدَّيْدن: الدَّأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ﴾ يدلّ على أنّ بعضهم قالوا عند الاعتذار: كنّا نريد الخروج، لكنْ لم نتهيّأ له، وقد قرُب الرحيلُ بحيث لا يُمكننا الاستعداد، فقيل تكذيبًا لهم: لو أرادوه ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ﴾ أي: للخروج في وقته ﴿عُدَّةً﴾ أي: أُهبةً مِن الزاد والراحلة والسلاح وغير ذلك ممّا لا بدّ منه للسفر.

وقُرئ: "عُدَّهُ"[١] بحذف التاء والإضافةِ إلى ضمير ﴿ٱلۡخُرُوجَ﴾، كما فعَلَ بـ"العِدَة" مَن قال:

وأخلَفوك عِدَ الأمرِ الذي وعَدُوا[٢]

أي: عِدتَه. وقُرئ: "عِدَّةً"[٣] بكسر العين، و"عِدَّهُ"[٤] بالإضافة.

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ أي: نهوضَهم للخروج. قيل: هو استدراك عمّا يُفهَم مِن مقدَّم الشرطيّة؛ فإنّ انتفاء إرادتهم للخروج يستلزم انتفاءَ خروجهم، وكراهةُ[٥] الله تعالى انبعاثَهم يستلزم تثبّطَهم عن الخروج، فكأنّه قيل: ما خرجوا، ولكنْ تثبّطوا. والاتّفاق في المعنى لا يمنع الوقوعَ بين طرفَي ﴿لَٰكِنۡ﴾ بعد تحقّق الاختلاف نفيًا وإثباتًا في اللفظ، كقولك: "ما أحسَنَ إليَّ زيدٌ، ولكنْ أساء".

والأظهر أن يكون استدراكًا مِن نفس المقدَّم على نهج ما في الأقيِسة الاستثنائيّة، والمعنى: لو أرادوا الخروج لأعَدّوا له عُدّةً، ولكنْ ما أرادوه لِما أنّه تعالى كرِه انبعاثهم لِما فيه مِن المفاسد التي ستُبيَّن، ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ أي: حبسهم بالجُبن والكسل، فتثبّطوا عنه، ولم يستعِدّوا له.

﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ تمثيل لإلقاء الله تعالى كراهةَ الخروج في قلوبهم أو لوسوسة الشيطان بالأمر بالقُعود، / أو هو حكايةُ قول بعضهم لبعض، [٢٩و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن عبد الملك بن مروان وابنِه معاوية. اللباب لابن عادل، ١٠/١٠٤.

٢ وفي هامش م: صدره:
إنّ الخليط أجَدّوا البينَ فانجرَدوا
البيت بلا نسبة في شرح كتاب سيبويه للسيرافي، ٤/٤٥٨؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٦/٢٩٧؛ وشرح ديوان المتنبّي للعُكبري، ٣/٢٣٢.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها ابن عادل بلا نسبة في اللباب، ١٠/١٠٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زرّ بن حبيش. اللباب لابن عادل، ١٠/١٠٥.

٥ كذا ضبطها المصنّف.

أو هو إذنُ الرسول عليه السلام لهم في القعود. والمراد بـ﴿ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ إمّا المعذورون أو غيرُهم؛ وأيًّا ما كان، فغيرُ خالٍ عن الذمّ.

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم﴾ بيان لسرّ كراهته تعالى لانبعاثهم، أي: لو خرجوا مخالِطين لكم ﴿مَّا زَادُوكُمْ﴾ أي: ما أورثوكم شيئًا مِن الأشياء ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: فسادًا وشرًّا؛ فالاستثناء مفرَّغٌ متّصلٌ، وقيل: منقطعٌ، وليس بذلك.

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي: ولسَعَوا فيما بينكم بالنمائم والتضريب وإفسادِ ذات البَين، مِن "وضَعَ البعيرُ وضعًا" إذا أسرَعَ، و"أوضعتُه أنا"، أي: حملتُه على الإسراع، والمعنى: لَأوضَعوا ركائبهم بينكم. والمراد به المبالغة في الإسراع بالنمائم؛ لأنّ الراكب أسرعُ مِن الماشي. وقُرئ: "وَلَأَرْقَصُوا"[١] مِن "رقَصَت الناقةُ": أسرعتْ، و"أرقصتُها أنا". وقُرئ: "وَلَأَوْفَضُوا"،[٢] أي: أسرعوا.

﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يحاوِلون أن يَفتِنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم وإلقاءِ الرُّعب في قلوبكم وإفسادِ نيّاتكم. والجملة حال مِن ضمير ﴿أَوْضَعُوا۟﴾ أو استئنافٌ.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: نمّامُون يسمعون حديثكم لأجل نقله إليهم، أو فيكم قومٌ ضَعَفةٌ يسمعون للمنافقين، أي: يُطيعونهم. والجملة حال مِن مفعول ﴿يَبْغُونَكُمْ﴾ أو مِن فاعله لاشتمالها على ضميرَيهما، أو مستأنَفةٌ.

ولعلّهم لم يكونوا في كمّيّة العدد وكيفيّة الفساد بحيث يُخِلّ مكانُهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهاد إخلالًا عظيمًا، ولم يكن فسادُ خروجهم معادِلًا لمنفعته؛ ولذلك لم يقتضِ الحكمة عدمَ خروجهم، فخرجوا مع المؤمنين؛ ولكن حيث كان انضمامُ المنافقين القاعدين إليهم مستتبِعًا لخلَلٍ كلّيّ، كرِهَ الله انبعاثَهم، فلم يتسنَّ اجتماعُهم، فاندفع فسادهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد ومحمّد بن زيد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥/٤٣٠.

ووجهُ العتاب على الإذن في قعودهم -مع تقرّره لا محالةَ وتضمّنِ خروجهم لهذه المفاسد- أنّهم لو قعَدوا بغير إذنٍ منه عليه السلام، لَظَهر نِفاقهم فيما بين المسلمين مِن أوّل الأمر، ولم يقدروا على مخالطتهم والسعيِ فيما بينهم بالأراجيف، ولم يتسنَّ لهم التمتّعُ بالعيش إلى أن يظهر حالُهم بقوارع الآيات النازلة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ علمًا مُحيطًا بضمائرهم وظواهرِهم وما فعلوا فيما مضى وما يتأتّى منهم فيما سيأتي. ووضعُ المُظهَر موضعَ المُضمَر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد في الوعيد والإشعارِ بترتّبه على الظلم. ولعلّه شاملٌ للفريقَين: السّماعين والقاعدين.

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٤٨﴾

[٢٩ظ] ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ تشتيتَ شَملِك وتفريقَ أصحابِك عنك / ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: يومَ أُحدٍ حين انصرف عبد الله بن أُبيّ ابنُ[١] سَلولَ المنافقُ بمَن معه،[٢] وقد تخلّف بمَن معه عن تبوكَ أيضًا بعدما خرج مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى ذي جدّة أسفلَ مِن ثنيّة الوداع.[٣] وعن ابن جُريج: «وقفوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الثنيّة ليلةَ العقبة -وهم اثنا عشر رجلًا مِن المنافقين- ليفتِكوا به عليه السلام، فردّهم الله تعالى خاسئين».[٤]

﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ تقليبُ الأمر: تصريفُه مِن وجه إلى وجه وترديدُه لأجل التدبير والاجتهاد في المكر والحيلة، يقال للرجل المتصرِّف في وجوه الحِيَل: "حُوَّل وقُلَّب"، أي: اجتهدوا ودبّروا لك الحِيل والمكايدَ، ودوّروا الآراءَ في إبطال أمرك. وقُرئ بالتخفيف.[٥]

---

١ س: بن. | كان يقال لعبد الله بن أُبيّ: ابن سلولَ، نسبةً إلى سلولَ، جدّتِه لأبيه. انظر: **الأعلام** للزركلي، ٦٥/٤.

٢ **التفسير البسيط** للواحدي، ٤٧٥/١٠.

٣ انظر: **أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٠١-٢٠٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٦/٤.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧٧/٢.

٥ أي: "وَقَلَبُوا"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن مسلمة بن محارب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢١٥.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: النصر والتأييد الإلهيُّ، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ غلب دينُه وعلَا شرعُه، ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ والحالُ أنّهم كارهون لذلك، أي: على رغمٍ منهم.

والآيتانِ لتسلية الرسول عليه السلام والمؤمنين عن تخلّف المتخلِّفين، وبيانِ ما ثبّطهم الله تعالى لأجله، وهتكِ أستارهم وكشف أسرارهم، وإزاحةِ أعذارهم تداركًا لِما عسى يفُوت بالمبادرة إلى الإذن، وإيذانًا بأنّ ما فات بها[١] ليس ممّا لا يُمكن تَلافيه تهوينًا للخَطب.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ في القُعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّى﴾ أي: لا تُوقِعْني في الفتنة، وهي المعصية والإثمُ، يريد: إنّي متخلِّف لا محالةَ، أذِنتَ أو لم تأذَنْ، فائذَنْ لي حتّى لا أقعَ في المعصية بالمخالفة؛ أو لا تُلقِني في الهَلَكة، فإنّي إن خرجتُ معك هلَك مالي وعِيالي لعدم مَن يقوم بمصالحهم. وقيل: قال الجَدّ بن قيس:[٢] «قد علمتِ الأنصارُ أنّي مُستَهتَر بالنساء،[٣] فلا تَفتِنّي ببنات الأصفر -يعني: نساءَ الروم- ولكنْ أُعينُك بمالٍ[٤] فاترُكْني».[٥] وقُرِئ: "وَلَا تُفْتِنِّي"[٦] مِن "أفتَنَه" بمعنى "فتَنه".

[٣٠و] ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: في عينها / ونفسها وأكملِ أفرادها الغنيِّ عن الوصف بالكمال الحقيقِ باختصاص اسم الجنس به ﴿سَقَطُوا۟﴾ لا في شيء مُغايِر لها، فضلًا عن أن يكون مهربًا ومخلصًا عنها. وذلك بما فعلوا مِن العزيمة على التخلّف

---

١ أي: بالمبادرة إلى الإذن.

٢ هو الجَدّ بن قيس بن صخر بن خنساء الأنصاري السلمي، أبو عبد الله. كان ممّن يُظنّ فيه النفاق. وحضر يومَ الحديبية، فبايع الناسُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم إلّا الجدّ بن قيس، فإنّه استتَر تحت بطن ناقته. وقيل: إنّه تاب وحسُنت توبته. وتُوفّي في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: الاستيعاب للنمري، ١/٢٦٦-٢٦٧؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ١/٥٢١.

٣ فلان مُستهتَر بالشراب، أي: مُولَع به، لا يبالي ما قيل فيه. الصحاح للجوهري، «هتر».

٤ م ط س: بمالي [صُحّح في هامش م].

٥ انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٤٩١-٤٩٢؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٥٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بن عمران. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٥.

والجرأة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة، ومِن القُعود بالإذن المبنيّ عليه وعلى الاعتذارات الكاذبة. وقُرئ بإفراد الفعل[١] محافظةً على لفظ ﴿مَنْ﴾.

وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه مع تقديم الظرف إيذانٌ بأنّهم وقعوا فيها، وهم يحسَبون أنّها مَنجًى مِن الفتنة، زعمًا منهم أنّ الفتنة إنّما هي التخلّف بغير إذن. وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيلٌ لها منزلةَ المَهواة المُهلِكة المُفصِحةِ عن تَردّيهم في درَكات الرَّدى أسفلَ سافلين.

وقوله عزّ وعلا:[٢] ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وعيد لهم على ما فعلوا، معطوف على الجملة السابقة داخلٌ تحت التنبيه، أي: جامعةٌ لهم يومَ القيامة مِن كلّ جانب، وإيثار الجملة الاسميّة للدلالة على الثبات والاستمرار؛ أو محيطةٌ بهم الآنَ، تنزيلًا لشيء سيقع عن قريبٍ منزلةَ الواقع، أو وضعًا لأسباب الشيء موضعَه، فإنّ مبادي إحاطة النار بهم مِن الكفر والمعاصي محيطةٌ بهم الآنَ مِن جميع الجوانب، ومِن جملتها ما فرُّوا منه وما سقطوا فيه مِن الفتنة. وقيل: تلك المبادي المتشكِّلةُ بصوَر الأعمال والأخلاق هي النار بعينها، ولكنْ لا يظهر ذلك في هذه النشأة، وإنّما يظهر عند تشكّلها بصوَرها الحقيقيّة في النشأة الآخرة.

والمراد بـ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إمّا المنافقون، وإيثارُ وضع المُظهَر موضعَ المُضمَر للتسجيل عليهم بالكفر والإشعارِ بأنّه معظم أسباب الإحاطة المذكورة، وإمّا جميعُ الكافرين الشاملين للمنافقين شمولًا أوّليًّا.

﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾

﴿إِن تُصِبۡكَ﴾ في بعض مغازيك ﴿حَسَنَةٞ﴾ مِن الظفَر والغنيمة ﴿تَسُؤۡهُمۡ﴾ تلك الحسنةُ، أي: تورِثهم مساءةً لفرط حسدهم وعداوتهم لك، ﴿وَإِن تُصِبۡكَ﴾

---

[١] كذا في مصحف أُبيّ بن كعب رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٢٧٧/٢؛ اللباب لابن عادل، ١١١/١٠.

[٢] س: وجلّ.

في بعضها ﴿مُصِيبَةٌ﴾ مِن نوع شدّة ﴿يَقُولُواْ﴾ متبجّحين بما صنعوا حامدين لآرائهم: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ أي: تلافَيْنا ما يهمّنا مِن الأمر. يَعنُون به الاعتزالَ عن المسلمين والقعودَ عن الحرب والمداراةَ مع الكَفَرة وغير ذلك مِن أمور الكفر والنفاق قولًا وفعلًا. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل إصابة المصيبة في وقت تداركِه. يُشيرون بذلك إلى أنّ المعاملة المذكورة إنّما تروَّج عند الكَفَرة بوقوعها حالَ قوّة الإسلام، لا بعد إصابة المصيبة.

﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عن مجلس الاجتماع والتحدّث إلى أهاليهم، أو يُعرِضوا عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ بما صنعوا مِن أخذ الأمر وبما أصابه عليه الصلاة والسلام. والجملة حال مِن الضمير في ﴿يَقُولُواْ﴾ و﴿يَتَوَلَّواْ﴾؛ لا في الأخير فقط / لمقارنة الفرح لهما معًا. وإيثار الجملة الاسميّة للدلالة على دوام السرور. [٣٠ظ]

وإسناد المساءة إلى الحسنة والمَسرّة إلى أنفسهم -دون المصيبةِ بأن يقال: وإن تُصِبْك مصيبة تَسرُّهم- للإيذان باختلاف حالهم حالتَي عروض المساءة والمَسرّة، بأنّهم في الأُولى مضطَرّون وفي الثانية مختارون.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ﴾ بيانًا لبُطلان ما بنَوا عليه مَسرّتهم مِن الاعتقاد: ﴿لَن يُصِيبَنَا﴾ أبدًا. وقُرئ: "هَلْ يُصِيبُنَا"، و"هَلْ يُصَيِّبُنَا"[١] مِن "فَيْعَلَ"، لا مِن "فعَّل"؛ لأنّه واويّ، يقال: "صابَ السهمُ يصُوب"، واشتقاقه مِن "الصواب". ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: أثبته لمصلحتنا الدنيويّة أو الأخرويّة مِن النُّصرة عليكم أو الشهادةِ المؤدِّية إلى النعيم الدائم.

---

[١] هما قراءتان شاذّتان، الأولى مرويّة عن عبد الله بن مسعود، والثانية عن طلحة بن مصرّف. الكشّاف للزمخشري، ٢٧٨/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٢/٥.

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ ناصرُنا ومتولّي أمورِنا، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحدَه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ التوكّل: تفويض الأمر إلى الله والرِّضا بما فعله، وإن كان ذلك بعد ترتيب المبادي العاديّة. و"الفاء" للدلالة على السببيّة، والأصل: لِيتوكّلِ المؤمنون على الله، قدّم الظرف على الفعل لإفادة القَصر، ثمّ أدخل "الفاء" للدلالة على استيجابه تعالى للتوكّل عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة، ٢/٤٠].

والجملة إن كانت مِن تمام الكلام المأمورِ به، فإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لإظهار التبرّك والتلذّذ به، وإن كانت مَسوقةً مِن قِبله تعالى أمرًا للمؤمنين بالتوكّل إثرَ أمره صلّى الله عليه وسلّم بما ذُكر، فالأمر ظاهرٌ.

وكذا إعادةُ الأمرِ في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ لانقطاع حكم الأمر الأوّل بالثاني، وإن كان أمرَ الغائب. وأمّا على الوجه الأوّل، فهي[1] لإبراز كمال العناية بشأن المأمور به والإشعارِ بما بينه وبين ما أُمر به أوّلًا مِن الفرق في السياق.

والتربّص: التمكّث مع انتظار مَجيءِ شيءٍ، خيرًا كان أو شرًّا. و"الباء" للتعدية، وإحدى التاءين محذوفة، أي: ما تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: العاقبتين اللّتَين كلُّ واحدة منهما هي حُسنى العواقب، وهما: النصر والشهادة. وهذا نوعُ بيان / لِما أُبهِمَ في الجواب الأوّل، وكشفٌ لحقيقة الحال بإعلامِ أنّ ما يزعُمونه مَضرّةً للمسلمين مِن الشهادة أنفعُ ممّا يعُدّونه منفعةً مِن النصر والغنيمة. [٣١و]

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السُّوأَيَيْن مِن العواقب، إمّا ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ كما أصاب مَن قبلَكم مِن الأمم المهلَكة. والظرف صفة ﴿عَذَابٍ﴾؛ ولذلك حُذف عامله وجوبًا. ﴿أَوْ﴾ بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو القتل على الكفر.

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ "الفاء" فصيحة، أي: إذا كان الأمر كذلك، فترَبَّصوا بنا ما هو عاقبتنا؛ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم، فإذا لقِي كلٌّ منّا ومنكم ما يتربّصه، لا تشاهِدون إلّا ما يَسُرّنا، ولا نشاهِد إلّا ما يسُوءكم.

---

[1] أي: إعادة الأمر.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿قُلْ أَنفِقُوا﴾ أموالَكم في سبيل الله ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مصدرانِ وقعَا موقعَ الفاعل، أي: طائعين أو كارهين. وهو أمرٌ في معنى الخبر، كقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة، ٨٠/٩]، والمعنى: أنفقتم طوعًا أو كرهًا ﴿لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ ونظمُ الكلام في سِلك الأمر للمبالغة في بيان تَساوي الأمرين في عدم القبول، كأنّهم أُمروا بأن يمتحِنوا الحالَ، فيُنفِقوا على الحالين، فينظروا هل يُتقبّل منهم، فيشاهدوا عدم القبول. وهو جواب قول جَدّ بن قيس: «ولكنْ أُعينُك بمالي».[1] ونفيُ التقبّل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم، وأن يكون بمعنى عدم الإثابة عليه.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: عاتين متمرِّدين، تعليلٌ لردّ إنفاقهم.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ﴾ وقُرئ بالتحتانيّة.[2] ﴿نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ استثناء مِن أعمّ الأشياء، أي: ما منَعهم قبولَ نفَقاتهم منهم شيءٌ مِن الأشياء إلّا كفرُهم. وقُرئ: "يَقْبَلَ"[3] على البناء للفاعل، وهو الله تعالى.

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي: لا يأتونها في حال مِن الأحوال إلّا حالَ كونهم متثاقلين، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ / لأنّهم لا يرجُون بهما ثوابًا، ولا يخافون على تركهما عقابًا؛ فقوله تعالى: ﴿طَوْعًا﴾،[4] أي: مِن غير إلزامٍ مِن جهته عليه السلام، لا رغبةً، أو هو فرضيٌّ لتوسيع الدائرة. [٣١ظ]

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

---

[1] انظر: تفسير التوبة، ٤٩/٩.

[2] أي: "أَنْ يُقْبَلَ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٩/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٠/٢.

[4] في الآية السابقة.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ فإنّ ذلك استدراج لهم ووبالٌ عليهم حسبما يُنبئ عنه قوله عزّ وعلا:[١] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما يكابدون لجمعها وحفظِها مِن المتاعب، ويُقاسُون فيها[٢] مِن الشدائد والمصائب، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشتغِلين بالتمتّع عن النظر في العاقبة، فيكونَ ذلك لهم نقمةً، لا نعمةً. وأصلُ الزُّهوق: الخروج بصعوبة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ٥٦﴾

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ في الدين والإسلام، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ في ذلك، ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون أن يُفعل بهم ما يُفعل بالمشركين، فيُظهرون الإسلام تقيّةً، ويؤيّدونه بالأيمان الفاجرة.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ٥٧﴾

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ استئناف مقرِّرٌ لمضمون ما سبق مِن أنّهم ليسوا مِن المسلمين، وأنّ التجاءهم إلى الانتماء إليهم إنّما هو للتقيّة اضطرارًا، حتّى إنّهم لو وجدوا غيرَ ذلك مَلجأً -أي: مكانًا حصينًا- يَلجأون إليه مِن رأس جبل أو قلعةٍ أو جزيرةٍ.

وإيثار صيغة الاستقبال في الشرط -وإن كان المعنى على المُضيّ- لإفادة استمرار عدم الوجدان، فإنّ المضارع المنفيّ الواقعَ موقعَ الماضي ليس نصًّا في إفادة انتفاء استمرار الفعل كما هو الظاهر؛ بل قد يفيد استمرارَ انتفائه أيضًا حسبما يقتضيه مِن المقام؛ فإنّ معنى قولك: "لو تُحسِن إليّ لَشكرتُك": أنّ انتفاء الشكر بسبب استمرار انتفاء الإحسان، لا أنّه بسبب انتفاء استمرار الإحسان؛ فإنّ الشكر يتوقّف على وجود الإحسان، لا على استمراره، كما حُقّق في موضعه.

﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أي: غِيرانًا وكُهوفًا يُخفُون فيها أنفسهم. وقُرئ بضمّ الميم،[٣] مِن "أغارَ الرجلُ" إذا دخل الغَورَ. وقيل: هو متعدٍّ مِن "غارَ" إذا دخل الغَورَ،

---

[١] س: وجلّ.

[٢] س - فيها.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة وأبي حياة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٦.

أي: أمكِنةً يغيرون فيها أشخاصَهم وأهليهم. ويجوز أن يكون مِن "أغار الثّعلب" إذا أسرَعَ، بمعنى: مَهارِبَ ومَفارَّ.

[٣٢و] ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أي: نَفَقًا يَندَسُّون فيه / وينجحِرون. وهو "مُفتَعَلٌ" مِن "الدخول". وقُرئ: "مَدْخَلًا"[1] مِن "الدخول"، و"مُدْخَلًا"[2] مِن "الإدخال"، أي: مكانًا يُدخِلون فيه أنفسَهم. وقُرئ: "مُتَدَخَّلًا" و"مُنْدَخَلًا"[3] مِن "التدخّل" و"الاندخال".

﴿لَوَلَّوْا﴾ أي: لصرفوا وجوهَهم وأقبلوا. وقُرئ: "لَوَأَلُوْا"،[4] أي: لَالْتَجَئُوا. ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى أحد ما ذُكر، ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يُسرِعون، بحيث لا يردّهم شيء مِن الفَرس الجَموح، وهو الذي لا يَثنيه اللِّجام. وفيه إشعار بكمال عُتوّهم وطُغيانهم. وقُرئ: "يَجْمِزُونَ"[5] بمعنى: يجمَحون ويشتدّون، ومنه: الجَمّاز.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ بكسر الميم، وقُرئ بضمّها،[6] أي: يَعيبك سرًّا. وقُرئ: "يُلَمِّزُكَ"[7] و"يُلَامِزُكَ"[8] مبالغةً. ﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: في شأنها وقِسمتها؛ ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا﴾ بيان لفساد لَمزهم، وأنّه لا منشأ له سِوى حِرصهم على حُطام الدنيا، أي: إن أُعطُوا منها قدرَ ما يريدون ﴿رَضُواْ﴾ بما وقع مِن القِسمة واستحسَنوها، ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَا﴾ ذلك المقدارَ ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يفاجِئون السخطَ. و﴿إِذَا﴾ نائبٌ مَنابَ "فاء" الجزاء.

---

[1] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن مسلمة بن محارب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٦.

[3] قراءتان شاذّتان، كِلتاهما مرويّة عن أبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٧.

[4] قال أبو حيّان في البحر المحيط، ٥/٤٣٨: «وروى ابن أبي عبيدة بن معاوية بن نوفل عن أبيه عن جدّه أنّه قرأ: "لَوَالَوا إِلَيْهِ"، مِن "المُوالاة"، وأنكرها سعيد بن مسلم، وقال: "أظنّها: لَوَأَلُوا، بمعنى: لَلجَئُوا"». وهو الموافق لخطّ المصنّف رحمه الله.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٧.

[6] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٩-٢٨٠.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٧.

[8] قراءة شاذّة، رواها حمّاد بن سلَمة عن ابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٧. وهي غير القراءة المشهورة عن ابن كثير.

قيل: نزلت الآية في أبي الجَوّاظ المنافقِ، حيث قال: «ألا ترَون إلى صاحبكم، يقسِم صدقاتِكم في رُعاة الغنم، ويزعُم أنّه يعدل!».[١] وقيل: في ابن ذي الخُوَيصِرة، واسمُه: حُرقُوص[٢] بن زُهير التميمي، رأس الخوارج، كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقسم غنائمَ حُنينٍ، فاستعطف قلوبَ أهل مكّةَ بتوفير الغنائم عليهم، فقال: «اعدِلْ يا رسولَ الله»، فقال عليه الصلاة والسلام: «وَيْلك، إن لم أعدِلْ، فمَن يعدِلُ؟».[٣] وقيل: هم المؤلَّفة قلوبُهم.[٤] والأوّل هو الأظهر.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ما أعطاهم الرسول عليه السلام مِن الصدقات، طيِّبي النفوسِ به وإن قلَّ. وذكرُ الله عزّ وجلّ للتعظيم والتنبيهِ على أنّ ما فعله الرسول عليه السلام كان بأمره سبحانه. ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ / أي: [٣٢ظ] كفَانا فضله وصنعُه بنا وما قسمه لنا، ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ بعد هذا حسبما نرجو ونؤمّل، ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يخوِّلنا فضلَه. والآية بأسْرها في حيّز الشرط، والجواب محذوف بناءً على ظهوره، أي: لكان خيرًا لهم.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ شروع في تحقيق حقّيّة ما صنعه الرسول صلّى الله عليه وسلّم مِن القِسمة ببيان المَصارف، وردٌّ لمقالة القالَة في ذلك، وحسمٌ لأطماعهم الفارغة المبنيّة على زعمهم الفاسد ببيان أنّهم بمَعزِل مِن الاستحقاق، أي: جنسُ الصدقات المشتملة على الأنواع المختلفة ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢. وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشّاف، ٧٨/٢-٧٩ (٥٥٣): «غريب»؛ وابنُ حجر في الكافي الشاف، ص ٧٦ (١٢٦): «لم أجده».

٢ في المصادر: حُرقُوص.

٣ انظر: صحيح البخاري، ٢٠٠/٤ (٣٦١٠)؛ وصحيح مسلم، ٧٤٤/٢-٧٤٥ (١٠٦٤).

٤ انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ٢٥٣-٢٥٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٨١/٢.

مخصوصة بهؤلاء الأصناف الثمانية الآتية، لا تتجاوزهم إلى غيرهم، كأنّه قيل: إنّما هي لهم، لا لغيرهم، فما للذين لا علاقةَ بينها وبينهم يقولون فيها ما يقولون، وما سَوّغ لهم[1] أن يتكلّموا فيها وفي قاسمها؟

والفقير: مَن له أدنى شيءٍ، والمِسكين: مَن لا شيءَ له، هو المرويُّ عن أبي حنيفةَ رحمه الله. وقد قيل: على العكس. ولكلٍّ منهما وجهٌ يدلّ عليه.[2]

﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الساعين في جمعها وتحصيلها.

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم أصناف، فمنهم أشراف مِن العرب، كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يستألفهم ليُسلِموا، فيَرضَخُ لهم،[3] ومنهم قومٌ أسلموا ونيّاتُهم ضعيفة، فيؤلَّف قلوبهم بإجزال العطاء، كعُيينةَ بنِ حصن والأقرع بنِ حابس والعبّاس بن مِرداس، ومنهم مَن يُترقّب بإعطائهم إسلام نُظَرائهم.

ولعلّ الصنفَ الأوّل كان يُعطيهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم مِن خُمس الخمس الذي هو خالصُ ماله. وقد عُدَّ منهم مَن يؤلَّف قلبه بشيء منها على قتال الكُفّار ومانعي الزكاة. وقد سقط سَهْم هؤلاء بالإجماع لِما أنّ ذلك كان لتكثير سواد الإسلام، فلمّا أعزّه الله عزّ وعلا وأعلى كلمتَه، استُغنيَ عن ذلك.

[٣٣و] / ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي: وللصَّرف في فكّ الرِّقاب بأن يُعان المكاتَبون بشيء منها على أداء نجومهم، وقيل: بأن يُفدَى الأسارَى، وقيل: بأن يُبتاع منها الرِّقاب فتُعتَق. وأيًّا ما كان، فالعُدول عن "اللام" لعدم ذكرهم بعنوانٍ مصحِّحٍ للمالكيّة والاختصاصِ كالذين مِن قبلهم، أو للإيذان بعدم قرار ملكهم فيما أُعطُوا كما في الوجهين الأوّلَين، أو بعدم ثبوته رأسًا كما في الوجه الأخير، أو للإشعار برسوخهم في استحقاق الصدقة لِما أنّ ﴿فِى﴾ للظرفيّة المُنبئةِ عن إحاطتهم بها وكونِهم محلَّها ومركزَها.

---

[1] ط س: سوغهم.

[2] انظر: تفسير القرطبي، ٨/١٦٨-١٧١.

[3] رضَخ له: أعطاه عطاءً غيرَ كثير. **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «رضخ».

﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾ أي: الذين تديَّنوا لأنفسهم في غير معصيةٍ إذا لم يكن لهم نِصابٌ فاضلٌ عن ديونهم. وكذلك عند الشافعي رحمه الله[١] مَن غَرِمَ لإصلاح ذات البَيْن وإطفاءِ الثائرة بين القبيلتين، وإن كانوا أغنياءَ.[٢]

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فقراءِ الغُزاةِ والحَجيج والمنقطَعِ بهم. ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المسافِرِ المنقطِعِ عن ماله. وتكرير الظرف في الأخيرَين للإيذان بزيادة فضلهما في الاستحقاق، أو لِما ذُكر مِن إيرادهما بعنوانٍ غيرِ مصحِّح للمالكيّة والاختصاص.

فهذه مَصارف الصدقات، فللمتصدِّق أن يدفع صدقتَه إلى كلّ واحد منهم، وأن يقتصِر على صنف منهم؛ لأنّ "اللام" لبيانِ أنّهم مصارفُ لا يخرج عنهم، لا لإثبات الاستحقاق. وقد رُوي ذلك عن عمرَ وابنِ عبّاس وحذيفةَ رضي الله عنهم. وعند الشافعي رحمه الله لا يجوز إلّا أن يُصرَف إلى ثلاثةٍ مِن تلك الأصناف.[٣]

﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ مصدرٌ مؤكِّد لِما دلّ عليه صدر الآية، أي: فرض لهم الصدقات فريضةً، ونُقل عن سيبويه أنّه منصوب بفعله مقدَّرًا، أي: فرض الله ذلك فريضةً؛[٤] أو حالٌ مِن الضمير المستكنّ في قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾، أي: إنّما الصدقاتُ كائنةٌ لهم حالَ كونها فريضةً، أي: مفروضةً.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم، ﴿حَكِيمٞ﴾ لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة مِن الأمور الحسنة التي مِن جملتها سَوق الحقوق / إلى مستحقّيها. [٣٣ظ]

﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾

﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ نزلت في فِرقة مِن المنافقين قالوا في حقّه عليه السلام ما لا ينبغي، فقال بعضهم: «لا تفعلوا، فإنّا نخاف أن يبلغه ذلك فيقعَ بنا»، فقال الجُلَاس بن سُوَيد: «نقول ما شئنا، ثمّ نأتيه فنُنكر ما قلنا،

---

[١] س - رحمه الله.
[٢] انظر: تفسير القرطبي، ٨/١٨٣-١٨٤.
[٣] انظر: تفسير القرطبي، ٨/١٦٧-١٦٨.
[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٦٢.

ونحلِف فيصدّقنا بما نقول، إنّما محمّدٌ أُذُنٌ سامعة»،[١] وذلك قوله عزّ وجلّ ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: يسمع كلَّ ما قيل مِن غير أن يتدبّر فيه ويميّز بين ما يَليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له وبين ما لا يليق به. وإنّما قالوه لأنّه صلّى الله عليه وسلّم كان لا يواجههم بسوءِ ما صنعوا، ويصفَح عنهم حلمًا وكرمًا، فحملوه على سلامة القلب، وقالوا ما قالوا.

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ مِن قبيلِ "رجلُ صدقٍ" في الدلالة على المبالغة في الجودة والصلاح، كأنّه قيل: نَعم هو أذنٌ، ولكن نِعمَ الأذُن. ويجوز أن يكون المراد: أذنٌ في الخير والحقّ وفيما ينبغي سماعه وقبولُه -لا في غير ذلك- كما يدلّ عليه قراءةُ "رَحْمَةٍ"[٢] بالجرّ عطفًا عليه، أي: هو أذنُ خيرٍ ورحمةٍ، لا يسمع غيرَهما ولا يقبله. وقُرئ: "أُذْنُ"[٣] بسكون الذال فيهما. وقُرئ: "أُذُنٌ خَيْرٌ"[٤] على أنّه صفة أو خبرٌ ثانٍ.

وقوله عزّ وجلّ ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ تفسير لكونه أذُنَ خيرٍ لهم، أي: يصدِّق بالله تعالى لِما قام عنده مِن الأدلّة الموجِبة له. وكونُ ذلك خيرًا للمخاطَبين كما أنّه خيرٌ للعالَمين ممّا لا يخفى. ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يصدّقهم لِما عَلِم فيهم مِن الخلوص. و"اللام" مَزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور وبين الإيمان بمعنى التسليم والتصديق، كما في قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾... إلخ [الشعراء، ١١١/٢٦] وقولِه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾... إلخ [يونس، ٨٣/١٠].

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾، أي: وهو رحمة، بطريق إطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أي: للذين أظهروا الإيمانَ منكم، حيث يقبله منهم -لكنْ لا تصديقًا لهم في ذلك؛ بل رِفقًا بهم وترحّمًا عليهم- ولا يكشف أسرارَهم، ولا يهتِك / أستارَهم. وإسناد الإيمان إليهم بصيغة الفعل [٣٤و] بعد نسبته إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار للإيذان

---

١ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٥٤؛ اللباب لابن عادل، ١٢٨/١٠.

٢ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٨٠/٢.

٣ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ومجاهد وزيد بن عليّ وأبي بكر عن عاصم. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٨/٥. ولم يذكرها ابن مجاهد وابن الجزري عن أبي بكر عن عاصم.

بأنّ إيمانهم أمرٌ حادثٌ، ما له مِن قرار. وقُرئ بالنصب[1] على أنّها علّة لفعلٍ دلّ عليه ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾، أي: يأذن لكم رحمةً.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بما نُقل عنهم مِن قولهم: "هو أُذُنٌ" ونحوه. وفي صيغة الاستقبال المشعِرة بترتّب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه إشعارٌ بقبول توبتهم، كما أفصح عنه قولُه تعالى فيما سيأتي: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة، ٧٤/٩].

﴿لَهُمْ﴾ بما يجترئون عليه مِن أذيّته عليه السلام، كما يُنبئ عنه بناء الحكم على الموصول. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا اعتراض مَسوقٌ مِن قِبله عزّ وجلّ على نهج الوعيد، غيرُ داخل تحت الخطاب. وفي تكرير الإسناد بإثبات العذاب الأليم لهم ثمّ جعلِ الجملة خبرًا للموصول ما لا يخفى مِن المبالغة. وإيراده صلّى الله عليه وسلّم بعنوان الرسالة مضافًا إلى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيهِ على أنّ أذيّته راجعةٌ إلى جنابه عزّ وجلّ موجِبةٌ لكمال السخط والغضب.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين خاصّةً، وكان المنافقون يتكلّمون بالمطاعن، ثمّ يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكِّدون معاذيرهم بالأيمان ليَعذِروهم ويرضَوا عنهم، أي: يحلِفون لكم أنّهم ما قالوا ما نُقل إليهم ممّا يورِث أذاةَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وأمّا التخلّف عن الجهاد، فليس بداخل في هذا الاعتذار.

﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ بذلك. وإفراد إرضائهم بالتعليل -مع أنّ عُمدة أغراضهم إرضاءُ الرسول عليه السلام، وقد قَبِل عليه السلام ذلك منهم، ولم يكذِّبهم- للإيذان بأنّ ذلك بمَعزِل مِن أن يكون وسيلةً إلى إرضائه عليه السلام، وأنّه عليه السلام إنّما لم يكذّبهم رِفقًا بهم وسترًا لعيوبهم، لا عن رضًى بما فعلوا كما أشيرَ إليه.

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٧.

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ أي: أحقُّ بالإرضاء. ولا يتسنّى ذلك إلّا بالطاعة والمتابعة وإيفاءِ حقوقه عليه السلام في باب الإجلال والإعظامِ مَشهدًا ومَغيبًا. / وأمّا ما أتَوا به مِن الأيمان الفاجرة، فإنّما يُرضَى بها مَن انحصر طريقُ علمه في الأخبار إلى أن يجيء الحقُّ ويزهَقَ الباطلُ. [٣٤ظ]

والجملة نصبٌ على الحاليّة مِن ضمير ﴿يَحۡلِفُونَ﴾، أي: يحلِفون لكم لإرضائكم والحالُ أنّه تعالى ورسولُه أحقُّ بالإرضاء منكم، أي: يُعرِضون عمّا يُهِمّهم ويُجديهم، ويشتغلون بما لا يَعنيهم.

وإفراد الضمير في ﴿يُرۡضُوهُ﴾ إمّا للإيذان بأنّ رضاه عليه السلام مندرجٌ تحت رضاه سبحانه، وإرضاءَه عليه السلام إرضاءٌ له تعالى لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، ٨٠/٤]، وإمّا لأنّه مستعار لاسم الإشارة الذي يشار به إلى الواحد والمتعدِّد بتأويل المذكور، كما في قول رُؤبةَ:

فيها خطوطٌ مِن سوادٍ وبَلَقْ   كأنّه في الجِلد توليعُ البَهَقْ[١]

أي: كأنّ ذلك. لا يقال: أيّ حاجةٍ إلى الاستعارة بعد التأويل المذكور؛ لأنّا نقول: لولا الاستعارةُ لم يتسنَّ التأويل، لِما أنّ الضمير لا يتعرّض إلّا لذاتِ ما يرجع إليه مِن غير تعرّض لوصف مِن أوصافه التي مِن جملتها المذكوريّة، وإنّما المتعرِّض لها اسم الإشارة.

وإمّا[٢] لأنّه عائدٌ إلى ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾، والكلام جملتان، حُذف خبر الأُولى لدلالة خبر الثانية عليه، كما ذهب إليه سيبويه.[٣] ومنه قولُ مَن قال:

نحن بما عندنا وأنت بما   عندك راضٍ والرأيُ مختلِفُ[٤]

---

[١] البيت في ديوانه، ص ١٠٤. | البَلَق: سَواد وبَياض. والبَهَق: بَياض يَعتري الجِلدَ يخالِف لونه، ليس مِن البَرَص. الصحاح للجوهري، «بلق، بهق».

[٢] السياق: وإفراد الضمير في ﴿يُرۡضُوهُ﴾ إمّا للإيذان... وإمّا لأنّه مستعار... وإمّا لأنّه عائدٌ...

[٣] اللباب لابن عادل، ١٣٢/١٠.

[٤] البيت لقيس بن الخَطِيم في ديوانه، ص ٢٣٩؛ وكتاب سيبويه، ٧٤/١-٧٥، ولِامرئ القيس في جمهرة أشعار العرب للقُرَشي، ص ١٣، ٥٣٠؛ والبيان والتبيين للجاحظ، ٦٩/٣؛ ولسان العرب لابن منظور، «فجر»؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٢٧٥/٤. وهو بلا نسبة في الصاحبيّ لابن فارس، ص ١٦٦؛ وأمالي ابن الشجري، ٤٥/٢.

أو إلى ﴿ٱللَّهُ﴾، على أنّ المذكور خبرُ الجملة الأولى، وخبرُ الثانية محذوف، كما هو رأي المبرّد.[١]

﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ جوابه محذوف تعويلًا على دلالة ما سبق عليه، أي: إن كانوا مؤمنين، فليُرضُوا الله ورسولَه بما ذُكر، فإنّهما أحقُّ بالإرضاء.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: أولئك المنافقون. والاستفهام للتوبيخ على ما أقدَموا عليه مِن العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتها. وقُرئ بالتاء[٢] على الالتفات لزيادة التقريع والتوبيخ. أي: ألم يعلموا بما سمعوا مِن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن فنون القوارع والإنذارات ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي: الشأنَ ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ "المُحادّة" مِن "الحدّ"، كـ"المُشاقّة" مِن "الشِّق" و"المُعاداة" مِن "العُدوة"، بمعنى: الجانب، فإنّ كلّ واحد مِن مباشِرَي كلٍّ مِن الأفعال المذكورة في محلٍّ غيرِ محلّ صاحبه.

و﴿مَنْ﴾ شرطيّة، جوابها قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ على أنّ خبره محذوف، أي: فحقٌّ أنّ له نارَ جهنّمَ. وقُرئ بكسر الهمزة.[٣] والجملة الشرطيّة في محلّ الرفع على أنّها خبرٌ لـ﴿أَنَّ﴾، وهي مع خبرها سادّة مَسدَّ مفعولَي ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾. وقيل: المعنى: فله، و﴿أَنَّ﴾[٤] تكرير للأولى تأكيدًا لطول العهد، لا مِن باب / التأكيد اللفظيّ المانعِ للأولى مِن العمل. ودخول "الفاء" كما في قول مَن قال: [٣٥و]

لقد عَلِم الحيُّ اليَمانُونَ أنّني ... إذا قلتُ: أمّا بعدُ، أنّي خطيبُها[٥]

---

[١] اللباب لابن عادل، ١٠/١٣٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج والمفضّل الضبّي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بن عمران وابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٨.

[٤] وفي هامش م: لفظ.

[٥] البيت لسَحْبان بن وائل في لسان العرب لابن منظور، «سحب»؛ ونهاية الأرب للنُّوَيري، ١١٩/٢؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ١٠/٣٦٩.

وقد جُوِّز[1] أن يكون ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾ معطوفًا على ﴿أَنَّهُۥ﴾، وجوابُ الشرط محذوفًا، تقديره: ألم يعلموا أنّه مَن يحادِد الله ورسولَه يهلك، فأنّ له... إلخ. ورُدَّ[2] بأنّ ذلك إنّما يجوز عند كون فعل الشرط ماضيًا أو مضارعًا مجزومًا بـ"لم".

﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ حال مقدَّرةٌ مِن الضمير المجرور، إن اعتُبر في الظرف ابتداءُ الاستقرار وحدوثُه. وإن اعتُبر مطلق الاستقرار، فالأمر ظاهر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أشيرَ إلى ما ذُكر مِن العذاب الخالد بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إيذانًا ببُعد درجته في الهول والفظاعة. ﴿ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الخِزي: الذلّ والهَوان المقارِنُ للفضيحة والندامة. وهي ثمَرات نِفاقهم، حيث يفتضحون على رءوس الأشهاد بظهورها ولُحوقِ العذاب الخاصّ بهم. والجملةِ تذييل لِما سبق.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ في شأنهم، فإنّ ما نزل في حقّهم نازلٌ عليهم. ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مِن الأسرار الخفيّة، فضلًا عمّا كانوا يُظهرونه فيما بينهم مِن أقاويل الكفر والنفاق.

ومعنى تَنْبئتِها إيّاهم بما في قلوبهم -مع أنّه معلوم لهم، وأنّ المحذور عندهم اطّلاعُ المؤمنين على أسرارهم، لا اطّلاعُ أنفسهم عليها- أنّها تُذيع ما كانوا يُخفونه مِن أسرارهم، فتنتشر فيما بين الناس، فيسمعونها مِن أفواه الرجال مُذَاعةً، فكأنّها تُخبرهم بها. أو المراد بالتَّنْبئة المبالغةُ في كون السورة مشتملةً على أسرارهم، كأنّها تَعلم مِن أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه، فتُنبّؤهم بها، وتَنعَى عليهم قبائحهم.

وقيل: معنى ﴿يَحْذَرُ﴾: لِيحذَرْ. وقيل: الضميران الأوّلان للمؤمنين، والثالث للمنافقين؛ ولا يبالَى بالتفكّك عند ظهور الأمر بقَوْد المعنى إليه، أي: يَحذَر المنافقون أن تنزَّل على المؤمنين سورةٌ تُخبرهم بما في قلوب المنافقين، وتهتِك عليهم أستارَهم.

---

[1] جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٨٥.

[2] ردّه أبو حيّان في البحر المحيط، ٥/٤٥١-٤٥٢.

قال أبو مسلم: «كان إظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء؛ / فإنّهم كانوا [٣٥ظ] إذا سمعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يذكُر كلَّ شيء ويقول: "إنّه بطريق الوحي"، يكذّبونه ويستهزئون به»؛[1] ولذلك قيل: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ أي: افعَلوا الاستهزاءَ. وهو أمرُ تهديدٍ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ أي: مِن القوّة إلى الفعل أو مِن الكُمون إلى البُروز ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: ما تحذَرونه مِن إنزال السورة ومِن مَخازيكم ومَثالبكم[2] المستكِنّة في قلوبكم الفاضحةِ لكم على مَلأ الناسِ. والتأكيد لردّ إنكارهم بذلك، لا لدفع تردّدهم في وقوع المحذور؛ إذ ليس حذرُهم بطريق الحقيقة.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عمّا قالوا ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ رُوي أنّه عليه السلام كان يَسير في غزوة تبوكَ، وبين يدَيه رَكْبٌ مِن المنافقين، يستهزئون بالقرآن وبالرسول عليه السلام ويقولون: «انظُروا إلى هذا الرجل، يريد أن يفتتح حُصون الشام وقصورَها، هيهاتَ هيهاتَ!»، فأطْلَع الله تعالى نبيَّه على ذلك، فقال: «احبِسوا عليَّ الرَّكْبَ»، فأتاهم فقال: «قلتم كذا وكذا؟»، فقالوا: «يا نبيَّ الله، لا واللهِ، ما كنّا في شيء مِن أمرك، ولا مِن أمر أصحابك، ولكن كنّا في شيء ممّا يخوض فيه الركبُ ليقصّرَ بعضُنا على بعضِ السفرَ».[3]

﴿قُلْ﴾ غيرَ ملتفِتٍ إلى اعتذارهم، ناعيًا عليهم جناياتِهم، منزِّلًا لهم منزلةَ المعترِف بوقوع الاستهزاء، موبِّخًا لهم على إخطائهم موقعَ الاستهزاء: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ حيث عُقّب حرف التقرير بالمستهزَأ به، ولا يستقيم ذلك إلّا بعد تحقّق الاستهزاء وثبوتِه.

---

[1] انظر: تفسير الرازي، ١٦/٩٣.

[2] يقال: مَثالِب الأمير والقاضي: مَعايبه. تهذيب اللغة للأزهري، ١٥/٦٧ «باب الثاء واللام».

[3] انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٥٤٤-٥٤٥؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٥٥.

﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ٦٦﴾

﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾[١] لا تشتغِلوا بالاعتذار، وهو عبارة عن مَحْو أثر الذنب، فإنّه معلومُ الكذب بيّنُ البطلان. ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام والطعنِ فيه ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بعد إظهاركم له، ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم أو تجنّبهم عن الإيذاء والاستهزاء. وقُرئ: "يَعْفُ"[٢] على إسناد الفعل إلى الله سبحانه. / وقُرئ على البناء للمفعول مسنَدًا إلى الظرف بتذكير الفعل،[٣] وبتأنيثه[٤] أيضًا ذهابًا إلى المعنى، كأنّه قيل: إن تُرحَمْ طائفةٌ. [٣٦و]

﴿نُعَذِّبْ﴾ بنون العَظَمة. وقُرئ بالياء على البناء للفاعل،[٥] وبالتاء على البناء للمفعول[٦] مسنَدًا إلى ما بعده. ﴿طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ مُصِرّين على الإجرام، وهم غيرُ التائبين، أو مباشِرين له، وهم غيرُ المجتنِبين.

قال محمّد بن إسحاق: «الذي عُفي عنه رجلٌ واحدٌ، هو يحيى[٧] بن حُمَيّر الأشجعي، لمّا نزلت هذه الآية تاب عن نِفاقه وقال: "اللّٰهمّ إنّي لا أزال أسمع آيةً تقشعِرّ منها الجلودُ وتَجِبُ منها القلوب،[٨] اللّٰهمّ اجعَلْ وفاتي قتلًا في سبيلك، لا يقول أحدٌ: أنا غسلتُ، أنا كفّنتُ، أنا دفنتُ"، فأصيبَ يومَ اليَمامة، فما أحدٌ مِن المسلمين إلّا عُرِف مَصرَعه غيره».[٩]

---

١ س + أي.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٥/٥.

٣ أي: "إنْ يُعْفَ". قرأ بها السبعة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٢٨٠/٢.

٤ أي: "إنْ تُعْفَ". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. المحتسَب لابن جنّي، ٢٩٨/١.

٥ أي: "يُعَذِّبْ". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٥/٥.

٦ أي: "تُعَذَّبْ". قرأ بها السبعة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٢٨٠/٢.

٧ في المصادر: "مُخشِّن" أو "مَخشِيّ"، منها: سيرة ابن هشام، ٥٥١/٢؛ وجامع البيان للطبري، ٥٤٦/١١-٥٤٧.

٨ يقال: وجب القلب يجِبُ وجيبًا، إذا خفَقَ. النهاية لابن الأثير، ١٥٤/٥ «وجب».

٩ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٦٥/٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٧٠/٤.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٦٨﴾

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ التعرّض لأحوال الإناث للإيذان بكمال عراقتهم في الكفر والنفاق. ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: متشابِهون في النفاق والبُعدِ عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحد بالشخص. وقيل: أريدَ به نفيُ أن يكونوا مِن المؤمنين وتكذيبُهم في حلفهم بالله إنّهم لَمِنكم وتقريرٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة، ٥٦/٩].

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ أي: بالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: عن الإيمان والطاعة، استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما سبق، ومُفصِحٌ عن مُضادّة حالهم لحال المؤمنين، أو خبرٌ ثانٍ. ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن المَبَرّات والإنفاق في سبيل الله، فإنّ قبض اليد كنايةٌ عن الشُّحّ.

﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ أغفلوا ذكرَه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم مِن رحمته وفضله وخذَلَهم. والتعبير عنه بالنِّسيان للمشاكلة. ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرّد والفِسق الذي هو الخروج عن الطاعة والانسلاخُ عن كلّ خير. والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير، كما في قوله عزّ وعلا:[1] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ أي: المجاهِرين ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلودَ فيها.

﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ عقابًا وجزاءً. وفيه دليل على عِظم عقابها وعذابها. ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعدهم مِن رحمته وأهانهم. وفي إظهار الاسم الجليل مِن الإيذان / بشدّة السخط ما لا يخفى. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: نوعٌ مِن العذاب غير عذابِ النار، دائمٌ لا ينقطع أبدًا، أو لهم عذاب مقيمٌ معهم في الدنيا، لا ينفكّ عنهم، وهو ما يُقاسُونه مِن تعب النفاق الذي هم منه في بليّةٍ دائمةٍ، لا يأمَنون ساعةً مِن خوف الفضيحة ونزولِ العذاب إن اطُّلِع على أسرارهم. [٣٦ظ]

---

[1] س: تعالى.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ التفات مِن الغَيبة إلى الخطاب للتشديد. و"الكاف" في محلّ الرفع على الخبريّة، أي: أنتم مثلُ الذين مِن قبلكم مِن الأمم المهلَكة، أو في حيّز النصب بفعل مقدَّر، أي: فعلتم مثلَ فعل الذين مِن قبلكم.

﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ تفسير وبيان لشبههم بهم، وتمثيل لحالهم بحالهم. ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾ وتمتّعوا. وفي صيغة "الاستفعال" ما ليس في "التفعّل" مِن الاستزادة والاستدامة في التمتّع. ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ بنصيبهم مِن ملاذّ الدنيا. واشتقاقه مِن "الخَلْق" بمعنى: التقدير، وهو ما قُدّر لصاحبه.

﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ﴾ "الكاف" في محلّ النصب على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: استمتاعًا كاستمتاع ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ ذمّ الأوّلين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة مِن الشهَوات الفانية والتهائِهم بها عن النظر في العواقب الحقّة واللذائذ الحقيقيّة، تمهيدًا لذمّ المخاطَبين بمشابهتهم إيّاهم واقتفائِهم أثرَهم.

﴿وَخُضْتُمْ﴾ أي: دخلتم في الباطل ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ أي: كالذين، بإسقاط "النون"، أو كالفوج الذي أو كالخوض الذي خاضوه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المتّصفين بالأوصاف المعدودة مِن المشبَّهين والمشبَّه بهم، لا إلى الفريق الأخير فقط؛ فإنّ ذلك يقتضي أن يكون حُبوط أعمال المشبَهين وخسرانُهم مفهومَين ضِمنًا، لا صريحًا، ويؤدّي إلى خلوّ تلوين الخطاب عن الفائدة، إذ الظاهرُ حينئذ "أولئكم".

والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ مَن يصلُح للخطاب، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن الأفعال الذميمة ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ليس المراد بها أعمالَهم المعدودةَ كما يُشعر به التعبير عنهم باسم الإشارة، فإنّ غائلتها غنيّة عن البيان؛ بل أعمالُهم التي كانوا يستحقّون بها أجورًا حسنةً

لو قارنت الإيمانَ، أي: ضاعت وبطَلت بالكلّيّة، ولم يترتّب عليها أثرٌ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ بطريق المثوبة والكرامة.

أمّا في الآخرة، فظاهرٌ. وأمّا في الدنيا، فلأنّ ما يترتّب على أعمالهم فيها مِن الصحّة والسعة وغير ذلك حسبما يُنبِئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود، ١١/١٥] ليس ترتّبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة؛ بل بطريق الاستدراج.

/ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بحُبوط الأعمال في الدارين ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [٣٧و] الكاملون في الخسران في الدارين، الجامعون لمباديه وأسبابه طرًّا؛ فإنّه قد ذهبت رءوس أموالهم التي هي أعمالهم فيما ضرَّهم ولم ينفعهم قطّ، ولو أنّها ذهبت فيما لا يضرّهم ولا ينفعهم، لَكفى به خسرانًا. وإيراد اسم الإشارة في الموضعَين للإشعار بعلّيّة الأوصاف المُشار إليها للحبوط والخسران.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ أي: المنافقين ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: خبرُهم الذي له شأن، وهو ما فعلوا وما فُعل بهم. والاستفهام للتقرير والتحذير. ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ وهم قومُ شعيبٍ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ قَرياتِ قوم لوط، ائتفكَت بهم، أي: انقلبت بهم، فصار عاليها سافلَها، وأُمطِروا حجارةً مِن سِجّيل. وقيل:[١] قَريات المكذِّبين، وائتفاكُهنّ انقلابُ أحوالهنّ مِن الخير إلى الشرّ.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ استئناف لبيان نَبَئهم. ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ "الفاء" للعطف على مقدَّرٍ ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام، أي: فكذّبوهم، فأهلكهم الله، فما ظلمهم بذلك. وإيثار ما عليه النظم الكريم للمبالغة في تنزيه ساحة السُّبحان عن الظلم، أي: ما صحّ وما استقام له أن يظلمهم، ولكنّهم ظلموا أنفسَهم.

---

[١] س: وهي.

والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ للدلالة على استمرار ظلمهم، حيث لم يزالوا يعرِّضونها للعقاب بالكفر والتكذيب. وتقديم المفعول لمجرّد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة مِن غير قصد إلى قَصر المظلوميّة عليهم، على رأي مَن لا يرى التقديمَ موجِبًا للقَصر، فيكون كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [هود، ١٠١/١١] مِن غير قَصر للظلم على الفاعل أو المفعول. وسيجيء لهذا مزيدُ بيان في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس، ٤٤/١٠].

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات حالًا ومَآلًا إثرَ بيان قُبح حال أضدادهم عاجلًا وآجلًا. والتعبير عن نسبة هؤلاء بعضِهم إلى بعضٍ بالولاية وعن نسبة أولئك بـ﴿مِنۡ﴾ الاتّصاليّة للإيذان بأنّ نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينيّة المبنيّة على العقيدة[١] المستتبعةِ للآثار مِن المَعونة والنُّصرة وغير ذلك، ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة.

﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: جنسِ المعروف والمنكر المنتظِمَين لكلّ خير وشرّ، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ / فلا يزالون يذكرون الله سبحانه، [٣٧ظ] فهو في مقابلة ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ [التوبة، ٦٧/٩]. ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بمقابلة قوله تعالى: ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ [التوبة، ٦٧/٩]. ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: في كلّ أمر ونهي، وهو بمقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة.

١ م ط: المعاقدة [صُحّح في هامش م ط].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتّصافهم بما سلف مِن الصفات الفاضلة، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد درجتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بما فُصّل مِن النعوت الجليلة ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ أي: يُفيض عليهم آثارَ رحمته مِن التأييد والنُّصرة البتّةَ؛ فإنّ "السين" مؤكّدة للوقوع، كما في قولك: "سأنتقم منك".

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ تعليل للوعد، أي: قويٌّ قادرٌ على إعزاز أوليائه وقهر أعدائه. ﴿حَكِيمٞ﴾ يَبني أحكامه على أساس الحكمة الداعيةِ إلى إيصال الحقوق مِن النعمة والنقمة إلى مستحقّيها مِن أهل الطاعة وأهل المعصية. وهذا وعد للمؤمنين متضمِّنٌ لوعيد المنافقين، كما أنّ ما سبق في شأن المنافقين مِن قوله تعالى:[1] ﴿فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة، ٦٧/٩] وعيدٌ بهم متضمِّنٌ لوعد المؤمنين، فإنّ منع لطفه تعالى عنهم لطفٌ في حقّ المؤمنين.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ تفصيل لآثار رحمته الأخرويّة إثرَ ذكر رحمته الدنيويّة. والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإشعارِ بعلّيّة وصف الإيمان لحصول ما تعلّق به الوعد.[2] وعدمُ التعرّض لذكر ما مرّ مِن الأمر بالمعروف وغير ذلك للإيذان بأنّه مِن لوازمه ومستتبِعاته.

أي: وعَدَهم وعدًا شاملًا لكلّ أحد منهم على اختلاف طبقاتهم في مراتب الفضل كيفًا وكمًّا ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فإنّ كلّ أحد منهم فائزٌ بها لا محالةَ، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ أي: وعَدَ بعضَ الخواصّ الكُمَّل منهم منازلَ تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش. في الخبر: أنّها قصورٌ مِن اللُّؤلؤ والزَّبَرجَد والياقوت الأحمر.[3]

---

[1] س - تعالى.

[2] وفي هامش م: "اللام" للعهد. «منه».

[3] انظر: جامع البيان للطبري، ٥٥٨/١١-٥٥٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٨٩/٢.

﴿فِى جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ﴾ هي أبهى أماكنِ الجنّات وأسناها. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «عَدْنٌ دارُ الله لم تَرَها عينٌ، ولم يخطُر على قلبِ بَشَر، لا يسكُنها غيرُ ثلاثةٍ: النبيّون والصدّيقون والشهداء، يقول الله تعالى: طُوبَى لمَن دخلكِ».[١] وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «إنّ في الجنّة قصرًا، يقال له: عَدْن، حولَه البروجُ والمروجُ، وله خمسةُ آلافِ بابٍ، على كلّ باب خمسةُ آلافِ حرّةٍ، لا يدخله إلّا نبيّ أو صدّيق أو شهيد».[٢] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «هي بُطنان الجنّة وسُرّتُها»؛[٣] فـ﴿عَدۡنٍ﴾ على هذا عَلَم.

وقيل: هو بمعناه اللغويّ، أعني: الإقامة والخلود، فمرجِعُ العطف إلى اختلاف الوصف وتغايرِه، فكأنّه وصَفَه أوّلًا / بأنّه مِن جنس ما هو أشرفُ [٣٨و] الأماكن المعروفة عندهم مِن الجنّات ذاتِ الأنهار الجارية ليَميل إليه طِباعُهم أوّلَ ما يقرع أسماعَهم، ثمّ وصَفَه بأنّه محفوف بطيب العيش مُعرًّى عن شوائب الكدورات التي لا يكاد يخلو عنها أماكنُ الدنيا، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلَذّ الأعيُنُ، ثمّ وصَفَه بأنّه دارُ إقامة وثبات في جوار العلّيّين، لا يعتريهم فيها فناءٌ ولا تغيّر، ثمّ وعَدَهم بما هو أعلى مِن ذلك كلِّه، فقال: ﴿وَرِضۡوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وشيءٌ يسيرٌ مِن رضوانه تعالى ﴿أَكۡبَرُ﴾ إذ عليه يدور فَوْزُ كلّ خير وسعادة، وبه يُناط نيلُ كلّ شرف وسيادة. ولعلّ عدمَ نظمه في سِلك الوعد -مع عزّته في نفسه- لأنّه متحقّق في ضمن كلّ موعود، ولأنّه مستمرّ في الدارين.

رُوي أنّه تعالى يقول لأهل الجنّة: «هل رضِيتم؟»، فيقولون: «ما لنا لا نرضَى، وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خلقك»، فيقول: «أنا أُعطيكم أفضلَ

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٦٠/١١؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٨٩/٢. ونحوه في مسند البزّار، ١٠/١٧-١٨ (٤٠٧٩).

٢ الحديث مرويّ عن عبد الله بن عمر في مطبوع الكشف والبيان للثعلبي، ٦٨/٥. وهو مرويّ عن عبد الله بن عمرو الصحابيّ في مصنّف ابن أبي شيبة، ٢١٠/٤ (١٩٣٨٠)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٦٣/١١؛ واللباب لابن عادل، ١٤٥/١٠. ولعلّه هو الصواب.

٣ جامع البيان للطبري، ٥٦١/١١-٥٦٢؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥٨/٣. | بُطنان الجنّة: وسطها. الصحاح للجوهري، «بطن».

مِن ذلك»»، قالوا: «وأيُّ شيء أفضلُ مِن ذلك؟»»، قال: «أُحِلّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم أبدًا»».[١]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق ذِكره. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجته في العِظم والفخامة. ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ دون ما يعدّه الناس فوزًا مِن حظوظ الدنيا، فإنّها -مع قطع النظر عن فنائها وتغيّرها وتنغّصها وتكدّرِها- ليست بالنسبة إلى أدنى شيءٍ مِن نعيم الآخرة بمثابة جناح البَعُوض. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جَناحَ بَعُوضة، ما سقَى الكافرَ منها شربةَ ماءٍ».[٢]

ونِعِمّا قال مَن قال:[٣]

تـاللهِ لـو كـانـت الـدنـيـا بأجمعِها تبقَى علينا ومـا مِـن رِزقـهـا رَغَـدا
مـا كـان مِـن حـقِّ حُـرٍّ أن يُـذِلّ بها فكيف وَهْـيَ متاعٌ يضمحِلُّ غَـدا[٤]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ أي: المجاهِرين منهم بالسيف، ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بالحُجّة وإقامة الحدود، ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ في ذلك، ولا يأخُذْك بهم رَأْفةٌ. قال عطاء: «نسَخت هذه الآيةُ كلَّ شيء مِن العَفو والصَّفْح».[٥] ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ جملة مستأنَفةٌ لبيان آجل أمرهم إثرَ بيان عاجله، وقيل: حاليّة. ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تذييل لِما قبله. والمخصوص بالذمّ محذوف.

---

[١] صحيح البخاري، ١١٤/٨ (٦٥٤٩)؛ صحيح مسلم، ٢١٧٦/٤ (٢٨٢٩).

[٢] انظر: سنن ابن ماجة، ٢٣٠/٥ (٤١١٠)؛ وسنن الترمذي، ٥٦٠/٤ (٢٣٢٠).

[٣] وفي هامش م: هو ابن عبد ربّه. «منه». | هو أحمد بن محمّد بن عبدِ ربّه بن حَبيب القرطبي الأندلسي، أبو عمر شهاب الدين (ت. ٣٢٨هـ/٩٤٠م). الأديب الشاعر الإمام. صاحب كتاب العِقد الفريد في الأخبار. انظر: معجم الأدباء للحَموي، ٤٦٣/١-٤٦٨. | لم نجد البيتين في العقد الفريد، ولم نقف عليهما منسوبَين إليه في المصادر التي بين أيدينا.

[٤] البيتان ليحيى بن سلامة الحَصكفي في الدرّ الفريد للمستعصمي، ١٣٥/١٠، وبلا نسبة في المدهش لابن الجوزي، ص ١٥١؛ ونفح الطيب للتلمساني، ١١٩/١.

[٥] التفسير البسيط للواحدي، ٥٥٣/١٠؛ معالم التنزيل للبغوي، ٧٤/٤.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ استئناف لبيان ما صدر عنهم مِن الجرائم الموجِبة لِما مرّ مِن الأمر بالجهاد والغِلظة عليهم ودخولِ جهنّمَ.

رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أقام في غزوة تبوكَ شهرين، ينزل عليه القرآنُ / ويَعيب المنافقين المتخلِّفين، فيسمعه مَن كان منهم معه عليه السلام، فقال الجُلَاس بن سُوَيد منهم: «لئن كان ما يقول محمّد حقًّا لإخواننا الذين خلّفناهم، وهم سادتنا وأشرافنا، فنحن شرٌّ مِنَ الحَمير»، فقال عامر بن قيس الأنصاري[١] للجُلَاس: «أجَلْ، واللهِ إنّ محمّدًا لصادقٌ، وأنت شرٌّ مِن الحِمار»، وبلغ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فاستحضر، فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يدَه فقال: «اللّٰهمّ أنزِلْ على عبدك ونبيِّك تصديقَ الكاذب وتكذيبَ الصادق»، فنزل.[٢] [٣٨ظ]

وإيثار صيغة الاستقبال في ﴿يَحْلِفُونَ﴾ لاستحضار الصورة أو للدلالة على تكرّر الحلف. وصيغة الجمع في ﴿قَالُواْ﴾ -مع أنّ القائل هو الجُلَاس- للإيذان بأنّ بقيّتهم برِضاهم بقوله صاروا بمنزلة القائل.

﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ هي ما حُكي آنفًا. والجملة مع ما عُطف عليها اعتراضٌ. ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي: وأظهروا ما في قلوبهم مِن الكفر بعد إظهارهم الإسلامَ، ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ هو الفَتْك برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وذلك أنّه توافقَ خمسةَ عشرَ منهم على أن يدفعوه عليه السلام عن راحلته إذا تسنَّمَ العقبةَ بالليل، وكان عمّار بن ياسر آخذًا بخطام راحلته يقودُها، وحذيفة بنُ اليمان خلفَها يسوقُها، فبَيْنَا هما كذلك إذ سمع حذيفة

---

[١] هو ابن عمّ الجُلَاس بن سُويد. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٥/٥٢٣.

[٢] **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٩١. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في **جامع البيان** للطبري، ١١/٥٦٩-٥٧٠؛ و**أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٥٤-٢٥٥.

بوَقْع أخفاف الإبل وبقَعْقعة السلاح، فالتفَتَ فإذا قومٌ متلثِّمون، فقال: «إليكم إليكم يا أعداءَ الله!»، فهرَبوا.[١]

وقيل: / همَّ المنافقون بقتل عامر لردّه على الجُلَاس،[٢] وقيل: أرادوا أن يتوّجوا عبدَ الله بن أبيّ بنِ سَلولَ، وإن لم يرضَ به رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم.[٣] [٣٩و]

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ أي: وما أنكروا وما عابوا، أو وما وجدوا ما يورث نقمتهم، ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى، وذلك أنّهم كانوا حين قدِم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم المدينةَ في غايةِ ما يكون مِن ضَنْك العيش، لا يركَبون الخيل، ولا يحوزون الغنيمة، فأثْرَوا بالغنائم،[٤] وقُتل للجُلَاس مولًى، فأمر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بدِيَته اثنَي عشرَ ألفَ درهمٍ،[٥] فاستغنى.[٦]

والاستثناء مفرَّغ مِن أعمّ المفاعيل أو مِن أعمّ العِلل، أي: وما أنكروا شيئًا مِن الأشياء إلّا إغناءَ الله تعالى إيّاهم، أو ما أنكروا ما أنكروا لعلّةٍ مِن العِلل إلّا لإغناء الله إيّاهم.

﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ عمّا هم عليه مِن الكفر والنفاق، ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدارين. قيل: لمّا تلاها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال الجُلَاس: «يا رسولَ الله! لقد عرض الله عليَّ التوبةَ، واللهِ لقد قلتُه وصدق عامرٌ»، فتاب الجُلَاس، وحسُنت توبته.[٧]

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ أي: استمَرّوا على ما كانوا عليه مِن التولّي والإعراضِ عن الدين، أو أعرضوا عن التوبة بعد هذا العرض، ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾

---

١ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٥٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٩١/٢. وانظر: مسند أحمد، ٢١٠/٣٩-٢١١ (٢٣٧٩٢).

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٩١/٢-٢٩٢.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٩١/٢-٢٩٢.

٤ أثرَى الرجلُ، إذا كثُرت أمواله. الصحاح للجوهري، «ثرا».

٥ وفي هامش م: كان الألفان شَنَقًا. «منه». | الشَّنَق: ما دون الدِّية، وذلك أن يسُوق ذو الحمَالة الديةَ كاملةً، فإذا كانت معها دِياتُ جِراحاتٍ، فتلك هي الأشناق، كأنّها متعلِّقة بالدية العُظمى. الصحاح للجوهري، «شنق».

٦ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٧١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٢.

٧ انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ١٨٣/٢؛ وجامع البيان للطبري، ٥٧٦/١١.

بالقتل والأسر والنهب وغير ذلك مِن فنون العقوبات، ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ بالنار وغيرها مِن أفانين العقاب.

﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مع سَعَتِها وتباعدِ أقطارها وكثرة أهلها المصحِّحةِ لوجدان ما نُفي بقوله عزّ وجلّ: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[1] يُنقِذهم مِن العذاب بالشفاعة أو المدافعة.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦﴾

﴿وَمِنْهُم﴾ بيان لقبائح بعضٍ آخرَ منهم. ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ / لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لنُؤتيَنَّ الزكاة وغيرَها مِن الصدقات، ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «يريد الحجّ».[2] وقُرئ بالنون الخفيفة فيهما.[3] [٣٩ظ]

قيل: نزلت في ثعلبةَ بن حاطب،[4] أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: «يا رسولَ الله! ادعُ الله أن يرزُقَني مالًا»، فقال عليه السلام: «يا ثعلبةُ! قليلٌ تؤدِّي حقَّه خيرٌ مِن كثيرٍ لا تُطيقه»، فراجعه وقال: «والذي بعثَك بالحقّ، لئن رزقني مالًا لأُعطِينَّ كلَّ ذي حقّ حقَّه»، فدعا له، فاتّخذ غنمًا، فنَمَتْ كما يَنمي الدُّود، حتّى ضاقت بها المدينة، فنزل واديًا، وانقطع مِن الجماعة والجُمعة، فسأل عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقيل: «كثُرَ مالُه حتّى لا يسعه وادٍ»، فقال: «يا وَيْحَ ثعلبةَ!»، فبعث مصدِّقَين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرَّا بثعلبةَ، فسألاه الصدقة، وأقْرَآه كتابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي فيه الفرائض، فقال: «ما هذه إلّا جِزية؟ ما هذه إلّا أخت الجِزية»، وقال:[5]

---

[1] وفي هامش م: نُسِب النفي إليه لِما أنّ نفي خصوصيّة المنفيّ الذي فيه الكلام لا يتحقّق إلّا به. «منه».

[2] التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٥٦٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٣.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٨.

[4] هو ثعلبة بن حاطب بن عمرو الأنصاري الأوسي. شهد بدرًا وأحدًا. وآخَى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بينه وبين معتّب بن عوف. تُوفّي في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: الاستيعاب للنمري، ١/٢٠٩-٢١٠؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ١/٤٦٢-٤٦٤.

[5] س: فقال.

«ارجِعَا حتّى أرى رأيي»، وذلك قوله عزّ وعلا:[١] ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ أي: منعوا حقّ الله منه، ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله سبحانه؛ فلمّا رجعَا، قال لهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يكلّماه: «يا وَيْحَ ثعلبة!» مرّتين، فنزلت، فجاء ثعلبةُ بالصدقة، فقال عليه السلام: «إنّ الله منعني أن أقبل منك»، فجعل التراب على رأسه، فقال عليه السلام: «هذا عملك، قد أمرتُك فلم تُطِعني»، فقُبض عليه الصلاة والسلام، / فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه، فلم يقبلها، وجاء بها إلى عمرَ رضي الله عنه في خلافته، فلم يقبلها، وهلك في خلافة عثمانَ رضي الله عنه.[٢] [٤٠و]

وقيل: نزلت فيه وفي سهل بن الحرث وجَدّ بنِ قيس ومعتِّب بن قُشير.[٣] والأوّل هو الأشهر.

﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ جملة معترضة، أي: وهم قومٌ عادتُهم الإعراضُ، أو حاليّة، أي: تَولَّوا بإجرامهم وهم معرِضون بقلوبهم.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ أي: جعل الله عاقبةَ فعلهم ذلك ﴿نِفَاقًا﴾ راسخًا ﴿فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ إلى يوم موتهم الذي يلقَون الله تعالى عنده أو يلقَون فيه جزاءَ عملهم، وهو يوم القيامة.

وقيل: فأورثهم البُخلُ نفاقًا متمكِّنًا في قلوبهم.[٤] ولا يلائمه قوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أي: بسبب إخلافهم ما وعدوه تعالى مِن التصدّق والسلاح، ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ أي: وبكونهم مستمرّين على الكذب في جميع المقالات التي مِن جملتها وعدُهم المذكور، وتخصيصُ الكذب به يؤدِّي

---

١ س: وجلّ.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٥٧٧-٥٨٠؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٥٧-٢٥٩.

٣ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٧٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥/٤٦٦.

٤ قال به الحسن وقتادة كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٣.

إلى تخلية الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل عن المزيّة؛ فإنّ[١] تسبيب الإعقاب المذكور بالإخلاف والكذب[٢] يقضي بإسناده إلى الله عزّ وجلّ، إذ لا معنى لكونهما سببَين لإعقاب البُخل النفاقَ.

والتحقيق: أنّه لمّا كانت "الفاء" الدالّةُ على الترتيب والتفريع مُنبئةً عن ترتّب إعقاب النفاق المخلّد على أفعالهم المحكيّة عنهم مِن المعاهدة بالتصدّق والصلاح والبُخل والتولّي والإعراض -وفيها ما لا دخلَ له في الترتّب المذكور كالمعاهدة- أزيحَ ما في ذلك مِن الإبهام بتعيين ما هو المدار في ذلك. والله تعالى أعلم.

[٤٠ظ] / وقُرئ بتشديد الذال.[٣]

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: المنافقون أو مَن عاهد الله تعالى، وقُرئ بالتاء الفوقانيّة[٤] خطابًا للمؤمنين، فالهمزة على الأوّل للإنكار والتوبيخ والتهديد، أي: ألم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ أي: ما أسرُّوا به في أنفسهم وما تناجَوا به فيما بينهم مِن المَطاعن وتسميةِ الصدقة جِزيةً وغير ذلك ممّا لا خيرَ فيه. وسرُّ تقديم "السرّ" على "النّجوى" سيظهر في قوله سبحانه: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التوبة، ١٠٥/٩].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء مِن الأشياء، حتّى اجترءُوا على ما اجترءُوا عليه مِن العظائم. وإظهار اسم الجلالة في الموقعَين لإلقاء الروعة وتربية المهابة. وفي إيراد العلم المتعلِّق بسرّهم ونجواهم بصيغة الفعل الدالِّ على الحدوث والتجدّد، والعلمِ المتعلِّق بالغيوب الكثيرة الدائمةِ بصيغة الاسم الدالِّ على الدوام والمبالغة مِن الفخامة والجزالة ما لا يخفى.

---

[١] وفي هامش م: تعليل لقوله: "لا يلائمه قوله عزّ وجلّ"... إلخ. «منه».

[٢] س - بالإخلاف والكذب.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الرجاء ونبيح وأبي واقد والجراح. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٨.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٢٩٣/٢.

وعلى الثاني[١] لتقرير علم المؤمنين بذلك وتنبيهِهم على أنّه تعالى مؤاخِذهم ومُجازيهم بما علم مِن أعمالهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ﴾ نصبٌ أو رفعٌ على الذمّ. ويجوز جرُّه على البدليّة مِن الضمير في ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾. وقُرئ بضمّ الميم،[٢] وهي لغة. أي: يَعيبون **﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾** أي: المتطوّعين المتبرّعين **﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾** حال مِن ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾. وقوله تعالى: **﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾** متعلِّق بـ﴿يَلۡمِزُونَ﴾.

رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حثَّ الناس على الصدقة، فأتى عبد الرحمن بن عوف بأربعين أُوقيّةً[٣] مِن ذهَب -وقيل: بأربعة آلافِ درهمٍ- وقال: «كان لي ثمانيةُ آلافٍ، فأقرضتُ ربّي أربعةً، وأمسكتُ لعِيالي أربعةً»، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بارَكَ الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ»، فبارك له حتّى صُولحت تُماضِرُ[٤] / رابعةُ نسائه عن رُبع الثُّمن على ثمانين ألفًا؛[٥] [٤١و] وتصدّق عاصم بنُ عديّ[٦] بمائة وَسْقٍ مِن تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع مِن تمر، فقال: «بِتُّ ليلِي أجُرُّ بالجَرير[٧] على صاعَين، فتركتُ صاعًا لعِيالي، وجئتُ بصاع»، فأمره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن ينثُره على الصدقات،

---

١ السياق: فالهمزة على الأوّل... وعلى الثاني...

٢ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٩-٢٨٠.

٣ الأُوقيّة: أربعون درهمًا. والجمع: الأواقي، بالتشديد والتخفيف. المغرب للمُطَرّزي، ص ٤٩٢ «الواو مع القاف».

٤ هي تُماضِر بنت الأصبغ بن عمرو بن ثعلبة، أمّ ابنه أبي سلمة الفقيه. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، ٦٩/٧٩.

٥ وفي هامش م: قيل: كان ذلك ثمانين ألفَ دينار. «منه».

٦ هو عاصم بن عديّ بن الجَدّ البَلَوي العجلاني، أبو عمرو (ت. ٤٥هـ/٦٦٥م). شهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: لم يشهد بدرًا بنفسه؛ لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ردّه عن بدر بعد أن خرج معه إليها إلى أهل مسجد الضِّرار لشيءٍ بلغه عنهم، وضرب له بسهمه وأجره. انظر: الاستيعاب للنمري، ٢/٧٨١-٧٨٢؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٣/١١٠-١١١.

٧ وفي هامش م: أجُرّ بالجرير، أي: أستقي الماءَ للناس على أجرة صاعَين.

فلمَزَهم المنافقون وقالوا: «ما أعطى عبدُ الرحمن وعاصمٌ إلّا رِياءً، وإنْ كان الله ورسولُه لَغنيَّيْنِ عن صاع أبي عقيل، ولكنّه أحبُّ أن يذكِّر بنفسه ليعطَى مِن الصدقات»، فنزلت.[١]

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾، أي: ويلمِزون الذين لا يجدون إلّا طاقتَهم. وقُرئ بفتح الجيم.[٢] وهو مصدر "جهد في الأمر" إذا بالغ فيه. وقيل: هو بالضمّ الطاقة، وبالفتح المشقّة. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿يَلْمِزُونَ﴾، أي: يهزءُون بهم. والمراد بهم الفريق الأخير.

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ إخبار بمجازاته تعالى إيّاهم على ما فعلوا مِن السُّخريّة. والتعبير عنها[٣] بذلك للمشاكلة. ﴿وَلَهُمْ﴾ أي: ثابتٌ لهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التنوين للتهويل والتفخيم. وإيراد الجملة اسميّةً للدلالة على الاستمرار.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٨٠﴾

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إخبار باستواء الأمرين: الاستغفارِ لهم وتركِه في استحالة المغفرة. وتصويره بصورة الأمر للمبالغة في بيان استوائهما، كأنّه عليه الصلاة والسلام أُمر بامتحان الحال بأن يستغفر تارةً ويتركَه أخرى ليظهرَ له جليّة الأمر، كما مرّ في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة، ٩/٥٣].

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة في الاستغفار إثرَ بيان الاستواء بينه وبين عدمه.

رُوي أنّ عبد الله بنَ عبد الله بنِ أُبيّ[٤] -وكان مِن المخلصين- سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه السلام، فنزلت،

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٥٨٨-٥٩٦؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٥٩-٢٦٠.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وأبي حياة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٨.

[٣] أي: عن مُجازاته تعالى.

[٤] هو عبد الله بن عبدِ الله بن أبيّ بن مالك بن الحارث الأنصاري الخزرجي (ت. ١٢هـ/٦٣٣م). ابن أبيّ بن سلول رأسِ المنافقين. شهد عبدُ الله بدرًا وأحدًا والمشاهدَ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. انظر: الاستيعاب للنمري، ٣/٩٤٠-٩٤٢.

فقال عليه السلام محافظةً / على ما هو الأصل مِن أنّ مراتب الأعداد حدودٌ [٤١ظ] معيَّنةٌ يخالف حكمُ كلٍّ منها[1] حكمَ ما فوقها: «إنّ[2] الله قد رخّص لي، فسأزيد على السبعين»، فنزلت: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ [المنافقون، ٦٣/٦].[3]

وقد شاع استعمالُ "السبعة" و"السبعين" و"السبعمائة" في مطلَق التكثير لاشتمال "السبعة" على جملة أقسام العدد، فكأنّها العددُ بأسْره. وقيل: هي أكملُ الأعداد لجمعها معانيَها؛ لأنّ[4] الستّة أوّلُ عددٍ تامٍّ لتعادل أجزائها الصحيحة؛ إذ نصفُها ثلاثة، وثلثُها اثنان، وسُدسُها واحد، وجملتها ستّةٌ، وهي مع الواحد سبعةٌ، فكانت كاملةً؛ إذ لا مرتبةَ بعد التمام إلّا الكمال، ثمّ "السبعون" غايةُ الكمال؛ إذ الآحاد غايتُها العشراتُ، و"السبعمائة" غايةُ الغايات.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى امتناع المغفرة لهم، ولو بعد المبالغة في الاستغفار، أي: ذلك الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك؛ بل ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كفرًا متجاوزًا عن الحدّ، كما يلوِّح به وصفهم بالفِسق في قوله عزّ وعلا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فإنّ الفِسق في كلّ شيء عبارة عن التمرّد والتجاوز عن حدوده، أي: لا يهديهم هدايةً موصِلةً إلى المقصد البتّةَ لمخالفة ذلك للحكمة التي عليها يدور فلكُ التكوين والتشريع. وأمّا الهداية بمعنى الدلالة على ما يوصل إليه، فهي متحقِّقة لا محالةَ، ولكنّهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها، فوقعوا فيما وقعوا.

وهو تذييل مؤكِّدٌ لِما قبله مِن الحُكم، فإنّ مغفرة الكافر إنّما هي بالإقلاع عن الكفر والإقبال إلى الحقّ، والمنهمِكُ فيه المطبوعُ عليه / بمَعزِل مِن ذلك. وفيه تنبيه [٤٢و] على عُذر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في استغفاره لهم، وهو عدمُ يأسِه عن إيمانهم، حيث لم يعلم أنّهم مطبوعون على الغَيّ والضلال؛ إذ الممنوع هو الاستغفار لهم بعد تبيّن حالهم، كما سيُتلَى مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية [التوبة، ٩/١١٣].

---

[1] س: منهما.
[2] وفي هامش م: مَقول القول.
[3] انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٦٠١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٤.
[4] ط س: ولأنّ.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: الذين خلّفهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالإذن لهم في القعود عند استئذانهم، أو خلّفهم الله تعالى[1] بتثبيطه إيّاهم لِما علم في ذلك مِن الحكمة الخفيّة، أو خلّفهم كسلُهم أو نفاقُهم ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ متعلّق بـ﴿فَرِحَ﴾، أي: بقعودهم وتخلّفِهم عن الغَزو ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: خَلْفَه وبعد خروجه، حيث خرج ولم يخرُجوا، يقال: "أقام خِلافَ الحيّ"، أي: بعدَهم، ظعَنوا ولم يظعَن، ويؤيّده قراءة مَن قرأ: "خَلْفَ رَسُولِ اللهِ"،[2] فانتصابُه على أنّه ظرفٌ لـ﴿مَقْعَدِهِمْ﴾؛ إذ لا فائدةَ في تقييد فرحهم بذلك.

وقيل: هو بمعنى "المخالفة"، ويعضُده قراءة مَن قرأ: "خُلْفَ رَسُولِ اللهِ"[3] بضمّ الخاء، فانتصابُه على أنّه مفعول له، والعاملُ إمّا ﴿فَرِحَ﴾، أي: فرِحوا لأجل مخالفته عليه السلام بالقعود، وإمّا ﴿مَقْعَدِهِمْ﴾، أي: فرِحوا بقعودهم المعلَّل بمخالفته[4] عليه السلام؛ أو على أنّه حال، والعامل أحدُ المذكورَين، أي: فرحوا مخالِفين له عليه السلام بالقعود، أو فرحوا بالقعود مخالِفين له عليه السلام.

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا إيثارًا للدَّعة والخَفْض[5] على طاعة الله تعالى فقط؛ بل مع ما في قلوبهم مِن الكفر والنفاق، فإنّ إيثار أحد الأمرين قد يتحقّق بأدنى رُجحان منه مِن غير أن يبلُغ الآخرُ مرتبةَ الكراهيّة.

وإنّما أُوثِرَ ما عليه النظم الكريمُ على أن يقال: "وكرِهوا أن يخرُجوا إلى الغَزو" إيذانًا بأنّ الجهاد / [٤٢ظ] في سبيل الله -مع كونه مِن أجلّ الرغائب وأشرفِ المطالب التي يجب أن يتنافَس فيها المتنافِسون- قد كرِهوه، كما فرِحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خِلافَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

---

[1] س - تعالى.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة وأبي البرهسم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٩.

[3] قراءة شاذّة. ذكرها بلا نسبة الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ٢/٤٦٣؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٥/٤٧٤.

[4] م ط س: لأجل مخالفته [مكانَ "المعلَّل بمخالفته"، صُحّح في هامش م ط].

[5] ط س: والخوض. | يظهر في نسخة المؤلّف أثر الكشط والتصحيح، ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: لإخوانهم تثبيتًا لهم على التخلّف والقعودِ وتواصِيًا فيما بينهم بالشرّ والفساد، أو للمؤمنين تثبيطًا لهم عن الجهاد ونهيًا عن المعروف وإظهارًا لبعض العِلل الداعية لهم إلى ما فرِحوا به مِن القعود، فقد جمَعوا ثلاثَ خلالٍ مِن خِصال الكفر والضلال: الفرح بالقعود وكراهيّة الجهاد ونهي الغير عن ذلك: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾ فإنّه لا يُستطاع شدّته.

﴿قُلۡ﴾ ردًّا عليهم وتجهيلًا لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي ستدخلونها بما فعلتم ﴿أَشَدُّ حَرّٗا﴾ ممّا تَحذَرون مِن الحَرّ المعهود وتحذِّرون الناس منه، فما لكم لا تحذَرونها وتعرِضون أنفسَكم لها بإيثار القعود على النفير؟

﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ اعتراض تذييلي مِن جهته سبحانه وتعالى، غيرُ داخل تحت القول المأمور به، مؤكِّدٌ لمضمونه. وجواب ﴿لَوۡ﴾ إمّا مقدّر، أي: لو كانوا يفقَهون أنّها كذلك أو كيف هي أو أنّ مآلهم إليها، لَما فعلوا ما فعلوا، أو لَتأثّروا بهذا الإلزام؛ وإمّا غيرُ منوي على أنّ ﴿لَوۡ﴾ لمجرّد التمنّي المُنبئ عن امتناع تحقّق مدخولها، أي: لو كانوا مِن أهل الفطانة والفِقه، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس، ١٠/١٠١].

﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾

﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ إخبار عن عاجل أمرهم وآجلِه مِن الضحِك القليل والبُكاء الطويل المؤدِّي إليه أعمالهم السيّئةُ التي مِن جملتها ما ذُكر مِن الفرح. و"الفاء" لسببيّة ما سبق للإخبار بما ذُكر مِن الضحِك والبُكاء، لا لنفسهما؛ إذ لا يُتصوّر السببيّة في الأوّل أصلًا. و﴿قَلِيلٗا﴾ و﴿كَثِيرٗا﴾ منصوبانِ على المصدريّة أو الظرفيّة، / أي: ضَحِكًا قليلًا وبُكاءً كثيرًا، أو زمانًا قليلًا وزمانًا كثيرًا. [٤٣و]

وإخراجه في صورة الأمر للدلالة على تحتّم وقوع المخبَر به، فإنّ أمر الآمر المُطاع ممّا لا يكاد يتخلّف عنه المأمورُ به؛ خلَا أنّ المقصود إفادتُه في الأوّل هو وصفُ القلّة فقط، وفي الثاني وصفُ الكثرة مع الموصوف. يُروَى

أنّ أهل النفاق يبكُون في النار عُمُرَ الدنيا، لا يرقأ لهم دمعٌ[١] ولا يكتحِلون بنوم.[٢] ويجوز أن يكون الضحِك كنايةً عن الفرح والبكاءُ عن الغمّ، وأن يكون القلّة عبارةً عن العدم والكثرةُ عن الدوام.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مِن فنون المعاصي. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجدّدي ما داموا في الدنيا. و﴿جَزَآءَ﴾ مفعول له للفعل الثاني، أي: لِيَبكُوا جزاءً، أو مصدرٌ حُذف ناصبه، أي: يُجزَون بما ذُكر مِن البُكاء الكثير جزاءً بما كَسَبوا مِن المعاصي المذكورة.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ۝٨٣﴾

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ "الفاء" لتفريع الأمر الآتي على ما بُيّن مِن أمرهم، والفعلُ مِن "الرَّجْع" المتعدّي، دون "الرجوع" اللازم، أي: فإنْ ردّك الله تعالى ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: إلى المنافقين مِن المتخلِّفين في المدينة، فإنّ تخلّف بعضهم إنّما كان لعُذر عائق مع الإسلام، أو إلى مَن بقي مِن المنافقين المتخلِّفين بأن ذهب بعضهم بالموت أو بالغَيبة عن البلد أو بأن لم يستأذن البعض. عن قتادة: «أنّهم كانوا اثنَي عشرَ رجلًا، قيل فيهم ما قيل».[٣]

﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه، ﴿فَقُل﴾ إخراجًا لهم عن ديوان الغُزاة، وإبعادًا لمحلّهم مِن محفل صحبتك: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ / مَعِيَ عَدُوًّا﴾ مِن الأعداء. وهو إخبار في معنى النهي للمبالغة. وقد وقع كذلك. [٤٣ظ]

﴿إِنَّكُمۡ﴾ تعليل لِما سلف، أي: لأنكم ﴿رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ﴾ أي: عن الغزو فرِحتم بذلك ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ هي غزوة تبوكَ، ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾ "الفاء" لتفريع الأمر بالقعود بطريق العقوبة على ما صدر عنهم مِن الرِّضا بالقعود، أي: إذ رضِيتم

---

[١] رقأ الدمع يرقأ رَقْأً ورُقوءًا: سكَنَ. **الصحاح** للجوهري، «رقأ».

[٢] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧٨/٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٩٦/٢.

[٣] **جامع البيان** للطبري، ٦٠٩/١١؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٩٧/٢.

بالقعود أوّلَ مرّة، فاقعُدوا مِن بعدُ ﴿مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ أي: المتخلِّفين الذين دَيْدنهم[1] القعود والتخلّفُ دائمًا. وقُرِئ: "الخَلِفِينَ"[2] على القَصر. فكان مَحْو أساميهم عن دفتر المجاهدين ولزُّهم في قَرَن الخالفين عقوبةً لهم أيَّ عقوبةٍ. وتذكير اسم التفضيل المضاف إلى المؤنّث هو الأكثر الدائرُ على الألسِنة، فإنّك لا تكاد تسمع قائلًا يقول: "هي كُبرى امرأةٍ" أو "أُولى مرّةٍ".

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤﴾

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ﴾ صفة لـ﴿أَحَدٖ﴾، وإنّما جِيء بصيغة الماضي تنبيهًا على تحقّق الوقوع لا محالةَ. ﴿أَبَدٗا﴾ متعلِّق بالنهي، أي: لا تدعُ ولا تستغفِرْ لهم أبدًا، ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾ أي: لا تقِفْ عليه للدفن أو للزيارة والدعاء.

رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم، فلمّا مرِض رأسُ النفاق عبد الله بنُ أُبيّ ابنُ سَلولَ، بعَثَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليأتيَه، فلمّا دخل عليه قال عليه السلام: «أهلَكَك حُبُّ اليهود»، فقال: «يا رسول، بَعثتُ إليك لتستغفرَ لي، لا لتؤنِّبني»، وسأله أن يكفِّنه في شِعاره الذي يلي جِلدَه ويصلّيَ عليه، فلمّا مات دعاه ابنُه، وكان مؤمنًا صالحًا، فأجابه عليه السلام تسليةً له ومراعاةً لجانبه، وأرسل إليه قميصه، فكفِّن فيه، فلمّا همّ بالصلاة -أو صلّى- نزلت.[3]

وعن عمرَ رضي الله عنه أنّه قال: «لمّا هلك عبدُ الله بن أُبيّ / ووضعناه [٤٤و] ليصلّى عليه، قام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقلتُ: "أتصلِّي على عدوّ الله القائلِ يومَ كذا كذا وكذا والقائلِ يومَ كذا كذا وكذا؟"، وعدّدتُ أيّامَه الخبيثة، فتبسَّمَ عليه السلام، وصلّى عليه، ثمّ مشى معه وقام على حُفرته حتّى دُفن،

---

[1] الدَّيْدَنُ: الدأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

[2] وفي هامش م: بدون صيغة الفاعل. | وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن مالك بن دينار. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢١٩.

[3] انظر: جامع البيان للطبري، ١١/٦١٤-٦١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٦-٢٩٧.

فوالله ما لبِث إلّا يسيرًا حتّى نزل ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾... إلى آخره، فما صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك على منافق، ولا قام على قبره».[1]

وإنّما لم يُنْهَ عن التكفين بقميصه عليه السلام؛ لأنّ الضِّنّة[2] بالقميص كانت مظِنّةَ الإخلال بالكرم، على أنّه كان مكافأةً لقميصه الذي كان ألبسه العبّاسَ رضي الله عنه حين أُسر ببدرٍ، والخبرُ مشهور.[3]

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تعليل للنهي على معنى أنّ الاستغفار للميّت والوقوفَ على قبره إنّما يكون لاستصلاحه، وذلك مستحيل في حقّهم؛ لأنّهم استمرّوا على الكفر بالله ورسولِه مدّةَ حياتهم، ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: متمرِّدون في الكفر خارجون عن حدوده، كما بُيّن مِن معنى الفِسق.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ تكرير لِما سبق وتقرير لمضمونه بالإخبار بوقوعه.[4] ويجوز أن يكون هذا في حقّ فريقٍ غيرِ الفريق الأوّل.

وتقديم "الأموال" في أمثال هذه المواقع على "الأولاد" -مع كونهم أعزَّ منها- إمّا لعموم مساس الحاجة إليها بحسب الذات وبحسب الأفراد والأوقات، فإنّها ممّا لا بدّ منه لكلّ أحد مِن الآباء والأمّهات والأولاد في كلّ وقت وحينٍ، حتّى إنّ مَن له أولادٌ ولا مالَ له، فهو وأولادُه في ضيق ونَكالٍ، وأمّا الأولاد فإنّما يرغب فيهم مَن بلغ مبلغَ الأُبّوة؛ وإمّا لأنّ المال مَناط لبقاء النفس، والأولاد لبقاء النوع؛ وإمّا لأنّها أقدمُ في الوجود مِن الأولاد؛ لأنّ الأجزاء المَنويّة / إنّما تحصل مِن الأغذِية، كما سيأتي في سورة الكهف.[5] [٤٤ظ]

---

[1] انظر: صحيح البخاري، ٩٧/٢ (١٣٦٦)؛ وجامع البيان للطبري، ٦١٢/١١-٦١٣.

[2] الضِّنّ والضِّنّة والمَضنّة، كلّ ذلك مِن الإمساك والبُخل، تقول: رجل ضَنين. كتاب العين للخليل بن أحمد، ١٠/٧ «باب الضاد مع النون».

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٩٨/٢-٢٩٩.

[4] وفي هامش م: الموت وهو كافر. «منه».

[5] انظر: تفسير الكهف، ٣٧/١٨.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بما متَّعهم به مِن الأموال والأولاد ﴿أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بسبب معاناتهم المشاقَّ ومكابدتِهم الشدائدَ في شأنها، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتّع بها والالتهاءِ عن النظر والتدبّر في العواقب.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ مِن القرآن، ويجوز أن يُراد بها بعضها، ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ ﴿أَنْ﴾ مفسِّرة لِما في الإنزال مِن معنى القول والوحي، أو مصدريّةٌ حُذف عنها الجارّ، أي: بأن آمِنوا ﴿وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾ لإعزاز دينه وإعلاءِ كلمته، ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي: ذَوُوا الفضل والسَّعة والقدرة على الجهاد بدنًا ومالًا، ﴿وَقَالُواْ﴾ عطفٌ تفسيريٌّ لـ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾، مُغنٍ عن ذكر ما استأذَنوا فيه، يعني: القعود. ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي: الذين قعَدوا عن الغزو لِما بهم مِن عُذر.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿رَضُواْ﴾ استئناف لبيان سُوء صنيعهم وعدمِ امتثالهم لكِلا الأمرين، وإن لم يرُدّوا الأوّل صريحًا. ﴿بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ مع النساء اللاتي شأنُهنّ القعود ولزومُ البيوت. جمعُ "خالفة". وقيل: الخالفة: مَن لا خيرَ فيه. ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الإيمان بالله وطاعتِه في أوامره ونواهيه واتّباع رسوله عليه السلام والجهادِ مِن السعادة، وما في أضداد ذلك مِن الشقاوة.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ / بالله وبما جاء مِن عنده تعالى. وفيه [٤٥و] إيذان بأنّهم ليسوا مِن الإيمان بالله في شيء، وإن لم يُعرِضوا عنه صريحًا إعراضَهم عن الجهاد باستئذانهم في القعود. ﴿جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي:

إنْ تخلَّفَ هؤلاء عن الغزو، فقد نهَدَ إليه ونهَض له مَن هو خيرٌ منهم وأخلصُ نيّةً ومعتقَدًا، وأقاموا أمر الجهاد بكِلا نوعَيه، كقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام، ٨٩/٦].

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لَهُمُ﴾ بواسطة نعوتهم المزبورة ﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ أي: منافعُ الدارَين: النصرُ والغنيمةُ في الدنيا، والجنّةُ والكرامةُ في العُقبى، وقيل: الحُورُ، كقوله عزّ قائلًا: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن، ٧٠/٥٥]. وهي جمعُ "خَيْرة" تخفيفِ "خيِّرة".

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بالمطلوب، لا مَن حاز بعضًا مِن الحظوظ الفانية عمّا قليل. وتكرير اسم الإشارة تنويهٌ لشأنهم ورَبْءٌ لمكانهم.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ استئناف لبيان كونهم مفلِحين، أي: هيّأ لهم في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدَّرةٌ مِن الضمير المجرور، والعامل ﴿أَعَدَّ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما فُهم مِن إعداد الله سبحانه لهم الجنّاتِ المذكورةَ مِن نَيل الكرامة العُظمى. ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ وراءَه.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ شروع في بيان أحوال منافقي الأعراب إثرَ بيان منافقي أهل المدينة. و﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ مِن "عذَّر في الأمر" إذا قصَّر فيه وتوانَى ولم يَجِدَّ، وحقيقته أن يوهِم أنّ له عذرًا فيما يفعل، ولا عذرَ له؛ أو "المعتذِرون" بإدغام التاء في الذال ونقلِ حركتها إلى العين، وهم المعتذرون بالباطل. وقُرئ: "المُعْذِرُونَ"[١] / مِن "الإعذار"، وهو الاجتهاد في العذر والاحتشادُ فيه. [٤٥ظ]

---

[١] قراءة شاذّة. مرويّة عن مجاهد. جامع البيان للطبري، ٦٢٢/١١.

قيل: هم أسَدٌ وغطَفانُ، قالوا: «إنّ لنا عِيالًا، وإنّ بنا لجَهدًا، فائذَنْ لنا في التخلّف».[١] وقيل: هم رَهْطُ عامر بن الطفيل، قالوا: «إنْ غزَوْنا معك أغارت أعرابُ طَيّ على أهالينا ومواشينا»، فقال عليه السلام: «سيُغنيني اللهُ تعالى عنكم».[٢] وعن مجاهد: «نفرٌ مِن غِفار، اعتذروا، فلم يعذرهم الله سبحانه».[٣] وعن قتادة: «اعتذروا بالكذِب».[٤]

وقُرئ: "المُعَّذِّرُونَ"[٥] بتشديد العين والذال، مِن "تعذَّر" بمعنى "اعتذر"، وهو لحنٌ؛ إذ التاءُ لا تُدغَم في العين إدغامَها في الطاء والزاي والصاد في "المُطَّوِّعين" و"ازَّكّى" و"اصَّدَّقَ".

وقيل: أريدَ بهم المعتذِرون بالصحّة،[٦] وبه فُسّر ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ و"المُعذِرون"، أي: الذين لم يفرِّطوا في العُذر.

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهم منافقوا الأعراب الذين لم يَجيئوا ولم يعتذِروا، فظهر أنّهم كذَبوا الله ورسولَه في ادّعاء الإيمان والطاعة.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: مِن الأعراب، أو مِن المعتذِرين؛ فإنّ منهم مَن اعتذر لكسله، لا لكفره. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا، والنارِ في الآخرة.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ كالهَرمَى والزَّمنَى، ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ لفقرهم، كمُزَينةَ وجُهينةَ وبني عذرةَ، ﴿حَرَجٌ﴾ إثمٌ في التخلّف،

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٠؛ تفسير الرازي، ١٦/١٢٠.

[٢] التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٥٨٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٠.

[٣] جامع البيان للطبري، ١١/٦٢١؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٠.

[٤] جامع البيان للطبري، ١١/٦٢١؛ التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٥٩١.

[٥] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/٣٠٠.

[٦] قال الطيبي في فتوح الغيب، ٧/٣٢٤: «قوله: "وقيل: أريدَ المعتذِرون بالصحّة"، أي: بالحقّ، لا بالباطل».

﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهو عبارة عن الإيمان بهما والطاعةِ لهما في السرّ والعلَن وتولِّيهما في السرّاء والضرّاء، والحُبُّ[1] فيهما والبُغضُ فيهما كما يفعل المُوالِي الناصحُ بصاحبه.

[٤٦و] ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ / مِن سَبِيلٍ﴾ استئناف مقرِّرٌ لمضمون ما سبق، أي: ليس عليهم جُناح، ولا إلى معاتَبتهم سبيل. و﴿مِنْ﴾ مَزيدة للتأكيد. ووضع ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ موضعَ الضمير للدلالة على انتظامهم بنُصحهم لله ورسولِه في سِلك المحسِنين. أو[2] تعليلٌ لنفي الحَرَج عنهم، أي: ما على جنس المحسنين مِن سبيل، وهم مِن جملتهم.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييل مؤيِّدٌ لمضمون ما ذُكر، مشيرٌ إلى أنّ بهم حاجةً إلى المغفرة، وإن كان تخلّفُهم بعذرٍ.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كما يُؤذن به قوله عزّ وجلّ فيما سيأتي: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ الآية. وقيل: عطفٌ على ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾.

وهم البكّاءُون، سبعةٌ مِن الأنصار: مَعقِل بن يسار وصخر بن خنساءَ وعبد الله بن كعب وسالم بن عميرٍ وثعلبة بن غَنَمةَ[3] وعبد الله بن مَعقِل وعليّة بن زيد، أتَوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا: «نذَرْنا الخروج، فاحمِلْنا على الخِفاف المرقوعة والنِّعالِ المخصوفة، نَغزُ معك»، فقال عليه السلام: «لا أجد»، فتولّوا وهم يبكون.[4] وقيل: هم بنو مُقرِّن: مَعقِل وسُويد ونعمان.[5] وقيل: أبو موسى الأشعري وأصحابُه.[6]

---

١ كذا ضبطها المصنّف.
٢ السياق: استئناف مقرِّرٌ... أو تعليلٌ...
٣ كذا ضبطها المصنّف.
٤ هو مع اختلاف في ضبط بعض الأسماء في جامع البيان للطبري، ٦٢٦/١١-٦٢٧؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٨١/٥؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٦٢.
٥ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٦٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٣/٣.
٦ اللباب لابن عادل، ١٧٥/١٠. وانظر: صحيح البخاري، ٨٩/٤-٩٠ (٣١٣٣)؛ وصحيح مسلم، ١٢٦٨/٣ (١٦٤٩).

﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حال مِن "الكاف" في ﴿أَتَوْكَ﴾ بإضمار "قد". و﴿مَا﴾ عامّةٌ لِما سألوه عليه السلام وغيرِه ممّا يُحمل عليه عادةً. وفي إيثار ﴿لَآ أَجِدُ﴾ على "ليس عندي" مِن تلطيف الكلام وتطييبِ قلوب السائلين ما لا يخفى، كأنّه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار، فلا يجده.

﴿تَوَلَّوا۟﴾ جواب ﴿إِذَا﴾. ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ أي: تَسيل بشدّة ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أي: دمعًا؛ فإنّ ﴿مِنْ﴾ البيانيّة مع مجرورها في حيّز النصب على التمييز، وهو أبلغُ مِن "يَفيض دمعُها" لإفادتها أنّ العين بعينها صارت دمعًا فيّاضًا. والجملة حاليّة.

وقوله عزّ اسمه: / ﴿حَزَنًا﴾ نصبٌ على العلّيّة أو الحاليّة أوالمصدريّة لفعلٍ دلَّ عليه ما قبله، أي: تفيض[1] للحزن، فإنّ[2] الحزن يُسنَد إلى العين مجازًا كالفيض، أو تولَّوا له،[3] أو حزِنين، أو يحزَنون حزنًا، فيكون هذه الجملة حالًا مِن الضمير في ﴿تَفِيضُ﴾. [٤٦ظ]

﴿أَلَّا يَجِدُوا۟﴾ على حذفِ لامٍ متعلِّقةٍ بـ﴿حَزَنًا﴾ أو ﴿تَفِيضُ﴾، أي: لئلّا يجدوا ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في شراء ما يحتاجون إليه؛ إذ لـم يجدوه عندك.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتَبة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ في التخلّف ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ واجدون لأُهْبة الغَزو مع سلامتهم.

﴿رَضُوا۟﴾ استئناف تعليلي لِما سبق، كأنّه قيل: ما بالُهم استأذَنوا وهم أغنياءُ؟ فقيل: رضُوا ﴿بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ الذين شأنُهم الضَّعة والدناءة، ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: خذَلهم، فغفلوا عن وخامة العاقبة، ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أبدًا غائلةَ ما رضُوا به وما يستتبعه آجلًا، كما لـم يعلموا بخساسة شأنه عاجلًا.

---

[1] س: يفيض.

[2] وفي هامش م: توجبه لانتصابه. «منه».

[3] أي: للحزن.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤﴾

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾ استئناف لبيان ما يتصدَّون له عند القُفول إليهم. رُوي أنّهم كانوا بِضعةً وثمانين رجلًا، فلمّا رجع عليه السلام إليهم جاءوا يعتذرون إليه بالباطل.[١] والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابِه، فإنّهم كانوا يعتذرون إليهم أيضًا؛ لا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقط. أي: يعتذرون إليكم في التخلّف ﴿إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ مِن الغزو مُنتهين ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ وإنّما لم يُقَل: "إلى المدينة" إيذانًا بأنّ مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم، لا الرجوعُ إلى المدينة، فلعلّ منهم مَن بادر إلى الاعتذار قبل الرجوع إليها.

﴿قُل﴾ تخصيص هذا الخطاب برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد تعميمه فيما سبق لأصحابه أيضًا لِما أنّ الجواب وظيفتُه عليه السلام، وأمّا اعتذارُهم، فكان شاملًا للمسلمين شمولَ الرجوع للكلّ.[٢]

﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾ أي: لا تفعلوا الاعتذار، كقوله تعالى: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون، ١٠٨/٢٣]، أو لا تعتذِروا بما عندكم مِن المعاذير. وأمّا التعرّض لعنوان كذبها، فلا يساعده / قوله عزّ وجلّ:[٣] ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ أي: لن نصدِّقَكم في ذلك أبدًا؛ فإنّه استئناف تعليليٌّ للنهي، مبنيٌّ على سؤالٍ مِن قِبلهم متفرّعٍ على ادّعاء الصدق في الاعتذار، كأنّهم قالوا: لِمَ لا نعتذر؟ فقيل: لأنّا لا نصدّقكم أبدًا، فيكون عبثًا، إذ لا يترتّب عليه غرض المعتذِر. [٤٧و]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ﴾ تعليل لانتفاء التصديق، أي: أَعْلَمَنا بالوحي بعضَ أخباركم المنافيةِ للتصديق ممّا باشرتموه مِن الشرّ والفساد، وأضمرتموه في ضمائركم، وهيّأتموه للإبراز في معرض الاعتذار مِن الأكاذيب.

---

[١] معالم التنزيل للبغوي، ٨٥/٤؛ اللباب لابن عادل، ١٧٦/١٠.

[٢] م ط س: لهم [صُحّح في هامش م ط].

[٣] س: تعالى.

وجمعُ ضمير المتكلّم في الموضعَين للمبالغة في حسم أطماعهم مِن التصديق رأسًا ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد مِن المؤمنين أصلًا، فإنّ تصديق البعض لهم ربّما يُطمعهم في تصديق الرسول أيضًا صلّى الله عليه وسلّم بواسطة المصدِّقين، وللإيذان بافتضاحهم بين المؤمنين كافّةً.

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فيما سيأتي، أتُنِيبون إليه تعالى ممّا أنتم فيه مِن النفاق أم تثبُتون؟ وكأنّه استتابة وإمهال للتوبة. وتقديم مفعول الرؤية على ما عُطف على فاعله مِن قوله تعالى: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ للإيذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتِهما، وللإشعار بأنّ مدار الوعيد هو علمه عزّ وجلّ بأعمالهم.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ يومَ القيامة ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ للجزاء بما ظهر منكم مِن الأعمال. ووضعُ المُظهَر موضعَ المُضمَر لتشديد الوعيد، فإنّ علمه سبحانه وتعالى بجميع أعمالهم الظاهرة والباطنةِ وإحاطتَه بأحوالهم البارزة والكامنةِ ممّا يوجِب الزجرَ العظيم.

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ عَقيبَ[1] ردِّكم إليه ووقوفِكم بين يديه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار مِن الأعمال السيّئة السابقة واللاحقة، على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة، والعائد إليها محذوف، أو بعملكم المستمرّ، على أنّها مصدريّة. والمراد بالتنبئة بذلك المجازاةُ به، وإيثارُها عليها لمراعاة ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾... إلخ، / فإنّ المنبَّأَ به الأخبارُ المتعلّقةُ [٤٧ظ] بأعمالهم، وللإيذان بأنّهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم، وإنّما يعلمونها يومئذ.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ تأكيدًا لمعاذيرهم الكاذبة وتقريرًا لها. و"السين" للتأكيد. والمحلوف عليه محذوفٌ يدلّ عليه الكلام، وهو ما اعتذروا به

[1] م ط س: عند [صُحّح في هامش م ط].

مِن الأكاذيب. والجملة بدل مِن ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ أو بيان له. ﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ أي: انصرفتم مِن الغزو ﴿إِلَيْهِمْ﴾ ومعنى الانقلاب هو الرجوع والانصراف مع زيادة معنى الوصول والاستيلاء. وفائدة تقييد حلفهم به الإيذانُ بأنّه ليس لدفع ما خاطبهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم به مِن قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾... إلخ؛[١] بل هو أمرٌ متبدَأٌ.

﴿لِتُعْرِضُواْ﴾ وتصفَحوا ﴿عَنْهُمْ﴾ صفْحَ رِضًا، فلا توبّخوهم ولا تعاتبوهم، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾.[٢]

﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ لكن لا إعراضَ رضًا كما هو طِلبتهم؛ بل إعراضَ اجتناب ومَقت، كما يُعرب عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ فإنّه صريح في أنّ المراد بالإعراض عنهم إمّا الاجتناب عنهم لِما فيهم مِن الرجس الروحانيّ، وإمّا تركُ استصلاحهم بترك المعاتبة؛ لأنّ المقصود بها التطهيرُ بالحمل على الإنابة، وهؤلاء أرجاسٌ لا تقبَل التطهير، فلا يُتعرّض لهم بها.[٣]

وقوله عزّ وعلا: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ إمّا مِن تمام التعليل، فإنّ كونهم مِن أهل النار مِن دواعي الاجتناب عنهم وموجِباتِ ترك استصلاحهم باللوم والعتاب، وإمّا تعليل مستقلّ، أي: وكفَتْهم النارُ عتابًا وتوبيخًا، فلا تتكلّفوا أنتم في ذلك.

﴿جَزَآءَۢ﴾ نصبٌ على أنّه مصدرٌ مؤكِّد لفعل مقدَّر مِن لفظه وقع حالًا، أي: يُجزَون جزاءً، أو لمضمون الجملة السابقة، فإنّها مفيدة لمعنى المُجازاة قطعًا، كأنّه قيل: مجزيّون جزاءً ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا مِن فنون السيّئات، أو على أنّه مفعول له.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾

[٤٨و] ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ بدلٌ ممّا سبق. وعدمُ ذكر المحلوف به لظهوره، / أي: يحلِفون به تعالى ﴿لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾ بحلفهم وتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية التالية.

[٣] أي: بالمعاتبة

﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ حسبما راموا وساعدتُموهم في ذلك، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي: فإنّ رِضاكم عنهم لا يُجديهم نفعًا؛ لأنّ الله ساخطٌ عليهم، ولا أثرَ لرِضاكم عند سخطه سبحانه. ووضعُ ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجِبِ[1] لِما حلَّ بهم مِن السخط، وللإيذان بشمول الحُكم لمَن شاركهم في ذلك.

والمراد به نهيُ المخاطَبين عن الرضا عنهم والاغترارِ بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجهٍ وآكَدِه؛ فإنّ الرضا عمّن لا يرضى عنه الله تعالى ممّا لا يكاد يصدر عن المؤمن. وقيل إنّما قيل ذلك لئلّا يتوهَّمَ متوهِّمٌ أنّ رضا المؤمنين مِن دواعي رضا الله تعالى.

قيل: هم جدُّ بن قيس ومعتِّب بن قُشير وأصحابُهما، وكانوا ثمانين منافقًا، فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم للمؤمنين حين قدِم المدينةَ: «لا تُجالِسوهم ولا تكلِّموهم».[2] وقيل: جاء عبد الله بن أبيّ، يَحلِف ألّا يتخلّفَ عنه أبدًا.[3]

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ هي صيغةُ جمعٍ، وليست بجمع لـ"العرب" -قاله سيبويه-[4] لئلّا يلزمَ كونُ الجمع أخصَّ مِن الواحد؛ فإنّ "العرب" هو هذا الجِيل الخاصُّ سواء سكن البواديَ أم القُرى، وأمّا "الأعراب" فلا يطلَق إلّا على مَن يسكن البواديَ؛ ولهذا نُسب إلى "الأعراب" على لفظه فقيل: "أعرابيّ". قال أهل اللغة: "رجلٌ عربيٌّ"، وجمعُه: "العرب"، كما يقال: "مجوسيٌّ" و"يهوديٌّ"، ثمّ يحذَف ياء النسب في الجمع فيقال: "المجوس" و"اليهود"؛ و"رجلٌ أعرابيٌّ". ويُجمَع على "الأعراب" و"الأعاريب".[5]

---

[1] صفة "الخروج".

[2] **الكشف والبيان للثعلبي**، ٨٢/٥؛ **الكشّاف للزمخشري**، ٣٠٢/٢.

[3] **تفسير مقاتل بن سليمان**، ١٩١/٢؛ **الكشّاف للزمخشري**، ٣٠٢/٢.

[4] **كتاب سيبويه**، ٣٧٩/٣.

[5] انظر: **تهذيب اللغة للأزهري**، ٢١٨/٢ «باب العين والراء مع الباء».

أي: أصحابُ البَدْو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ مِن أهل الحَضَر لجفائهم وقسوةِ قلوبهم وتوحّشِهم ونَشْئِهم في مَعزِل مِن مشاهدة العلماء ومفاوضتهم. وهذا مِن باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء، ٦٧/١٧]؛ إذ ليس كلُّهم كما ذُكر، على ما ستُحيط به خُبرًا.

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟﴾ أي: أحقُّ وأخلقُ بألّا يعلموا ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ لبُعدهم عن مجلسه صلّى الله عليه وسلّم وحِرمانِهم مِن مشاهدة معجزاته ومعاينةِ ما ينزل عليه مِن الشرائع في تضاعيف الكتاب والسنّة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال كلٍّ مِن أهل الوَبَر والمَدَر،[1] ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يُصيب به مُسيئَهم ومُحسِنَهم مِن العقاب والثواب.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ شروع في بيان تشعّب جنس الأعراب إلى الفريقين وعدمِ انحصارهم في الفريق المذكور كما يتراءى مِن ظاهر النظم الكريم، وشرحٌ لبعض مثالب هؤلاء المتفرّعةِ على الكفر والنفاق بعد بيان / تَماديهم فيهما. [٤٨ظ]

وحملُ ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾ على الفريق المذكور خاصّةً، وإن ساعده كونُ مَن يُحكَى حاله بعضًا منهم -وهم الذين بصدد الإنفاق مِن أهل النفاق دون فقرائهم أو أعرابُ أسدٍ وغطفانَ وتميمٍ كما قيل-[2] لكنْ لا يساعده ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ﴾... إلخ؛ فإنّ أولئك ليسوا مِن هؤلاء قطعًا، وإنّما هم مِن الجنس، أي: ومِن جنس الأعراب الذي نُعت بنعت بعض أفراده ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ مِن المال، أي: يعُدّ ما يَصرفه في سبيل الله ويتصدّق به صورةً ﴿مَغْرَمًا﴾

---

[1] المَدَر: قِطَع الطِّين اليابس المتماسِك، أو الطِّينُ العِلْك الذي لا رَمْلَ فيه، واحدَتُه: مَدَرَة. والوَبَر: صُوف الإبل والأرانب ونحوها، جمعُه: أوبار. ومِن المجاز قول عامر بن الطفيل للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لنا الوَبَرُ ولكم المَدَرُ»، إنّما عنى به المُدُنَ أو الحضرَ؛ لأنّ مَبانيها إنّما هي بالمَدَر، وعنى بـ"الوَبَر" الأخبيةَ؛ لأنّ أبنية البادية بالوَبَر. انظر: **تاج العروس الزبيدي**، «مدر، وبر».

[2] انظر: **الكشف والبيان للثعلبي**، ٨٢/٥-٨٣.

أي: غرامةً وخسرانًا لازمًا؛ إذ لا يُنفقه احتسابًا ورجاءً لثواب الله تعالى ليكون له مغنمًا، وإنّما يُنفقه رياءً وتقيّةً، فهي غرامةٌ محضةٌ.

وما في صيغة الاتّخاذ مِن معنى الاختيار والانتفاعِ بما يُتّخَذ إنّما هو باعتبار غرض المنفِق مِن الرياء والتقيّة، لا باعتبار ذات النفقة، أعني: كونها غرامةً.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أصلُ "الدائرة" ما يُحيط بالشيء، والمراد بها ما لا مَحيصَ عنه مِن مصائب الدهر، أي: ينتظر بكم دوائرَ الدهر ونُوَبَه ودُوَلَه ليذهبَ غلبَتُكم عليه، فيتخلّصَ ممّا ابتُلِي به.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين على نهج الاعتراض، كقوله سبحانه: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة، ٦٤/٥] بعد قول اليهود ما قالوا. و"السَّوْء" مصدرٌ، ثمّ أُطلقَ على كلّ ضرَر وشرّ، وأضيفت إليه "الدائرة" ذمًّا، كما يقال: "رجلُ سَوْءٍ"؛ لأنّ مَن دارت عليه يذمّها.

وهي مِن باب إضافة الموصوف إلى صفته، فوُصِفت في الأصل بالمصدر مبالغةً، ثمّ أُضيفَت إلى صفتها، كقوله عزّ وجلّ: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم، ٢٨/١٩]. وقيل: معنى "الدائرة" يقتضي معنى "السَّوْء"، فإنّما هي إضافةُ بيانٍ وتأكيدٍ، كما قالوا: "شمسُ النهارِ ولَحْيَا رأسِه".

وقُرئ بالضمّ،[1] وهو العذاب، كما قيل له: سيّئة.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بما يقولونه عند الإنفاق ممّا لا خيرَ فيه، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يُضمرونه مِن الأمور الفاسدة التي مِن جملتها أن يتربّصوا بكم الدوائرَ. وفيه مِن شدّة الوعيد ما لا يخفى.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: مِن جنسهم على الإطلاق ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ / وَيَتَّخِذُ﴾ أي: يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاء والادّخار ﴿مَا يُنفِقُ﴾ أي: يُنفقه [٤٩و]

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٨٠/٢.

في سبيل الله تعالى ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ أي: ذرائعَ إليها. وللإيذان بما بينهما مِن كمال الاختصاص جُعِل كأنّه نفس القُرُبات. والجمع باعتبار أنواع القُرُبات أو أفرادِها. وهي ثاني مفعولَي ﴿يَتَّخِذُ﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ صفتُها أو ظرف لـ﴿يَتَّخِذُ﴾.

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: وسائلَ إليها، فإنّه عليه السلام كان يدعو للمتصدِّقين بالخير والبركة ويستغفر لهم؛ ولذلك سُنَّ للمصدَّق أن يدعوَ للمتصدِّق عند أخذ صدقته، لكنْ ليس له أن يصلّيَ عليه كما فعله صلّى الله عليه وسلّم حين[1] قال: «اللّهمّ صلِّ على آل أبي أوفى»؛[2] فإنّ ذلك مَنصِبه، فله أن يتفضّل به على مَن يشاء.

والتعرّض لوصف الإيمان بالله واليومِ الآخر في الفريق الأخير -مع أنّ مَساق الكلام لبيان الفرق بين الفريقين في شأن اتّخاذ ما يُنفقانِه حالًا ومآلًا، وأنّ ذكر اتّخاذه ذريعةً إلى القُرُبات والصلوات مُغنٍ عن التصريح بذلك- لكمال العناية بإيمانهم وبيانِ اتّصافهم به وزيادةِ الاعتناء بتحقيق الفرق بين الفريقين مِن أوّل الأمر؛ وأمّا الفريق الأوّل، فاتّصافهم بالكفر والنفاق معلومٌ مِن سياق النظم الكريم صريحًا.

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ شهادةٌ لهم مِن جناب الله تعالى بصحّة ما اعتقدوه وتصديقٌ لرجائهم. والضمير لِما يُنفَق، والتأنيث باعتبار الخبر، مع ما مرّ مِن تعدّده بأحد الوجهين.[3] والتنكير للتفخيم المُغني عن الجمع، أي: قُربةٌ عظيمةٌ لا يُكتَنهُ كُنهُها. وفي إيراد الجملة اسميّةً وتصديرِها بحرفَي التنبيه والتحقيقِ مِن الجزالة ما لا يخفى. والاقتصار على بيان كونها قُربةً لهم؛ لأنّها الغاية القُصوى، وصلوات الرسول مِن ذرائعها.

---

[1] س - حين.

[2] عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان إذا أتى رجل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بصدقته، قال: «اللّهمّ صلِّ عليه»، فأتاه أبي بصدقته، فقال: «اللّهمّ صلِّ على آل أبي أوفى». انظر: صحيح البخاري، ٧٧/٨ (٦٣٥٩)؛ وصحيح مسلم، ٧٥٦/٢-٧٥٧ (١٠٧٨). | وأبو أوفى هو: علقمة بن خالد بن الحارث بن أبي أسيد الأسلمي. له صحبة. كان مِن أصحاب الشجرة. انظر: الإصابة لابن حجر، ٢٥٣/٧.

[3] وفي هامش م: أي: باعتبار الأنواع أو الأفراد. «منه».

وقوله عزّ وجلّ:[١] ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ وعدٌ لهم بإحاطة رحمته الواسعةِ بهم وتفسيرٌ للقُربة، / كما أنّ قوله عزّ وعلا: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢] وعيدٌ للأوّلين عَقيبَ الدعاء عليهم. و"السين" للدلالة على تحقّق ذلك وتقرّرِه البتّةَ. [٤٩ظ]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تعليل لتحقّق الوعد على نهج الاستئناف التحقيقيّ.

قيل: هذا في عبد الله ذي البِجَادَيْن[٣] وقومِه،[٤] وقيل: في بني مُقرِّن مِن مُزَينةَ،[٥] وقيل: في أسلَمَ وغِفارٍ وجُهَينةَ؛[٦] وروى أبو هريرةَ رضي الله عنه أنّه قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أسلمُ وغِفارٌ وشيءٌ مِن جُهينةَ ومُزينةَ خيرٌ عند الله يومَ القيامة مِن تميمٍ وأسد بنِ خُزيمةَ وهوازِنَ وغَطَفانَ».[٧]

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ بيان لفضائل أشراف المسلمين إثرَ بيان فضيلةِ طائفةٍ منهم. والمراد بهم الذين صَلُّوا إلى القبلتين، أو الذين شهِدوا بدرًا،

---

١ س: تعالى.

٢ في الآية السابقة.

٣ وفي هامش م: البِجاد: الكِساء. «منه». | هو عبد الله بن عبد نُهْم المزني. سُمّي ذا البِجادَين؛ لأنّه حين أراد المَسير إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أعطته أمّه بِجادًا لها، شقّه باثنين، فاتّزر بواحد منهما وارتدى بالآخر. وقال ابن هشام: إنّما سُمّي كذلك؛ لأنّه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه مِن ذلك ويضيّقون عليه، حتّى تركوه في بِجاد له ليس عليه غيره، فهرب منهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا كان قريبًا منه شقّ بِجاده باثنين، فاتّزر بواحد واشتمل بالآخر، ثمّ أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقيل له: ذو البِجادين لذلك. ومات في عصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: **الاستيعاب** للنمري، ١٠٠٣/٣؛ **والإصابة** لابن حجر، ٢٦٠/٦-٢٦٢.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨٣/٥؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٩٥/٣.

٥ **جامع البيان** للطبري، ٦٣٥/١١-٦٣٦؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨٣/٥.

٦ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨٣/٥؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٨٦/٤.

٧ **صحيح البخاري**، ١٨٢/٤ (٣٥٢٨)؛ **صحيح مسلم**، ١٩٥٥/٤ (٢٥٢١).

أو الذين أسلموا قبل الهجرة. ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ أهلِ بَيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعةَ نفرٍ، وأهلِ بيعة العقبة الثانية، وكانوا سبعين رجلًا، والذين آمنوا حين قدِم عليهم أبو زُرارةَ مصعب بنُ عُمير. وقُرئ بالرفع[1] عطفًا على ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: ملتبِسين به. والمراد به كلّ خصلة حسنة. وهم اللاحقون بالسابقين مِن الفريقين، على أنّ ﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة، أو الذين اتّبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة، فالمراد بـ"السابقين" جميعُ المهاجرين والأنصار، و﴿مِنْ﴾ بيانيّةٌ.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ خبر للمبتدأ، أي: رضي الله عنهم بقبول طاعتهم وارتضاءِ أعمالهم، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما نالوه مِن رِضاه المستتبِعِ لجميع المطالب طُرًّا، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وقُرئ: "مِنْ تَحْتِهَا"،[2] كما في سائر المواقع. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ مِن غير انتهاء.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ وراءَه. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد لبيان بُعد منزلتهم في مراتب الفضل وعِظمِ الدرجة مِن مؤمني / الأعراب. [٥٠و]

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ شروع في بيان أحوال منافقي أهل المدينة ومَن حولها مِن الأعراب بعد بيان حال أهل البادية منهم، أي: ممّن حولَ بلدتِكم ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾ وهُمْ جُهَينةُ ومُزَينةُ وأسلمُ وأشجعُ وغِفارٌ، كانوا نازلين حولَها. ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ عطفٌ على ﴿مِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ عطفَ مفردٍ على مفردٍ.

وقوله تعالى: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ إمّا جملة مستأنَفة، لا محلَّ لها مِن الإعراب، مَسوقةٌ لبيان غلوّهم في النفاق إثرَ بيان اتّصافهم به، وإمّا صفة للمبتدأ المذكور،

---

[1] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٠.

[2] قرأ بها ابن كثير، وكذلك هي في مصاحف أهل مكّة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٠.

فُصل بينها وبينه بما عُطف على خبره، وإمّا صفة لمحذوف، أُقيمَت هي مُقامَه، وهو مبتدأ، خبرُه ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾، كما في قوله:

أنَــا ابــنُ جَــلَا وطَــلّاع الـثَّـنَـايَـا[1]

والجملة عطفٌ على الجملة السابقة، أي: ومِن أهل المدينة قومٌ مرَدوا على النفاق، أي: تمهّروا فيه؛ مِن "مرَنَ فلانٌ على عمله ومرَدَ عليه" إذا دَرِبَ به وضَرِيَ حتّى لانَ عليه ومهَرَ فيه؛ غيرَ أنّ "مرَدَ" لا يكاد يُستعمل إلّا في الشرّ.

فالتمرّد على الوجهين الأوّلَين شاملٌ للفريقين حسب شمول النفاق، وعلى الوجه الأخير خاصٌّ بمنافقي أهلِ المدينة، وهو الأظهر والأنسبُ بذكر منافقي أهل البادية أوّلًا، ثـمّ ذكرِ منافقي الأعراب المجاوِرين للمدينة، ثـمّ ذكرِ منافقي أهلها. والله تعالى أعلمُ.

وقوله عزّ شأنه: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ بيان لتمرّدهم، أي: لا تعرفهم أنت، لكنْ لا بأعيانهم وأسمائهم وأنسابهم؛ بل بعنوان نفاقهم، يعني: أنّهم بلغوا مِن المَهارة في النفاق والتنوّق في مراعاة التقيّة والتحامي عن مواقع التُّهَم إلى مَبلَغٍ يخفى عليك حالُهم، مع ما أنت عليه مِن علوّ الكَعْب وسموّ الطبقة في كمال الفِطنة وصدقِ الفِراسة.

وفي تعليق نفي العلم بهم / -مع أنّه متعلِّق بحالهم- مبالغةٌ في ذلك، [٥٠ظ] وإيماءٌ إلى أنّ ما هم فيه مِن صفة النفاق لعَراقتهم ورسوخِهم فيها صارت بمنزلة ذاتيّاتهم أو مشخِّصاتِهم، بحيث لا يُعَدّ مَن لا يعلمهم[2] بتلك الصفة عالمًا بهم.

وحملُ عدم علمه عليه السلام بأعيانهم على عدم علمه عليه السلام بعد مَجيء هذا البيان على أنّه عليه السلام يعلم أنّ فيهم منافقين، لكنْ لا يعلمهم بأعيانهم، مع كونه خلافَ الظاهر، عارٍ عمّا ذُكر مِن المبالغة.

---

[1] صدر بيت، عجزه:
متى أضَـعِ العِـمامـةَ تَعرِفوني
وهو لسُحَيم بن وَثيل الرِّياحي في كتاب سيبويه، ٢٠٧/٣؛ والأصمعيّات للأصمعي، ص ١٧؛ والصحاح للجوهري، «جلا». وانظر شرحه: خزانة الأدب للبغدادي، ٢٥٥/١-٢٦٨.

[2] م ط س: يعرفهم [صُحّح في هامش م ط].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ تقرير لِما سبق مِن مَهارتهم في فنّ النفاق، أي: لا يقف على سرائرهم المركوزة في ضمائرهم إلّا مَن لا تخفى عليه خافية؛ لِما هم عليه مِن شدّة الاهتمام بإبطان الكفر وإظهار الإخلاص. وفي تعليق العلم بهم -مع أنّ المقصود بيانُ تعلّقه بحالهم- ما مرّ في تعليق نفيه بهم.

وقوله عزّ شأنه: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ﴾ وعيد لهم وتحقيق لعذابهم حسبما علم الله فيهم مِن موجِباته. و"السين" للتأكيد. ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قام خطيبًا يومَ الجمعة، فقال: «اخرُجْ يا فلانُ، فإنّك منافقٌ؛ اخرُجْ يا فلانُ، فإنّك منافقٌ»، فأخرج ناسًا وفضَحَهم؛[1] فهذا هو العذاب الأوّل، والثاني إمّا القتل وإمّا عذاب القبر، أو الأوّل هو القتل، والثاني عذاب القبر، أو الأوّل أخذ الزكاة لِما أنّهم يعُدّونها مغرمًا بحتًا، والثاني نهكُ الأبدان وإتعابُها بالطاعات الفارغة عن الثواب.

ولعلّ تكريرَ عذابهم لِما فيهم مِن الكفر المشفوع بالنفاق أو النفاقِ المؤكَّدِ بالتمرّد فيه. ويجوز أن يكون المراد بـ"المرّتَين" مجرّدَ التكثير، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ[2] ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك، ٦٧/٤]، أي: كَرّةً بعد أخرى.

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ يومَ القيامة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ هو عذاب النار. وفي تغيير السَّبك بإسناد عذابهم السابق إلى نون العَظَمة حسب إسناد ما قبله مِن العلم وإسنادِ ردّهم إلى العذاب اللاحق إلى أنفسهم إيذانٌ باختلافهما حالًا، وأنّ الأوّل / خاصٌّ بهم وقوعًا وزمانًا، يتولّاه سبحانه وتعالى، والثاني شاملٌ لعامّة الكَفَرة وقوعًا وزمانًا، وإن اختلفت طبقات عذابهم. [٥١و]

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

---

[1] جامع البيان للطبري، ١١/٦٤٤-٦٤٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٦.

[2] م س: فارجع.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ بيان لحال طائفة مِن المسلمين ضعيفةِ الهِمَمِ في أمور الدين. وهو عطفٌ على ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾، أي: ومنهم، يعني: وممّن حولَكم ومِن أهل المدينة قومٌ آخَرون ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ التي هي تخلّفهم عن الغزو وإيثارُ الدَّعَة عليه والرضا[1] بسوء جوار المنافقين؛ وندِموا على ذلك، ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة، ولم يُخفُوا ما صدر عنهم مِن الأعمال السيّئة، كما فعله مَن اعتاد إخفاءَ ما فيه وإبرازَ ما ينافيه مِن المنافقين الذين اعتذروا بما لا خيرَ فيه مِن المعاذير المؤكَّدة بالأيمان الفاجرة حسب دَيْدنِهم[2] المألوف.

وهم رهطٌ مِن المتخلِّفين، أَوْثَقوا أنفسَهم على سَوارِي المسجد عندما بلغهم ما نزل في المتخلِّفين، فقدِم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، فدخل المسجد، فصلّى ركعتين حسب عادته الكريمة، ورآهم كذلك، فسأل عن شأنهم، فقيل: «إنّهم أقسموا ألّا يحُلّوا أنفسَهم حتّى تحُلَّهم»، فقال عليه السلام: «وأنا أُقسِم ألّا أحُلَّهم حتّى أُومَرَ فيهم»، فنزلت.[3]

﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ هو ما سبق منهم مِن الأعمال الصالحة والخروجِ إلى المغازي السابقة وغيرها وما لحِق مِن الاعتراف بذنوبهم في التخلّف عن هذه المرّة وتذمّمِهم وندامتِهم على ذلك. وتخصيصه بالاعتراف[4] لا يناسِب الخلطَ، لاسيّما على وجهٍ يُؤذِن بتوارد المختلطَين وكونِ كلٍّ منهما مخلوطًا ومخلوطًا به، كما يُؤذن به تبديلُ "الواو" بـ"الباء" في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾؛ فإنّ قولك: "خلطتُ الماءَ باللبَن" يقتضي إيرادَ الماء على اللبَن، دون العكسِ، وقولك: "خلطتُ الماء واللبَنَ"، معناه: إيقاع الخلط بينهما مِن غير دلالة على اختصاص أحدهما بكونه مخلوطًا والآخَرِ بكونه مخلوطًا به. وتركُ تلك الدلالة / للدلالة على جعل كلٍّ منهما متّصفًا بالوصفين جميعًا، وذلك [٥١ظ] فيما نحن فيه بورود كلٍّ مِن العملين على الآخَر مرّةً بعد أخرى. والمراد

---

١ وفي هامش م: عطفٌ على "إيثارُ". «منه».

٢ الدَّيْدَن: الدأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

٣ انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ٢٦٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٦/٢.

٤ يعني: تخصيص العمل الصالح باعترافهم بذنوبهم. خصّصه به البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩٦/٣؛ وابن عادل في اللباب، ١٩٦/١٠.

بـ"العمل السيّئ" ما صدر عنهم مِن الأعمال السيّئة أوّلًا وآخِرًا. وعن الكلبي: «التوبة والإثم».[١]

وقيل: "الواو" بمعنى "الباء"، كما في قولهم: "بِعتُ الشاءَ شاةً ودِرهمًا"، بمعنى: شاةً بدرهمٍ.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: يقبلَ توبتهم المفهومةَ مِن اعترافهم بذنوبهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن سيّئات التائب ويتفضّل عليه. وهو تعليل لِما يفيده كلمة ﴿عَسَى﴾ مِن وجوب القبول، فإنّها للإطماع الذي هو مِن أكرم الأكرمين إيجابٌ، وأيُّ إيجاب.

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ رُوي أنّهم لمّا أُطلِقوا قالوا: «يا رسولَ الله، هذه أموالنا التي خلّفَتْنا عنك، فتَصدَّقْ بها وطهِّرْنا»، فقال عليه السلام: «ما أُمرتُ أن آخذَ مِن أموالكم شيئًا»، فنزلت؛[٢] فليست هي الصدقةَ المفروضةَ لكونها مأمورًا بها، ولِما رُوي أنّه عليه السلام أخذ منهم الثُّلثَ وترَكَ لهم الثلثَين،[٣] فوقع ذلك بيانًا لِما في ﴿صَدَقَةٗ﴾ مِن الإجمال.

وإنّما هي كفّارة لذنوبهم حسبما يُنبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ أي: عمّا تلطّخوا به مِن أوضار التخلّف. و"التاء" للخطاب، والفعل مجزوم[٤] على أنّه جواب للأمر. وقُرئ بالرفع[٥] على أنّه حال مِن ضمير المخاطَب في ﴿خُذۡ﴾، أو صفة لـ﴿صَدَقَةٗ﴾، و"التاء" للخطاب، أو لـ"الصدقة"، والعائد على الأوّل محذوف ثقةً بما بعده. وقُرئ: "تُطْهِرُهُمْ"[٦] مِن "أطهَرَه" بمعنى "طهَّرَه".

---

[١] **التفسير البسيط** للواحدي، ٣١/١١؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٧/٢.

[٢] **جامع البيان** للطبري، ٦٥٩/١١؛ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٢٦٣.

[٣] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨٩/٥؛ **التفسير البسيط** للواحدي، ٣٣/١١.

[٤] أي: "تُطَهِّرْهُمْ". هي قراءة شاذّة غير منسوبة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٢٠؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٧/٢.

[٥] هي قراءة السبعة.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٢٠.

﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ بإثبات "الياء"، وهو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والجملة حال مِن الضمير في الأمر أو في جوابه، أي: وأنت تُزكِّيهم بها، أي: تُنمِي بتلك الصدقة حسَناتِهم إلى مراتب المخلصين أو أموالَهم، أو تُبالِغُ في تطهيرهم. هذا على قراءة الجزم في "تُطَهِّرْهُمْ".[1] وأمّا على قراءة الرفع، فسواء جُعل "التاء" للخطاب أو للصدقة، وكذا جُعلت الجملة الأولى حالًا مِن ضمير المخاطَب أو صفةً لـ"الصدقة" على الوجهين، فالثانيةُ عطفٌ على الأولى / حالًا وصفةً مِن غير حاجة إلى تقدير المبتدأ لتوجيه دخول "الواو" في الجملة الحاليّة. [٥٢و]

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واعطِفْ عليهم بالدعاء والاستغفار لهم، ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ وقُرئ: "صَلَوَاتِكَ"[2] مراعاةً لتعدّدِ المدعوّ لهم. ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تسكُن نفوسهم إليها وتطمئنّ قلوبهم بها، ويثِقون بأنّه سبحانه قَبِل توبتهم. والجملة تعليل للأمر بالصلاة عليهم.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع ما صدر عنهم مِن الاعتراف بالذنب والتوبةِ والدعاء، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم مِن الندم والغمّ لِما فرَط منهم ومِن الإخلاص في التوبة والدعاء؛ أو سميعٌ يُجيب دعاءَك لهم، عليمٌ بما يقتضيه الحكمة، والجملة حينئذ تذييل للتعليل مقرِّرٌ لمضمونه، وعلى الأوّل تذييل لِما سبق مِن الآيتين محقِّقٌ لِما فيهما.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ وقُرئ بالتاء.[3] والضمير إمّا للتائبين، فهو تحقيق لِما سبق مِن قبول توبتهم وتطهير الصدقة وتزكيتِها لهم، وتقريرٌ لذلك، وتوطينٌ لقلوبهم ببيان أنّ المتولّيَ لقبول توبتهم وأخذِ صدقاتهم هو الله سبحانه، وإن أُسندَ الأخذ

---

[1] هي قراءة شاذّة كما سبق.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة لابن مجاهد، ص ٣١٧؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٨١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٠.

والتطهير والتزكية إليه عليه السلام، أي: ألم يعلم أولئك التائبون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ الصحيحة الخالصةَ ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ المخلِصين فيها، ويتجاوز عن سيّئاتهم، كما يُفصح عنه كلمة ﴿عَنْ﴾. والمراد بهم إمّا أولئك التائبون، ووضعُ المُظهَر في موضع المُضمَر للإشعار بعلّيّة العبادة لقبولها، وإمّا كافّةُ العباد، وهم داخلون في ذلك دخولًا أوّليًّا.

﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يقبَل صدقاتِهم، على أنّ "اللام" عِوض عن المضاف إليه، أو جنسَ الصدقات المندرج تحته صدقاتُهم اندراجًا أوّليًّا، أي: هو الذي يتولّى قبولَ التوبة وأخْذَ الصدقات وما يتعلّق بها مِن التطهير والتزكية، وإن كنتَ أنتَ المباشِرَ لها ظاهرًا. / وفيه مِن تقرير ما ذُكر ورفعِ شأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على نهج قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح، ٤٨/١٠] ما لا يخفى. [٥٢ظ]

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تأكيد لِما عُطف عليه، وزيادةُ تقريرٍ لِما يقرّره، مع زيادةِ معنًى ليس فيه، أي: ألم يعلموا أنّه المختصّ المستأثرُ ببلوغ الغاية القُصوى مِن قبول التوبة والرحمة، وأنّ ذلك سنّة مستمرّة له وشأنٌ دائم.

والجملتان في حيّز النصب بـ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾، يسُدّ كلُّ واحدة منهما مَسدَّ مفعولَيه.

وإمّا[1] لغير التائبين مِن المؤمنين؛ فقد رُوي أنّهم قالوا لمّا تِيبَ على الأوّلين: «هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا، لا يكلّمون، ولا يجالَسون، فما لهم؟»، فنزلت،[2] أي: ألم يعلموا ما للتائبين مِن الخِصال الداعية إلى التكرمة والتقريب والانتظامِ في سِلك المؤمنين والتلقّي بحسن القبول والمجالسة؛ فهو ترغيب لهم[3] في التوبة والصدقة.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

---

[1] وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "إمّا للتائبين". «منه».

[2] جامع البيان للطبري، ١١/٦٦٤-٦٦٥؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٩١.

[3] وفي هامش م: لغير التائبين مِن المؤمنين. «منه».

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ زيادةُ ترغيبٍ لهم في العمل الصالح الذي مِن جملته التوبةُ، وللأوّلين في الثبات على ما هم عليه، أي: قلْ لهم بعد ما بانَ لهم شأنُ التوبة: اعمَلوا ما تشاءُون مِن الأعمال، فظاهرُه ترخيص وتخيير، وباطنُه ترغيب وترهيب.

وقوله عزّ وعلا: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ أي: خيرًا كان أو شرًّا، تعليلٌ لِما قبله وتأكيدٌ للترغيب والترهيب. و"السين" للتأكيد. ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ عطفٌ على الاسم الجليل. وتأخيره عن المفعول للإشعار بما بين الرؤيتين مِن التفاوت. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ في الخبر: «لو أنّ رجلًا عمِل في صخرةٍ لا بابَ لها ولا كُوّةَ، لَخرج عمله إلى الناس كائنًا ما كان».[1] والمعنى: أنّ أعمالكم غيرُ خافية عليهم كما رأيتم / وتبيَّنَ لكم. [٥٣و]

ثمّ إن كان المراد بالرؤية معناها الحقيقيَّ، فالأمر ظاهرٌ. وإن أريدَ بها مآلُها مِن الجزاء خيرًا أو شرًّا، فهو خاصٌّ بالدنيوي مِن إظهار المدح والثناء والذكر الجميل والإعزازِ ونحو ذلك مِن الأجزِية وأضدادها.

﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ أي: بعد الموت ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ في وضع الظاهر موضعَ المضمَر مِن تهويل الأمر وتربية المَهابة ما لا يخفى. ووجهُ تقديم ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ في الذكر لسعة عالَمِه وزيادةِ خطره على ﴿ٱلشَّهَٰدَةِ﴾ غنيٌّ عن البيان. وقيل: إنّ الموجوداتِ الغائبةَ عن الحواسّ عِللٌ أو كالعِلل للموجودات المحسوسة، والعلمُ بالعِلل علّةٌ للعلم بالمعلومات، فوجب سبقُ العلم بالغيب على العلم بالشهادة.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «الغيب: ما يُسرّونه مِن الأعمال، والشهادة: ما يُظهرونه»،[2] كقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [هود، ٥/١١]، فالتقديم حينئذ لتحقيقِ أنّ نسبة علمه المحيطِ بالسرّ والعَلَن واحدٌ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، بإيهامِ أنّ علمه تعالى بما يُسرّونه أقدمُ منه بما يُعلنونه. كيف لا،

---

[1] هو مرويّ مرفوعًا. انظر: المستدرك للحاكم، ٣٤٩/٤ (٧٨٧٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٢٠٨/٩ (٦٥٤١)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٤٠/١١.

[2] تفسير الرازي، ١٤٣/١٦؛ اللباب لابن عادل، ١٩٩/١٠.

وعلمه سبحانه بمعلوماته منزَّهٌ عن أن يكون بطريق حصول الصورة؛ بل وجودُ كلّ شيء وتحقّقُه في نفسه علمٌ بالنسبة إليه تعالى. وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأمور البارزة والكامنة.

وإمّا[١] للإيذان بأنّ مرتبة السرّ متقدِّمةٌ على رُتبة العَلَن، إذ ما مِن شيء يُعلَن إلّا وهو أو مَباديه القريبةُ أو البعيدةُ مضمَرٌ قبل ذلك في القلب، فتعلّقُ علمِه تعالى به في حالته الأولى متقدِّمٌ على تعلّقه به في حالته الثانية.

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ عَقيبَ الردّ الذي هو عبارة عن الأمر الممتدّ إلى يوم القيامة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قبل ذلك في الدنيا. والمرادُ بالتنبِئة بذلك الجزاءُ بحسبه، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ. / فهو وعد ووعيد. [٥٣ظ]

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطفٌ على ﴿ءَاخَرُونَ﴾[٢] قبله، أي: ومِن المتخلِّفين مِن أهل المدينة ومَن حولَها مِن الأعراب قومٌ آخَرون غيرُ المعترِفين المذكورين ﴿مُرْجَوْنَ﴾ وقُرئ: "مُرْجَئُونَ"[٣] مِن "أرجيتُه" و"أرجأتُه"، أي: أخّرتُه، ومنه: المُرجِئة الذين لا يقطعون بقبول التوبة. ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ في شأنهم.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٤] «هُمْ: كعب بن مالك ومُرارة بن الربيع وهلال بن أميّةَ، لم يسارِعوا إلى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لُبابةَ وأصحابُه مِن شدّ أنفسهم على السَّواري وإظهارِ الغمّ والجزَع والندمِ على ما فعلوا، فوقفهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، ونهى أصحابَه عن أن يسلِّموا عليهم ويكلّموهم، وكانوا مِن أصحاب بدر، فهجَروهم، والناسُ في شأنهم على اختلاف، فمِن قائلٍ: هلَكوا، وقائلٍ: عسى اللهُ أن يغفِر لهم، فصاروا عندهم مُرجَئين لأمره تعالى».[٥]

---

١ السياق: فالتقديم حينئذ لتحقيقِ أنّ... وإمّا للإيذان...
٢ التوبة، ١٠٢/٩.
٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٤٠٦/١.
٤ م - رضي الله عنهما.
٥ انظر: تفسير الرازي، ١٤٥/١٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٠١/١٠.

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن بَقُوا على ما هم عليه مِن الحال. وقيل:[1] إن أصرّوا على النفاق، وليس بذاك؛ فإنّ المذكورين ليسوا مِن المنافقين. ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن خلصت نيّتُهم ونَصَعت[2] توبتُهم. والجملة في محلّ النصب على الحاليّة، أي: منهم هؤلاء، إمّا معذَّبين، وإمّا مَتوبًا عليهم. وقيل: ﴿ءَاخَرُونَ﴾ مبتدأ، و﴿مُرْجَوْنَ﴾ صفتُه، وهذه الجملة خبره.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فعل بهم مِن الإرجاء وما بعده. وقُرئ: "وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ".[3]

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا﴾ عطفٌ على ما سبق، أي: ومنهم الذين، أو نصبٌ على الذمّ. وقُرئ بغير واو؛[4] لأنّها قصّة على حِيالها. ﴿ضِرَارًا﴾ أي: مضارّةً للمؤمنين. وانتصابه على أنّه مفعول له أو مفعولٌ ثانٍ لـ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، أو على أنّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعل مقدَّرٍ منصوبٍ على الحاليّة، أي: يضارّون بذلك ضِرارًا، أو على أنّه مصدر بمعنى الفاعل، وقع حالًا مِن ضمير ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، أي: مضارّين / للمؤمنين. [٥٤و]

رُوي أنّ بني عمرو بن عَوف لمّا بنَوا مسجدَ قُباءٍ بعَثوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يأتيَهم فيصلِّيَ بهم في مسجدهم، فلمّا فعله عليه الصلاة والسلام حسدَتْهم إخوتُهم بنو غنم بن عوف، وقالوا: «نَبني مسجدًا، ونُرسِل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلِّي فيه، ويصلِّي فيه أبو عامرٍ الراهبُ[5]

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩٧/٣.

[2] م ط س: صحّت [صُحّح في هامش م ط].

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٣٠٩/٢.

[4] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر، وكذا هي في مصاحف أهل المدينة والشام. النشر لابن الجزري، ٢٨١/٢.

[5] هو عبد عمرو بن صيفي بن النعمان الأوسي، أبو عامر. كان يناظر أهل الكتاب، ويميل إلى النصرانيّة، ويتتبع الرُّهبان ويألفهم، ويُكثر الشخوص إلى الشام، فسُمّي الراهبَ، فلمّا ظهر أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حسَدَه، ومرّ إلى مكّةَ، وقاتل مع قريش، ثمّ أتى الشام، فمات هناك. انظر: أنساب الأشراف للبلاذري، ٢٨١/١-٢٨٢.

أيضًا إذا قدِم مِن الشام»، وهو الذي سمّاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "الفاسقَ"، وقد كان قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ أُحد: «لا أجد قومًا يقاتلونك إلّا قاتلتُك معهم»، فلم يزل يفعل ذلك إلى يوم حُنين، فلمّا انهزمت هوازنُ يومئذ ولّى هاربًا إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين: «أن استعِدّوا بما استطعتم مِن قوّة وسلاح، فإنّي ذاهبٌ إلى قيصرَ، وآتٍ بجنود، ومُخرجٌ محمّدًا وأصحابَه مِن المدينة»، فبنَوا مسجدًا إلى جَنْب مسجد قُباءٍ وقالوا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «بنَيْنا مسجدًا لذي العلّة والحاجةِ والليلةِ المَطيرة والشاتية، ونحن نُحبّ أن تصلّيَ لنا فيه وتدعوَ لنا بالبركة»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي على جَناح سفرٍ وحالِ شُغلٍ، وإذا قدِمنا إن شاء الله[١] صَلّينا فيه»، فلمّا قفَلَ[٢] مِن غزوة تبوكَ سألوه عليه السلام إتيانَ المسجد، فنزلت عليه، فدعا بمالك بن الدُّخشُم[٣] ومَعنِ بنِ عَديّ[٤] وعامر بنِ السكَن[٥] ووحشيّ،[٦] فقال لهم: «انطلِقوا إلى هذا المسجد الظالمِ أهلُه، فاهدِموه وأحرِقوه»، ففُعل، وأمَرَ أن يُتخذ مكانُه كُناسةً تلقَى فيها الجيفُ والقُمامةُ، وهلك أبو عامر الفاسقُ بالشام بقِنَّسْرين.[٧]

---

[١] س + تعالى.

[٢] وفي هامش م: أي: رجع. «منه».

[٣] هو مالك بن الدُّخشُم بن مالك بن غنم، وقيل: مالك بن الدُّخشُم بن مالك بن الدُّخشُم بن مرضخة بن غنم. شهد العقبة في قول البعض. وشهد بدرًا وما بعدها مِن المَشاهد. انظر: **الاستيعاب** للنمري، ١٣٥٠/٣-١٣٥١؛ **وأُسد الغابة** لابن الأثير، ٢٠/٥.

[٤] هو مَعن بن عَديّ بن الجدّ بن العَجلان البلوي. شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والخندق وسائرَ المشاهد كلّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقُتل يومَ اليمامة شهيدًا في خلافة أبي بكر. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٦٥/٣؛ **والاستيعاب** للنمري، ١٣٥٠/٣-١٣٥١.

[٥] ذكر الثعلبي في **الكشف والبيان**، ٩٢/٥-٩٣: أنّه أحد مَن وجّه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لهدم مسجد الضِّرار.

[٦] هو وحشي بن حرب الحبشي، أبو دَسمة. قاتلُ حمزة بن عبد المطّلب رضي الله عنه، أسلَمَ بعد ذلك، وصحِب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وسمع منه أحاديثَ. وشرك في قتل مسيلمةَ الكذّاب، فكان يقول: «قتلتُ خير الناس، وقتلتُ شرّ الناس». ونزل حمص حتّى مات بها. انظر: **الاستيعاب** للنمري، ١٥٦٤/٤-١٥٦٦؛ **وأُسد الغابة** لابن الأثير، ٤٠٩/٥-٤١٠.

[٧] وفي هامش م: قِنَّسْرين: مدينة بينها وبين حلب مَسيرة يوم. «منه». | انظر: **سيرة ابن هشام**، ٥٢٩/٢-٥٣١؛ **وأسباب النزول** للواحدي، ص ٢٦٤-٢٦٥؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٣٠٩/٢-٣١٠.

﴿وَكُفۡرٗا﴾ تقويةً للكفر الذي يُضمرونه ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الذين كانوا يُصَلّون في مسجد قُباءٍ مجتمِعين، فيغتصّ بهم، فأرادوا أن يتفرّقوا ويختلفَ كلمتُهم. ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ إعدادًا وانتظارًا وترقّبًا ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ/ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهو الراهب الفاسق، [٥٤ظ] أي: لأجله حتّى يَجيءَ فيصلّيَ فيه ويظهرَ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، أي: اتّخذوه مِن قبل أن ينافِقوا بالتخلّف، حيث كانوا بنَوه قبل غزوة تبوكَ، أو بـ﴿حَارَبَ﴾، أي: حاربهما قبل اتّخاذ هذا المسجد.

﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ أي: ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ إلّا الخَصلةَ الحُسنى، وهي الصلاة وذكرُ الله والتوسعةُ على المُصلّين، أو الإرادةَ الحُسنى. ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في حلِفهم ذلك.

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾

﴿لَا تَقُمۡ﴾ للصلاة ﴿فِيهِ﴾ في ذلك المسجد حسبما دعَوْك إليه ﴿أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ﴾ أي: بُنِي أصله ﴿عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ يعني: مسجد قُباءٍ، أسّسه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وصلّى فيه أيّامَ مُقامه بقُباء، وهي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج يومَ الجمعة. وقيل: هو مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة. وعن أبي سعيد رضي الله عنه: سألت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن المسجد الذي أُسّس على التقوى، فأخذ حَصْباءَ، فضرب بها الأرضَ وقال: «هو مسجدكم هذا، مسجدُ المدينة».[١]

و"اللام" إمّا للابتداء، أو للقَسم المحذوف، أي: واللهِ لَمسجدٌ. وعلى التقديرين، فـ﴿مَسۡجِدٌ﴾ مبتدأ، وما بعده صفتُه، وقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ أي: مِن أيّام تأسيسه،[٢] متعلِّق بـ﴿أُسِّسَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أي: للصلاة وذكرِ الله تعالى، خبرُه.

---

١ صحيح مسلم، ١٠١٥/٢ (١٣٩٨)؛ جامع البيان للطبري، ٦٨٣/١١.

٢ وفي هامش م: وقيل: مِن أوّل يوم مِن أيّام وجوده، ولا يخفى ما في الكتاب مِن المبالغة. «منه». | قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣١١/٢.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ جملة مستأنَفة مبيِّنة لأحقّيّته لقيامه عليه السلام فيه مِن جهة الحال بعد بيان أحقّيّته له مِن حيث المحلُّ، أو صفةٌ أخرى للمبتدأ، أو حالٌ مِن الضمير في ﴿فِيهِ﴾. وعلى كلّ حال، ففيه تحقيقٌ وتقريرٌ لاستحقاق القيام فيه.

والمراد بكونه أحقَّ نفسُ كونه حقيقًا به؛ إذ لا استحقاقَ في مسجد الضِّرار رأسًا، وإنّما عُبّر عنه بصيغة التفضيل لفضله وكماله في نفسه، أو الأفضليّةُ في [٥٥و] الاستحقاق المتناولِ لِما يكون / باعتبار زعم الباني ومَن يشايعه في الاعتقاد، وهو الأنسب بما سيأتي.

﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ مِن المعاصي والخِصالِ الذميمة لمَرضاة الله سبحانه، وقيل: مِن الجَنابة، فلا يَنامون عليها.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي: يرضى عنهم ويُدنِيهم مِن جَنابه إدناءَ المُحبّ حبيبَه.

قيل: لمّا نزلت مشَى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، ومعه المهاجرون، حتّى وقف على باب مسجد قُباءٍ، فإذا الأنصارُ جلوسٌ، فقال: «أمؤمنون أنتم؟»، فسكت القوم، ثمّ أعادها، فقال عمرُ رضي الله عنه: «يا رسولَ الله، إنّهم لَمؤمنون، وأنا معهم»، فقال عليه السلام: «أتَرضَون بالقضاء؟»، قالوا: «نعم»، قال عليه السلام: «أتَصبِرون على البلاء؟»، قالوا: «نعم»، قال: «أتشكُرون في الرَّخاء؟»، قالوا: «نعم»، قال عليه السلام: «مؤمنون وربِّ الكعبة»، فجلس، ثمّ قال: «يا مَعشَرَ الأنصار، إنّ الله عزّ وجلّ قد أثنَى عليكم، فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟»، فقالوا: «نُتبِعُ الغائطَ الأحجارَ الثلاثةَ، ثمّ نُتبِعُ الأحجارَ الماءَ»، فتَلَا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾.[١]

وقُرئ: "أَنْ يَطَّهَّرُوا"[٢] بالإدغام. وقيل: هو عامّ في التطهّر عن النجاسات كلِّها، وكانوا يُتبعون الماءَ إثرَ البَوْل. وعن الحسن رضي الله عنه: «هو التطهّر

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان، ٢/١٩٦-١٩٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١١.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٠.

عن الذنوب بالتوبة».[١] وقيل: يُحبّون أن يتطهّروا بالحُمَّى المكفِّرةِ لذنوبهم، فحُمُّوا عن آخِرهم.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ على بناء الفعل للفاعل والنصبِ، وقُرئ: على البناء للمفعول والرفعِ،[٢] وقُرئ: "أُسُسُ بُنْيَانِهِ"[٣] على الإضافة، جمع "أساس"، و"أَسَاسُ" بالفتح والكسر،[٤] جمع "أُسٍّ"، وقُرئ: "آسَاسُ بُنْيَانِهِ"[٥] جمع "أُسٍّ" أيضًا، و"أُسُّ بُنْيَانِهِ".[٦]

وهي جملة مستأنَفة مبيِّنة لخيريّة الرجال / المذكورين مِن أهل مسجد ضِرار. والهمزة للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر، أي: أبعْدَ ما عُلم حالهم مَن أسّس بُنيانَ دينِه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ أي: على قاعدة محكَمة، هي التقوى مِن الله وابتغاءُ مَرضاته بالطاعة. والمراد بـ"التقوى" درجتُها الثانية التي هي التوقّي عن كلّ ما يُؤثِّم مِن فعل أو ترك. وقُرئ: "تَقْوًى"[٧] بالتنوين على أنّ الألف للإلحاق دون التأنيث. [٥٥ظ]

﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ تركُ الإضمار للإيذان باختلاف البُنيانَين ذاتًا اختلافَهما وصفًا وإضافةً. ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الشَّفا: الحَرْف والشفير. والجُرُف: ما جرَفه السيلُ، أي: استأصله واحتفَر ما تحته، فبقِيَ واهيًا يريد الانهدام.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١١.

[٢] أي: "أُسِّسَ بُنْيَانُهُ". قرأ بها نافع وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن نصر بن عليّ ونصر بن عاصم. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥/٥٠٥.

[٤] كلاهما قراءتان شاذّتان، الأولى مرويّة عن مالك بن دينار وكرداب وعكرمة وابن أبي عبلة، والثانية غير منسوبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٠؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥/٥٠٥-٥٠٦.

[٥] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/٣١٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة ونصر بن عليّ. المحتسَب لابن جنّي، ١/٣٠٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٠.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢١.

والهارُ: الهائر المتصدِّع المشرِفُ إلى السقوط، مِن "هارَ يهُورُ ويَهار" أو "هارَ يَهير"، قُدِّمت لامه على عينه، فصار كـ"غازٍ" و"رامٍ"، وقيل: حُذفت عينه اعتباطًا، أي: بغير موجِب، فجرى وجوه الإعراب على لامه.

﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ مُثّل ما بنَوا عليه أمرَ دينهم في البُطلان وسرعةِ الانطماس بما ذُكر، ثمّ رُشّح بانهياره في النار، ووُضع بمقابلة الرضوان، تنبيهًا على أنّ تأسيس ذلك على أمرٍ يحفظه مِن النار ويوصله إلى الرضوان ومقتضَياتِه التي أدناها الجنّة، وتأسيسَ هذا على ما هو بصدد الوقوع في النار ساعةً فساعةً، ثمّ مَصيرهم إليها لا محالةَ.

وقُرئ: "جُرْف"[1] بسكون الراء.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لأنفسهم، أو الواضعين للأشياء في غير مواضعها، أي: لا يرشدهم إلى ما فيه نجاتُهم وصلاحُهم إرشادًا موجِبًا له لا محالةَ. وأمّا الدلالة على ما يرشدهم إليه إن استرشدوا به، فهو متحقّق بلا اشتباهٍ.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ "البُنيان" مصدرٌ أُريدَ به المفعول، ووصفُه بالموصول الذي صلتُه فعله للإيذان بكيفيّة بنائهم له وتأسيسِه على أوهن قاعدةٍ وأوهى أساسٍ، وللإشعار بعلّة الحكم، أي: لا يزال مسجدُهم ذلك مبنيًّا ومهدومًا.

﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: سببَ ريبةٍ وشكٍّ في الدين، كأنّه نفس الريبة. أمّا حالَ بنائه، فظاهرٌ / لِما أنّ اعتزالهم مِن المؤمنين واجتماعَهم في مجمع على حِياله، يُظهرون فيه ما في قلوبهم مِن آثار الكفر والنفاق، ويدبّرون فيه أمورهم، ويتشاورون في ذلك، ويُلقي بعضُهم إلى بعض ما سمعوا مِن أسرار المؤمنين ممّا[2] يزيدهم ريبةً وشكًّا في الدين. وأمّا حالَ هدمِه، فلِما أنّه رسَخ به ما كان في قلوبهم مِن الشرّ، وتضاعفت آثاره وأحكامُه. [٥٦و]

---

[1] قرأ بها حمزة وخلف وابن ذكوان وأبو بكر، واختُلف عن هشام، فروى الحلواني عنه الإسكانَ، وروى الداجوني عن أصحابه عنه الضمَّ. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

[2] وفي هامش م: خبر "أنّ".

أو[1] سَبَبَ ريبةٍ في أمرهم، حيث ضعُفت قلوبهم، ووَهَى اعتقادُهم بخفاء أمرهم على المؤمنين؛ لأنّهم أظهروا مِن أمرهم بعد البناء أكثرَ ممّا كانوا يُظهرونه قبل ذلك وقتَ اختلاطهم بالمؤمنين، وساءت ظنونهم بأنفسهم، فلمّا هُدم بُنيانُهم تضاعَفَ ذلك الضعفُ وتقوّى، وصاروا مُرتابِين في أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هل يتركهم على ما كانوا عليه مِن قبلُ أو يأمرُ بقتلهم ونهبِ أموالهم.

وقال الكلبي: «معنى ﴿رِيبَةً﴾: حَسْرةً وندامةً».[2] وقال السدّي وحبيب[3] والمبرّد: «لا يزال هدمُ بُنيانهم حَزَازةً وغيظًا في قلوبهم».[4]

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ﴾ مِن "التفعّل" بحذف إحدى التاءين، أي: إلّا أن تتقطّعَ ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ قِطعًا وتتفرّقَ أجزاءً بحيث لا يبقى لها قابليّةُ إدراكٍ وإضمارِ قَطعًا. وهو استثناء مِن أعمّ الأوقات أو أعمّ الأحوال، ومحلُّه النصبُ على الظرفيّة، أي: لا يزال بُنيانُهم ريبةً في كلّ الأوقات أو كلّ الأحوال إلّا وقتَ تقطُّع قلوبهم أو حالَ تقطّع قلوبهم، فحينئذ يَسْلُون عنها، وأمّا ما دامت سالمةً، فالريبةُ باقيةٌ فيها، فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم. ويجوز أن يكون المراد حقيقةَ تقطُّعها عند قتلهم أو في القبور أو في النار.

وقُرئ: "يُقَطَّعَ" على بناء المجهول مِن "التفعيل" مذكّرًا ومؤنّثًا،[5] وعلى البناء للفاعل منه[6] على خطاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[7] أي: إلّا أن تُقطِّع أنت قلوبَهم بالقتل. وقُرئ على البناء للمجهول مِن الثلاثي مؤنّثًا.[8] وقُرئ:

---

[1] السياق: أي: سببَ ريبةٍ وشكٍّ في الدين... أو سَبَبَ ريبةٍ في أمرهم...

[2] معالم التنزيل للبغوي، ٩٧/٤؛ اللباب لابن عادل، ٢١٤/١٠.

[3] هو حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار الأسدي، أبو يحيى. تابعيّ ثقة، فقيه جليل. وكان مفتي الكوفة. مات سنةَ تسع عشرة ومائة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٢٠/٦؛ وتهذيب التهذيب لابن حجر، ١٧٨/٢-١٨٠.

[4] انظر: جامع البيان للطبري، ٧٠٠/١١-٧٠١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٩٦/٥.

[5] م س - مذكّرًا ومؤنّثًا ["صح" في هامش م]. | قرأ بالتأنيث ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٨١/٢. وهي بالتذكير شاذّة، ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٣١٣/٢.

[6] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩٨/٣.

[7] وفي هامش م: أو كلّ صالح للخطاب. «منه».

[8] ط س + مذكّرًا ومؤنّثًا [كُشطت الزيادة في م]. | وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب وأبي عبد الرحمن. تفسير القرطبي، ٢٦٦/٨.

"إِلَى أَنْ تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ"،[١] و"إِلَى أَنْ تُقَطِّعَ قُلُوبَهُمْ"[٢] على الخطاب. وقُرئ: "وَلَوْ قُطِّعَتْ قُلُوبُهُمْ"[٣] على إسناد الفعل مجهولًا إلى ﴿قُلُوبُهُمْ﴾، و"لَوْ قَطَّعْتَ قُلُوبَهُمْ"[٤] على الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن يصلُح للخطاب.

وقيل: إلّا أن يتوبوا توبةً يتقطّع بها قلوبُهم ندَمًا وأسَفًا على تفريطهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء التي مِن جملتها ما ذُكر مِن أحوالهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله التي مِن زمرتها أمرُه الواردُ في حقّهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ ترغيب للمؤمنين في الجهاد ببيان فضيلته إثرَ شرح[٥] حال المتخلِّفين عنه. ولقد بُولغَ في ذلك على وجهٍ لا مزيدَ عليه، / حيث عُبّر عن قبول الله تعالى مِن المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم التي بذَلوها في سبيله تعالى وإثابتِه[٦] إيّاهم بمقابلتها الجنّةَ بـ"الشِّراء" على طريقة الاستعارة التبَعيّة، ثمّ جُعل المَبيع الذي هو العُمدة والمقصدُ في العَقد أنفُسَ المؤمنين وأموالَهم، والثّمنُ الذي هو الوسيلة في الصَّفْقة الجنّةَ؛ ولم يُجعَل الأمر على العكس -بأن يقال: "إنّ الله باعَ الجنّةَ مِن المؤمنين بأنفسهم وأموالهم" ليدُلَّ على أنّ المقصد في العَقد هو الجنّة، وما بذله المؤمنون في مقابلتها مِن الأنفس والأموال وسيلةٌ إليها- إيذانًا بتعلّق كمال العناية بهم وبأموالهم؛ ثمّ إنّه لم يُقل: "بالجنّة"؛ بل قيل: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ مبالغةً في تقرّر وصول الثّمن إليهم واختصاصِه بهم، كأنّه قيل: بالجنّة الثابتةِ لهم المختصّةِ بهم.

[٥٦ظ]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. جامع البيان للطبري، ٧٠٢/١١.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٠٨/٥.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢١.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢١.

[٥] م ط س: بيان [صُحّح في هامش م ط].

[٦] الضمير راجعٌ إلى "قبول الله تعالى".

وأمّا ما يقال[١] مِن أنّ ذلك لمدح المؤمنين بأنّهم بذلوا أنفسَهم وأموالَهم بمجرّد الوعد لكمال ثقتهم بوعده تعالى، وأنّ تمام الاستعارة موقوف على ذلك؛ إذ لو قيل: "بالجنّة" لَاحتمل كونُ الشِّراء حقيقةً؛ لأنّها صالحة للعِوضيّة، بخلاف الوعيد بها، فليس[٢] بشيء؛ لأنّ مناط دلالةِ ما عليه النظم الكريم على الوعد ليس كونَه جملةً ظرفيّةً مصدَّرةً بـ﴿أَنَّ﴾، فإنّ ذلك بمَعزِل مِن الدلالة على الاستقبال؛ بل هو الجنّة التي يستحيل وجودُها في الدنيا، ولو سُلّم ذلك يكون العِوضُ الجنّةَ الموعودَ بها، لا الوعدَ بها.

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استئناف، لكنْ لا لبيان ما لأجله الشِّراءُ، ولا لبيان نفس الاشتراء؛ لأنّ قتالهم في سبيل الله تعالى ليس باشتراء الله تعالى منهم أنفسَهم وأموالَهم، بل هو بذلٌ لهما في ذلك؛ بل لبيان البيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور، كأنّه قيل: كيف يَبيعون أنفسهم وأموالَهم بالجنّة؟ فقيل: يقاتِلون في سبيل الله، وهو بذلٌ منهم لأنفسهم وأموالهم إلى جهة الله سبحانه وتعريضٌ لهما للهلاك.

وقوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ بيان لكون القتال في سبيل الله بذلًا للنفس، وأنّ المقاتِل في سبيله باذلٌ لها، وإن كانت سالمةً غانمةً؛ فإنّ الإسناد في الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما، ولا اشتراطِ الاتّصاف بأحدهما البتّةَ؛ بل بطريق وصف الكلّ بحال البعض، فإنّه يتحقّق القتال مِن الكلّ سواء وُجد الفعلانِ أو أحدُهما منهم أو مِن بعضهم؛ بل يتحقّق ذلك وإن لم يصدُر منهم أحدُهما أيضًا، كما إذا وُجد المضاربة ولم يوجَد القتلُ مِن أحد الجانبَين أو لم يوجَد المضاربة أيضًا، فإنّه يتحقّق الجهاد بمجرّد العزيمة والنفير وتكثير السواد.

وتقديم حالة القاتليّة على حالة المقتوليّة للإيذان بعدم الفرق / بينهما [٥٧و] في كونهما مِصداقًا لكون القتال بذلًا[٣] للنفس. وقُرئ بتقديم المَبني للمفعول[٤]

---

[١] انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٦٧/٤.

[٢] السياق: وأمّا ما يقال... فليس بشيء...

[٣] س: بدلًا.

[٤] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٤٦/٢.

رعايةً لكون الشهادة عريقةً في الباب، وإيذانًا بعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله تعالى؛ بل بكونه أحبَّ إليهم مِن السلامة، كما قيل في حقّهم:[١]

لا يفرَحون إذا نالت رِماحُهم قومًا وليسوا مَجازِيعًا إذا نِيلُوا
لا يقع الطَّعنُ إلّا في نُحورهم وما لهم عن حِياض الموتِ تهليلُ

وقيل: في ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾... إلخ معنى الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿تُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف، ٦١/١١].

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ مصدر مؤكِّدٌ لِما يدلّ عليه كون الثّمن مؤجّلًا. ﴿حَقًّا﴾ نعتٌ لـ﴿وَعْدًا﴾، والظرف حال منه؛ لأنّه لو تأخَّرَ لَكان صفةً له. وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ متعلّق بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿وَعْدًا﴾، أي: وعدًا مثبَتًا في التوراة والإنجيل، كما هو مثبَتٌ في القرآن.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ اعتراض مقرِّرٌ لمضمون ما قبله مِن حقّيّة الوعد على نهج المبالغة في كونه سبحانه أوفى بالعهد مِن كلّ وافٍ؛ فإنّ اختلاف الميعاد ممّا لا يكاد يصدُر عن كِرام الخَلق مع إمكان صدوره عنهم، فكيف بجناب الخلّاق الغنيّ عن العالَمين جلّ جلالُه؟

وسبكُ التركيب، وإن كان على إنكارِ أن يكون أحدٌ أوفَى بالعهد منه سبحانه مِن غير تعرّض لإنكار المساواة ونفيِها، لكنّ المقصودَ به قصدًا مطّردًا إنكارُ المساواة ونفيُها قطعًا، فإذا قيل: "مَن أكرمُ مِن فلان" أو "لا أفضلَ منه"، فالمراد به حتمًا أنّه أكرمُ مِن كلّ كريم وأفضلُ مِن كلّ فاضل.

﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ التفات إلى الخطاب تشريفًا لهم على تشريفٍ وزيادةً لسرورهم على سرورٍ. والاستبشار: إظهار السرور. و"السين" فيه ليس للطلب،

---

[١] وفي هامش م: قاله كعب بن زُهير في قصيدته المشهورة: "بانتْ سُعادُ". | البيت في ديوانه، ص ٦٧، وفي مطبوعه: "ما إن لهم" مكانَ "وما لهم". | وهو كعب بن زُهير بن ربيعة المزني، أبو المضرَّب (ت. ٢٤هـ/٦٤٥م [؟]). شاعر عالي الطبقة، له: ديوان شعر. كان ممّن اشتهر في الجاهليّة، ولمّا ظهر الإسلام هجا النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، وأقام يشبّب بنساء المسلمين، فهدر النبيّ دمَه، فجاءه كعب مستأمنًا، وقد أسلَم، وأنشده لاميّته المشهورة التي مَطلعها: "بانت سُعادُ فقلبي اليوم متبول"، فعفا عنه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وخلع عليه بُردته. انظر: الاستيعاب للنمري، ٣/١٣١٣-١٣١٧؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٤/٤٤٩-٤٥١.

كـ"استوقَدَ" و"أوْقَد". و"الفاء" لترتيب الاستبشار أو الأمرِ به على ما قبله، أي: فإذا كان كذلك، فسُرُّوا نهايةَ السُّرور وافرَحوا غايةَ الفرح بما فُزتم به مِن الجنّة.

وإنّما قيل: ﴿بِبَيْعِكُمْ﴾ مع أنّ الابتهاج به باعتبار أدائه إلى الجنّة؛ لأنّ المراد ترغيبُهم في الجهاد الذي عُبّر عنه بـ"البَيع". وإنّما لم يُذكَر العَقد بعنوان "الشِّراء"؛ / لأنّ ذلك مِن قِبل الله سبحانه، لا مِن قِبلهم، والترغيب إنّما يكون فيما يتمّ مِن قِبلهم. [٥٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ لزيادة تقرير بَيعهم، وللإشعار بكونه مغايِرًا لسائر البياعات، فإنّه بيعٌ للفاني بالباقي، ولأنّ كِلا البدلين له سبحانه وتعالى.

عن الحسن رحمه الله:[١] «أنفسًا هو خلقَها، وأموالًا هو رزَقَها».[٢]

رُوي أنّ الأنصار لمّا بايعوه عليه السلام على العقبة، قال عبد الله بنُ رَوَاحة[٣] رضي الله عنه: «اشترِطْ لربّك ولنفسك ما شئتَ»، قال عليه السلام: «أشترط لربّي أن تعبُدوه ولا تُشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنَعوني ممّا تمنعون منه أنفسَكم»، قال: «فإذا فعلنا فما لنا؟»، قال: «لكم الجنّةُ»، قالوا: «رَبِح البيعُ، لا نُقيل ولا نستقيل».[٤]

ومرّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم أعرابيٌّ، وهو يقرأها، قال: «كلامُ مَن؟»، قال: «كلام الله عزّ وجلّ»، قال: «بيعٌ واللهِ مُربحٌ، لا نُقيله ولا نستقيله»، فخرج إلى الغزو واستُشهد.[٥]

---

[١] س: رضي الله عنه.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٣؛ اللباب لابن عادل، ١٠/٢١٦.

[٣] هو عبد الله بن رَواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي، أبو محمّد (ت. ٨هـ/٦٢٩م). أحد النُّقباء. شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والخندق والحديبية وعمرة القضاء والمشاهدَ كلّها، إلّا الفتح وما بعده؛ لأنّه قُتل يوم مُؤتة شهيدًا، وهو أحد الأمراء في غزوة مؤتة. وكان أحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردّون الأذى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/٥٢٥-٥٣٠؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٣/٢٣٥-٢٣٨.

[٤] جامع البيان للطبري، ١٢/٦-٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٣.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٩٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٣.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: الجنّة التي جُعلتْ ثَمنًا بمقابلة ما بذلوا مِن أنفسهم وأموالهم، ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ أعظمُ منه. وما في ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البُعد إشارةٌ إلى بُعد منزلة المشار إليه وسموّ رتبته في الكمال. ويجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى البيع الذي أُمروا بالاستبشار به، ويُجعَلَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ كأنّه نفسُ الفوز العظيم، أو يُجعَلَ فوزًا في نفسه. فالجملة على الأوّل تذييلٌ للآية الكريمة، وعلى الثاني لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ﴾، مقرِّرٌ لمضمونه.

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ رفعٌ على المدح، أي: هم التائبون، يعني: المؤمنين المذكورين، كما يدلّ عليه القراءة بـ"الياء"[١] نصبًا على المدح، ويجوز أن يكون مجرورًا على أنّه صفة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقد جُوّز الرفع على الابتداء، والخبر محذوف، أي: التائبون مِن أهل الجنّة أيضًا وإن لم يجاهِدوا، كقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء، ٩٥/٤]. ويجوز أن يكون خبرُه قولَه تعالى: ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ وما بعده خبرٌ بعد خبرٍ، أي: التائبون مِن الكفر على الحقيقة هُمُ الجامعون لهذه النعوت / الفاضلة، أي: المخلِصون في عبادة الله تعالى. [٥٨و]

﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ لنَعْمائه أو لِما نابَهم مِن السرّاء والضرّاء، ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون؛ لقوله عليه السلام: «سياحةُ أمّتي الصومُ»،[٢] شُبّه بها لأنّه عائقٌ عن الشهَوات أو لأنّه رياضةٌ نفسانيّةٌ يُتوسّل بها إلى العثور على خَفايا المُلك والملكوت. وقيل: هم السائحون في الجهاد وطلب العلم.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ في الصلاة، ﴿ٱلْأَٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة، ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصي. والعطف فيه للدلالة على أنّ المتعاطفَين بمنزلة خصلةٍ واحدةٍ. وأمّا قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي:

---

١ أي: "التّائِبِينَ". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠١/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٨٩/٣.

فيما بيّنه وعيّنه مِن الحقائق والشرائع عملًا وحملًا للناس عليه، فلِئلّا يُتوهّمَ اختصاصُه بأحد الوجهين.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الموصوفين بالنعوت المذكورة. ووضعُ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ موضعَ ضميرهم للتنبيه على أنّ مِلاك الأمر هو الإيمان، وأنّ المؤمن الكاملَ مَن كان كذلك. وحذفُ المبشَّر به للإيذان بخروجه عن حدّ البيان. وفي تخصيص الخطاب بالأوّلين إظهارُ زيادةِ اعتناءٍ بأمرهم مِن الترغيب والتسلية.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله وحدَه، أي: ما صحَّ لهم في حكم الله عزّ وجلّ وحكمتِه وما استقام ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ به سبحانه ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ﴾ أي: المشركون ﴿أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ أي: ذَوي قرابةٍ لهم. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه. والجملة معطوفة على جملة أخرى قبلها محذوفةٍ حذفًا مطّردًا، كما بُيّن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة، ٣٢/٩] ونظائرِه.

رُوي أنّه عليه السلام قال لعمّه أبي طالب لمّا حضرتْه الوفاة: «يا عمّ! قلْ كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله»، فأبى. فقال عليه السلام: «لا أزال أستغفر لك ما لم أُنْهَ عنه»، فنزلت.[1] وقيل: لمّا افتتَح مكّةَ خرج إلى الأبواء،[2] فزارَ قبرَ أمّه، ثمّ قام مستعبِرًا فقال: «إنّي استأذنتُ ربّي في زيارة قبر أمّي، فأَذِنَ لي، واستأذنتُه في الاستغفار لها، فلم يأْذَنْ لي،[3] وأنزل عليَّ الآيتين».[4]

---

[1] انظر: صحيح البخاري، ٥٢/٥ (٣٨٨٤)؛ ومسند أحمد، ٧٨/٣٩-٧٩ (٢٣٦٧٤).

[2] الأبواء: موضعٌ قربَ ودّان، به قبرُ آمنة بنت وهب أمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: هي قرية مِن أعمال الفُرع بين المدينة والجُحفة، بينها وبين المدينة ثلاثةٌ وعشرون ميلًا. وقيل: جبلٌ على يمينِ آرَةَ ويمينِ الطريق للمُصعِد إلى مكّةَ مِن المدينة، وهناك بلدٌ يُنسَب إلى هذا الجبل. تاج العروس للزبيدي، «أبي».

[3] س – لي.

[4] انظر: صحيح مسلم، ٦٧١/٢ (٩٧٦)؛ ومسند أحمد، ٤٣٠/١٥ (٩٦٨٨)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٠٠/٥.

[٥٨ظ] ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ / لَهُمۡ﴾ أي: للنبيّ عليه السلام والمؤمنين ﴿أَنَّهُمۡ﴾ أي: المشركين ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحي بأنّهم يموتون على ذلك.

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ بقوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ [الشعراء، ٨٦/٢٦] أي: بأن توفّقه للإيمان وتهديَه إليه، كما يلوِّح به تعليله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء، ٨٦/٢٦]. والجملة استئناف مَسوقٌ لتقرير ما سبق ودفعِ ما يتراءى بحسب الظاهر مِن المخالفة. وقُرئ: "وَمَا اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ".[١] وقُرئ: "وَمَا يَسْتَغْفِرُ إِبْرَاهِيمُ"[٢] على حكاية الحال الماضية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ﴾ استثناء مفرَّغٌ مِن أعمّ العِلل، أي: لم يكن استغفارُه عليه السلام لأبيه آزرَ ناشئًا عن شيء مِن الأشياء إلّا عن مَوعدة ﴿وَعَدَهَآ﴾ إبراهيمُ عليه السلام ﴿إِيَّاهُ﴾ أي: أباه -وقد قُرئ كذلك-[٣] بقوله: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة، ٤/٦٠] وقولِه: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم، ٤٧/١٩]، بناءً على رَجاء إيمانه لعدم تبيّنِ حقيقة أمره، وإلّا لَمَا وعدها إيّاه، كأنّه قيل: وما كان استغفار إبراهيمَ لأبيه إلّا عن مَوعدة مَبنيّة على عدم تبيّن أمره، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ أي: لإبراهيمَ بأنْ أُوحِيَ إليه أنّه مُصِرٌّ على الكفر غيرُ مؤمن أبدًا، وقيل: بأن مات على الكفر. والأوّل هو الأنسب بقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ﴾ فإنّ وصفه بالعداوة ممّا يأباه حالة الموت. ﴿تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ أي: تنزَّهَ عن الاستغفار له وتجانَبَ كلَّ التجانب. وفيه مِن المبالغة ما ليس في "تَرَكَه" ونظائرِه.

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ لَكثيرُ التأوّهِ. وهو كناية عن كمال الرَّأفة ورِقّة القلب. ﴿حَلِيمٞ﴾ صَبورٌ على الأذيّة والمِحنة. وهو استئناف لبيان ما كان يدعوه عليه السلام

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة وابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. المحتسَب لابن جنّي، ٢٠٥/١.

[٣] أي: "وَعَدَهَا أَبَاهُ". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٢.

إلى ما صدر عنه مِن الاستغفار. وفيه إيذان بأنّ إبراهيمَ عليه السلام كان أوّاهًا حليمًا؛ فلذلك صدر عنه ما صدر مِن الاستغفار قبلَ التبيّن، فليس لغيره أن يأتسِيَ به في ذلك، وتأكيدٌ لوجوب الاجتناب عنه بعد التبيّن بأنّه عليه السلام تبرّأ منه بعد التبيّن وهو في كمال رقّة القلب والحلم، فلا بدّ أن يكون غيرُه أكثرَ منه اجتنابًا وتبرُّؤًا. وأمّا أنّ الاستغفار قبل التبيّن لو كان غيرَ محظورٍ، لَمَا استُثنيَ عن الإيتاء به في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة، ٦٠/٤]، فقد حُقّق في سورة مريمَ بإذن الله تعالى.[1]

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا﴾ أي: ليس مِن عادته أن يصفهم بالضلال عن طريق الحقّ ويُجريَ عليهم أحكامَه ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ للإسلام، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ بالوحي صريحًا أو دلالةً ﴿مَا يَتَّقُونَ﴾ أي: ما يجب اتّقاؤُه مِن محظورات الدين، فلا ينزجِروا عمّا نُهُوا عنه، وأمّا قبل ذلك فلا يسمَّى ما صدر عنهم ضلالًا ولا يؤاخذهم[2] به، فكأنّه تسلية للذين استغفروا للمشركين / قبل ذلك. وفيه دليل على أنّ الغافل غيرُ مكلَّف بما لا يستبدّ بمعرفته العقلُ. [٥٩و]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تعليل لِما سبق، أي: إنّه تعالى عليم بجميع الأشياء التي مِن جملتها حاجتُهم إلى بيان قُبح ما لا يستقلّ العقلُ في معرفته، فيبيّنُ لهم ذلك كما فعل هنا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن غير شريك له فيه، ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ لمّا منعهم مِن الاستغفار للمشركين

---

[1] انظر: تفسير مريم، ١٩/٤٧.

[2] م ط س: يؤاخذون [صُحّح في هامش م ط].

-وإن كانوا أُولي قُربَى- وضمَّنَ ذلك التبرّؤَ منهم رأسًا، بيَّن لهم أنّ الله مالكُ كلِّ موجودٍ ومُتولّي أمورِه والغالبُ عليه، ولا يتأتّى لهم نصرٌ ولا ولايةٌ إلّا منه تعالى ليتوجّهوا إليه بشَراشِرهم[١] متبرّئين عمّا سِواه غيرَ قاصدين إلّا إيّاه.

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو العفو عن إذنه للمنافقين في التخلّف عنه».[٢] ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ قيل: هو في حقّ زلّاتٍ سبقتْ منهم يومَ أُحدٍ ويومَ حُنينٍ. وقيل: المراد بيان فضل التوبة، وأنّه ما مِن مؤمن إلّا وهو محتاج إليها، حتّى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لِما صدر عنه في بعض الأحوال مِن ترك الأولى.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ ولم يتخلّفوا عنه ولم يُخلّوا بأمر مِن أوامره ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: في وقتها. والتعبير عنه بـ"الساعة" لزيادة تعيينه. وهي حالهم في غزوة تبوكَ، كانوا في عُسرة مِن الظَّهر،[٣] يعتقِب عشرةٌ على بعير واحد، ومِن الزاد تزوّدوا التمر المدوِّد[٤] والشعيرَ المسوّس[٥] والإهالةَ الزَّنِخة،[٦] وبلغت بهم الشدّة إلى أن اقتسم التمرةَ اثنان، وربّما مَصَّها الجماعة ليشربوا عليها الماء المتغيِّرَ، وفي عُسرةٍ مِن الماء، حتّى نحَروا الإبل واعتصروا فروثها، وفي شدّة زمان مِن حَمَارّة القَيظ،[٧] ومِن الجَدْب والقَحط والضِّيقة الشديدة.

---

١ الشَّراشر: الأثقال. الواحدة: شُرْشُرة. يقال: ألقَى عليه شراشرَه، أي: نفسَه حرصًا ومحبّةً. **الصحاح للجوهري**، «شرر».

٢ **التفسير البسيط للواحدي**، ١١/٨٠.

٣ الظَّهر: الإبل التي يُحمَل عليها ويُركَب. **لسان العرب لابن منظور**، «ظهر».

٤ دوَّد الطعام وأداد ودِيد: وقع فيه الدُّود. وطعام مدوِّد ومُدِيد ومَدُود. **أسرار البلاغة للزمخشري**، «دود».

٥ السُّوس والساس: العُثّة التي تقع في الثياب والطعام. تقول: سِيس الطعام، فهو مُسوّس. **كتاب العين للخليل بن أحمد**، «باب اللفيف مِن السين».

٦ الإهالة: ما أذبتَ مِن الشَّحم، وقيل: الشَّحم والزَّيت، وقيل: كلّ دُهن اؤتُدِم به إهالةٌ، والإهالة: الوَدَك. **لسان العرب لابن منظور**، «أهل». والزَّنِخةُ: متغيِّرةُ الرائحة. ويقال: سَنِخة، بالسين. **النهاية لابن الأثير**، ٢/٣١٥.

٧ حَمَارّة القَيظ، أي: شدّة الحرّ. وقد تخفَّف الراء. **النهاية لابن الأثير**، ١/٤٣٩.

ووصفُ المهاجرين والأنصار بما ذُكر مِن اتّباعهم له صلّى الله عليه وسلّم في مثل هاتيك المراتبِ مِن الشدّة للمبالغة في بيان الحاجة إلى التوبة، فإنّ ذلك حيث لم يُغنهم عنها، فلأَنْ لا يستغنيَ عنها غيرُهم أَولى وأحرى.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ / بيان لتَناهي الشدّة وبلوغِها إلى ما لا غايةَ وراءَها. وهو إشراف بعضهم على أن يَميلوا إلى التخلّف عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وفي ﴿كَادَ﴾ ضميرُ الشأن أو ضميرُ "القوم"[1] الراجعِ إليه الضميرُ في ﴿مِنۡهُمۡ﴾. وقُرئ بتأنيث الفعل.[2] وقُرئ: "مِنْ بَعْدِ مَا زَاغَتْ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ"،[3] يعني: المتخلِّفين مِن المؤمنين، كأبي لُبابةَ وأضرابِه. [٥٩ظ]

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ تكرير للتأكيد وتنبيهٌ على أنّه يُتاب عليهم مِن أجل ما كابدوا مِن العُسرة. والمراد أنّه تاب عليهم لكَنُودتهم.

﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ استئناف تعليليٌّ، فإنّ صفة الرَّأفة والرحمة مِن دواعي التوبة والعفو. ويجوز كونُ الأوّل عبارةً عن إزالة الضرر، والثاني عن إيصال المنفعة، وأن يكون أحدُهما للسوابق، والآخرُ لِلَّواحق.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١١٨﴾

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي: وتاب الله على الثلاثة الذين أُخّر أمرهم عن أمر أبي لُبابةَ وأصحابِه، حيث لم يُقبَل معذرتهم مثلَ أولئك ولا رُدّتْ، ولم يُقطَع في شأنهم بشيء إلى أن نزل فيهم الوحي. وهم: كعب بن مالك وهلال بن أميّة ومُرارة بن الربيع.[4]

---

[1] وفي هامش م: باعتبار اللفظ. «منه».

[2] قرأ بها السبعة إلّا حمزة وحفصًا. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٨؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٩٣.

[4] م ط س: ومُرارة بن الربيع وهلال بن أميّة [صُحّح في هامش م بعلامة التاخير والتقديم]. | وفي هامش م: كما بُيّن مِن قبلُ. | انظر: تفسير التوبة، ٩/١٠٦.

وقُرئ: "خَلَفُوا"،[١] أي: خَلَفوا الغازين بالمدينة أو فسَدوا، مِن "الخالفة"[٢] و"خُلوف الفَم".[٣] وقُرئ: "خَالَفُوا".[٤] وقُرئ: "عَلَى المُخَلَّفِينَ".[٥] والأوّل هو الأنسب؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ غايةٌ للتخليف، ولا يناسبه إلّا المعنى الأوّل، أي: خُلّفوا وأُخّر أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض ﴿بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي: برُحْبها وسَعَتِها لإعراض الناس عنهم وانقطاعِهم عن مفاوضتهم. وهو مَثلٌ لشدّة الحَيرة، كأنّه لا يستقرّ به قرارٌ، ولا تطمئنّ له دارٌ.

﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: إذا رجعوا إلى أنفسهم / لا يطمئنّون بشيء لعدم الأُنس والسُّرور واستيلاءِ الوحشة والحَيرة. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي: علموا أنْ لا مَلجَأَ مِن سخطه تعالى إلّا إلى استغفاره. [٦٠و]

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: وفّقهم للتوبة ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾، أو أنزل قبولَ توبتهم ليَصيروا مِن جملة التوّابين، أو رجَعَ عليهم بالقبول والرحمة مرّةً بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ المبالِغُ في قبول التوبة كمًّا وكيفًا، وإن كثُرت الجنايات وعظُمت، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المتفضِّلُ عليهم بفنون الآلاء مع استحقاقهم لأفانين العقاب.

رُوي أنّ ناسًا مِن المؤمنين تخلّفوا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، منهم مَن بَدَا له وكرِه مكانَه، فلحِق به عليه السلام:

عن الحسن أنّه قال: بلغني أنّه كان لأحدهم حائطٌ، كان خيرًا مِن مائةِ ألفِ درهمٍ، فقال: «يا حائطاه! ما خلّفني إلّا ظِلُّك وانتظارُ ثِمارك، اذهَبْ فأنت

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وزرّ بن حبيش وعبّاس عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٢.

[٢] الخليفة: مَن يقوم مقامَ الذاهب ويسُدّ مَسدّه. فأمّا الخالفة، فهو الذي لا غناءَ عنده، ولا خيرَ فيه. النهاية لابن الأثير، ٦٩/٢.

[٣] الخِلفة، بالكسر: تغيّر ريح الفم. وأصلها في النبات أن ينبُتَ الشيء بعد الشيء؛ لأنّها رائحةٌ حدثت بعد الرائحة الأولى. يقال: خلَفَ فمُه يخلُف خِلفةً وخُلوفًا. النهاية لابن الأثير، ٦٧/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن عليّ وعليّ بن الحسين وجعفر بن محمّد والسلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٢.

[٥] لم نقف عليها في كتب القراءات والتفسير. لعلّها قراءة: "عَلَى الثَّلَاثَةِ المُخَلَّفِينَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٢.

في سبيل الله»؛ ولم يكن لآخَرَ إلّا أهلُه، فقال: «يا أهلاه! ما بطّأني ولا خلّفني إلّا الضِنُّ[1] بك، لا[2] جَرَمَ والله لَأُكابِدنَّ الشدائدَ حتّى ألحقَ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، فركِب ولحِق به عليه السلام؛ ولم يكن لآخَرَ إلّا نفسُه، لا أهل ولا مال، فقال: «يا نفسي، ما خلّفني إلّا حُبُّ الحياة لكِ، واللهِ لَأُكابِدنَّ الشدائدَ حتّى ألحقَ برسول الله عليه السلام»،[3] فتأبّط زادَه ولحِق به عليه السلام. قال الحسن رضي الله عنه: «كذلك واللهِ المؤمنُ يتوب مِن ذنوبه، ولا يُصِرّ عليها».[4]

وعن أبي ذَرٍّ الغِفاري:[5] أنّ بعيره أبطأ به، فحمل متاعَه على ظهره، واتّبع أثرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ماشيًا، فقال عليه السلام لمّا رأى سَوَاده: «كُنْ أبا ذَرٍّ»، فقال الناس: «هو ذاك»، فقال عليه السلام: «رحِمَ الله أبا ذَرٍّ، يمشي وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبعَث وحدَه».[6]

وعن أبي خيثمةَ:[7] أنّه بلغ بُستانه، وكانت له امرأةٌ حَسْناءُ، فرَشَتْ له في الظلّ، وبسطت له الحصير، وقرّبت إليه الرُّطَب والماءَ الباردَ، فنظر فقال: «ظلٌّ ظليلٌ، ورُطَبٌ يانعٌ، وماءٌ باردٌ، وامرأةٌ حسناءُ، ورسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم

---

[1] الضِنّ والضِنّة والمَضنّة، كلّ ذلك مِن الإمساك والبُخل، تقول: رجل ضَنين. كتاب العين للخليل بن أحمد، ١٠/٧ «باب الضاد مع النون».

[2] س: فلا.

[3] م ط س - فركب ولحق به عليه السلام، ولم يكن لآخَرَ إلّا نفسه، لا أهل ولا مال، فقال: يا نفسي، ما خلّفني إلّا حبُّ الحياة لكِ، واللهِ لأكابدنّ الشدائدَ حتّى ألحقَ برسول الله عليه السلام ["صح" في هامش م].

[4] الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٢. وهو بدون قول الحسن: «كذلك واللهِ المؤمنُ»... إلخ في اللباب لابن عادل، ٢٣٣/١٠.

[5] هو جُندُب بن جُنادة، أبو ذرّ الغِفاري (ت. ٣٢هـ/٦٥٣م). مِن كبار الصحابة، قديمُ الإسلام. وهو أوّل مَن حيّا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتحيّة الإسلام. هاجر بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى بادية الشام، ثمّ سكن دمشق، وجعل دَيْدنَه تحريضَ الفقراء على مشاركة الأغنياء في أموالهم. وكان كريمًا، لا يخزن مِن المال قليلًا ولا كثيرًا. وفي اسمه واسم أبيه خلاف. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٥٦٢/١-٥٦٥، ٩٦/٦-٩٨؛ والإصابة لابن حجر، ٢١٥/١٢-٢٢١.

[6] أخرجه الحاكم مطوّلًا في المستدرك، ٥٢/٣-٥٣ (٤٣٧٣). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٢.

[7] هو عبد الله بن خيثمة، وقيل: مالك بن قيس، أبو خيثمة السالمي. شهد أحدًا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وبقي إلى أيّام يزيد بن معاوية. انظر: الاستيعاب للنمري، ١٦٤١/٤-١٦٤٣؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٢٢٦/٣-٢٢٧، ٨٩/٦-٩٠.

في الضِّحّ[1] والريح، ما هذا بخير»، فقام ورحّل ناقته، وأخذ سيفه ورُمحَه، ومرّ كالريح، فمدّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم طرفَه إلى الطريق، فإذا براكبٍ يزهاه السَّرابُ،[2] فقال: «كُنْ أبا خيثمةَ»، فكَانَهُ، ففرِح به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واستغفر له.[3]

ومنهم مَن بقِيَ لم يلحَقْ به عليه السلام، منهم الثلاثة:

قال كعب: لمّا قفَل رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم سلّمتُ عليه، فردَّ عليَّ كالمُغضِب بعد ما ذكَرَني، وقال: «يا ليتَ شعري ما خلّف كعبًا؟»، فقيل له: «ما خلّفه إلّا حسنُ بُردَيه والنظرُ في عِطفَيه»، قال عليه السلام: «ما أعلم إلّا فضلًا وإسلامًا»، ونهى عن كلامنا أيّها الثلاثةُ، فتنكّر لنا الناس، ولم يكلّمنا أحدٌ مِن قريب / ولا بعيد، فلمّا مضت أربعون ليلةً أُمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربَهنّ، فلمّا تمّت [٦٠ظ] خمسون ليلةً، إذا أنا بنداءٍ مِن ذروةِ سَلْع: «أَبشِرْ يا كعب بن مالك»، فخرَرْتُ لله ساجدًا، وكنتُ كما وصفني ربّي: ﴿ضَاقَتْ[4] عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾، وتتابعت البِشارة، فلبستُ ثوبي وانطلقتُ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإذا هو جالسٌ في المسجد وحولَه المسلمون، فقام إليَّ طلحة بن عُبيد الله[5] يُهَرْوِل إليَّ حتّى صافحني، وقال: «لِتَهنِكَ توبةُ الله عليك»، فلن أنساها لطلحةَ رضي الله عنه، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يستنير استنارةَ القمر: «أَبشِرْ -يا كعبُ- بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتْك أُمُّك»، ثمّ تلَا علينا الآيةَ.[6]

---

١ الضِّحّ والضِّيح: ضَوء الشمس إذا استمكَن مِن الأرض. كتاب العين للخليل بن أحمد، ١٣/٣ «باب الحاء مع الضاد».

٢ زَهَا السَّرابُ الشيءَ يَزْهاه، إذا رفَعَه. الصحاح للجوهري، «زها».

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٢. ونحوه في المغازي للواقدي، ٩٩٨-٩٩٩. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٠٨/٢-١١٠.

٤ م س: وضاقت.

٥ هو طلحة بن عُبيد الله بن عثمان التيمي القرشي، أبو محمّد (ت. ٣٦هـ/٦٥٦م). مِن السابقين الأوّلين إلى الإسلام، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنّة، وأحد أصحاب الشورى. شهد أحدًا وما بعدها مِن المشاهد، وبايع بيعة الرضوان، وأبلى يومَ أُحد بلاءً عظيمًا، ووقى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بنفسه. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢١٤/٣-٢٢٥؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٨٤/٣-٨٨.

٦ انظر: صحيح البخاري، ٣/٦-٧ (٤٤١٨)؛ وصحيح مسلم، ٢١٢٠/٤-٢١٢٩ (٢٧٦٩). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٣٢٠/٢.

وعن أبي بكرٍ الورّاق:[١] أنّه سُئل عن التوبة النَّصُوح، فقال: «أن يضيق على التائب الأرض بما رحُبتْ ويضيقَ عليه نفسُه، كتوبة كعب بن مالك وصاحبَيه».[٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطاب عامٌّ يندرج فيه التائبون اندراجًا أوّليًّا، وقيل: لِمن تخلَّفَ مِن الطُّلقاء عن غزوة تبوك خاصّةً. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلّ ما تأتون وما تذرون، فيدخل فيه المعاملة مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أمر المَغازي دخولًا أوّليًّا.

﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله نيّةً وقولًا وعملًا، أو في كلّ شأنٍ مِن الشئون، فيدخل ما ذُكر، أو في[٣] توبتهم[٤] وإنابتهم، فيكون المراد بهم حينئذ هؤلاء الثلاثةَ وأضرابَهم. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه خطاب لِمن آمن مِن أهل الكتاب،[٥] أي: كونوا مع المهاجرين والأنصار، وانتظِموا في سِلكهم في الصدق وسائر المحاسن. وقُرئ: "مِنَ الصَّادِقِينَ".[٦]

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢٠﴾

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ ما صحّ وما استقام لهم، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾

---

[١] هو محمّد بن عمر بن فضل، أبو بكر الورّاق (ت. ٢٨٠هـ/٨٩٣م). أحد مصنّفي الصوفيّة الأوّلين. أصله مِن تِرمذ، وأقام ببلخ. لقي أحمد بن خضرَوَيه وصحبه، وصحب محمّد بن سعد بن إبراهيم الزاهد ومحمّد بن عمر بن خشنام البلخي. وله الكتب المشهورة في أنواع الرياضات والمعاملات والآداب. انظر: طبقات الصوفيّة للسلمي، ص ١٧٨-١٨٣.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٨/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٠/٢.

[٣] ط س - أو في.

[٤] ط س: وتوبتهم.

[٥] الكشّاف للزمخشري، ٣٢٠/٢-٣٢١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢١/٥.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود وابن عبّاس. جامع البيان للطبري، ٦٨/١٢-٦٩؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٩٥/٣.

كمُزَينةَ وجُهَينةَ وأشجعَ وغِفارٍ وأضرابهم ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ عند توجّهه صلّى الله عليه وسلّم إلى الغزو، ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ﴾ نصبٌ،[١] وقد جُوّز الجزم.[٢] ﴿بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: لا يصرفوها عن نفسه الكريمة، ولا يصُونوها عمّا لم يصُنْ عنه نفسَه؛ بل يكابِدوا معه ما يكابده مِن الأهوال والخطوب. والكلام في معنى النهي، وإن كان على صورة الخبر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دلّ عليه الكلام مِن وجوب المشايعة. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي: عطشٌ يسيرٌ، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ولا تعبٌ ما، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: مجاعةٌ ما، لا ما يُستباح عنده المحرَّمات مِن مراتبها؛ فإنّ الظَّمَأَ والنَّصَبَ اليَسيرَين حين لم يخلُوَا مِن الثواب، فلَأَنْ لا يخلُو ذلك منه أَولى، فلا حاجةَ إلى تأكيد النفي بتكرير كلمة ﴿لَا﴾. ويجوز أن يراد بها تلك المرتبة، ويكون الترتيب بناءً على كثرة الوقوع وقلّته، فإنّ الظَّمَأَ أكثرُ وقوعًا مِن النَّصَب الذي هو أكثرُ وقوعًا مِن المَخْمَصَة بالمعنى المذكور، فتوسيط كلمة ﴿لَا﴾ حينئذ ليس لتأكيد النفي؛ بل للدلالة على استقلال كلّ واحد منها بالفضيلة والاعتداد به.

﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وإعلاءِ كلمته.

[٦١و] ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ / أي: لا يدُوسون بأرجُلهم وحوافر خيولهم وأخفافِ رواحلهم دَوْسًا أو مكانًا يُداسُ، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ مصدر كـ"القتل" و"الأسر" و"النهب"، أو مفعول، أي: شيئًا يُنال مِن قِبلهم.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾ أي: بكلّ واحد مِن الأمور المعدودة ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ وحسنة مقبولة مستوجبة بحكم الوعد الكريم للثواب الجميلِ ونيلِ الزُّلفى. والتنوين للتفخيم. وكونُ المكتوب عينَ ما فعلوه مِن الأمور لا يمنع دخولَ "الباء"؛ فإنّ اختلاف العنوان كافٍ في ذلك.

---

١ وفي هامش م: على أنّه عطفٌ على ﴿يَتَخَلَّفُواْ﴾، و﴿لَا﴾ لتأكيد النفي، أي: ولا أنْ يرغَبوا. «منه».

٢ وفي هامش م: على أنّه عطفٌ على ما يُفهَم مِن النفي السابق، فإنّه في معنى النفي، كأنّه قيل: لا يتخلّفوا. «منه».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم، تعليلٌ لِما سلف مِن الكَتب. والمراد بـ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إمّا المبحوث عنهم، ووضعُ المُظهَر مقامَ المُضمَر لمدحهم والشهادة عليهم بالانتظام في سِلك المحسنين، وأنّ أعمالهم مِن قبيل الإحسان، وللإشعار بعلّيّة المأخذ للحكم؛ وإمّا جنسُ المحسنين، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًّا.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ ولو تمرةً أو عِلاقةَ سَوْطٍ، ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ كما أنفق عثمانُ رضي الله عنه. والترتيب باعتبار ما ذُكر مِن كثرة الوقوع وقلّته. وتوسيط ﴿لَا﴾ للتنصيص على استبداد كلٍّ منهما بالكَتب والجزاءِ، لا لتأكيد النفي كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾ أي: لا يجتازون في مَسيرهم ﴿وَادِيًا﴾ وهو في الأصل: كلّ منفرَج مِن الجبال والآكام، يكون مَنفَذًا للسيل، اسمُ فاعلٍ مِن "وَدَى" إذا سال، ثمّ شاع في "الأرض" على الإطلاق.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي: أُثبِتَ لهم ذلك الذي فعلوه مِن الإنفاق والقَطع، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أحسنَ جزاءِ أعمالهم أو جزاءَ أحسن أعمالهم.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ أي: ما صحَّ وما استقام لهم أن ينفِروا جميعًا لنحو غزوٍ أو طلبِ علمٍ، كما لا يستقيم لهم أن يتثبّطوا جميعًا، فإنّ ذلك[1] مُخلّ بأمر المَعاش.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ فهلّا نفرَ ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أي: طائفةٍ كثيرةٍ ﴿مِّنْهُمْ﴾ كأهل بلدةٍ أو قبيلةٍ عظيمةٍ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ أي: جماعةٌ قليلةٌ ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: يتكلّفوا الفَقاهةَ فيه

---

[1] أي: النفير، وليس التثبط.

ويتجشّموا مشاقّ تحصيلها، ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي: وليجعلوا غايةَ سعيهم ومَرمى غرضهم مِن ذلك إرشادَ القوم وإنذارَهم ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾. وتخصيصه[١] بالذِّكر لأنّه أهمُّ. وفيه دليل على أنّ التفقّهَ في الدين مِن فروض الكفاية، وأن يكون غرضُ المتعلِّم الاستقامةَ والإقامةَ، لا الترفّع على العباد والتبسّط في البلاد، كما هو دَيْدَنُ[٢] أبناء الزمان. والله المستعان.

[٦١ظ] ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ / إرادةَ أن يحذَروا عمّا يُنذرون.

واستُدلّ به على أنّ أخبار الآحاد حُجّةٌ؛ لأنّ عموم ﴿كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ يقتضي أن ينفِر مِن كلّ ثلاثةٍ تفرّدوا بقريةٍ طائفةٌ إلى التفقّه لتنذر[٣] قومها كَيْ يتذكّروا ويحذَروا، فلو لم تُعتبر الأخبارُ ما لم تتواتَرْ،[٤] لم يُفِدْ ذلك.

وقد قيل:[٥] للآية وجهٌ آخَرُ، هو أنّ المؤمنين لمّا سمعوا ما نزل في المتخلِّفين، سارعوا إلى النفير رغبةً ورهبةً، وانقطعوا عن التفقّه، فأُمروا أن ينفِر مِن كلّ فرقةٍ طائفةٌ إلى الجهاد، ويبقى أعقابهم يتفقّهون حتّى لا ينقطعَ الفقهُ الذي هو الجهاد الأكبر؛ لأنّ الجدال بالحُجّة هو الأصل والمقصودُ مِن البعثة؛ فالضمير في ﴿لِيَتَفَقَّهُواْ﴾ و﴿لِيُنذِرُواْ﴾ لبواقي الفِرق بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي ﴿رَجَعُوٓاْ﴾[٦] للطوائف، أي: ولِيُنذروا البواقي مِن قومهم النافرين إذا[٧] رجعوا إليهم بما حصَّلوا في أيّام غَيبتهم مِن العلوم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٢٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أُمروا بقتال الأقرب منهم

---

١ وفي هامش م: أي: الإنذار. «منه».

٢ الدَّيْدَنُ: الدأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

٣ س: لينذر.

٤ ط س: فلو لم يعتبر أخبارُ ما لم يتواتر. | يظهر أثر التصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٥ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٣٢٣.

٦ س + إليهم.

٧ م ط س – ﴿رَجَعُوٓاْ﴾ للطوائف، أي: وليُنذروا[١] البواقي مِن[٢] قومهم النافرين إذا ["صح" في هامش م س]. | [١] هامش س: لينذر. [٢] هامش س – مِن.

فالأقرب، كما أُمر عليه السلام أوّلًا بإنذار عشيرته، فإنّ الأقرب أحقُّ بالشفقة والاستصلاح. قيل: هُم اليهود حوالَي المدينة[١] كبني قُريظةَ والنَّضير وخيبر، وقيل: الروم، فإنّهم كانوا يسكنون الشام، وهو قريب مِن المدينة بالنسبة إلى العراق وغيره. ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: شدّةً وصبرًا على القتال. وقُرئ بفتح الغين، كـ"سَخْطة"، وبضمّها،[٢] وهما لغتان فيها.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالعصمة والنصرة. والمراد بهم إمّا المخاطَبون، ووضعُ الظاهر موضعَ الضمير للتنصيص على أنّ الإيمان والقتالَ على الوجه المذكور مِن بابِ التقوى والشهادةِ بكونهم مِن زمرة المتّقين، وإمّا الجنسُ، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا. والمراد بالمعيّة الولاية الدائمة. وقد ذُكر وجهُ دخول ﴿مَعَ﴾ المتبوعَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة، ٩/٤٠].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾[٣] مِن سُوَر القرآن ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: مِن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لإخوانه ليثبّتهم على النفاق، أو لعوامّ المؤمنين وضَعَفتِهم ليصُدَّهم عن الإيمان: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورةُ ﴿إِيمَٰنًا﴾ وقُرئ بنصب ﴿أَيُّكُمْ﴾[٤] على تقدير فعلٍ يفسّره المذكور، أي: أيّكم زادتْ زادتْه / هذه... إلخ. وإيراد الزيادة [٦٢و] -مع أنّه لا إيمانَ فيهم أصلًا- باعتبار اعتقاد المؤمنين حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال، ٨/٢].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ جواب مِن جهته سبحانه وتعالى، وتحقيقٌ للحقّ، وتعيينٌ لحالهم عاجلًا وآجلًا، أي: فأمّا الذين آمنوا بالله تعالى وبما جاء مِن عنده،

---

١ وفي هامش م: متأخّر النزول.

٢ كلاهما قراءتان شاذّتان، الأولى مرويّة عن السلمي وزرّ وأبان بن تغلب، والثانية غير منسوبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٠٢.

٣ وفي هامش م: ﴿مَا﴾ صلة مؤكِّدة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٣.

﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ بزيادة العلم اليقيني الحاصلِ مِن التدبّر فيها والوقوفِ على ما فيها مِن الحقائق وانضمامِ إيمانهم بما فيها بإيمانهم السابق، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها وبما فيه مِن المنافع الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: كفرٌ وسوءُ عقيدةٍ، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: كفرًا بها مضمومًا إلى الكفر بغيرها وعقائدَ باطلةً وأخلاقًا ذميمةً كذلك، ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ واستحكم ذلك إلى أن يموتوا عليه.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ، والواوُ للعطف على مقدَّر، أي: ألَا ينظرون ولا يرَون ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: المنافقين ﴿يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ﴾ مِن الأعوام ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ والمراد مجرّد التكثير، لا بيان الوقوع حسب العدد المزبور، أي: يُبتلَون بأفانين البليّات مِن المرض والشدّة وغير ذلك[1] ممّا يذكِّر الذنوبَ والوقوفَ بين يدي ربّ العزّة، فيؤدّي إلى الإيمان به تعالى، أو بالجهاد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فيعاينون ما ينزل عليه مِن الآيات، لاسيّما القوارع الزائدة للإيمان الناعيةُ عليهم ما فيهم مِن القبائح المُخزية لهم.

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عطفٌ على ﴿لَا[2] يَرَوْنَ﴾ داخلٌ تحت الإنكار والتوبيخ، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ والمعنى: أوَلا يرَون افتتانهم الموجِبَ لإيمانهم، ثمّ لا يتوبون عمّا هم عليه مِن النفاق، ولا هم يتذكّرون بتلك الفِتن الموجِبة للتذكّر والتوبة.

وقُرئ بالتاء،[3] والخطاب للمؤمنين، والهمزة للتعجيب، أي: ألَا تنظرون[4] / ولا ترَون أحوالَهم العجيبةَ التي هي افتتانهم على وجه التتابع وعدم التنبّهِ لذلك؟ فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ وما عُطف عليه معطوفٌ على ﴿يُفْتَنُونَ﴾. [٦٢ظ]

---

[1] ط س - وغير ذلك.

[2] ط س - لا.

[3] أي: "أَوَلَا تَرَوْنَ". قرأ بها حمزة ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨١.

[4] س: تنظرن.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٢٧﴾

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ بيان لأحوالهم عند نزولها وهم في محفل تبليغ الوحي، كما أنّ الأوّل بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه. ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تغامَزوا بالعيون إنكارًا لها أو سُخريّةً بها أو غيظًا لِما فيها مِن مخازيهم: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: قائلين: هل يراكم أحدٌ مِن المسلمين لننصرف؟ مُظهِرين أنّهم لا يصطبرون على استماعها، ويغلب عليهم الضحِكُ فيفتضِحون؛ أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لِواذًا، يقولون: هل يراكم مِن أحد إن قُمتم مِن المجلس؟

وإيراد ضمير الخطاب لبعث المخاطَبين على الجِدّ في انتهاز الفُرصة، فإنّ المرء بشأنه أكثرُ اهتمامًا منه بشأن أصحابه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف، ١٨/١٩]. وقيل: المعنى: وإذا ما أُنزلت سورة في عيوب المنافقين.

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ﴾، والتراخي باعتبار وجدان الفرصة والوقوفِ على عدم رؤية أحد مِن المؤمنين، أي: انصرَفوا جميعًا عن محفل الوحي خوفًا مِن الافتضاح أو غير ذلك.

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ أي: عن الإيمان حسب انصرافهم عن المجلس. والجملة إخباريّة أو دعائيّة. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لسوء الفهم أو لعدم التدبّر.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ الخطاب للعرب. ﴿رَسُولٌ﴾ أيُّ رسولٍ، رسولٌ عظيمُ الشأن ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مِن جنسكم، عربيٌّ قُرَشيٌّ مثلكم. وقُرئ بفتح الفاء،[1] أي: أشرفِكم وأفضلِكم.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن فاطمة وعائشة -رضي الله عنهما- وكرداب وابن مُحيصن وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٣.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: شاقٌّ شديدٌ عليه عَنَتُكم ولقاؤكم المكروهَ، فهو يخاف عليكم سوءَ العاقبة والوقوعَ في العذاب. / وهذا مِن نتائج ما سلف مِن المجانَسة. [٦٣و]

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ في إيمانكم وصلاح حالكم، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومِن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قُدِّم الأبلغ منهما -وهي الرَّأفة التي هي عبارة عن شدّة الرحمة- محافظةً على الفواصل.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيهٌ له إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تسليةً له، أي: إن أعرضوا عن الإيمان بك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ فإنّه يكفيك ويُعينك عليهم، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئناف مقرِّرٌ لمضمون ما قبله. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلّا منه، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: المُلك العظيمِ أو الجسم الأعظم المحيطِ الذي ينزل منه الأحكام والمقادير. وقُرئ: "العَظِيمُ"[1] بالرفع.

وعن أبيّ: «أنّ آخِرَ ما نزل هاتان الآيتان».[2]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «ما نزل القرآن عليَّ إلّا آيةً آيةً وحرفًا حرفًا، ما خَلَا سورةَ براءة وسورةَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص، ١١٢/١]؛ فإنّهما أُنزلتا عليَّ ومعهما سبعون ألفَ صفٍّ مِن الملائكة عليهم السلام».[3]

الحمد لله سبحانه وتعالى.[4]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن وإسماعيل وابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٣.

٢ أسباب النزول للواحدي، ص ٤١٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٢٥. وانظر: مسند أحمد، ٣٥/١٤٩-١٥٠ (٢١٢٢٦).

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٢٥. انظر لتخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/١١٤-١١٥.

٤ وفي هامش م: حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل.

سورة يونس

مكّيّة وهي مائة وتسع آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾

﴿الٓر﴾ بتفخيم الراء المفتوحة. وقُرئ بالإمالة[١] إجراءً للأصليّة مُجرى المنقلِبة مِن الياء.[٢] وقُرئ بينَ بينَ.[٣] وهو: إمّا مَسرود على نمط التعديد بطريق التحدّي، على أحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة، فلا محلَّ له مِن الإعراب؛ وإمّا اسم للسورة، كما عليه إطباقُ الأكثر،[٤] فمحلّه الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذه السورة مُسمّاةٌ بـ﴿الٓر﴾، وهو أظهَر مِن الرفع على الابتداء لعدم سَبْق العِلم بالتسمية بعدُ، فحقُّها الإخبارُ بها لا جعلُها عنوانَ الموضوع لتوقّفه على عِلم المخاطب بالانتساب كما مرّ. والإشارة إليها قبل جَرَيان ذِكرها لِما أنّها باعتبار كونها على جَناح الذِّكر وبصدده صارت في حُكم الحاضر، كما يقال: "هذا ما اشترى فلان".

أو النصبُ[٥] بتقدير فعل لائقٍ بالمقام نحو "اذكُرْ" أو "اقرأ". وكلمةُ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إليها: أمّا على تقدير كونِ ﴿الٓر﴾ مَسرودًا على نمط التعديدِ فقد نُزِّل حضور مادّتها التي هي الحروف المذكورة منزلةَ ذِكرها فأشيرَ إليها، كأنّه قيل: هذه الكلمات المؤلَّفة مِن جنس هذه الحروف المَبسوطة... إلخ؛ وأمّا على تقدير كونه اسمًا للسورة فقد نُوِّهتْ[٦] بالإشارة إليها بعد تنويهها بتعيين اسمها،

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر والكسائي وحمزة وأبو بكر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٦٦.

٢ انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٨٨.

٣ قرأ بها ورش. النشر لابن الجزري، ٢/٦٧.

٤ انظر تفصيله في **الكشّاف** للزمخشري، ١/٣٤ (البقرة، ٢/١).

٥ السياق: فمحلُّه الرفع... أو النصب...

٦ وفي هامش م: نوّهه ونوّه به: دعاه ورفعه. قاموس. | انظر: **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «نوه».

أو الأمرِ بذِكرها أو بقراءتها. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للتنبيه على بُعد منزلتِها في الفخامة. ومحلّه الرفع على أنّه مبتدأ خبرُه قوله عزّ وجلّ: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وعلى تقدير كون ﴿الٓر﴾ مبتدأً فهو مبتدأ ثانٍ، أو بدل مِن الأوّل، والمعنى: هي آيات مخصوصة منه مترجَمة باسم مستقِلّ، والمقصود ببيان بعضيّتها منه وصفُها بما اشتهر اتِّصافُه به مِن النعوت الفاضلة والصفات الكاملة.

والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: إمّا جميع القرآن العظيم وإن لم يَنزِل الكُلّ حينئذ، إمّا باعتبار تعيُّنه وتحقُّقه في علم الله عزّ وعلا أو في اللوح، أو باعتبار أنّه أُنزل جُملةً إلى السماء الدنيا، كما هو المشهور، فإنّ "فاتحة الكتاب" كانت مسمّاةً بهذا الاسم وبـ"أمّ القرآن" في عهد النبوّة ولمّا يَحصُل المجموع[1] الشخصي إذ ذاك، فلا بدّ مِن ملاحظة كلّ مِن الكتاب والقرآن بأحد الاعتبارات المذكورة.

[٦٤و] وإمّا[2] جميع القرآن النازل وقتئذ المتفاهَم بين الناسِ إذ ذاك، / فإنّه كما يُطلَق على المجموع الشخصي يُطلَق على مجموعِ ما نزَل في كلّ عصرٍ، ألا يُرى إلى ما رُوي عن جابر رضي الله عنه أنّه قال: «كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يجمع بين الرجلين مِن قتلى أُحُد في ثوب واحد، ثمّ يقول: أيُّهم أكثرُ أخذًا للقرآن؟ فإذا أشيرَ له إلى أحدهما قدَّمه في اللَّحد».[3] فإنّ ما يَفهَمه الناسُ مِن القرآن في ذلك الوقت ويُحافظون على التفاوت في أَخْذه إنّما هو المجموع النازل حينئذ، مِن غير ملاحظةٍ لتحقّق المجموع الشخصي في عِلم الله سبحانه أو في اللوح، ولا لنزوله جملةً إلى السماء الدنيا.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ ذي الحِكمة وُصِف به لاشتماله على فنون الحِكَم الباهرة ونُطقِه بها، أو هو مِن باب وَصْف الكلام بصفة صاحبه، أو مِن باب الاستعارة المَكنيّة المبنيّة على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة.

---

١ وفي هامش م: أي مجموع الكتاب والقرآن. «منه».

٢ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: إمّا جميع القرآن العظيم. «منه».

٣ صحيح البخاري، ٩١/٢ (١٣٤٣)؛ سنن ابن ماجه، ٤٧٧/٢ (١٥١٤)؛ سنن النسائي، ٦٢/٤ (١٩٥٥).

هذا وقد جُعل ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عبارةً عن نفس السورة، وكلمةُ ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةً إلى ما في ضِمنها مِن الآي، فإنّها في حُكم الحاضر، لاسيّما بعد ذِكر ما يتضمَّنها مِن السورة عند بيان اسمِها، أو الأمرِ بذِكرها أو بقراءتها، وينبغي أن يكون المشار إليه حينئذ كلَّ واحدةٍ منها لا جميعَها مِن حيث هو جميع؛ لأنّه عينُ السورة، فلا يكون للإضافة وَجه ولا لتخصيص الوصف بالمضاف إليه حِكمة، فلا يتأتّى ما قُصد مِن مدح المضافِ بما للمضاف إليه مِن صفات الكمال، ولأنّ في بيان اتِّصاف كلّ منها[1] بالكمال مِن المبالغة ما ليس في بيان اتّصافِ الكلّ بذلك.

والمتبادَر مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عند الإطلاق وإن كان كلُّه بأحد الوجهين[2] المذكورين، لكنّ صحّة إطلاقه على بعضه أيضًا ممّا لا ريب فيها. والمعهود المشهور وإن كان اتّصافُ الكلّ بأحد الاعتبارين بما ذُكر مِن نعوت الكمالِ إلّا أنّ شُهرة اتصافِ كلّ سورة منه بما اتّصف به / الكلُّ ممّا لا يُنكَر، وعليه يدور تحقُّق مَدْح السورة بكونها بعضًا مِن القرآن الكريم، إذ لولا أنّ بعضه منعوت بنعت كلّه داخل تحت حُكمه لَما تسنّى ذلك. وفيه ما لا يخفى مِن التكلّف والتعسّف. [٦٤ظ]

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الهمزة لإنكار تعجُّبهم ولتعجُّب السامعين منه لكونه في غير محلّه. والمرادُ بـ"الناس": كفّار مكّةَ. وإنّما عُبّر عنهم باسم الجنس مِن غير تعرُّض لكُفرهم مع أنّه المدارُ لتعجُّبهم، كما تُعُرِّض له في قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾... إلخ، لتحقيق ما[3] فيه الشركةُ بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتعيينِ مدار التعجّب في زعمهم، ثمّ تبيينِ خطائهم وإظهارِ بطلان زعمهم بإيراد الإنكار والتعجيب. واللام متعلّقة بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿عَجَبًا﴾.

---

[1] س: منهما.

[2] وفي هامش م: المجموع الشخصي ومجموع ما نزل في كلّ عصر. «منه».

[3] وفي هامش م: ولو تعرّض لوصف الكفر لاختلّ المرام. «منه».

وقيل: بـ﴿عَجَبًا﴾ على التوسّع المشهورِ في الظروف. وقيل: المصدر إذا كان بمعنى اسمِ الفاعل أو اسمِ المفعول جاز تقديم معموله عليه. وقيل: متعلِّقة بـ﴿كَانَ﴾.[١] وهو مبنيٌّ على دلالة "كان" الناقصةِ على الحدث.

﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ قُدِّم عليه خبرُها اهتمامًا بشأنه لكونه مدارًا للإنكار والتعجيب وتشويقًا إلى المؤخَّر، ولأنّ في الاسم ضربَ تفصيل، ففي مراعاة الأصل نوعُ إخلال بتجاوب أطرافِ الكلام. وقُرئ برفع "عَجَبٌ"،[٢] على أنّه الاسم وهو نكرة، والخبرُ ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ وهو مَعرِفة، لأنّ "أن" مع الفعل في تأويل المصدر المضافِ إلى المَعرفة البتّةَ. والمختار حينئذ أن تُجعَل ﴿كَانَ﴾ تامّةً،[٣] و﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ متعلِّقًا بـ"عَجَبٌ" على حَذْف حرف التعليل، أي: أَحَدَث للناس عجبٌ لِأن أوحينا أو مِن أن أوحينا؟[٤] أو بدلًا مِن "عَجَبٌ"،[٥] لكن لا على توجيه الإنكار والتعجيب إلى حدوثه؛ بل إلى كونه عَجَبًا، فإنّ كون الإبدال في حُكم تنحية المبدَل منه ليس معناه إهدارَه بالمرّة. وإنّما قيل: "للناس" لا "عند الناس" للدلالة / على أنّهم [٦٥و] اتّخذوه أُعجوبةً لهم. وفيه مِن زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى.

﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: إلى بشر مِن جنسهم، كقولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء، ٩٤/١٧]، أو مِن أفنائهم مِن حيث المالُ لا مِن عُظمائهم كقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ[٦] هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]. وكِلا الوجهين مِن ظهور البطلانِ بحيث لا مَزيد عليه:

أمّا **الأوّل** فلأنّ بَعْث المَلَك إنّما يكون عند كون المبعوث إليهم ملائكةً، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء، ٩٥/١٧]، وأمّا عامّة البشر فهم بمَعزِل مِن استحقاق المفاوضة المَلَكيّة، كيف لا، وهي منوطة بالتناسُب والتجانُس، فبَعْث المَلَك إليهم

---

[١] الأقوال الثلاثة في التبيان للعُكبري، ٦٦٤/٢؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٤٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٥٣/١٠-٢٥٤.

[٢] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٣.

[٣] رجّح ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٢٤٤/٢.

[٤] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٤٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٥٤/١٠.

[٥] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٤/٢.

[٦] م: أُنزل.

مزاحِم للحِكمة التي عليها يدور فَلَك التكوين والتشريع، وإنّما الذي تقتضيه الحكمة أن يُبعَث المَلَك مِن بينهم إلى الخواصّ المختصِّين بالنفوس الزكيّة المؤيَّدين بالقوّة القدسيّة المتعلِّقين بكِلا العالَمين الروحاني والجِسماني ليتلقَّوا مِن جانب ويُلْقوا إلى جانب.

وأمّا الثاني فلِما أنّ مَناط الاصطفاء للنبوّة والرسالة هو التقدّم في الاتِّصاف بما ذُكر مِن النعوت الجميلة والصفات الجليلة، والسبقُ في إحراز الفضائل العليّة وحيازةِ المَلَكات السنيّة جِبِلَّة واكتسابًا، ولا ريب لأحد منهم في أنّه صلّى الله عليه وسلّم في ذلك الشأن في غاية الغايات القاصية ونهايةِ النهايات النائية. وأمّا التقدّم في الرِّياسة الدنيويّة والسبقُ في نيل الحظوظِ الدنيّة فلا دخلَ له في ذلك قطعًا؛ بل له إخلال به غالبًا، قال عليه السلام: «لو كانت الدنيا تزِن عند الله جناحَ بعوضة ما سقى الكافرَ منها شربة ماءٍ».[1]

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ ﴿أَنْ﴾: مصدريّة لجواز كون صلتِها أمرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، وذلك لأنّ الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر سِيّانِ، فساغ وقوع الأمر والنهي صلة حسبَ / وقوعِ الفعل، فيُجرَّد [٦٥ظ] عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحوَ تجرُّد الصلة الفعليّة عن معنى المُضيّ والاستقبال. ووجوبُ كون الصلة في الموصول الاسمي خبريةً إنّما هو للتوصّل بها إلى وَصْف المعارف بالجمل، لا لقصور في دلالة الإنشاء على المصدر.

أو مفسِّرة؛[2] إذ الإيحاء فيه معنى القول.[3] وقد جُوِّز كونها مخفَّفة مِن المثقَّلة، على حذف ضمير الشأن والقول مِن الخبر، والمعنى: أنّ الشأن قولنا: أنذِر الناسَ.[4] والمراد به جميعُ الناسِ كافةً، لا ما أُريد بالأوّل،[5] وهو النكتة في إيثار الإظهار على الإضمار. وكونُ الثاني عينَ الأوّل عند إعادة المعرفة ليس على الإطلاق.

---

[1] بلفظ قريب في المُصنَّف لابن أبي شيبة، ٧/٧٨ (٣٤٣٢٤)؛ وسنن ابن ماجه، ٥/٢٣٠ (٤١١٠)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٦/١٥٧ (٥٨٤٠).

[2] السياق: ﴿أَنْ﴾: مصدريّة... أو مُفسِّرة...

[3] انظر الوجهين في التبيان للعكبري، ٢/٦٦٤؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/١٤٥؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٢٥٥.

[4] جوّز ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٤٤-٢٤٥.

[5] مضى أنّ المراد بلفظ "الناس" الأوّل: كفّار مكّة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما أوحيناه وصدّقوه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنّ لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: سابقةً ومنزلةً رفيعة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾. وإنّما عُبّر عنها بها إذ بها يحصُل السبق والوصول إلى المَنازل الرفيعة، كما يُعبَّر عن النعمة باليد لأنّها تُعطى بها. وقيل: مقامَ صدقٍ.[١] والوجه أنّ الوصول إلى المقام إنّما يحصُل بالقَدَم، وإضافتُها إلى الصدق للدلالة على تحقّقها وثباتِها، وللتنبيه على أنّ مدار نَيْل ما نالوه مِن المَراتب العليّةِ هو صدقُهم، فإنّ التصديق لا ينفكّ عن الصدق.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم المتعجّبون. وإيرادهم ههنا بعنوان الكفر ممّا لا حاجة إلى ذِكر سببه. وتركُ العاطفِ لجرَيانه مَجرى البيان للجملة التي دخل عليها همزة الإنكار، أو لكونه استئنافًا مبنيًا على السؤال، كأنّه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجّب هل بقُوا على التردّد والاستبعاد أو قطعوا فيه بشيء؟ فقيل: قال: الكافرون على طريقة التوكيد: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يَعنُون به ما أُوحيَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن القرآن الحكيم المنطوي على الإنذار والتبشير.

﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر. وقُرئ: "لَسَاحِرٌ"،[٢] على أنّ الإشارةَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقُرئ: "مَا هَذا إلّا سِحْرٌ مبِينٌ".[٣] وهذا اعتراف مِن حيث لا يَشعرون بأنّ ما عاينوه / خارجٌ عن طَوْق البشر، نازلٌ مِن جَناب خلّاق [٦٦و] القُوى والقُدَر، ولكنّهم يُسمّونه بما قالوا تماديًا في العِناد، كما هو دَيدَن المُكابِر اللَّجوج ودأبُ المُفحَم المَحجوج.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ كلام مستأنَف سِيق لإظهار بُطلانِ تعجُّبهم المذكور، وما بنَوا عليه

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٥.

٢ كذا وقع في الأصل. والظاهر أنّه سهو؛ لأنّ ما ذكره هو قراءة عاصم التي يجعلها المُصنّف أصلًا فيما يسوقه مِن التفسير ثمّ يشير إلى خلافه. وبها قرأ أيضًا ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. وقرأ الباقون "لَسِحْرٌ"، وهذه القراءة هي المرادة ههنا، بحسب المعتاد مِن المُصنّف. انظر تخريج القراءة في النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٦.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٤٨.

مِن المقالة الباطلة غِبَّ الإشارةِ إليه بالإنكار والتعجيب، وحُقِّق فيه حقّيّة ما تعجَّبوا منه وصحّة ما أنكروه بالتنبيه الإجمالي على بعض ما يدلّ عليها مِن شئون الخلق والتقدير وأحوالِ التكوين والتدبيرِ، ويُرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير لاعترافهم به مِن غير نكير، لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ[١] قُلْ أَفَلَا[٢] تَتَّقُونَ[٣]﴾ [المؤمنون، ٢٣/٨٦-٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس، ١٠/٣١] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس، ١٠/٣١].

أي: إنّ ربّكم ومالكَ أمرِكم الذي تتعجَّبون مِن أن يُرسِل إليكم رجلًا منكم بالإنذار والتبشير وتَعدُّون ما أوحيَ إليه مِن الكتاب الحكيم سِحرًا هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها مِن أصول الكائنات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في ستّة أوقات، أو في مِقدار ستّة أيّام معهودة. فإنّ نفس اليوم الذي هو عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأرض ممّا لا يُتصوَّر تحقُّقه حين لا أرضَ ولا سماءَ.

وفي خلقها مدرَّجًا مع القدرة التامّة على إبداعها دفعةً دليلٌ على الاختيار، واعتبارٌ للنُّظّار، وحثٌّ لهم على التأنّي في الأحوال والأطوار. وأمّا تخصيص ذلك بالعدد المعيَّن فأمر قد استأثر بعِلم ما يَستدعيه علّامُ الغيوب، جلّت قُدرته ودقّت حِكمته. وإيثارُ صيغة الجمع في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لِما هو المشهور مِن الإيذان بأنّها أجرام مختلِفةُ الطباع متباينةُ الآثار والأحكام.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العرش: هو الجسم المحيط بسائر الأجسام، سُمِّي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسَرير المَلِك، فإنّ الأوامر والتدابير منه تَنزِل. وقيل: هو المُلك.[٤] ومعنى استوائِه سبحانه عليه: استيلاؤه عليه، أو استواء أمره. وعن أصحابنا أنّ الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف. والمعنى: أنّه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزَّهًا عن التمكّن والاستقرار. وهذا بيان لجلالة مُلكه وسلطانِه بعد بيان عظمة شأنه وسَعة قُدرتِه بما مرّ مِن خَلْق هاتيك الأجرام العظامِ.

---

[١] م: الله.

[٢] م: فأنّى.

[٣] م: تؤفكون.

[٤] القول في اللباب لابن عادل، ١٠/٢٦٠.

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ التدبير: النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقعَ على الوجه المحمود، والمراد ههنا: التقدير على الوجه الأتـمّ الأكمل. والمراد بـ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾: أمرُ مَلكوت السماوات والأرضِ والعرش، وغيرُ ذلك / مِن الجزئيّات الحادثةِ [٦٦ظ] شيئًا فشيئًا على أطوار شتّى وأنحاءٍ لا تكاد تحصى مِن المناسبات والمبايَنات في الذوات والصفات والأزمنة والأوقات، أي: يُقدِّر ما ذُكر مِن أمر الكائناتِ الذي ما تعجَّبوا منه مِن أمر البعث والوحي فردٌ مِن جُملته وشُعبة مِن دَوحته، ويُهيّئ أسباب كلّ منها حدوثًا وبقاءً في أوقاتها المعيَّنة ويُرتِّب مصالحَها على الوجه الفائق والنمط اللائق حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المَصلحة.

والجملة: في محلّ النصب على أنّها حال مِن ضمير ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾، وقد جُوِّز كونه خبرًا ثانيًا لـ﴿إِنَّ﴾، أو مستأنَفةٌ[١] لا محلّ لها مِن الإعراب،[٢] مَبنيّة على سؤال نشأ مِن ذكر الاستواءِ على العرش المنبئ عن إجراء أحكامِ الملك. وعلى كلّ حال فإيثار صيغةِ المضارعِ للدلالة على تجدّد التدبير واستمراره.

وقوله عزّ وعلا: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ بيان لاستبداده سبحانه في التقدير والتدبير ونفيٌ للشفاعة على أبلغ الوجوه، فإنّ نفيَ جميع أفراد الشفيع بـ﴿مِن﴾ الاستغراقيّة يستلزم نفيَ الشفاعة على أتـمّ الوجوه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[٣] [هود، ٤٣/١١]. وهذا بعد قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ جارٍ مَجرى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ [المؤمنون، ٨٨/٢٣]، عقيب قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [المؤمنون، ٨٨/٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعـمّ الأوقات، أي: ما مِن شفيع يشفَع لأحد في وقت مِن الأوقات إلّا بعد إذنه المَبني على الحِكمة الباهرة، وذلك عند كون الشفيع مِن المصطَفين الأخيار والمَشفوعِ له ممّن يليق بالشفاعة، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ

---

[١] السياق: والجملة في محلّ... أو مستأنفة...

[٢] الوجوه الثلاثة في التبيان للعكبري، ٦٦٤/٢؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٤٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٠/١٠.

[٣] وفي هامش م: فإنّ نفي العاصم مُستلزِم لنفي العِصمة، كما في قولهم: "ليس فيه داعٍ ولا مُجيبٌ"، فإنّه يدلّ على نفي الدعاء والإجابة على أبلغ وجه. «منه».

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ، ٣٨/٧٨]. وفيه مِن الدلالة على عظمة جلاله سبحانه ما لا يخفى.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة، أي: ذلكم العظيم الشأن المنعوت بما ذُكر مِن نعوت الكمال التي عليها يدور استحقاق الألوهيّة ﴿ٱللَّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ بيان له، أو بدل منه، أو خبر ثانٍ لاسم الإشارةِ. / وهذا بعد بيان أنّ ربّهم الله الذي خلَق السماواتِ والأرضَ... إلخ، لزيادة التقرير والمبالغة في التذكير، ولتفريع الأمر بالعبادة عليه بقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي: وحدَه مِن غير أن تُشركوا به شيئًا مِن مَلَك أو نبيّ، فضلًا عن جماد لا يُبصر ولا يَسمع ولا يَضرّ ولا ينفَع، وآمِنوا بما أنزله إليكم. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تعلمون أنّ الأمر كما فُصِّل، فلا تتذكّرون ذلك حتّى تقِفوا على فساد ما أنتم عليه فترتدِعوا عنه.[1] [٦٧و]

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾

﴿إِلَيۡهِ﴾ لا إلى أحد سواه استقلالًا أو اشتراكًا. ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي: بالبعث كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾، فإنّه حال مِن الضمير المجرورِ لكونه فاعلًا في المعنى، أي: إليه رُجوعكم مجتمِعين. والجملة كالتعليل لوجوب العبادة. ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد لنفسه، لأنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ وَعْد منه سبحانه بالبعث، أو لفعل مقدَّر،[2] أي: وعَدَ اللهُ. وأيًّا ما كان فهو دليل على أنّ المراد بالمَرجِع هو الرجوع بالبعث، لأنّ ما بالموت بمَعزِل مِن الوعد كما أنّه بمَعزِل مِن الاجتماع. وقُرئ بصيغة الفعل.[3] ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخرُ مؤكِّد لِما دلّ عليه الأوّل.

---

[1] وفي هامش م: بتوجيه الإنكار إلى المعطوف فقط، فإنّ عدم التذكّر بعد العِلم مُستنكَر جدًّا، ويجوز أن يُقدَّر المعطوف عليه منفيًّا، ويُوجَّه الإنكار إليهما معًا، أي: ألا تتأمّلون فلا تتذكّرون. «منه».

[2] السياق: مصدر مؤكِّد لنفسه... أو لفعل مُقدَّر...

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن السُلَمي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ وقُرئ: "يُبدِئُ".[١] ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهو استئناف عُلِّل به وجوب المَرجِع إليه سبحانه وتعالى، فإنّ غاية البدء والإعادة هو جزاء المكلَّفين بأعمالهم حسنة أو سيّئة. وقُرئ بالفتح،[٢] أي: لأنّه. ويجوز كونه منصوبًا بما نُصب ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾، أي: وعَد الله وَعدًا بَدْءَ الخلقِ ثـمّ إعادتَه؛ ومرفوعًا بما نَصب ﴿حَقًّا﴾، أي: حقّ حقًّا بدءُ الخلقِ... إلخ.

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: بالعدل، وهو حال مِن فاعل "يَجزي"، أي: ملتبِسًا بالعدل، أو متعلِّق بـ"يَجزي"، أي: ليجزيَهم بقسطه ويُوفّيَهم أجورَهم، وإنّما أُجمِل ذلك إيذانًا بأنّه لا يفي به الحصر، أو بقسطهم وعدلِهم عند إيمانِهم ومباشرتِهم للأعمال الصالحة. وهو الأنسبُ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾، فإنّ معناه: ويجزي الذين كفروا بسبب كُفرهم.

وتكرير الإسناد بجَعْل الجملة الظرفيّة خبرًا للموصول لتقوية الحُكم. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل للدلالة على مواظبتهم على الكفر. وتغيير النظم الكريم للإيذان بكمال استحقاقهم للعقاب، وأنّ التعذيب بمَعزِل عن الانتظام في سِلك العِلّة الغائيّة للخَلْق بدءًا وإعادةً، وإنّما يَحيق ذلك بالكَفَرة على موجَب سوء اختيارهم، وأمّا المقصود / الأصليُّ مِن ذلك[٣] فهو الإثابة. [٦٧ظ]

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾ تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعِلمه وقُدرته وحِكمته بآثار صُنعه في النيّرين، بعد التنبيه على الاستدلال

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن طلحة بن مُصرِّف والزُّهري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٤٩.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يزيد بن القعقاع وسهل بن شعيب وطلحة وأبي جعفر والأعمش وشيبة والزعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٤٨.

٣ وفي هامش م: أي: البدء والإعادة. «منه».

بما مرّ مِن إبداع السماوات والأرض والاستواءِ على العرش وغير ذلك، وبيانٌ لبعض أفراد التدبير الذي أشيرَ إليه إشارة إجمالية، وإرشادٌ إلى أنّه حيث دُبِّرت أمورهم المتعلِّقة بمَعاشهم هذا التدبيرَ البديعَ فلَأن يُدبِّر مصالحَهم المتعلِّقة بالمَعاد بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وتبيينِ طرائق الهدى وتعيينِ مَهاوي الردى أَولى وأحرى.

و"الجَعْل": إن جُعل بمعنى الإنشاء والإبداعِ ف﴿ضِيَآءً﴾ حالٌ مِن مفعوله، أي: خلقها حالَ كونها ذات ضياء على حذف المضاف، أو ضياءً مَحضًا للمبالغة؛ وإن جُعل بمعنى التصيير فهو مفعوله الثاني، أي: جعلها ضياءً على أحد الوجهين المذكورين، لكن لا بعد أن كانت خاليةً عن تلك الحالة؛ بل أبدعها كذلك، كما في قولهم: "ضيِّقْ فمَ الرَّكيّة ووسِّعْ أسفلها".[١] و"الضياء" مصدر ك"قِيام"، أو جمعُ "ضوءٍ"، ك"سِياط" و"سَوْط"، وياؤه منقلِبة مِن الواو لانكسار ما قبلها. وقُرئ: "ضِئَاءً"،[٢] بهمزتين بينهما ألف بتقديم اللام على العين.

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ الكلام فيه كالكلام في الشمس. والضياء أقوى مِن النور. وقيل: ما بالذات ضوءٌ وما بالعرَض نور.[٣] ففيه إشعار بأنّ نُورَه مستفاد مِن الشمس. ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: قدَّر له وهيّأ ﴿مَنَازِلَ﴾، أو قدَّر مَسيرَه في منازلَ، أو قدَّره ذا منازلَ، على تضمين التقدير معنى التصيير. وتخصيص القمر بهذا[٤] التقدير: لسرعة سَيره، ومعاينة مَنازِله، وتعلُّقِ أحكام الشريعة به، وكونه عمدةً في تواريخ العرب. وقد جُعل الضمير / لكلّ منهما. [٦٨و]

وهي ثمانية وعشرون مَنزلًا، ينزِل القمر كلّ ليلةٍ في واحد منها لا يتخطّاه ولا يتقاصَر عنه على تقدير مستوٍ لا يتفاوت، يسير فيها مِن ليلة المستهلّ إلى الثامنة والعشرين، فإذا كان في آخر مَنازِله دقّ واستقوس، ثمّ يَستسرّ ليلتين أو ليلةً إذا نقص الشهر.

---

[١] مثَّل به الزمخشري في الكشّاف، ١١٧/٤ (غافر، ١٢/٤٠)، وقال بعده: «وليس ثمّة نقل... مِن ضِيق إلى سَعة ولا مِن سَعة إلى ضِيق، وإنّما أردتَ الإنشاء على تلك الصفات».

[٢] قرأ بها ابن كثير في رواية قنبل عنه. النشر لابن الجزري، ٤٠٦/١.

[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٠/٢.

[٤] وفي هامش م: الباء داخلة على المقصور. «منه».

ويكون مقام الشمس في كلّ مَنزلةٍ منها ثلاثةَ عشرَ يومًا. وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نَسَبت إليها العربُ الأنواءَ المستمطَرة وهي: الشرطان، والبُطَين، والثُّريا، الدَّبَرانُ، الهَقعَة، الهَنعَة، الذِّراع، النثرة، الطوف،[1] الجَبهة، الزُّبرَة، الصَّرفة، العَوّاء، السِّمَاك، الغَفْر، الزُّباني، الإكليل، القَلْب، الشَّولة، النعائم، البلدة، سعدُ الذابح، سعدُ بُلَع، سعدُ السُّعودِ، سعدُ الأخبية، فرغُ الدَّلو المقدَّم، فرغُ الدَّلو المؤخَّر، الرِّشاء، وهو بطن الحوت.[2]

﴿لِتَعۡلَمُواْ﴾ إمّا بتعاقب الليل والنهار المَنوطَين بطلوع الشمس وغروبها أو باعتبار نزول كلّ منهما في تلك المنازل.[3] ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي يتعلّق بها غرض علميٌّ لإقامة مصالحِكم الدينيّة والدنيويّة. ﴿وَٱلۡحِسَابَ﴾ أي: حسابَ الأوقات[4] مِن الأشهر والأيّام والليالي وغير ذلك ممّا نِيط به شيء مِن المصالح المذكورة. وتخصيص العدد بالسنين والحساب بالأوقات لِما أنّه لم يُعتبر في السنين المَعدودة معنى مغاير لمَراتب الأعداد، كما اعتُبر في الأوقات المَحسوبة.

وتحقيقه أنّ "الحساب" إحصاءُ ما له كمّيّة انفصاليّة بتكرير أمثاله مِن حيث يتحصَّل بطائفة معيَّنة منها حدٌّ معيَّنٌ له اسم خاصّ وحُكم مستقِلّ. كالسَّنة المتحصِّلة مِن اثني عشرَ شهرًا، قد تحصَّل كلّ مِن ذلك مِن ثلاثين يومًا[5] قد تحصَّل كلّ مِن ذلك مِن أربع وعشرين ساعةً مثلًا. و"العدّ" مجرَّد إحصائه بتكرير أمثاله مِن غير اعتبار أن يتحصَّل بذلك شيء كذلك.

ولمّا لم يُعتَبر في السنين المَعدودةِ تحصُّل حدّ معيَّن له اسم خاصّ غيرُ أسامي مراتبِ الأعدادِ وحُكم مستقِلٌّ أُضيف[6] إليها العدد. وتحصُّلُ مراتب الأعداد مِن العشَرات / والمئات والألوف اعتباري لا يُجدي في تحصُّل المَعدود نفعًا. [٦٨ظ]

---

[1] كذا وقع في الأصل. وصوابه: الطرف. انظر: الأنواء لابن قتيبة، ص ٥٥.

[2] انظر تفصيل الكلام على منازل القمر في الأنواء لابن قتيبة، ص ٢٠-٨٩.

[3] وفي هامش م: ثمّ الظاهر أنّ المراد: البروج، إذ بها وبقطعها يُعلَم عدد السنين والحساب، بقرانه مع الشمس وظهور بعده، وذلك لأنّ المُعتبَر مِن الشَّرع السنَة القمريّة والشهر الهلالي. تفتازاني. | والكلام في حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٣٩٧ظ.

[4] وفي هامش م: على أنّ الألف واللام عِوض عن المضاف إليه. | عُلِّق تحتها «يحا».

[5] وفي هامش م: فإنّ الليلة محسوبة مِن يومها. «منه».

[6] وفي هامش م: جواب لمّا. «منه».

وحيث اعتُبر في الأوقات المَحسوبة تحصُلُ ما ذُكر مِن المراتب التي لها أسامٍ خاصّةٌ وأحكام مستقلّة عُلِّق بها الحساب المنبئُ عن ذلك.

والسَّنةُ مِن حيث تحقّقُها في نفسها ممّا يتعلّق به الحساب، وإنّما الذي يتعلّق به العدّ طائفة منها، وتعلُّقه في ضمن ذلك بكلّ واحدةٍ مِن تلك الطائفة ليس مِن الحيثيّة المذكورة، أعني: حيثيّةَ تحصُّلها مِن عدّة أشهُر قد تحصَّل كلُّ واحدٍ منها مِن عدّة أيّام قد حصل كلّ منها بطائفة مِن الساعات، فإنّ ذلك وظيفة الحساب؛ بل مِن حيث إنّها فردٌ مِن تلك الطائفة المعدودة مِن غير أن يُعتَبر معها شيء غير ذلك. وتقديم العدد على الحساب مع أنّ الترتيب بين متعلَّقيهما وُجودًا وعِلمًا على العكس، لأنّ العِلم المتعلِّق بعدد السنين عِلمٌ إجمالي بما تعلَّق به الحسابُ تفصيلًا وإن لم يتَّحِد الجهةُ، أو لأنّ العدد مِن حيث إنّه لم يُعتَبر فيه تحصّلُ أمرٍ آخرَ -حسبما حُقِّق آنفًا- نازلٍ مِن الحساب الذي اعتُبر فيه ذلك منزلةَ البسيط مِن المركَّب.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الشمس والقمر على ما حُكي مِن الأحوال. وفيه إيذان بأنّ معنى جعلهما على تلك الأحوال والهيئات ليس إلّا خلقَهما كذلك كما أشيرَ إليه، ولا يَقدَح في ذلك أنّ استفادة القمر النورَ مِن الشمس أمرٌ حادث، فإنّ المراد بجَعْله نورًا إنّما هو جَعْله بحيث يتَّصف بالنور عند وجودِ شرائطِه، لا اتّصافُه به بالفعل.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ أحوالِ الفاعل أو المفعول، أي: ما خلق ذلك ملتبِسًا بشيء مِن الأشياء إلّا ملتبِسًا بالحقّ مراعيًا[1] لمقتضى الحِكمة البالغةِ أو مراعًى[2] فيه ذلك، وهو ما أشيرَ إليه إجمالًا مِن العِلم بأحوال السنين والأوقات المَنوط به أمورُ معاملاتهم وعباداتهم.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: الآياتِ التكوينيّةَ المذكورة، أو جميعَ الآيات، فيَدخل فيها الآيات المذكورة / دُخولًا أوّليًّا، أو يُفصِّل الآياتِ التنزيليّةَ المنبِّهة على ذلك. [٦٩و]

---

[1] وفي هامش م: على تقدير كونه حالًا مِن الفاعل. «منه».

[2] وفي هامش م: على تقدير كونه حالًا مِن المفعول. «منه».

وقُرئ: بنون العظمة.[١] ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحكمةَ في إبداع الكائنات فيستدلّون بذلك على شئون مُبدعِها جلّ وعلا، أو يعلمون ما في تضاعيف الآيات المنزلة فيُؤمنون بها. وتخصيص التفصيلِ بهم لأنّهم المنتفِعون به.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تنبيه آخرُ إجمالي على ما ذُكر، أي: في تعاقبهما وكون كلّ منهما خِلْفةً للآخر بحسَب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السماوات وسكونِ الأرض، أو في تفاوُتهما في أنفسِهما بازدياد كلّ منهما بانتقاص الآخر وانتقاصِه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قُربًا وبُعدًا بحسَب الأزمنة، أو في اختلافهما وتفاوتِهما بحسب الأمكنة؛ إمّا في الطول والقِصَر، فإنّ البلاد القريبة مِن القُطب الشمالي أيّامُها الصيفيّة أطول ولياليها الصيفيّةُ أقصرُ مِن أيّام البلاد البعيدةِ منه ولياليها؛ وإمّا في أنفسهما[٢] فإنّ كُرَيّة الأرضِ تقتضي أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلًا وفي مقابله نهارًا.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن أصناف المَصنوعات ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالّةً على وجود الصانع تعالى ووَحدته وكمالِ علمِه وقُدرتِه وبالِغ حكمته التي مِن جملة مقتضياتِها ما أنكروه مِن إرسال الرسول وإنزال الكتاب والبعثِ والجزاء.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصّهم بذلك لأنّ الداعيَ إلى النظر والتدبّر إنّما هو تقوى الله تعالى والحذرُ مِن العاقبة، فهُمْ الواقفون على أنّ جميع المخلوقات آياتٌ دون غيرهم. ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف، ١٢/١٠٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بيان لمآل أمر مَن كفَر بالبعث وأعرَض عن البيّنات

---

[١] قرأ بها نافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.

[٢] ط س: أنفسها.

الدالّة عليه بعد تحقيق أنّ مَرجِع الكلّ إليه تعالى وأنّه يُعيدهم بعد بدئِهم للجزاء ثوابًا وعقابًا وتفصيلِ بعض الآياتِ الشاهدة بذلك. والمراد بلقائه تعالى إمّا الرجوع إليه تعالى بالبعث، أو لقاءُ الحساب كما في قوله عزّ وعلا: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة، ٢٠/٦٩]. وأيًّا ما كان ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالة مِن تهويل الأمر ما لا يخفى.

والمراد بعدم الرجاء عدمُ التوقّع مطلقًا المنتظِم لعدم الأملِ وعدمِ الخوف، فإنّ عدمهما لا يستدعي عدم اعتقاد وقوع المأمول والمَخوف، أي: لا يتوقّعون الرجوع إلينا أو لقاء حسابنا المؤدّي إمّا إلى حُسن الثواب أو إلى سُوء العذاب. فلا يأمُلون الأوّل، وإليه أشيرَ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فإنّه منبئ عن إيثار الأدنى الخسيس على الأعلى النفيس، كقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [التوبة، ٣٨/٩] ولا يخافون الثانيَ وإليه أشيرَ بقوله تعالى: ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ أي: سكَنوا فيها سكونَ مَن لا بَراحَ له منها آمنين مِن اعتراء المزعِجات غيرَ مخطرين ببالهم ما يَسوءهم مِن عذابنا.

وقيل: المراد بالرجاء معناه الحقيقيُّ، وباللقاء حسنُ اللقاء.[1] أي: لا يأمُلون حُسن لقائنا بالبعث والإحياء بالحياة الأبديّة، ورضُوا بدلًا منها وممّا فيها مِن فنون الكرامات السنيّة بالحياة الدنيا الدنيّة الفانية، واطمأنُّوا بها، أي: سكَنوا إليها مُكبِّين عليها قاصرين مَجامعَ هِمَم على لذائذها وزخارفِها مِن غير صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يَثنيهم.

[٦٩ظ] وإيثار الباءِ على كلمة "إلى" المنبئة / عن مجرَّد الوصول والانتهاء للإيذان بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة. وحملُ الرجاء على الخوف فقط يأباه كلمةُ الرضا بالحياة الدنيا، فإنّها منبئة عما ذُكر مِن ترك الأعلى وأخذِ الأدنى. واختيار صيغةِ الماضي في الصلتين الأخيرتين للدلالة على التحقّق والتقّرر، كما أنّ اختيار صيغة المستقبل في الأُولى للإيذان باستمرار عدم الرجاء.

---

[1] القول في حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٣٩٧ظ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ المفصَّلة في صحائف الأكوان حسبما أشيرَ إلى بعضها، أو آياتنا المنزلِة المنبِّهة على الاستشهاد بها، المتّفقةِ معها في الدلالة على حقّيّة ما لا يَرجونه مِن اللقاء المترتِّب على البعث وعلى بطلان ما رضُوا به واطمأنّوا إليه مِن الحياة الدنيا. ﴿غَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكّرون فيها أصلًا وإن نُبِّهوا على ذلك وذُكِّروا بأنواع القوارع لانهماكهم فيما يَصُدّهم عنها مِن الأحوال المعدودة. وتكرير الموصول للتوسّل به إلى جعل صلته جملةً اسميّةً منبئةً عمّا هم عليه مِن استمرار الغفلة ودوامها. وتنزيل التغاير الوصفي مَنزلةَ التغاير الذاتي إيذانًا بمغايرة الوصف الأخير للأوصاف الأُوَل واستقلاله باستتباع العذاب.

هذا، وأمّا ما قيل مِن أنّ العطف إمّا لتغاير الوصفين والتنبيهِ على أنّ الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسًا، والانهماكِ في الشهوات، بحيث لا يخطُر ببالهم الآخرةُ أصلًا؛ وإمّا لتغاير الفريقين، والمرادُ بالأوّلين مَن أنكَر البعث ولم يرَ إلّا الحياةَ الدنيا، وبالآخِرين مَن ألهاه حبُّ العاجل عن التأمّل في الآجل،[1] فكلام ناءٍ عن السَّداد،[2] فتأمَّل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن صفات السوء ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: مَسكَنهم ومَقرّهم الذي لا بَراحَ لهم منه ﴿ٱلنَّارُ﴾ لا ما اطمأنّوا بها مِن الحياة الدنيا ونعيمها ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ مِن الأعمال القلبيّةِ المعدودة وما تستتبعه مِن أصناف المعاصي والسيّئاتِ أو بكَسْبهم إيّاها. والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجدّدي. والباء متعلِّقة بمضمون الجملة الأخيرة الواقعة خبرًا عن اسم الإشارة، وهو مع خبرِه خبرٌ لـ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾... إلخ.[3]

---

١ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٩٠-٩١.

٢ السياق: وأمّا ما قيل... فكلام ناءٍ...

٣ في الآية السابقة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾

/ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: فعلوا الإيمان، أو آمنوا بما تشهَد به الآيات التي [٧٠و] غفَل عنها الغافلون، أو بكلّ ما يجب أن يُؤمَن به فيَندرجُ فيه ذلك اندراجًا أوّليًا. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمال الصالحة في أنفسها اللائقة بالإيمان،[١] وإنّما تُرك ذِكر الموصوف لجريانها مَجرى الأسماء.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ أُوثر الالتفات تشريفًا لهم بإضافة الربّ إليهم، وإشعارًا بعِلّة الهداية. ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: يَهديهم بسبب إيمانِهم إلى مأواهم[٢] ومَقصِدهم وهي الجنّة، وإنّما لم تُذكَر تعويلًا على ظهورها وانسياقِ النفس إليها، لا سيّما بمُلاحظة ما سبق مِن بيان مأوى الكفَرة وما آواهم إليه مِن أعمالهم السيّئةِ ومشاهَدة ما لحِق مِن التلويح[٣] والتصريح.[٤]

وفي النظم الكريم إشعار بأنّ مجرَّد الإيمان والعمل الصالح لا يكفي في الوصول إلى الجنّة؛ بل لا بدّ بعد ذلك مِن الهداية الربّانيّة، وأنّ الكفر والمعاصيَ كافية في دخول النار. ثمّ إنّه لا نزاعَ في أنّ المراد بالإيمان الذي جُعل سببًا لتلك الهداية هو إيمانُهم الخاصُّ المشفوع بالأعمال الصالحة، لا الإيمانُ المجرَّد عنها، ولا ما هو أعمُّ منهما، إلّا أنّ ذلك بمَعزِل عن الدلالة، على خلاف ما عليه أهل السُّنّة والجماعة مِن أنّ الإيمان الخاليَ عن العمل الصالح يُفضي إلى الجنّة في الجملة ولا يخلّد صاحبُه في النار.

فإنّ منطوق الآية الكريمة أنّ الإيمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية إلى الجنّة. وأمّا أن كلّ ما هو سببٌ لها يجب أن يكون كذلك، فلا دلالةَ لها ولا لغيرها عليه قطعًا، كيف لا، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام، ٦/٨٢] مُنادٍ بخلافه، فإنّ المراد بالظلم هو الشركُ،

---

١ وفي هامش م: فيندرج فيها رجاء لقائه سبحانه والاجتناب عن الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها. «منه».

٢ في هامش م: يُصرِّح بها. «يحا».

٣ وفي هامش م: هو قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. «منه».

٤ وفي هامش م: هو قوله: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. «منه».

كما أطبق عليه المفسّرون. والمعنى: لم يخلِطوا إيمانَهم بشِرك، ولئن حُمل على ظاهره أيضًا يدخُل في الاهتداءِ مَن آمن ولم يعمل صالحًا، ثمّ مات قبل أن يَظلِم بفعل حرام أو بتركِ واجب.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: بين أيديهم كقوله سبحانه: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ [الزخرف، ٥١/٤٣]، أو تجري وهم على / سُرر مرفوعة وأرائِكَ مصفوفة. [٧٠ظ] والجملة مستأنَفة، أو خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو حالٌ مِن مفعول ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾ على تقدير كون المَهدي إليه ما يريدونه في الجنّة كما قيل.[١] وقيل: يهديهم ويُسدِّدهم للاستقامة على سلوك السبيلِ المؤدّي إلى الثواب والجنّة.[٢]

وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جارٍ مَجرى التفسير والبيان، فإنّ التمسّك بحبل السعادة في حُكم الوصول إليها. وقيل: يَهديهم إلى إدراك الحقائق البديعة بحسب القوّة العمليّة،[٣] كما قال عليه السلام: «مَن عمِل بما علِم ورَّثه الله عِلمَ ما لم يعلَم».[٤] ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبر آخرُ، أو حال أخرى منه، أو مِن ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، أو متعلِّق بـ﴿تَجۡرِي﴾، أو بـ"يهدي". فالمراد بالمَهدي إليه إمّا منازلهم في الجنّة، أو ما يريدونه فيها.

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: دعاؤهم وهو مبتدأ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فِيهَا﴾ متعلِّق به، وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ خبرُه، أي: دعاؤهم هذا الكلام. وهو معمول لمقدَّر لا يجوز إظهاره، والمعنى: اللّٰهمّ إنّا نُسبِّحك تسبيحًا. ولعلّهم يقولونه عندما عاينوا فيها مِن تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتائج رحمته ورأفته ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطَر على قلب بشَر، تقديسًا لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصان، وتنزيهًا لوعده الكريم عن سِمات الخُلف.

---

[١] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢.

[٢] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٦/٢-٢٤٧.

[٣] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢.

[٤] حلية الأولياء لأبي نُعيم، ١٦٣/٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢؛ تفسير ابن كثير، ٤٣٧/٨ (العلق، ٥/٩٦).

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ التحيّة: التكرِمة بالحالة الجليلة، أصلُها: "أحياكَ الله حياةً طيّبة"، أي: ما يُحيّي به بعضهم بعضًا، أو تحيّةُ الملائكة إيّاهم،[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد، ٢٣/١٣]، أو تحيّةُ الله عزّ وجلّ لهم، كما في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس، ٥٨/٣٦]. ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: سلامة عن كلّ مكروه.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: خاتمة دعائِهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أن يقولوا ذلك نعتًا له عزّ وجلّ بصفات الإكرام إثرَ نعتِه تعالى بصفات الجلال، أي: دعاؤهم منحصِر فيما ذُكِر، إذ ليس لهم مَطلَب مترقَّب حتّى ينتظموه في سِلك الدعاء. و﴿أَنِ﴾ هي المخفَّفة مِن "أنّ" المثقَّلة، أصلُه: "أنّه الحمدُ لله"، فحُذف ضمير الشأن، كما في قوله:

أنْ هـالـكٌ كـلُّ مَـن يَحفى ويَنتـعِلُ[2]

وقُرِئ: "أنّ الحَمْدَ للهِ"[3] بالتشديد ونَصْب "الحمد". ولعلّ توسيطَ ذِكر تحيّتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمتِه / للتوسّل إلى خَتْم الحكاية بالتحميد تبرّكًا مع أنّ التحيّة ليست بأجنبيّة على الإطلاق. [٧١و]

ودعوى كون ترتيبِ الوقوع أيضًا كذلك، بأن كانوا حين دخلوا الجنّة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءَه مجّدوه تعالى[4] ونعَتوه بصفات[5] الجلال، ثمّ حيّاهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات، أو حيّاهم بذلك ربُّ العزّة فحمِدوه تعالى وأثنَوا عليه،[6] يأباها إضافة "الآخِر" إلى دعواهم.[7]

---

[1] وفي هامش م: على الإضافة إلى المفعول.

[2] عجز بيت للأعشى مِن معلّقته، وصدره:
في فِتيةٍ كسيوف الهِندِ قد عَلِموا
وهو له بهذه الرواية شاهدًا على ما نحن فيه في كتاب سيبويه، ١٣٧/٢؛ وبلا نسبة في المُفصَّل للزمخشري، ص ٣٠٢؛ وعجزه في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٧/٢. وهو في شرح القصائد العشر للتبريزي، ص ٢٩٧. وروايته في ديوان الأعشى، ص ٥٩:
إمّـا تَـرَيـنـا حُـفـاةً لا نِـعـالَ لنا
إنّـا كـذلـك مـا نـحفى ونـنـتعلُ

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن بلال بن أبي بُردة وابن مُحيصن وأبو حَيْوة وابن مِقسَم والزعفراني وأبو حنيفة والمنهال والوليد والفزاري عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ٩٥٠.

[4] ط س - تعالى.

[5] ط س: بنعوت. | وفي هامش ط: بصفات [نحا].

[6] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢-٩٢.

[7] السياق: ودعوى كون ترتيب... يأباها إضافة الآخر...

وقد جُوِّز أن يكون المراد بالدعاء العبادةَ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾... إلخ، [مريم، ١٩/٤٨]، إيذانًا بألّا تكليفَ في الجنّة، أي: ما عبادتهم إلّا أن يُسبِّحوه ويَحمَدوه، وليس ذلك بعبادة، إنّما يُلهَمونه فينطقون به تلذّذًا.[١] ولا يساعده تعيينُ الخاتمة.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين لا يَرجون لقاءَ الله تعالى لإنكارهم البعث وما يترتّب عليه مِن الحساب والجزاء. أشيرَ إلى بعض مِن عظائمِ معاصيهم المتفرِّعة على ذلك وهو استعجالهم بما أُوعدوا به مِن العذاب تكذيبًا واستهزاءً وإيرادُهم باسم الجنس لِما أنّ تعجيل الخير لهم ليس دائرًا على وصفهم المذكور، إذ ليس كلُّ ذلك بطريق الاستدراج، أي: لو يُعجِّل الله لهم ﴿ٱلشَّرَّ﴾ الذي كانوا يستعجلون به، فإنّهم كانوا يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، ٨/٣٢]، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ نُصب على أنّه مصدر تشبيهي وُضع مَوضِعَ مصدرِ ناصبه دلالةً على اعتبار الاستعجالِ في جانب المشبَّه كاعتبار التعجيل في جانب المشبَّه به، وإشعارًا بسرعة إجابته تعالى لهم حتّى كأنّ استعجالهم بالخير نفس تعجيله لهم، والتقدير: ولو يُعجِّل الله لهم الشرَّ عند استعجالهم به تعجيلًا مِثلَ تعجيله لهم الخيرَ عند استعجالِهم به. فحُذف ما حُذف تعويلًا على دلالة الباقي عليه.

﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي:[٢] لأُدِّيَ إليهم الأجل الذي عُيِّن لعذابهم وأُميتوا وأُهلِكوا بالمرّة، وما أُمهلوا طرفةَ عين. وفي إيثار صيغة المَبني / للمفعول جريٌ على سَنن الكبرياء، مع الإيذان بتعيُّن الفاعل.[٣] وقُرئ على البناء للفاعل،[٤] كما قُرئ: [٧١ظ]

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٧.
٢ ط س - أي.
٣ ط س - مع الإيذان بتعيين الفاعل.
٤ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.

"لَقَضَيْنَا".[١] واختيار صيغة الاستقبال في الشرط، وإن كان المعنى على المُضيّ، لإفادة أنّ عدم قضاءِ الأجل لاستمرار عدم التعجيل، فإنّ المضارع المَنفي الواقع مَوقِع الماضي ليس بنصّ في إفادة انتفاء استمرار الفعل؛ بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضًا بحسب المقام، كما حُقّق في موضعه.

واعلم أنّ مدار الإفادة في الشرطيّة أن يكون التالي أمرًا مغايرًا للمقدَّم في نفسه مترتّبًا عليه في الوجود، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات، ٧/٤٩]، فإنّ العنَت، أي: الوقوع في المَشقّة والهلاك أمرٌ مغايرٌ لطاعته عليه السلام لهم مترتِّبٌ عليها في الوجود، أو يكون فردًا كاملًا مِن أفراده ممتازًا عن البقيّة بأمر يَخصّه، كما في الأجوبة المحذوفة في مِثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام، ٣٠/٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام، ٢٧/٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢]، ونظائرِها، أي: لرأيتَ أمرًا هائلًا فظيعًا، أو نحوَ ذلك. وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر، ٤٥/٣٥] إذا فُسّر الجواب بالاستئصال، فإنّه فرد كامل مِن أفراد مطلَق المؤاخَذة قد عُبّر عنه بما لا مَزيدَ عليه في الدلالة على الشدّة والفظاعة، فحسنُ مَوقعه في مَعرِض التالي للمؤاخَذة المطلَقة.

وأمّا ما نحن فيه مِن القضاء فليس بأمر مغاير لتعجيل الشرّ في نفسه، وهو ظاهر؛ بل هو إمّا نفسُه أو جزئي منه كسائر جزئيّاته مِن غير مزيّة له على البقيّة؛ إذ لم يُعتبَر في مفهومه ما ليس في مفهوم تعجيل الشرّ مِن الشدّة والهَول، فلا يكون في ترتيبه عليه وجودًا أو عدمًا مَزيدُ فائدة مصحِّحة لجعلِه تاليًا له. فالحقّ أنّ المقدَّم ليس نفس التعجيل المذكور؛ بل هو إرادته المستتبَعة للقضاء المذكور وجودًا وعدمًا، كما في قوله تعالى:[٢] ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف، ٥٨/١٨]، أي: لو يريد مؤاخَذتهم، فإنّ تعجيل العذاب لهم

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مُحيصن والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

[٢] س – تعالى.

نفسُ المؤاخَذة، أو جزئي مِن جزئيّاتها غيرُ ممتاز عن البقيّة، فليس في بيان ترتّبه عليها وجودًا أو عدمًا مَزيدُ فائدة، وإنّما الفائدة في بيان ترتّبه على إرادتها حسبما ذُكر، وأيضًا في ترتيب التالي على إرادة المقدَّم ما ليس في ترتيبه على نفسه مِن الدلالة على[1] المبالغة وتهويل الأمر والدلالة على أنّ الأمور مَنوطةٌ بإرادته تعالى المَبنيّة على الحِكم البالغة.

[٧٢و] / ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بنون العظمة الدالّة على التشديد في الوعيد، وهو عطفٌ على مقدَّر تُنبئ عنه الشرطيّة، كأنّه قيل: لكن لا نفعل ذلك لِما تقتضيه الحكمة، فنتركهم إمهالًا واستدراجًا. ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ الذي هو عدم رجاء اللقاء، وإنكارُ البعث والجزاء وما يتفرّع على ذلك مِن أعمالهم السيّئةِ ومَقالاتهم الشنيعة. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي:[2] يتردّدون ويتحيّرون، ففي وضع الموصول مَوضعَ الضمير نوعُ بيان للطغيان بما في حيّز الصلة، وإشعار بعلّيّته للترك والاستدراج.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: أصابه جنس الضُّرّ مِن مرض وفقر وغيرهما مِن الشدائد إصابةً يسيرة. ﴿دَعَانَا﴾ لكشفه وإزالته. ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ حال مِن فاعل "دعا" بشهادة ما عُطف عليه مِن الحالين، واللام بمعنى "على"، كما في قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء، ١٧/١٠٧]، أي: دعانا كائنًا على جنبه، أي: مضطجِعًا. ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: في جميع الأحوال ممّا ذُكر وما لم يُذكَر. وتخصيص المعدودات بالذِّكر لعدم خلوّ الإنسان عنها عادةً، أو دعانا في جميع أحوال مرضه على أنّه المراد بالضُّرّ خاصّة، مضطجَعًا عاجزًا عن القعود، وقاعدًا غيرَ قادر على النهوض، وقائمًا لا يستطيع الحَراك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ الذي مَسّه غِبَّ ما دعانا، حسبما ينبئ عنه الفاء. ﴿مَرَّ﴾ أي: مضى واستمرّ على طريقته التي كان يَنتحيها قبل مِساس الضُّرّ ونسيَ

---

[1] ط س – الدلالة على.

[2] ط س – أي.

حالة الجَهد والبلاء، أو مرّ عن موقف الضراعة والابتهال ونأى بجانبه. ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ أي: كأنّه لم يَدعُنا، فخُفِّف وحُذف ضمير الشأن، كما في قوله:

كأنْ لم يكن بين الحَجون إلى الصَّفا[1]

والجملة التشبيهيّة في محلّ النصب على الحاليّة مِن فاعل ﴿مَرَّ﴾، أي: مرّ مشبَّهًا بمَن لم يَدعُنا. ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ﴾ أي: إلى كشف ضُرّ ﴿مَّسَّهُۥ﴾. وهذا وصفٌ للجنس باعتبار حال بعض أفرادِه ممّن هو متّصف بهذه الصفات.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب على المصدريّة، وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الآتي، وما فيه مِن معنى البعدِ للتفخيم، والكاف مُقحَمة للدلالة على زيادة فخامة المشار إليه إقحامًا لا يكاد يُترَك في لغة العَرب ولا في غيرها، ومِن ذلك قولهم: "مِثلُك لا يَبخَل" مكان "أنت لا تبخل".[2] أي: / مِثل ذلك التزيين العجيب. [٧٢ظ]

﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: للموصوفين بما ذُكر مِن الصفات الذميمة. وإسرافهم لِما أنّ البارئ[3] تعالى إنّما أعطاهم القُوى والمَشاعر ليَصرفوها إلى مَصارفها ويستعملوها فيما خُلقن له مِن العلوم والأعمال الصالحة، فلمّا صرفوها إلى ما لا ينبغي وهي رأسُ مالِهم فقد أتلفوها وأسرفوا إسرافًا ظاهرًا. والتزيين إمّا مِن جهة الله تعالى بطريق[4] التخلية والخِذلان، أو مِن الشيطان بالوسوسة والتسويل.

﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مِن الإعراض عن الذِّكر والدعاء والانهماك في الشهوات. وتعلُّق الآية الكريمة بما قبلها مِن حيث إنّ في كلّ منهما إملاءً للكفَرة على طريقة الاستدراج بعد الإنقاذ مِن الشرّ المقدَّر في الأولى ومِن الضُّرّ المقرَّر في الأخرى.

---

[1] في هامش م: تمامه:

أنيسٌ ولم يسمُر بمكّةَ سامرُ

والبيت لمُضَاض بن عمرو بن الحارث بن مُضَاض الجُرهُميّ، وقد يُنسب لأبيه عمرو أو لجدّه الحارث. انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ١٥/١٨؛ ومعجم الشعراء للمَرزُباني، ص ٢٧؛ والصحاح للجوهري، «حجن»؛ ومعجم البلدان للحموي، ٢/٢٢٥. وفي الأخير: «الحَجون: جبلٌ بأعلى مكّة عنده مدافن أهلها».

[2] انظر الكلام على هذا الأسلوب في دلائل الإعجاز للجرجاني، ص ١٣٨-١٤٠؛ ومفتاح العلوم للسكّاكي، ص ٣٢٨.

[3] ط س: الله.

[4] ط س: على طريقة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ أي: القرون الخالية مِثلَ قوم نوح وعاد وأضرابِهم. و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ متعلِّقة بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: أهلكناهم مِن قبل زمانِكم. والخطاب لأهل مكّةَ على طريقة الالتفات للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتأكيد[١] القَسمي. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ ظرف للإهلاك، أي: أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتمادي في الغَيّ والضلال مِن غير تأخير.

وقوله تعالى:[٢] ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ حال[٣] مِن ضمير ﴿ظَلَمُوا۟﴾، بإضمار "قد".[٤] وقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ متعلِّق بـ﴿جَآءَتْهُمْ﴾، على أنّ الباء للتعدية، أو بمحذوف هو[٥] حال[٦] مِن ﴿رُسُلُهُم﴾، دالّة على إفراطهم في الظلم وتناهيهم في المُكابَرة، أي: ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البيّنة الدالّة على صدقهم، أو ملتبِسين بها حين لا مجالَ للتكذيب.

وقد جُوِّز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾[٧] عطفًا[٨] على ﴿ظَلَمُوا۟﴾،[٩] فلا محلَّ له[١٠] مِن الإعراب[١١] عند سيبويه، وعند غيره مَحلُّه[١٢] الجرُّ؛ لأنّه[١٣] معطوف[١٤] على ما هو مجرور بإضافة الظرف إليه.[١٥] وليس الظلم منحصِرًا في التكذيب حتّى يُحتاج إلى الاعتذار بأنّ الترتيب الذِّكري لا يجِب كونه على وَفق الترتيب الوقوعي،

---

١ ط س: بالتوكيد.

٢ ط س - وقوله تعالى.

٣ ط س: الواو للحال.

٤ ط س - بإضمار "قد".

٥ ط س: وقع.

٦ ط س: حالًا.

٧ ط س - قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾.

٨ ط س: للعطف.

٩ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٨؛ التبيان للعُكبري، ٢/٦٦٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٩٢.

١٠ ط س: للجملة.

١١ ط س - مِن الإعراب.

١٢ ط س: محلّها.

١٣ ط س: لأنّها.

١٤ ط س: معطوفة.

١٥ الكلام في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/١٦٢؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٢٨٠. وانظر الكلام على "لمّا" في كتاب سيبويه، ٤/٢٣٤. هذا على التسليم بأنّ مذهب سيبويه في "لمّا" أنّها حرف، وهو ما فهمه ابن خروف مِن كلامه، وعند المُحقِّقين أنّها عنده ظرف. انظر: شرح الرضيّ على الكافية، ٣/٢٣٠-٢٣١؛ والمُطوَّل للتفتازاني، ص ٩.

كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾... إلخ، [يوسف، ١٢/١٠٠]؛ بل هو محمول على سائر أنواع الظلم.

والتكذيب مستفاد مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ على أبلغ وجه وآكده، فإنّ اللام لتأكيد النفي، أي: وما صحّ وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله تعالى إيّاهم لعلمه بأنّ الألطاف لا تنجَع فيهم. والجملة على الأوّل عطفٌ على ﴿ظَلَمُواْ﴾؛ لأنّه إخبار بإحداث التكذيب، وهذا بالإصرار عليه، وعلى الثاني عطفٌ على ما عُطف عليه.

وقيل: اعتراض بين الفعل وما يجري مَجرى مصدره التشبيهي،[1] أعني: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، فإنّ الجزاء المشار إليه عبارة عن مصدره، أي: مِثلَ ذلك الجزاء / الفظيع، أي: الإهلاكِ الشديد الذي هو الاستئصال بالمرّة. ﴿نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كلَّ طائفة مجرِمة. وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لأهل مكّةَ لاشتراكهم لأولئك المهلَكين في الجرائم والجرائر التي هي تكذيب الرسول والإصرارُ عليه، وتقريرٌ لمضمون ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾.[2] وقُرئ بالياء[3] على الالتفات إلى الغيبة. [٧٣و]

وقد جُوِّز أن يكون المراد بـ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أهلَ مكّةَ،[4] على طريقة وضعِ الظاهر مَوضعَ ضميرِ الخطاب، إيذانًا بأنّهم أعلامٌ في الإجرام، ويأباه كلَّ الإباء قولُه عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ فإنّه صريح في أنّه ابتداء تعرّضٍ لأمورهم، وأنّ ما بيِّن فيه إنّما هو مبادي أحوالهم لاختبار كيفيّات أعمالهم على وجه يُشعِر باستمالتهم نحوَ الإيمان والطاعة، فمُحال أن يكون ذلك إثرَ بيان منتهى أمرهم وخطابِهم ببتّ القول بإهلاكهم لكمال إجرامهم. والمعنى: ثمّ استخلفناكم في الأرض مِن بعد إهلاكِ أولئك القرون التي تسمعون أخبارَها وتشاهدون آثارها استخلافَ مَن يَختبر.

---

[1] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٨.

[2] في الآية الحادية عشرة مِن سورة يونس.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن عبّاس والحسن بن عمران. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥١.

[4] في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٩.

﴿لِنَنظُرَ﴾ أي: لنعامل معاملةَ مَن ينظُر ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، فهي استعارة تمثيليّة. و﴿كَيْفَ﴾: منصوب على المصدريّة بـ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لا بـ"ننظر"،[١] فإنّ ما فيه مِن معنى الاستفهام مانع مِن تقدّم عامله عليه، أي: أيَّ عمل؛[٢] أو على الحاليّة، أي: على أيّ حال تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف مِن أوصاف الحُسن، كقوله عزّ وعلا: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]. ففيه إشعار بأنّ المراد بالذات والمقصود الأصليّ مِن الاستخلاف إنّما هو ظهور الكيفيّات الحسنة للأعمال الصالحة، وأمّا الأعمال السيّئة فبمَعزِل مِن أن تصدُر عنهم لاسيّما بعد ما سمِعوا أخبارَ القرون المُهلَكة وشاهدوا آثارَ بعضِها فضلًا عن أن يُنظم ظهورها في سِلك العلّة الغائيّة للاستخلاف.

[٧٣ظ] وقيل: منصوب على أنّه مفعول به[٣] / أي: أيَّ عمل[٤] تعملون أَخيرًا أم شرًّا فنُعاملَكم بحسبه، فلا يكون في كلمة ﴿كَيْفَ﴾ حينئذ دلالةٌ على أنّ المعتبَر في الجزاء جهاتُ الأعمال وكيفيّاتُها لا ذواتُها كما هو رأي القائل؛[٥] بل تكون حينئذ مستعارةً لمعنى "أيّ شيء".

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ⑮﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ التفات مِن خطابهم إلى الغيبة إعراضًا عنهم وتوجيهًا للخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتعديد جناياتِهم المُضادّة لِما أُريدَ منهم بالاستخلاف، مِن تكذيب الرسول والكفر بالآيات البيّنات وغير ذلك كدأب مَن قبلهم مِن القرون المُهلَكة. وصيغة المضارع للدلالة على تجدّد جوابهم الآتي حسبَ تجدّد التلاوة.

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٩.
٢ وفي هامش م: مصدر لا اسم. «منه».
٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٩٣.
٤ وفي هامش م: اسم لا مصدر.
٥ يقصد أنّ البيضاوي جعل "كيف" منصوبة على المفعوليّة، ثمّ أورد المعنى على ما يناسب وجه الحاليّة.

﴿ءَايَاتُنَا﴾ الدالّة على حقّيّة التوحيد وبطلان الشرك. والإضافة لتشريف المضاف والترغيب في الإيمان به والترهيب عن تكذيبه. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حالَ كونها واضحاتِ الدلالة على ذلك. وإيراد فعلِ التلاوة مبنيًا للمفعول مُسنَدًا إلى الآيات دون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببنائه للفاعل للإشعار بعدم الحاجة لتعيّن التالي، وللإيذان بأنّ كلامهم في نفس المتلوّ دون التالي.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وُضع الموصول مَوضع الضمير إشعارًا بعلّيّة ما في حيّز الصلة العظيمة المَحكيّة عنهم، وأنّهم إنّما اجترءوا عليها لعدم خوفِهم مِن عقابه تعالى يوم اللقاء لإنكارهم له ولِما هو مِن مَباديه مِن البعث، وذمًّا لهم بذلك، أي: قالوا لمَن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما لم يُذكَر إيذانًا بتعيّنه: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أشاروا بهذا إلى القرآن المشتمِل على تلك الآيات لا إلى نفسها فقط، قصدًا إلى إخراج الكلّ مِن البين، أي: ائت بكتاب آخرَ نقرؤه ليس فيه ما نستبعِده مِن البعث والحساب والجزاء أو ما نكرهه مِن ذمّ آلهتنا ومَعايبها والوعيدِ / على عبادتها. [٧٤و]

﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بتغيير ترتيبه بأن تَجعل مكانَ الآية المشتملة على ذلك آيةً أخرى خاليةً عنها. وإنّما قالوه كيدًا وطمعًا في المساعدة ليتوسّلوا به إلى الإلزام والاستهزاء به.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أي: ما يصحّ وما يستقيم لي ولا يمكنني أصلًا ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ أي: مِن قِبَل نفسي، وهو مصدر استُعمل ظرفًا. وقُرئ بفتح التاء.[١] وقَصْر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثاني للإيذان بأنّ استحالة ما اقترحوه أوّلًا مِن الظهور بحيث لا حاجةَ إلى بيانها، وأنّ التصدّيَ لذلك مع كونه ضائعًا ربّما يُعدّ مِن قبيل المُجاراةِ مع السفهاء إذ لا يصدُر مِثل ذلك الاقتراح عن العقلاء، ولأنّ ما يدل على استحالة الثاني يدلّ على استحالة الأوّل بالطريق الأَولى.

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٩.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أتّبع في شيء ممّا آتي وأذر ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مِن غير تغيير له في شيء أصلًا على معنى قَصْر حاله عليه السلام على اتّباع ما يُوحى إليه، لا قَصْرِ اتّباعه على ما يُوحى إليه كما هو المتبادَر مِن ظاهر العبارة، كأنّه قيل: ما أفعَل إلّا اتّباعَ ما يُوحى إليّ. وقد مرّ تحقيق المقام في سورة الأنعام، وهو تعليل لصدر الكلام، فإنّ مَن شأنه اتّباع الوحي على ما هو عليه لا يَستبدّ بشيء دونه قطعًا.

وفيه جواب للنقض بنَسْخ بعض الآيات ببعض، وردٌّ لِما عرَّضوا به عليه السلام بهذا السؤال مِن أنّ القرآن كلامُه عليه السلام. ولذلك قُيِّد التبديل في الجواب بقوله: ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾، وسمّاه عصيانًا عظيمًا مستتبِعًا لعذاب عظيم بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فإنّه تعليل لمضمون ما قبله مِن امتناع التبديل، / واقتصارِ أمره عليه السلام على اتّباع الوحي، [٧٤ظ] أي: أخاف إن عصيتُه تعالى بتعاطي ما ليس لي مِن التبديل مِن تلقاء نفسي والإعراضِ عن اتّباع الوحي عذابَ يوم عظيم هو يومُ القيامة ويومُ اللقاء الذي لا يرجونه. وفيه إشعار بأنّهم استوجبوه بهذا الاقتراح.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتهويل أمر العصيان، وإظهارِ كمال نزاهته عليه السلام عنه. وإيراد "اليوم" بالتنوين التفخيمي ووصفُه بالعِظَم لتهويل ما فيه مِن العذاب وتفظيعه، ولا مَساغَ لحمل مقترَحهم على التبديل والإتيان بقرآن آخرَ مِن جهة الوحي بتفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ بأنّه لا يتسهَّل لي أن أُبدلَه بالاستدعاء مِن جهة الوحي، ما أتّبع إلّا ما يُوحى إليّ مِن غير صُنعٍ ما مِن الاستدعاء وغيره مِن قِبلي، لأنّه يَردّه التعليل المذكور، لكن لا لأنّ المقترَح حينئذ ليس فيه معصيةٌ أصلًا كما تُوهِم، فإنّ استدعاء تبديل الآيات النازلة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعيّة بعضِها ببعض، لاسيّما بموجَب اقتراح الكفرة ممّا لا ريبَ في كونه معصيةً؛ بل لأنّه ليس فيه معصيةُ الافتراء مع أنّها المقصودةُ بما ذُكر في التعليل، ألا يُرى إلى ما بعده مِن الآيتين الكريمتين، فإنّه صريح في أنّ مقترَحهم الإتيان بغير القرآن وتبديلُه بطريق الافتراء، وأنّ زعمهم في الأصل أيضًا كذلك.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ تحقيق لحقّيّة القرآن وكونه مِن عند الله تعالى إثرَ بيان بُطلان ما اقترحوا الإتيان به واستحالته عبارةً ودلالةً. وإنّما صُدِّر بالأمر المستقلّ مع كونه داخلًا تحت الأمر السابق إظهارًا لكمال الاعتناء بشأنه وإيذانًا باستقلاله مفهومًا وأسلوبًا، / فإنّه برهان دالّ على [٧٥و] كونه بأمر الله تعالى ومَشيئته كما سيأتي، وما سبق مجرَّد إخبار باستحالة ما اقترحوه. ومفعول ﴿شَآءَ﴾ محذوف يُنبئ عنه الجزاء، لا "غيرَ ذلك"[1] كما قيل؛[2] فإنّ مفعول المشيئةِ إنّما يُحذَف إذا وقعتْ شرطًا وكان مفعولُها مضمونَ الجزاء، ولم يكن في تعلّقها به غرابة، كما في قوله:

ولــو شــئــتُ أن أبـكـي دمًــا لـبـكَـيـتُـهُ[3]

حيث لم يُحذف لفقدان الشرط الأخير.[4]

ولأنّ المستلزِم للجزاء،[5] أعني عدمَ تلاوتِه عليه السلام للقرآن عليهم إنّما هو مشيئتُه تعالى له لا مشيئتُه لغير القرآن، والمعنى: أنّ الأمر كلَّه مَنوطٌ بمشيئته تعالى، وليس لي منه شيء قطّ، ولو شاء عدم تلاوتي له عليكم، لا بأن شاء عدم تلاوتي له مِن تِلقاء نفسي؛ بل بأن لم يُنزله عليّ ولم يأمُرني بتلاوته، كما يُنبئ عنه إيثار التلاوة على القراءة،[6] ما تلوتُه عليكم.[7]

﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ولا أَعلَمكم به بواسطتي. والتالي وهو عدمُ التلاوة والإدراء منتفٍ فينتفي المقدَّم، أعني: مشيئة عدمِ التلاوة، ولا يخفى أنّها مستلزِمة

---

[1] وفي هامش م: فيه ما لا يخفى مِن النكتة. «منه».

[2] قدَّر البيضاوي المفعول بـ"غيرَ ذلك". أنوار التنزيل، ٢/٩٣.

[3] صدر بيت للخُريمي، عجزه:
عليهِ ولكن ساحةُ الصبرِ أَوسـعُ
والبيت له في الكامل للمُبرِّد، ٣/١٣٦٢؛ والمصون لأبي أحمد العسكري، ص ١٦. وهو بلا نسبة شاهد على ما نحن فيه في دلائل الإعجاز للجرجاني، ص ١٦٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٧٤ (البقرة، ٢/٢٠).

[4] يقصد أنّ مفعول المشيئة لم يُحذف في البيت لِما فيه مِن الغرابة، وهو بكاءُ الدم.

[5] السياق: فإنّ مفعول المشيئة... ولأنّ المستلزم للجزاء...

[6] وفي هامش م: فإنّها مُنبئة عن معنى البقيّة. «منه».

[7] السياق: ولو شاء عدم تلاوتي... ما تلوته عليكم...

لعدم مشيئة التلاوة قطعًا، فانتفاؤها مستلزِم لانتفائه حتمًا، وانتفاءُ عدم مشيئة التلاوة إنّما يكون بتحقّق مشيئة التلاوة فثبَت أنّ تلاوته عليه السلام للقرآن بمشيئته تعالى وأمره. وإنّما قيّدنا الإدراء بكونه بواسطته عليه السلام؛ لأنّ عدم الإعلام مطلقًا ليس مِن لوازم الشرطِ الذي هو مشيئة عدم تلاوته عليه السلام،[1] فلا يجوز نظمه في سِلك الجزاء.

وفي إسناد عدم الإدراء إليه تعالى المنبئ عن استناد الإدراء إليه تعالى إيذانٌ بألّا دخلَ له عليه السلام في ذلك حسبما يقتضيه المقام. وقُرئ: "وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ"،[2] و"لا أَدْرَأَكُمْ"[3] بالهمزة فيهما على لغة مَن يقول: "أعطأْتُ" و"أرضأْتُ" في "أعطيتُ" و"أرضيتُ"،[4] / أو على أنّه مِن الدَّرء، بمعنى: الدَّفع، أي: ولا جعلتُكم بتلاوته عليكم خُصَماءَ تدرَءونني بالجِدال. [٧٥ظ]

وقُرئ: "وَلَا أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ".[5] وقُرئ: "لَأَدْرَاكُمْ"[6] بلام الجواب، أي: لو شاء الله ما تلوتُه عليكم أنا ولأَعلَمكم به على لسان غيري، على معنى: أنّه الحقّ الذي لا مَحيصَ عنه، لو لم أُرسلَ به أنا لأُرسلَ به غيري البتّةَ، أو على معنى: أنّه تعالى يمُنّ على مَن يشاء فخَصّني بهذه الكرامة.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ تعليل للملازمة المستلزِمة لكون تلاوته بمشيئة الله عزّ وجلّ وأمره حسبما بُيّن آنفًا، لكن لا بطريق الاستدلال عليها بعدم تلاوته عليه السلام فيما سبق بسبب مشيئته تعالى إيّاه؛ بل بطريق الاستشهاد عليها بما شاهدوا منه عليه السلام في تلك المدّة الطويلة مِن الأمور الدالّة على استحالة كون التلاوة مِن جهته عليه السلام بلا وحي.

---

[1] وفي هامش م: لجواز أعلامه بواسطة غيره عليه السلام. «منه».

[2] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن عبّاس والحسن وابن سيرين. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٤.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن عبّاس والحسن وابن سيرين وأبي رجاء. اللباب لابن عادل، ١٠/٢٨٣.

[4] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٠.

[5] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود وأُبيّ وشهر بن حَوشب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٢.

[6] قرأ بها ابن كثير عن البزّي بخلاف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.

و﴿عُمُرًا﴾ نصب على التشبيه بظرف الزمان، والمعنى: قد أقمتُ فيما بينكم دهرًا مديدًا مِقدارَ أربعين سنةً تحفظون تفاصيلَ أحوالي طُرًّا وتُحيطون بما لديَّ خُبرًا. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل نُزولِ القرآن لا أتعاطى شيئًا ممّا يتعلّق به لا مِن حيث نظمُه المعجِز ولا مِن حيث معناه الكاشفُ عن أسرار الحقائق وأحكام الشرائع.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تُلاحِظون ذلك فلا تعقلون امتناعَ صدوره عن مِثلي ووجوبَ كونه منزَّلًا مِن عند الله العزيز الحكيم، فإنّه غير خافٍ على مَن له عقل سليم. والحقّ الذي لا مَحيدَ عنه أنّ مَن له أدنى مُسْكة مِن العقل إذا تأمّل في أمره صلّى الله عليه وسلّم، وأنّه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل مِن غير مصاحبةِ العلماء في شأن مِن الشئون، ولا مراجعةٍ إليهم في فنّ مِن الفنون، ولا مخالطةِ البلغاءِ في المفاوضة والحِوار ولا خوضٍ معهم في إنشاء الخُطب / والأشعار، [٧٦و] ثمّ أتى بكتاب بهَرتْ فصاحتُه كلَّ فصيح فائق، وبزّت بلاغتُه كلَّ بليغ رائق، علا نظمُه كلَّ منثور ومنظوم، وحوى فحواه بدائعَ أصناف العلوم، كاشفٍ عن أسرار الغيب مِن وراء أستار الكُمون،[1] ناطقٍ بأخبار ما قد كان وما سيكون، مصدِّقٍ لِما بين يديه مِن الكتب المنزَّلة، مهيمِنٍ عليها في أحكامها المُجْملة والمفصَّلة، لا يبقى عنده شائبة اشتباه في أنّه وحيٌ منزَّل مِن عند الله تعالى.

هذا هو الذي اتّفقت عليه كلمة الجمهور، ولكنّ الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرَّد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه السلام لكونه معصية موجِبة للعذاب العظيم، واقتصارِ حاله عليه السلام على اتّباع الوحي، وامتناعِ الاستبداد بالرأي مِن غير تعرّض هناك ولا ههنا لكون القرآن في نفسه أمرًا خارجًا عن طَوق البشر، ولا لكونه عليه السلام غيرَ قادر على الإتيان بمِثله أن يُستشهد ههنا على المَطلَب بما يُلائم ذلك مِن أحواله المستمرّة في تلك المدّة المتطاولة، مِن كمال نزاهته عليه السلام عمّا يُوهِم شائبةَ صدور الكذب والافتراء عنه في حقّ أحد كائنًا مَن كان، كما يُنبئ عنه تعقيبه بتظليم المفتري على الله تعالى.

---

١ الكمون: الاختفاء والاستتار. لسان العرب لابن منظور، «كمن».

والمعنى: قد لبثتُ فيما بين ظَهْرانَيكم قبل الوحي لا أتعرّض لأحد قطُّ بتحكّم ولا جِدال، ولا أحومُ حول مقال فيه شائبةُ شبهةٍ فضلًا عمّا فيه كذب أو افتراء، ألا تُلاحظونه فلا تعقِلون أنّ مَن هذا شأنُه المطَّرد في هذا العهد البعيد مستحيل أن يفتريَ على الله عزّ وجلّ ويتحكّم على كافّة الخلق بالأوامر والنواهي الموجِبة لسَلْب الأموال وسَفك الدماء ونحو ذلك، وأنّ ما أتى به وحيٌ مبين / تنزيل مِن ربّ العالمين. [٧٦ظ]

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٧﴾

وقوله عزّ وعلا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام إنكاري معناه الجحد، أي: لا أحدَ أظلمُ منه على معنى: أنّه أظلم مِن كلّ ظالم، وإن كان سَبْك التركيب مفيدًا لإنكار أن يكون أحد أظلمَ منه مِن غير تعرّض لإنكار المساواة ونفيها، فإنّه إذا قيل: "مَن أفضلُ مِن فلان؟" أو "لا أعلمَ منه" يُفهم منه حتمًا أنّه أفضل مِن كلّ فاضل وأعلمُ مِن كلّ عالم.

وزيادةُ قوله تعالى: ﴿كَذِبًا﴾ مع أنّ الافتراءَ لا يكون إلّا كذلك للإيذان بأنّ ما أضافوه إليه ضِمنًا وحملوه عليه السلام عليه صريحًا مع كونه افتراء على الله تعالى كَذِب في نفسه، فرُبَّ افتراء يكون كَذِبه في الإسناد فقط، كما إذا أُسند ذنب زيد إلى عمرو، وهذا للمبالغة منه عليه السلام في التفادي ممّا ذُكر مِن الافتراء على الله سبحانه. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ فكفر بها، وهذا تظليم للمشركين بتكذيبهم للقرآن وحَمْلِهم على أنّه مِن جهته عليه السلام.

والفاء لترتيب الكلام على ما سبق مِن بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره، فلا مجالَ لحَمْل الافتراء على الافتراء باتّخاذ الولد والشريك، أي: وإذا كان الأمر كذلك فمَن افترى عليه تعالى بأن يَختلِق كلامًا فيقول: "هذا مِن عند الله"، أو يُبدِّل بعض آياته تعالى ببعض كما تُجوِّزون ذلك في شأني، وكذلك مَن كذَّب بآياته تعالى كما تفعلونه، أظلمُ مِن كلّ ظالم.[١]

[١] السياق: فمَن افترى... أظلمُ...

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن وقع اسمًا لـ"إنّ"، والخبر ما يعقُبه مِن الجملة. ومَدار وَضْعه موضعَه ادِّعاءُ شهرته المغنيةِ عن ذِكره. وفائدة تصديرها به الإيذان بفخامة مضمونها مع ما فيه مِن زيادة تقريره في الذهن، فإنّ الضمير لا يُفهَم منه مِن أوّل الأمر إلّا شأن مبهَم له خَطَر فيبقى الذهن مترقِّبًا لِما يَعقُبه، فيَتمكّن عند وروده عليه فضلَ تمكّن، فكأنّه قيل: إنّ الشأن هذا، أي: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يَنجُون مِن محذور، ولا يَظفَرون بمطلوب. والمراد جنس المجرمين، فيَندرج فيه المفتري والمكذِّب اندراجًا أوّليًّا.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حكاية لجِناية أخرى لهم نشأت عنها جِنايتُهم الأولى معطوفةً على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية،[1] عَطْفَ قصّةٍ على قصّة. و﴿مِن دُونِ﴾ متعلِّق بـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، ومحلّه النصب على الحاليّة مِن فاعله، أي: متجاوزين الله سبحانه، لا بمعنى تركِ عبادته بالكلّيّة؛ بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلِها قرينًا لعبادة الأصنام كما يُفصِح عنه سياق النظم الكريم.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي: ما ليس مِن شأنه الضرّ والنفع مِن الأصنام التي هي جمادات. و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة. وتقديم نفي الضرر، لأنّ أدنى أحكام العبادة دَفْع الضرر الذي هو أوّل المنافع، والعبادة أمر حادث مسبوق بالعدم الذي هو مَظِنّة الضرر، فحيث لم تقدِر الأصنامُ على الضرر لم يُوجد لإحداث العبادة سبب. وقيل: لا يضرّهم إن تركوا عبادتها ولا ينفعهم إن عبدوها.[2] كان / أهل الطائف يعبُدون اللاتَ، وأهلُ مكّةَ عزّى ومَناةَ وهُبَل وإسافًا ونائلة.[3] [٧٧و]

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عن النَّضر بن الحارث: إذا كان يوم القيامة يَشفَع لي اللات.[4] قيل: إنّهم كانوا يَعتقدون أنّ المتولّيَ لكلّ إقليم رُوح معيَّن

[1] يونس، ١٠/١٥.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٠.

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٠.

[4] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥١.

مِن أرواح الأفلاك، فعيّنوا لذلك الرُّوح صنمًا معيَّنًا مِن الأصنام واشتغلوا بعبادته ومقصودُهم ذلك الرُّوحُ، ثمّ اعتقدوا أنّ ذلك الرُّوح يكون عند الإله الأعظم مشتغِلًا بعبوديّته. وقيل: إنّهم كانوا يعبدون الكواكب فوضعوا لها أصنامًا معيَّنة واشتغلوا بعبادتها قصدًا إلى عبادة الكواكب. وقيل: إنّهم وضعوا طِلَسماتٍ معيَّنةً على تلك الأصنام ثمّ تقرّبوا إليها. وقيل: إنّهم وضعوا هذه الأصنام على صور أنبيائِهم وأكابرِهم وزعموا أنّهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيلِ فإنّ أولئك الأكابرَ يَشفعُون لهم عند الله تعالى.[1]

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي: أتُخبرونه بما لا وجودَ له أصلًا؟ وهو كون الأصنام شفعاءَهم عند الله تعالى، إذ لولاه لعلِمه علّامُ الغيوب. وفيه تقريع لهم وتهكّم بهم وبما يَدعونه مِن المُحال الذي لا يكاد يدخُل تحت الصحّة والإمكان. وقُرئ: "أَتُنْبِئُونَ"[2] بالتخفيف. وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال مِن العائد المحذوفِ في "يَعْلَمُه" مؤكِّدةٌ للنفي، لأنّ ما لا يُوجَد فيهما فهو منتفٍ عادة.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم المستلزِم لتلك المقالة الباطلة أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءَهم عند الله تعالى. وقُرئ: "تُشْرِكُونَ"[3] بتاء الخطاب على أنّه مِن جملة القول المأمور به، وعلى الأوّل هو اعتراض تذييلي مِن جهته سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

[٧٧ظ] / ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بيان لأنّ التوحيد والإسلام مِلّة قديمة أجمعت عليها الأُمَم قاطبة فطرةً وتشريعًا، وأنّ الشِّرك وفروعه جهالات ابتدعها

---

[1] هذه الأقوال الأربعة في اللباب لابن عادل، ١٠/٢٨٥.

[2] م س: أَتُنْبِئونه. | وأثبتُّ ما في مصادر المُصنِّف. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٥١/١؛ واللباب لابن عادل، ٢٨٦/١٠. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وابن وثّاب. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٥٢.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٨٢/٢.

الغُواة خلافًا للجمهور وشقًّا لعصا الجماعة. وأمّا حَمْل اتّحادهم على الاتّفاق على الضلال عند الفترة واختلافِهم على ما كان منهم مِن الاتّباع والإصرار،[١] فممّا لا احتمال له.

أي: وما كان الناس كافّة مِن أوّل الأمر إلّا متّفقين على الحقّ والتوحيد مِن غير اختلافٍ، وذلك مِن عهد آدمَ عليه السلام إلى أن قتل قابيلُ هابيلَ. وقيل: إلى زمن إدريسَ.[٢] وقيل: إلى زمن نوح عليهما السلام.[٣] وقيل: مِن حين الطوفان حينَ لم يَذر الله مِن الكافرين ديّارًا إلى أن ظهر فيما بينهم الكفرُ.[٤] وقيل: مِن لدُن إبراهيمَ عليه السلام إلى أن أظهر عمرو بن لُحيّ عبادةَ الأصنام. فالمراد بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾ العربُ خاصّة.[٥] وهو الأنسب بإيراد الآية الكريمة إثرَ حكايةِ ما حُكي عنهم مِن الهَنات وتنزيهِ ساحة الكبرياء عن ذلك.

﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ بأن كفَر بعضهم وثبَت آخرون على ما هم عليه فخالف كلٌّ مِن الفريقين الآخرَ، لا أنّ كلًّا منهما أحدَث مِلّة على حِدَة مِن مِلَل الكفر مخالِفةً لمِلّة الآخر، فإنّ الكلام ليس في ذلك الاختلاف، إذ كلٌّ منهما مبطِلٌ حينئذ، فلا يُتصوَّر أن يُقضى بينهما بإبقاء المحقّ وإهلاك المبطِل. والفاء التعقيبيّة لا تُنافي امتداد زمان الاتّفاق، إذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيبَ انصرام مدّة الاتّفاق لا عقيبَ حدوث الاتّفاق.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير القضاء بينهم، أو بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة، فإنّه يوم الفصل. ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ عاجلًا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ / بتمييز الحقّ عن الباطل بإبقاء المحِقّ وإهلاك المبطِل. وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية والدلالة على الاستمرار. [٧٨و]

﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾

---

١ حمَلهما على ذلك البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩٥/٢.

٢ ما وجدته فيما بين يديّ مِن المظانّ.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٨٧/١٠.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٥١/٢.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ٢٨٧/١٠.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حكاية لجِناية أخرى لهم معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾.[١] وصيغة المضارع لاستحضار صورة مقالتهم الشنعاءَ والدلالةِ على الاستمرار. والقائلون أهل مكّة. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أرادوا آيةً مِن الآيات التي اقترحوها، كأنّهم لفرط العُتوّ والفساد ونهايةِ التمادي في المكابَرة والعِناد لم يَعدُّوا البيِّناتِ النازلةَ عليه عليه السلام مِن جنس الآيات واقترحوا غيرها، مع أنّه قد أُنزل عليه مِن الآيات الباهرة والمعجِزات المتكاثِرة ما يضطرّهم إلى الانقياد والقبول لو كانوا مِن أرباب العقول.

﴿فَقُلْ﴾ لهم في الجواب: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ اللام للاختصاص العِلمي دون التكويني، فإنّ الغيب والشهادة في ذلك الاختصاصِ سِيّانِ، والمعنى: أنّ ما اقترحتموه زعمتُم أنّه مِن لوازم النبوّة وعلّقتم إيمانكم بنزوله مِن الغيوب المختصّة بالله سبحانه، لا وقوفَ لي عليه. ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزولَه ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: لِما يفعل الله بكم لاجترائكم على مِثل هذه العظيمة مِن جحود الآيات واقتراحِ غيرها. وجعلُ ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ عبارةً عن الصارف عن إنزال الآياتِ المقترَحةِ،[٢] يأباه ترتيب الأمرِ بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ صِحّةً وسَعةً. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ أي: خالطتْهم حتّى أحسُّوا بسوء أثرها فيهم. وإسناد "المِساس" إلى "الضرّاء" بعد إسنادِ "الإذاقة" إلى ضمير الجلالة مِن الآداب القرآنيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٢٦/٨٠] ونظائره. قيل: سلّط الله تعالى على أهل مكّةَ القحط سبع سنين حتّى كادوا يَهلِكون ثمّ رحِمهم بالحَيا،[٣] فطفِقوا يطعنون في آياته تعالى ويُعادون رسولَه صلّى الله عليه وسلّم ويَكيدونه،[٤]

---

[١] يونس، ١٠/١٨.

[٢] ذهب إلى ذلك البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/٩٥.

[٣] الحيا: المطر والخِصب. لسان العرب لابن منظور، «حيا».

[٤] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥١.

وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي: بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال في دفعها.

و﴿إِذَا﴾ الأُولى شرطيّة والثانية جوابها، كأنّه قيل: فاجئوا وقوع المَكر منهم. وتنكير ﴿مَكْرٌ﴾ للتفخيم. و﴿فِي﴾ متعلِّقة بالاستقرار الذي يتعلَّق به اللام.

/ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أعجَلُ عقوبةً، أي: عذابه أسرع وصولًا إليكم ممّا يأتي منكم في دَفْع الحقّ.[١] وتسمية العقوبة بـ"المَكر" لوقوعها في مقابَلة مَكرهم وجودًا[٢] أو ذِكرًا.[٣] [٧٨ظ]

﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الذين يحفظون أعمالكم. والإضافةُ للتشريف. ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ أي: مَكرَكم، أو ما تَمكُرونه. وهو تحقيق للانتقام منهم، وتنبيه على أنّ ما دبّروا في إخفائه غيرُ خافٍ على الحفَظة فضلًا عن العليم الخبير.

وصيغة الاستقبال في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجدّدي. والجملة تعليل مِن جهته تعالى لأسرعيّة مَكرِه سبحانه غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف، ١٨/١٠٩]. فإنّ كتابة الرسُل لِما يَمكرون مِن مبادي بُطلان مَكرِهم وتخلّف أثره عنه بالكلّيّة، وفيه مِن المبالغة ما لا يُوصَف. وتلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليهم للتشديد في التوبيخ.

وقُرئ على لفظ الغَيبة،[٤] فيكون حينئذ تعليلًا لما ذُكر أو للأمر.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾[٥] كلام مستأنَف مَسوق لبيان جِناية أخرى لهم مَبنيّةٍ على ما مرَّ آنفًا مِن اختلاف حالِهم حسب اختلافِ ما يعتريهم مِن السرّاء والضرّاء،

---

١ وفي هامش م: أو أُريد بالمكر الاستدراج. «منه».
٢ وفي هامش م: فيكون مِن باب تسمية الشيء باسم سببه. «منه».
٣ وفي هامش م: فيكون مِن باب المُشاكلة. «منه».
٤ قرأ بها يعقوب في رواية روح عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.
٥ وفي هامش م: التفات.

أي: يُمكِّنكم مِن السير تمكينًا مستمِرًّا عند الملابَسة به وقبلها. ﴿فِي ٱلْبَرِّ﴾ مُشاةً ورُكبانًا. وقُرِئ: "يَنْشُرُكُمْ"[١] مِن النَّشر، ومنه قوله عزّ وعلا: ﴿بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم، ٣٠/٢٠].

﴿وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السُّفن، فإنّه جَمْع "فُلْك"[٢] على زِنة "أُسْد" جَمْعِ "أَسَد"،[٣] لا على وزن "قُفْل". وغاية التسيير ليست ابتداءَ ركوبهم فيها؛ بل مضمون الشرطيّة بتمامه، كما يُنبِئ عنه إيثارُ الكون المؤذِن بالدوام على الركوب المشعِر بالحدوث.

﴿وَجَرَيْنَ﴾ أي: السُّفن ﴿بِهِم﴾ بالذين فيها. والالتفات إلى الغَيبة للإيذان بما لهم مِن سوء الحال الموجِب للإعراض عنهم، كأنّه يُذكر لغيرهم مَساوئ أحوالِهم ليُعجّبهم منها ويَستدعيَ منهم الإنكار أو التقبيح.[٤] وقيل:[٥] ليس فيه التفات؛ بل معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾: إذا كان بعضُكم فيها، إذ الخطاب للكلّ ومنهم المسيَّرون في البرّ، فالضمير الغائب عائد إلى ذلك المضاف المقدَّر، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ﴾ [النور، ٢٤/٤٠]، أي: أو كذي ظُلماتٍ يغشاه موج.[٦] ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ليِّنةِ الهُبوب موافقةٍ لمَقصِدهم. / [٧٩و] ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ بتلك الريحِ لطِيبها وموافقتها.

﴿جَآءَتْهَا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، والضمير المنصوب لـ"الريح الطيّبة"، أي: تلقَّتها واستولت عليها مِن طرف مخالِف لها، فإنّ الهبوب على وَفقها لا يُسمّى مَجيئًا لريح أخرى عادةً؛ بل هو اشتداد للريح الأولى. وقيل: للفُلك.[٧] والأوّل أظهرُ لاستلزامه للثاني مِن غير عكس؛ لأنّ الهبوب على طريقة الريح الليّنة يُعدّ مَجيئًا بالنسبة إلى الفُلك دون الريح الليِّنة، مع أنّه لا يَستتبع تلاطمَ الأمواجِ الموجِب

---

[١] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.

[٢] كذا ضُبطت في م. | والأحسن للسياق أن تُضبط "فَلَك".

[٣] وفي هامش م: و"فُعْل" أخو "فَعَل" في الجمع. «منه».

[٤] ط س: والتقبيح.

[٥] وفي هامش م: ابن عطيّة. | انظر القول في المحرّر الوجيز لابن عطيّة ٣/١١٣.

[٦] القول في اللباب لابن عادل، ١٠/٢٩٢-٢٩٣.

[٧] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٣.

لمجيئها مِن كلّ مكان، ولأنّ التهويل في بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلّقوا به حبالَ رجائِهم أكثرُ. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: ذاتُ عَصْف. وقيل: العُصوف مختصٌّ بالريح فلا حاجة إلى الفارق. وقيل: الريح قد يُذكّر.[١]

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ في الفُلْك ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: مِن أمكنة مَجيءِ الموج عادةً، ولا بُعدَ في مجيئه مِن جميع الجوانب أيضًا إذ لا يجب أن يكون مجيئُه مِن جهة هُبوبِ الريح فقط؛ بل قد يكون مِن غيرها بحسب أسبابٍ تتّفق له. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي: هلَكوا، فإنّ ذلك مَثل في الهَلاك، وأصله إحاطة العدوّ بالحيّ، أو سُدَّت عليهم مَسالكُ الخلاص.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ بدل مِن ﴿ظَنُّوٓاْ﴾ بدلَ اشتمال لِما بينهما مِن الملابسة والتلازم، أو استئناف مبنيّ على سؤال تنساق إليه الأذهان، كأنّه قيل: فماذا صنعوا؟ فقيل: دعَوا الله ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مِن غير أن يُشرِكوا به شيئًا مِن آلهتهم لا مخصِّصين للدعاء به تعالى فقط؛ بل للعبادة أيضًا فإنّهم بمجرَّد تخصيصِ الدعاء به تعالى لا يكونون مخلِصين له الدِّين.

﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ اللام موطِّئة للقسَم على إرادة القول، أي: قائلين: واللهِ لئن أنجيتنا ﴿مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ الورطة ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ البتّةَ بعد ذلك أبدًا ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لِنعمك التي مِن جُملتها هذه النعمةُ المَسئولة. وقيل: الجملة مفعول ﴿دَعَوُاْ﴾ / لأنّ الدعاء مِن قبيل القول.[٢] والأوّل هو الأَولى لاستدعاء الثاني لاقتصار دعائهم على ذلك فقط. وفي قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ مِن المبالغة في الدلالة على كونهم ثابتين في الشكر مثابرين عليه منتظِمين في سِلكِ المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس في أن يقال: لَنشكُرنَّ. [٧٩ظ]

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ ممّا غشِيَهم مِن الكُربة، والفاءُ للدلالة على سرعة الإجابة.

---

[١] القولان في معالم التنزيل للبغوي، ١٢٨/٤.
[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٦/٢.

﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فاجئوا الفسادَ فيها وسارعوا إليه متراقين في ذلك متجاوزين عمّا كانوا عليه مِن حدود العَيث، مِن قولهم: "بغى الجُرح": إذا ترامى في الفساد.[١] وزيادةُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للدلالة على شمول بغيهم لأقطارها. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والاستمرار.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تأكيد لِما يُفيده البغي، أو معناه: أنّه بغير الحقّ عندهم أيضًا بأن يكون ذلك ظُلمًا ظاهرًا لا يخفى قُبحه على أحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة، ٦١/٢]. وأمّا ما قيل مِن أنّه للاحتراز عن البغي بحقّ كتخريب الغُزاة ديارَ الكفرة وقطعِ أشجارهم وإحراقِ زروعهم،[٢] فلا يُساعده النظم الكريم؛ لابتنائه على كون البغي بمعنى إفساد صورة الشيء وإبطالِ منفعته دون ما ذُكر مِن المعنى اللائق بحال المفسِدين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ توجيه للخطاب إلى أولئك الباغين للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد. ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ الذي تتعاطَونه. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خبرُه، أي: عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وإن ظُنَّ كذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بيان لكون ما فيه مِن المَنفعة العاجلةِ شيئًا غيرَ معتدٍّ به سريعَ الزوال دائمَ الوبال. وهو نصب على أنّه مصدر مؤكِّد لفعل مقدَّر بطريق الاستئناف، أي: تتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا.

وقيل: على أنّه مصدر وقع موقِعَ الحال، أي: متمتِّعين بالحياة الدنيا، والعاملُ هو الاستقرار الذي في الخبر لا نفسُ البغي لأنه يُؤدّي إلى الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر، ولا يُخبَر عن الموصول / إلّا بعد تمام صلته.[٣] وأنت [٨٠و] خبير بأنّه ليس في تقييد كونِ بغيهم على أنفسهم بحال تمتّعهم بالحياة الدنيا معنًى يعتدّ به.

---

[١] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٤/١٠.

[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٦/٢.

[٣] الوجه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

وقيل: على أنّه ظرفُ زمان نحو "مَقدمَ الحاجّ"، أي: زمنَ متاع الحياةِ الدنيا. وفيه ما مرّ بعينه.

وقيل: على أنّه مفعول لفعل دلّ عليه المصدر، أي: تبغون متاعَ الحياة الدنيا.[١] ولا يخفى أنّه لا يدلّ على البغي بمعنى الطلَب، وجعلُ المصدر أيضًا بمعناه ممّا يُخلُّ بجزالة النظمِ الكريم؛ لأنّ الاستئناف لبيان سوءِ عاقبة ما حُكيَ عنهم مِن البغي المفسَّر بالإفساد المفرِط اللائق بحالهم، فأيُّ مناسبةٍ بينه وبين البغي بمعنى الطلب؟ وجعلُ الأوّل أيضًا بمعناه ممّا يجب تنزيهُ ساحةِ التنزيل عنه.

وقيل: على أنّه مفعول له، أي: لأجل متاعِ الحياة الدنيا، والعاملُ ما ذُكر مِن الاستقرار. وفيه أنّ المعلَّل بما ذُكر نفسُ البغي لا كونُه على أنفسهم. وقيل: العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر، أي: تبغون لأجلِ مَتاع الحياة الدنيا، على أنّ الجملة مستأنَفة.[٢]

وقيل: على أنّه مفعول صريحٌ للمصدر، و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ ظرف لَغْوٍ متعلِّقٌ به، والمراد بالأنفس الجنس، والخبر محذوف لطول الكلام، والتقدير: إنّما بغيكم على أبناء جنسكم متاعَ الحياة الدنيا محذور، أو ظاهرُ الفساد، أو نحوُ ذلك.[٣] وفيه ما مرّ مِن ابتنائه على ما يليق بالمقام مِن كون البغي بمعنى الطلَب. نعم لو جُعل نصبه على العِلّة، أي: إنّما بغيُكم على أبناء جنسِكم لأجل متاع الحياةِ الدنيا محذورٌ -كما اختاره بعضُهم- لكان له وجهٌ في الجملة، لكنّ الحقّ الذي تقتضيه جزالة التنزيل إنّما هو الأوّل.

وقُرئ: "مَتَاعُ"[٤] بالرفع على أنّه الخبر والظرف صلةٌ للمصدر، أو خبرٌ ثانٍ، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هو متاعُ... إلخ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف، ٣٥/٤٦]، أي: هذا بلاغ.

---

[١] الوجهان في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

[٢] الوجهان في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

[٣] الوجه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦-١٧٥؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

[٤] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا في رواية حفص عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

فالمراد بأنفسهم على الوجه الأوّل: أبناءُ جنسِهم، وإنّما عُبِّر عنهم بذلك هزًّا لشفقتهم عليهم وحثًّا لهم على تركِ إيثار التمتّع المذكورِ على حقوقهم. ولا مَجال للحَمْل على الحقيقة؛ لأنّ كون بغيهم وَبالًا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ما حُكي عنهم، ولم يُخبَر به بعدُ حتّى يُجعلَ مِن تتمّة الكلام ويُجعَل كونه متاعًا مقصودَ الإفادة، على أنّ عنوان كونه وبالًا عليهم قادح في كونه مَتاعًا فضلًا عن كونه مِن مبادي ثبوته للمبتدأ كما هو المتبادَر مِن السَّوْق، وأمّا كون البغي على أبناء الجنس فمعلومُ الثبوتِ عندهم ومتضمِّن لمَبادي التمتّع مِن أخذ المال والاستيلاء على الناس وغير ذلك.

[٨٠ظ] / وأمّا على الوجهين الأخيرين فلا موجِبَ للعدول عن الحقيقة، فإنّ المبتدأ إمّا نفس البغي أو الضميرُ العائد إليه، مِن حيث هو هو، لا مِن حيث كونُه وبالًا عليهم، كما في صورة كون الظرف صلةً للمصدر، فتدبّر.

وقُرئ: "مَتَاعًا الحَيَاةَ الدُّنيَا".[١] أمّا نصبُ "متاعًا" فعلى ما مرّ، وأمّا نصب "الحَيَاةَ" فعلى أنّه بدلٌ مِن "متاعًا" بدلَ اشتمال. وقيل: على أنّه مفعول به لـ"متاعًا" إذا لم يكن انتصابه على المصدريّة؛ لأنّ المصدر المؤكِّد لا يعمل.[٢]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لا تَمكُر ولا تُعِن ماكرًا، ولا تبغِ ولا تُعن باغيًا، ولا تنكُث ولا تُعِن ناكثًا».[٣] وكان يتلوها. وقال محمّد بن كعب: «ثلاثٌ مَن كُنّ فيه كُنّ عليه: البغي والنّكث والمَكر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام، ١٢٣/٦]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح، ١٠/٤٨]».[٤] وعنه صلّى الله عليه وسلّم: «أسرعُ الخيرِ ثوابًا صلةُ الرَّحِم، وأعجلُ الشرّ عقابًا البغيُ واليمينُ الفاجرة».[٥]

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن أبي إسحاق. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٨/١٠.

[٢] القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٨/١٠.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٢١/٢.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

[٥] مسند إسحاق ابن راهويه، ١٠٢٧/٣ (١٧٧٧)؛ سنن ابن ماجه، ٢٩٧/٥ (٤٢١٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢.

ورُوي «ثِنتان يُعجِّلهما الله تعالى في الدنيا: البغيُ، وعقوقُ الوالدين».[١] وعن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما «لو بغى جبلٌ على جبل لدُكّ الباغي».[٢]

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ عطفٌ على ما مرّ مِن الجملة المستأنَفة المقدَّرة، كأنّه قيل: تتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا ثمّ ترجِعون إلينا. وإنّما غُيِّر السَّبك إلى الجملة الاسميّة مع تقديم الجارّ والمجرور للدلالة على الثبات والقصر.

﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا على الاستمرار مِن البغي، وهو وعيد بالجزاء والعذاب، كقول الرجل لمن يتوعَّده: "سأخبركَ بما فعلتَ". وفيه نكتة خفيّة مَبنيّة على حِكمة أبيّة، وهي أن كلّ ما يظهَر في هذه النشأة مِن الأعيان والأعراض فإنّما يظهَر بصورة مغايرةٍ لصورته الحقيقيّة التي بها يظهَر في النشأة الآخرة، فإنّ المعاصيَ مثلًا سُموم قاتلةٌ قد برزت في الدنيا بصُوَر تستحسنها نفوس العُصاةِ، وكذا الطاعاتُ مع كونها أحسنَ الأحاسن قد ظهرت عندهم بصُوَر مكروهة، ولذلك قال عليه السلام: «حُفَّت الجنّة بالمَكاره وحُفَّت النار بالشهوات».[٣]

فالبغي في هذه النشأة وإن برز بصورة تشتهيها البغاةُ وتستحسنها الغواةُ لتمتّعهم به مِن حيث أخذُ المال والتشفّي مِن الأعداء ونحو ذلك، لكنّ ذلك ليس بتمتّع في الحقيقة؛ بل هو تضرُّر مِن حيث لا يحتسبون، وإنّما يظهر لهم ذلك عند إبراز ما كانوا يعملونه مِن البغي بصورته الحقيقيّة المُضادّة لِما كانوا يُشاهِدونه على ذلك مِن الصورة، وهو المراد بالتَنبِئة المذكورة. والله سبحانه أعلم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

---

١ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٥/٣٤-١٦ (٢٠٣٨٠)؛ والأدب المُفرد للبخاري، ص ٢٠٧ (٥٠٩). وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢.

٢ بلفظ قريب في شعب الإيمان للبيهقي، ٦٤/٩ (٦٢٦٦). وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢-٢٥٤. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٢٣/٢.

٣ مسند أحمد، ٥٠٧/١٤ (٨٩٤٤)؛ صحيح مسلم، ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٢)؛ سنن الترمذي، ٦٩٣/٤ (٢٥٥٩).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان شأن الحياة الدنيا وقصرِ مدّة التمتّع بها وقُربِ زمان الرجوع الموعود، وقد شُبِّه حالها العجيبة الشأنِ البديعةُ المثالِ المنتظمةُ لغرابتها في سِلك الأمثال / في سرعة تقضّيها وانصرامِ [٨١و] نعيمها غِبَّ إقبالِها واغترارِ الناسِ بها، بحال ما على الأرض مِن أنواع النبات في زوال رونقِها ونضارتِها فجأةً وذهابِها حُطامًا لم يبق لها أثرٌ أصلًا، بعد ما كانت غضّةً طريّةً قد التفّ بعضُها ببعض وزُيّنت الأرض بألوانها، وتقوّت بعد ضعفها بحيث طَمِع الناسُ وظنُّوا أنّها سَلِمت مِن الجوائح.

وليس المشبَّه به ما دخله الكاف في قوله عزّ وجلّ: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾؛ بل ما يُفهَم مِن الكلام، فإنّه مِن التشبيه المركَّب. ﴿ممّا يَأْكُلُ الناس والأنعام﴾ مِن البقول والزروع والحشيش.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ جُعلت الأرض في تزيّنها بما عليها مِن أصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلِفة المونِقة آخذةً زُخرفَها على طريقة التمثيل بالعَروس التي قد أخذت مِن ألوان الثياب والزَّيْن فتزيَّنت بها.

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أصله "تَزيَّنتْ" فأُدغِم. وقُرئ على الأصل،[١] وقُرئ: "وأَزْيَنَتْ"[٢] كـ"أغيَلَتْ" مِن غير إعلال، والمعنى: صارت ذاتَ زينة، و"ازْيَانَّتْ"[٣] كـ"ابْيَاضَّتْ". ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ متمكِّنون مِن حَضدها ورَفْع غَلّتها.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، أي: ضرَب زرعَها ما يجتاحه مِن الآفات والعاهات. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: زرعَها وسائرَ ما عليها ﴿حَصِيدًا﴾ أي: شبيهًا بما حُصد مِن أصله. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأنّه لم يَغنَ زَرعها، والمضاف

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود ويحيى وإبراهيم والأعمش وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٢٥ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٧.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن مالك بن دينار والحسن وقتادة وأبي العالية والأعرج وعبد الوهّاب ونصر بن عاصم ويونس وحميد وعن أبي عمرو وكرداب عن رويس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٦.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي عثمان النهدي وأبي العالية الرِّياحي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٧.

محذوف للمبالغة. وقُرئ بتذكير الفعل.[١] ﴿بِٱلۡأَمۡسِ﴾ أي: فيما قَبلُ بزمان قريبٍ، فإنّ الأمس مَثَل في ذلك، كأنّه قيل: لم تغنَ آنفًا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك التفصيل البديع ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الآيات القرآنيةَ التي مِن جملتها هذه الآيات المنبِّهةُ على أحوال الحياة الدنيا، أي: نُوضِّحها ونُبيِّنها ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ / في تضاعيفها ويقفون على معانيها. وتخصيص تفصيلها بهم لأنّهم المنتفِعون بها. ويجوز أن يراد بـ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ما ذُكر في أثناء التمثيل مِن الكائنات والفاسدات، وبـ"تفصيلها" تصريفُها على الترتيب المَحكي إيجادًا وإعدامًا، فإنّها آيات وعلامات يَستدِلّ بها مِن يتفكّر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالًا ومآلًا. [٨١ظ]

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ترغيب للناس في الحياة الأخرويّة الباقية إثرَ ترغيبهم عن الحياة الدنيويّة الفانية، أي: يدعو الناس جميعًا إلى دار السلامة عن كلّ مكروه وآفة وهي الجنّة، وإنّما ذُكرت بهذا الاسم لذِكر الدنيا بما يُقابله مِن كونها مِعرَضًا[٢] للآفات، أو إلى دار الله تعالى، وتخصيص الإضافةِ التشريفيّة بهذا الاسم الكريمِ للتنبيه على ذلك؛ أو إلى دار يُسلِّم الله تعالى أو الملائكةُ فيها على مَن يدخُلها أو يُسلِّم بعضهم على بعض.

﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه منهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مُوصِل إليها، وهو الإسلام والتزوّد بالتقوى. وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أنّ الأمر غيرُ الإرادة، وأنّ مَن أصرّ على الضلالة لم يُرِد الله رُشده.

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي: أعمالَهم، أي: عملوها على الوجه اللائق، وهو حسنها

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن وأبي رجاء وقتادة وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٢.

[٢] المِعرَض: الثوب الذي تُعرَض فيه الجارية وتُجلَى فيه. لسان العرب لابن منظور، «عرض».

الوصفي المستلزِم لحُسنها الذاتي، وقد فسَّره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أن تعبُد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[١] ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المَثوبة الحُسنى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ أي: وما يزيد على تلك المَثوبة تفضّلًا لقوله عزّ اسمه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء، ١٧٣/٤]. وقيل: الحسنى مِثلُ حسناتِهم، والزيادة عَشر أمثالِها إلى سبعمائة ضِعف وأكثر.[٢] وقيل: الزيادة مَغفرة مِن الله ورِضوان.[٣] وقيل: الحُسنى: الجنّة، والزيادة اللقاء.[٤]

[٨٢و] ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ / أي: لا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غُبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: أثرُ هوانٍ وكسوفُ بالٍ،[٥] والمعنى: لا يَرهقهم ما يَرهَق أهلَ النار، أو لا يَرهَقهم ما يُوجِب ذلك مِن الحُزن وسوء الحال. والتنكير للتحقير، أي: شيء منهما. والجملة مستأنَفة لبيان أَمْنهم مِن المَكاره إثرَ بيان فوزهم بالمَطالب، والثاني وإن اقتضى الأوّلَ إلّا أنّه ذُكر إذكارًا بما يُنقذِهم الله تعالى برحمته.

وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أنّ المَصون مِن الرَّهَق أشرفُ أعضائِهم، وللتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفس مترقِّبةً لوروده، فعند وروده عليها يتمكّن عندها فَضْلَ تمكّن، ولأنّ في الفاعل ضربَ تفصيل، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن، ٢٢/٥٥]، وقولِه عزّ وجلّ: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود، ١٢٠/١١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المَذكورين باعتبار اتّصافهم بالصفات المذكورة، وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعدِ للإيذان بعُلوّ درجتهم وسُموّ طبقتهم، أي:

---

١ صحيح البخاري، ١٩/١ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ٣٦/١ (٨).

٢ مَرويّ عن ابن عبّاس والحسن. انظر: جامع البيان للطبري، ١٦٣/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٠/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٥/٢.

٣ مَرويّ عن مجاهد. انظر: جامع البيان للطبري، ١٦٤/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٠/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٥/٢.

٤ مَرويّ عن جماعة مِن الصحابة، منهم: أبو بكر الصدِّيق وحذيفة وأبو موسى وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم. وهو قول الحسن وعكرمة وعطاء ومقاتل والضحّاك والسدّي. انظر: جامع البيان للطبري، ١٥٦/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٠/٤.

٥ وفي هامش م: ولا بدّ أن يكون هذا أدنى مِن القتر.

أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن النعوت الجميلة الفائزون بالمَثوبات الناجون مِن المَكاره. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بلا زوال دائمون بلا انتقال.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشركَ والمعاصيَ، وهو مبتدأ بتقدير المضاف، خبرُه قوله تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ أي: جزاءُ الذين كسبوا السيّئاتِ أن يُجازى سيّئةً واحدةً بسيّئة مثلها، لا يُزاد عليها كما يُزاد في الحسنة. وتغيير السبك[١] لمراعاة ما بين الفريقين مِن كمال التنائي والتبايُن. وإيراد الكسب للإيذان بأنّ ذلك إنّما هو لسُوء صنيعِهم وبسبب جنايتهم على أنفسهم. أو الموصول معطوف على الموصول الأوّل، كأنّه قيل: وللذين كسبوا السيّئاتِ جزاءُ سيّئةٍ بمثلها، كقولك: "في الدار زيدٌ والحجرةِ عمروٌ"،[٢] / وفيه دلالة على أنّ المراد بالزيادة الفضلُ. [٨٢ظ]

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وأيُّ ذِلّة؟ كما يُنبئ عنه التنوين التفخيميُّ. وفي إسناد الرَّهَق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذان بأنّها محيطة بهم غاشية لهم جميعًا. وقُرئ: "يَرهَقُهمْ"[٣] بالياء التحتانيّة.

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا يَعصِمُهم أحد مِن سخطه تعالى وعذابه، أو ما لهم مِن عنده تعالى مَن يعصمهم كما يكون للمؤمنين، وفي نفي العاصم مِن المبالغة في نفي العِصمة ما لا يخفى. والجملة مستأنَفة، أو حال مِن ضمير ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾.

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ لفَرط سوادِها وظُلمتِها. ﴿مُظْلِمًا﴾ حال مِن الليل، والعاملُ فيه: ﴿أُغْشِيَتْ﴾، لأنّه العامل في ﴿قِطَعًا﴾، وهو موصوف[٤]

---

[١] وفي هامش م: حيث لم يقل: وللذين كسبوا السيّئاتِ السوآى.

[٢] وفي هامش م: ويُسمّيه النحاة عطفًا على معمولَي عاملين، وفيه ثلاثة مذاهب: التجويز مُطلقًا وهو قول الفرّاء، والمنع مُطلقًا وهو قول سيبويه، والتفصيل بين أن يكون المُتقدِّم مجرورًا فيجوز، كما فيما نحن فيه، أو لا، فيمتنع نحو إنّ زيدًا في الدار وعمرًا القصرِ، أي: وإنّ عمرًا في القصر. «منه». | والكلام كلُّه بلفظ قريب في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٨١/٦؛ واللباب لابن عادل، ٣٠٩/١٠.

[٣] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مِقسَم. المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٩٥٨.

[٤] وفي هامش م: لفظ ﴿قِطَعًا﴾. «منه».

بالجارّ والمجرور، والعاملُ في الموصوف عاملٌ في الصفة؛ أو معنى الفعلِ في ﴿مِنَ ٱلَّيۡلِ﴾. وقُرئ: "قِطْعًا"[١] بسكون الطاء: وهو طائفة مِن الليل، قال:

افتحي الباب وانظُري في النجومِ   كَم علينا مِن قِطْعِ ليلٍ بهيمِ[٢]

فيَجوز كون ﴿مُظۡلِمًا﴾ صفةً له أو حالًا منه. وقُرئ: "كَأَنَّما يُغْشَى وُجُوهَهُمْ قِطْعٌ مِنَ اللَّيلِ مُظلِمٌ".[٣] والجملة كما قبلها مستأنفة، أو حال مِن ضمير ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذُكر مِن الصفات الذميمة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وحيث كانت الآية الكريمة في حقّ الكفّار بشهادة السِّياق والسِّباقِ لم يكن فيها تمسُّك للوعيديّة.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان بعضٍ آخرَ مِن أحوالهم الفظيعة. وتأخيره في الذِّكر مع تقدّمه في الوجود على بعض أحوالهم المَحكيّة سابقًا للإيذان باستقلال كلّ مِن السابق واللاحق بالاعتبار، ولو رُوعيَ الترتيب الخارجي لَعُدَّ الكلُّ شيئًا واحدًا، كما مرّ في قصّة البقرة، ولذلك فُصِل عمّا قبله. و﴿يَوۡمَ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَر، أي: أنذِرْهم أو ذكِّرْهم.

وضمير ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾ لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيّئات؛ لأنّه المتبادر مِن قوله تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾، ومِن أفراد الفريق الثاني بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ أي: نقول للمشركين مِن بينهم، ولأنّ توبيخهم وتهديدهم على رءوس الأشهاد أفظَعُ، / والإخبار بحَشْر الكلّ في تهويل [٨٣و] اليومِ أدخَلُ، وتخصيصُ وصف إشراكِهم بالذِّكر في حيّز الصلة مِن بين سائر

---

١ قرأ بها ابن كثير والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٣.

٢ ما عرفتُ قائله. وهو بلا نسبة في الصحاح للجوهري، «قطع»؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٨٣ (الحجر، ١٥/٦٥)؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/١٨٧؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٣١١.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

ما اكتسبوه مِن السيّئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه مِن الإيذان بكونه معظمَ جناياتِهم وعمدةَ سيّئاتِهم، وقيل: للفريق الثاني خاصّةً، فيكون وضع الموصول مَوضِع الضمير لِما ذُكر آنفًا.

﴿مَكَانَكُمْ﴾ نُصب على أنّه في الأصل ظرف لفعل أُقيم مُقامه لا على أنّه اسم فعل، وحركتُه حركة بناءٍ كما هو رأي الفارسي،[1] أي: الزَموه حتّى تنظُروا ما يُفعَل بكم. ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد للضمير المنتقَل إليه مِن عامله لسدِّه مَسدَّه، ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطفٌ عليه. وقُرئ بالنصب[2] على أنّ الواو بمعنى "مع".

﴿فَزَيَّلْنَا﴾ مِن "زِلتُ الشيء عن مكانه أَزِيلُه"، أي: أزلتُه، والتضعيف للتكثير لا للتعدية. وقُرئ: "فَزَايَلْنَا"[3] بمعناه نحو "كلَّمتُه وكالَمتُه"، وهو معطوف على ﴿نَقُولُ﴾. وإيثار صيغةِ الماضي للدلالة على التحقّق المورِّث لزيادة التوبيخ والتحسير، والفاء للدلالة على وقوع التزييل ومَباديه عقيبَ الخطاب مِن غير مُهلة إيذانًا بكمال رخاوة ما بين الفريقين مِن العلاقة والوُصلة، أي: ففرَّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وقطَّعنا أقرانَهم والوُصَل التي كانت بينهم في الدنيا، لكن لا مِن الجانبين؛ بل مِن جانب العَبَدة فقط، لعدم احتمال شمول الشركاء للشياطين كما سيجيء، فخابت آمالهم وانصرمت عُرى أطماعِهم، وحصل لهم اليأس الكلّيُّ مِن حصول ما كانوا يَرجونه مِن جهتهم. والحال وإن كانت معلومةً لهم مِن حين الموت والابتلاء بالعذاب لكنّ هذه المرتبة مِن اليقين إنّما حصلت عند المشاهدة والمشافهة.

وقيل: المراد بالتزييل التفريق الحسيُّ،[4] أي: فباعَدنا بينهم بعد الجَمْع في الموقف وتبرُّؤ شركائهم منهم ومِن عبادتهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [غافر، ٤٠/٧٣-٧٤]، فالواو حينئذ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ حاليّةٌ بتقدير كلمة "قد" عند مَن يشترطها وبدونه عند غيره، لا عاطفةٌ كما في التفسير الأوّل، لاستدعاء المحاوَرة المحاضَرة الفائتة بالمباعَدة.

---

[1] هو اسم فعل مبنيٌّ عند أبي عليّ. انظر: الحلبيّات لأبي عليّ الفارسي، ص ١٠٤.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢٥٦/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣١٥/١٠.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٦.

[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٥٦/٢.

وليس في ترتيب التزييل بهذا المعنى على الأمر بلزوم المكان ما في ترتيبه عليه بالمعنى الأوّل مِن النكتة المذكورة ليُصار لأجل رعايتها إلى تغيير الترتيب الخارجي، فإنّ المباعَدة بعد المحاوَرة حتمًا، وأمّا قَطْع الأقران والعلائق فليس كذلك؛ بل ابتداؤُه حاصل مِن حين الحشر؛ بل بعضُ مراتبه حاصل قبله أيضًا، وإنّما الحاصل عند المحاوَرة أقصاها كما أشيرَ إليه، فلا اعتدادَ بما في تقديمه مِن التغيير لاسيّما مع رعاية ما ذُكر مِن النكتة، ولو سُلِّم تأخُّر جميع مراتبه مِن المحاوَرة فمراعاة تلك النكتة كافية في استدعاء تقديمه عليها. ويجوز أن تكون حاليّةً على هذا التقدير أيضًا.

والمراد بالشركاء، قيل: الملائكة وعُزير والمَسيح وغيرهم ممّن عبدوه مِن أولي العِلم.[١] ففيه تأييد لرجوع الضميرِ إلى الكلّ. وقولهم: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ عبارة عن تبرّئهم مِن عبادتهم وأنّهم إنّما عبدوا في الحقيقة أهواءَهم وشياطينَهم الذين أغوَوهم، لأنّها الآمرة لهم بالإشراك دونهم كقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ الآية، [سبأ، ٤١/٣٤]. وقيل: الأصنام يُنطِقها الله الذي أنطق كلَّ شيء فتُشافِههم بذلك مكانَ الشفاعةِ التي كانوا يتوقّعونها.[٢]

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

[٨٣ظ] / ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، فإنّه العليم الخبير. ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: عن عبادتكم لنا، وتركُه[٣] للظهور وللإيذان بكمال الغفلة عنها. والغفلة عبارةٌ عن عدم الارتضاء وإلّا فعدمُ شعور الملائكة بعبادتهم لهم غيرُ ظاهر، وهذا يقطع احتمال كون المراد بالشركاء الشّياطينَ كما قيل،[٤] فإنّ ارتضاءهم بإشراكهم ممّا لا ريب فيه، وإن لم يكونوا مُجبِرين لهم على ذلك. و﴿إِن﴾ مخفَّفة مِن "إنّ"، واللام فارقة.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

---

[١] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.

[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.

[٣] يعني ترك لفظ "لنا".

[٤] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المَقام الدَّهِش، أو في ذلك الوقت على استعارة ظرفِ المكان للزمان. ﴿تَبْلُواْ﴾ أي: تختبِر وتذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنةً كانت أو كافرةً سعيدةً أو شقيّةً ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ مِن العمل وتُعاينه بكُنهه مستتبِعًا لآثاره مِن نفع أوضُرّ وخيرٍ أو شرّ، وأمّا ما علِمتْ مِن حالها مِن حين الموتِ والابتلاءِ بالعذاب في البرزخ فأمرٌ مجمَل.

وقُرئ: "نَبْلُو" بنون العظمةِ ونصبِ ﴿كُلَّ﴾ وإبدالِ ﴿مَا﴾ منه،[١] أي: نعاملها معاملةَ مَن يبلوها ويتعرّف أحوالَها مِن السعادة والشقاوة باختبار ما أسلفت مِن العمل. ويجوز أن يُراد: نُصيبُ بالبلاء، أي: العذاب كلَّ نفس عاصية بسبب ما أسلفت مِن الشرّ، فيكون ﴿مَا﴾ منصوبة بنزع الخافض. وقُرئ: "تَتْلُو"،[٢] أي: تتبَع، لأنّ عملها هو الذي يَهديها إلى طريق الجنّة أو إلى طريق النارِ، أو تقرأ في صحيفة أعمالِها ما قدّمت مِن خير أو شرّ.

﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ الضمير للذين أشركوا على أنّه معطوف على "زيَّلنا" وما عُطف عليه، وقوله عزّ وجلّ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ﴾... إلخ، اعتراض في أثناء الحكايةِ مقرِّر لمضمونها. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى جزائه وعقابه. ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ ربِّهم ﴿ٱلْحَقِّ﴾ أي: المتحقِّق الصادق ربوبيّته لا ما اتّخذوه ربًّا باطلًا. وقُرئ: "الحقَّ"[٣] بالنصب على المدح، كقولهم: "الحمدُ لله أهلَ الحمد"، أو على المصدر المؤكِّد.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وضاع، أي: ظهر ضَياعه وضلاله، لا أنّه كان قبل ذلك غيرَ ضالّ، أو ضلّ في اعتقادهم[٤] أيضًا: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ مِن أنّ آلهتهم تشفَع لهم، أو ما كانوا يدّعون أنّها آلهة. / هذا وجُعل الضمير في ﴿رُدُّوٓاْ﴾ للنفوس المدلول عليها [٨٤و] بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على أنّه معطوف على ﴿تَبْلُواْ﴾، وأنّ العدول إلى الماضي للدلالة على التحقّق والتقرّر، وأنّ إيثار صيغة الجمع للإيذان بأنّ ردّهم إلى الله تعالى

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حاتم عن هارون عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٠.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٣.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن زيد بن عليّ والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٠.

٤ وفي هامش م: أي: اعتقادهم الجازم، وقد مرّ تفصيل الأمر. «منه».

يكون على طريقة الاجتماع لا يُلائمه التعرّض لوصف الحقّيّة في قوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ فإنّه للتعريض بالمردودين حسبما أشيرَ إليه، ولئن اكتُفيَ فيه بالتعريض ببعضهم،[١] أو حُمل ﴿ٱلْحَقِّ﴾ على معنى العدل في الثواب والعقاب فقوله عزّ وجلّ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ممّا لا مجال فيه للتدارك قطعًا، فإنّ ما فيه مِن الضمائر الثلاثة للمشركين، فيلزم التفكيك حتمًا. وتخصيص ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بالنفوس المشرِكة مع عموم البلوى للكلّ يأباه مقام تهويل المقام،[٢] والله تعالى أعلَم.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ أي: لأولئك المشركين الذين حُكيت أحوالهم وبيِّن ما يُؤدّي إليه أعمالهم احتجاجًا على حقّيّة التوحيد وبُطلانِ ما هم عليه مِن الإشراك. ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: منهما جميعًا، فإنّ الأرزاق تحصُل بأسباب سماويّة وموادَّ أرضيّة، أو مِن كلّ واحدة منهما توسعةً عليكم. وقيل: ﴿مِنَ﴾ لبيان كلمة ﴿مَن﴾ على حذف المضافِ، أي: مِن أهل السماء والأرض.[٣]

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ "أم" منقطِعة، وما فيها مِن كلمة "بل" للإضراب عن الاستفهام الأوّل، لكن لا على طريقة الإبطال؛ بل على وجه الانتقال وصرفِ الكلام عنه إلى استفهام آخرَ تنبيهًا على كفايته فيما هو المقصود، أي: مَن يستطيع خَلْقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة، أو مَن يحفظهما مِن الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما مِن أدنى شيء يُصيبهما؟

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: ومَن يُحيي ويُميت أو ومَن يُنشئ الحيوان مِن النُّطفة والنُّطفة مِن الحيوان. ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: ومَن يلي تدبير أمر العالم جميعًا، وهو تعميم بعد تخصيصِ بعضٍ ما / [٨٤ظ] اندرج تحته مِن الأمور الظاهرة بالذِّكر. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بلا تلعثُم ولا تأخير: ﴿ٱللَّهُ﴾.

---

[١] وفي هامش م: أي ببعض النفوس الشاملة للكلّ، وهو للمشركين خاصّة. «منه».

[٢] وفي هامش م: أي: ﴿هُنَالِكَ﴾. «منه».

[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.

إذ لا مجال للمُكابرة لغاية وضوحه. والخبر محذوف، أي: الله يفعل ما ذُكر مِن الأفاعيل لا غيرُه.

﴿فَقُلْ﴾ عند ذلك تبكيتًا لهم. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الهمزة لإنكار عدم الاتّقاء بمعنى إنكار الواقع، كما في: أتضرِب أباكَ؟ لا بمعنى إنكار الوقوع كما في: أأضرِبُ أبي؟ والفاء للعطف على مقدَّر ينسحِب عليه النظم الكريم، أي: أتعلَمون ذلك فلا تقُون أنفسَكم عذابَه الذي ذُكر لكم بما تتعاطَونه مِن إشراككم به ما لا يُشاركه في شيء ممّا ذُكر مِن خواصّ الإلهيّة.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ فذلكة لِما تقدَّم، أي: ذلكم الذي اعترفتُم باتّصافه بالنعوت المذكورة. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ خبره. وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ﴾ أي: مالككم ومتولّي أموركم على الإطلاق بدلٌ منه أو بيان له. وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة له، أي: ربُّكم الثابت ربوبيّته والمتحقِّق ألوهيّته تحقُّقًا لا ريبَ فيه.[١]

﴿فَمَاذَا﴾ يجوز أن يكون الكلُّ اسمًا واحدًا قد غُلّب فيه الاستفهامُ على اسم الإشارة، وأن يكون "ذا" موصولًا بمعنى: "الذي"، أي: ما الذي ﴿بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾؟ أي: غيرُه بطريق الاستعارة. وإظهار ﴿ٱلْحَقِّ﴾ إمّا لأنّ المراد به غيرُ الأوّل[٢] وإمّا لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال.

والاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، أي: ليس غيرُ الحقّ ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ الذي لا يَختاره أحد، فحيث ثبُت أنّ عبادة مَن هو منعوت بما ذُكر مِن النعوت الجميلة حقٌّ ظهَر أنّ ما عداها مِن عبادة الأصنام ضلال مَحض؛ إذ لا واسطة بينهما. وإنّما سُمّيت ضلالًا مع كونها مِن أعمال الجوارح باعتبار ابتنائِها على ما هو ضلال[٣] مِن الاعتقاد والرأيِ، هذا على تقدير كونِ الحقّ عبارةً عن التوحيد، وأمّا على تقدير كونه عبارةً عن الأوّل، فالمراد بالضلال

---

١ وفي هامش م: مُستفاد مِن صيغة ﴿ٱلْحَقُّ﴾. «منه».

٢ وفي هامش م: كما ستقف عليه. «منه».

٣ وفي هامش م: أي عبادة الأصنام.

[٨٥و] / هو الأصنام لا عبادتها. والمعنى: فماذا بعد الربّ الحقّ الثابت ربوبيّتُه إلّا الضلالُ، أي: الباطل الضائع المضمَحلُّ، وإنّما سُمّي بالمَصدر مبالغةً، كأنّه نَفْس الضلال والضياع. وهذا أنسَب بقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام، ٦/٢٤] على التفسير الثاني.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ استفهام إنكاري بمعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه، وفيه مِن المبالغة ما ليس في توجيه الإنكار إلى نفس الفعل، لأنّ كلّ موجود لا بدّ مِن أن يكون وجوده على حال مِن الأحوال قطعًا، فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهاني كما مرّ مرارًا.

و"الفاء" لترتيب الإنكار على ما قبله، أي: كيف تُصرَفون مِن الحقّ الذي لا محيدَ عنه وهو التوحيد[١] إلى الضلال عن السبيل المستبين وهو الإشراكُ وعبادةُ الأصنام؟ أو مِن عبادة ربّكم الحقّ[٢] الثابت ربوبيّته إلى عبادة الباطل الذي سمعتُم ضلاله وضياعه في الآخرة؟ وفي إيثار صيغة المَبنيّ للمفعول إيذان بأنّ الانصراف مِن الحقّ إلى الضلال ممّا لا يَصدُر عن العاقل بإرادته، وإنّما يقع عند وقوعه بالقسر مِن جهة صارف خارجي.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما حقّت الربوبيّة لله تعالى، أو كما أنّه ليس بعد الحقّ إلّا الضلال، أو أنّهم مصروفون عن الحقّ. ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وحُكمه وقضاؤه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أي: تمرّدوا في الكفر وخرجوا مِن أقصى حدوده ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل مِن "الكلمة"، أو تعليل لحقّيّتها، والمرادُ بها العِدَة بالعذاب.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ احتجاج آخرُ على حقّيّة التوحيد وبطلانِ الإشراكِ

---

[١] وفي هامش م: على التفسير الأوّل للحقّ.

[٢] وفي هامش م: على التفسير الثاني.

بإظهار كونِ شركائهم بمَعزِل مِن استحقاق الإلهيّة ببيان اختصاصِ خواصِّها مِن بَدء الخلق وإعادتِه به سبحانه وتعالى. وإنّما لم يُعطَف على ما قبله إيذانًا باستقلاله في إثبات المطلوب. والسؤال للتبكيت والإلزام، وقد جُعلت هَليّةُ الإعادة وتحقُّقها لوضوح مكانها وسُنوح برهانها بمَنزلة بدءِ الخَلْق فنُظِمت في سِلكه حيث قيل: / ﴿مَن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إيذانًا بتلازمهما وجودًا وعِلمًا يَستلزم الاعترافُ به الاعترافَ بها، وإن صدّهم عن ذلك ما بهم مِن المُكابرة والعِناد. [٨٥ظ]

ثمّ أُمر صلّى الله عليه وسلّم بأن يُبيّن لهم مَن يفعل ذلك فقيل له: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: هو يفعلهما لا غيرُ كائنًا ما كان، لا بأن ينوب عليه السلام عنهم في ذلك كما قيل،[١] لأنّ القول المأمور به غيرُ ما أُريد منهم مِن الجواب وإن كان مستلزِمًا له، إذ ليس المسئول عنه مَن يبدأ الخلق ثمّ يعيده، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد، ١٦/١٣]، حتّى يكونَ القول المأمور به عينَ الجواب الذي أُريد منهم، ويكونَ عليه السلام نائبًا عنهم في ذلك؛ بل إنّما هو وجود مَن يفعل البدء والإعادة مِن شركائهم، فالجواب المطلوبُ منهم: لا، لا غيرُ.

نعم أُمر صلّى الله عليه وسلّم بأن يُضمِّنه مقالتَه إيذانًا بتعيّنه[٢] وتحتُّمه، وإشعارًا بأنّهم لا يجترئون على التصريح به مَخافة التبكيت وإلقامِ الحجَر، لا مُكابرةً ولَجاجًا،[٣] فتدبّر. وإعادة الجملة في الجواب بتمامها غيرَ محذوفة الخبر كما في الجواب السابق لمَزيد التأكيد والتحقيق.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الإفك: الصَّرف والقلب عن الشيء، وقد يُخصّ بالقلب عن الرأي، وهو الأنسب بالمقام، أي: كيف تُقلبون مِن الحقّ إلى الباطل. والكلام فيه كما ذُكر في ﴿تُصْرَفُونَ﴾.[٤]

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٥٨/٢.
٢ وفي هامش م: للجوابيّة. «منه».
٣ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.
٤ يونس، ٣٢/١٠.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ احتجاج آخرُ على ما ذُكر، جيء به إلزامًا لهم غِبَّ إلزامٍ وإفحامًا إثرَ إفحام، وفصلُه عمّا قبله لِما ذُكر مِن الدلالة على استقلاله.

﴿مَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي: بوجه مِن الوجوه، فإنّ أدنى مَراتب المعبوديّة هداية المعبود لعبَدته إلى ما فيه صلاحُ أمرِهم. وأمّا تعيين طريق الهدايةِ وتخصيصُه بنصب الحُجج وإرسال الرُّسل والتوفيقِ للنظر والتدبّر كما قيل،[١] فمُخِلٌّ بما يقتضيه المقام مِن كمال التبكيت والإلزام، / فإنّ العجز عن الهداية على وجه [٨٦و] خاصّ لا يَستلزم العجز عن مطلَق الهداية. و"هدى" كما يُستعمل بكلمة "إلى" لتضمّنه معنى الانتهاء يُستعمَل باللام للدلالة على أنّ المنتهى غاية للهداية، وإنّما لم يُتوجَّه نحوه على سبيل الاتّفاق، ولذلك استُعمل بها ما أُسند إلى الله تعالى حيث قيل: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي: هو يهدي له دون غيره، وذلك بما ذُكر مِن نَصْب الأدلّة والحُجج وإرسال الرُّسل وإنزالِ الكُتب والتوفيق للنظر والتدبّر وغير ذلك مِن فنون الهدايات. والكلام في الأمر بالسؤال والجواب كما مرّ فيما مرّ.

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو الله عزّ وجلّ ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ بكسر الهاء، أصلُه: "يهتدي" فأُدغم وكُسرت الهاء لالتقاء الساكنين. وقُرئ بكسر الياء[٢] إتباعًا لها لحركة الهاء، وقُرئ بفتح الهاء[٣] نقلًا لحركة التاء إليها، أي: لا يهتدي بنفسه فضلًا عن هداية غيره، وفيه مِن المبالغة ما لا يخفى. وإنّما نُفي عنه الاهتداء مع أنّ المفهوم ممّا سبق نفي الهداية لِما أنّ نفيها مستتبع لنفيه غالبًا، فإنّ مَن اهتدى إلى الحقّ لا يخلو عن هداية غيره في الجملة، وأدناها كونه قُدوةً له بأن يراه فيَسلُكَ مَسلكَه مِن حيث لا يدري.

و"الفاء" لترتيب الاستفهام على ما سبق مِن تحقّق هدايتِه تعالى صريحًا وعدمِ هداية شركائهم المفهومِ مِن القَصْر ومِن عدم الجواب المنبئ عن الجواب بالعدم، فإنّ ذلك ممّا يَضطَرّهم إلى الجواب الحقّ لا لتوجيه الاستفهام إلى الترتيب

---

١ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٠/٢.

٢ قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

٣ قرأ بها ابن كثير وابن عامر ونافع في رواية ورش عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

كما يقع في بعض المواقع، فإنّ ذلك مختصّ بالإنكاري كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾... إلخ، [آل عمران، ١٦٢/٣] ونحوه.

والهمزة متأخِرة في الاعتبار، وإنّما تقديمها في الذِّكر لإظهار عراقتها في اقتضاء الصدارة كما هو رأي الجمهور، حتّى لو كان السؤال بكلمة "أيّ" لأُخِرت حتمًا، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام، ٨١/٦] إثرَ تقديرِ ما يُلجئ المشركين إلى الجواب مِن حالهم وحال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقُرِئ: "لَا يَهْدِي"[١] بمعنى: لا يهتدي،[٢] لمجيئه لازمًا، أو لا يهدي غيرَه.

وصيغة التفضيل: إمّا على حقيقتها والمفضَّل عليه محذوف كما اختاره مكّي،[٣] والتقدير: أفمَن يَهدي إلى الحقّ أحقُّ أن يُتَّبع ممّن لا يهدي أم مَن لا يهدي أحقُّ... إلخ؛ / وإمّا بمعنى: "حقيق" كما اختاره أبو حيّان،[٤] وأيًّا ما كان فالاستفهام للإلزام، وأن يُتَّبع في حيّز النصب[٥] أو الجرّ[٦] بعد حذف الجارّ على الخلاف المعروف، أي: بأن يتَّبعَ. [٨٦ظ]

﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا يَهتدي أو لا يَهدي غيرَه في حال مِن الأحوال إلّا حالَ هدايتِه تعالى له إلى الاهتداء أو إلى هداية الغير، وهذا حال أشرافِ شُركائهم مِن الملائكة والمَسيح وعُزير عليهم السلام.

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

[٢] وهو رأي الكسائي والفرّاء وتبعهما الزمخشري، وفيه نظر. انظر قولهم: **معاني القرآن** للفراء، ٩٩/٢ (النحل، ٢٩/١٦)؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢٥٨/٢. وانظر الردّ عليه في **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ١٩٧/٦؛ **واللباب** لابن عادل، ٣٢٤/١٠.

[٣] انظر: **مشكل إعراب القرآن** لمكّي، ٣٤٥/١؛ **واللباب** لابن عادل، ٣٢٤/١٠-٣٢٥.

[٤] انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٤/٦؛ **واللباب** لابن عادل، ٣٢٤/١٠. | هو محمّد بن يوسف بن عليّ بن يوسف بن حيّان الإمام أثير الدين الغرناطي الأندلسي الجياني، أبو حيّان (ت. ٧٤٥هـ/١٣٤٤م). مِن كبار العلماء بالعربيّة والتفسير والحديث والتراجم واللغات. وُلد في إحدى جهات غرناطة ورحل إلى مالَقة وتنقّل إلى أن أقام بالقاهرة ومات فيها بعد أن كُفّ بصره. اشتهرت تصانيفه في حياته وقُرئت عليه، وأهمّها: **البحر المحيط، والتذييل والتكميل، وارتشاف الضَّرَب، والمُبدِع في التصريف، والنُّكت الحِسان**. وهي مطبوعة. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٢٨٠/١؛ **والأعلام** للزركلي، ١٥٢/٧.

[٥] وفي هامش م: عند سيبويه والفرّاء. «منه».

[٦] وفي هامش م: عند الخليل والكسائي. «منه».

وقيل: المعنى: أم مَن لا يهتدي مِن الأوثان إلى مكان فيُنتَقل إليه إلّا أن يُنقل إليه أو إلّا أن يَنقُله الله تعالى مِن حاله إلى أن يَجعَله حيوانًا مكلَّفًا فيَهديَه. وقُرئ: "إلّا أنْ يُهَدَّى"[١] مِن "التفعيل" للمبالغة.

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي: أيُّ شيءٍ لكم في اتّخاذكم هؤلاء شركاءَ لله سبحانه وتعالى. والاستفهام للإنكار التوبيخي، وفيه تعجّبٌ مِن حالهم. وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: بما يقضي صريحُ العقل ببُطلانه إنكارٌ لحكمهم الباطلِ وتعجّبٌ منه وتشنيعٌ لهم بذلك. و"الفاء" لترتيب كلا الإنكارين على ما ظهر مِن وجوب اتّباع الهادي إلى الحقّ.

إن قلتَ: التبكيت بالاستفهام السابق إنّما يظهر في حقّ مَن يعكس جوابه الصحيح فيحكم بأحقّيّة مَن لا يَهدي بالاتّباع دون مَن يهدي، وهم ليسوا حاكمين بأحقّيّة شركائهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى؛ بل باستحقاقهما جميعًا مع رُجحان جانبه تعالى، حيث يقولون: هؤلاء شفعاؤُنا عند الله. قلتُ: حكمُهم باستحقاقه تعالى للاتّباع بطريق الاشتراكِ حكمٌ منهم بعدم استحقاقه تعالى لذلك بطريق الاستقلال، فصاروا حاكمين باستحقاق شركائِهم له دون الله تعالى مِن حيث لا يحتسِبون.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ كلام مبتدأ غيرُ داخل في حيّز الأمر، مَسوقٌ مِن قِبَله تعالى لبيان عدم فهمهم لمضمون ما أفحمهم وألقمهم الحجرَ مِن البرهان النيّر الموجِب لاتّباع الهادي إلى الحقّ الناعي عليهم بُطلانَ حُكمهم وعدمَ تأثّرهم مِن ذلك لعدم اهتدائِهم إلى طريق العِلم أصلًا، أي: ما يتّبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتِهم ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ واهيًا مِن غير التفات إلى فرد مِن أفراد العِلم، فضلًا عن أن يَسلُكوا مَسالكَ الأدلّة الصحيحة الهادية إلى الحقّ المَبنيّة على المقدِّمات اليقينيّة الحقّة، فيفهموا مضمونها ويقفوا على صِحّتها وبُطلانِ ما يخالفها مِن أحكامهم الباطلة، فيَحصُل / التبكيت والإلزام. [٨٧و]

---

[١] قراءة شاذّة، مَروية عن أبي الحارث الذماري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

فالمراد بـ"الاتّباع" مطلَق الاعتقاد الشامل لِما يُقارن القبول والانقياد وما لا يُقارنه، وبالقصر ما أشيرَ إليه مِن أن لا يكون لهم في أثنائه اتّباعٌ لفرد مِن أفراد العِلم والتفات إليه. ووجهُ تخصيص هذا الاتّباع بأكثرهم: الإشعار بأنّ بعضهم قد يتّبعون العِلم فيَقفون على حقّيّة التوحيد وبُطلان الشرك، لكن لا يَقبلونه مُكابرةً وعِنادًا، فيَحصُل بالنسبة إليهم التأثّر مِن البرهان المَزبور وإن لم يُظهِروه، وكونهم أشدَّ كُفرًا وأكثرَ عذابًا مِن الفريق الأوّلِ لا يقدَح فيما يُفهَم مِن فحوى الكلام عُرفًا مِن كون أولئك أسوأَ حالًا مِن غيرهم، إذ المعتبَر سوء الحال مِن حيث الفهمُ والإدراك لا مِن حيث الكفرُ والعذاب.

أو ما يتّبع أكثرُهم مدّةَ عُمرهم إلّا ظنًّا ولا يتركونه أبدًا، فإنّ حرف النفي الداخل على المضارع يُفيد استمرار النفي بحسب المَقام،[1] فالمراد بـ"الاتّباع" حينئذ هو الإذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان. ووجهُ تخصيص هذا الاتّباع بأكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم في ذلك التلويح بما سيكون مِن بعضهم مِن اتّباع الحقّ والتوبة، كما سيأتي.

هذا، وقد قيل: المعنى: وما يتّبع أكثرهم في إقرارهم بالله تعالى إلّا ظنًّا غيرَ مستنِدٍ إلى بُرهان عندهم. وقيل: وما يتّبع أكثرهم في قولهم للأصنام: إنّها آلهةٌ، إلّا ظنًّا، والمراد بالأكثر الجميع،[2] فتأمّل. وقيل: الضمير في ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾ للناس،[3] فلا حاجةَ إلى التكلّف.

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ مِن العِلم اليقيني والاعتقادِ الصحيح المطابق للواقع ﴿شَيۡـًٔا﴾ مِن الإغناء. ويجوز أن يكون مفعولًا به، و﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ حالًا منه، والجملة استئناف ببيان شأن الظنّ وبُطلانه.[4] وفيه دلالة على وجوب العِلم في الأصول، وعدمِ جوازِ الاكتفاءِ بالتقليد.[5] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ وعيد لهم / على أفعالهم القبيحة، فيندرج تحتها ما حُكيَ عنهم مِن الإعراض [٨٧ظ]

---

١ وفي هامش م: كما حُقِّق فيما قبلُ. «منه».
٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٨.
٣ ما وجدته فيما بين يديّ مِن المظانّ.
٤ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠١.
٥ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠١.

عن البراهين القاطعة والاتّباع للظنون الفاسدة اندراجًا أوّليًا. وقُرئ: "تَفْعَلُونَ"[١] بالالتفات إلى الخطاب لتشديد الوعيد.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ شروع في بيان ردِّهم للقرآن الكريم إثرَ بيان ردِّهم للأدلّة العقليّة المندرِجة في تضاعيفه، أي: وما صحّ وما استقام أن يكون هذا القرآن المَشحون بفنون الهدايات المستوجِبة للاتّباع التي مِن جملتها هاتِيك الحُجج البيّنة الناطقة بحقّيّة التوحيد وبُطلان الشرك. ﴿أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: افتراءً مِن الخلق، أي: مفترًى منهم سُمّي بالمصدر مبالغة.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن الكتب الإلهيّة المَشهود على صدقها، أي: مصدِّقًا لها، كيف لا، وهو لكونه معجِزًا دونها عِيارٌ عليها شاهدٌ بصحّتها. ونَصْبه بأنّه خبر "كان" مقدَّرًا. وقد جُوّز كونه عِلّة لفعل محذوف، تقديره: لكن أنزَله الله تصديقَ... إلخ.[٢] وقُرئ بالرفع[٣] على تقدير المبتدأ، أي: ولكن هو تصديق... إلخ.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عطفٌ عليه نصبًا ورفعًا، أي: وتفصيلَ ما كُتب وأُثبت مِن الحقائق والشرائع. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر ثالث داخل في حُكم الاستدراك، أي: منتفيًا عنه الرَّيب، أو حال مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وإن كان مضافًا إليه فإنّه مفعول في المعنى، أو استئناف لا محلَّ له مِن الإعراب.

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبر آخرُ،[٤] أي: كائنًا مِن ربّ العالمين، أو متعلِّق بـ﴿تَصْدِيقَ﴾ أو بـ﴿تَفْصِيلَ﴾ أو بالفعل المعلَّل بهما. و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض كما في قولك:

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود والحسن وعيسى الكوفي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٧.

[٢] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠١/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مَرويّة عن عيسى بن عمر وزيد بن عليّ وابن أبي عبلة والزّعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٢.

[٤] وفي هامش م: أي: لـ"كان" المُقدَّر. «منه».

"زيد لا شكّ فيه كريمٌ"، أو حال مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو مِن الضمير في ﴿فِيهِ﴾. ومَساق الآية الكريمة بعد المنع عن اتّباع الظنّ لبيان ما يجِب اتّباعه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ / ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: بل أيقولون افتراه محمّد عليه السلام؟ والهمزة [٨٨و] لإنكار الواقع واستبعاده. ﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم وإظهارًا لبُطلان مقالتهم الفاسدة، إن كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: في البلاغة وحُسن الصياغة وقوّة المعنى على وجه الافتراء، فإنكم مِثلي في العربيّة والفصاحة وأشدُّ تمرّنًا منّي في النظم والعبارة. وقُرئ: "سُورَةِ مِثْلِهِ"[١] على الإضافة، أي: بسورة كتابٍ مثلِه.

﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للمظاهَرة والمعاوَنة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعاءَه والاستعانةَ به مِن آلهتكم التي تزعُمون أنّها مُمِدّة لكم في المهِمّات والملِمّات، ومَدارِهِكم[٢] الذين تلجئون إلى آرائهم في كلّ ما تأتون وما تذرون.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱدْعُوا۟﴾. و﴿دُونِ﴾ جارٍ مَجرى أداة الاستثناء، وقد مرَّ تفصيله في قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢/٢٣]، أي: ادعُوا سواه تعالى مَن استطعتم مِن خلقه فإنّه لا يَقدِر عليه أحد. وإخراجه سبحانه مِن حُكم الدعاءِ للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونِهم في عُدوة المُضادّة والمُشاقّة، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كُلِّفوه، فإنّ ذلك ممّا يُوهِم أنّهم لو دعَوه تعالى لأجابهم إليه.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في أنّي افتريته، فإنّ ذلك مستلزِم لإمكان الاتيان بمثله، وهو أيضًا مستلزِم لقدرتكم عليه. والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه.[٣]

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن عمرو بن فايد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢.

[٢] المَدَاره جمع "مِدْرَه": زعيم القوم وخطيبهم والمُتكلِّم عنهم والذي يرجعون إلى رأيه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «دره».

[٣] وفي هامش م: أي: إن كنتم صادقين فأتوا بسورة مِثله. «منه».

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠﴾

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ إضراب وانتقال عن إظهار بُطلان ما قالوا في حقّ القرآن العظيم بالتحدِّي إلى إظهاره ببيانِ أنّه كلام ناشيء عن جهلهم بشأنه الجليلِ. فـ﴿مَا﴾ عبارةٌ عن كلّه، لا عمّا فيه مِن ذِكر البعث والجزاءِ وما يُخالف دينَهم كما قيل،[1] فإنّه ممّا يجب تنزيهُ ساحة التنزيل عن مِثله، أي: سارَعوا إلى تكذيبه آثرَ ذي أثيرٍ مِن غير أن يتدبَّروا فيه ويقِفوا على ما في تضاعيفه مِن الشواهد الدالّة على كونه كما وُصف آنفًا،[2] ويعلموا أنّه ليس ممّا يُمكن أن يكون له نظير يَقدِر عليه المخلوق.

والتعبير عنه بـ﴿مَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ دون أن يقال: بل كذَّبوا به مِن غير أن يُحيطوا بعلمه، أو نحو ذلك، / للإيذان بكمال جهلهم به، وأنّهم لم يعلموه إلّا بعنوان عدم العِلم به، وبأنّ تكذيبهم به إنّما هو بسبب عدم عِلمهم به لِما أنّ إدارة الحُكم على الموصول مشعِرة بعِلّيَة ما في حيّز الصلة له. [٨٨ظ]

﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ عطفٌ على الصلة، أو حال مِن الموصول، أي: ولم يقِفوا بعدُ على تأويله، ولم يبلُغ أذهانَهم معانيه الرائقةُ المنبِئة عن علوّ شأنه. والتعبير عن ذلك بإتيان التأويل للإشعار بأنّ تأويله متوجِّه إلى الأذهان مُنساق إليها بنفسه،[3] أو لم يأتِهم بعدُ تأويل ما فيه مِن الإخبار بالغيوب حتّى يتبيَّن أنّه صدق أم كذب. والمعنى: أنّ القرآن معجِز مِن جهة النظم والمعنى ومِن جهة الإخبار بالغيب، وهم قد فاجئوا تكذيبَه قبل أن يتدبَّروا نظمه ويتفكَّروا في معناه أو ينتظروا وقوعَ ما أخبر به مِن الأمور المستقبَلة.

ونفيُ إتيان التأويل بكلمة ﴿لَمَّا﴾ الدالّة على التوقّع بعد نفي الإحاطة بعِلمه بكلمة ﴿لَمۡ﴾ لتأكيد الذمّ وتشديد التشنيع، فإنّ الشناعة في تكذيب الشيء قبل عِلمه

---

[1] وفي هامش م: قائله بيضاوي، ومَن مصدريّة. «منه». | انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٢/٢.

[2] وفي هامش م: مِن كونه تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ الكتاب لا ريبَ فيه مِن ربّ العالمين. «منه».

[3] وفي هامش م: أي: غير مُحتاج إلى تأمّل. «منه».

المتوقَّع إتيانُه أفحشُ مِنها في تكذيبه قبل عِلمه مطلقًا. والمعنى: أنّه كان يجب عليهم أن يتوقَّفوا إلى زمان وقوع المتوقَّع فلم يفعلوا. وأمّا أنّ المتوقَّع قد وقع بعدُ، وأنَّهم استمرُّوا عند ذلك أيضًا على ما هم عليه أو لا، فلا تعرُّضَ له ههنا.

والاستشهاد عليه بعدم انقطاع الذمّ، أو ادّعاءُ أنّ قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾[1] تكذيبٌ بعد التدبّر،[2] ناشئٌ مِن عدم التدبّر، فتدبّر. كيف لا، وهم لم يقولوه بعد التحدّي؛ بل قبله. وادّعاء كونِه مَسبوقًا بالتحدّي الوارد في سورة البقرة،[3] يردُّه أنّها مدنيّة وهذه مكيّة، وإنّما الذي يدلّ عليه ما سيُتلى عليك مِن قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم﴾...[4] إلخ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾... إلخ، وصفٌ لحالهم المَحكي وبيان لِما يُؤدّي / إليه مِن العقوبة، أي: مِثلَ ذلك التكذيب المَبني على بادي الرأي والمُجازفةِ مِن غير تدبّر وتأمّل ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: فعلوا التكذيبَ، أو كذَّبوا ما كذّبوا مِن المعجِزات التي ظهرت على أيدي أنبيائِهم، أو كذَّبوا أنبياءَهم. ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الذين مِن قبلهم مِن المكذِّبين. وإنّما وُضع المُظهَر مَوضِع المضمَر للإيذان بكون التكذيبِ ظُلمًا، وبعِلّيّته لإصابة ما أصابهم مِن سوء العاقبة، وبدخول هؤلاء الظالمين في زمرتهم جُرمًا ووعيدًا دخولًا أوّليًّا. [٨٩و]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنۡهُم﴾... إلخ، وصفٌ لحالهم بعد إتيان التأويل المتوقَّع، إذ حينئذ يُمكِن تنويعُهم إلى المؤمِن به وغير المؤمِن ضرورةَ امتناع الإيمان بشيء مِن غير علم به، واشتراكَ الكلّ في التكذيب والكفر به قبل ذلك حسبما أفاده قولُه تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾.[5] أي: ومِن هؤلاء المكذِّبين ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ عند الإحاطةِ بعلمه وإتيانِ تأويله وظهورِ حقّيّته بعد ما سعَوا في المعارضة ورازُوا قُواهم فيها فتضاءلت دونها، أو بعد ما شاهدوا وقوعَ ما أَخبر به كما أَخبر به مرارًا.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] وفي هامش م: المولى قطب الرازي رحمه الله. | القول في شرح مشكلات الكشّاف لقطب الدين الرازي، ٣٤٨ظ. والقول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٩.

[3] وفي هامش م: المولى التفتازاني رحمه الله. «منه». | انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٤٠٠ظ.

[4] في الآية الآتية.

[5] في الآية السابقة.

ومعنى الإيمان به إمّا الاعتقاد بحقّيّته فقط، أي: يُصدِّق به في نفسه، ويعلم أنّه حقٌّ ولكنّه يُعانِد ويُكابِر، وهؤلاءِ هم الذين أشيرَ بقَصْر اتّباع الظنّ على أكثرهم إلى أنّهم يعلمون الحقَّ[١] على التفسير **الأوّل**[٢] كما أشيرَ إليه فيما سلف، وإمّا الإيمان الحقيقي، أي: سيُؤمن به ويتوب عن الكفر، وهم الذي أشيرَ بالقَصْر المذكور على التفسير **الثاني**[٣] إلى أنّهم سيتَّبعون الحقَّ كما مرّ.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي لا يُصدِّق به في نفسه كما لا يُصدِّق به ظاهرًا لفَرْط غباوته المانعة عن الإحاطة بعِلمه كما ينبغي وإن كان فوق مَرتبةِ عدمِ الإحاطةِ به أصلًا، أو لسخافة عقله واختلال تمييزه وعجزه عن تخليص علومه عن معارضة الظنون والأوهام التي أَلِفَها، فيبقى على ما كان عليه مِن الشكّ. وهذا القَدْر مِن الإحاطة وإتيان التأويل كافٍ في مقابلة ما سبق مِن / عدم الإحاطةِ بالمرّة، وهؤلاء [٨٩ظ] هم الذين أُريدوا فيما سلف بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾[٤] على التفسير **الأوّل**،[٥] أو لا يُؤمِن به[٦] فيما سيأتي بل يموت على كُفره معاندًا كان أو شاكًّا، وهم المستمِرُّون على اتّباع الظنّ[٧] على التفسير **الثاني** مِن غير إذعان للحقّ وانقياد له.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: بكلا الفريقين[٨] على الوجه **الأوّل**، لا بالمعاندين فقط كما قيل،[٩] لاشتراكهما في أصل الإفساد المستدعي لاشتراكهما في الوعيد،[١٠] أو بالمصرِّين الباقين على الكفر على الوجه **الثاني**[١١] مِن المعانِدين والشاكِّين.

---

[١] وفي هامش م: لكن لا يقبلونه مُكابرة. «منه».

[٢] وفي هامش م: وهو حمل الاتّباع على مُطلَق الاعتقاد لا على ما يُقارن القبول والانقياد فقط. «منه».

[٣] وفي هامش م: وهو حَمْل الاتّباع على الانقياد واعتبار الزمان في القصر. «منه».

[٤] يونس، ١٠/٣٦.

[٥] وفي هامش م: ولا يَقدح في هذا القصر ما مرّ آنفًا مِن الإحاطة في الجملة لِما أنّه ليس باتّباع لغير الظنّ ولا بمستلزم له. «منه».

[٦] وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "لا يُصدِّق به". «منه».

[٧] وفي هامش م: فإنّ المُعاندين أيضًا تابعون للظنّ بمعنى القبول والعمل بمُوجَبه. «منه».

[٨] وفي هامش م: أحدهما الفريق المُصدِّق بحقّيّة المُعاند والآخر الفريق المُكذِّب ظاهرًا أو باطنًا. «منه».

[٩] في هامش م: زمخشري وبيضاوي ومَن يقتدي بهما. «منه». | وفيهما أنّ المقصود: المُصرُّون والمُعاندون. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٦٠؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/١٠٢.

[١٠] وفي هامش م: هو حَمْل الاتّباع على مطلَق الاعتقاد مِن غير اعتبار القبول والانقياد. «منه».

[١١] وفي هامش م: هو حَمْل الاتّباع على الانقياد واعتبار الزمان في القصر. «منه».

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٤١﴾

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي: إن تمُّوا على تكذيبك وأصرُّوا عليه حسبما أُخبر عنهم[1] بعد إلزام الحجَّةِ بالتحدّي ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: تبرَّأْ منهم فقد أعذرتَ، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾ [الشعراء، ٢١٦/٢٦]. والمعنى: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملِكم حقًّا كان أو باطلًا، وتوحيد العمل المضافِ إليهم باعتبار الاتّحادِ النوعي ولمراعاة كمال المقابلة.

﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد لِما أفاده لامُ الاختصاص مِن عدم تعدّي جزاءِ العمل إلى غير عامله، أي: لا تُؤاخَذون بعملي ولا أُؤاخَذ بعملكم، ولِما فيه مِن إيهام المُتاركة وعدم التعرّضِ لهم. قيل: إنّه مَنسوخ بآية السيف.[2]

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ٤٢﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بيان لكونهم مَطبوعًا على قلوبهم، بحيث لا سبيلَ إلى إيمانهم، وإنّما جُمِع الضمير الراجع إلى كلمة ﴿مَن﴾ رعايةً لجانب المعنى كما أُفرِد فيما سيأتي محافظةً على ظاهر اللفظ، ولعلّ ذلك للإيماء إلى كثرة المستمِعين بناءً على عدم توقّف الاستماع على ما يتوقَّف عليه النظر مِن المقابلة وانتفاء الحِجاب والظُّلمة، أي: ومنهم ناس يستمعون إليك عند قراءتك القرآنَ وتعليمِك للشرائع.

﴿أَفَأَنتَ / تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ همزة الاستفهام إنكاريّة، والفاء عاطفة، وليس الجمع [٩٠و] بينهما لترتيب إنكار الإسماع على الاستماع كما هو رأيُ سيبويهِ والجمهور،[3] على أن يُجعَل تقديم الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارة كما تقرَّر في موضعه؛

---

[1] وفي هامش م: كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾... إلخ. «منه».

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٢.

[3] انظر: كتاب سيبويه، ٣/١٨٨-١٨٩.

بل لإنكار ترتّبه عليه حسبما هو المعتاد، لكن لا بطريق العطف على الفعل المذكور لأدائه إلى اختلال المعنى، لأنّه إمّا صلة أو صفة.

وأيًا ما كان فالعطف عليه يَستدعي دخولَ المعطوف في حيّزه وتوجُّهَ الإنكار إليه مِن تلك الحيثيّة، ولا ريبَ في فساده؛ بل بطريق العطف على مقدَّر مفهوم مِن فحوى النظم، كأنّه قيل: أيَستمِعون إليك فأنتَ تُسمِعهم[1] لا إنكارًا لاستماعهم فإنّه أمر محقَّق؛ بل إنكارًا لوقوع الإسماع عقيبَ ذلك وترتّبِه عليه حسب العادة الكلّيّة؛ بل نفيًا لإمكانه أيضًا كما يُنبئ عنه وضع الصُّمّ مَوضِعَ ضميرِهم ووصفُهم بعدم العقل بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: ولو انضمّ إلى صمَمهم عدم عقولهم، لأنّ الأصمّ العاقل ربّما تفرّس إذا وصل إلى صِماخه صوتٌ، وأمّا إذا اجتمع فقدان السمع والعقل جميعا فقد تمّ الأمر.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَ﴾ ويُعاين دلائلَ نبوّتك الواضحة. ﴿أَفَأَنتَ﴾ أي: أعقيبَ ذلك أنت تهديهم؟ وإنّما قيل: ﴿تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ تربيةً لإنكار هدايتِهم وإبرازًا لوقوعها في مَعرِض الاستحالة، وقد أُكِّد ذلك حيث قيل: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ أي: ولو انضمّ إلى عدم البصَر عدمُ البصيرة، فإنّ المقصود مِن الإبصار الاعتبار والاستبصار. والعمدة في ذلك هي البصيرة، ولذلك يحدِس الأعمى المستبصِرُ ويتفطَّن لِما لا يُدركه البصير الأحمق، فحيثُ اجتمع فيهم الحُمْق والعَمَى فقد انسدّ عليهم باب الهدى.

[٩٠ظ] / وجواب ﴿لَوۡ﴾ في الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى: ﴿تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾[2] ﴿تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ عليه، وكلٌّ مِنهما معطوفة على جملة مقدَّرة مقابِلة لها في الفحوى كلتاهما في موضع الحال مِن مفعول الفعل السابق، أي: أفأنت تُسمِع الصمّ لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون؟ أفأنت تهدي العُميَ لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون؟ أي: على كلّ حالٍ مفروضٍ.

---

[1] وفي هامش م: والمآل: أبعد ذلك أنت تُسمِعهم. [2] في الآية السابقة.

وقد حُذفت الأُولى في الباب حذفًا مطَّردًا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة، فإنّ الشيء إذا تحقَّق عند تحقّق المانع أو المانعِ القويّ فلأَنْ يتحقَّق عند عدمه أو عند تحقّق المانع الضعيف أَوْلى. وعلى هذه النكتة يدور ما في "لو" و"إنْ" الوصليّتين مِن التأكيد، وقد مرّ الكلام في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة، ٣٢/٩] ونظائرِه مِرارًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ﴾ إشارة إلى أنّ ما حُكي عنهم مِن عدم اهتدائهم إلى طريق الحقّ وتعطّلِ مَشاعرهم مِن الإدراك، ليس لأمر مستندٍ إلى الله عزّ وجلّ مِن خَلْقهم مَئوفي[1] المَشاعرِ ونحو ذلك؛ بل إنّما هو مِن قِبلهم، أي: لا ينقُصهم ﴿شَيْـًٔا﴾ ممّا نِيط به مصالحُهم الدينيّة والدنيويّة وكمالاتُهم الأُولويّة والأُخرويّة مِن مبادي إدراكاتهم وأسبابِ علومهم مِن المشاعر الظاهرة والباطنة والإرشادِ إلى الحقّ بإرسال الرُّسل وإنزال الكُتب؛ بل يُوفّيهم ذلك مِن غير إخلالٍ بشيء أصلًا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ وقُرئ بالتخفيف ورفع ﴿ٱلنَّاسَ﴾.[2] وُضع الظاهرُ مَوْضِعَ الضمير لزيادة تعيين وتقرير، أي: لكنّهم بعدم استعمال مشاعِرهم فيما خُلقتْ له وإعراضِهم عن قَبول دعوةِ الحقّ وتكذيبِهم للرسل والكتب ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ينقُصون ما ينقُصون ممّا يُخِلّون به مِن مبادي كمالِهم وذرائع اهتدائِهم، وإنّما لم يُذكَر لِما أنّ مرمى الغرض إنّما هو قَصْر الظلم على أنفسهم لا بيانُ ما يتعلّق به الظلم. والتعبير عن فعلهم بالنقص مع كونه تفويتًا بالكلّيّة وإبطالًا بالمرّة لمراعاة جانبِ قرينته.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: إمّا تأكيد لـ﴿ٱلنَّاسَ﴾[3] فيكون بمنزلة ضمير الفصل في قوله تعالى: / ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف، ٧٦/٤٣] [٩١و] في قَصْر الظالميّة عليهم؛ وإمّا مفعول لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾ حسبما وقع في سائر المواقع.

---

[1] إيف القوم فهم مَئوفون إذا أصابتهم آفة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «أوف».

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢١٩/٢.

[3] وفي هامش م: على قراءة "لكنّ" بالتشديد. «منه».

وتقديمُه عليه لمجرَّد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة مِن غير قصد إلى قَصْر المظلوميّة عليهم على رأي مَن لا يرى التقديم موجِبًا للقصر، فيكون كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود، ١٠١/١١] مِن غير قَصْر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول.

وأمّا على رأي مَن يراه موجِبًا له فلعلّ إيثارَ قصرها دون قصر الظالميّة عليهم للمبالغة في بيان بطلان أفعالهم وسخافة عقولهم، لِما أنّ أقبح الأمرين عند اتّحاد الفاعل والمفعول وأشدَّهما إنكارًا عند العقل ونُفرة لدى الطبع وأوجبَهما حذرًا منه عند كلّ أحد هو المظلوميّة لا الظالميّة، على أنّ قَصْر الأُولى عليهم مستلزِم لِما يقتضيه ظاهر الحال مِن قَصْر الثانية عليهم، ضرورةَ أنّه إذا لم يَظلِم أحد مِن الناس إلّا نفسَه يلزَم ألّا يَظلِمَه إلّا نفسُه، إذ لو ظلمه غيرُه يلزَم كون ذلك الغير ظالمًا لغير نفسه، والمفروض ألّا يظلِم أحد إلّا نفسَه، فاكتُفي بالقصر الأوّل عن الثاني مع رعاية ما ذُكر مِن الفائدة.

وصيغة المضارع للاستمرار نفيًا وإثباتًا، فإنّ حرف النفي إذا دخل على المضارع يُفيد بحسب المقام استمرار النفي لا نفيَ الاستمرار، ألا يُرى أنّ قولكَ: "ما زيدًا ضربتُ" يدلّ على اختصاص النفي لا على نفي الاختصاص. ومَساق الآية الكريمة لإلزام الحُجّة، ويجوز أن يكون للوعيد، فالمضارع المنفي للاستقبال والمثبَت للاستمرار، والمعنى: أنّ الله لا يَظلِمهم بتعذيبهم يوم القيامة شيئًا مِن الظُّلم ولكنّهم أنفسَهم يَظلِمون ظُلمًا مستمرًّا، فإنّ مباشرتهم المستمرّة للسيّئات الموجِبة للتعذيب عينُ ظُلمِهم لأنفسهم. وعلى الوجهين فالآية الكريمة تذييل لِما سبق.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ منصوب بمضمَر. وقُرئ بالنون[1] على الالتفات، أي: اذكر لهم أو أنذِرهم يوم يحشرهم. ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: كأنّهم لم يلبثوا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾

[1] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا في رواية حفص عنه. النشر لابن الجزري، ٢٦٢/٢.

أي: شيئًا قليلًا منه، فإنّها مَثَل في غاية القِلّة. وتخصيصُها بالنهار لأنّ ساعاته أعرف حالًا مِن ساعات الليل. والجملة في موقع الحال مِن ضمير المفعول / أي: يحشرهم مُشبِهين في أحوالهم الظاهرة للناس بمَن لم يلبَث في الدنيا ولم يتقلّب في نعيمها إلّا ذلك القدرَ اليسير، فإنّ مَن أقام بها دهرًا وتمتّع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثارِ نعمةٍ وأحكامِ بهجةٍ منافية لِما بهم مِن رثاثة الهيئة وسوء الحال، أو بمَن لم يلبَث في البرزخ إلّا ذلك المِقدارَ. [٩١ظ]

ففائدة التقييد بيانُ كمال يُسر الحشر بالنسبة إلى قُدرته تعالى، ولو بعد دهر طويل، وإظهارُ بُطلان استبعادهم وانكارِهم بقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون، ٨٢/٢٣] ونحوِ ذلك؛ أو بيانُ تمام الموافقة بين النشأتين في الأشكال والصور، فإنّ قلّة اللُّبث في البَرزخ مِن موجِبات عدم التبدّل والتغيّر، فيكون قوله عزّ وعلا: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ بيانًا وتقريرًا له؛ لأنّ التعارُف مع طُول العهد ينقلب تناكُرًا، وعلى الأوّل يكون استئنافًا، أي: يَعرِف بعضهم بعضًا كأنّهم لم يتفارقوا إلّا قليلًا، وذلك أوّلَ ما خرجوا مِن القبور، إذ هم حينئذ على ما كانوا عليه مِن الهيئة المتعارَفة فيما بينهم، ثمّ ينقطِع التعارف لشدّة الأهوال المذهِلة، واعتراءِ الأحوال المعضِلة المغيّرة للصور والأشكال المبدِّلة لها مِن حال إلى حال.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ شهادة مِن الله سبحانه[1] على خُسرانهم وتعجّبٌ منه. وقيل: حال مِن ضمير ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ على إرادة القول. والتعبير عنهم بالموصول مع كون المقام مقامَ إضمار لذمِّهم بما في حيّز الصلة والإشعارِ بعلّيّته لِما أصابهم. والمراد بـ"لقاء الله" تعالى إن كان مطلقَ الحساب والجزاء أو حسنَ اللقاء فالمراد بالخسران الوضيعةُ، والمعنى: وُضِعوا في تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائهم الكفرَ بالإيمان والضلالةَ بالهدى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾: ما كانوا عارفين بأحوال التجارة مهتدين لطُرقها. وإن كان سوءَ اللقاءِ[2] فالخَسارُ: الهلاك والضلال، أي: قد ضلُّوا

---

[1] ط س + وتعالى.

[2] السياق: إن كان مطلق الحساب... وإن كان سوء اللقاء...

وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا مهتدين إلى طريق النجاة.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

[٩٢و] / ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: إن نُرِكَ، و"ما" مَزيدة لتأكيد معنى الشرط ومِن ثمّة أُكِّد الفعل بالنون، أي: نُبصِّرنّك بأن نُظهِر له[١] ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: وعدناهم مِن العذاب ونُعجِّله في حياتك فتراه. والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدّد والاستمرار، أي: نَعِدهم وعدًا متجدِّدًا حسبما تقتضيه الحكمة مِن إنذارٍ غِبَّ إنذار. وفي تخصيص البعض بالذِّكر رمز إلى العِدَة بإراءة بعض الموعود، وقد أراه يوم بدر.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: كيفما دارت الحال أريناكَ بعض ما وعدناهم أو لا، فإلينا مرجعهم في الدنيا والآخرة فنُنجِز ما وعدناهم البتّة. وقيل: المذكور جواب للشرط الثاني، كأنّه قيل: فإلينا مرجعُهم فنريكَه في الآخرة، وجوابُ الأوّل محذوف لظهوره، أي: فذاك.[٢]

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مِن الأفعال السيّئةِ التي حُكيت عنهم، والمراد بالشهادة إمّا مقتضاها ونتيجتُها وهي معاقبتُه تعالى إيّاهم، وإمّا إقامتها وأداؤها بإنطاق الجوارح. وإظهار اسم الجلالة لإدخال الرَّوعة وتربية المَهابة وتأكيد التهديد. وقُرئ: "ثَمَّ"،[٣] أي: هناك.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم الخالية ﴿رَسُولٌ﴾ يُبعَث إليهم بشريعة خاصّة مناسِبة لأحوالهم ليدعُوَهم إلى الحقّ، ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ فبلغهم ما أُرسِل به

---

١ ط س – له.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٤.

٣ م س: ثَمّة. | وأثبتُّ ما في المصادر الآتية. وهي قراءة شاذّة، مَروية عن ابن أبي عبلة وكِرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٦٣.

فكذَّبوه وخالفوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين كلّ أمّة ورسولِها ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل وحُكِم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاكِ المكذِّبين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٧/١٥].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء المستوجِب لتعذيبهم؛ لأنّه مِن نتائج أعمالهم، أو ولكلّ أمّة مِن الأمم يوم القيامة رسولٌ تُنسَب إليه وتدعى به، / فإذا جاء رسولُهم المَوقفَ ليشهدَ عليهم بالكفر والإيمان، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ[١] بَيْنَهُم﴾ [الزمر، ٣٩/٦٩]. [٩٢ظ]

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استعجالًا لِما وُعدوا مِن العذاب على طريقة الاستهزاء به والإنكار حسبما يُرشِد إليه الجواب لا طلبًا لتعيين وقت مجيئه على وجه الإلزام، كما في سورة الملك. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في أنّه يأتينا. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآياتِ المتضمِّنةَ للوعد المذكور.

وجواب الشرط محذوف اعتمادًا على ما تقدَّمه حسبما حُذف في مِثل قوله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف، ٧/٧٠]، فإنّ الاستعجال في قوّة الأمر بالإتيان عجلةً، كأنّه قيل: فليأتِنا عجَلةً إن كنتم صادقين، ولِما فيه مِن الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قيل: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا أقدِر على شيء منهما بوجه مِن الوجوه.

وتقديم "الضَّرّ" لِما أنّ مَساق النظم لإظهار العجز عنه، وأمّا ذِكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملةً للعَجْز، وما وقَع في سورة الأعراف مِن تقديم النفع للإشعار بأهمّيته والمَقامُ مقامه، والمعنى: إنّي لا أملِك شيئًا مِن شئوني ردًّا وإيرادًا مع أنّ ذلك أقربُ حصولًا، فكيف أملِك شئونكم حتّى أتسبَّب في إتيان عذابكم الموعود؟

---

[١] م س: قُضيَ.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطِع، أي: ولكن ما شاء الله كائن. وحملُه على الاتّصال على معنى: إلّا ما شاء الله أن أملِكه،[١] يأباه مقام التبرؤ عن أن يكون له عليه السلام دَخْل في إتيان الوعد، فإنّ ذلك يستدعي بيانَ كون المتنازَع فيه ممّا لا يشاء الله أن يَملِكه عليه السلام. وجعلُ ﴿مَا﴾ / عبارةً عن بعض [٩٣و] الأحوال المعهودة المنوطة بالأفعال الاختياريّة المفوَّضة إلى العباد، على أن يكون المعنى: لا أَملِك لنفسي شيئًا مِن الضَّرّ والنفع إلّا ما شاء الله أن أَملِكه منهما مِن الضَّرّ والنفعِ المترتِّبَين على أفعالي الاختياريّة كالضَّرّ والنفع المترتِّبَين على الأكل والشربِ عدمًا ووجودًا،[٢] تعسّفٌ ظاهر.[٣]

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ بيان لِما أُبهِم في الاستثناء وتقييد لِما في القضاء السابق مِن الإطلاق المُشعِر بكون المَقضي به أمرًا مُنجَّزًا غيرَ مُتوقِّف على شيء غيرَ مجيء الرسول وتكذيبِ الأمّة، أي: لكلّ أمّةٍ أمّةٍ ممّن قُضي بينهم وبين رسولهم أجلٌ مُعيَّن خاصٌّ بهم لا يتعدّى إلى أمّة أخرى مَضروبٌ لعذابهم يحِلّ بهم عند حلوله.

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ إن جُعل "الأجل" عبارةً عن حدّ مُعيَّن مِن الزمان فمعنى مجيئِه ظاهرٌ، وإن أُريدَ به ما امتدّ إليه مِن الزمان فمجيئُه عبارة عن انقضائه؛ إذ هناك يتحقَّق مجيئه بتمامه. والضمير إن جُعل للأمم المدلولِ عليها بـ"كلّ أمة" فإظهار الأجَل مضافًا إليه لإفادة المعنى المقصود الذي هو بلوغ كلّ أمّةٍ أجلَها الخاصّ بها، ومجيئُه إيّاها بعينها مِن بين الأمم بواسطة اكتساب الأجل بالإضافة عمومًا يُفيده معنى الجمعيّة، كأنّه قيل: إذا جاءهم آجالُهم بأن يجيء كلَّ واحدة مِن تلك الأمم أجلُها الخاصُّ بها؛ وإن جُعل لكلّ أمّة خاصّةٍ،[٤] كما هو الظاهر، فالإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير، والإضافةُ إلى الضمير لإفادة كمال التعيين، أي: إذا جاءها أجلها الخاصّ بها ﴿فَلَا يَسْتَـْخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل ﴿سَاعَةً﴾

---

[١] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٤/٢.

[٢] ما وقفت على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

[٣] السياق: وجَعْل ﴿مَا﴾ عبارةً... تعسُّف ظاهر.

[٤] السياق: والضمير إن جُعل للأمم... وإن جُعل لكلّ أمّة...

أي: شيئًا قليلًا مِن الزمان، فإنّها مَثَل في غاية القِلّة منه، أي: لا يتأخّرون عنه أصلًا. وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له.

﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتقدّمون عليه، وهو عطفٌ على ﴿يَسْتَـْخِرُونَ﴾ لكن لا لبيان انتفاء التقدّم مع إمكانه في نفسه كالتأخّر؛ بل للمبالغة في انتفاء التأخّر بنظمه في سِلك المستحيل عقلًا، كما في قوله سبحانه وتعالى:[١] ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء، ١٨/٤]، فإنّ مَن مات كافرًا مع ظهور ألّا توبةَ له رأسًا قد نُظم في عدم قَبول التوبة في سِلك مَن سوّفها إلى حضور الموت إيذانًا بتساوي / وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرّة، كما مرّ في سورة الأعراف. [٩٣ظ]

وقد جُوّز أن يُراد بمجيء الأجل دُنوُّه، بحيث يُمكن التقدّم في الجملة كمجيء اليوم الذي ضُرب لهلاكهم ساعة معيَّنة منه، لكن ليس في تقييد عدم الاستئخار بدنوّه مزيدُ فائدة. وتقديم بيان انتفاء الاستئخار على بيان انتفاء الاستقدام لأنّ المقصود الأهمّ بيان عدم خلاصهم مِن العذاب ولو ساعةً، وذلك بالتأخّر، وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْخِرُونَ﴾ [الحجر، ٥/١٥] مِن سَبْق السَّبْق في الذِّكر فلِما أنّ المراد هناك بيان سرّ تأخير عذابِهم مع استحقاقهم له حسبما يُنبيء عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر، ٣/١٥]، فالأهمّ إذ ذاك بيان انتفاء السَّبْق كما ذُكر هناك.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم غِبَّ ما بيّنتَ كيفيّة جريان سنّة الله عزّ وجلّ فيما بين الأمم على الإطلاق ونبّهتَهم على أنّ عذابهم أمر مقرَّر محتومٌ لا يتوقّف إلّا على مجيء أجله المعلوم إيذانًا بكمال دُنوّه وتنزيلًا له منزلةَ إتيانه حقيقة: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾

---

[١] م – وتعالى.

أي: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون به[١] ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: وقتَ بيات واشتغالٍ بالنوم ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ أي: عند اشتغالكم بمَشاغلكم حسبما عُيّن لكم مِن الأجل بمقتضى المشيئة التابعة للحكمة كما عُيّن لسائر الأمم المُهلَكة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[٢] جواب للشرط بحذف الفاء، كما في قولك: إن أتيتُك ماذا تُطعمني؟ و﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ موضوع موضِعَ المضمَر لتأكيد الإنكار ببيان مباينة حالهم للاستعجال، فإنّ حقّ المجرِم أن يَهلِك فزَعًا مِن إتيان العذاب فضلًا عن استعجاله.

والجملة الشرطيّة متعلِّقة بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، والمعنى: أخبروني إن أتاكم عذابه تعالى أيُّ[٣] شيءٍ تستعجلون منه سبحانه؟ والشيء لا يُمكن استعجاله بعد إتيانه. والمراد به المبالغة في إنكار استعجاله بإخراجه عن حيّز الإمكان. وتنزيله في الاستحالة منزلةَ استعجالِه بعد إتيانه بناءً على تنزيل تقرُّر إتيانه ودنوّه منزلةَ إتيانه حقيقةً كما أُشيرَ إليه، وهذا الإنكار بمنزلة النهي في قوله عزّ وعلا: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل، ١/١٦]، خلا أنّ التنزيل هناك صريح وهنا ضمني، كما في قول مَن قال لغريمه الذي يتقاضاه حقَّه: "أرأيتَ إن أعطيتُك حقّك فماذا تطلُب منّي؟" يريد المبالغة في إنكار التقاضي، بنظمه في سِلك التقاضي بعد الإعطاء بناءً على تنزيل تقرّره منزلةَ نفسه.

[٩٤و] / وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقةً، داخلٌ مع ما قبله مِن إنكار استعجالهم به بعد إتيانه حُكمًا تحت القول المأمور به، أي: أَبَعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقةً آمنتُم به حين لا يَنفعكم الإيمان؟ إنكارًا لتأخيره إلى هذا الحدّ وإيذانًا باستتباعه للندم والحسرة ليُقلعوا عمّا هم عليه مِن العناد، ويتوجّهوا نحو التدارك قبل فوت الوقت، فتقديم الظرفِ للقصر.

وقيل: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ متعلّق بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، وجواب الشرط محذوف، أي: تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه، والشرطيّة اعتراض مقرّر لمضمون

---

١ وفي هامش م: بقولكم: متى هذا الوعد... إلخ.
٢ وفي هامش م: استعجله واستعجل به واحد.
٣ ضُبطت في نسخة المُصنّف بالوجهين: النصب والرفع.

الاستخبار. وقيل: الجواب قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾... إلى آخره، والاستفهاميّةُ الأُولى اعتراض، والمعنى: أخبروني إن أتاكم عذابُه آمنتُم به بعد وقوعِه حين لا ينفعكم الإيمان.[١] ثمّ جيء بكلمة التراخي دلالةً على الاستبعاد، ثمّ زِيد أداةُ الشرط دلالةً على استقلاله بالاستبعاد وعلى أنّ الأوّل كالتمهيد له، وجيء بـ﴿إِذَا﴾ مؤكّدًا بـ﴿مَا﴾ ترشيحًا لمعنى الوقوع وزيادةً للتجهيل وأنّهم لم يُؤمنوا إلّا بعد أن لم ينفعهم الإيمان البتّةَ.

وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ استئناف مِن جهته تعالى غيرُ داخل تحت القول الملقَّن مَسوقٌ لتقرير مضمون ما سبق على إرادة القول، أي: قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتُم به؟ إنكارًا للتأخير وتوبيخًا عليه ببيان أنّه لم يكن ذلك لعدم سبق الإنذار به ولا للتأمّل والتدبّر في شأنه ولا لشيء آخرَ ممّا عسى يُعدّ عُذرًا في التأخير؛ بل كان ذلك على طريق التكذيب والاستعجال به على وجه الاستهزاء. وقُرئ: "آلَانَ"[٢] بحذف الهمزة وإلقاء حركتِها على اللام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: تكذيبًا واستهزاء، جملة وقعت حالًا مِن فاعل آمنتُم المقدَّر لتشديد التوبيخ والتقريع وزيادةِ التنديم والتحسير. وتقديم الجارّ والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل دون القصر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾... إلى آخره، تأكيد للتوبيخ والعتاب بوعيد العذاب والعقاب، وهو عطفٌ على ما قُدِّر قبل ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾. ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: وضعوا الكفر والتكذيب موضعَ الإيمان والتصديق، أو ظلموا أنفسَهم بتعريضها للعذاب والهلاك. ووضعُ الموصول موضع الضمير لذمِّهم بما في حيّز الصلة والإشعار بعلّيّته لإصابة ما أصابهم.

﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ المؤلمَ على الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ اليوم ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا مِن أصناف الكفر والمعاصي التي مِن جملتها ما مرّ مِن الاستعجال.

---

[١] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٤-١٠٥.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٣٥٧.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي: يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء والإنكار: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ ﴿أَحَقٌّ﴾: خبر قُدِّم على المبتدأ الذي هو الضمير للاهتمام به، ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أو مبتدأ والضمير مرتفع به سادٌّ مَسدَّ الخبر، والجملةُ في موقع النصب بـ﴿يَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾، وقُرئ: "ٱلحَقُّ هُوَ"[1] تعريضًا بأنّه باطل، كأنّه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتموه الحقَّ؟

﴿قُلْ﴾ لهم غيرَ ملتفِت إلى استهزائهم مُغضيًا[2] عمّا قصدوا وبانيًا للأمر على أساس الحكمة: ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾ / ﴿إِى﴾ مِن حروف الإيجاب بمعنى "نعم" في القسَم خاصّةً، كما أنّ "هل" بمعنى "قد" في الاستفهام خاصّةً، ولذلك يُوصَل بواوه. [٩٤ظ]

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: العذاب الموعود ﴿لَحَقٌّ﴾ لَثابتٌ البتَّة، أُكِّد الجواب بأتمّ وجوه التأكيد حسب شدّة إنكارهم وقوّته، وقد زِيد تقريرًا وتحقيقًا بقوله عزّ اسمُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين العذابَ بالهرب، وهو لاحق بكم لا محالةَ. وهو إمّا معطوف على جواب القسَم، أو مستأنَف سِيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع ما فيه مِن التقرير المذكور.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشرك أو التعدّي على الغير أو غيرِ ذلك مِن أصناف الظلم ولو مرّةً حسبما يُفيده كون الصفة فعلًا. ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما في الدنيا مِن خزائنها وأموالِها ومنافعها قاطبةً بما كثُرت ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: لجعلته فديةً لها مِن العذاب مِن "افتداه" بمعنى: فَداه.

﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ أي: النفوسُ المدلول عليها بـ"كلّ نفس". والعدول إلى صيغة الجمع مع تحقّق العموم في صورة الإفراد أيضًا لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الأعمش. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٤.

[2] وفي هامش م: أي: مُعرضًا. «منه».

بطريق المَعيّة والاجتماع، وإنّما لم يُراعَ ذلك فيما سبق لتحقيق ما يُتوخّى مِن فَرْض كون جميع ما في الأرض لكلّ واحدة مِن النفوس. وإيثار صيغة جمعِ المذكّر لحمل لفظ "النفس" على الشخص، أو لتغليب ذكورِ مدلولِه على إناثه.

﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ على ما فعلوا مِن الظلم، أي: أخفَوها ولم يُظهروها، لكن لا للاصطبار والتجلّد، هيهاتَ ولاتَ حينَ اصطبار؛ بل لأنّهم بُهتوا ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: عند معاينتهم مِن فظاعة الحال وشِدّة الأهوال ما لم يكونوا يحتسبون، فلم يقدروا على أن ينطِقوا بشيء. فـ﴿لَمَّا﴾ بمعنى: "حين" منصوب بـ﴿أَسَرُّواْ﴾، أو حرفُ شرطٍ حُذف جوابه لدلالة ما تقدَّم عليه.

وقيل: أسرّها رؤساؤهم ممّن أضلُّوهم حياءً منهم وخوفًا مِن توبيخهم، ولكنّ الأمر أشدُّ مِن أن يعتريَهم هناك شيء غيرُ خوف العذاب. وقيل: أسرُّوا الندامة: أخلصوها، لأنّ إسرارها إخلاصُها، أو لأنّ سِرَّ الشيء خالصتُه، حيث تُخفى / وتُضَنّ[1] بها، ففيه تهكُّم بهم. وقيل: أظهروا الندامة، مِن قولهم: "أسرَّ الشيء وأشرَّه" إذا أظهره حين عِيل صبره وفنِيَ تجلُّده.[2] [٩٥و]

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي: أُوقِع القضاء بين الظالمين مِن المشركين وغيرهم مِن أصناف أهل الظلم بأن أُظهِر الحقُّ سواء كان مِن حقوق الله سبحانه، أو مِن حقوق العباد مِن الباطل، وعُومل أهل كلّ منهما بما يليق به. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل. وتخصيص الظلم بالتعدّي،[3] وحملُ القضاء على مجرَّد الحكومة بين الظالمين والمظلومين،[4] مِن غير أن يُتعرَّض لحال المشركين وهم أظلمُ الظالمين،[5] لا يساعده المَقام، فإنّ مقتضاه إمّا كون الظلم عبارةً عن الشرك، أو عمّا يدخُل فيه دخولًا أوّليًا. ﴿وَهُمْ﴾ أي: الظالمون ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيما فُعل بهم مِن العذاب؛ بل هو مِن مقتضيات ظُلمِهم ولوازمِه الضروريّة.

---

[1] كذا وردت في نسخة م س.

[2] الأقوال الثلاثة بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٣؛ والأخيران في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٥.

[3] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٥.

[4] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٣.

[5] أضاف البيضاوي التعرُّض لمُجازاة المشركين في أنوار التنزيل، ٢/١٠٥-١٠٦.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ما وُجد فيهما داخلًا في حقيقتهما أو خارجًا عنهما متمكِّنًا فيهما. وكلمة ﴿مَا﴾ لتغليب غير العقلاءِ على العقلاء، فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الأشياء وبيانٌ لاندراج الكلّ تحت ملكوته يتصرَّف فيه كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا وإثابةً وعقابًا.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ إظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعار بعِلّة الحُكم، وهو إمّا بمعنى الموعود، أي: جميعِ ما وَعَد به كائنًا ما كان فيندرج فيه العذاب الذي استعجلوه، وما ذُكر في أثناء بيان حالِه اندراجًا أوّليًا، أو بمعناه المصدري، أي: وعدَه بجميع ما ذُكر. فمعنى قوله تعالى: ﴿حَقّٞ﴾ على الأوّل ثابت واقع لا محالةَ، وعلى الثاني مطابق للواقع. وتصدير الجملتين بحرفَي التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقّق مضمونهما المقرِّر لمضمون ما سلف مِن الآيات الكريمة والتنبيهِ على وجوب استحضاره والمحافظة عليه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم وإلفِهم بالأحوال المَحسوسة المعتادة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون.

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا مِن غير دخل لأحد في ذلك، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ في الآخرة بالبعث والحشر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ التفات ورجوع إلى استمالتهم نحوَ الحقّ واستنزالهم إلى قبوله واتّباعه / غِبَّ تحذيرهم مِن غوائل الضلال بما تُليَ عليهم مِن القوارع [٩٥ظ] الناعية عليهم سوءَ عاقبتِهم، وإيذانٌ بأنّ جميع ذلك مَسوقٌ لمصالحهم ومنافعهم.

﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾ هي والوعظ والعِظَة: التذكير بالعواقب، سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والترغيبِ. وكلمة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى:

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ابتدائيّة متعلِّقة بـ﴿جَآءَتْكُم﴾، أو تبعيضيّة متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً لـ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾، أي: مَوعظة كائنة مِن مواعظ ربّكم. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مِن حُسن المَوقع ما لا يخفى.

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كتابٌ جامع لهذه الفوائد والمَنافِع، فإنّه كاشف عن أحوال الأعمال حسناتِها وسيّئاتِها، مرغِّب في الأُولى ورادِعٌ عن الأخرى، ومبيِّنٌ للمعارف الحقّة التي هي شفاء لِما في الصدور مِن الأدواء القلبيّة كالجهل والشكّ والشرك والنفاق وغيرها مِن العقائد الزائغة، وهادٍ إلى طريق الحقّ واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس. وفي مجيئه رحمةٌ للمؤمنين حيث نجَوا به مِن ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وتخلَّصوا مِن درَكات النيران وارتقَوا إلى درَجات الجِنان. والتنكير في الكلّ للتفخيم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليأمرَ الناس بأن يغتنموا ما في مجيء القرآن العظيم مِن الفضل والرحمة. ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ المراد بهما إمّا ما في مجيء القرآن مِن الفضل والرحمة، وإمّا الجنس وهما داخلان فيه دخولًا أوّليًا، والباء متعلِّقة بمحذوف. وأصلُ الكلام: ليَفرَحوا بفضل الله وبرحمته، وتكرير الباء في رحمته للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرح، ثمّ قُدِّم الجارّ والمجرور على الفعل لإفادة القصر، ثمّ أُدخل عليه الفاءُ لإفادة معنى السببيّة، فصار: بفضل الله وبرحمته فليَفرَحوا.

ثمّ قيل: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ للتأكيد والتقرير، ثمّ حُذف الفعل الأوّل لدلالة الثاني عليه، والفاء الأولى جزائيّة والثانية للدلالة على السببيّة، والأصل: إن فرِحوا بشيء فبذلك ليَفرحوا لا بشيء آخرَ، ثمّ أُدخل الفاءُ / للدلالة على السببيّة [٩٦و] ثمّ حُذف الشرط. ومعنى البُعد في اسم الإشارة للدلالة على بُعد درجة فضل الله تعالى ورحمته. ويجوز أن يُراد: بفضل الله وبرحمته فلْيَعتنوا فبذلك فليفرحوا.

ويجوز أن يتعلّق الباء بـ﴿جَآءَتۡكُم﴾،[١] أي: جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك، أي: فبمجيئها فليَفرَحوا.[٢] وقُرئ: "فَلْتَفْرَحُوا"،[٣] وقرأ أُبيّ "فافْرَحُوا".[٤] وعن أُبيّ بن كعب أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تلا: «﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، فقال: بكتاب الله والإسلام».[٥] وقيل: فضلُه: الإسلامُ، ورحمتُه: ما وعَد عليه.[٦]

﴿هُوَ﴾ أي: ما ذُكر مِن فضل الله ورحمته ﴿خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ مِن حُطام الدنيا. وقُرئ: "تَجْمَعُونَ"،[٧] أي: فبذلك فليَفرَح المؤمنون هو خير ممّا تجمعون أيّها المخاطَبون.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ۝٥٩﴾

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم﴾ أي: أخبروني ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ ﴿مَا﴾ منصوبةُ المَحلّ بما بعدها، أو بما قبلها واللام للدلالة على أنّ المراد بـ"الرزق": ما حلّ لهم، وجعلُه منزلًا لأنّه مقدَّر في السماء محصَّل هو أو ما يتوقَّف عليه وجودًا أو بقاءً بأسباب سماويّة مِن المطر والكواكب في الإنضاج والتلوين.

﴿فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ﴾ أي: جعلتم بعضه ﴿حَرَامٗا﴾ أي: حكمتم بأنّه حرام، ﴿وَحَلَٰلٗا﴾ أي: وجعلتُم بعضه حلالًا، أي: حكمتُم بحِلّه مع كون كلّه حلالًا، وذلك قولهم: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ الآية [الأنعام، ١٣٨/٦]، وقولُهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا﴾ [الأنعام، ١٣٩/٦]، ونحوُ ذلك. وتقديم الحرام لظهور أثرِ الجَعْل فيه ودوران التوبيخ عليه. ﴿قُلۡ﴾ تكرير لتأكيد الأمر بالاستخبار، أي: أخبروني.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] جوّز هذين الوجهين الزمخشري في الكشّاف، ٢٦٣/٢.

[٣] قرأ بها يعقوب في رواية رويس عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٥/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٧.

[٥] جامع البيان للطبري، ١٩٥/١٢-١٩٧، شعب الإيمان للبيهقي، ١٨٠/٤ (٢٣٥٧)، الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/٢.

[٦] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/٢.

[٧] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب في رواية رويس عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٥/٢.

﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في ذلك الجَعْل فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى، ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ متّصلة والاستفهام للتقرير[١] والتبكيت لتحقّق العلم بالشقّ الأخير قطعًا، كأنّه قيل: أم لم يأذن لكم؛ بل تفترون عليه سبحانه، فأُظهِر الاسم الجليل وقُدِّم على الفعل دلالةً على كمال قبح افترائهم وتأكيدًا للتبكيت إثرَ تأكيدٍ مع مراعاة الفواصل. ويجوز أن يكون الاستفهام للإنكار[٢] و﴿أَمْ﴾ منقطعةً،[٣] ومعنى "بل" فيها الإضراب والانتقال مِن التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى ما تُفيده همزتُها مِن التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريرِه. وتقديم الجارّ والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر، كأنّه قيل: بل أعَلى الله تعالى خاصّة تفترون؟

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ كلام مَسوق مِن قِبَله تعالى لبيان هول ما سيلقَونه غيرُ داخل تحت القول المأمور به، والتعبيرُ عنهم بالموصول في موقع الإضمار لقطع احتمال الشقّ الأوّل مِن الترديد والتسجيلِ عليهم بالافتراء وزيادة الكذب، مع أنّ الافتراء لا يكون إلّا كذبًا، لإظهار كمال قُبح ما افتعلوا وكونِه كذبًا في اعتقادهم أيضًا. وكلمة ﴿مَا﴾ استفهاميّة وقعت مبتدأ، و﴿ظَنُّ﴾ خبرُها، ومفعولاه محذوفان.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ظرف لنفس الظنّ، أي: أيُّ شيء ظنُّهم في ذلك اليوم، يومَ عرض الأفعال والأقوال والمُجازاة عليها مِثقالًا بمِثقال؟ والمراد تهويله وتفظيعه بهول ما يتعلّق به ممّا يُصنع بهم يومئذ. وقيل: هو ظرف لِما يتعلّق به ظنُّهم اليومَ مِن الأمور التي ستقع يوم القيامة تنزيلًا له ولِما فيه مِن الأحوال لكمال وضوح أمره في التقرّر والتحقّق منزلةَ المسلَّم عندهم،[٤]

---

[١] وفي هامش م: للحمل على الإقرار. «منه».

[٢] وفي هامش م: أي: إنكار وقوع الإذن. «منه».

[٣] كما في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٢٦٤.

[٤] انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٦/٧٨.

[٩٦ظ] / أي: أيُّ شيء ظنُّهم لِما سيقع يوم القيامة؟ أيحسبون أنّهم لا يُسألون عن افترائهم أو لا يُجازون عليه أو يُجازون جزاءً يسيرًا، ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون؟ كلّا إنّهم لفي أشدّ العذاب، لأنّ معصيتهم أشدُّ المعاصي، ومَن أظلم ممّن افترى على الله كذبًا. وقُرئ على لفظ الماضي،[1] أي: أيُّ ظنّ ظنُّوا يوم القيامة؟ وإيراد صيغةِ الماضي لأنه كائنٌ فكأنّه قد كان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم لا يُكتنه كُنهه ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: جميعًا حيث أنعَم عليهم بالعقل المميّز بين الحقّ والباطل والحسَن والقبيح، ورحِمهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل، وبيَّن لهم الأسرار التي لا تستقلّ العقول في إدراكها وأرشدهم إلى ما يُهِمّهم مِن أمر المعاش والمعاد.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة الجليلة فلا يَصرِفون قُواهم ومَشاعرهم إلى ما خُلقت له، ولا يتّبعون دليل العقل فيما يستبدّ به، ولا دليلَ الشرع فيما لا يُدرك إلّا به، وقد تفضَّل عليهم ببيان ما سيلقَونه يوم القيامة، فلا يلتفتون إليه فيقعون فيما يقعون، فهو تذييل لِما سبق مقرِّر لمضمونه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: في أمر، مِن شأنْتُ شأنه، أي: قصدتُ قصدَه، مصدر بمعنى المفعول. ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ الضمير للشأن، والظرفُ صفة لمصدر محذوف، أي: تلاوةً كائنةً مِن الشأن، إذ هي معظم شئونه عليه السلام أو للتنزيل. والإضمار قبل الذِّكر لتفخيم شأنِه، و"مِن" ابتدائيّة أو تبعيضيّة أو لله عزّ وجلّ. و"مِن" ابتدائيّة، والتي في قوله تعالى: ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ مَزيدةٌ لتأكيد النفي أو ابتدائيّة على الوجه الأوّل، وبيانيّة أو تبعيضيةٌ على الثاني والثالث.

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب إثرَ تخصيصه بمقتدى الكلّ، وقد رُوعي في كلّ مِن المَقامين ما يليق به حيث ذُكر أوّلًا مِن الأعمال ما فيه فخامة وجلالة، وثانيًا ما يتناول الجليل والحقير.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ أحوال المخاطَبين بالأفعال الثلاثة، أي: ما تُلابِسون بشيء منها في حال / مِن الأحوال إلّا حالَ كوننا رُقباء مطّلعين عليه حافظين له. [٩٧و]

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تخوضون وتندفعون فيه، وأصلُ الإفاضة: الاندفاعُ بكثرة أو بقوّة. وحيث أريدَ بالأفعال السابقة الحالة المستمرّة الدائمة المقارنة للزمان الماضي أيضًا أوثرَ في الاستثناء صيغةُ الماضي وفي الظرف كلمة "إذ" التي تُفيد المضارعَ معنى الماضي.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: لا يبعُد ولا يغيب عن علمه الشامل. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مِن الإشعار باللطف ما لا يخفى. وقُرئ بكسر الزاء.[1]

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ كلمةُ ﴿مِن﴾ مَزيدة لتأكيد النفي، أي: ما يعزُب عنه ما يساوي في الثقل نملةً صغيرةً أو هباءً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في دائرة الوجود والإمكان، فإنّ العامّة لا تعرِف سواهما ممكنًا ليس في أحدهما أو متعلِّقًا بهما. وتقديم ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لأنّ الكلام في حال أهلها، والمقصودُ إقامة البرهان على إحاطة علمه تعالى بتفاصيلها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كلام برأسه مقرِّر لِما قبله، و﴿لَا﴾ نافية للجنس، و﴿أَصْغَرَ﴾ اسمها، و﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ خبرها. وقُرئ بالرفع[2] على الابتداء والخبر. ومَن عطَف على ﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وجعَل الفتحَ بدلَ الكسر لامتناع الصرف أو على محلّه مع الجارّ جعلَ الاستثناءَ منقطعًا،[3] كأنّه قيل: لا يعزُب عن ربّك شيء ما، لكنْ جميعُ الأشياء في كتاب مبين، فكيف يعزُب عنه شي منها؟ وقيل: يجوز أن يكون الاستثناء متّصلًا، و﴿يَعْزُبُ﴾

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٥.

٢ قرأ بها حمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٥.

٣ السياق: ومَن عطَف... جعَل الاستثناء...

بمعنى: يَبين ويصدُر، والمعنى: لا يصدُر عنه تعالى شيء إلّا وهو في كتاب مبين، والمراد بالكتاب المبين: اللوح المحفوظ.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ بيان على وجه التبشير والوعد لِما هو نتيجة لأعمال المؤمنين، وغايةٌ لِما ذُكر قبله مِن كونه تعالى مهيمنًا على نبيّه صلى الله عليه وسلّم وأمّتِه في كلّ ما يأتون وما يذرون وإحاطةِ عِلمه سبحانه بجميع ما في السماء والأرض وكونِ الكلّ مثبَتًا في الكتاب المبين، بعد ما أشيرَ إلى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم مِن الهول إشارة إجماليّة على طريق التهديد والوعيد، وصُدِّرت الجملة بحرف التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها. و"الوليُّ" لغةً: القريب، والمراد بـ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: خُلَّص المؤمنين لقربهم الروحاني / منه سبحانه وتعالى، كما سيُفصح عنه تفسيرهم. [٩٧ظ]

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدارين مِن لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِن فوات مطلوب، أي: لا يعتريهم ما يُوجب ذلك، لا أنّه يعتريهم لكنّهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنّه لا يعتريهم خوف وحُزن أصلًا؛ بل يستمرُّون على النشاط والسرور، كيف لا، واستشعار الخوف والخشيةِ استعظامًا لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارًا للجِدّ والسعي في إقامة حقوق العبوديّة مِن خصائص الخواصّ والمقرَّبين.

والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيانُ انتفاء دوامهما كما يُوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعًا لِما مرّ مرارًا مِن أنّ النفي وإن دخل على نفس المضارع يُفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام، وإنّما لا يعتريهم ذلك لأنّ مَقصِدهم ليس إلّا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزُّلفى، وذلك ممّا لا ريبَ في حصوله ولا احتمالَ لفواته بموجَب الوعد بالنسبة إليه تعالى، وأمّا ما عدا ذلك مِن الأمور الدنيويّة المتردِّدة بين الحصول والفوات فهي بمَعزِل مِن الانتظام في سِلك مَقصِدهم وجودًا وعدمًا حتّى يخافوا مِن حصول ضارّها أو يحزنوا بفوات نافعِها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بكلّ ما جاء مِن عند الله تعالى ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يقُون أنفسَهم عمّا يحِقّ وقايتها عنه مِن الأفعال والتُّروك وقايةً دائمةً حسبما يُفيده الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبلِ، بيانٌ وتفسير لهم وإشارة إلى ما به نالوا ما نالوا، على طريقة الاستئناف المبنيّ على السؤال، ومحلُّ الموصول الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، كأنّه قيل: مَن أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة؟ فقيل: هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضِيَين إلى كلّ خيرٍ، المنجيَين عن كلّ شرّ. وقيل: محلّه النصب، أو الرفع على المدح، أو على أنّه وصف مادح للأولياء.[1] ولا يقدَح في ذلك توسّط الخبر.

والمراد بالتقوى المَرتبة الثالثة منها،[2] الجامعةُ لِما تحتها مِن مَرتبة التوقّي عن الشِّرك التي يفيدها الإيمان أيضًا ومَرتبة التجنّب عن كلّ ما يُؤثم مِن فِعل أو ترك، أعني تنزُّه الإنسان عن كلّ ما يشغَل سرَّه عن الحقّ والتبتّلِ إليه بالكلّيّة، وهي[3] التقوى[4] الحقيقيّة[5] المأمور بها[6] في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران، ١٠٢/٣]، وبه يحصُل الشهود والحضور والقُرب الذي عليه يدور إطلاق الاسم عليه، وهكذا كان حال كلّ مَن دخل معه عليه الصلاة والسلام تحت الخطاب بقوله عزّ وعلا: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾،[7] خلا أنّ لهم في شأن التبتّل والتنزّه درجاتٍ متفاوتةً حسب تفاوُت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجَب المشيئة المَبنيّة على الحِكَم الأبيّة، أقصاها ما انتهى إليه هِمم الأنبياء عليهم السلام حتّى جمعوا بذلك بين رياستَي النبوّة والوَلاية ولم يعُقهم التعلّق بعالم الأشباح عن الاستغراق في عالم الأرواح، ولم يصُدَّهم الملابسة بمصالح الخلق عن التبتّل إلى جناب الحقّ، لكمال استعداد نفوسهم الزكيّة المؤيَّدة بالقوّة القدسيّة، فمَلاك أمر الوَلاية هو التقوى المذكور.

---

[1] هذه الوجوه في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.
[2] ط س: منه.
[3] ط س: هو.
[4] وفي هامش م: التقوى يُذكَّر ويُؤنَّث. «منه».
[5] ط س: الحقيقي.
[6] ط س: به.
[7] يونس، ٦١/١٠.

فأولياء الله تعالى هم المؤمنون المتّقون. ويقرُب منه ما قيل: مِن أنّهم الذين تولّى الله تعالى[١] هدايتَهم بالبرهان، وتولّوا القيام بحقّ عبوديّة الله تعالى والدعوة إليه.[٢] ولا يخالفه ما قيل مِن "أنّهم الذين يُذكَر الله تعالى[٣] برؤيتهم"،[٤] لِما رُوي عن سعيد بن جُبير أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سُئل "مَن أولياءُ الله" فقال: «هم / الذين يُذكرُ الله برؤيتهم»،[٥] أي: بسَمْتهم وإخباتهم وسكينتهم. ولا ما قيل:[٦] مِن أنّهم المتحابُّون في الله، لِما رُوي عن عمرَ رضيَ الله عنه أنّه قال: «سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: "إنّ مِن عباد الله عبادًا ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ يغبِطُهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم مِن الله"، قالوا: "يا رسول الله خبِّرنا مَن هم وما أعمالُهم فلعلّنا نُحبّهم؟" قال: "هم قوم تحابُّوا في الله على غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطَونها، فواللهِ إنّ وجوههم لَنور، وإنّهم لَعلى منابرَ مِن نور، لا يَخافون إذا خاف الناس ولا يَحزنون إذا حزِن الناس"».[٧] [٩٨و]

فإنّ ما ذُكر مِن حُسن السَّمت والسكينة المذكِّرة لله تعالى والتحابِّ في الله سبحانه مِن الأحكام الدنيويّة اللازمة للإيمان والتقوى والآثارِ الخاصّة بهما الحقيقةِ بالتخصيص بالذِّكر لظهورها وقُربها مِن أفهام الناس، قد أورد النبيّ[٨] عليه السلام كلًّا مِن ذلك حسبما يقتضيه مقام الإرشاد والتذكير ترغيبًا للسائلين أو غيرهم مِن الحاضرين فيما خصَّه بالذِّكر هناك مِن أحكامهما، فلعلّ الحاضرين أوّلًا كانوا محتاجين إلى إصلاح الحال مِن جهة الأقوال والأفعال والمَلابس ونحوِ ذلك، والحاضرين ثانيًا مفتقِرين إلى تأليف قلوبهم وعطفِها نحوَ المؤمنين الذين لا علاقةَ بينهم وبينهم مِن جهة النسب والقرابة، وتأكيدِ ما بينهم مِن الأخوَّة الدينيّة ببيان عِظَم شأنها ورفعةِ مكانها وحُسن عاقبتها، ليُراعوا حقوقها

---

١ ط س - تعالى.

٢ القول عن أبي بكر الأصمّ في اللباب لابن عادل، ٣٦٦/١٠.

٣ ط س - تعالى.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.

٥ جامع البيان للطبري، ٢٠٩/١٢-٢١١؛ المعجم الكبير للطبراني، ١٣/١٢ (١٢٣٢٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.

٦ السياق: ولا يُخالفه ما قيل... ولا ما قيل...

٧ سنن أبي داود، ٣٨٧/٥ (٣٥٢٧)؛ جامع البيان للطبري، ٢١١/١٢-٢١٢؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٣١٥/١١ (٨٥٨٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.

٨ ط س: رسول الله.

ويهجُروا مَن لا يُوافقهم في الدِّين مِن ذوي أرحامهم. وأمّا ما ذُكر مِن أنّه يغبِطهم الأنبياء فتصوير لحُسن حالهم على طريقة التمثيل. قال الكواشيّ:[1] وهذا مبالغة، والمعنى لو فُرض قومٌ بهذه الصفة لكانوا هؤلاء.

وقيل: أولياءُ الله: الذين يتولَّونه بالطاعة ويتولّاهم بالكرامة، وجُعل قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ تفسيرًا لتولّيهم إيّاه تعالى، وقولُه تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ تفسيرًا لتولّيه تعالى إيّاهم.[2]

ولا ريبَ في أنّ اعتبار القيد الأخير في مفهوم الوَلاية غيرُ مناسب لمقام ترغيب المؤمنين في تحصيلها والثبات عليها وبشارتِهم بآثارها ونتائجها؛ بل مُخِلّ بذلك، إذ التحصيل إنَّما يتعلَّق بالمقدور، والاستبشارُ لا يحصُل إلّا بما عُلم وجود سببه، والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتّى يُحصِّلوا الوَلاية بتحصيله، ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتّى يعرفوا حصول الوَلاية لهم، ويستبشروا بمحاسن آثارِها؛ بل التولّي بالكرامة عين نتيجة الوَلاية، فاعتباره في عنوان الموضوع. ثمّ الإخبار بعدم الخوفِ والحزنِ ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل.

فالذي يقتضيه نظمه الكريم أنّ الأوّل تفسير للأولياء حسبما شُرح، والثاني بيان لِما أولاهم بما لهم مِن الوَلاية تفضّلًا وتكرّمًا[3] مِن خيرات الدارين بعد بيان نجاتهم[4] مِن شرورهما ومكارههما. والجملة مستأنَفة كما سبق، كأنّه قيل: هل لهم وراء ذلك مِن نعمة وكرامة؟ فقيل: لهم ما يسرُّهم في الدارين. وتقديم الأوّل

---

[1] تفسير الكواشي، ٢٢٠و. | هو أحمد بن يوسف بن حسن بن رافع بن الحسين بن سويدان الشيباني الموصلي المعروف بالكواشي (ت. ٦٨٠هـ/١٢٨١م). يُنسب إلى كواشة أو كواشى قلعة في الموصل. الإمام الديّن المفسّر الشافعي. برع في العربيّة والقراءات والتفسير، وكان عديم النظير زاهدًا صادقًا، وأضرّ قبل موته بعشر سنين. تولّى مشيخة الإقراء بدار الحديث في دمشق، وكان خطيبًا وإمامًا بالجامع الأموي. وله تفسيران كبير هو تبصرة المتذكّر وتذكرة المتبصّر، وصغير هو التلخيص في تفسير القرآن العظيم، وله جملة مِن الكتب في علوم القرآن الكريم. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٤٠١/٢؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ١٨٣/١؛ والأعلام للزركلي، ٢٧٤/١.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٨/٢.

[3] م - بما لهم مِن الولاية تفضّلًا وكرامة.

[4] ط س: إنجائهم.

لِما أنّ التخلية سابقة على التحلية مع ما فيه مِن مراعاة حقّ المقابلة بين حُسن حالِ المؤمنين وسوء حالِ المفترين.

وتعجيل إدخالِ المَسرّة بتبشير الخلاص عن الأهوال وتوسيطُ البيان السابق بين بِشارة الخلاص عن المحذور وبِشارةِ الفوز بالمطلوب، لإظهار كمال العناية بتفسير الأولياء، مع الإيذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتّقائهم عمّا يؤدّي إليهما مِن الأسباب.

و"البُشرى" مصدر أُريدَ به المبشَّر به مِن الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك، والآجلةِ الغنيّة عن البيان. وإيثار الإبهام والإجمال للإيذان بكونه وراء البيان / والتفصيل. والظرفان في موقع الحالِ منه، والعاملُ ما في الخبر مِن معنى الاستقرار، أي: لهم البشرى حالَ كونها في الحياة الدنيا وحالَ كونِها في الآخرة، أي: عاجلةً وآجلةً؛ أو مِن الضمير المجرور، أي: حالَ كونِهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة،[1] ومِن البشرى العاجلة الثناءُ الحسَن والذِّكرُ الجميل ومحبّةُ الناس. عن أبي ذرّ رضي الله عنه: «قلت: يا رسولَ الله الرجلُ يعمل العملَ لله ويُحبّه الناسُ، فقال عليه السلام: "تلك عاجل بُشرى المؤمن"».[2] [٩٨ظ]

هذا وقد قيل: البشرى مصدر والظرفان متعلِّقان به.[3]

أمّا البشرى في الدنيا فهي البِشارات الواقعة للمؤمنين المتّقين في غير موضع مِن الكتاب المبين. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هي الرؤيا الصالحةُ يراها المؤمنُ أو تُرى له»،[4] وعنه عليه السلام: «ذهبَت النبوّة وبقيَت المبشِّرات»،[5]

---

١ ط س - الدنيا وفي الآخرة.

٢ مسند أحمد، ٣٠٥/٣٥ (٢١٣٨٠)؛ صحيح مسلم، ٢٠٣٤/٤ (٢٦٤٢)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٤١/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٦/٢.

٣ انظر: التبيان للعكبري، ٦٧٩/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٦٨/١٠.

٤ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٤٢٧/٣٧ (٢٢٧٦٧)؛ وسنن الترمذي، ٥٣٤/٤ (٢٢٧٥). وبلفظه في جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٢-٢٢٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.

٥ مسند أحمد، ١١٥/٤٥ (٢٧١٤١)؛ وسنن الترمذي، ٥٣٣/٤ (٢٢٧١)؛ جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢؛

وعن عطاء: «لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت، ٤١/٣٠]».[١]

وأمّا البشرى في الآخرة فتلقّي الملائكة إيّاهم مسلِّمين مبشِّرين بالفوز والكرامة، وما يرَون مِن بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرءُون منها وغيرِ ذلك مِن البِشارات، فيكون هذه بِشارةً بما سيقع مِن البِشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها، ولا يخفى أنّ صَرْف البِشارة الناجزة عن المقاصد بالذات إلى وسائلها ممّا لا يُساعده جلالة شأن التنزيل الكريم.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا تغييرَ لأقواله التي مِن جملتها مواعيدُه الواردة بِشارةً للمؤمنين المتّقين فتدخل فيها البِشارات الواردة ههنا دخولًا أوّليًا ويثبُت امتناع الإخلاف فيها ثبوتًا قطعيًا، وعلى تقدير كون المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم الخُلف بينهما وبين نتائجها الدنيويّة والأخرويّة؛[٢] بل عدم الخُلف بينهما وبين ما دلّ على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتي بطريق الوعد مِن قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ فتدبّر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن أنّ لهم البشرى في الدارين. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ وراءه، وفيه تفسير لِما أُبهم فيما سبق، وهاتِيك الجملة والتي قبلها اعتراض بتحقيق المبشَّر به وتعظيم شأنه، وليس مِن شرطه أن يكون بعده كلام متّصل بما قبله، أو هذه تذييل والسابقة اعتراض.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٦٥﴾

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تسلية للرسول صلّى الله عليه وسلّم عمّا كان يلقاه مِن جهتهم مِن الأذيّة الناشئة مِن مقالاتهم الموحِشة، وتبشيرٌ له عليه السلام بأنّه عزّ وجلّ ينصُره ويُعزّه عليهم إثرَ بيان أنّ له ولأتباعه أمنًا مِن كلّ محذورٍ

---

[١] معالم التنزيل للبغوي، ١٤١/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٦/٢. وبمعناه عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٢٢٤/١٢.

[٢] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٦/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٨/٢.

وفوزًا بكلّ مطلوب. وقُرئ: "وَلَا يُحْزِنْكَ"[١] مِن "أَحزَن"، وهو في الحقيقة نهي له عليه السلام عن الحزن، كأنّه قيل: لا تَحزَن بقولهم ولا تُبالِ بتكذيبهم وتَشاورِهم في تدبير هلاكك وإبطالِ أمرك وسائرِ ما يتفوّهون به في شأنك ممّا لا خيرَ فيه.

وإنّما وُجِّه النهي إلى قولهم للمبالغة في نهيه عليه السلام عن الحزن لِما أنّ النهي عن التأثير نهيٌ عن التأثّر بأصله ونفيٌ له بالمرّة، وقد يُوجَّه النهيُ إلى اللازم، والمراد هو النهيُ عن الملزوم، كما في قولك: لا أُرَيَنَّكَ ههنا. وتخصيص النهي عن الحزن بالإيراد مع شمول النفي السابق للخوف أيضًا لِما أنّه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتّى يُنهى عنه، وربّما كان يعتريه عليه السلام في بعض الأوقات نوعُ حزنٍ فسُلّيَ عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ تعليل للنهي على طريقة الاستئناف، أي: إنّ الغلبة والقهر ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: في ملكته وسلطانه لا يملِك أحد شيئًا منها أصلًا، لا هم ولا غيرُهم، فهو يقهرهم ويَعصِمك منهم وينصُرك عليهم، وقد كان كذلك. [٩٩و] / فهي مِن جملة البُشريات العاجلة. وقُرئ بفتح ﴿إِنَّ﴾[٢] على صريح التعليل، أي: لأنّ العزّة لله.

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع ما يقولون في حقّك، ويعلم ما يعزِمون عليه، وهو مُكافِئهم بذلك.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: العقلاء مِن الملائكة والثقلين، وتخصيصُهم بالذِّكر للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم، فإنّهم مع شرفهم

---

١ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٤.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حَيْوة وأبو بَحْريّة والشيرازي والأنطاكي عن أبي جعفر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٦٦.

وعلوّ طبقتهم إذا كانوا عبيدًا له سبحانه مقهورين تحت قدرته وملكته، فما عداهم مِن الموجودات أَولى بذلك، وهو مع ما فيه مِن التأكيد لِما سبق مِن اختصاص العزّة بالله تعالى الموجبِ لسلوته عليه السلام وعدمِ مبالاته بالمشركين وبمقالاتهم تمهيدٌ لِما لحِق مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾، وبرهانٌ على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنيّة عليها.

و﴿مَا﴾ إمّا نافية و﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعولُ ﴿يَتَّبِعُ﴾ ومفعولُ ﴿يَدْعُونَ﴾ محذوف لظهوره، أي: ما يتّبع الذين يدعون مِن دون الله شركاءَ شركاءَ في الحقيقة وإن سمّوها شركاءَ، فاقتُصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر. ويجوز أن يكون المذكور مفعولَ ﴿يَدْعُونَ﴾ ويكونَ مفعولُ ﴿يَتَّبِعُ﴾ محذوفًا لانفهامه مِن قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما يتّبعونه يقينًا إنّما يتّبعون ظنّهم الباطل.[١]

وإمّا موصولةٌ معطوفة على ﴿مَن﴾، كأنّه قيل: ولله ما يتّبعه الذين يدعون مِن دون الله شركاءَ، أي: وله شركاؤهم. وتخصيصهم بالذِّكر مع دخولهم فيما سبَق[٢] عبارةً[٣] أو دلالةً[٤] للمبالغة في بيان بطلان اتّباعهم وفسادِ ما بنَوه عليه مِن ظنّهم شركاءَهم معبودين مع كونهم عبيدًا له سبحانه.

وإمّا استفهاميّةٌ،[٥] أي: وأيُّ شيءٍ يتّبعون؟ أي: لا يتّبعون شيئًا ما يتّبعون إلّا الظنَّ والخيال الباطل، كقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ[٦] إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾... إلخ [يوسف، ١٢/٤٠]. وقُرِئَ: "تَدْعُونَ"[٧] بالتاء، فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ، كأنّه قيل: وأيّ شيءٍ يتّبع الذين تدعونهم شركاءَ مِن الملائكة والنبيّين؟ تقريرًا لكونهم متّبعين لله تعالى مطيعين له، وتوبيخًا لهم على عدم اقتدائهم بهم في ذلك، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء، ١٧/٥٧]،

---

[١] جوّز ذلك العكبري في التبيان، ٢/٦٨٠؛ وهو في اللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٠-٣٧١.

[٢] وفي هامش م: مِن قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾. «منه».

[٣] وفي هامش م: كالملائكة وعيسى وعُزير عليهم السلام. «منه».

[٤] وفي هامش م: كالأصنام والكواكب. «منه».

[٥] وفي هامش م: على طريقة الإنكار. «منه».

[٦] م - مِن دُونِهِ.

[٧] قراءة شاذّة، مَرويّة عن عليّ بن أبي طالب وأبي عبد الرحمن السُلمي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٦.

ثمّ صُرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقيل: إن يتّبع هؤلاء المشركون إلّا الظنَّ ولا يتّبعون ما يتّبعه الملائكة / والنبيّون مِن الحقّ، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [٩٩ظ] يَكذِبون فيما ينسُبونه إليه سبحانه ويَحزُرون ويُقدِّرون أنّهم شركاءُ تقديرًا باطلًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ تنبيه على تفرّده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليَدلّهم على توحّده سبحانه باستحقاق العبادة، وتقريرٌ لِما سلف مِن كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصِح عن اختصاص العزّة به سبحانه.

و"الجَعْل" إن كان بمعنى الإبداع والخَلْق فـ﴿مُبْصِرًا﴾ حال، وإلّا فـ﴿لَكُمْ﴾ مفعوله الثاني، أو هو حال كما في الوجه الأوّل والمفعولُ الثاني ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾، أو هو محذوف يدلّ عليه المفعول الثاني مِن الجملة الثانية، كما أنّ العلّة الغائيّة منها محذوفة اعتمادًا على ما في الأُولى، والتقدير: هو الذي جعَل لكم الليل مظلمًا لتسكُنوا فيه والنهارَ مبصِرًا لتتحرّكوا فيه لمصالحكم، كما سيجيء نظيره في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ الآية [يونس، ١٠/١٠٧]، فحُذف في كلّ واحد مِن الجانبين ما ذُكر في الآخر اكتفاءً بالمذكور عن المتروك. وإسناد الإبصار إلى النهار مجازيٌّ كالذي في "نهارُه صائمٌ".[١]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في جعل كلّ منهما كما وُصف أو فيهما. وما في اسم الإشارةِ مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلة المشار إليه وعلوِّ رُتبته. ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي: عجيبةً كثيرة، أو آياتٍ أُخَرَ غيرَ ما ذُكر. ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: هذه الآيات المتلوّةَ ونظائرها المنبِّهةَ على تلك الآيات التكوينيّة الآمرةَ بالتأمّل فيها سماعَ تدبُّر واعتبار، فيعملون بمقتضاها. وتخصيص الآيات بهم مع أنّها منصوبة لمصلحة الكلّ لِما أنّهم المنتفعون بها.

---

[١] انظر: اللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٢.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ شروع في ذِكر ضَرْب آخرَ مِن أباطيلهم وبيانُ بطلانه. ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: تبنّاه. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه وتقديس له عمّا نسَبوا إليه وتعجيبٌ مِن كلمتهم الحمقاءَ. ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ على الإطلاق عن كلّ شيء في كلّ شيء، وهو عِلّة لتنزّهه سبحانه وإيذانٌ بأنّ اتّخاذ الولد مِن أحكام الحاجة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِن العقلاء وغيرهم، تقرير لغِناه وتحقيق لمالكيّته تعالى لكلّ ما سواه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حجّة ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي: بما ذُكر مِن قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أُقيم مِن البرهان الساطع عن المعارِض، فـ﴿مِن﴾ في ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ زائدةٌ لتأكيد النفي، وهو مبتدأ، والظرف المقدَّم خبره، أو مرتفِعٌ على أنّه فاعل للظرف لاعتماده على النفي، و﴿بِهَٰذَآ﴾ متعلِّق / إمّا بـ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ لأنّه بمعنى الحجّة والبرهان، وإمّا بمحذوف وقعَ صفةً له، وإمّا بما في ﴿عِندَكُم﴾ مِن معنى الاستقرار، كأنّه قيل: إنّ عندكم في هذا القول مِن سلطان. [١٠٠و]

والالتفات إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والإفحام وتأكيدِ ما في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم، وفيه تنبيه على أنّ كلّ مقالة لا دليلَ عليها فهي جهالة، وأنّ العقائد لا بدَّ لها مِن برهان قطعي، وأنّ التقليد بمَعزِل مِن الاعتداد به.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليُبيّن لهم سوءَ مَغبّتهم ووخامةَ عاقبتِهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: في كلّ أمر فيَدخل ما نحن بصدده مِن الافتراء بنسبة الولد والشريكِ إليه سبحانه دخولًا أوّليًا. ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا ينجُون مِن مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلًا.

وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج في ذلك مِن عدم النجاة مِن النار وعدم الفوز بالجنّة لا يناسب مقام المبالغة في الزجر عن الافتراء عليه سبحانه.

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان أنّ ما يتراءى فيهم بحسب الظاهر مِن نَيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيويّة على الإطلاق أو في ضمن افترائِهم بمَعزِل مِن أن يكون مِن جنس الفلاح،[1] كأنّه قيل: كيف لا يُفلحون وهم في غِبطة ونعيم؟ فقيل: هو متاع يسير في الدنيا وليس بفوز بالمطلوب.

ثمّ أشيرَ إلى انتفاء النجاةِ عن المكروه أيضًا بقوله عزّ وعلا: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: بالموت. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ فيبقَون في الشقاء المؤبَّد بسبب كفرهم المستمرّ أو بكفرهم في الدنيا، فأين هم مِن الفلاح؟ وقيل: المبتدأ المحذوف: حياتُهم أو تقلُّبهم،[2] وقد قيل: إنّه: افتراؤُهم.[3]

ولا يخفى أنّ "المتاع" إنّما يُطلق على ما يكون مطبوعًا عند النفس مرغوبًا فيه في نفسه يُتمتَّع ويُنتفَع به، وإنّما عدمُ الاعتداد به لسرعة زواله، ونفسُ الافتراء عليه سبحانه أقبحُ القبائح عند النفس فضلًا عن أن يكون مطبوعًا عندها. وعدُّه كذلك باعتبار إجراء حُكم ما يؤدّي إليه مِن رياساتهم عليه ممّا لا وجهَ له،[4] فالوجهُ ما ذُكر أوّلًا. وليس ببعيد ما قيل: إنّ المحذوف هو الخبر، أي: لهم متاعٌ.[5]

[١٠٠ظ] / والآية إمّا مسوقةٌ مِن جهة الله سبحانه لتحقيق عدم إفلاحهم غيرُ داخلةٍ في الكلام المأمور به، كما يقتضيه ظاهر قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا﴾ وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ﴾، وإمّا داخلةٌ فيه، على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مأمور بنقله وحكايتِه عنه عزّ وجلّ.

---

١ وفي هامش م: لا فوزًا بالمرام ولا نجاة عن المحذور. «منه».

٢ القول في التبيان للعكبري، ٦٨٠/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٠/٢.

٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/٢.

٤ س - له. | كما في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٠/٢.

٥ الوجه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٣٨/٦؛ واللباب لابن عادل، ٣٧٤/١٠.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المشركين مِن أهل مكّةَ وغيرهم لتحقيق ما سبق مِن أنّهم لا يُفلحون، وأنّ ما يتمتّعون به على جناح الفوات، وأنّهم مشرفون على العذاب الخالد.

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبرَه الذي له شأن وخَطَر مع قومه الذين هم أضراب قومك في الكفر والعناد، ليتدبّروا ما فيه مِن زوال ما تمتّعوا به مِن النعيم وحلول عذاب الغَرق الموصول بالعذاب المقيم، لينزجروا بذلك عمّا هم عليه مِن الكفر أو تنكسرَ شدّة شكيمتهم أو يعترفَ بعضهم بصحّة نبوّتك، بأن عرفوا أنّ ما تتلوه موافِقًا لِما ثبُت عندهم مِن غير مخالفة بينهما أصلًا، مع علمهم بأنّك لم تسمَع ذلك مِن أحد ليس إلّا بطريق الوحي. وفيه مِن تقرير ما سبق مِن كون الكلّ لله سبحانه واختصاص العزّة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن مِن أوليائه عزّ وعلا قاطبةً وتشجيعِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحملِه على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم ما لا يخفى.

﴿إِذْ قَالَ﴾ معمول لـ﴿نَبَأَ﴾ أو بدل منه بدلَ اشتمال، وأيًّا ما كان فالمراد بعض نَبئِه عليه السلام، لا كلُّ ما جرى بينه وبين قومه. واللام في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ للتبليغ. ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عظُم وشَقّ ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ أي: نفسي، كما يقال: فعلتُه لمكان فلان، أي لفلان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن، ٤٦/٥٥]، أي: خاف ربَّه؛[1] أو قيامي ومُكثي بين ظَهْرانَيكم مدّة طويلة، أو قيامي ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فإنّهم كانوا إذا وعَظوا الجماعة يقومون على أرجلهم والجماعةُ قعودٌ ليَظهر حالُهم ويُسمَع مقالُهم. ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ جواب للشرط،[2] أي: دمتُ على تخصيص التوكّل به تعالى، ويجوز أن يُراد به إحداث مرتبةٍ مخصوصة مِن مراتب التوكّل.

---

[1] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٨/٢.

[2] وفي هامش م: وسببيّة مِن حيث استتباعه لتصدّيهم لقتله. «منه».

﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ عطفٌ على الجواب، والفاء لترتيب الأمر بالإجماع على التوكّل لا لترتيب نفس الإجماع عليه، أو هو الجواب وما سبق جملة اعتراضيّة. والإجماع: العزم. قيل: هو متعدّ بنفسه. وقيل: فيه حَذْف وإيصال.[١] قال السَّدوسي:[٢] "أجمعتُ الأمرَ" أفصحُ مِن "أجمعتُ عليه"، وقال أبو الهيثم:[٣] أجمعَ أمرَه: جعله مجموعًا بعد ما كان متفرِّقًا، وتفرُّقُه أنّه يقول مرّة: أفعلُ كذا، وأخرى: أفعل كذا، وإذا عزم على أمر واحد فقد جمَعه، أي: جعله جميعًا.[٤]

﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ بالنصب على أنّ الواو بمعنى "مع" كما تدلّ عليه القراءة بالرفع عطفًا على الضمير المتّصل تنزيلًا للفصل منزلة التأكيد. وإسناد الإجماع إلى الشركاء على طريقة التهكّم. وقيل: إنّه عطفٌ على ﴿أَمْرَكُمْ﴾ بحذف المضاف، أي: أمرَ شركائكم. وقيل: منصوب بفعل محذوف، أي: وادْعُوا شركاءَكم،[٥] وقد قُرِئ كذلك.[٦] وقُرِئ: "فاجْمَعُوا"[٧] مِن الجمع، أي: فاعزِموا على أمركم الذي تُريدون بي مِن السعي / في إهلاكي واحتشِدوا فيه على أيّ وجه يُمكنكم. [١٠١و]

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ ذلك ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مستورًا مِن غمّه إذا ستَره؛ بل مكشوفًا مشهورًا تُجاهرونني به، فإنّ الستر إنّما يُصار إليه لسدّ باب تدارُك الخلاص بالهرب أو نحوه، فحيث استحال ذلك في حقّي لم يكن للستر وجهٌ. وإنّما خاطَبهم عليه السلام بذلك إظهارًا لعدم المبالاة بهم، وأنّهم لن يجدوا إليه سبيلًا، وثقةً بالله سبحانه وبما وعده مِن عصمته وكَلاءته، فكلمةُ ﴿ثُمَّ﴾

---

١ القولان في التبيان للعكبري، ٢/٦٨٠-٦٨١؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٦.

٢ هو مؤرِّج بن عمر السَّدوسي النحوي البصري، أبو فَيد (ت. ١٩٥هـ/٨١٠م). عالم بالعربيّة والحديث والأنساب والأخبار. مِن أعيان أصحاب الخليل بن أحمد، سمع مِن أبي عمرو بن العلاء. مِن كتبه: جماهير القبائل، غريب القرآن، الأمثال، الأنواء، والمعاني. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٢/٣٠٥؛ والأعلام للزركلي، ٧/٣١٨.

٣ أبو الهيثم الرازي (ت. ٢٧٦هـ/٨٨٩). إمام مِن أئمّة اللغة، أدرك العلماء وأخذ منهم وتصدّر بالريّ للإفادة. أخباره نادرة في كتب التراجم. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٢/٣٢٩.

٤ قولاهما في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/٢٤٠؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٦.

٥ القولان في التبيان للعكبري، ٢/٦٨١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٠.

٦ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٩٦٨.

٧ قرأ بها رويس بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٥.

للتراخي في الرتبة. وإظهارُ "الأمر" في موقع الإضمار لزيادة تقرير يقتضيها مقامُ الأمر بالإظهار الذي يستلزمه النهيُ عن السَّتر والإسرار.

وقيل: المراد بأمرهم: ما يعتريهم مِن جهته عليه السلام مِن الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم، والغُمّة: الغَمّ، كالكُربة والكَرْب، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزماني، والمعنى: لا يكن حالكم عليكم غمّةً، وتخلّصوا بإهلاكي مِن ثِقَل مقامي وتذكيري.[1] ولا يخفى أنّه لا يساعده قولُه عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: أدُّوا إليّ، أي: أَحكِمُوا ذلك الأمرَ الذي تريدون بي ولا تُمهلوني، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر، ١٥/٦٦]، أو أدُّوا إليّ ما هو حقّ عليكم عندكم مِن إهلاكي، كما يقضي الرجلُ غريمَه، فإنّ توسيط ما يحصُل بعد الإهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه[2] وبين الأمر بقضائه مِن قبيل الفصل بين الشجَر ولِحائه. وقُرئ: "أَفْضُوا"[3] بالفاء، أي: انتهوا إليّ بشَرّكم، أو ابرُزوا إليّ، مِن أفضى إذا خرج إلى الفضاء.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ "الفاء" لترتيب التولّي على ما سبق، فالمراد به: إمّا الاستمرار عليه، وإمّا إحداث التولّي المخصوص، أي: إن أعرضتُم عن نصيحتي وتذكيري إثرَ ما شاهدتُم منّي مَخايل صحّة ما أقول ودلائلَها التي مِن جملتها دعوتي إيّاكم جميعًا إلى تحقيق ما تريدون بي مِن السوء غيرَ مُبالٍ بكم وبما يأتي منكم، وإحجامُكم مِن الإجابة علمًا منكم بأنّي على الحقّ المبين مؤيَّد مِن عند الله العزيز.

﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ بمقابلة وعظي وتذكيري ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ تُؤدُّونه إليّ حتّى يؤدّيَ ذلك إلى تولّيكم، إمّا لاتّهامكم إيّاي بالطمع والسؤال وإمّا لِثقل دَفْع المسئول عليكم

---

[1] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٨.

[2] وفي هامش م: أسبابه.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حَيْوة عن السَّري بن ينعم ويحيى بن يعمر والجرّاح وأبي واقد والزعفراني وحَيْوة بن شُريح. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٦.

أو حتّى يضرّني تولّيكم المؤدّي إلى الحرمان. فالأوّلُ لإظهار بطلان التولّي ببيان عدم ما يُصحِّحه، والثاني لإظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه، وعلى التقديرين فالفاء الجزائيّة لسببيّة الشرط لإعلام مضمون الجزاء لا لنفسه، والمعنى: إن تولّيتُم فاعلموا / أن ليس فيَّ مصحِّحٌ له ولا تأثّرٌ منه. [١٠١ظ]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ ينتظِم المعنيين جميعًا، خلا أنّه على الأوّل تأكيد[1] وعلى الثاني تعليل لاستغنائه عليه السلام عنه، أي: ما ثوابي على العِظَة والتذكير إلّا عليه تعالى، يُثيبني به آمنتُم أو توليتُم. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحُكمه لا أُخالِف أمره ولا أرجو غيره، أو المستسلمين لكلّ ما يُصيب مِن البلاء في طاعة الله تعالى.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصرُّوا على ما هم عليه مِن التكذيب بعدما ألزَمهم الحجّةَ، وبيّن لهم المَحَجّة، وحقّق أنّ تولّيَهم ليس له سبب غيرُ التمرّد والعناد، فلا جرمَ حقّت عليهم كلمة العذاب. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ مِن المسلمين وكانوا ثمانين،[2] ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ مِن الهالكين.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بالطوفان. وتأخيرُ ذِكره عن ذِكر الإنجاء والاستخلاف حسبما وقع في قوله عزّ وعلا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود، ٩٤/١١] وغيرِ ذلك مِن الآيات الكريمة، لإظهار كمال العناية بشأن المقدَّم، ولتعجيل المَسرّة للسامعين، وللإيذان بسَبْق الرحمة التي هي مِن مقتضيات الربوبيّة على الغضب الذي هو مِن مستتبعات جرائم المجرمين. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تهويل لِما جرى عليهم، وتحذيرٌ لمَن كذّب بالرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتسليةٌ له عليه السلام.

---

[1] وفي هامش م: وهو ظاهر.

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٠/٢.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أي: أرسلنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلًا﴾ التنكير للتفخيم ذاتًا ووصفًا، أي: رسلًا كِرامًا ذوي عدد كثير ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي: إلى أقوامهم، لكن لا بأنْ أرسلنا كلَّ رسول منهم إلى أقوام الكُلّ أو إلى قوم ما أيِّ قومٍ كانوا؛ بل كلُّ رسول إلى قومه خاصّة، مثلُ هود إلى عاد وصالح إلى ثمودَ، وغيرِ ذلك ممّن قُصّ منهم ومَن لم يُقَصّ.

﴿فَجَآءُوهُم﴾ أي: جاء كلُّ رسول قومَه المخصوصين به ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحة الدالّة على صِدق ما قالوا. و"الباء" إمّا متعلِّقة بالفعل المذكور على أنّها للتعدية، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ضمير "جاءوا"، أي: ملتبِسين بالبيّنات، لكن لا بأن يأتيَ كلُّ رسولٍ ببيّنة واحدة؛ بل ببيّنات كثيرة خاصّةٍ به معيّنة له حسب اقتضاء الحكمة، فإنّ مراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد إنّما هي فيما بين ضميرَي "جاءوهم"، كما أشيرَ إليه.

﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرار إيمانِهم، كما مرّ مثله في هذه السورة الكريمة غيرَ مرّة، أي: فما صحّ وما استقام لقوم مِن أولئك الأقوام في وقت مِن الأوقات أن يؤمِنوا؛ بل كان ذلك ممتنعًا منهم لشدّة شكيمتهم في الكفر والعناد.

ثمّ إن كان المحكيُّ آخرَ حال كلّ قومٍ حسبما يدلّ عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم إيمانِهم المذكورِ ههنا إصرارُهم على ذلك بعد اللُّتيّا والتي،[1] وبما أشيرَ إليه / في قوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ تكذيبُهم مِن حين مجيء الرسل إلى زمان الإصرار والعناد، وإنّما لم يُجعل ذلك مقصودًا بالذات كالأوّل حيث جُعل صلةً للموصول إيذانًا بأنّه بيّن بنفسه غنيٌّ عن البيان، وإنّما المحتاج إلى ذلك عدم إيمانهم بعد تواتر البيّنات الظاهرة وتظاهُرِ المعجزات الباهرة [٦٢و]

---

[1] اللُّتيّا والَّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغيرُ التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

التي كانت تَضطرّهم إلى القبول لو كانوا مِن أصحاب العقول. والموصول الذي تعلَّق به الإيمان والتكذيب سلبًا وإيجابًا عبارة عن جميع الشرائع التي جاء بها كلُّ رسول أصولِها وفروعِها.

وإن كان المحكيُّ جميعَ أحوال كلّ قومٍ منهم فالمراد بما ذُكر أوّلًا: كفرُهم المستمرّ مِن حين مجيء الرسل إلى آخره، وبما أشيرَ إليه آخرًا: تكذيبُهم قبل مجيئِهم، فلا بدّ مِن كون الموصول المذكور عبارةً عن أصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعَوا أُممهم إليها آثرَ ذي أثير لاستحالة تبدُّلها وتغيُّرِها مثل ملَّة التوحيد ولوازمِها. ومعنى تكذيبهم بها قبلَ مجيء رسلهم: أنّهم ما كانوا في زمن الجاهليّة بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قطّ؛ بل كان كلُّ قومٍ مِن أولئك الأقوام يتسامعون بها مِن بقايا مَن قبلهم كثمودَ مِن بقايا عاد، وعادٍ مِن بقايا قوم نوح عليه السلام فيُكذّبونها، ثمّ كانت حالتهم بعد مجيء الرسلِ كحالتهم قبل ذلك كأن لم يُبعث إليهم أحد.

وتخصيص التكذيب وعدمِ الإيمان بما ذُكر مِن الأصول لظهور حالِ الباقي بدلالة النصّ، فإنّهم حيث لم يُؤمِنوا بما أجمعت عليه كافّة الرسل فلَأَن لا يُؤمِنوا بما تفرَّد به بعضهم أَولى. وعدمُ جعلِ هذا التكذيب مقصودًا بالذات لِما أنّ ما عليه يدور أَمر العذاب والعقاب عند اجتماع التكذيبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة، حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٥/١٧]. وإنّما ذُكر ما وقَع قبلها بيانًا لعراقتهم في الكفر والتكذيب.

وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة في المَرجِع. وقيل: ضمير ﴿كَذَّبُواْ﴾ راجع إلى قوم نوح عليه السلام، والمعنى: فما كان قوم الرسل ليُؤمِنوا بما كذَّب بمِثله قوم نوح.[1] ولا يخفى ما فيه مِن التعسّف. / وقيل: الباء للسببيّة، أي: بسبب تعوُّدهم تكذيبَ الحقّ وتمرُّنِهم عليه قبلَ بعثة الرسل.[2] ولا يخفى أنّ ذلك يؤدّي إلى مخالفة الجمهور مِن جَعْل "ما" المصدريّة مِن قبيل الأسماء كما هو رأيُ [١٠٢ظ]

---

[1] القول في مشكل إعراب القرآن لمكّي، ٣٥٠/١؛ والتبيان للعكبري، ٦٨٢/٢. وأورده عنهما ابن عادل في اللباب، ٣٨٢/١٠.

[2] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١١/٢.

الأخفش وابنِ السرّاج ليرجِع إليها الضمير،[١] وفي إرجاعه إلى الحقّ بادّعاء كونه مركوزًا في الأذهان[٢] ما لا يخفى مِن التعسّف.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطبع المحكَم ﴿نَطْبَعُ﴾ بنون العظَمة، وقُرئ بالياء[٣] على أنّ الضمير لله سبحانه. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين عن الحدود المعهودة في الكفر والعناد المتجافِين عن قبول الحقّ وسلوكِ طريق الرشاد، وذلك بخذلانهم وتخليتِهم وشأنَهم لانهماكهم في الغيّ والضلال. وفي أمثال هذا دلالة على أنّ الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسبِ العبد.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾[٤] عطفَ قصّةٍ على قصّة. ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: مِن بعد أولئك الرسل عليهم السلام. ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خُصّت بعثُهما عليهما السلام بالذِّكر ولم يُكتفَ باندراج خبرِهما فيما أشيرَ إليه إشارة إجماليّة مِن أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم، وأُوثر في ذلك ضربُ تفصيلٍ إيذانًا بخَطَر شأن القصّة وعِظَم وَقْعها، كما في نبأ نوح عليه السلام.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه. وتخصيصهم بالذِّكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمُهمّات ومراجعةِ الكلّ إليهم في النوازل والمُلمّات. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ملتبِسين بها وهي الآياتُ المفصَّلات في "الأعراف".[٥] ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الاستكبار: ادّعاء الكِبْر مِن غير استحقاق، و"الفاءُ" فصيحة، أي: فأتَياهم فبلَّغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتّباعهما، وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾... إلخ، [الشعراء، ١٨/٢٦].

---

[١] الكلام في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٤٥/٦-٢٤٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٨٢/١٠.

[٢] ما وقفتُ على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

[٣] قراءة شاذّة، مَرويّة عن العبّاس بن الفضل وأبي واقد والجرّاح. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٨.

[٤] يونس، ٧٤/١٠.

[٥] الأعراف، ١٣٣/٧.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العِظام، فإنّ الإجرام مؤذِن بعِظَم الذنب، ومنه الجِرم، أي: الجُثّة، فلذلك اجترءوا على ما اجترءوا عليه مِن الاستهانة برسالة الله عزّ وجلّ.

وحملُ الاستكبار على الامتناع عن قَبول الآيات لا يساعده قولُه عزّ وعلا: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ فإنّه صريح في أنّ المراد باستكبارهم ما وقع منهم / قبل مجيء الحقّ الذي سمّوه سحرًا، أعني: العصا [١٠٣و] واليد البيضاء، كما يُنبئ عنه سياق النظم الكريم، وذلك أوّل ما أظهره عليه السلام مِن الآيات العِظام. و"الفاء" فيه أيضًا فصيحة معرِبة عما صُرِّح به في مواضعَ أُخرَ، كأنّه قيل: قال موسى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف، ١٠٥/٧]، إلى قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء، ٣٢/٢٦-٣٣]. فلمّا جاءهم الحقّ مِن عندنا وعرَفوه قالوا مِن فَرْط عُتوّهم وعنادهم: إنّ هذا لَسحر مبين، أي: ظاهرٌ كونه سحرًا، أو فائقٌ في بابه واضح فيما بين أضرابه. وقُرئ: "لَسَاحِرٌ".[١]

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال تنساق إليه الأذهان، كأنّه قيل: فماذا قال لهم موسى حينئذ؟ فقيل: قال على طريقة الاستفهام الإنكاري التوبيخي: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الذي هو أبعدُ شيء مِن السحر الذي هو الباطل البحت. ﴿لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ أي: حين مجيئه إيّاكم ووقوفكم عليه، أو مِن أوّل الأمر مِن غير تأمّل وتدبّر، وكلا الحالين ممّا ينافي القولَ المذكور.

والمَقول محذوف ثقةً بدلالة ما قبله وما بعده عليه وإيذانًا بأنّه ممّا لا ينبغي أن يُتفوّه به ولو على نهج الحكاية، أي: أتقولون له ما تقولون مِن أنّه سِحر؟

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن سعيد بن جُبير وابن مجاهد والأعمش وعيسى بن عمر وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٨.

يعني به أنّه ممّا لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلّمَ به متكلِّم، أو القول بمعنى: العيب والطعن، مِن قولهم: "فلان يخاف القالَة"، و"بين الناسِ تقاوُل": إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه، ونظيرُه "الذِّكر" في قوله تعالى: ﴿سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ﴾... إلخ، [الأنبياء، ٦٠/٢١].[1] فيُستغنى عن المفعول، أي: أتَعيبونه وتطعنون فيه.

وعلى الوجهين فقوله عزّ وجلّ: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ إنكار مستأنَف مِن جهته عليه السلام لكونه سِحرًا، وتكذيبٌ لقولهم وتوبيخ لهم على ذلك إثرَ توبيخ وتجهيلٌ بعد تجهيل. أمّا على الأوّل فظاهر، وأمّا على الثاني فوجهُ إيثارِ إنكار كونه سِحرًا على إنكار كونه مَعيبًا بأن يقال مثلًا: "أَفِيه عَيبٌ" حسبما يقتضيه ظاهر الإنكارِ السابق،[2] التصريحُ[3] بالردّ عليهم في خصوصيّة ما عابوه به بعد التنبيه بالإنكار السابق، على أن ليس فيه شائبة عيبٍ ما.

وما في ﴿هَٰذَا﴾ مِن معنى القُرب لزيادة تعيين المشار إليه واستحضارِ ما فيه مِن الصفات الدالّة على كونه آية باهرة مِن آيات الله المناديةِ على امتناع كونه سحرًا، أي: أَسِحرٌ هذا الذي أمرُه واضح مكشوف وشأنه مشاهَد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممّن له عين مبصِرة؟ وتقديم الخبر للإيذان بأنّه مُصَبّ الإنكار.

/ ولمّا استلزَم كونُه سِحرًا كونَ مَن أتى به ساحرًا أُكِّد الإنكار السابق وما فيه مِن التوبيخ والتجهيل بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، وهو جملة حاليّة مِن ضمير المخاطَبين، والرابط هو الواو بلا ضمير، كما في قول مَن قال: [١٠٣ظ]

جـاء الـشـتـاءُ ولـسـتُ أمـلِـكُ عُـدّةً[4]

وقولِك: "جاء زيدٌ ولم تطلُع الشمس"، أي: أتقولون للحقّ: إنّه سِحر؟ والحال أنّه لا يُفلح فاعله، أي: لا يظفَر بمطلوب ولا ينجو مِن مكروه، فكيف يُمكن صدورُه مِن مثلي مِن المؤيَّدين مِن عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكلّ مَطلَب الناجين مِن كلّ محذور؟

---

[1] الكلام عن هذا المعنى لـ"القول" في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٠/٢.

[2] وفي هامش م: أي: أتعيبونه؟

[3] السياق: فوجهُ إيثار... التصريحُ...

[4] ما وقفتُ عليه فيما بين يديّ مِن المَظانّ.

وقوله تعالى: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ جملة معترِضة بين الحال وصاحبها أُكِّد بها الإنكار السابق ببيان استحالة كونه سِحرًا بالنظر إلى ذاته قبل بيان استحالتِه بالنظر إلى صدوره عنه عليه السلام هذا. وأمّا تجويز أن يكون الكلّ مقولَ القول على أنّ المعنى: أجئتُما بالسحر تطلُبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون؟[1] فممّا لا يساعده النظم الكريم أصلًا:

أمّا أوّلًا فلأنّ ما قالوا هو الحكم بأنّه سِحر مِن غير أن يكون فيه دلالة على ما تُعُسِّف فيه مِن المعنى بوجه مِن الوجوه، فصَرفُ جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به إلى ما لا يُفهَم منه أصلًا ممّا يجب تنزيه النظم التنزيلي عن الحمل على أمثاله.

وأمّا ثانيًا فلأنّ التعرّض لعدم إفلاح السَّحَرة على الإطلاق مِن وظائف مَن يتمسّك بالحقّ المبين دون الكفَرة المتشبّثين بأذيال بعض منهم في معارضته عليه السلام، ولو كان ذلك مِن كلامهم لَناسَب تخصيصَ عدم الإفلاح بمَن زعموه ساحرًا بناءً على غلبة مَن يأتون به مِن السَّحَرة.

وأما ثالثًا فلأنّ قولَ عزّ وجلّ: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾... إلخ، مسوقٌ لبيان أنّه عليه السلام ألقمهم الحجرَ فانقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلُّق بكلامه عليه السلام فضلًا عن الجواب الصحيح، واضطرّوا إلى التشبّث بذيل التقليد الذي هو دأب كلّ عاجز محجوج ودَيدنُ كلّ معاند لَجوج.

على أنّه استئناف وقع جوابًا عما قبله مِن كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾... إلخ، حسبما أشيرَ إليه، كأنّه قيل: فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال؟ فقيل: قالوا عاجزين عن المُحاجّة: أَجِئتنا ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾؟ أي: لتَصرِفنا، فإنّ الفَتْل واللَّفْت أخوَان.[2] ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: مِن عبادة الأصنام، ولا ريبَ في أنّ ذلك إنّما يتسنّى بكون ما ذُكر مِن تتمّة كلامه عليه السلام على الوجه الذي شُرح، إذ على تقدير كونه مَحكيًّا مِن قِبَلهم يكون جوابه عليه السلام خاليًا عن التبكيت المُلجئ لهم إلى العدول عن سَنن المُحاجّة،

---

[1] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٠.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٠.

/ ولا ريبَ في أنّه لا علاقةَ بين قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا﴾... إلخ، وبين إنكاره عليه السلام [١٠٤و] لِما حُكيَ عنهم مصحِّحةً لكونه جوابًا عنه. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: المُلك أو التكبّر على الناس باستتباعهم. وقُرئ: "وَيَكُونَ"[١] بالياء التحتانيّة.

وكلمة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصرَ متعلِّقة بـ﴿تَكُونَ﴾، أو بـ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾، أو بالاستقرار في ﴿لَكُمَا﴾ لوقوعه خبرًا، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾، أو مِن الضمير في ﴿لَكُمَا﴾ لتحمّله إيّاه.[٢]

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدِّقين فيما جئتُما به. وتثنية الضمير في هذين الموضعين بعد إفراده فيما تقدَّم مِن المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزامِ التصديقِ لأحدهما التصديقَ للآخر، وأمّا اللفتُ والمجيءُ له فحيث كانا مِن خصائص صاحب الشريعة أُسنِد إلى موسى عليه السلام خاصّة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ توحيد الفعل لأنّ الأمر مِن وظائف فرعونَ، أي: قال لمَلَئه يأمرهم بترتيب مبادي إلزامِهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأسِ عن إلزامهما بالقول. ﴿ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ بفنون السِّحر حاذقٍ ماهرٍ فيه. وقُرئ: "سَحَّارٍ".[٣]

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ عطفٌ على مقدَّر يستدعيه المقام قد حُذف إيذانًا بسرعة امتثالهم بأمر فرعونَ كما هو شأن الفاء الفصيحة في كلّ مقام، أي: فأتَوا به فلمّا جاءوا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾، لكن لا في ابتداء مجيئهم؛ بل بعد ما قالوا له عليه السلام ما حُكي عنهم في السُّور الأُخَر مِن قولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف، ١١٥/٧]، ونحوِ ذلك: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أي: مُلقون له كائنًا ما كان مِن أصناف السِّحر.

---

١ قرأ بها أبو بكر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٦/٢.

٢ جميع هذه الوجوه في التبيان للعكبري، ٦٨٢/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٨٤/١٠.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ ما ألقوا مِن العِصيّ والحِبال، واسترهبوا الناسَ، وجاءوا بسحر عظيم ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ غيرَ مكترِث بهم وبما صنعوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة وقعتْ مبتدأ، و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبره، أي: هو السِّحر لا ما سمّاه فرعونُ وقومه مِن آيات الله سبحانه، أو هو مِن جنس السِّحر يُريهم أنّ حاله بيّن لا يُعبأ به، كأنّه قال: ما جئتُم به ممّا لا ينبغي أن يُجاء به. وقُرئ: "آلسِّحْرُ"[1] على الاستفهام، فـ﴿مَا﴾ استفهاميّة، أي: أيُّ شيء جئتُم به؟ أهو السحرُ الذي يَعرِف حالَه كلُّ أحد ولا يتصدّى له عاقل؟ وقُرئ: "مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ"،[2] وقُرئ: "مَا أَتيتُمْ بِهِ سِحْرٌ"،[3] ودلالتُهما على المعنى الثاني في القراءة المشهورة أظهرُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي: سيمحقه بالكلّيّة بما يُظهره على يديَّ مِن المعجزة فلا يبقى له أثر أصلًا، أو سيظهر بطلانُه للناس، / والسين للتأكيد. [١٠٤ظ] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: عملَ جنس المفسدين على الإطلاق، فيدخل فيه السِّحر دخولًا أوّليًا؛ أو عملَكم، فيكون مِن باب وضعِ المُظهَر مَوضعَ المُضمَر للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعارِ بعلّة الحكم. وليس المراد بعدم إصلاح عملِهم عدمَ جعلِ فسادهم صلاحًا؛ بل عدمُ إثباته وإتمامه، أي: لا يُثبته ولا يُكمِّله ولا يُديمه؛ بل يَمحقه ويُهلكه ويُسلِّط عليه الدمار. والجملة تعليل لِما سبق مِن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾، والكلّ اعتراض تذييلي، وفيه دليل على أنّ السِّحر إفساد وتمويه لا حقيقةَ له.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾،[4] أي: يُثبته ويُقوّيه. وإظهار الاسم الجليل في المقامين الأخيرين لإلقاء الرَّوعة وتربيةِ المهابة.

---

[1] قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٨/١.

[2] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٩.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٩.

[4] في الآية السابقة.

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره وقضاياه. وقُرئ: "بِكَلِمَتِهِ".[١] ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ذلك، والمراد بهم كلُّ مَن اتّصف بالإجرام مِن السَّحَرة وغيرهم.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٨٣﴾

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ معطوف على مقدَّر قد فُصِّل في مواقعَ أُخَرَ، أي: فألقى عصاه فإذا هي تلقَف ما يأفِكون... إلى آخره، وإنّما لم يُذكَر تعويلًا على ذلك وإيثارًا للإيجاز وإيذانًا بأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾[٢] ممّا لا يحتمل الخُلفَ أصلًا، وعطفُه على ذلك بالفاء مع كونه عدمًا مستمرًّا مِن قبيل ما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [هود، ٩٧/١١]، وما في قولك: "وعظتُه فلم يتّعظ وصِحتُ به فلم ينزجِر"، والسرُّ في ذلك أنّ الإتيان بالشيء بعد ورود ما يُوجِب الإقلاع عنه، وإن كان استمرارًا عليه لكنّه بحسب العنوان فعلٌ جديد وصنعٌ حادث، أي: فما آمن[٣] له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ أي: إلّا أولادٌ مِن أولاد قومِه بني إسرائيلَ حيث دعا الآباءَ فلم يُجيبوه خوفًا مِن فرعونَ، وأجابته طائفة مِن شُبّانهم. وقيل: الضمير لـ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، والذرِّيّة: طائفةٌ مِن شُبّانهم آمنوا به عليه السلام، أو مؤمنُ آلِ فرعونَ وامرأتُه آسيةُ وخازنُه وامرأته وماشِطته.[٤] وهو بعيد.

﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ﴾ أي: كائنين على خوف عظيم. ﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ الضمير لـ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، والجمعُ لِما هو المعتاد في ضمائر العظماءِ، ولا يأباه مقام بيانِ علوّه في الفساد وغلوّه في الشرّ والتسلّط على العباد، أو لأنّ المراد به آله، كما يقال: ربيعةُ ومضرُ، أو للذرِّيّة، أو للقوم، أي: على خوف مِن فرعونَ ومِن أشراف بني إسرائيلَ، حيث كانوا يمنعون أعقابهم خوفًا مِن فرعونَ عليهم وعلى أنفسهم. ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾ أي: يعذِّبَهم، وهو بدل اشتمالٍ، أو مفعولُ ﴿خَوۡفٖ﴾،

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٩.

[٢] يونس، ٨١/١٠.

[٣] وفي هامش م: ما صدّق.

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٧١/٢.

فإنّ إعمال المصدر المنكَّر كثيرٌ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۞ يَتِيمٗا﴾ [البلد، ٩٠/١٤-١٥]، أو مفعول له بعد حذف اللام.[1] وإسناد الفعل إلى فرعونَ خاصّةً لأنّه الآمرُ بالتعذيب.

[١٠٥و] ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ / لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لغالب في أرض مصرَ. ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ في الظلم والفساد بالقتل وسَفْك الدماء، أو في الكِبر والعُتوّ، حتّى ادّعى الربوبيّة واسترقَّ أسباط الأنبياء. والجملتان اعتراض تذييلي مؤكِّد لمضمون ما سبق.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ۞﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمّا رأى تخوُّف المؤمنين منه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي: صدّقتم به وبآياته ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ وبه ثِقوا ولا تخافوا أحدًا غيرَه، فإنّه كافيكم كلَّ شرّ وضُرّ ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلِصين له. وليس هذا مِن تعليق الحُكم بشرطين، فإنّ المعلَّق بالإيمان وجوبُ التوكّل عليه تعالى فإنّه المقتضي له، والمشروطَ بالإسلام وجودُه فإنّه لا يتحقّق مع التخليد، ونظيرُه: "إن أحسنَ إليك زيدٌ فأحسِنْ إليه إن قدَرتَ عليه".[2]

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞﴾

﴿فَقَالُواْ﴾ مجيبين له عليه السلام مِن غير تلعثم في ذلك: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ لأنّهم كانوا مؤمنين مخلِصين، ثمّ دعَوا ربَّهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ﴾ أي: موقعَ فتنة ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تُسلِّطهم علينا حتّى يُعذِّبونا أو يفتنونا عن ديننا، أو يُفتَنوا بنا ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحقّ لَما أُصيبوا.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دعاء منهم بالإنجاء مِن سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم بعد الإنجاءِ مِن ظلمهم، ولذلك عُبِّر عنهم بالكفر بعدما وُصفوا بالظلم. وفي ترتيب الدعاء على التوكّل تلويحٌ بأنّ الداعيَ حقُّه أن يبنيَ دعاءه على التوكّل على الله تعالى.

---

[1] الوجوه الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٣٩٢/١٠.
[2] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٢.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ ﴿أَن﴾ مفسِّرة، لأنّ في الوحي معنى القول، أي: اتّخِذا مَباءةً ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تسكُنون فيها وتَرجِعون إليها للعبادة، ﴿وَٱجْعَلُوا۟﴾ أنتما وقومُكما ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ تلك ﴿قِبْلَةً﴾ مصلّى. وقيل: مساجدَ متوجِّهة نحو القِبلة، يعني: الكعبةَ، فإنّ موسى عليه السلام كان يصلّي إليها.[1] ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فيها، أُمروا بذلك في أوّل أمرهم لئلا يظهَر عليهم الكفَرةُ / فيُؤذوهم ويفتِنوهم عن دينهم. [١٠٥ظ]

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنُصرة في الدنيا إجابةً لدعوتهم والجنّةِ في العُقبى. وإنّما ثُنّيَ الضمير أوّلًا لأنّ التبوُّء للقوم واتّخاذَ المعابد ممّا يتولّاه رؤساء القوم بتشاور، ثمّ جُمع لأنّ جعل البيوت مساجدَ والصلاةَ فيها ممّا يفعله كلُّ أحد، ثمّ وُحِّد لأنّ بِشارةَ الأمّة وظيفةُ صاحب الشريعة.[2] ووضعُ المؤمنين مَوضعَ ضمير القوم لمدحهم بالإيمان، وللإشعار بأنّه المدار في التبشير.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٨٨﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: ما يُتزيَّن به مِن اللباس والمراكب ونحوِها ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ وأنواعًا كثيرة مِن المال ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ دعاءً عليهم بلفظ الأمر بما عُلم بممارسة أحوالهم أنّه لا يكون غيره، كقولك: لعن الله إبليسَ. وقيل: "اللام" للعاقبة، وهي متعلقةٌ بـ﴿ءَاتَيْتَ﴾؛ أو للعلّة، لأنّ إيتاء النِعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال، ولأنّهم لمّا جعلوها ذريعةً إلى الضلال فكأنّهم أُوتوها ليُضلّوا،[3] فيكون ﴿رَبَّنَا﴾ تكريرًا للأوّل

---

[1] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٢.

[2] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٢.

[3] وجها اللام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٤.

تأكيدًا أو تنبيهًا على أنّ المقصود عرضُ ضلالِهم وكفرانِهم تقدِمةً لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾. الطمس: المَحْقُ. وقُرئ بضمّ الميم،[١] أي: أَهلِكها.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اجعلها قاسية واطبَع عليها حتّى لا تنشرح للإيمان كما هو قضيّة شأنهم. ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ جواب للدعاء، أو دعاءٌ بلفظ النهي، أو عطفٌ على ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾،[٢] وما بينهما دعاء معترِض. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: يُعاينوه ويُوقنوا به بحيث لا ينفعُهم ذلك إذ ذاك.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ يعني: موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنّه كان يُؤمّن،[٣] / كما يُشعِر به إضافة الربّ إلى ضمير المتكلّم مع الغير في المواقع الثلاثة. [١٠٦و] ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فاثبُتا على ما أنتما عليه مِن الدعوة وإلزام الحجّةِ، ولا تستعجلا فإنّ ما طلبتماه كائن في وقته لا محالةَ. رُويَ أنّه «مكَث فيهم بعد الدعاء أربعين سنةً».[٤]

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بعادات الله سبحانه في تعليق الأمور بالحِكَم والمصالح، أو سبيل الجهلة في الاستعجال، أو عدمِ الوثوق بوعد الله تعالى. وقُرئ بالنون الخفيفةِ وكسرِها لالتقاء الساكنين، "وَلَا تَتْبَعَانِّ" مِن تبِع، "وَلَا تَتْبَعَانِ"[٥] أيضًا.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ هو مِن جاوَز المكانَ إذا تخطّاه وخلّفه والباء للتعدية، أي: جعلناهم مجاوِزين البحرَ بأن جعلناه يبَسًا وحفِظناهم حتّى بلغوا الشطّ.

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الشعبي وعمرو بن عليّ عن الحسن وجابر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧١.

[٢] وفي هامش م: على تقدير ألّا يكون دعاء. «منه».

[٣] رُوي عن عكرمة ومحمّد بن كعب وأبي العالية والربيع بن أنس: أنّ موسى كان يدعو وهارون كان يؤمّن. انظر: جامع البيان للطبري، ١٢/٢٧٣.

[٤] مَرويٌّ عن ابن جُريج في جامع البيان للطبري، ١٢/٢٧٠-٢٧٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٣.

[٥] قرأ بالقراءات الثلاثة ابن ذكوان، وفيها تفصيل وخلاف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٦-٢٨٧.

وقُرئ: "جوّزنا"[1] وهو مِن التجويز المرادف للمجاوزة لا ممّا هو بمعنى: التنفيذ، نحو ما وقع في قول الأعشى:

كما جـوّز الـسَّـكّيُّ فـي الـبـاب فَـيْـتَـقُ[2]

وإلّا لقيل: وجوّزنا بني إسرائيلَ في البحر، ولَخلا النظمُ الكريم عن الإيذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العنايةِ الإلهيّة لهم عند الجواز، كما هو المشهور في الفرق بين أذهبه وذهَب به.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ يقال: تبِعتُه حتّى أتبعتُه إذا كان سبقكَ فلحقتَه، أي أدركهم ولحِقهم. ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ حتّى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ظلمًا واعتداءً، أي: باغِين وعادِين، أو للبغي والعدوان. وقُرئ: "وَعُدُوًّا"،[3] وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببني إسرائيلَ على حين غفلة مِن فرعونَ، فلمّا سمِع به تبِعهم حتّى لحِقهم ووصل إلى الساحل، وهم قد خرجوا مِن البحر ومسلُكهم باقٍ على حاله يَبَسًا، فسلكه بجنوده أجمعين فلمّا دخل آخرُهم وهمّ أوّلهم بالخروج غَشِيهم مِن اليمّ ما غشيَهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي: / لحِقه وألجَمه ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ أي: بأنّه، [١٠٦ظ] والضمير للشأن. وقُرئ: "إنّه"[4] على الاستئناف بدلًا مِن ﴿ءَامَنتُ﴾ وتفسيرًا له.

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن ويحيى وإبراهيم والمازني عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠.

[2] وفي هامش م: أوّلُه:

ولا بـدّ مِـن جـارٍ يُجيز سبيلَها
كـمـا... إلخ.

وقبله:

وإنّ امـرأً أسـرى إلـيكِ ودونـه
مِن الأرض ظلماءُ ويهماءُ سملَقُ
لَمحقوقةٌ أن تستجيبي لصوته
وأن تعلمي أنّ المُعانَ موفَّقُ

وهي للأعشى في ديوانه، ص ٢٢٣. وفيه رواية الشطر الثاني مِن البيت الأوّل قبله: «فيافٍ تَنوفاتٌ وبيداءُ خَيفَقُ». والشطر المذكور في المتن للأعشى في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٣. والسُّكّي: المسمار. والفيتق: النجار. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فتق»، وأورد بيت الأعشى، وفيه «سَلَك» مكان «جوّز».

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن وقتادة وأبو رجاء وعكرمة والزعفراني وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧١.

[4] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٧.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لم يقل كما قاله السَّحَرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف، ٧/١٢١-١٢٢]؛ بل عبَّر عنه تعالى بالموصول وجعل صلتَه إيمانَ بني إسرائيلَ به تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتّباعه لمَن كان يستتبعهم طمعًا في القبول والانتظام معهم في سِلك النجاة.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الذين أسلموا نفوسَهم لله، أي: جعلوها سالمة خالصة له تعالى، وأراد بهم إمّا بني إسرائيلَ خاصّةً، وإمّا الجنسَ وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًّا. والجملة على الأوّل عطفٌ على ﴿ءَامَنتُ﴾، وإيثارُ الاسميّة لادّعاء الدوام والاستمرار، وعلى الثاني يحتمل الحاليّة أيضًا مِن ضمير المتكلِّم، أي: آمنتُ مخلِصًا لله منتظِمًا في سِلك الراسخين فيه. ولقد كُرِّر المعنى الواحد بثلاث عباراتٍ[١] حِرصًا على القبول المفضي إلى النجاة، وهيهاتَ هيهاتَ بعد ما فات ما فات وأتى ما هو آتٍ.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ مقول لقول مقدّر معطوف على ﴿قَالَ﴾، أي: فقيل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾. وهو إلى قوله تعالى: ﴿ءَايَةً﴾[٢] حكاية لِما جرى منه سبحانه مِن الغضب على المخذول ومقابلةِ ما أظهره بالردّ على وجه الإنكار التوبيخي على تأخيره وتقريعِه بالعصيان والإفساد وغير ذلك.

وفي حذف الفعل المذكور وإبرازِ الخبر المحكي في صورة الإنشاء مِن الدلالة على عِظَم السخط وشدّة الغضبِ ما لا يخفى، كما يُفصح عنه ما رُوي مِن أنّ جبريلَ عليه السلام دسّ فاه عند ذلك بحال[٣] البحر وسدّه به.[٤] فإنّه تأكيد للردّ القولي بالردّ الفعلي، ولا يُنافيه تعليلُه بمخافة إدراك الرحمةِ،[٥] فيما نُقل أنّه قال للنبيّ عليهما السلام: «فلو رأيتَني يا محمّدُ وأنا آخذُ مِن حال البحر

---

[١] وفي هامش م: على قراءة كسر "أنّ". «منه».

[٢] في الآية الآتية.

[٣] الحال: الطين الأسود والحمأة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حول».

[٤] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٤. وسيأتي تخريجه.

[٥] في هذا وفيما سيأتي مِن كلام المُصنِّف ردٌّ على الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٧٤، فيما ذهب إليه مِن إنكار هذا التعليل في الحديث المرويّ، مع صحّة مورده.

فأدُسّه في فيه مخافةَ أن تُدركه الرحمة»؛[1] إذ المراد بها الرحمة الدنيويّة، أي: النجاة التي هي طِلْبة المخذول وليس مِن ضرورة إدراكِها صحّةُ الإيمان، كما في إيمان قوم يونسَ عليه السلام، حتّى يلزمَ مِن كراهته ما لا يُتصوّر في شأن جبريلَ عليه السلام مِن الرضا بالكفر؛ إذ لا استحالةَ في ترتّب هذه الرحمة على مجرّد التفوّه بكلمة الإيمان، وإن كان ذلك في حالة البأس واليأس، فيُحمَل دسُّه عليه السلام على سدّ باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدّة الحَرْدِ، فتدبّر، والله الموفِّق.

وحقُّ العامل في الظرف أن يُقدَّر مؤخَّرًا[2] ليتوجّه الإنكار والتوبيخ إلى تأخير الإيمان إلى حدّ يمتنع قبوله فيه، أي: آلآن تُؤمِن حين يئستَ مِن الحياة وأيقنتَ بالممات؟

وقوله عزّ وعلا: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ حال مِن فاعل الفعل المقدَّر جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الإيمان إلى هذا الآن، ببيان أنّه لم يكن تأخيرُه لعدم بلوغ الدعوة إليه ولا للتأمّل والتدبّر في دلائله وآياتِه، ولا لشيء آخرَ ممّا عسى يُعدّ عُذرًا في التأخير؛ بل كان ذلك على طريقة الردّ والاستعصاء والإفساد، فإنّ قوله تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عطفٌ على ﴿عَصَيْتَ﴾ داخل في حيّز الحال، أي: وكنتَ مِن الغالين في الضلال والإضلالِ عن الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل، ٨٨/١٦]، فهذا عبارةٌ عن فساده الراجع إلى نفسه والساري إلى غيره مِن الظلم والتعدّي وصدِّ بني إسرائيلَ عن الإيمان، والأوّلُ عن عصيانه الخاصِّ به.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: نُخرجك ممّا وقع فيه قومك مِن قعر البحر ونجعلك طافيًا. وفي التعبير عنه بالتنجية تلويحٌ بأنّ مراده بالإيمان هو النجاة كما مرّ

---

[1] جاء بهذه الرواية في سنن الترمذي، ٢٨٧/٥ (٣١٠٧)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٧٧/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٤٨/٤.

[2] وفي هامش م: لا مُقدَّمًا كما فعله الجمهور. «منه».

وتهكّمٌ به، أو نُلقيك على نَجْوَة[١] مِن الأرض ليراك بنو إسرائيلَ. وقُرئ: "نُنْجِيكَ"[٢] مِن الإنجاء، و"نُنَحِّيكَ"[٣] بالحاء مِن التنحية، أو نُلقيك بناحية الساحل.

[١٠٧و] ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في / موضع الحال مِن ضمير المخاطَب، أي: نُنجّيك ملابسًا ببدنك فقط، لا مع روحك كما هو مطلوبُك، فهو تخييبٌ له وحسمٌ لأطماعه بالمرّة، أو عاريًا عن اللباس، أو كاملًا سويًّا، أو بدِرْعك، وكانت له درعٌ مِن الذهب يُعرَف بها. وقُرئ: "بِأَبْدَانِكَ"،[٤] أي: بأجزاء بدنكَ كلّها، كقولهم: هوى بأجرامه، أو بدُروعكَ، كأنّه كان مُظاهِرًا[٥] بينها.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لمَن وراءك علامةً وهم بنو إسرائيلَ، إذ كان في نفوسهم مِن عظمته ما خُيِّل إليهم أنّه لا يَهلِك، حتّى يُروى أنّهم لم يُصدِّقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطَّرَحًا على ممرّهم مِن الساحل، أو تكون لمَن يأتي بعدك مِن الأمم إذا سمعوا مآل أمرك ممّن شاهدك عِبرةً ونكالًا مِن الطغيان، أو حجّةً تدلّهم على أنّ الإنسان وإن بلغ الغايةَ القصوى مِن عِظَم الشأن وعُلوّ الكبرياء وقوّة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظانّ الربوبيّة.

وقُرئ: "لِمَنْ خَلَفَكَ"[٦] فعلًا ماضيًا، أي: لمَن خَلَفك مِن الجبابرة. وقُرئ: "لِمَنْ خَلَقَكَ"[٧] بالقاف، أي: لتكون لخالقك آيةً كسائر الآيات، فإنّ إفراده سبحانه إيّاك بالإلقاء إلى الساحل دليلٌ على أنّه قَصْد منه لكَشْف تزويرك وإماطة الشبهةِ في أمرك، وبرهانٌ نيّر على كمال عِلمه وقدرته وحكمته وإرادته، وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة أيضًا، وفي تعليل تنجيته[٨] بما ذُكِر[٩] إيذان

---

١ النجوة: ما ارتفع مِن الأرض فلم يَعلُه السيل فظننته نجاءك. انظر: لسان العرب لابن منظور، «نجو».
٢ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٨.
٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود واليماني ويزيد بن البربري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٧٣.
٤ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حنيفة. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٧٣.
٥ يقال: ظاهَرَ الرجل بين ثوبين أو نعلين أو درعين إذا لبس أحدهما على الآخر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «ظهر».
٦ قراءة شاذّة، مَرويّة عن إسماعيل المكّي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣.
٧ قراءة شاذّة، مَرويّة عن عليّ. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٧٣.
٨ وفي هامش م: فرعون.
٩ وفي هامش م: مِن كونه آيةً. «منه».

بأنّها ليست لإعزازه أو لفائدة أخرى عائدةٍ إليه؛ بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رءوس الأشهاد، وزيادةِ تفظيع حاله كمَن يُقتل ثمّ يُجرُّ جسده في الأسواق أو يُدار برأسه في البلاد. و"اللام" الأولى متعلِّقة بـ﴿نُنَجِّيكَ﴾، والثانيةُ بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَايَةً﴾، أي: كائنةً لمَن خلفك.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[1] لا يتفكّرون فيها ولا يعتبرون بها، وهو اعتراض تذييلي جيء به عند الحكايةِ تقريرًا لفحوى الكلام المَحكي.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان النِّعم الفائضة عليهم إثرَ نعمة الإنجاء على وجه الإجمال وإخلالهم بشُكرها وأداءِ حقوقها، أي: أسكنّاهم وأنزلناهم بعدما أنجيناهم وأهلكنا أعداءَهم. ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: منزِلًا صالحًا مَرضيًا وهو الشام ومِصرُ، ملكوها بعد الفراعنة والعمالقة، وتمكّنوا في نواحيها حسبما نطقَ به قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف، ١٣٧/٧]، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: اللذائذ.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في أمور دينهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: إلّا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراةَ وعِلمِهم بأحكامها، أو في أمر محمّد عليه السلام إلّا مِن بعد ما علموا صدق نبوّته وتظاهُر معجزاته، فالمراد بالمختلفين: أعقابهم الذين كانوا في عصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

/ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميّز بين المحِقّ والمبطل بالإثابة والتعذيب. [١٠٧ظ]

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ أي: في شكّ ما يسير على الفَرْض والتقدير، فإنّ مضمون

---

[1] م: غافلون.

الشرطيّة إنّما هو تعليق شيء بشيء مِن غير تعرّض لإمكان شيء منهما، كيف لا، وقد يكون كلاهما ممتنعًا، كقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف، ٨١/٤٣]، وقولِه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر، ٦٥/٣٩]، ونظائرِهما. ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِن القصص التي مِن جملتها قصّةُ فرعونَ وقومه وأخبارُ بني إسرائيلَ.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنّ ذلك محقَّق عندهم ثابت في كتبهم حسبما ألقينا إليك. والمراد إظهار نبوّته عليه السلام بشهادة الأخبار حسبما هو المسطور في كتبهم، وإن لم يكن إليه حاجة أصلًا، أو وصفُ أهل الكتاب بالرسوخ في العِلم بصحّة نبوّته عليه السلام، أو تهييجُه عليه السلام وزيادةُ تثبيته على ما هو عليه مِن اليقين، لا تجويزُ صدور الشكّ منه عليه السلام، ولذلك قال عليه السلام: «لا أشُكُّ ولا أسألُ».[1]

وقيل: المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميمٍ الداري وكعبٍ وأضرابِهم.[2] وقيل: الخطاب للنبيّ عليه السلام والمراد أمّته، أو لكلّ مَن يسمَع، أي: إن كنتَ أيُّها السامع في شكّ ممّا أنزلنا إليك على لسان نبيّنا.[3] وفيه تنبيهٌ على أنّ مَن خالجته شبهة في الدِّين ينبغي أن يُسارِع إلى حلّها بالرجوع إلى أهل العلم.[4] وقُرئ: "فاسْألْ الذِينَ يَقْرَءون الكُتُبَ".[5]

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا محيدَ عنه ولا ريبَ في حقيّته ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وظهرَ ذلك بالآيات القاطعة التي لا يحوم حولها شائبةُ الارتياب. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن التشريف ما لا يخفى. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ بالتزلزل عمّا أنت عليه مِن الجزم واليقين، ودُمْ على ذلك كما كنتَ مِن قبلُ.

---

[1] تفسير عبد الرزّاق، ٢٩٨/١؛ جامع البيان للطبري، ٢٨٨/١٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٦/٢.

[2] مرويٌّ عن ابن عبّاس ومجاهد والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٨٧/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥٠/٤.

[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٧٦/٢.

[4] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٢.

[5] قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٩٥﴾

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِن باب التهييج والإلهاب، والمراد به إعلامُ أنّ التكذيب مِن القبح والمحذوريّة بحيث ينبغي أن يُنهى عنه مَن لا يُتصوَّر إمكان صدوره عنه، فكيف بمَن يمكن اتّصافُه به؟ وفيه قَطْع لأطماع الكفَرة. ﴿فَتَكُونَ﴾ بذلك ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أنفسًا وأعمالًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ شروع في بيان سِرّ إصرارِ الكفَرة على ما هم عليه مِن الكفر والضلال، أي: ثبتتْ ووجبتْ بمقتضى المشيئة المَبنيّة على الحكمة البالغة. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ حكمُه وقضاؤه بأنّهم يموتون على الكفر ويُخلَّدون في النار، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾... إلخ، [السجدة، ١٣/٣٢].

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أبدًا إذ لا كذِبَ لكلامه ولا انتقاضَ لقضائه، أي: لا يؤمنون إيمانًا نافعًا واقعًا في أوانه، فيندرجُ فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مِثلَ فرعونَ باقيًا عند الموت، فيدخل فيهم المرتدّون.

﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾

﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ واضحةِ المدلول مقبولةٍ لدى العقول، لأنّ سبب إيمانهم -وهو تعلُّق إرادته تعالى به- مفقودٌ، لكنّ فقدانَه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له؛ بل لسوء اختيارهم المتفرّع على عدم استعدادهم لذلك. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ كدأب آل فرعونَ وأضرابهم.

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ﴾ كلام مستأنَف لتقرير ما سبق مِن استحالة إيمان مَن حقَّت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكّنهم مِن التدارك، فيكون الاستثناء الآتي بيانًا لكون قوم يونسَ عليه السلام ممِن لم يحِقَّ عليه الكلمة لاهتدائهم

إلى التدارك في وقته. و"لولا" بمعنى "هلّا"، وقُرئ كذلك،[١] أي: "فَهَلَّا كَانَتْ" ﴿قَرْيَةٌ﴾ مِن القرى المُهلَكة ﴿ءَامَنَتْ﴾ قبل معاينة العذاب ولم تُؤخِّر إيمانَها إلى حين معاينتِه كما فعَل فرعونُ وقومه ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَا﴾ بأن يقبله الله تعالى منها ويكشِفَ بسببه العذاب عنها.

[١٠٨و] ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ / استثناء منقطِع، أي: لكنّ قوم يونسَ ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ أوّل ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخِّروا إلى حلوله ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد ما أظلَّهم وكاد يحِلّ بهم. ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي، كما يُفصح عنه حرفُ التحضيض فيكون الاستثناء متّصلًا، إذ المراد بـ"القرى" أهاليها، كأنّه قيل: ما آمنت طائفة مِن الأمم العاصية فنفعهم إيمانهم إلّا قومَ يونسَ، فيكون قوله تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ استئنافًا لبيان نفعِ إيمانهم، ويُؤيِّده قراءة الرفع على البدليّة.[٢]

﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بمتاع الدنيا بعد كَشْف العذاب عنهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ مقدَّر لهم في عِلم الله سبحانه.

رُوي أنّ يونسَ عليه السلام بُعث إلى نَينوى[٣] مِن أرض المَوصل، فكذّبوه فذهب عنهم مغاضِبًا، فلمّا فقَدوه خافوا نزولَ العذاب فلبِسوا المُسوح وعجّوا أربعين ليلةً.[٤] وقيل: قال لهم يونسُ عليه السلام: أجلُكم أربعون ليلةً فقالوا: إن رأينا أسبابَ الهلاك آمنّا بك، فلمّا مضَت خمسٌ وثلاثون أغامت السماء غيمًا أسودَ هائلًا يُدخِّن دُخانًا شديدًا ثمّ يهبِط حتّى يغشى مدينتَهم ويُسوِّد سطوحَهم، فلبِسوا المُسوحَ وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصِبيانهم ودوابّهم، وفرّقوا بين النساء والصبيان وبين الدوابّ وأولادها فحنّ بعضُها إلى بعض

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ وابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٧.

[٢] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الجَرمي والكسائي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣.

[٣] نِيْنَوَى: هي قرية يونس بن متّى عليه السلام بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها: نينوى منها كربلاء التي قُتل بها الحسن رضي الله عنه. انظر: معجم البلدان للحموي، ٥/٣٣٩.

[٤] مرويٌّ بلفظ قريب عن قتادة في جامع البيان للطبري، ١٢/٢٩٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٧.

وعلَت الأصوات والعجيجُ، وأظهروا الإيمانَ والتوبةَ وتضرّعوا إلى الله تعالى فرحِمهم وكشف عنهم، وكان ذلك يومَ عاشوراءَ يومَ الجمعة.[١]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: بلغ مِن توبتهم أن ترادّوا المظالمَ حتّى إنّ الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساسَ بنائه فيرُدّه إلى صاحبه.[٢] وقيل: خرجوا إلى شيخ مِن بقيّة علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذابُ فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حيُّ حين لا حيَّ، ويا حيُّ محييَ الموتى، ويا حيُّ لا إله إلّا أنت، فقالوها فكشُف عنهم. وعن الفضيل بن عياض[٣] قالوا: إنّ ذنوبنا قد عظُمت وجلّت وأنت أعظمُ منها وأجلُّ، افعل بنا ما أنت أهلُه، ولا تفعل بنا ما نحن أهلُه.[٤]

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تحقيق لدوران إيمانِ كافّة المكلَّفين وجودًا وعدمًا على قُطب مشيئته تعالى مطلقًا إثرَ بيان تبعيّةِ كُفر الكفَرة لكلمته. ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه مِن وقوعها شرطًا، وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء، وألّا يكونَ في تعلّقها به غرابة كما هو المشهور،[٥] أي: لو شاء سبحانه إيمانَ مَن في الأرض مِن الثقلين لآمَن ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لا يشِذّ عنهم أحد

---

١ مرويٌّ بلفظ قريب عن ابن مسعود وسعيد بن جُبير ووهب. انظر: **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥١/٤-١٥٢؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢٧٧/٢.

٢ لم أجده في مظانّه وهو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧٧/٢.

٣ هو الفُضيل بن عِياض بن مسعود بن بشر التميمي، أبو عليّ (ت. ١٨٧هـ/٨٠٣م). الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام الزاهد المشهور. وُلد بخراسان بكورة أبيوَرد، وقدم الكوفة وهو كبير فسمع الحديث مِن منصور بن المعتمر وغيره، ثم تعبّد وانتقل إلى مكّة فنزلها ومات بها في خلافة هارون الرشيد. وكان ثقة فاضلًا عابدًا ورعًا كثيرَ الحديث. روى عن عبد العزيز بن أبي روّاد، وعبّاد بن منصور، وحدّث عنه سفيان بن عُيينة وأبوه وموسى بن أعين وأخذ عنه خلق منهم الشافعي. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خَلّكان، ٤٧/٤؛ و**سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٢١/٨-٤٤٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ١٥٣/٥.

٤ القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧٧/٢.

٥ مضى تفصيل الكلام على هذا الحذف في تفسير يونس، ١٦/١٠.

﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعِين على الإيمان لا يختلفون فيه، لكنّه لا يشاؤه لكونه مخالِفًا للحِكمة التي عليها بُنِيَ أساسُ التكوين والتشريع. وفيه دلالةٌ على أنّ مَن شاء الله تعالى إيمانَه يؤمِن لا محالةَ.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ على ما لم يشأ الله منهم، حسبما يُنبئ عنه حرف الامتناع في الشرطيّة. و"الفاء" للعطف على مقدَّر ينسحِب عليه الكلام، كأنّه قيل: أربُك لا يشاء ذلك فأنت تُكرِههم؟ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيكون الإنكار متوجِهًا إلى ترتيب الإكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى.

ويجوز أن يكون "الفاء" لترتيب الإنكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أنّ الهمزة متأخِّرة في الاعتبار وإنّما قُدِّمت لاقتضائها الصدارةَ كما هو رأي الجمهور.[١] وأيًا ما كان فالمشيئةُ على إطلاقها؛ إذ لا فائدةَ، بل لا وجهَ لاعتبار عدمِ مشيئة الإلجاءِ خاصّة في إنكار الترتيب عليه أو ترتيبِ الإنكار عليه.

وفي إيلاء الاسم حرفَ الاستفهام إيذان بأنّ الإكراه أمر ممكن لكنّ الشأن في المُكرِه مَن هو؟ وما هو إلّا هو وحدَه لا يُشارَك فيه، لأنّه القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرُّهم إلى الإيمان، وذلك غير مستطاعٍ للبشر.[٢] وفيه إيذان باعتبار الإلجاء في المشيئة كما أشيرَ إليه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ بيان لتبعيّة إيمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجودًا بعد بيان الدوران الكلّي عليها وجودًا وعدمًا، أي: ما صحّ وما استقام لنفس مِن النفوس التي علِم الله تعالى أنّها تؤمن ﴿أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتسهيله ومنحه للألطاف. وإنّما خُصّت النفس بمَن ذُكر ولم يُجعل مِن قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران، ١٤٥/٣] لأنّ الاستثناء مفرَّغ / مِن أعمّ [١٠٨ظ] الأحوال، أي: ما كان لنفس أن تؤمن في حال مِن أحوالها إلّا حالَ كونها ملابسةً

---

[١] مضى هذا الكلام على تقديم الهمزة في تفسير يونس، ٣٥/١٠.

[٢] الكلام بلفظ قريب في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٧٠/٦؛ واللباب لابن عادل، ٤١٦/١٠.

بإذنه تعالى، فلا بدّ مِن كون الإيمان ممّا يئول إليه حالها، كما أنّ الموت حال لكلّ نفس بحيث لا مَحيصَ لها عنه، فلا بدّ مِن تخصيص النفسِ بمَن ذُكر، فإنّ النفوس التي علم الله أنّها لا تؤمن ليس لها حال تؤمِن فيها حتّى يُستثنى تلك الحال عن غيرها.

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: الكفر، بقرينة ما قبله، عُبِّر عنه بالرجس الذي هو: عبارة عن القبيح المستقذَر المستكرَه لكونه عَلَمًا في القبح والاستكراه. وقيل: هو العذاب أو الخِذلان المؤدّي إليه.[1] وقُرئ بنون العظمة،[2] وقُرئ بالزاء،[3] أي: يَجعل الكفرَ ويُبقيه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحُجَج والآيات، أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لِما على قلوبهم مِن الطبع، فلا يحصُل لهم الهداية التي عُبِّر عنها بالإذن، فيبقَون مغمورين بقبائح الكفر والضلال، أو مقهورين بالعذاب والنَّكال. والجملة معطوفة على مقدَّر ينسحِب عليه النظم الكريم، كأنّه قيل: فيأذن لهم بمَنْح الألطاف ويجعل... إلخ.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿قُلِ﴾ مخاطِبًا لأهل مكّةَ بعثًا لهم على التدبّر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما مِن تعاجيب الآيات الأنفسيّة والآفاقيّة، ليتّضحَ لك أنّهم مِن الذين لا يعقِلون وحقّت عليهم الكلمة: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ أي: تفكّروا. وقُرئ بنقل حركةِ الهمزةِ إلى لام «قُلِ».[4]

﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أيُّ شيء بديعٍ فيهما مِن عجائب صُنعه الدالّة على وحدته وكمال قدرتِه؟ على أنّ «مَاذَا» جُعل بالتركيب اسمًا واحدًا مغلّبًا فيه الاستفهام على اسم الإشارة، فهو مبتدأ خبرُه الظرف. ويجوز أن يكون "ما" مبتدأ، و"ذا" بمعنى "الذي"، والظرفُ صلته، والجملةُ خبر للمبتدأ.

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٧.

٢ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٧.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٥.

وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبرُ في محلّ النصب بإسقاط الخافض، وفعلُ النظر معلّق بالاستفهام.[١]

﴿وَمَا تُغْنِي﴾ أي: ما تنفع، وقُرئ بالتذكير.[٢] ﴿ٱلْءَايَٰتُ﴾ وهي التي عُبّر عنها بقوله تعالى: ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ جمع "نذير" على أنّه فاعل بمعنى منذِر، أو على أنّه مصدر، أي: لا تنفع الآيات والرسل المنذِرون أو الإنذارات ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في عِلم الله سبحانه وحُكمه. فـ﴿مَا﴾ نافية، والجملة إمّا حاليّة أو اعتراضيّة. ويجوز كون ﴿مَا﴾ استفهاميّةً إنكاريّةً في موضع النصب على المصدريّة، أي: أيّ إغناء تُغني... إلخ، فالجملة حينئذ اعتراضيّة.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ أي: مشركو مكّةَ وأضرابهم ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ أي: إلّا يومًا مثل أيّام الذين خلَوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن مشركي الأُممِ الماضية، أي: مثلَ وقائعهم ونزول بأس الله بهم، إذ لا يستحقُّون غيره، مِن قولهم: "أيّامُ العَرب" لوقائعها.

﴿قُلْ﴾ تهديدًا لهم: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ ما هو عاقبتُكم ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ بالتشديد، وقُرئ بالتخفيف،[٣] وهو عطفٌ على مقدَّر يدلّ عليه قوله: ﴿مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾، وما بينهما اعتراض جيء به مُسارَعة إلى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد، كأنّه قيل: أهلكنا الأمم ثمّ نجّينا رسلنا المُرسَلة إليهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وصيغة الاستقبال لحكاية الأحوال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صُوَرها. وتأخيرُ حكاية التنجية عن حكاية الإهلاك على عكس ما في قوله تعالى:

---

١ الكلام على الوجهين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٧١/٦؛ واللباب لابن عادل، ٤١٨/١٠.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الأعمش والأسود وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠؛ المغني في القراءات للنُوزاوازي، ص ٩٧٤.

٣ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٨٧/٢.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾... إلخ [يونس، ١٠/٧٣]، ونظائرِه الواردة في مواقعَ عديدة ليتّصل به قوله عزّ وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإنجاء ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ اعتراض بين العامل والمعمول، أي: حَقَّ ذلك حَقًّا. وقيل: بدل مِن المحذوف الذي ناب عنه كذلك، أي: إنجاءً مثلَ ذلك حقًّا.[1]

والكاف متعلِّقة بقوله تعالى: / ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مِن كلّ شدّة وعذاب. [١٠٩و] والجملة تذييل لِما قبلها مقرِّر لمضمونه. والمراد بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إمّا الجنسُ المتناوِل للرسل عليهم السلام والأتباع، وإمّا الأتباعُ فقط. وإنّما لم يُذكَر إنجاء الرسل إيذانًا بعدم الحاجة إليه. وأيًّا ما كان ففيه تنبيهٌ على أنّ مدار النجاة هو الإيمان.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لجمهور المشركين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أوثر الخطاب باسم الجنس مُصدَّرًا بحرف التنبيه تعميمًا للتبليغ وإظهارًا لكمال العناية بشأن ما بُلِّغ إليهم. ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الذي أتعبّد الله عزّ وجلّ به وأدعوكم إليه، ولم تعلموا ما هو وما صفتُه. ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في وقت مِن الأوقات.

﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ ثمّ يَفعل بكم ما يفعل مِن فنون العذاب، أي: فاعلموا أنّه تخصيصُ العبادة به تعالى ورفضُ عبادة ما سواه مِن الأصنام وغيرها ممّا تعبدونه جهلًا. وتقديمُ ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدُّم التخلية على التحلية كما في كلمة التوحيد، وللإيذان بالمخالفة مِن أوّل الأمر، أو إن كنتُم في شكّ مِن صحّة ديني وسَدادِه فاعلموا أنّ خلاصته إخلاصُ العبادة لمَن بيده الإيجاد والإعدام دون ما هو بمَعزِل منهما مِن الأصنام فاعرِضوها على عقولكم، وأجيلوا فيها أفكارَكم، وانظُروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا أنّه حقٌّ لا ريبَ فيه. وفي تخصيص التوفّي بالذِّكر متعلِّقًا بهم ما لا يخفى مِن التهديد.

---

[1] هذا الوجه في التبيان للعكبري، ٢/٦٨٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٧.

والتعبير عمّا هم فيه بالشكّ مع كونهم قاطعين بعدم الصحّةِ للإيذان بأنّ أقصى ما يمكن عُروضه للعاقل في هذا الباب هو الشكّ في صحّته، وأمّا القطع بعدمها فممّا لا سبيلَ إليه، وإن كنتُم في شكّ مِن ثباتي على الدِّين فاعلموا أنّي لا أتركه أبدًا.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما دلّ عليه العقل ونطق به الوحيُ، وهو تصريح بأنّ ما عليه مِن دين التوحيدِ ليس بطريق العقل الصِّرف؛ بل بالإمداد السماوي والتوفيق الإلهي. وحذفُ حرفِ الجرّ مِن ﴿أَنْ﴾ يجوز أن يكون مِن باب الحذف المطَّرد مع "أنْ" و"أنّ"، وأن يكون خاصًّا بفعل الأمر، كما في قوله:

أَمـرتُـكَ الـخيـرَ فـافعـلْ مـا أُمِــرْتَ بـهِ[1]

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطفٌ على ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ خلا أنّ صلة ﴿أَنْ﴾ محكيّة بصيغة الأمر، ولا ضيرَ في ذلك، لأنّ مناط جواز وصلِها بصيغ الأفعال دلالتُها على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبريّة والطلبيّة، ووجوبُ كون الصلة خبريةً في الموصول الاسمي إنّما هو للتوصُّل إلى وَصْف المعارف بالجمل، وهي لا تُوصَف إلّا بالجمل الخبريّة، وليس الموصول الحرفيُّ كذلك،[2] أي: وأُمرتُ بالاستقامة في الدِّين والاستبدادِ فيه بأداء المأمور به والانتهاءِ عن المنهي عنه، أو باستقبال القِبلة في الصلاة وعدمِ الالتفات إلى اليمين والشمال.

﴿حَنِيفًا﴾ حال مِن "الدِّين" أو "الوجه"، أي: مائلًا عن الأديان الباطلة. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عطفٌ على ﴿أَقِمْ﴾ داخلٌ تحت الأمر، أي: لا تكُونَنَّ منهم اعتقادًا ولا عملًا.

---

[1] صدر بيت لعمرو بن مَعديكَرِب الزُّبيدي، عجزه:

فقد تركتُك ذا مـالٍ وذا نشَـبِ

في ديوانه، ص ٦٣. وهو له في كتاب سيبويه، ٣٧/١. ويُنسَب لغير عمرو. انظر لتفصيل ذلك: شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي، ٢٤٩/١-٢٥١؛ وفرحة الأديب للغُندجاني، ص ٦١-٦٢؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٣٤٢/١-٣٤٤.

[2] نقل الزمخشري في الكشّاف، ٢٧٩/٢، جواز ما ذُكر عن سيبويه، وهو كذلك في كتاب سيبويه، ١٦٢/٣.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾

وقوله عزّ وعلا: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[1] غيرُ داخل تحت الأمر. وقيل: على ما قبله مِن النهي.[2] والوجهُ هو الأوّل؛ لأنّ ما بعده مِن الجُمل إلى آخر الآيتين متّسقةٌ لا يمكن فَصْل بعضِها عن بعض كما ترى، ولا وجهَ لإدراج الكلّ تحت الأمر، وهو تأكيد للنهي المذكور وتفصيل لِما أُجمِل فيه إظهارًا لكمال العناية بالأمر وكشفًا عن وجه بُطلان ما عليه المشركون، أي: لا تدْعُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استقلالًا ولا اشتراكًا ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إذا دعوتَه بدَفْع مكروه أو جَلْب محبوب، ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إذا تركتَه بسلب المحبوب دفعًا أو رفعًا أو بإيقاع المكروه. وتقديم النفعِ على الضرر غنيٌّ عن بيان السبب.

/ ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي: ما نُهيتَ عنه مِن دعاءِ ما لا ينفع ولا يضرّ، كنّى به عنه تنويهًا لشأنه عليه السلام وتنبيهًا على رفعة مكانه مِن أن يُنسَب إليه عبادة غيرِ الله سبحانه ولو في ضمن الجملة الشرطيّة. ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مَن يسأل عن تَبِعة ما نُهي عنه. [١٠٩ظ]

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ تقرير لِما أُورد في حيّز الصلة مِن سَلْب النفع مِن الأصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ عنك كائنًا مَن كان وما كان. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه، فيثبُتِ عدم كَشْف الأصنام بالطريق البرهاني وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزِم لعدم النفع بجَلْب المحبوبِ استلزامًا ظاهرًا، فإنّ رَفْع المكروه أدنى مراتب النفع، فإذا انتفى انتفى النفعُ بالكلّيّة.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ تحقيق لسلب الضرر الوارد في حيّز الصلة، أي: إن يُرِد أن يُصيبَك بخير ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ الذي مِن جملته ما أرادك به مِن الخير،

---

[1] يونس، ١٠/١٠٤.

[2] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/١٢٧٥، واللباب لابن عادل، ١٠/٤٢٣.

فهو دليل على جواب الشرط لا نفسُ الجواب. وفيه إيذان بأنّ فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضّل مِن غير استحقاق عليه سبحانه، أي: لا أحدَ يقدِر على ردّه كائنًا ما كان، فيدخل فيه الأصنام دخولًا أوّليًا، وهو بيان لعدم ضُرّها بدَفْع المحبوب قبلَ وقوعه المستلزِم لعدم ضُرِّها برفعه أو بإيقاع المكروهِ استلزامًا جليًّا.

ولعلّ ذِكرَ الإرادة مع الخير والمسّ مع الضُّرّ مع تلازُم الأمرين للإيذان بأنّ الخير مراد بالذات، وأنّ الضُّرَّ إنّما يَمسُّ مَن يَمَسّه لِما يوجبه مِن الدواعي الخارجيّة لا بالقصد الأوّلي، أو أريدَ معنى الفعلين في كلٍّ مِن الضرّ والخير، وأنّه لا دافعَ[1] لِما يُريد منهما، ولا رافعَ[2] لِما يُصيب به منهما، فأُوجِز الكلام بأن ذُكر في أحدهما المسَّ وفي الآخر الإرادة، ليدلّ بما ذُكر في كلّ جانبٍ على ما تُرك في الجانب الآخر.

على أنّه قد صُرِّح بالإصابة حيث قيل: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ إظهارًا لكمال العناية بجانب الخير، كما يُنبئ عنه ترك الاستثناء فيه، أي: يُصيب بفضله الواسع المُنتظِم لِما أرادك به مِن الخير. وجعلُ الفضل عبارةً عن ذلك الخير بعينه، على أن يكون مِن باب وضع المُظهَرِ في موضع المُضمَر لِما ذُكر مِن الفائدة،[3] يأباه قوله عزّ وجلّ: ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، فإنّ ذلك ينادي بعموم الفضل.

وقوله عزّ قائلًا: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييل لقوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾... إلخ، مقرِّرٌ / لمضمونه، والكلُّ تذييل للشرطيّة الأخيرةِ محقِّق لمضمونها. [١١٠و]

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾

﴿قُلۡ﴾ مخاطِبًا لأولئك الكفَرة بعد ما بلّغتهم ما أوحيَ إليك. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ وهو القرآن العظيم المشتمِل على محاسِن الأحكام

[1] م س: رادّ [صُحّح في هامش م].
[2] م س: مُزيلَ [صُحّح في هامش م].
[3] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٩/٢، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٨/٢.

التي مِن جملتها ما مرّ آنفًا مِن أصول الدِّين، واطلعتُم على ما في تضاعيفه مِن البيِّنات والهدى ولم يبقَ لكم عُذرٌ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان به والعمل بما في مطاويه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: منفعة اهتدائه لها خاصّة. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به والإعراض عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فوَبالُ الضلال مقصور عليها، والمراد تنزيه ساحة الرسالةِ عن شائبة غرَض عائد إليه عليه السلام مِن جَلْب نفع أو دَفْع ضُرّ، كما يلوّح به إسناد المجيء إلى الحقّ مِن غير إشعار بكون ذلك بواسطته.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكولٍ إليّ أمرُكم، وإنّما أنا بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝١٠٩﴾

﴿وَٱتَّبِعْ﴾ اعتقادًا وعملًا وتبليغًا ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ على نهج التجدّد والاستمرار مِن الحقّ المذكور المتأكِّد يومًا فيومًا. وفي التعبير عن بلوغه إليهم بالمجيء وإليه عليه السلام بالوحي تنبيهٌ على ما بين المَرتبتَين مِن التنائي.[1] ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على ما يعتريك مِن مشاقّ التبليغ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بالنُصرة عليهم أو بالأمر بالقتال. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطّلاعه على السرائر اطّلاعَه على الظواهر.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ يونسَ أُعطيَ له مِن الأجر عشرُ حسنات بعَدد مَن صَدَّق بيونسَ وكذّب به، وبعَدد مَن غرِق بفرعونَ».[2]

الحمدُ لله سبحانه على التمام، والصلاة على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

---

[1] س: التآني.

[2] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٥٦/١٤ (يونس، ١/١٠)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٣٧/٢ (يونس، ١/١٠)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٠/٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ١٤٢/٢.

[١١٠ظ]

/ سورة هود

وهي[١] مائة وثلاث وعشرون آيةً، كلُّها مكّيّة إلّا قوله تعالى:
﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾... إلخ [هود، ١١/١١٤].[٢]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾

﴿الٓر﴾ محلُّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف. وقيل: على أنّه مبتدأ.[٣] والأوّل هو الأظهر، كما أُشير إليه في سورة يونسَ عليه السلام.[٤] أو النصبُ بتقدير فِعل يناسب المقام نحو "اذكُر" أو "اقرأ"،[٥] على تقدير كونه اسمًا للسورة على ما عليه إطباقُ الأكثر، أو لا محلَّ له مِن الإعراب مسرودٌ على نمط التعديد حسبما فُصِّل في أخوَاته.[٦]

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرٌ له على الوجه الثاني، ولِمبتدأ محذوف على الوجوه الباقية.

﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نُظمت نظمًا مُتقنًا لا يعتريه خلل بوجه مِن الوجوه، أو جُعلت حكيمةً لانطوائها على جلائل الحِكَم البالغة ودقائِقها، أو مُنعت مِن النسخ بمعنى: التغيير مطلقًا، أو أُيِّدت بالحُجج القاطعة الدالّة على كونها مِن عند الله عزّ وجلّ، أو على ثبوت مدلولاتها، فالمراد بـ"الآيات": جميعُها، أو على حقّيّة ما تشتمل عليه مِن الأحكام الشرعيّة، فالمراد بها:

---

١ س: مكّيّة، وهي.
٢ س - كلُّها مكّيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾... إلخ.
٣ انظر: التبيان للعكبري، ٢/٦٨٨؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٤٢٧.
٤ في الكلام على الآية الأولى منها.
٥ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ١/٣٥ (البقرة، ٢/١).
٦ انظر تفصيله في الكشّاف للزمخشري، ١/٣٣-٣٥ (البقرة، ٢/١).

بعضُها المشتمِل عليها، كما إذا فُسِّر الإحكامُ بالمنع مِن النسخ بمعنى تبديل الحُكمِ الشرعي خاصّةً.

وأمّا تفسيرُه بالمنع مِن الفساد أخذًا مِن قولهم: "أحكمتُ الدابّة" إذا وضعتَ عليها الحَكَمة[1] لتمنعَها مِن الجِماح،[2] ففيه إيهامُ ما لا يكاد يليق بشأن الآيات الكريمة مِن التداعي إلى الفساد لولا المانع. وفي إسناد "الإحكام" على الوجوه المذكورة إلى آيات الكتاب دون نفسِه لا سيّما على الوجوه الشاملة لكلّ آيةٍ آيةٍ منه مِن حُسن الموقع والدلالة على كونه في أقصى غايةٍ منه ما لا يخفى.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي جُعلت فُصولًا مِن الأحكام والدلائل والمواعظ والقِصص، أو فُصِّل فيها مهمّات العباد / في المَعاش والمَعادِ على الإسناد المجازي. [١١١و] والتفسير بجعلها آيةً آيةً[3] لا يساعده المقام؛ لأنّ ذلك مِن الأوصاف الأوّليّة لها، فلا يناسب عطفُه على إحكامها بكلمة التراخي.

وأمّا المعنيان الأوّلان فهما وإن كانا مع الإحكام زمانًا -حيث لم تزَل الآيات مُحكَمةً مفصَّلة لا أنّها أُحكِمَت أو فُصِّلَت بعد أن لم تكن كذلك، إذ الفعلان مِن قَبيل قولهم: سُبحان مَن صغَّر البعوض وكبَّر الفيل- إلّا أنّهما حيث كانا مِن صفات الآيات باعتبار نسبة بعضِها إلى بعضٍ على وجه يستتبعُ أحكامًا مخصوصة وآثارًا مُعتدًّا بها وبملاحظة مصالح العبادِ ناسَب أن يشار إلى تراخي رتبتِهما عن رتبة الإحكام.

وإن حُمل جَعْلها آيةً آيةً على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون مِن هذا القبيل إلّا أنّه ليس في مثابته في استتباع ما يستتبعه مِن الأحكام والآثار، أو فُرِّقت في التنزيل منجَّمة بحسب المصالح، فإن أريدَ تنزيلها المنجَّم بالفعل فالتراخي زمانيٌّ، وإن أريدَ جَعْلها في نفسها بحيث يكون نزولُها منجَّمًا

---

[1] الحَكَمة: حديدة في اللجام تكون على أنف الفَرس وحنَكه تمنعه عن مخالفة راكبه. لسان العرب لابن منظور، «حكم».

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٨١.

[3] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٨١.

حسبما يقتضيه الحِكمة والمصلحة فهو رُتبيٌّ، لأنّ ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يُرتَّب على وصف إحكامها.

وقُرئ: "أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ"[١] على صيغة التكلّم، وعن عكرمة والضحّاك "ثُمَّ فَصَلَتْ"،[٢] أي: فَرَقتْ بين الحقّ والباطل.

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة لـ"الكتاب" وُصف بها بعد ما وُصف بإحكام آياتِه وتفصيلِها الدالَّين على عُلوّ رتبته مِن حيث الذاتُ / إبانةً لجلالة شأنه مِن حيث الإضافةُ، أو خبرٌ بعد خبر للمبتدأ المذكور أو المحذوف، أو صلةٌ للفعلين. وفي بنائهما للمفعول ثمّ إيرادِ الفاعل بعنوان الحِكمة البالغة والإحاطة بجلائلها ودقائقها منكَّرًا بالتنكير التفخيمي وربطِهما به لا على النهج المعهود في إسناد الأفاعيل إلى فواعلها مع رعاية حُسنِ الطباقِ، مِن الجزالة[٣] والدلالة على فخامتهما وكونِهما على أكمل ما يكون ما لا يُكتنه كُنهُه. [١١١ظ]

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٖ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مفعول له حُذف عنه اللامُ مع فقدان الشرطِ، أعني: كونَه فعلًا لفاعل الفعل المُعلَّل جريًا على سَنن القياس المطَّرد في حذف حرف الجرّ مع "أنْ" المصدريّة، كأنّه قيل: كتابٌ أُحكمَت آياتُه ثمّ فُصّلت لئلّا تعبدوا إلّا اللهَ، أي: لِتتركوا عبادة غير الله عزّ وجلّ وتتمحَّضوا في عبادته، فإنّ الإحكام والتفصيل على ما فُصِّل مِن المعاني ممّا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزّعفراني وعُبيد بن عُمير واليماني. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٩٧٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والضحّاك والجَحدري وزيد بن عليّ وأبو البرَهسَم. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٦٣؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٣١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٩٧٧.

٣ السياق: وفي بنائهما... مِن الجزالة...

وما يتفرّع عليه مِن الطاعات قاطبة. وقيل: "أنْ" مُفسِّرةٌ لِما في التفصيل مِن معنى القول، أي قيل: لا تعبدوا إلّا الله.[١]

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ﴾ مِن جهة الله تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ أُنذركم عذابه إن لم تتركوا ما أنتم عليه مِن الكُفر وعبادة غير الله تعالى ﴿وَبَشِيرٌ﴾ أُبشِّركم بثوابه إن آمنتُم به وتمحَّضتُم في عبادته.

ولمّا ذُكر شئون الكتاب مِن إحكام آياته وتفصيلها وكونِ ذلك مِن قِبَل الله تعالى، وأوردَ مُعظم ما نُظم في سِلك الغاية أو الأمرِ مِن التوحيد وتركِ الإشراك، وُسِّط[٢] بينه وبين قرينيه -أعني: الاستغفارَ والتوبة- ذِكرُ أنّ مَن نُزِّل عليه ذلك [١١٢و] / الكتاب مُرسَل مِن عند الله تعالى لتبليغ أحكامه وترشيحها بالمؤيِّدات مِن الوعد والوعيدِ، للإيذان بأنّ التوحيد في أقصى مراتب الأهميّة حتّى أُفرد بالذِّكر وأُيِّد إيجابه بالخطاب غِبَّ الكتاب، مع تلويحٍ بأنّه كما لا يتحقّق في نفسه إلّا مقارِنًا للحكم برسالته صلّى الله عليه وسلّم، كذلك في الذِّكر لا ينفكّ أحدهما عن الآخر. وقد رُوعيَ في سَوق الخطاب بتقديم الإنذار على التبشير ما رُوعيَ في الكتاب مِن تقديم النفي على الإثبات والتخلية على التحلية، ليَتجاوبَ أطرافُ الكلام.

ويجوز أن يكون قولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ كلامًا منقطِعًا عمّا قبله واردًا على لسانه عليه السلام إغراءً لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة، كأنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: تَرْكَ عبادةِ غير الله، أي: الزموه على معنى: اتركوا عبادةَ غير الله تركًا مستمِرًّا إنّني لكم مِن جهة الله نذيرٌ وبشير،[٣] أو: نذيرٌ أُنذِركم مِن عقابه على تقدير استمراركم على الكفر، وبشيرٌ أُبشِّركم بثوابه على تقدير تركِكم له وتوحيدكم.

ولمّا سِيق إليهم حديثُ التوحيدِ وأُكِّد ذلك بخطاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم على وجه الإنذار والتبشير شُرع في ذِكر ما هو مِن تتمّاته على وجه يتضمّن تفصيل ما أُجمِل في وصف البشير والنذير، فقيل: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ وهو معطوف على ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ على ما ذُكر مِن الوجهين: فعلى الأوّل

---

١ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٢٨١/٢.
٢ السياق: ولمّا ذُكر... وُسِّط...
٣ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٢٨١/٢-٢٨٢.

"أنْ" مصدريّة لجواز كون صلتها أمرًا أو نهيًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، لأنّ مدار جواز كونها فعلًا إنّما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما، ووجوبُ كونها خبريّة في صلة الموصول الاسمي إنّما هو للتوصّل إلى وصف المعارف / بالجمل، وهي لا تُوصَف بها إلّا إذا كانت خبريّة، وأمّا الموصول الحرفيُّ فليس كذلك.[١] ولمّا كان الخبرُ والإنشاءُ في الدلالة على المصدر سواءً ساغ وقوعُ الأمر والنهي صلةً حسب مَساغ وقوع الفعل، فيتجرّد عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحو تجرُّد الصلة الفعليّة عن معنى المُضيّ والاستقبال. [١١٢ظ]

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ والكلامُ فيه كالكلام فيه، والمعنى: فُعِل ما فُعِل مِن الإحكام والتفصيل لتخصُّوا الله تعالى بالعبادة وتطلُبوا منه سَتر ما فرط منكم مِن الشِّرك ثمّ ترجِعوا إليه بالطاعة، أو تستمرُّوا على ما أنتُم عليه مِن التوحيد والاستغفار، أو تستغفروا مِن الشرك وتتوبوا مِن المعاصي، وعلى الثاني "أنْ" مُفسِّرة، أي: قيل في أثناء تفصيل الآيات: لا تعبدوا إلّا الله واستغفِروه ثمّ توبوا إليه.

والتعرّض لوصف الربوبيّة تلقين للمخاطَبين وإرشادٌ لهم إلى طريق الابتهال في السؤال وترشيحٌ لِما يعقُبه مِن التمتيع وإيتاءِ الفضلِ بقوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ أي: تمتيعًا، وانتصابُه على أنّه مصدر حُذف عنه الزوائد، كقوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح، ٧١/١٧]، أو على أنّه مفعول به، وهو اسم لِما يُتمتَّع به مِن منافع الدنيا مِن الأموال والبنين وغير ذلك، والمعنى: يُعشْكُم عَيشًا مَرضيًّا لا يفوتكم فيه شيء ممّا تشتهون ولا يُنغِّصُه شيء مِن المُكدِّرات. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُقدَّر عند الله عزّ وجلّ، وهو آخرُ أعماركم، ولمّا كان ذلك غايةً لا يَطمح وراءها طامح جرى التمتيع إليها مَجرى التأبيد عادةً؛ أو لا يُهلككم بهلاك الاستئصال.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ في الطاعة والعملِ ﴿فَضْلَهُۥ﴾ جزاءَ فضله إمّا في الدنيا أو في الآخرة. وهذه تكملة لِما أُجمِل مِن التمتيع / إلى أجل مسمّى، [١١٣و]

---

[١] مضى هذا الكلام للمُصنِّف في سورة يونس، ١٠/١٠٥، وانظر تخريج هذه المسألة ثمّة.

وتبيينٌ لِما عسى يعسُر فهمُ حِكمتِه مِن بعض ما يتّفق في الدنيا مِن تفاوت الحال بين العامِلِين، فرُبّ إنسانٍ له فضلُ طاعة وعمل لا يُمتَّع في الدنيا أكثرَ ممّا مُتِّع آخرُ دونه في الفضل، ورُبّما يكون المفضول أكثرَ تمتيعًا، فقيل: ويُعطِ كلَّ فاضل جزاءَ فضلِه إمّا في الدنيا كما يتّفق في بعض الموادّ، وإمّا في الآخرة، وذلك ممّا لا مردَّ له.[1] وهذا ضربُ تفصيلٍ لما أُجمل فيما سبق مِن البِشارة.

ثمّ شُرع في الإنذار فقيل: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: تتولّوا عمّا أُلقي إليكم مِن التوحيد والاستغفار والتوبة، وإنّما أُخِّر عن البِشارة جريًا على سَنن تقدُّم الرحمة على الغضب، أو لأنّ العذاب قد عُلِّق بالتولّي عمّا ذُكر مِن التوحيد والاستغفار والتوبة، وذلك يستدعي سابقة ذِكره. وقُرئ: "تُوَلُّوا"[2] مِن ولّى.

﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بموجَب الشفقة والرأفة، أو أتوقّع ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ هو يوم القيامة، وُصف بالكِبَر كما وُصف بالعِظَم في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [المطففين، ٨٣/٤-٥]، إمّا لكونه كذلك في نفسه، أو وُصف بوَصْف ما يكون فيه كما وُصف بالثِّقل في قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧]. وقيل: يوم الشدائد، وقد ابتلُوا بقَحطٍ أكلوا فيه الجِيَف.[3] وأيًّا ما كان ففي إضافة العذاب إليه تهويل وتفظيع له.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ رجوعُكم بالموت ثمّ البعث للجزاء في مثل ذلك اليوم لا إلى غيره، جميعًا لا يتخلّف منكم أحد.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فيندرج في تلك الكلِّيّة قدرتُه على إماتتكم ثمّ بعثِكم وجزائِكم فيعذِّبكم بأفانين العذاب. / [١١٣ظ] وهو تقرير لِما سلف مِن كِبر اليوم، وتعليلٌ للخوف. ولمّا أُلقيَ إليهم فحوى الكتاب على لسان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر واليماني والأعرج وسهل بن شُعيب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٧٨.

[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٢.

وسِيق إليهم ما ينبغي أن يُساق مِن الترغيب والترهيب وقَع في ذهن السامع أنّهم بعد ما سمِعوا مثلَ هذا المقال الذي تخِرُّ له صُمُّ الجبال، هل قابلوه بالإقبال أم تمادَوا فيما كانُوا عليه مِن الإعراض والضلال؟ فقيل: مصدَّرًا بكلمة التنبيه إشعارًا بأنّ ما يَعقُبها مِن هَناتهم أمر يجب أن يُفهم ويُتعجَّب منه.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ يزْوَرُّون[1] عن الحقّ وينحرفون عنه، أي: يستمرُّون على ما كانوا عليه مِن التولّي والإعراض، لأنّ مَن أعرض عن شيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كَشْحه،[2] وهذا معنىً جَزْل مناسب لِما سبق، وقد نحا نحوَه العلّامة الزمخشري،[3] ولكن حيث لم يصلُح التولّي سببًا للاستخفاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾ التجأ إلى إضمار الإرادة حيث قال: ويريدون لِيستخفوا مِن الله تعالى فلا يُطلِعَ رسولَه والمؤمنين على إعراضهم، وجَعْلُه في قَود المعنى إليه مِن قبيل الإضمار في قوله تعالى: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦٣]، أي: فضرَب فانفلق.[4]

ولا يخفى أنّ انسياق الذهن إلى توسيط الإرادةِ بين ثَنْيِ الصدر وبين الاستخفاء ليس كانسياقه إلى توسيط الضرب بين الأمرِ به وبين الانفلاق،[5] ولعلّ الأظهرَ أنّ معناه: يعطِفون صدورَهم على ما فيها مِن الكفر والإعراض عن الحقّ وعداوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بحيث يكون ذلك مَخفيًّا مستورًا فيها، كما يُعطَف الثياب على ما فيها مِن الأشياء المستورة.

وإنّما لم يُذكَر ذلك استهجانًا بذِكره / أو إيماءً إلى أنّ ظهورَه مُغنٍ عن ذِكره، أو لِيَذهبَ ذِهن السامع إلى كلّ ما لا خيرَ فيه مِن الأمور المذكورة [١١٤و]

---

[1] ازورَّ عن الشيء: عدَل عنه وانحرفَ. لسان العرب لابن منظور، «زور».

[2] طوى فلان كشحه عنّي، أي: أعرَض عنّي مُهاجرًا. لسان العرب لابن منظور، «طوي».

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٨٢.

[4] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٨٢.

[5] وفي هامش م: بين عِلّته ومعلوله، أعني: الأمر به والانفلاق.

فيَدخُل فيه ما ذُكر مِن تولّيهم عن الحقّ الذي أُلقيَ إليهم دخولًا أوّليًا، فحينئذ يظهَر وجهُ كون ذلك سببًا للاستخفاء.

ويُؤيّده ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما أنّها نزلت في الأخنس بن شَريق وكان رجلًا حلوَ المنطِق حسنَ السياق للحديث، يُظهر لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم المحبّة ويُضمِر في قلبه ما يضادُّها.[١] وقال ابن شدّاد:[٢] إنّها نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مرَّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسَه وغطّى وجهَه كيلا يراه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٣] فكأنّه إنّما كان يصنع ما يصنع؛ لأنّه لو رآه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يُمكِنه التخلُّف عن حضور مجلِسه والمصاحبة معه، وربّما يؤدّي ذلك إلى ظهور ما في قلبه مِن الكفر والنفاق.

وقُرئ: "يَثْنَوْنِي صُدُورُهَمْ"[٤] بالياء والثاء مِن "اثنونى": "افعَوْعَلَ" مِن الثَّني، كـ"احلَوْلى" مِن الحَلاوة، وهو بناءُ مبالغة،[٥] وعن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما "لَتَثْنَوْنِي".[٦] وقُرئ: "تَثْنَونُّ"،[٧] وأصله "تَثْنَوْنِنُ" مِن "تَفْعَوعِلُ" مِن الثِّنّ: وهو ما هشّ مِن الكلأ وضعُف،[٨] يريد مطاوعةَ صدرورهم للثَّني كما يَنْثَني الهشُّ مِن النبات،

---

[١] **معالم التنزيل** للبغوي، ١٦٠/٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٢/٢؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٣٧/١٠-٢٣٨.

[٢] هو عبد الله بن شدّاد بن الهاد الليثي، أبو الوليد (ت. ٨٢هـ/٧٠١م). الفقيه المدني ثم الكوفي، وهو مِن تابعي أهل المدينة، كان ثقة قليلَ الحديث شيعيًا، وأمّه سلمى بنت عُميس. وُلد في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وروى عن أبويه وخالاته ميمونة أمّ المؤمنين وأمّ الفضل زوج العبّاس وأسماء بنت عُميس وعن عمرَ وعليّ وابن مسعود وطلحة ومعاذ وغيرهم، وروى عنه مِن التابعين رِبعي بن حرش وطاوس وغيرهم. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي ٤٨٨/٣؛ **والإصابة** لابن حجر، ١٣/٥.

[٣] **جامع البيان** للطبري، ٣١٧/١٢-٣١٨؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٦٠/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٣٧/١٠-٢٣٨.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مِقسَم. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٦٤؛ **المغني في القراءات** للنَّوْزاوازي، ص ٩٧٩.

[٥] انظر: **المحتسب** لابن جنّي، ٣١٩/١؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢٨٢/٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٦٤.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والضحّاك ومجاهد ويحيى بن يعمَر وجعفر بن أبي المُغيرة. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٦٤؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٣٢؛ **المغني في القراءات** للنَّوْزاوازي، ص ٩٧٩.

[٨] انظر: **المحتسب** لابن جنّي، ٣١٩/١؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢٨٢/٢.

أو أراد ضعفَ إيمانهم ورخاوةَ قلوبهم.[١] وقُرِئ: "تَثْنَئِنُّ"[٢] مِن "اثنانّ": "افعالٌ" منه، ثمّ هُمِز، كما قيل: "ابيَأَضَّتْ" و"ادهَأَمَّتْ".[٣] وقُرِئ: "تَثْنَوِيْ"[٤] بوزن "تَرعَوِي".

[١١٤ظ] / ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يتغطّونها للاستخفاء على ما نُقل عن ابن شدّاد،[٥] أو حين يأوون إلى فراشهم ويتدثّرون بثيابهم، فإنّ ما يقع حينئذ حديثُ النفس عادة. وقيل: كان الرجل مِن الكفّار يدخُل بيته ويُرخي سِتره ويَحني ظهره ويتغشّى بثوبه ويقول: هل يعلَم الله ما في قلبي.[٦] ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ أي: يُضمِرون في قلوبهم. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يستوي بالنسبة إلى عِلمه المحيط سِرُّهم وعلنُهم، فكيف يخفى عليه ما عسى يُظهرونه؟

وإنّما قُدّم السرُّ على العلَن نعيًا عليهم مِن أوّل الأمر ما صنعوا، وإيذانًا بافتضاحهم ووقوعِ ما يحذرونه، وتحقيقًا للمساواة بين العِلمين على أبلَغ وجه، فكأنّ عِلمه بما يُسرُّونه أقدمُ منه بما يُعلنونه. ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران، ٢٩/٣]، حيث قُدم فيه الإخفاء على الإبداء على عكس ما وقع في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة، ٢٨٤/٢]؛ إذ لم يتعلّق بإشعار أنّ المحاسبة بما يُخفونه أَولى منها بما يُبدونه غرضٌ؛ بل الأمرُ بالعكس، وأمّا ههنا فقد تعلّق بإشعار كون تعلُّق عِلمه تعالى بما يُسرّونه أَولى منه بما يُعلنونه غرضٌ مُهِمٌّ مع كونهما على السويّة، كيف لا، وعِلمُه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصولِ الصورة؛ بل وجودُ كلّ شيء في نفسه عِلمٌ بالنسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة، ٣٣/٢]، فحيث كان واردًا بصدد الخطاب مع الملائكة / عليهم السلام المنزَّهِ مقامُهم عن اقتضاء [١١٥و] التأكيد والمبالغة في الإخبار بإحاطة عِلمه تعالى بالظاهر والباطن لم يُسلَك فيه

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عروة الأعشى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٢.

٣ انظر: المحتسب لابن جنّي، ٣١٩/١-٣٢٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٨٢/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حاتم عن ابن عبّاس والأعرج وابن عُيينة ويحيى بن يعمَر وابن أبي إسحاق. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧٩.

٥ مضى بتخريجه آنفًا.

٦ القول في معالم التنزيل للبغوي، ١٦١/٤.

ذلك المسلكُ مع أنّه وقع الغُنية عنه بما قبله مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة، ٣٣/٢]. ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أنّ مَرتبة السرّ متقدِّمة على مَرتبة العلن إذ ما مِن شيء يُعلَن إلّا وهو أو مَباديه قبل ذلك مُضمَر في القلب، فتعلُّق عِلمه سبحانه بحالته الأُولى متقدِّم على تعلُّقه بحالته الثانية.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لِما سبق وتقرير له واقع موقع الكبرى مِن القياس. وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبيّتها مِن البراعة ما لا يصفه الواصفون، كأنّه قيل: إنّه مبالغ في الإحاطة بمضمَرات جميع الناس وأسرارهم الخفيّة المستكنّة في صدورهم بحيث لا تُفارقها أصلًا، فكيف يخفى عليه ما يُسرُّون وما يُعلِنون، ويجوز أن يُراد بذات الصدور القلوبُ مِن قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج، ٤٦/٢٢]، والمعنى: إنّه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سرّ مِن أسرارها.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ غذاؤها اللائق بها مِن حيث الخلقُ ومِن حيث الإيصالُ إليها بطريق طبيعي أو إرادي لتكفّله إيّاه تفضُّلًا ورحمةً، وإنّما جيء به على طريق الوجوب اعتبارًا لسبق الوعدِ وتحقيقًا لوصوله إليها البتّةَ، وحملًا للمكلَّفين على الثقة به تعالى والإعراضِ عن إتعاب النفس في طلبه.

[١١٥ظ] ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ محلَّ قرارِها / في الأصلاب ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ موضعَها في الأرحام وما يجري مَجراها مِن البَيض ونحوها. وإنّما خُصّ كلّ مِن الاسمين بما خُصّ به مِن المَحلَّين لأنّ النطفة بالنسبة إلى الأصلاب في حيّزها الطبيعي ومَنشئها الخلقي، وأمّا بالنسبة إلى الأرحام وما يجري مَجراها فهي مُودَعة فيها

إلى وقت معيَّن، أو مَسكنَها[1] مِن الأرض حين وُجدت بالفعل، ومُودَعَها مِن الموادّ والمقارّ حين كانت بعدُ بالقوّة. ولعلّ تقديمَ محلِّها باعتبار حالتها الأخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابّة في الأرض.

والمعنى: مَا مِن دابّة في الأرض إلّا يرزقها الله تعالى حيث كانت مِن أماكنها يسوقُه إليها، ويعلَم موادَّها المتخالفة المندرِجة في مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطوّرة في الأطوار المتباينة ومقارَّها المتنوّعة، ويُفيض عليها في كلّ مرتبةٍ ما يليق بها مِن مبادي وجودها وكمالاتها المتفرِّعة عليه. وقد فُسِّر المستودَع بأماكنها في الممات،[2] ولا يلائمه مقام التكفّل بأرزاقها.

﴿كُلٌّ﴾ مِن الدوابّ ورزقها ومستقرِّها ومستودِعها. ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: مُثبتٍ في اللوح المحفوظ البيِّن لمَن ينظر فيه مِن الملائكة عليهم السلام، أو المُظهِر لِما أُثبت فيه للناظرين.

ولمّا انتهى الأمر إلى أنّه سبحانه محيط بجميع أحوال ما فى الأرض مِن المخلوقات التي لا تكاد تُحصى مِن مبدأ فطرتها إلى منتهاها اقتضى الحال / التعرّض [١١٦و] لمبدأ خَلْق السماوات والأرض والحكمة الداعية إلى ذلك فقيل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ السماوات في يومين والأرض في يومين وما عليها مِن أنواع الحيوان والنبات وغير ذلك في يومين، حسبما فُصِّل في سورة حم السجدة،[3] ولـم يُذكـر خلقُ ما في الأرض لكونه مِن تتمّات خلقها، وهو السرّ في جَعْل زمان خلقه تتمّةً لزمان خلقها في قولِه تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت، ١٠/٤١]، أي: في تتمّة أربعة أيّام، والمراد بالأيّام: الأوقات، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ [الأنفال، ١٦/٨]، أي: في ستّة أوقات، أو مقدار ستّة أيّام، فإنّ اليوم في المتعارَف: زمانُ كون الشمس فوق الأرض، ولا يُتصوَّر ذلك حين لا أرض ولا سماء.

وفي خَلْقها مُدرَّجًا مع القدرة التامّة على خَلْقها دفعةً دليلٌ على أنّه قادر مختار، واعتبارٌ للنُّظّار، وحثٌّ على التأنّي في الأمور. وأمّا تخصيص ذلك بالعدد

---

١ السياق: موضعَها في الأرحام... أو مسكنَها...

٢ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٢/٢.

٣ يعني: الآيات ٩-١٢ مِن سورة فصِّلت.

المعيَّن فأمرٌ استأثر بعِلم ما يقتضيه علّام الغيوب جلّت حِكمته. وإيثارُ صيغة الجمع في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لِما هو المشهور مِن الإشارة إلى كونها أجرامًا مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والأحكام.

﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ﴾ قبل خلقِهما ﴿عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ ليس تحته شيء غيرُه، سواءٌ كان بينهما فُرجة أو كان موضوعًا على متنه، كما ورد في الأثر،[1] فلا دلالةَ فيه على إمكان الخلاء، كيف لا، ولو دلّ لدلّ على وجوده لا على إمكانه فقط، ولا على كون الماء أوّلَ ما حدث في العالم بعد العرش، وإنما يدلّ على أنّ خَلْقهما أقدم مِن خلق السماوات والأرض مِن غير تعرُّض للنسبة بينهما.

[١١٦ظ] ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ متعلقٌ بـ﴿خَلَقَ﴾، أي: خلق / السماواتِ والأرض وما فيها[2] مِن المخلوقات التي مِن جملتها أنتم، ورتَّب فيهما جميع ما تحتاجون إليه مِن مبادي وجودكم وأسباب مَعايشكم، وأودَع في تضاعيفهما مِن تعاجيب الصنائع والعِبَر ما تستدلُّون به على مطالبكم الدينيّة ليُعاملَكم معاملة مَن يبتليكم ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾، فيُجازيكم بالثواب والعقاب غِبّ ما تبيَّن المحسن مِن المسيء، وامتازت درجات أفراد كلّ مِن الفريقين حسب امتياز طبقاتِ علومِهم واعتقاداتِهم المترتِّبة على أنظارهم فيما نُصب مِن الحُجج والدلائل والأمارات والمَخايل ومراتب أعمالهم المتفرِّعة على ذلك، فإنّ العمل غير مختصّ بعمل الجوارح، ولذلك فسَّره صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أيّكم أحسنُ عقلًا وأورَعُ عن محارمِ الله وأسرعُ في طاعةِ الله»،[3] فإنَّ لكلّ مِن القلب والقالَب عملًا مخصوصًا به، فكما أنّ الأوّل أشرف مِن الثاني فكذا الحالُ في عمله، كيف لا، ولا عملَ بدون معرفة الله عزّ وجلّ الواجبة على العباد آثرَ ذي أثير، وإنّما طريقُها النظري التفكّر في بدائع صنائع المَلِك الخلّاق والتدبّر في آياته البيّنات المنصوبة في الأنفس والآفاق، ولا طاعةَ بدون فَهْم ما في مطاوي الكتاب الحكيم مِن الأوامر والنواهي وغيرِ ذلك ممّا له مَدخلٌ في الباب.

---

١ انظر تلك الآثار في جامع البيان للطبري، ١٢/٣٣١-٣٣٤.

٢ س: فيهما.

٣ جامع البيان للطبري، ١٢/٣٣٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٨٣. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/١٤٥-١٤٦.

وقد رُوي عنِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لا تُفضِّلوني على يونسَ بن مَتّى فإنّه كان يُرفع له كلّ يومٍ / مثلُ عمل أهلِ الأرض»،[١] قالوا: وإنّما كان ذلك التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ الذي هو عمل القلب، لأنّ أحدًا لا يقدر على أن يعمل في اليوم بجوارحه مثلَ عمل أهل الأرض. [١١٧و]

وتعليقُ فعل البلوى، أي: تعقيبُه بحرف الاستفهام لا التعليقُ المشهور الذي يقتضي عدم إيراد المفعول أصلًا مع اختصاصه بأفعال القلوب لِما فيه مِن معنى العِلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره، ولذلك أُجريَ مُجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبَعيّة.

وإيراد صيغة التفضيل مع أنّ الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المُنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسن فقط، للإيذان بأنّ المراد بالذات والمقصودَ الأصلي ممّا ذُكر مِن إبداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع إنّما هو ظهور كمال إحسان المُحسنين، وأنّ ذلك لكونه على أتمّ الوجوه اللائقة وأكملِ الأساليب الرائقة يُوجِب العمل بموجبه بحيث لا يَحيد أحد عن سَننه المستبين؛ بل يهتدي كلُّ فرد إلى ما يُرشد إليه مِن مطلق الإيمان والطاعة، وإنّما التفاوت بينهم في مراتبهما بحسب القوّة والضعف والكثرة والقِلّة.

وأمّا الإعراضُ عن ذلك والوقوعُ في مهاوي الضلال فبمَعزِل مِن الاندراج تحت الوقوع فضلًا عن أن يُنظَم ظهورُه في سِلك العِلّة الغائيّة لذلك الصُنع البديع، وإنّما هو عمل يصدُر عن عامله بسوء اختياره مِن غير مصحِّح له ولا تقريب. ولا يخفى ما فيه مِن الترغيبِ في الترقّي إلى معارج العلوم ومدارجِ الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها. والله تعالى أعلمُ.

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ على ما يُوجبه قضيّةُ الابتلاء ليترتّبَ عليه الجزاء المتفرّعُ على ظهور مراتب الأعمال. ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إن وُجِّه الخطاب في قوله تعالى إنكم إلى جميع / المكلَّفين فالموصول مع صلته [١١٧ظ]

---

١ لم أجده في مظانّه. وهو في الكشّاف للزمخشري، ١/٣٤٧ (آل عمران، ٣/١٩١). وقال عنه الزَّيلعيُّ في تخريج أحاديث الكشّاف، ١/٢٦٤: «غريب جدًّا».

للتخصيص، أي: ليقُولَنّ الكافرون منهم، وإن وُجِّه إلى الكافرين منهم فهو واردٌ على طريقة الذمّ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مثلُه في الخديعة أو البطلان. وهذا إشارة إلى القول المذكور، أو إلى القرآن فإنّ الإخبار عن كونهم مبعوثين وإن لم يجب كونه بطريق الوحي المتلوّ إلّا أنّهم عند سماعهم ذلك تخلّصوا إلى القرآن لإنبائه عنه في كلّ موضع وكونه علَمًا عندهم في ذلك، فعمَدوا إلى تكذيبه وتسميته سِحرًا تماديًا منهم في العِناد وتفاديًا عن سَنن الرشاد. وقيل: هو إشارة إلى نفس البعث.[1] ولا يلائمه التسميةُ بالسِّحر فإنّه إنّما يُطلَق على شيء موجود ظاهرًا لا أصلَ له في الحقيقة، ونفسُ البعث عندهم معدوم بحت.

وتعلّقُ الآية الكريمة بما قبلها إمّا مِن حيثُ إنّ البعث كما أشيرَ إليه مِن تتمّات الابتلاء المذكور، فكأنّه قيل: الأمرُ كما ذُكر، ومع ذلك إن أخبرتَهم بمقدِّمة فذّة مِن مقدِّماته وقضيّة فَرْدة مِن تتمّاته لا يتلعثمون في الردّ ويعدّون ذلك مِن قبيلِ ما لا صحّةَ له أصلًا فضلًا عن تصديق ما هذه مِن تتمّاته، وإمّا مِن حيثُ إنّ البعث خَلْق جديد، فكأنّه قيل: وهو الذي خلق جميع المخلوقات ابتداءً لهذه الحكمة البالغة، ومع ذلك إن أخبرتَهم بأنّه يُعيدهم تارة أخرى وهو أهونُ عليه يقولون ما يقولون، فسبحانَ الله عمّا يصفون.

وقرأ حمزة[2] والكسائي "إلّا سَاحِرٌ"[3] على أنّ الإشارة إلى القائل أو إلى القرآن، على أسلوب "شِعرٌ شاعرٌ". وقُرئ بالفتح[4] على تضمين ﴿قُلْتَ﴾ معنى "ذكرتَ"،

---

[1] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٢/٢.

[2] هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل التيمي الزيّات (ت. ١٥٦هـ/٧٧٣م). الإمام القدوة، وأحد القرّاء السبعة، أصله فارسي، وكان مولى التيم فنُسب إليهم، كان إمامًا قيّمًا لكتاب الله، قانتًا لله، ثخين الورع، رفيع الذِّكر، عالمًا بالحديث والفرائض. أدرك الصحابة بالسنّ فيحتمل أن يكون رأى بعضهم. وكان يجلب الزيت مِن الكوفة إلى حلوان ويجلب الجبن والجوز إلى الكوفة. ومات بحلوان. تلا عليه حمران بن أعين والأعمش وابن أبي ليلى وغيرهم، وحدّث حمزة عن عديّ بن ثابت والحَكَم وعمرو بن مُرّة وغيرهم، وأخذ عنه القراءة عدد كبير كسُليم بن عيسى، والكسائي وعابد بن أبي عابد. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٩٠/٧؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ٢٦١/١؛ والأعلام للزركلي، ٢٧٧/٢.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٥٦/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤.

/ أو على أنّ "أنّك" بمعنى "عنّك" في "علّك"، أي: ولئن قلتَ لعلّكم مبعوثون [١١٨و] على أنّ الرجاء والتوقّع باعتبار حال المخاطَبين، أي: توقّعوا ذلك، ولا تبتُّوا القول بإنكاره، أو على أنّه مجاراة معهم في الكلام على نَهج المساعدة لئلا يسارعوا إلى اللَّجاج والعِناد ريثما قَرَع أسماعَهم بتُّ القول، بخلاف ما أَلِفوا وأَلْفَوا عليه آباءهم مِن إنكار البعث، ويكون ذلك أدعى لهم إلى التأمّل والتدبّر، وما فعلوه قاتلهم الله أنّى يُؤفكون.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ المترتِّب على بَعْثهم، أو العذابَ الموعود في قوله تعالى: ﴿وَإِن[١] تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.[٢] وقيل: عذاب يوم بدر.[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قَتْلُ جبريلَ عليه السلام للمستهزئين.[٤] والظاهر أنّ المراد به العذابُ الشامل للكفرة دون ما يُخَصّ ببعض منهم، على أنّه لم يكن موعودًا يستعجل منه المجرمون. ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلى طائفة مِن الأيّام قليلةٍ؛ لأنّ ما يحصُره العدُّ قليل.

﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أي: أيُّ شيء يمنعه مِن المجيء، فكأنّه يريده فيَمنعه مانعٌ، وإنّما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ومرادهم إنكار المجيء والحبسِ رأسًا، لا الاعترافُ به والاستفسارُ عن حابسه.

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ذلك ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾ محبوسًا ﴿عَنْهُمْ﴾، على معنى أنّه لا يرفعه رافع أبدًا إن أُريد به عذاب الآخرة، أو لا يدفعه عنكم دافع؛ بل هو واقع بكم إن أريدَ به عذاب الدنيا. و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بخبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدَّمًا عليه. واستدلّ به البصريّون على جواز تقديمه على "ليس"؛ إذ المعمول / تابع للعامل [١١٨ظ]

---

[١] م س: فإن.

[٢] هود، ٣/١١.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٨٤/٢.

[٤] عن ابن عبّاس في التفسير البسيط للواحدي، ٣٥٨/١١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٨٤/٢. ولم أقف عليه في مظانّه.

فلا يقع إلّا حيث يقع متبوعه. ورُدّ بأنّ الظرف يُجوِّز فيه ما لا يُجوِّز في غيره توسُّعًا، وبأنّه قد يُقدَّم المعمول حيث لا مجالَ لتقدُّم العامل، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى، ٩٣/٩-١٠]، فإنّ ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ و﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ مع كونهما منصوبَين بالفعلين المجزومين قد تقدَّما على "لا" الناهية مع امتناع تقدُّم الفعلين عليها. قال أبو حيّان: وقد تتبَّعتُ جملة مِن دواوين العرب فلم أظفَر بتقديم خبر "ليس" عليها، ولا بتقديم معموله، إلّا ما دلّ عليه ظاهرُ هذه الآية الكريمة وقولُ الشاعر:[1]

فيأبى فما يزدادُ إلّا لجاجةً وكنتُ أبيًّا في الخَنا لست أُقدِمُ[2]

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بِهِم ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: العذابُ الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً. وفي التعبير عنه بالموصول تهويلٌ لمكانه، وإشعارٌ بعلّيّة ما ورد في حيّز الصلة مِن استهزائهم به لنزوله وإحاطته. والتعبير عنها بالماضي وارد على عادة الله تعالى في أخباره؛ لأنّها في تحقّقها وتيقّنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك مِن الفخامة والدلالة على علوّ شأن المُخبِر وتقرير وقوع المُخبَر به ما لا يخفى.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: أعطيناه نعمةً مِن صحّة وأمن وجِدَة وغيرها وأوصلناها إليه بحيث يجد لذّتها، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ أي: سلبناه إيّاها. وإيرادُ النزع للإشعار بشِدّة تعلُّقه بها وحِرصه عليها.

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ شديدُ القُنوط مِن رَوْح الله، قَطوعٌ رجاءَه مِن عَود أمثالها عاجلًا أو آجلًا بفَضل الله تعالى لقِلّة صبره وعدم توكّله عليه وثِقته به،

[1] الكلام مِن قوله: "واستدلّ به البصريّون" بلفظ قريب جدًّا في اللباب لابن عادل، ١٠/٤٤٣. وهو بمعناه في البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/١٢٧. وانظر تفصيل هذه المسألة في الإنصاف للأنباري، ١/١٦٠-١٦٤.

[2] ما عرفتُ قائله. والبيت بلا نسبة في البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/١٢٧؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/٢٩٢؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٤٤٣. والخنا: الفُحش وقبيح الكلام. انظر: لسان العرب لابن منظور، «خنا».

/ ﴿كَفُورٌ﴾ عظيمُ الكُفران لِما سلف مِن النِّعم. وفيه إشارة إلى أنّ النزع إنّما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلّبون فيه مِن نِعَم الله عزّ وجلّ. وتأخيره عن وصف يأسِهم مع تقدّمه عليه لرعاية الفواصل، على أنّ اليأس مِن فضل الله سبحانه وقَطْعَ الرجاء عن إفاضة أمثاله في العاجل وإيصالِ أجره في الآجل مِن باب الكُفران للنعمة السالفة أيضًا. [١١٩و]

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ كصِحّة بعد سَقَم وجِدَة بعد عَدَم وفرَج بعد شِدّة. وفي التعبير عن مُلابَسة الرحمة والنعماء بـ"الذوق" المؤذِن بلذّتهما وكونهما ممّا يُرغب فيه، وعن مُلابَسة الضرّاء بـ"المسّ" المُشعِر بكونها في أدنى ما ينطلِق عليه اسم المُلاقاة مِن مراتبها، وإسنادِ الأوّل إلى الله عزّ وجلّ دون الثاني، ما لا يخفى مِن الجزالة[١] والدلالة على أنّ مراده تعالى إنّما هو إيصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون، وأنّه إنّما يُريد بعباده اليُسر دون العُسر وإنّما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلًا يسيرًا كأنّما يُلاصق البشرة مِن غير تأثير، وأمّا نزعُ الرحمة فإنّما صدَر عنه بقضيّة الحِكمة الداعية إلى ذلك وهي كفرانهم بها كما سبق. وتنكيرُ الرحمة باعتبار لحوق النزع بها.

﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ أي: المصائب التي تَسوءني، ولن يعترِيَني بعدُ أمثالُها كما هو شأنُ أولئك الأشرار، فإنّ الترقّب لورود أمثالها مما يُكدِّر السرور ويُنغِّص العيش. ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ بطِر وأشِر بالنِّعم مغترٌّ بها. ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس بما أُوتيَ مِن النِّعم، / مشغولٌ بذلك عن القيام بحقّها، واللام في ﴿لَئِنْ﴾ في الآيات الأربع مُوطِّئة للقسَم وجوابه سادّ مسدَّ جواب الشرط. [١١٩ظ]

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على ما أصابهم مِن الضرّاء سابقًا أو لاحقًا إيمانًا بالله واستسلامًا لقضائه، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شكرًا على آلائه السالفة والآنفة.

---

[١] السياق: وفي التعبير... ما لا يخفى...

واللام في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾[١] إمّا لاستغراق الجنس فالاستثناءُ متّصل، أو للعهد فمُنقطعٌ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بعُلوّ درجتهم وبُعدِ منزلتهم في الفضل، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة لذنوبهم وإن جمّت ﴿وَأَجۡرٞ﴾ ثواب لأعمالهم الحسنة ﴿كَبِيرٞ﴾.

ووجهُ تعلُّق الآيات الثلاثِ بما قبلهنّ مِن حيث إنّ إذاقة النَّعماء ومِساسَ الضّراء فصل مِن باب الابتلاء واقعٌ موقعَ التفصيل مِن الإجمال الواقع في قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾.[٢] والمعنى أنّ كلًّا مِن إذاقة النَّعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للإنسان أيَشكُر أم يكفُر لا يهتدي إلى سَنن الصواب؛ بل يحيد في كلتا الحالتين عنه إلى مهاوي الضلال فلا يَظهر منه حُسن عمل إلّا مِن الصابرين الصالحين، أو مِن حيث إنّ إنكارهم بالبعث واستهزائَهم بالعذاب بسبب بطَرهم وفخرهم، كأنّه قيل: إنّما فعلوا ما فعلوا لأنّ طبيعة الإنسان مجبولة على ذلك.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ۝١٢﴾

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ مِن البيّنات الدالّة على حقّيّة نبوّتك المنادية بكونها مِن عند الله عزّ وجلّ لمَن له أُذنٌ واعية. ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ أي: عارض لك ضِيقُ صَدر بتلاوته / عليهم وتبليغه إليهم في أثناء الدعوة والمُحاجّة. [١٢٠و]

﴿أَن يَقُولُواْ﴾ لأن يقولوا تعامِيًا عن تلك البراهين التي لا تكاد تخفى صحّتُها على أحد ممَّن له أدنى بصيرة وتماديًا في العِناد على وجه الاقتراح: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ مال خطير مخزون يدلّ على صِدقه، ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يُصدِّقه. قيل: قاله عبد الله بن أميّةَ المخزوميُّ.[٣] ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:

---

[١] هود، ٩/١١.

[٢] هود، ٧/١١.

[٣] معالم التنزيل للبغوي، ١٦٤/٤.

أنّ رؤساءَ مكّةَ قالوا: «يا محمّد، اجْعل لنا جبال مكّةَ ذهبًا إن كنتَ رسولًا»، وقال آخرون: «ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوّتك»، فقال: «لا أقدِر على ذلك»، فنزلت.[١]

فكأنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا عايَن اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم غيرَ قانعين بالبيّنات الباهرة التي كانت تضطرّهم إلى القبول لو كانوا مِن أرباب العقول، وشاهَد ركوبهم مِن المُكابَرة متن كلّ صَعْب وذَلول مُسارعين إلى المقابلة بالتكذيب والاستهزاء وتسميتِها سحرًا، مُثِّل[٢] حاله عليه السلام بحال مَن يُتوقَّع منه أن يضيق صدره بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها إليهم، فحُمل على الحذر منه بما في "لعلّ" مِن الإشفاق فقيل: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ليس عليك إلّا الإنذار بما أُوحي إليك غيرَ مُبالٍ بما صدر عنهم مِن الردّ والقَبول.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ يحفظ أحوالك وأحوالهم، فتوكّل عليه في جميع أمورك فإنّه فاعل بهم ما يليق بحالهم، والاقتصارُ على النذير في أقصى غاية مِن إصابة المَحزّ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أُضرِب بـ﴿أَمْ﴾ المنقطِعة عن ذِكر تَرْك اعتدادهم[٣] بما يُوحى وتهاونِهم به وعدمِ اقتناعهم بما فيه مِن المعجزات الظاهرة الدلالة على كونه مِن عند الله عزّ وجلّ، / وعلى حقّيّة نبوّته صلّى الله عليه وسلّم، وشُرع في ذِكر ارتكابهم لِما هو أشدّ منه وأعظمُ. وما فيها مِن معنى الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجيب. والضمير المستكنّ في ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والبارزُ لِما يوحى، أي: بل أيقولون افتراه وليس مِن عند الله؟ [١٢٠ظ]

﴿قُلْ﴾ إن كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا۟﴾ أنتم أيضًا ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في البلاغة وحُسن النظم، وهو نعت لـ﴿سُوَرٍ﴾، أي: أمثاله، وتوحيدُه إمّا باعتبار

---

[١] مرويّ عن ابن عبّاس في تفسير الرازي، ٣٢٣/١٧؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٧/١٠. ولم أقف عليه في مظانّه.

[٢] السياق: لمّا عاين... مُثِّل...

[٣] س: اعتداد.

مماثلة كلّ واحدة منها، أو لأنّ المطابقة ليست بشرط حتّى يوصَفُ[1] المثنّى بالمفرد، كما في قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون، ٤٧/٢٣]، أو للإيماء إلى أنّ وجه الشبَه ومدار المماثلة في الجميع شيء واحد هو البلاغة المؤدّية إلى مرتبة الإعجاز، فكأنّ الجميع واحد.

﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ صفة أخرى لـ﴿سُوَرٍ﴾، أُخِرت عن وصفها بالمماثلة لِما يُوحى؛ لأنّها الصفة المقصودة بالتكليف، إذ بها يظهَر عجزهم وقعودهم عن المعارضة، وأمّا وَصف الافتراء فلا يتعلّق به غرض يدور عليه شيء في مقام التحدّي، وإنّما ذُكر على نهج المساهلة وإرخاء العِنان، ولأنّه لو عُكس الترتيب لَربّما تُوهِّم أنّ المراد هو المماثلة في الافتراء، والمعنى: فأتوا بعشر سُور مماثلة له في البلاغة مُختلَقات مِن عند أنفسكم إن صحّ أنّي اختلقتُه مِن عندي، فإنكم أقدَر على ذلك منّي؛ لأنكم عرَب فصحاءُ بُلغاءُ قد مارستُم مبادي ذلك مِن الخُطَب والأشعار، وحفظتُم الوقائع والأيّام، وزاولتُم أساليب النظم والنثر.

﴿وَٱدْعُواْ﴾ للاستظهار في المعارضة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعاءَه والاستعانة به مِن آلهتكم التي تزعمون أنّها مُمِدّةٌ لكم في كلّ ما تأتون وتذرون، والكهَنةِ ومَدارهِكم[2] الذين تلجئون إلى آرائهم في المُلمّات ليُسعدوكم فيها. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿ٱدْعُواْ﴾، أي: متجاوزين الله / تعالى. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّي افتريتُه، فإنّ ذلك يستلزِم إمكان الإتيان بمثله، وهو أيضا يستلزم قدرتكم عليه. والجواب محذوف يدلّ عليه المذكور. [١٢١و]

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤﴾

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي: فإن لم يفعلوا ما كُلِّفوه مِن الإتيان بمِثله، كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة، ٢٤/٢]. وإنّما عُبّر عنه بالاستجابة إيماءً إلى أنّه صلّى الله عليه وسلّم على كمال أمن مِن أمره، كأنّ أمْره لهم بالإتيان بمِثله دعاءٌ لهم

[1] ضُبط بالرفع في م.

[2] المَدَاره جمع مِدرَه: زعيم القوم وخطيبهم والمُتكلِّم عنهم والذي يرجعون إلى رأيه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «دره».

إلى أمر يُريد وقوعه. والضمير في ﴿لَكُمْ﴾ للرسول عليه السلام، والجمعُ للتعظيم، كما في قول مَن قال:

وإن شئتِ حرَّمتُ النساءَ سواكُمُ[1]

أو له[2] وللمؤمنين لأنّهم أتباع له عليه السلام في الأمر بالتحدّي. وفيه تنبيهٌ لطيف على أنّ حقّهم ألّا ينفكّوا عنه عليه السلام ويُناصبوا معه لمعارضة المعاندين كما كان يفعلونه في الجهاد، وإرشادٌ إلى أنّ ذلك ممّا يفيد الرسوخ في الإيمان والطمأنينةَ في الإيقان، ولذلك رُتِّب عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أي: اعلموا حين ظهر لكم عجزُهم عن المعارضة مع تهالكهم عليها عِلمًا يقينيًا مُتاخمًا لعين اليقين بحيث لا مجالَ معه لشائبة ريب بوجه مِن الوجوه، كأنّ ما عداه مِن مراتب العلم ليس بعِلم، لكن لا للإشعار بانحطاط تلك المراتب؛ بل بارتفاع هذه الرتبة، وبه يتّضح سرّ إيراد كلمة الشكّ مع القطع بعدم الاستجابة، فإنّ تنزيل سائر المراتب منزلةَ العدم مُستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلةَ الشكّ فيه، أو اثبُتوا[3] واستمِرّوا على ما كنتُم عليه مِن العِلم.

﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾ ملتبِسًا ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ المخصوصِ به، بحيث لا تحوم حوله العقول والأفهامُ مستبدًّا بخصائص الإعجاز مِن جهتَي النظم الرائق والإخبارِ بالغيب.

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أيضًا ألّا شريكَ له في الألوهيّة وأحكامها، ولا يقدِر على ما يقدِر عليه أحد. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: مخلِصون في الإسلام أو ثابتون عليه، وهذا مِن باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين.

ويجوز أن يكون الخطاب في الكلّ للمشركين مِن جهة الرسول صلّى الله عليه وسلّم داخلًا تحت الأمر بالتحدّي، والضمير في ﴿لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ لـ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾،[4] أي: فإن لم يستجب لكم / آلهتكم وسائر مَن إليهم تجأرون في مُهمّاتكم ومُلمّاتكم إلى المعاونة والمظاهَرة، فاعلموا أنّ ذلك خارج [١٢١ظ]

---

[1] وفي هامش م: تمامه:
وإن شئتِ لم أطعَم نُقاخًا ولا بَرْدا
البيت لعمر بن أبي ربيعة. ومضى بتخريجه في سورة البقرة، ٢٤٩/٢.

[2] أي: الرسول عليه السلام.

[3] السياق: اعلموا حين ظهر... أو اثبتوا واستمِرّوا...

[4] في الآية السابقة.

عن دائرة قُدرة البشر، وأنّه مُنزّل مِن خالق القُوى والقُدَر، فإيرادُ كلمة الشكّ[١] حينئذ مع الجزم بعدم الاستجابة مِن جهة آلهتهم تهكُّم بهم، وتسجيلٌ عليهم بكمال سخافة العقل.

وترتيبُ الأمر بالعِلم على مجرّد عدم الاستجابة مِن حيث إنّه مسبوق بالدعاء المسبوق بعجزهم واضطرارهم، فكأنّه قيل: فإن لم يستجيبوا لكم عند التجائكم إليهم بعد ما اضطُررتُم إلى ذلك وضاقت عليكم الحِيَل وعيَت بكم العِلَل، أو مِن حيث إنّ مَن يستمِدّون بهم أقوى منهم في اعتقادهم، فإذا ظهَر عجزهم بعدم استجابتهم وإن كان ذلك قبل ظهور عَجْز أنفسهم يكون عجزهم أظهرَ وأوضحَ، واعلموا أيضًا أنّ آلهتكم بمَعزِل عن رتبة الشِّركة في الألوهيّة وأحكامها، فهل أنتم داخلون في الإسلام؟ إذ لم يبقَ بعدُ شائبة شُبهة في حقّيّته وفي بُطلان ما كنتُم فيه مِن الشِّرك، فيدخُل فيه الإذعان لكون القرآن مِن عند الله تعالى دُخولًا أوّليًا، أو منقادون للحقّ الذي هو كون القرآن مِن عند الله تعالى وتاركون لِما كنتُم فيه مِن المكابرة والعِناد. وفي هذا الاستفهام إيجابٌ بليغ لِما فيه مِن معنى الطلب والتنبيهِ على قيام المُوجب وزوالِ العُذر، وإقناطٌ مِن أن يُجيرهم آلهتُهم مِن بأس الله عزّ سلطانه.

هذا، والأوّل أنسبُ لِما سلف مِن قوله تعالى: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾،[٢] ولِما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾،[٣] وأشدُّ ارتباطًا بما يعقُبه، كما ستُحيط به خُبرًا.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾

---

١ أي: لفظ "إنْ".

٢ هود، ١٢/١١.

٣ هود، ١٧/١١.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: ما يُزيّنها ويُحسّنها مِن الصحّة والأمن والسَّعة في الرزق وكثرةِ الأولاد والرياسة وغير ذلك، والمراد بالإرادة ما يحصُل عند مباشرة الأعمال لا مجرّدُ الإرادة / القلبيّة، لقولِه تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾. [١٢٢و]

وإدخال ﴿كَانَ﴾ عليها[١] للدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلًا. وليس المراد بأعمالهم أعمالَ كلِّهم، فإنّه لا يجِد كلُّ مُتمَنٍ ما يتمنّاه ولا كلُّ أحدٍ ينال كلّ ما يهواه، فإنّ ذلك مَنوط بالمشيئة الجارية على قضيّة الحكمة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء، ١٨/١٧]، ولا كلُّ أعمالِهم؛ بل بعضُها الذي يترتَّب عليه الأمور المذكورة بطريق الأجر والجزاء مِن أعمال البِرّ، وقد أُطلقت وأُريد بها ثمراتها، فالمعنى: نُوصِل إليهم ثمراتِ أعمالهم في الحياة الدنيا كاملةً.

وقُرئ: "يُوفِّ"[٢] على الإسناد إلى الله عزّ وجلّ، و"تُوَفَّ"[٣] بالفوقانيّة على البناء للمفعول ورفعِ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وقُرئ: "نُوْفِي"[٤] بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيًا، كقوله:

وإن أتـــاه خـلـيـلٌ يـــوم مَـسـغَـبـةٍ   يـقـول لا غـائـبٌ مـالـي ولا حــرِمُ[٥]

﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: لا يُنقَصون، وإنّما عُبّر عن ذلك بـ"البَخْس" الذي هو نقصُ الحقّ مع أنّه ليس لهم شائبة حقّ فيما أُوتُوه، كما عُبّر عن إعطائه بـ"التوفية" التي هي إعطاءُ الحقوقِ، مع أنّ أعمالهم

---

[١] وفي هامش م: أي: على الإرادة. «منه».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن مِقْسَم وأبي البَرَهسَم وميمون بن مهران والفيّاض عن طلحة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٩٨٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ميمون بن مهران وأبي واقد والجرّاح والزعفراني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٣؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٩٨٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي واقد والحسن وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٣؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٩٨٢.

[٥] البيت لزهير بن أبي سُلمى في ديوانه، ص ١٢٠، وهو له في كتاب سيبويه، ٦٦/٣؛ والمفصّل للزمخشري، ص ٣٢٧، وفيها جميعًا «مسألة» مكان «مسغبة». وعجزه بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢٨٦/٢.

بمَعزِل مِن كونها مُستوجِبة لذلك، بناءً للأمر على ظاهر الحال[١] ومحافظةً على صُور الأعمال ومبالغةً في نفي النقص، كأنّ ذلك نقصٌ لحقوقهم فلا يدخُل تحت الوقوع والصدورِ عن الكريم أصلًا، والمعنى: أنّهم فيها خاصّةً لا يُنقصون ثمراتِ أعمالِهم وأجورَها نقصًا كلّيًا مطّردًا، ولا يُحرَمونها حِرمانًا كلّيًا.

وأمّا في الآخرة فهم في الحِرمان المطلَق واليأسِ المُحقَّق، كما ينطق به قوله تعالى: / ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾... إلى آخره، فإنّه إشارة إلى المذكورين باعتبار إرادتهم الحياة الدنيا، أو باعتبار توفيتِهم أجورَهم مِن غير بَخس، أو باعتبارهما معًا. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذانِ ببُعد منزلتِهم في سوء الحال، أي: أولئك المريدون للحياة الدنيا وزينتِها المُوفَّون فيها ثمراتِ أعمالِهم مِن غير بَخْس. [١٢٢ظ]

﴿ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ لأنّ هِمَمهم كانت مصروفة إلى الدنيا وأعمالَهم مقصورة على تحصيلها، وقد اجتنبوا ثمرتَها ولم يكونوا يريدون بها شيئًا آخرَ، فلا جرمَ لم يكن لهم فى الآخرة إلّا النارُ وعذابُها المخلَّد.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي: ظهر في الآخرة حُبوطُ ما صنعوه مِن الأعمال التي كانت تؤدِّي إلى الثواب لو كانت معمولةً للآخرة، / أو حبِط ما صنعوه في الدنيا مِن أعمال البِرّ، إذ شَرطُ الاعتداد بها الإخلاصُ. [١٢٣و]

﴿وَبَـٰطِلٌ﴾ أي: في نفسه ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في أثناء تحصيل المطالب الدنيويّة، ولأجل أنّ الأوّل مِن شأنه استتباعُ الثواب والأجر وأنّ عدمه لعدم مقارنته للإيمان والنيّة الصحيحة وأنّ الثانيَ ليس له جهةٌ صالحة قطُّ، عُلِّق بالأوّل الحُبوط المؤذِن بسقوط أجره بصيغة الفعل المُنبئ عن الحدوث، وبالثاني البطلان المُفصِح عن كونه بحيث لا طائلَ تحته أصلًا بالاسميّة الدالّة على كون ذلك وصفًا لازمًا له ثابتًا فيه. وفي زيادة "كان" في الثاني دون الأوّل إيماءٌ إلى أنّ صدور أعمال البِرّ منهم وإن كان لغرض فاسد ليس في الاستمرار والدوام كصدور الأعمالِ التي هي مِن مقدِّمات مطالبِهم الدنيّة.

---

١ السياق: وإنّما عُبّر... بناءً للأمر...

وقُرِئ: "وَبَطَلَ"[١] على الفعل، أي: ظهَر بطلانه حيث عُلم هناك أنّ ذلك وما يستتبعه مِن الحظوظ الدنيويّة ممّا لا طائلَ تحته، أو انقطع أثره الدنيوي فبطَل مطلقًا. وقُرِئ: "وَبَاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[٢] على أنّ "ما" إبهاميّة،[٣] أو في[٤] معنى[٥] المصدر،[٦] كقوله:

ولا خارجًا مِن فيّ زُورُ كلامِ[٧]

وعن أنس رضي الله عنه: أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾... إلخ: اليهود والنصارى، إن أعطَوا سائلًا أو وصلوا رحِمًا عُجّل لهم جزاء ذلك بتَوسعة في الرزق وصِحّة في البدن.[٨] وقيل: هم الذين جاهدوا مِن المنافقين مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأسْهَم لهم في الغنائم.[٩] وأنت خبيرٌ بأنّ ذلك / إنّما [١٢٣ظ] كان بعد الهجرة، والسورة مكّيّة. وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقرّاء منهم: أردتَ أن يقال: فلان قارئ؟ فقد قيل ذلك، وهكذا لغيره ممّن يعمل أعمال البِرّ لا لوجه الله تعالى.[١٠] فعلى هذا لا بدّ مِن تقييد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الريائيّة إلّا ذلك.

والذي يقتضيه جزالة النظم الكريم أنّ المراد به مطلق الكفَرة، بحيث يندرج فيهم القادحون في القرآن العظيم اندراجًا أوّليًّا، فإنّه عزّ وعلا لمّا أمر

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ ويحيى بن يعمر وأبي السَّمّال والقُورُسي وميمونة عن جعفر والأزرق وعِصمة عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٣؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٩٨٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٣.

٣ وفي هامش م: أي: وباطلًا أيّ باطلٍ كانوا يعملون. «منه».

٤ س - في.

٥ س: بمعنى.

٦ ط - في معنى المصدر؛ ط: مصدريّة. | وفي هامش م: أي: بطل بطلانًا ما كانوا يعملون. «منه».

٧ عجز بيت للفرزدق، وصدره:

على قَسَمٍ لا أشتمُ الدهرَ مُسلِمًا

في ديوانه، ص ٥٣٩. وهو له شاهدًا على ما نحن فيه في كتاب سيبويه، ٣٤٦/١، وفيه «حَلفةٍ» مكان «قَسَمٍ»؛ وجامع البيان للطبري، ٤٧٣/٢٣ (القيامة، ٤/٧٥)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٤٧٨/٢٣ (القيامة، ٤/٧٥).

٨ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٨٦/٢؛ وبعضه في اللباب لابن عادل، ٤٥١/١٠. ولم أقف عليه في مَظانّه.

٩ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٨٦/٢.

١٠ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٨٦/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٥١/١٠.

نبيّه صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين بأن يزدادوا علمًا ويقينًا بأنّ القرآن مُنزَل بعِلم الله وبألّا قُدرةَ لغيره على شيء أصلًا، وهيَّجهم على الثبات على الإسلام والرسوخ فيه عند ظهور عَجْز الكفَرة وما يدعون مِن دون الله عن المعارضة، وتبيّن أنّهم ليسوا على شيء أصلًا، اقتضى الحال[1] أن يُتعرَّض لبعض شئونهم الموهمِة لكونهم على شيء في الجملة، مِن نيلهم الحظوظَ العاجلة، واستوائِهم على المطالب الدنيويّة، وبيانِ أنّ ذلك بمَعزِل عن[2] الدلالة عليه،[3] ولقد بُيِّن ذلك أيَّ بيان.

ثمّ أعيدَ الترغيب فيما ذُكر مِن الإيمان بالقرآن والتوحيد والإسلام فقيل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: برهان نيّر عظيمِ الشأن يدلّ على حقّيّة ما رُغِّب في الثبات عليه مِن الإسلام وهو القرآن، وباعتباره أو بتأويل البرهان ذُكر الضمير الراجع إليها في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتبعُه ﴿شَاهِدٌ﴾ يشهد بكونه مِن عند الله تعالى، وهو الإعجاز في نظمه المطّرد في كلّ مقدارِ / سورة منه، [١٢٤و] أو ما وقع في بعض آياته مِن الإخبار بالغيب، وكلاهما وصف تابع له شاهد بكونه مِن عند الله عزّ وجلّ غيرَ أنّه على التقدير الأوّل يكون في الكلام إشارة إلى حال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين في تمسُّكهم بالقرآن عند تبيُّن كونه منزلًا بعِلم الله بشهادة الإعجاز.

﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن القرآن غيرُ خارج عنه، أو مِن جهة الله تعالى، فإنّ كلًّا منهما وارد مِن جهته تعالى للشهادة. ويجوز على هذا التقدير أن يُراد بـ"الشاهد" المعجزات الظاهرة على يدَي رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ ذلك أيضًا مِن الشواهد التابعة للقرآن الواردةِ مِن جهته تعالى. فالمراد بـ"مَن" في قوله: ﴿أَفَمَن﴾: كلُّ مَن اتّصف بهذه الصفة الحميدة، فيدخُل فيه المخاطَبون بقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾، ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾[4] دخولًا أوّليًّا.

---

[1] السياق: لمّا أمر نبيّه... اقتضى الحال...

[2] م: مِن.

[3] وفي هامش م: أي: على كونهم على شيء. «منه».

[4] هود، ١١/١٤.

وقيل: هو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[١] وقيل: مؤمنو أهلِ الكتاب كعبدِ الله بن سلام وأضرابه. وقيل: المراد بـ"البيّنة": دليل العقل، وبـ"الشاهد": القرآن، فالضمير في ﴿مِنْهُ﴾ لله عزّ وجلّ.[٢] أو "البيّنة": القرآن، و﴿يَتْلُوهُ﴾ مِن التلاوة، و"الشاهد": جبريلُ، أو لسان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، على أنّ الضمير له، أو مِن التُّلُوّ، و"الشاهد": مَلَك يحفظه.[٣] والأَولى هو الأوّل.

ولمّا كان المراد بتُلوّ الشاهد للبرهان إقامةَ الشهادة بصحّته وكونِه مِن عند الله تعالى تابعًا له بحيث لا يفارقه في مشهد مِن المشاهد، فإنّ القرآن بيّنة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذي يشهد بأمرها إلى يوم القيامة عند كلّ مؤمن وجاحد، عُطف كتاب موسى[٤] في قوله عزّ قائلًا: / ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ [١٢٤ظ] على فاعله مع كونه مقدَّمًا عليه في النزول، فكأنّه قيل: أفمَن كان على بيّنة مِن ربّه ويشهَد به شاهد منه وشاهد آخرُ مِن قبله هو كتابُ موسى. وإنّما قُدِّم في الذِّكر المُؤخَّرُ في النزول لكونه وصفًا لازمًا له غيرَ مفارِق عنه، ولعراقته في وصف التُّلوّ. والتنكير في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ و﴿شَاهِدٌ﴾ للتفخيم.

﴿إِمَامًا﴾ أي: مؤتمًّا به في الدِّين ومقتدًى. وفي التعرّض لهذا الوصف بصدد بيان تلوّ الكتاب ما لا يخفى مِن تفخيم شأن المتلوّ. ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: نعمة عظيمة على مَن أُنزل إليهم ومَن بعدهم إلى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيّدة بالقرآن العظيم وهما حالان مِن "الكتاب".

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة الحميدة، وهي الكون على بيّنة مِن الله ولِما أنّ ذلك عبارة عن مطلق التمسّك بها، وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمَن سلف مِن عظماء الدِّين مِن غير عُثور على دقائق الحقائق وصَفهم بأنّهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يُصدِّقونه حقَّ التصديق حسبما تشهد[٥] به الشواهدُ الحقّة المعربة عن حقّيّته.

---

[١] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٥/٢.
[٢] القولان للزمخشري في الكشّاف، ٢٨٦/٢.
[٣] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٥/٢.
[٤] السياق: ولمّا كان... عُطف...
[٥] م: يشهد.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ولم يصدِّق بتلك الشواهد الحقّة. ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مِن أهل مكّةَ ومَن تحزَّب معهم على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ يردّها لا محالةَ حسبما نطق به قوله عزّ وعلا: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾.[1] وفي جعلها موعدًا إشعارٌ بأنّ له فيها / ما لا يُوصَف مِن أفانين العذاب. [١٢٥و]

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شكٍّ مِن أمر القرآن وكونه مِن عند الله عزّ وجلّ غِبّما شهِدت به الشواهد المذكورة وظهَر فضل مَن تمسَّك به. ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الذي يُربِّيك في دِينك ودنياك. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك إمّا لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم، وإمّا لعِنادهم واستكبارهم فـ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مبتدأ حُذف خبره لإغناء الحال عن ذِكره، وتقديرُه أفمَن كان على بيّنة مِن ربّه كأولئك الذين ذُكرت أعمالهم وبُيِّن مصيرهم ومآلُهم، يعني: أنّ بينهما تفاوتًا عظيمًا بحيثُ لا يكاد يتراءى ناراهما.

وإيراد "الفاء" بعد "الهمزةِ" لإنكار ترتُّب توهُّم المماثلة على ما ذُكر مِن صفاتهم وعُدِّد مِن هَناتهم، كأنّه قيل: أَبَعْد ظهور حالهم في الدنيا والآخرة كما وُصف يُتوهَّم المماثلة بينهم وبين مَن كان على أحسن ما يكون في العاجل والآجل، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الرعد، ١٦/١٣]، أي: أبَعْد أن علِمتُموه ربَّ السماواتِ والأرض اتّخذتُم مِن دونه أولياء، وقولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد، ١٩/١٣].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن نسَب إليه ما لا يليق به، كقولهم للملائكة: "بناتُ الله" تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وقولهم لآلهتهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس، ١٨/١٠]، يعني أنّهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون

---

[1] في الآية السابقة.

عليه كذبًا. وهذا التركيب وإن كان سبكه على / إنكار أن يكون أحد أظلمَ منهم [١٢٥ظ] مِن غير تعرّض لإنكار المساواة ونفيها ولكنّ المقصود به قصدًا مطّردًا إنكارُ المساواة ونفيها وإفادة أنّهم أظلم مِن كلّ ظالم، كما ينبئ عنه ما سيتلى مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود، ٢٢/١١]، فإذا قيل: مَن أكرم مِن فلان؟ أو لا أفضلَ منه، فالمراد منه حتمًا أنّه أكرم مِن كلّ كريم، وأفضلُ مِن كلّ فاضل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالظلم البالغ الذي هو الافتراء على الله تعالى، وبهذه الإشارة حصلت الغُنية عن إسناد العَرْض إلى أعمالهم واكتُفيَ بإسناده إليهم، حيث قيل: ﴿يُعْرَضُونَ﴾ لأنّ عَرْضهم مِن تلك الحيثيّة وبذلك العنوان عَرْضٌ لأعمالهم على وجه أبلغَ، فإنّ عَرْض العامل بعمله أفظع مِن عَرْض عمله مع غَيْبته. ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الحقّ، وفيه إيماء إلى بطلان رأيهم في اتّخاذهم أربابًا مِن دون الله عزّ وجلّ.

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ عند العَرْض مِن الملائكة والنبيّين أو مِن جوارحهم، وهو جَمْع "شاهد" أو "شهيد" كأصحاب وأشراف: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ بالافتراء عليه، كأنّ ذلك أمر واضح غنيّ عن الشهادة بوقوعه، وإنّما المحتاج إلى الشهادة تعيينُ مَن صدر عنه ذلك، فلذلك لا يقولون: هؤلاء كذبوا على ربّهم.

ويجوز أن يكون المراد بالأشهاد الحُضّارَ، وهم جميع أهل الموقِف على ما قاله قتادة ومقاتل،[1] ويكون قولهم: هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم ذمًّا لهم بذلك لا شهادةً عليهم، كما يُشعر به قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ دون "ويشهد"... إلخ، وتوطئةً لِما يعقُبه مِن قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالافتراء المذكور. ويجوز أن يكون هذا على الوجه الأوّل مِن كلام الله عزّ وجلّ، / وفيه تهويلٌ [١٢٦و] عظيم لِما يَحيق بهم مِن عاقبة ظُلمهم. اللّهمّ إنّا نعوذُ بك مِن الخِزي على رءوس الأشهاد.

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٣٦٧/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٦٨/٤.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ١٩﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ أي: كلُّ مَن يقدِرون على صدّه أو يفعلون الصدّ. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دِينه القويم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ انحرافًا، أي: يصفونها بذلك، وهو أبعد شيءٍ منه، أو يبغون أهلَها أن ينحرفوا عنها، يقال: بغَيتُك خيرًا أو شرًّا، أي: طلبتُ لك، وهذا شامل لتكذيبهم بالقرآن وقولِهم: إنّه ليس مِن عند الله.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: يصِفونها بالعِوَج، والحالُ أنّهم كافرون بها لا أنّهم يؤمنون بها ويزعُمون أنّ لها سبيلًا سويًّا يهدون الناسَ إليه. وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كأنّ كفر غيرهم ليس بشيء عند كفرهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ٢٠﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مع ما وُصف مِن أحوالهم الموجبةِ للتدمير ﴿لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ﴾ الله تعالى مُفلِتين بأنفسهم مِن أَخذه لو أرادوا ذلك. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مع سَعتها وإن هربوا منها كلّ مَهرب، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ ينصُرونهم مِن بأسه، ولكن أُخِّر ذلك لحكمة تقتضيه. والجمع إمّا باعتبار أفراد الكفَرة كأنّه قيل: وما كان لأحد منهم مِن وليّ أو باعتبار تعدُّد ما كانوا يدعون مِن دون الله تعالى، فيكون ذلك بيانًا لحال آلهتهم مِن سقوطها عن رتبة الولاية.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ استئناف يتضمَّن حكمة تأخير المؤاخذة. وقرأ ابن كثير[1]

---

[1] هو عبد الله بن كثير بن عمرو الداري المكي، مختلف في كنيته والأصحّ أنّه أبو معبد (ت.١٢٠هـ/٧٣٨م). الإمام العلم الثقة أحد القرّاء السبعة، ومُقرئ مكّة وقاضي الجماعة فيها، وُلد ومات بمكّة، وهو فارسيّ الأصل، وكان عطّارًا وكانوا يسمّون العطّار داريًّا فعُرف بالداري. قرأ على مجاهد ودرباس مولى ابن عبّاس، وحدّث عن ابن الزبير وعكرمة ومجاهد وغيرهم، وهو قليل الحديث، روى القراءة عنه راويان البزّي وقنبل وغيرهما. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣١٨/٥؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ٤٤٣/١-٤٤٤؛ والأعلام للزركلي، ١١٥/٤.

وابن عامر ويعقوب[١] بالتشديد.[٢]

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ لفَرْط تصامِّهم عن الحقّ وبُغضِهم له كأنّهم لا يقدِرون على السمع، ولمّا كان قُبح حالِهم في عدم إذعانهم للقرآن الذي طريقُ تلقِّيه السمعُ أشدَّ منه / في عدم قَبولِهم لسائر الآيات المنوطةِ بالإبصار، [١٢٦ظ] بالغَ في نفي الأوّلِ عنهم،[٣] حيث نفى عنهم الاستطاعة واكتفى في الثاني بنفي الإبصارِ فقال: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة في الأنفس والآفاق، وهو استئناف وقَع تعليلًا لمضاعفة العذاب.

وقيل: هو بيان لِما نُفي مِن ولاية الآلهة، فإنّ ما لا يسمع ولا يُبصر بمَعزِل مِن الولاية، وقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ اعتراضٌ وُسِّط بينهما نعيًا عليهم مِن أوّل الأمر سوءَ العاقبة.[٤]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بما ذُكر مِن القبائح ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله عزّ سلطانه. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ مِن الآلهة وشفاعتها، أو خَسِروا ما بذلوا وضاع عنهم ما حصَّلوا فلم يبقَ معهم سوى الحسرة والندامة.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾

---

[١] هو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي البصري، أبو محمّد (ت. ٢٠٥هـ/٨٢١م). المقرئ المشهور، وأحد القرّاء العشرة، إمام أهل البصرة ومقرئها. له علم بالقراءات والعربيّة وكلام العرب والروايات الكثيرة للحروف والفقه. روى عن حمزة حروفًا، وسمع الحروف مِن أبي الحسن الكسائي. وقيل: قرأ على أبي عمرو. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٣٩٠/٦؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ٣٨٦/٢؛ والأعلام للزركلي، ١٩٥/٨.

[٢] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

[٣] السياق: ولمّا كان قُبح... بالغ في نفي...

[٤] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٦/٢.

﴿لَا جَرَمَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجه: **الأوّلُ**: أنّ ﴿لَا﴾ نافيةٌ لِما سبق، و﴿جَرَمَ﴾ فعل بمعنى: حقَّ، و﴿أَنَّ﴾ مع[1] ما في حيّزه فاعلُه، والمعنى: لا ينفعهم ذلك الفعلُ حقَّ، ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ وهذا مذهبُ سيبويه؛ **والثاني**: ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى: كسَبَ، وما بعده مفعولُه، وفاعلُه ما دلّ عليه الكلام، أي: كسَبَ ذلك خُسرانَهم، فالمعنى: ما حصل مِن ذلك إلّا ظهورُ خسرانهم؛ **والثالثُ**: أنّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى: لا بدّ، أي: لا بدّ أنّهم في الآخرة هم الأخسرون.[2]

وأيًّا ما كان فمعناه أنّهم أخسرُ مِن كلّ خاسر فتبيَّن أنّهم أظلمُ مِن كلّ ظالم، وهذه الآيات الكريمة كما ترى مقرِّرةٌ لِما سبق مِن إنكار المماثلة بين مَن كان على بيّنة مِن ربّه وبين مَن كان يريد الحياة الدنيا أبلغَ تقرير، فإنّهم حيث كانوا أظلمَ مِن كلّ ظالم / وأخسَرُ مِن كلّ خاسر، لم يُتصوَّر مماثلةٌ بينهم وبين أحد مِن الظلَمة الأخسرين، فما ظنُّك بالمماثلة بينهم وبين مَن هو في أعلى مدارج الكمال؟ [١٢٧و]

ولمّا ذُكر فريق الكفّار وأعمالهم وبُيِّن مصيرهم ومآلهم شُرع في بيان حال أضدادهم، أعني فريق المؤمنين وما يئول إليه أمرهم مِن العواقب الحميدة تكملة لِما سلف مِن محاسنهم المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية، [هود، ١٧/١١]، ليتبيَّن ما بينهما مِن التباين البيّن حالًا ومآلًا، فقيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بكلّ ما يجب أن يُؤمَن به، فيندرج تحته ما نحن بصدده مِن الإيمان بالقرآن الذي عُبّر عنه بالكون على بيّنة مِن الله، وإنّما يحصُل ذلك باستماع الوحي والتدبّر فيه ومشاهدة ما يؤدِّي إلى ذلك في الأنفس والآفاق، أو فعلوا الإيمان، كما في "يُعطي ويمنع".[3]

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: اطمأنّوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخضوع والتواضع، مِن الخَبْت: وهي الأرضُ المطمئنّة، ومعنى أخبتَ: دخل

---

١ س - مع.

٢ الوجوه الثلاثة مع وجهين آخرين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٠٣/٦-٣٠٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٦١/١٠-٤٦٢. وقول سيبويه في الكتاب، ١٣٩/٣.

٣ أي: يفعل الإعطاء والمنع.

في الخَبْت، كـ"أتْهَم" و"أنْجَد": دخلَ في تِهامةَ[1] ونجد. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون.

وبعد بيان تباين حالَيهما عقلًا أُريدَ بيانُ تبايُنهما حِسًّا، فقيل: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ المذكورَين، أي: حالهما العجيب، لأنّ المَثَل لا يُطلق إلّا على ما فيه غرابة مِن الأحوال والصفات.

[١٢٧ظ] ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ أي: كحال هؤلاء / فيكون ذواتُهم كذواتهم، والكلامُ وإن أمكَن أن يُحمَل على تشبيه الفريق الأوّل بالأعمى وبالأصمّ وتشبيه الفريق الثاني بالبصير وبالسميع؛ لكنّ الأدخَل في المبالغة والأقربَ إلى ما يُشير إليه لفظ المَثَل والأنسبَ بما سبق مِن وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع وبعدم الإبصار أن يُحمَل على تشبيه الفريق الأوّل بمَن جمَع بين العمى والصمَم، وتشبيهِ الفريق الثاني بمَن جمَع بين البصر والسمع، على أن تكون الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَصَمِّ﴾ وفي قوله: ﴿وَٱلسَّمِيعِ﴾ لعطف الصفةِ على الصفة، كما في قول مَن قال:

إلى المَلِك القَرْم وابن الهُمامِ   وليثِ الكتيبةِ في المُزدحَمْ[2]

وأيًّا ما كان فالظاهر أنّ المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المَثَل وهي التي يدور عليها أمر التشبيه: ما يُلائم الأحوال المذكورة المعتبرة في جانب المشبَّه به:

مِن تعامي الفريق الأوّل عن مشاهدة آيات الله المنصوبة في العالم والنظر إليها بعين الاعتبار وتصامِّهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقّيها بالقَبول،

---

[1] تِهامة: بالكسر واد باليمامة. قيل: تساير البحر ومنها مكّة. وقيل: تهامة إلى عرق اليمن إلى أسياف البحر إلى الحجفة وذات عرق. وقيل: ما سال مِن الحرّتين حرّة سليم وحرّة ليلى فهو تهامة والغور حتّى يقطع البحر. انظر: معجم البلدان للحموي، ٦٣/٢، ١٣٧.

[2] لا يُعرَف قائله. وهو بلا نسبة في تفسير الطبري، ٨٩/٣ (البقرة، ١٧٧/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٦/١ (البقرة، ٤/٢)؛ وشرح الرضيّ على الكافية، ٢٦٥/١، ٣٣٢/٢، ٤٠/٤. والقرم: الفحل المُكْرَم الذي يُترك مِن الركوب والعمل، ولذلك سُمّيَ سيّد القوم بالقرم، وهو المقصود ههنا. لسان العرب لابن منظور، «قرم». والمُزدَحم: المعركة.

حسبما ذُكر في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا[1] يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾.[2] وإنّما لـم يُراعَ هذا الترتيب هنا لكون الأعمى أظهرَ وأشهرَ في سوء الحال مِن الأصمّ.

ومِن استعمال الفريقِ الثاني لكلّ مِن أبصارهم وأسماعِهم فيما ذُكر كما ينبغي، المدلولِ عليه بما سبق مِن الإيمان والعمل الصالح والإخبات حسبما فُسّر به فيما مرّ، فلا يكون / التشبيهُ تمثيليًا. [١٢٨و]

لا جميعُ[3] الأحوال المعدودةِ لكلّ مِن الفريقين ممّا ذُكر، وما يؤدّي إليه مِن العذاب المضاعَف والخسران البالغ في أحدهما ومِن النعيم المقيم في الآخر، فإنّ اعتبار ذلك ينزع إلى كون التشبيه تمثيليًا: بأن يُنتزَع مِن حال الفريق الأوّل في تصامّهم وتعاميهم المذكورَين ووقوعهم بسبب ذلك في العذاب المضاعَف والخُسران الذي لا خسرانَ فوقه هيئةٌ، فتُشبَّهَ بهيئة مُنتزَعة ممّن فقَدَ مَشعرَي البصر والسمع فتخبَّط في مَسلَكه فوقع في مهاوي الردى ولم يجِد إلى مقصِده سبيلًا، ويُنتزَعَ مِن حال الفريق الثاني في استعمال مشاعرهم في آيات الله تعالى حسبما ينبغي وفوزهم بدار الخلود هيئةٌ فتُشبَّهَ بهيئة مُنتزَعة ممّن له بصَر وسَمْع يستعملهما في مهمّاته فيهتدي إلى سبيله وينال مَرامه.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يعني الفريقين المذكورين، والاستفهامُ إنكاري مُذكِّر لِما سبق مِن إنكار المماثلة في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾، الآية.[4] ﴿مَثَلًا﴾ أي: حالًا وصفة، وهو تمييز مِن فاعل ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أتشكُّون في عدم الاستواء وما بينهما مِن التبايُن؟ أو أتغفُلون عنه فلا تتذكَّرونه بالتأمّل فيما ضُرب لكم مِن المَثَل؟ فيكون الإنكارُ واردًا على المعطوفَين معًا، أو أتسمعون هذا فلا تتذكَّرون؟ فيكون راجعًا إلى عدم التذكّر بعد تحقّق ما يُوجِب وجوده وهو المَثَل المضروب، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران، ١٤٤/٣]، / فإنّ "الفاءَ" [١٢٨ظ]

---

١ م س – ما كانوا؛ م س + لا.

٢ هود، ٢٠/١١.

٣ وفي هامش م: عطفٌ على خبر "إنّ"، وهو قوله: "ما يُلائم الأحوال المذكورة". «منه».

٤ هود، ١٧/١١.

هناك لإنكار الانقلاب بعد تحقّق ما يُوجِب عدمه مِن علمهم بخلوّ الرسل قبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

أو أفلا تفعلون التذكّر؟ أو أفلا تعقِلون؟ ومعنى الهمزة إنكارُ عدم التذكّر واستبعاد صدوره عن المخاطَبين وأنّه ليس ممّا يصحّ أن يقع، لا مِن قبيل الإنكارِ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾،[1] وقولِه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾، فإنّ ذلك لنفي المماثلة ونفي الاستواء.

ولمّا بُيِّن مِن فاتحة السورة الكريمة إلى هذا المقام أنّها كتاب محكَم الآيات مفصَّلُها نازلٌ في شأن التوحيد وتركِ عبادة غير الله سبحانه، وأنّ الذي أُنزل عليه نذير وبشير مِن جهته تعالى، وقُرِّر في تضاعيف ذلك ما له مَدخَل في تحقيق هذا المرام مِن الترغيب والترهيب وإلزام المعاندين بما يقارنه مِن الشواهد الحقّة الدالّة على كونه مِن عند الله تعالى، وتسليةِ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ممّا عراه مِن ضيق الصدر العارض له مِن اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له، وتسميتِهم للقرآن تارة سِحرًا وأخرى مفترًى وتثبيتِه عليه السلام والمؤمنين على التمسّك به والعملِ بمُوجَبه على أبلغ وجه وأبدع أسلوب، شُرِع[2] في تحقيق ما ذُكر وتقريره بذِكر قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحةُ السورة الكريمة ليتأكّد ذلك بطريقين: **أحدُهما**: أنّ ما أُمر به مِن التوحيد وفروعه ممّا أطبق عليه الأنبياء قاطبة، **والثاني**: أنّ ذلك إنّما علِمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطريق الوحي فلا يبقى في حقّيّته كلام أصلًا، وليتسلّى بما يشاهده مِن معاناة الرسل / قبله مِن أممهم ومُقاساتهم الشدائدَ مِن جهتهم. [١٢٩و]

فقيل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ "الواو" ابتدائيّة، و"اللام" جواب قَسَم محذوف، وحرفه الباء لا الواو، كما في سورة الأعراف، لئلّا يجتمع واوان، ولا تكاد تطلق هذه اللامُ إلّا مع "قد"، لأنّها مَظِنّة التوقّع وأنّ المخاطَب إذا سمعها توقّع وقوع ما صُدّر بها. ونوحٌ هو ابن لمك بن متوشلح بن إدريسَ عليهما السلام، وهو أوّل نبيّ بُعث بعده.

---

[1] هود، ١٧/١١.

[2] السياق: ولمّا بيّن... شُرع...

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: بُعث عليه السلام على رأس أربعين مِن عُمره، ولبِث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنةً، وعاش بعد الطوفان ستين سنةً، وكان عمره ألفًا وخمسين سنةً. وقال مقاتل: بُعث وهو ابن مائة سنةٍ. وقيل: وهو ابن خمسين سنةً. وقيل: وهو ابن مائتين وخمسين سنةً، ومكَث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنةً، وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنةً، فكان عمره ألفًا وأربعمائة وخمسين سنةً.[1]

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ بالكسر على إرادة "القول"، أي: فقال أو قائلًا، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالفتح[2] على إضمار حرف الجرّ، أي: أرسلناه ملتبسًا بذلك الكلام، وهو ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ بالكسر، فلمّا اتّصل به الجارّ فُتح كما فُتح في "كأنّ"، والمعنى على الكسر، وهو قولك: إنّ زيدًا كالأسد، واقتُصر على ذِكر كونه عليه السلام نذيرًا، لا لأنّ دعوته عليه السلام كانت بطريق الإنذار فقط، ألا يُرى إلى قوله عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾... إلخ [نوح، ٧١/١٠-١١]؛ بل لأنّهم لم يغتنموا مغانمَ إبشاره عليه السلام.

﴿مُبِينٌ﴾ أُبيّن لكم موجِبات العذاب ووجهَ الخلاص عنه، لأنّ الإنذار إعلام المحذور، لا لمجرّد التخويف والإزعاج؛ بل للحذر منه فتتعلّق صفتُه / بكلا وصفَيه. [١٢٩ظ]

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: بألّا تعبدوا، على أنّ ﴿أَن﴾: مصدريّة، والباء متعلِّقة بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾،[3] و﴿لَا﴾ ناهية، أي: أرسلناه ملتبسًا بنهيهم عن الشرك إلّا أنّه وُسّط بينهما بيانُ بعض أوصافه وأحواله عليه السلام، وهو كونه نذيرًا مبِينًا ليكون أدخلَ في القبول، ولم يُفعل ذلك في صَدْر السورة لئلّا يُفرَق

---

[1] الأقوال الأربعة في معالم التنزيل للبغوي، ١٧٠/٤.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٨٨/٢.

[3] في الآية السابقة.

بين الكتاب ومضمونه بما ليس مِن أوصافه وأحواله؛ أو مفسِّرة[١] متعلّقةٌ به، أو بـ﴿نَذِيرٌ﴾،[٢] أو مفعول لـ﴿مُبِينٌ﴾،[٣] وعلى قراءة الفتح بدلٌ مِن "أنّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ"،[٤] وتعيينٌ لِما يُوجب وقوعَ المحذورِ وتبيينٌ لوجه الخلاصِ، وهو عبادةُ الله تعالى.

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ تعليل لمُوجَب النهي وتصريحٌ بالمحذور وتحقيقٌ للإنذار، والمراد به يوم القيامة أو يوم الطوفان. ووصفُه بـ"الأليم" على الإسناد المجازي للمبالغة، كما في نحو[٥] "نهارُه صائمٌ".

وهذه المقالة وما في معناها ممّا قاله عليه السلام في أثناء الدعوة على ما عُزِي إليه في سائر السور، لمّا لم تصدُر عنه عليه السلام مرّةً واحدة؛ بل كان يكرِّرها عليهم في تلك المدّة المتطاولة على ما نطق به قولُه تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ الآيات، [نوح، ٥/٧١]، عُطِف[٦] على فعل الإرسال المقارِن لها، أو القولِ المقدّر بعده جوابُهم المتعرِّضُ لأحوال المؤمنين الذين اتّبعوه عليه السلام بعد اللّتيا والتي[٧] بالفاء التعقيبيّة، فقيل: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: الأشراف منهم، مِن قولهم: فلان مليء بكذا، أي: مُطيقٌ له؛ لأنّهم مُلِئوا بكفايات الأمور، أو لأنّهم ملئوا القلوبَ هيبة والمجالسَ أُبّهة، أو لأنّهم ملأ بالأحلام والآراء الصائبة. ووصفُهم بالكفر لذمّهم والتسجيل عليهم بذلك مِن أوّل الأمر، لا لأنّ بعض أشرافهم ليسوا بكفَرة.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ مرادهم: ما أنت إلّا بشر مثلنا ليس فيك مزيّة تخصُّك مِن دوننا بما تدّعيه مِن النبوّة، ولو كان كذلك لرأيناه، لا أنّ ذلك محتمِل ولكن لا نراه. وكذا الحالُ في قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾، فالفعلان / مِن رؤية العين. [١٣٠و]

---

١ السياق: مصدريّة... أو مفسِّرة...
٢ في الآية السابقة.
٣ في الآية السابقة.
٤ مضت القراءة بتخريجها في الآية السابقة.
٥ س – نحو.
٦ السياق: لمّا لم تصدُر... عُطِف...
٧ اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ حال مِن المفعول، وكذا قوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ في موضع الحال منه، إمّا على حاله، أو بتقدير "قد" عند مَن يشترِط ذلك. ويجوز أن يكون مِن رؤية القلب، وهو الظاهر. فهما المفعول الثاني، وتعلّقُ الرأي في الأوّل بالمِثليّة لا بالبشريّة فقط، وإنّما لم يبتُّوا القول بذلك مع جزمهم به وإصرارهم عليه إراءة بأنّ ذلك لم يصدُر عنه جزافًا؛ بل بعد التأمّل في الأمر والتدبّر فيه، ولذلك اقتصروا على ذِكر الظنّ فيما سيأتي وتعريضًا مِن أوّل الأمر برأي المُتَّبِعين، فكأنّ قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ جواب عمّا يرِد عليهم مِن أنّه عليه السلام ليس مثلَهم حيث عايَن دلائل نبوّته واغتنم اتّباعَه مَن له عين تُبصر وقلب يُدرك فزعموا أنّ هؤلاء أراذلنا، أي: أخسّاؤنا وأدانينا جَمْع "أَرْذَل"، فإنّه صار بالغلَبة جاريًا مَجرى الاسم كالأكبر والأكابر، أو جَمْع "أرذُل" جَمْع "رَذْل" كأكالِب وأكلُب وكَلْب، يعنون أنّه لا عِبرةَ باتِّباعهم لك؛ إذ ليس لهم رزانةُ عقل ولا أصالةُ رأي، وقد كان ذلك منهم في بادي الرأي، أي: ظاهره مِن غير تعمُّق مِن البدو، أو في أوّله مِن البدء والياء مبدلَة مِن الهمزة لانكسار ما قبلها، وقد قرأه أبو عمرو بها.[١]

وانتصابُه على الظرفيّة على حذف المضاف، أي: وقتَ حدوث بادي الرأي، والعاملُ فيه ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ وإنّما استرذلوهم مع كونهم أولي الألباب الراجحة لفقرهم، فإنّهم لمّا لم يعلموا إلّا ظاهرَ الحياة الدنيا كان الأشرفُ عندهم الأكثرَ منها حظًّا والأرذلُ مَن حُرِمها ولم يفقهوا أنّ ذلك لا يزِن عند الله جناح بعوضة وأنّ النعيم إنّما هو نعيم الآخرة، والأشرفُ مَن فاز به / والأرذلُ مَن حُرِمه. نعوذ بالله تعالى مِن ذلك. [١٣٠ظ]

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ أي: لك ولمتّبِعيك فغلِّب المخاطَب على الغائبين. ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يعنُون أنّ اتّباعهم لك لا يدلّ على نبوّتك ولا يُجديكم فضيلة تَستتبع اتّباعنا لكم واقتصارُهم ههنا على ذِكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق، ومرادهم أنّهم كانوا أراذل قبل اتّباعهم لك، ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتّباع فضيلةً علينا.

---

[١] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ١/٤٠٧، ٢/٢٨٨.

﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ جميعًا لكون كلامكم واحدًا ودعواكم واحدة، أو إيّاك في دعوى النبوّة وإيّاهم في تصديقك، واقتصارُهم على الظنّ احتراز منهم عن نسبتهم إلى المجازفة ومجاراةٌ معه عليه السلام بطريق الإراءة على نهج الإنصاف.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨﴾

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أي: أخبروني، وفيه إيماء إلى ركاكة رأيهم المذكور. ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ برهانٍ ظاهر ﴿مِّن رَّبِّي﴾، وشاهدٍ يشهَد بصِحّة دعوايَ، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ هي النبوّة، ويجوز أن تكون هي البيّنة نفسها جيء بها إيذانًا بأنّها مع كونها بيّنةً مِن الله تعالى رحمةٌ ونعمة عظيمة مِن عنده، فوَجهُ إفرادِ الضمير في قوله: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ حينئذ ظاهرٌ.

وإن أريدَ بها النبوّةُ وبالبيّنة البرهانُ الدالُّ على صحّتها فالإفراد لإرادة كلّ واحدةٍ منهما، أو لكون الضمير للبيّنة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاءَ النبوّة، أو لتقدير فعل آخرَ بعد البيّنة، ومعنى عُمِّيَت: أُخفيَت. وقُرئ: "عَمِيَتْ"،[1] ومعناه: خَفِيَت. وحقيقته أنّ الحجّة كما تُجعَل مُبصِرة وبصيرة تُجعَل عمياءَ، لأنّ الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيرَه. / وفي قراءة أُبيّ "فَعَمَّاهَا عَلَيْكُمْ"[2] على الإسناد إلى الله عزّ وجلّ. [١٣١و]

﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أنُكرِهُكم على الاهتداء بها؟ وهو جواب ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾، وسادٌّ مَسدَّ جواب الشرط. وقرأ أبو عمرو بإخفاء حركة الميم.[3] وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قُدِّم أعرفُهما، جاز في الثاني الوصل والفصلُ، فوُصل كما في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة، ١٣٧/٢].

﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا تختارونها ولا تتأمّلون فيها. ومحصولُ الجواب: أخبروني إن كنتُ على حجّة ظاهرة الدلالة على صِحّة دعوايَ إلّا أنّها

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر عنه ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٨٨/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤.

[3] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٨٨/٢.

خافية عليكم غيرُ مُسلَّمة عندكم، أيمكنُنا أن نُكرِهَكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غيرَ متدبِّرين فيها؟ أي: لا يكون ذلك، وظاهرُه مُشعِر بصدوره عنه عليه السلام بطريق إظهار اليأس عن إلزامهم والقعود عن مُحاجَّتهم، كقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي﴾... إلخ [هود، ٣٤/١١]، لكنّه محمول على أنّ مراده عليه السلام ردُّهم عن الإعراض عنها وحثُّهم على التدبّر فيها بصرف الإنكار إلى الإلزام حالَ كراهتهم لها لا إلى الإلزام مطلقًا.

هذا، ويجوز أن يكون المراد بـ"البيّنة" دليلَ العقل الذي هو ملاك الفضل، وبحسبه يمتاز أفراد البشر بعضُها عن بعض، وبه يناط الكرامة عند الله عزّ وجلّ والاجتباءُ للرسالة؛ وبـ"الكون عليها" التمسُّكَ به والثبات عليه؛ وبـ"خفائها" على الكفَرة، على أن يكون الضمير للبيّنة عدمَ إدراكهم لكونه عليه السلام عليها؛ وبـ"الرحمة" النبوّةَ التي أنكروا اختصاصه عليه السلام بها بين ظَهرانَيهم.

[١٣١ظ] والمعنى أنّكم زعمتُم أنّ عهد النبوّة لا ينال إلّا مَن له فضيلةٌ على / سائر الناس مستتبِعةٌ لاختصاصه به دونهم، أخبروني إن امتزتُ عنكم بزيادة مزيّة وحِيازةِ فضيلة مِن ربّي، وآتاني بحسبها نبوّةً مِن عنده، فخفِيَت عليكم تلك البيّنةُ ولم تُصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها إلى الآن، حتّى زعمتُم أنّي مثلكم، وهي متحقِّقة في نفسها، أنُلزِمكم قَبول نُبوّتي التابعةِ لها والحال أنّكم كارهون لذلك؟ فيكون الاستفهام للحمل على الإقرار. وهو الأنسب بمقام المُحاجّة، وحينئذ يكون كلامه عليه السلام جوابًا عن شُبَههم التي أدرجوها في خلال مقالهم مِن كونه عليه السلام بشرًا، قُصارى أمره أن يكون مثلَهم مِن غير فضل له عليهم، وقطعًا لشأفة آرائهم الركيكة.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ٢٩﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما قلتُه في أثناء دعوتكم ﴿مَالًا﴾ تؤدّونه إليّ بعد إيمانكم واتّباعِكم لي، فيكون ذلك أجرًا لي في مقابلة اهتدائكم،

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي يُثيبني في الآخرة. وفي التعبير عنه حين نُسب إليهم بالمال ما لا يخفى مِن المزيّة.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ جواب عمّا لوّحوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[1] مِن أنّه لو اتّبعه الأشراف لوافقوهم، وأنّ اتّباع الفقراء مانعٌ لهم عن ذلك، كما صرّحوا به في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء، ١١١/٢٦]، فكان ذلك التماسًا منهم لطردهم وتعليقًا لإيمانهم به عليه السلام بذلك أنفةً مِن الانتظام معهم في سِلك واحد.

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم، أي: إنّهم فائزون في الآخرة بلقاء الله عزّ وجلّ، كأنّه قيل: لا أطردهم ولا أُبعِّدهم عن / مجلسي لأنّهم مقرَّبون في حضرة القدس. والتعرّض لوصف الربوبيّة لتربية وجوب رعايتهم وتحتُّم الامتناع عن طردهم، أو مصدِّقون في الدنيا بلقاء ربّهم موقِنون به عالِمون أنّهم ملاقوه لا محالةَ فكيف أطرُدهم؟ [١٣٢و]

وحَمْلُه على معنى أنّهم يُلاقونه فيُجازيهم على ما في قلوبهم مِن إيمان صحيح ثابت كما ظهر لي، أو على خلاف ذلك ممّا تعرِفونهم به مِن بناء إيمانهم على بادي الرأي مِن غير نظر وتفكُّر، وما عليّ أن أشُقّ عن قلوبهم وأتعرَّفَ سرَّ ذلك منهم حتّى أطرُدهم إن كان الأمرُ كما تزعُمون،[2] يأباه الجزمُ[3] بترتُّب غضب الله تعالى على طَرْدهم كما سيأتي، وأيضًا فهم إنّما قالوا: إنّ اتّباعهم لك إنّما هو بحسب بادي الرأي بلا تأمُّل وتفكُّر، وهذا لا يكاد يصلُح مدارًا للطرد في الدنيا ولا للمُؤاخذة في الآخرة، غايتُه ألّا يكونوا في مرتبة الموقنين. وادّعاءُ أنّ بناء الإيمان على ظاهر الرأي يؤدِّي إلى الرجوع عنه عند التأمّل، فكأنّهم قالوا: إنّهم اتّبعوك بلا تأمُّل فلا يثبُتون على دينك؛ بل يرتدُّون عنه، تعسّفٌ لا يخفى.[4]

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بكلّ ما ينبغي أن يُعلم، ويدخُل فيه جهلهم بلقاء الله عزّ وعلا وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طَرْدهم لغضب الله كما سيأتي،

---

[1] هود، ٢٧/١١.
[2] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٠/٢.
[3] السياق: وحَمْلُه على معنى... يأباه الجزم...
[4] السياق: وادِّعاء... تعسُّف...

وبركاكة رأيِهم في التماس ذلك وتوقيفِ إيمانهم عليه أنفةً عن الانتظام معهم في سِلك واحدٍ وزعمًا منهم أنّ الرذالةَ بالفقر والشرفَ بالغنى. وإيثار صيغة الفعل للدلالة على التجدّد والاستمرار، أو تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾

[١٣٢ظ] ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ بدفع حلول سخطِه عنّي. / ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡ﴾ فإنّ ذلك أمرٌ لا مردَّ له لكون الطرد ظلمًا موجبًا لحلول السّخط قطعًا، وإنّما لم يُصرَّح به إشعارًا بأنّه غنيٌّ عن البيان لاسيّما غِبَّ ما قُدّم ما يلوحُ به مِن أحوالهم، فكأنّه قيل: مَن يدفع عنّي غضب الله تعالى إن طردتُهم وهم بتلك المثابة مِن الكرامة والزُلفى؟ كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أتستمرُّون على ما أنتم عليه مِن الجهل المذكور، فلا تتذكّرون ما ذُكر مِن حالهم حتّى تعرِفوا أنّ ما تأتونه بمَعزِل عن الصواب؟ ولكون هذه العلّة مستقلّة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أُفرِدت عن التعليل السابق وصُدِّرت بـ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ حين أدّعي النبوّة: ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: رِزقُه وأموالُه حتّى تستدلّوا بعدمها على كذبي بقولكم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾،[1] فإنّ النبوّة أعزُّ مِن أن تُنال بأسباب دنيويّة، ودعواها بمَعزِل عن ادّعاء المال والجاه.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي: لا أدّعي في قولي: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾،[2] ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾[3] علمَ الغيب حتّى تُسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد، ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتّى تقولوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾،[4] فإنّ البشريّة ليست

---

١ هود، ٢٧/١١.
٢ هود، ٢٥/١١.
٣ هود، ٢٦/١١.
٤ هود، ٢٧/١١.

مِن موانع النبوّة؛ بل مِن مباديها، يعني أنّكم اتّخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة إلى تكذيبي، والحال أنّي لا أدّعي شيئًا مِن ذلك ولا الذي أدّعيه يتعلّق بشيء منها، وإنّما يتعلّق بالفضائل النفسانيّة التي بها تتفاوت مقادير البشر.

﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ مساعدةً لكم كما تقولون ﴿لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ / أي: تَقتَحِمُهم وتَحتقِرُهم، مِن زراه إذا عابه. وإسناد الازدراءِ إلى أعينهم بالنظر إلى قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾،[1] وإمّا للإشعار بأنّ ذلك لقصور نظرهم ولو تدبّروا في شأنهم ما فعلوا ذلك، أي: لا أقول في شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم مِن المؤمنين ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا أو في الآخرة، فعسى الله أن يُؤتيَهم خيرَي الدارين. [١٣٣و]

إن قلتَ: هذا القول ليس ممّا يستنكره الكفَرة ولا ممّا يتوهّمون صُدوره عنه عليه السلام أصالةً أو استتباعًا كادّعاء المَلَكيّة وعِلم الغيب وحِيازة الخزائن ممّا نفاه عليه السلام عن نفسه بطريق التبرّؤ والتنزّه عنه، فمِن أيّ وجه عُطِف نفيُه على نفيها؟ قلتُ: مِن جهة أنّ كلا النفيَين ردٌّ لقياسهم الباطل الذي تمسّكوا به فيما سلف، فإنّهم زعموا أنّ النبوّة تستتبع الأمورَ المذكورة وأنّها لا تتسنّى ممّن ليس على تلك الصفات، وأنّ العثور على مكانها واغتنامَ مغانمها ليس مِن دأب الأراذل، فأجاب عليه السلام بنفي ذلك جميعًا، فكأنّه قال: لا أقول: وجودُ تلك الأشياءِ مِن مواجب النبوّة ولا عدمُ المال والجاه مِن موانع الخير.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مِن الإيمان، وإنّما اقتُصر على نفي القول المذكور مع أنّه عليه السلام جازم بأنّ الله سبحانه سيُؤتيهم خيرًا عظيمًا في الدارين، وأنّهم على يقين راسخ في الإيمان جريًا على سَنن الإنصاف مع القوم واكتفاء بمخالفة كلامهم وإرشادًا لهم إلى مَسلَك الهداية، بأنّ اللائق لكلّ أحد / ألّا يبُتَّ القول إلّا فيما يعلَمه يقينًا، ويَبنيَ أمورَه على الشواهد الظاهرة، ولا يجازفَ فيما ليس فيه على بيّنة ظاهرة. [١٣٣ظ]

---

[1] هود، ٢٧/١١.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ أي: إذا قلتُ ذلك[١] ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لهم بحطّ مرتبتِهم ونقصِ حقوقهم، أو مِن الظالمين لأنفسهم بذلك، فإنّ وباله راجع إلى أنفسهم. وفيه تعريضٌ بأنّهم ظالمون في ازدرائهم واسترذالِهم. وقيل: إذا قلتُ شيئًا ممّا ذُكر مِن ادّعاء المَلَكيّة وعِلم الغيب وحيازة الخزائن.[٢] وهو بعيدٌ؛ لأنّ تَبِعة تلك الأقوال مُغنية عن التعليل بلزوم الانتظام في زُمرة الظالمين.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي: أطلتَه أو أتيتَه بأنواعه، فإنّ إكثار الجدال يتحقّق بعد وقوع أصله فلذلك عُطف عليه بـ"الفاء"، أو أردتَ ذلك فأكثرتَه، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [النحل، ٩٨/١٦].

ولمّا حجّهم عليه السلام وأبرز لهم بيّناتٍ واضحةَ المدلول وحُججًا تتلقّاها العقول بالقَبول، وألقمهم الحجر بردّ شُبَههم الباطلة ضاقت عليهم الحِيَل وعيّت بهم العِلَل، وقالوا: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِن العذاب المُعجَّل، أو العذابِ الذي أشيرَ إليه في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾،[٣] على تقدير ألّا يكون المراد باليوم يومَ القيامة. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تقول.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ يعني أنّ ذلك ليس موكولًا إليّ، ولا هو ممّا يدخُل تحت قدرتي، وإنّما يتوّلاه الله الذي كفرتُم به / وعصيتُموه، يأتيكم به عاجلًا أو آجلًا إن تعلّق به مشيئته التابعة للحكمة. وفيه ما لا يخفى مِن تهويل الموعود، فكأنّه قيل: الإتيان به أمر خارج عن دائرة القُوى البشريّة، وإنّما يفعله الله عزّ وجلّ. [١٣٤و]

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بالهرَب أو بالمدافعة كما تُدافعونني في الكلام.

---

[١] وفي هامش م: أي: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾. «منه».

[٢] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٩٠/٢-٢٩١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٩/٢.

[٣] هود، ٢٦/١١.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٤﴾

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ النُصح كلمة جامعة لكلّ ما يدور عليه الخير مِن فعل أو قول، وحقيقتُه: إمحاضُ إرادة الخير والدلالة عليه، ونقيضُه الغِشُّ. وقيل: هو إعلام مَوقعِ الغَيّ ليُتّقى وموضعِ الرشد ليُقتفى.

﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ شرطٌ حُذف جوابُه لدلالة ما سبق عليه، والتقدير: إن أردتُ أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، وهذه الجملة دليل على ما حُذف مِن جواب قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾، والتقدير: إن كان الله يريد أن يُغويَكم فإن أردتُ أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي.

هذا على ما ذهب إليه البصريّون مِن عدم تقديم الجزاء على الشرط، وأمّا على ما ذهب إليه الكوفيّون مِن جوازه فقوله عزّ وعلا: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ جزاء للشرط الأوّل، والجملة جزاء للشرط الثاني، وعلى التقديرين فالجزاء متعلِّق بالشرط الأوّل، وتعلُّقه به معلَّق بالشرط الثاني، وهذا الكلام متعلِّقٌ بقولهم: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾،[1] صدر عنه عليه السلام إظهارًا للعجز عن إلزامهم بالحُجَج والبيّنات لتماديهم في العناد، وإيذانًا بأنّ ما سبق منه ليس بطريق الجدال والخصام؛ بل بطريق النصيحة لهم والشفَقة عليهم، / وبأنّه [١٣٤ظ] لم يألُ جُهدًا في إرشادهم إلى الحقّ وهدايتِهم إلى سبيله المستبين وإمحاضِ النصح لهم، ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم.

وتقييد عدمِ نفع النصح بإرادته مع أنّه محقَّق لا محالةَ للإيذان بأنّ ذلك النصح منه مقارِن للإرادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ما وقع بإزائه مِن إرادته تعالى لإغوائهم، وإنّما اقتُصر في ذلك على مجرَّد إرادة الإغواء دون نفسِه -حيث لم يُقل: إن كان الله يغويكم- مبالغةً في بيان غلَبة جنابِه عزّ وجلّ، حيث دلّ ذلك على أنّ نصحه المقارِن للاهتمام به لا يُجديهم عند مجرَّد إرادة الله سبحانه لإغوائهم، فكيف عند تحقيق ذلك وخلقِه فيهم؟

[1] هود، ٣٢/١١.

وزيادة ﴿كَانَ﴾ للإشعار بتقدّم إرادته تعالى زمانًا كتقدّمه رتبةً، وللدلالة على تجدّدها واستمرارِها.

وإنّما قُدِّم على هذا الكلامِ ما يتعلّق بقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾[1] مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾[2] ردًّا عليهم مِن أوّل الأمر وتسجيلًا عليهم بحلول العذابِ مع ما فيه مِن اتّصال الجواب بالسؤال. وفيه دليل على أنّ إرادته تعالى يصِحّ تعلّقها بالإغواء، وأنّ خِلاف مراده غيرُ واقع. وقيل: معنى ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: أن يُهلككم، مِن غَوِيَ الفصيلُ غَوًى إذا بشِم[3] وهلَك.[4]

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ خالقُكم ومالكُ أمركم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالةَ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ قال ابن عبّاس رضيَ الله عنهما: «يعني نوحًا عليه السلام».[5] ومعناه: بل أيقول قوم نوحٍ: إنّ نوحًا افترى ما جاء به / [١٣٥و] مسنِدًا إلى الله عزّ وجلّ. ﴿قُلْ﴾ يا نوح ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ بالفَرْض البَحْت ﴿فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ إثمي ووبالُ إجرامي، وهو كسبُ الذنب. وقُرئ: بلفظ الجمع،[6] وينصُره أن فسّره الأوّلون بآثامي.[7]

﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ مِن إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ، فلا وجهَ لإعراضكم عنّي ومعاداتِكم لي. وقال مقاتل: «يعني محمدًا صلّى الله عليه وسلّم».[8] ومعناه: بل أيقول مشركو مكّةَ: افترى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خبرَ نوحٍ، فكأنّه إنّما جيء به في تضاعيف القصّة عند سَوْق طرَف منها تحقيقًا

---

[1] هود، ١١/٣٢.
[2] هود، ١١/٣٣.
[3] البشَم: تُخمة على الدَّسم، وربّما بشِم الفصيل مِن كثرة شرب اللبن فيهلِك. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بشم».
[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩١.
[5] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٣.
[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزّعفراني. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٨٨.
[7] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩١.
[8] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٣.

لحقّيتها وتأكيدًا لوقوعها وتشويقًا للسامعين إلى استماعها، لا سيّما وقد قُصّ منها طائفة متعلِّقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومِه مِن المُحاجّة، وبقيَت طائفة مستقلّة متعلِّقة بعذابهم.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ﴾ أي: المُصِرّين على الكفر، وهو إقناط له عليه السلام مِن إيمانهم، وإعلامٌ لكونه كالمُحال الذي لا يصِحّ توقُّعه. ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ إلّا مَن قد وُجد منه ما كان يُتوقَّع مِن إيمانه، وهذا الاستثناء على طريقة قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء، ٢٢/٤].

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: لا تحزَن حزنَ بائس مستكين، ولا تغتمّ بما كانوا يتعاطَونه مِن التكذيب والاستهزاء والإيذاء في هذه المدّة الطويلة، فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧﴾

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ ملتبِسًا ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظنا وكلاءتِنا، كأنّ معه مِن الله عزّ وجلّ حُفّاظًا وحُرّاسًا يكلؤنه بأعينهم مِن التعدّي مِن الكفرة ومِن الزَّيغ / في الصَّنْعة. ﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليك كيف تصنعها وتعليمِنا وإلهامِنا. [١٣٥ظ]

عن ابن عبّاس: «لم يعلم كيف صنعة الفُلك، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعها مثلَ جُؤجُؤ[1] الطائر».[2] والأمرُ للوجوب؛ إذ لا سبيلَ إلى صيانة الرُّوح مِن الغرق إلّا به، فيَجب كوجوبها. و"اللامُ" إمّا للعهد، بأن يُحمَل على أنّ هذا مسبوق بوحي الله تعالى إليه عليه السلام أنّه سيُهلكهم بالغرق، ويُنجّيه ومَن معه بشيء سيصنعه بأمره تعالى ووحيه مِن شأنه كيتَ وكيتَ واسمُه كذا، وإمّا للجنس.

---

[1] الجؤجؤ: الصدر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «جأجأ».

[2] جامع البيان للطبري، ٣٩٢/١٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٢.

قيل: صنعها عليه السلام في سنتين،[١] وقيل: في أربعمائة سنةٍ.[٢] وكانت مِن خشب الساج، وجُعلت ثلاثةَ بطون: حُمل في البطن الأوّل الوحوشُ والسباع والهوامّ، وفي البطن الأوسطِ الدوابُّ والأنعام، وفي البطن الأعلى جنسُ البشر هو ومَن معه مع ما يحتاجون إليه مِن الزاد.[٣] وحَمل معه جسدَ آدمَ عليه السلام. وقيل: جَعل في الأوّل الدوابَّ والوحوش، وفي الثاني الإنسَ، وفي الأعلى الطيرَ.[٤] قيل: كان طولُها ثلاثمائة ذراعٍ وعَرضُها خمسين ذراعًا، وسَمْكُها ثلاثين ذراعًا.[٥] وقال الحسن: «كان طولُها ألفًا ومائتي ذراعٍ، وعَرضُها ستّمائة ذراعٍ».[٦]

وقيل: إنّ الحَواريّين قالوا لعيسى عليه السلام: «لو بعثتَ لنا رجلًا شهد السفينة يحدِّثنا عنها»، فانطلق بهم حتّى انتهى إلى كثيب مِن تراب فأخذ كفًّا / مِن ذلك التراب، فقال: «أتدرون مَن هذا؟» قالوا: «الله ورسوله أعلَم»، قال: «هذا كعبُ بنُ حام»، قال فضرب بعصاه فقال: «قُم بإذن الله»، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى عليه السلام: «أهكذا هلكتَ؟» قال: «لا، مِتُّ وأنا شابّ ولكنّني ظننتُ أنّها الساعة فمِن ثَمّةَ شِبتُ»، فقال: «حدِّثنا عن سفينة نوح»، قال: «كان طولها ألفًا ومائتي ذراعٍ وعَرضُها ستّمائة ذراعٍ، وكانت ثلاث طبقاتٍ: طبقة للدوابّ والوَحش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير». ثمّ قال: «عُد بإذن الله تعالى كما كنت» فعاد ترابًا.[٧] [١٣٦و]

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: لا تُراجعني فيهم ولا تدعُني باستدفاع العذاب عنهم. وفيه مِن المبالغة ما ليس فيما لو قيل: ولا تدعُني فيهم، وحيث كان فيه ما يُلوِّح بما يستتبِعه أُكِّد التعليل فقيل: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ أي: محكوم عليهم

---

١ مَرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٤، وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٢.

٢ انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢/٢٨١.

٣ مَرويٌّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٤-١٧٥.

٤ ورد هذا القول بمعناه في أثناء خبر الحواريّين مع عيسى عليه السلام المرويّ عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ١٢/٢٩٥؛ وهو عن كعب الأحبار في معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٥.

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٢.

٦ جامع البيان للطبري، ١٢/٢٩٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٥.

٧ هو بهذا اللفظ بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٢. وهو لابن عبّاس بلفظ قريب مع زيادات في جامع البيان للطبري، ١٢/٣٩٥-٣٩٦.

بالإغراق قد مضى به القضاء وجفّ القلم فلا سبيلَ إلى كفّه، ولزِمتْهم الحُجّة فلم يبقَ إلّا أن يُجعلوا عِبرةً للمعتبِرين ومَثلًا للآخِرين.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨﴾

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة. وقيل: تقديره وأخذ يصنع الفُلك، أو أقبل يصنعها فاقتُصر على ﴿يَصْنَعُ﴾.[1]

وأيًا ما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم مِن الجملة الواقعة حالًا مِن ضميره، أعني قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ استهزءوا به لعمله السفينة، إمّا لأنّهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفيّةَ استعمالها والانتفاعِ بها، فتعجّبوا مِن ذلك وسخِروا منه، وإمّا لأنّه كان يصنعها في / برّيّة يهماءَ[2] في أبعَد [١٣٦ظ] موضع مِن الماء وفي وقت عِزّته عِزّةً شديدة، وكانوا يتضاحكون ويقولون: «يا نوحُ صرتَ نجّارًا بعد ما كنت نبيًّا!»، وقيل: لأنّه عليه السلام كان يُنذرهم الغرق فلمّا طال مُكْثه فيهم ولم يُشاهِدوا منه عينًا ولا أثرًا عدُّوه مِن باب المُحال، ثمّ لمّا رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص مِن ذلك فعلوا ما فعلوا.[3] ومدار الجميع إنكارُ أن يكون لعمله عليه السلام عاقبةٌ حميدة، مع ما فيه مِن تحمّل المَشاقّ العظيمة التي لا تكاد تُطاق واستجهاله عليه السلام في ذلك.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾ مستجهلين لنا فيما نحن فيه ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ أي: نستجهلكم فيما أنتم عليه. وإطلاق السُّخرية عليه للمشاكلة. وجمعُ الضمير في ﴿مِنَّا﴾ إمّا لأنّ سُخريتهم منه عليه السلام سُخرية مِن المؤمنين أيضًا، أو لأنّهم كانوا يسخرون منهم أيضًا، إلّا أنّه اكتُفيَ بذكر سُخريتهم منه عليه السلام، ولذلك تعرَّض الجميع للمُجازاة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾... إلخ، فتكافأ الكلام مِن الجانبين.

---

[1] القول في اللباب لابن عادل، ٤٨٢/١٠.

[2] اليهماء: الأرض التي لا أثر فيها ولا طريقَ ولا عَلَم. انظر: لسان العرب لابن منظور، «يهم».

[3] القول في اللباب لابن عادل، ٤٨٣/١٠.

وتعليقُ استجهاله عليه السلام إيّاهم بما فعلوا مِن السُّخرية باعتبار إظهاره ومشافهته عليه السلام إيّاهم بذلك، وإلا فعَدُّه عليه السلام إيّاهم جاهلين فيها يأتون ويذرون أمرٌ مطَّرد لا تعلُّق له بسُخريتهم منهم، لكنّه عليه السلام لم يكن يتصدّى لإظهاره جريًا على نهج الأخلاق الحميدة، وإنّما أظهره جزاءً بما صنعوا بعد اللّتيّا والتي،[1] فإنّ سُخريتهم كانت مستمرّة ومتجدِّدةً حسب تجدُّد مرورهم به،[2] ولم يكن يُجيبهم في كلّ مرّة، وإلّا لَقيل: ويقول إن تسخروا منّا... إلخ؛ بل إنّما أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية كما يؤذِن به الاستئناف، فكأنّ سائلًا سأل فقال: فما صنع نوح عند بلوغِهم منه هذا المبلغ؟ فقيل: قال: / إن تسخروا منّا، أي: إن تنسُبونا فيما نحن بصدده مِن التأهّب والمباشرة لأسباب الخلاص مِن العذاب إلى الجهل وتسخَروا منّا لأجله، فإنّا ننسُبكم إليه فيما أنتم فيه مِن الإعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة، ومِن الاستمرار على الكفر والمعاصي والتعرّضِ لأسباب حلول سخط الله تعالى التي مِن جملتها استجهالُكم إيّانا وسُخريتُكم منّا. [١٣٧و]

والتشبيه في قوله عزّ وجلّ: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إمّا في مجرَّد التحقّق والوقوع، أو في التجدّد والتكرّر حسبما صدر عن ملأ غِبَّ ملأ، لا في الكيفيّات والأحوال التي لا تليق بشأن النبيّ عليه السلام، فكلا الأمرين واقع في الحال. وقيل: نسخر منكم في المستقبل سُخريةً مثلَ سُخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة.[3] ولعلّ مرادَه نُعاملكم معاملةَ مَن يفعل ذلك؛ لأنّ نفسَ السُّخرية ممّا لا يكاد يليق بمنصِب النبوّة، ومع ذلك لا سَدادَ له؛ لأنّ حالهم إذ ذاك ليس ممّا يلائمه السُّخرية أو ما يجري مجراها فتأمّلْ.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ وهو عذاب الغرَق ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ حلولَ الدَّين المؤجَّل ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ هو عذاب النار الدائم، وهو تهديد بليغ.

---

[1] اللّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

[2] ط س: منه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٢.

و﴿مَن﴾ عبارةٌ عنهم، وهي إمّا استفهاميّة في حيّز الرفع، أو موصولة في محلّ النصب بـ﴿تَعْلَمُونَ﴾، وما في حيّزها سادّ مَسدَّ مفعولين، أو مفعولٍ واحدٍ إن جُعل العِلم بمعنى المعرفة.

ولمّا كان مدار سُخريتهم استجهالَهم إيّاه عليه السلام في مكابدة المَشاقّ الفادحة لدَفْع ما لا يكاد يدخُل تحت الصحّة على زعمهم مِن الطوفان ومُقاساةِ الشدائد في بناء السفينة وكانوا يعدّونه / عذابًا، قيل بعد استجهالِهم: فسوف تعلمون مَن يأتيه العذاب، يعني: أن ما أُباشره ليس فيه عذاب لاحق بي فسوف تعلمون مَن المعذَّبُ. ولقد أصاب العِلمُ بعد استجهالهم مَحزّه. ووصفُ العذاب بالإخزاء لِما في الاستهزاء والسُخرية مِن لُحوق الخِزي والعار عادة. والتعرّض لحلول العذاب المقيم للمبالغة في التهديد، وتخصيصُه بالمؤجَّل وإيرادُ الأوّل بالإتيان في غاية الجزالة. [١٣٧ظ]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يُبتدأ بها الكلامُ دخلت على الجملة الشرطيّة، وهي مع ذلك غاية لقوله: ﴿وَيَصْنَعُ﴾،[١] وما بينهما حال مِن الضمير فيه، و﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾[٢] جواب لـ﴿كُلَّمَا﴾،[٣] و﴿قَالَ﴾[٤] استئناف على تقدير سؤال سائل كما ذكرناه. وقيل: هو الجواب، و﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَرَّ﴾، أو صفة لـ﴿مَلَأٌ﴾.[٥] وقد عرفتَ أنّ الحقّ هو الأوّل؛ لأنّ المقصود بيان تناهيهم في إيذائه عليه السلام وتحمّلِه لأذيّتهم، لا مسارعتُه عليه السلام إلى جوابهم كلّما وقع منهم ما يؤذيه مِن الكلام.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ نبع منه الماء وارتفع بشدّة كما يفور القِدر بغَليانها، والتنّور: تنّور الخبز، وهو قول الجمهور.[٦] رُوي أنّه قيل لنوح عليه السلام: إذا رأيتَ الماء يفور مِن التنوّر فاركبْ ومَن معك في السفينة، فلمّا نبع الماء أخبرته امرأته فركب.

---

[١] هود، ٣٨/١١.
[٢] هود، ٣٨/١١.
[٣] هود، ٣٨/١١.
[٤] هود، ٣٨/١١.
[٥] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٩٣/٢.
[٦] الكلام في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٧٥/٤.

وقيل: كان تنوّرَ آدمَ عليه السلام وكان مِن حجارة فصار إلى نوح، وإنّما نبع منه وهو أبعد شيء مِن الماء على خرق العادة، وكان في الكوفة في موضع مسجدها عن يمين الداخل ممّا يلي باب كِنْدة، وكان عَمِل السفينة في ذلك [١٣٨و] الموضع، / أو في الهند أو في موضع بالشام يقال له: عين وردة.[١] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعِكرمةَ والزُّهريّ: أنَّ التنوّر وجه الأرض.[٢] وعن قتادةَ: أشرفُ موضع في الأرض، أي: أعلاه.[٣] وعن عليّ رضي الله عنه: فار التنور: طلع الفجرُ.[٤]

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة وهو جوابُ ﴿إِذَا﴾. ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: مِن كلّ نوع لا بدّ منه في الأرض ﴿زَوْجَيْنِ﴾ الزوجُ: ما له مُشاكِل مِن نوعه، فالذَّكرُ زوج للأنثى كما هي زوج له، وقد يُطلَق على مجموعهما فيُقابل الفرد، ولإزالة ذلك الاحتمالِ قيل: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ كلٌّ منهما زوج للآخر. وقُرئ على الإضافة.[٥]

وإنّما قُدِّم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لكونه عريقًا فيما أُمر به مِن الحمل؛ لأنّه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام في تمييز بعضه مِن بعض وتعيينِ الأزواج، فإنّه رُوي أنّه عليه السلام قال: يا ربّ كيف أحمِل مِن كلّ زوجين اثنين؟ فحشر الله تعالى إليه السباع والطير وغيرها، فجعل يضرِب بيديه في كلّ جنس فيقع الذَّكر في يده اليمنى والأنثى في اليسرى فيجعلها في السفينة.[٦] وأمّا البشر فإنّما يدخُل الفُلكَ باختياره فيخِفّ فيه معنى الحَمْل، أو لأنّها إنّما تحمِلُ بمباشرة البشر وهم إنّما يدخُلونها بعد حَمْلهم إيّاها.

[١٣٨ظ] ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطفٌ على ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أو على ﴿ٱثْنَيْنِ﴾، / والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنّه مِن المُغرَقين بسبب ظلمهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ الآية،[٧] والمراد به: ابنه كنعان وأُمُّه واغلةُ فإنّهما كانا كافرين، والاستثناءُ منقطِع إن أُريد بالأهل الأهل إيمانًا، وهو الظاهر

---

١ هذه الأقوال في معالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٤.
٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٠١/١٢-٤٠٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٤.
٣ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٠٤/١٢.
٤ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٠٣/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٤.
٥ قرأ بها العشرة إلّا حفصًا عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٨٨/٢.
٦ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٤.
٧ هود، ٣٧/١١.

كما ستعرفه؛ أو متّصلٌ إن أريدَ به الأهل قرابة، ويكفي في صحّة الاستثناء المعلوميّة عند المراجعة إلى أحوالهم والتفحّصُ عن أعمالهم.

وجيء بـ"على" لكون السابق ضارًّا لهم، كما جيء باللام فيما هو نافع لهم في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات، ١٧١/٣٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء، ١٠١/٢١].

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ مِن غيرهم. وإفراد الأهل منهم للاستثناء المذكور. وإيثار صيغة الإفراد في ﴿ءَامَنَ﴾ محافظةً على لفظ ﴿مَنْ﴾ للإيذان بقلّتهم، كما أعرب عنه قوله عزّ قائلًا: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

قيل: كانوا ثمانية: نوحٌ عليه السلام وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم.[١] وعن ابن إسحاقَ كانوا عشرة: خمسةَ رجال وخمسَ نسوة. وعنه أيضًا أنّهم كانوا عشرة سوى نسائِهم.[٢] وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلًا وامرأةً، وأولادُ نوحٍ: سامٌ وحامٌ ويافث ونساؤُهم، فالجميع ثمانية وسبعون نصفُهم رجال ونصفُهم نساء.[٣] واعتبارُ المعيّة في إيمانهم للإيماء إلى المعيّة في مقرّ الأمان والنجاة.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَقَالَ﴾ أي: نوحٌ عليه السلام لمَن معه مِن المؤمنين، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، / ولو رجع الضمير إلى الله تعالى لَناسَب أن يقال: [١٣٩و] إنّ ربّكم، ولعلّ ذلك بعد إدخالِ ما أُمر بحَمْله في الفُلك مِن الأزواج، كأنّه قيل: فحَمَل الأزواج أو أدخلها في الفُلك، وقال للمؤمنين: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾، كما سيأتي مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ [هود، ٤٢/١١].

والركوب: العلوُّ على شيء متحرِّك، ويتعدّى بنفسه. واستعماله ههنا بكلمة "في" ليس لأنّ المأمور به كونُهم في جوفها لا فوقَها كما ظُنّ، فإنّ أظهرَ الروايات

---

[١] مَرويٌّ عن قتادة وابن جُريج ومحمّد بن كعب القُرظي. جامع البيان للطبري، ٤١٠/١٢-٤١١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٦/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٣/٢.

[٢] جامع البيان للطبري، ٤١١/١٢-٤١٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٧٦/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٣/٢.

[٣] القول في معالم التنزيل للبغوي، ١٧٦/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٩٣/٢.

أنّه عليه السلام جعَل الوحوشَ ونظائرها في البطن الأسفل والأنعامَ في الأوسط وركب هو ومَن معه في الأعلى؛[1] بل لرعاية جانب المحليّة والمكانيّة في الفُلك. والسرُّ فيه أنّ معنى الركوبِ: العلوُّ على شيء له حركة إمّا إراديّة كالحيوان أو قسريّة كالسفينة والعجَلة ونحوهما، فإذا استُعمل في الأوّل يوفَّر له حظُّ الأصل فيقال: "ركبتُ الفرسَ"، وعليه قوله عزّ مِن قائل: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل، ٨/١٦]، وإن استُعمل في الثاني يُلوَّح بمحليّة المفعول بكلمة "في" فيقال: "ركبتُ في السفينة"، وعليه الآية الكريمة وقولُه عزّ قائلًا: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت، ٦٥/٢٩]، وقوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف، ٧١/١٨].

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱرْكَبُواْ﴾ حال مِن فاعله، أي: اركبوا مُسمِّين الله تعالى، أو قائلين: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾. ﴿مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَا﴾ نصب على الظرفيّة، أي: وقتَ إجرائها وإرسائها، على أنّهما اسما زمان أو مصدران كالإجراء والإرساء بحذف الوقت، كقولك: "آتيكَ خفوقَ النجم"، أو اسما مكان انتصبا بما في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ مِن معنى الفعل أو إرادة القول.

[١٣٩ظ] ويجوز أن يكون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ / مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَا﴾ مستقلّةً مِن مبتدأ وخبر في موضع الحال مِن ضمير ﴿ٱلْفُلْكَ﴾، أي: اركبوا فيها مُجراةً ومُرساةً باسم الله تعالى بمعنى التقدير، كقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر، ٧٣/٣٩]؛ أو جملةً مقتضبةً على أنّ نوحًا عليه السلام أمرهم بالركوب فيهم ثمّ أخبرهم بأنّ إجراءها وإرساءها باسم الله تعالى، فيكونان كلامين له عليه السلام. قيل: كان عليه السلام إذا أراد أن يُجرِيَها يقول: بسم الله فتجري، وإذا أراد أن يُرسيَها يقول: بسم الله فترسو.[2] ويجوز أن يكون الاسم مُقحَمًا، كما في قوله:

إلى الحَول ثمّ اسمُ السلامِ عليكما[3]

---

[1] مضى بتخريجه في الكلام على هود، ٣٧/١١.

[2] مرويٌّ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤١٦/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٨/٤.

[3] صدر بيت للبيد، عجزه:

ومَن يبكِ حولًا كاملًا فقد اعتذرْ

في ديوانه، ص ٢١٤؛ وهو له في جامع البيان للطبري، ١١٥/١ (الفاتحة، ١/١)، شاهدًا على ما نحن فيه.

ويُراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي: بقدرته وأمره، وقُرئ: "مُجْرِيهَا ومُرسِيهَا"[١] على صيغة الفاعل مجرورَي المحلّ صفتين لله عزّ اسمه، و"مَجْرَاها ومَرْسَاهَا"[٢] بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين مِن "جرى" و"رسا".

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ للذنوب والخطايا ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده، ولذلك نجّاكم مِن هذه الطآمّة والداهية التامّة، ولولا ذلك لَما فعله. وفيه دلالة على أنّ نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها؛ بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه ورحمته، على ما عليه رأيُ أهل السنّة.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ متعلّق بمحذوف دلّ عليه الأمر بالركوب، أي: فركبوا فيها مُسمِّين وهي تجري ملتبسةً بهم ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ وهو ما ارتفع مِن الماء عند اضطرابه، كلُّ موجة مِن ذلك كجبل في ارتفاعها وتراكُمها.

وما قيل مِن أنّ الماءَ طبّق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه كالحوت،[٣] فغيرُ ثابت. والمشهور أنّه علا شوامخَ الجبال خمسةَ عشرَ ذراعًا أو أربعين ذراعًا، ولئن صحّ ذلك فهذا الجريان إنّما هو قبل أن يتفاقم الخَطْب، / كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، فإنّ ذلك إنّما يُتصوَّر قبل أن تنقطِع العلاقةُ بين السفينة والبَرّ، إذ حينئذ يمكن جرَيان ما جرى بين نوحٍ عليه السلام وبين ابنه مِن المفاوضة بالاستدعاء إلى السفينة والجوابِ بالاعتصام بالجبل. [١٤٠و]

وقُرئ: "ابنَهَا"،[٤] و"ابنَهَ"[٥] بحذف الألِف، على أنّ الضمير لامرأته وكان ربيبَه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والجَحدري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة والأعمش والمُفضَّل وزيد بن أسلَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٥.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وعروة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب ومحمّد بن عليّ وجعفر بن محمّد وعروة بن الزُّبير وهشام بن عروة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٥.

وما يقال مِن أنّه كان لغير رِشدةٍ[١] لقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم، ٦٦/١٠]، فارتكابُ عظيمةٍ لا يُقادَر قدرُها؛ فإنّ جناب الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفعُ مِن أن يشار إليه بإصبع الطعن، وإنّما المراد بالخيانة الخيانةُ في الدين.[٢] وقُرئ: "ابنَاهْ"[٣] على النُّدبة، ولكونها حكايةً سُوِّغ حذف حرفها. وأنت خبيرٌ بأنّه لا يلائمه الاستدعاء إلى السفينة، فإنّه صريح في أنّه لم يقع مِن حياته يأسٌ بعدُ.

﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي: في مكان عزَل فيه نفسَه عن أبيه وإخوته وقومه، بحيث لم يتناوله الخطاب بـ﴿ٱرْكَبُواْ﴾،[٤] واحتاج إلى النداء المذكور. وقيل: في مَعزِل مِن الكفّار قد انفرد عنهم، وظنّ نوحٌ أنّه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه إلى السفينة. وقيل: كان ينافق أباه فظنّ أنّه مؤمنٌ. وقيل: كان يعلم أنّه كافر إلى ذلك الوقت، لكنّه عليه السلام ظنّ أنّه عند مشاهدة تلك الأهوال ينزجر عمّا كان عليه ويقبَل الإيمان. وقيل: لم يكن الذي تقدّم مِن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾[٥] نصًّا في كون ابنه داخلًا تحته؛ بل كان كالمُجمِل فحملته شفقة الأبوّة على ذلك.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ قُرئ بكسر الياء[٦] اقتصارًا عليه مِن ياء الإضافة، وبالفتح[٧] اقتصارًا عليه مِن الألف المُبْدلةِ / مِن ياء الإضافة في قولك: "يا بنيّا"، أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين؛ لأنّ الراء بعدهما ساكنة. [١٤٠ظ]

﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ قرأ أبو عمرو والكسائيُّ وحفص بإدغام الباء في الميم[٨] لتقاربهما في المَخرَج، وإنّما أُطلق الركوب عن ذِكر الفُلك لتعيُّنها وللإيذان بضِيق المقام، حيث «حالَ الجَريض دون القريض»،[٩] مع إغناء المعيّةِ عن ذلك.

---

١ يقال: هذا ولدُ رِشدة إذا كان لنكاح صحيح، كما يقال في ضدّه: وَلدُ زِنْية. انظر: لسان العرب لابن منظور، «رشد».

٢ القول مع ردّه بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٢/٢؛ وبلفظ أوجز في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٤/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن السدّي وابن أبي ليلى. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥.

٤ في الآية السابقة.

٥ هود، ٤٠/١١.

٦ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

٧ قرأ بها عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

٨ قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بالإدغام، وقرأ ابن كثير وعاصم وقالون وخلّاد بالإدغام والإظهار. النشر لابن الجزري، ١١/٢.

٩ مجمع الأمثال للميداني، ١٩١/١. وفيه: «الجريض: الغُصّة... والقريض: الشِّعر... يُضرَب للأمر يُقدَر عليه أخيرًا حين لا ينفع».

﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: في المكان، وهو وجه الأرض خارجَ الفُلك لا في الدِّين، وإن كان ذلك ممّا يُوجِبه كما يُوجِب ركوبُه معه عليه السلام كونَه معه في الإيمان؛ لأنه عليه السلام بصَدد التحذير عن المَهلكة فلا يلائمه النهي عن الكفر.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ مِن الجبال ﴿يَعْصِمُنِى﴾ بارتفاعه ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ زعمًا منه أن ذلك كسائر المياه في أزمنة السيول المعتادة التي ربّما يُتّقى منها بالصعود إلى الرُّبى، وأنّى له ذلك وقد «بلَغ السَّيل الزُّبى»،[1] وجهلًا بأنّ ذلك إنّما كان لإهلاك الكفَرة وألّا محيصَ مِن ذلك سوى الالتجاء إلى ملجأ المؤمنين، فلذلك أراد عليه السلام أن يُبيّن له حقيقة الحال ويصرِفه عن ذلك الفكر المُحال.

وكان مقتضى الظاهر أن يُجيب بما ينطبق على كلامه ويتعرّضَ لنفي ما أثبته للجبل مِن كونه عاصمًا له مِن الماء بأن يقول: "لا يعصِمك منه" مفيدًا لنفي وصف العصمة عنه فقط مِن غير تعرّضٍ لنفيه عن غيره ولا لنفي الموصوف أصلًا، لكنّه عليه السلام حيث ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ سلَك طريقة نفي الجنس المنتظِم لنفي جميع أفراد العاصم ذاتًا وصفةً كما في قولهم: ليس فيه داعٍ ولا مجيبٌ، أي: أحد مِن الناس، للمبالغة في نفي كون الجبل عاصمًا بالوجهين / المذكورَين. [١٤١و]

وزاد ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ للتنبيه على أنّه ليس كسائر الأيّام التي تقع فيها الوقائع وتُلِمّ فيها المُلِمّات المعتادة التي ربّما يُتخلّص مِن ذلك بالالتجاء إلى بعض الأسباب العاديّة، وعُبّر عن الماء في محلّ إضماره بأمر الله، أي: عذابه الذي أُشير إليه حيث قيل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾[2] تفخيمًا لشأنه وتهويلًا لأمره، وتنبيهًا لابنه

---

[1] مجمع الأمثال للميداني، ١/٩١. وفيه: «الزُّبى جمع زُبية... وأصلها الرابية لا يعلوها الماء، فإذا بلغها السيلُ كان جارفًا مُجحفًا».

[2] هود، ١١/٤٠.

على خطئه في تسميته ماءً وتوهُّمِ أنّه كسائر المياه التي يُتفصّى[١] منها بالهرب إلى بعض المهارب المعهودة، وتعليلًا للنفي المذكور فإنّ أمر الله لا يُغالَب وعذابَه لا يُرَدّ، وتمهيدًا لحصر العِصمة في جَناب الله عزّ جاره بالاستثناء، كأنّه قيل: لا عاصمَ مِن أمر الله إلّا هو.

وإنّما قيل: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ تفخيمًا لشأنه الجليل بالإبهام ثمّ التفسير وبالإجمال ثمّ التفصيل، وإشعارًا بعلّيّة رحمته في ذلك بموجَب سبقتها على غضبه، وكلُّ ذلك لكمال عنايته عليه السلام بتحقيق ما يتوخّاه مِن نجاة ابنه ببيان شأن الداهية، وقَطْعِ أطماعه الفارغة، وصرفِه عن التعلّل بما لا يُغني عنه شيئًا، وإرشادِه إلى العياذ بالمَعاذ الحقّ عزَّ حِماه. وقيل: لا مكانَ يعصِم مِن أمر الله إلّا مكانُ مَن رحمه الله وهو الفُلك. وقيل: معنى ﴿لَا عَاصِمَ﴾: لا ذا عصمةٍ إلّا مَن رحمه الله تعالى.[٢]

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ أي: بين نوحٍ وبين ابنه فانقطع ما بينهما مِن المجاوبة لا بين ابنه وبين الجبل، لقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ إذ هو إنّما يتفرَّع على حيلولة الموج بينه عليه السلام وبين ابنه لا بينه وبين الجبل؛ لأنه بمَعزِل مِن كونه عاصمًا وإن لم يحُل بينه وبين الملتجئ إليه موج، وفيه دلالة على هلاك / سائر الكفَرة على أبلغ وجهٍ فكأنّ ذلك أمر مقرَّر الوقوع غير مُفتقِر إلى البيان. [١٤١ظ] وفي إيراد "كان" دون "صار" مبالغةٌ في كونه منهم.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي﴾ أي: انشَفي، استُعير له مِن ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على أنّ ذلك ليس كالنشَف المعتاد التدريجي. ﴿مَآءَكِ﴾ أي: ما على وجهك مِن ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها مِن العيون والأنهار. وعُبِّر عنه بالماء

---

[١] التفصّي: التخلّص، وأصله أن يكون الشيء في مضيق ثمّ يخرج إلى غيره. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فصي».

[٢] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٤-٢٩٥.

بعدما عُبِّر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى؛ لأنّ المقام مقام النقص والتقليل لا مقامُ التفخيم والتهويل.

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ أي: أمسكي عن إرسال المطر، يقال: أقلعت السماء إذا انقطع مطرها، وأقلعت الحُمّى، أي: كفّت.

﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ أي: نُقِص ما بين السماء والأرض مِن الماء ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: أُنجِز ما وعد الله تعالى نوحًا مِن إهلاك قومه وإنجائه بأهله، أو أُتِمّ الأمر ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ استقرّت الفُلك ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ هو جبل بالمَوصِل أو بالشام أو بآمُل.[1] رُوِيَ أنّه عليه السلام ركب في الفُلك في عاشر رجب، ونزل عنها في عاشر المحرَّم، فصام ذلك اليوم شكرًا فصار سُنّة.[2]

﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكًا لهم. والتعرّض لوصف الظلم للإشعار بعلّيّته للهلاك ولتذكير ما سبق مِن قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾.[3]

ولقد بلغت الآية الكريمة مِن مراتب الإعجاز قاصيتَها وملكت مِن غُرر المزايا ناصيتَها، وقد تصدّى لتفصيلها المهَرة المتقنون، ولَعَمري إنّ ذلك فوق ما يصفه الواصفون، فحريٌّ بنا أن نُوجز الكلام في هذا الباب، / ونُفوِّضَ الأمر إلى تأمُّل أولي الألباب، والله عنده عِلمُ الكتاب. [١٤٢و]

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ﴾ أي: أراد ذلك، بدليل "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ وقد وعدتني إنجاءَهم في ضمن الأمر بحَمْلهم في الفُلك، أو النداءُ على الحقيقة و"الفاء" لتفصيل ما فيه مِن الإجمال.

---

[1] آمُل: أكبر مدينة بطبرستان في السهل؛ لأنّ طبرستان سهل وجبل. وخرج منها علماء كُثر لكنّهم قلّما ينسبون إلى غير طبرستان فيقال لهم: الطبريُّ، منهم إمام المفسّرين أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريُّ، أصله ومولده مِن آمُل. انظر: معجم البلدان للحمَوي، ٥٧/١.

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٤١٩/١٢-٤٢٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٩/٤.

[3] هود، ٣٧/١١.

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وعدَك ذلك، أو إنّ كلّ وَعْد تعده حقّ لا يتطرّق إليه خُلْف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولًا أوّليًا. ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنّك أعلمهم وأعدلهم، أو أنت أكثر حكمةً مِن ذوي الحِكَم، على أنّ الحاكم مِن الحكمة كالدارع مِن الدِّرْع. وهذا الدعاء منه عليه السلام على طريقة دعاء أيّوبَ عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء، ٢١/٨٣].

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قَالَ يَٰنُوحُ﴾ لمّا كان دعاؤه عليه السلام بتذكير وعده جلّ ذِكره مبنيًا على كون كنعانَ مِن أهله نُفيَ أوّلًا كونُه منهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: ليس منهم أصلًا؛ لأنّ مدار الأهليّة هو القرابة الدينيّة، ولا علاقةَ بين المؤمن والكافر، أو ليس مِن أهلِك الذين أمرْتُك بحملهم في الفُلك لخروجه عنهم بالاستثناء، وعلى التقديرين ليس هو مِن الذين وُعد بإنجائهم، ثمّ عُلِّل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أصله: إنّه ذو عمل غيرِ صالح، فجُعل نفسَ العمل مبالغةً، كما في قول الخنساء:

فــإنّــمــا هـــي إقـــبـــالٌ وإدبـــــارُ[1]

وإيثار ﴿غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ على "فاسد": إمّا لأنّ الفاسد ربّما يُطلَق على ما فسد ومِن شأنه الصلاحُ، فلا يكون نصًّا فيما هو مِن قبيل الفاسد المَحض كالقتل والمظالم؛ / وإمّا للتلويح بأنّ نجاة مَن نجا إنّما هي لصلاحه. وقرأ الكسائي [١٤٢ظ] ويعقوب "إنّه عَمِلَ غيرَ صَالِحٍ"،[2] أي: عملًا غيرَ صالح.

---

[1] وفي هامش م: صدره:

ترتَع ما رتعَتْ حتّى إذا ادّكـرتْ

في ديوانها بشرح ثعلب، ص ٣٨٣. وهو لها في كتاب سيبويه ١/٣٣٧، والبيان والتبيين للجاحظ ٣/٢٠١، ودلائل الإعجاز للجرجاني، ص ٣٠٠، وعجزه بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٦. وقال ثعلب في شرحه: «تقول: كأنّي وحشيّة إذا غفَلت رعَتْ، وإذا تذكَّرتْ فَقْدَ ولدها لم يقرّها قرار».

[2] النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٩.

ولمّا كان دعاؤه عليه السلام مبنيًا على ما ذُكر مِن اعتقاد كون كنعانَ مِن أهله، وقد نُفيَ ذلك وحُقِّق ببيان عِلّته فُرّع على ذلك النهي عن سؤال إنجائه، إلّا أنّه جيء بالنهي على وجه عامّ يندرج فيه ذلك اندراجًا أوّليًا فقيل: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ أي: إذا وقفتَ على جليّة الحال فلا تطلُب منّي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: مَطلَبًا لا تعلم يقينًا أنّ حصوله صواب وموافق للحكمة، على تقدير كونِ ﴿مَا﴾ عبارةً عن المسئول الذي هو مفعول للسؤال، أو طلبًا لا تعلَم أنّه صواب، على تقدير كونه عبارةً عن المصدر الذي هو مفعول مطلَق، فيكون النهيُ واردًا بصريحه في كلّ مِن معلوم الفسادِ ومُشتبِه الحال.

ويجوز أن يكون المعنى: ما ليس لك عِلم بأنّه صواب أو غيرُ صواب، فيكون النهيُ واردًا في مشتبِه الحال ويُفهَم منه حال معلوم الفساد بالطريق الأَولى. وعلى التقديرين فهو عامّ يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه.

وهذا كما ترى صريح في أنّ نداءَه عليه السلام ربَّه عزّ وعلا ليس استفسارًا عن سبب عدم إنجاء ابنه مع سبق وعدِه بإنجاء أهله، وهو منهم كما قيل، فإنّ النهيَ عن استفسار ما لم يُعلَم غيرُ موافق للحكمة، إذ عدمُ العِلم بالشيء داعٍ إلى الاستفسار عنه لا إلى تَرْكه؛ بل هو دعاء منه لإنجاء ابنه حين حالَ الموجُ / بينهما ولم يَعلم بهلاكه بعدُ، إمّا بتقريبه إلى الفُلك بتلاطم الأمواج أو بتقريبها إليه. وقيل: أو بإنجائه في قُلّة الجبل. ويأباه تذكير الوعد في الدعاء فإنّه مخصوص بالإنجاء في الفُلك. [١٤٣و]

وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾،[١] ومجرّد حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلًا عن العِلم به لظهور إمكان عصمة الله تعالى إيّاه برحمته، وقد وُعد بإنجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهرًا بالكفر كما ذكرناه حتّى لا يجوزَ عليه عليه السلام أن يدعوَه إلى الفُلك أو يدعوَ ربّه لإنجائه.

واعتزاله عنه عليه السلام وقصدُه الالتجاء إلى الجبل ليس بنصّ في الإصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة في الفُلك وزعمِه

---

[١] هود، ٤٣/١١.

أنّ الجبل أيضًا يجري مَجراه، أو لكراهة الاحتباس في الفُلك؛ بل قولُه: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[1] بعد ما قال له نوحٌ عليه السلام: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2] ربّما يُطمِعه عليه السلام في إيمانه، حيث لم يقل: "أكونُ معهم" أو "سنأوي" أو "يعصمُنا"، فإنّ إفراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورَين ربّما يُشعر بانفراده مِن الكافرين واعتزالِه عنهم وامتثالِه ببعض ما أمره به نوحٌ عليه السلام، إلّا أنّه عليه السلام لو تأمّل في شأنه حقَّ التأمُّل وتفحّص عن أحواله في كلّ ما يأتي ويذر لَما اشتبه عليه أنّه ليس بمؤمن وأنه المستثنى مِن أهله، ولذلك قيل: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فعُبّر عن تَرْك الأولى بذلك. وقُرئ: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ﴾ بغير ياء الإضافة،[3] وبالنون الثقيلة بياء،[4] وبغير ياء.[5]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ﴾ أي: أطلب منك مِن بعدُ ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ أي: مطلوبًا لا أعلم أنّ حصوله مقتضي الحكمة أو طلبًا لا أعلم / أنّه [١٤٣ظ] صواب سواء كان معلومَ الفساد أو مشتبِهَ الحال، أو لا أعلم أنّه صواب أو غير صواب على ما مرّ، وهذه توبة منه عليه السلام ممّا وقع منه. وإنّما لم يقُل: "أعوذ بك منه" أو "مِن ذلك" مبالغةً في التوبة وإظهارًا للرغبة والنشاطِ فيها وتبرّكًا بذِكر ما لقّنه الله تعالى، وهو أبلغُ مِن أن يقول: "أتوب إليك أن أسألك" لِما فيه مِن الدلالة على كون ذلك أمرًا هائلًا محذورًا لا محيصَ منه إلّا بالعَوْذ بالله تعالى وأنّ قدرته قاصرةٌ عن النجاة مِن المكاره إلّا بذلك.[6]

﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ ما صدر عنّي مِن السؤال المذكور ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ بقَبول توبتي ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أعمالًا بسبب ذلك، فإنّ الذهول عن شكر الله تعالى

---

[1] هود، ٤٣/١١.

[2] هود، ٤٢/١١.

[3] قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي ونافع برواية ورش عنه وخلف. النشر لابن الجزري، ١٨٠/٢-١٨٣، ٢٨٩.

[4] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١٨٠/٢-١٨٣، ٢٨٩.

[5] قرأ بها ابن كثير بفتح النون، وهشام بفتحها وكسرها. النشر لابن الجزري، ١٨٠/٢-١٨٣، ٢٨٩.

[6] السياق: إلّا بالعوذ... إلّا بذلك...

لاسيّما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة التي هي النجاة وهلاك الأعداء، والاشتغالَ بما لا يعني خصوصًا بمبادي خلاص مَن قيل في شأنه: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾،[١] والتضرّعَ إلى الله تعالى في أمره معاملةٌ[٢] غير رابحة أو خسران مُبين.

وتأخيرُ ذكر هذا النداء عن حكاية الأمر الوارد على الأرض والسماء وما يتلوه مِن زوال الطوفان وقضاء الأمر واستواء الفُلك على الجودي والدعاءِ بالهلاك على الظالمين، مع أن حقّه أن يُذكر عَقيب قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[٣] حسبما وقع في الخارج؛ إذ حينئذ يُتصوَّر الدعاء بالإنجاء لا بعد العِلم بالهلاكِ، ليس لِما قيل[٤] مِن استقلاله بغرض مُهمّ هو جعلُ قرابة الدِّين غامرة لقرابة النسب، وألّا يُقدَّم في الأمور الدينيّةِ الأصوليّة إلّا بعد اليقين قياسًا على ما وقع في قصّة البقرة مِن تقديم ذِكر الأمر بذبحها على ذِكر القتيل الذي هو أوّل القصّة، وكان حقُّها أن يقالَ: وإذ قتلتُم نفسًا فادّارأتُم فيها فقلنا: اذبحوا بقرة فاضرِبوه / ببعضها، كما قُرِّر في موضعه، فإنّ تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتِهم المتنوّعة وتثنيةِ التقريع عليهم بكلّ نوعٍ نوعٍ على حِدَة، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾... إلخ [البقرة، ٦٧/٢]، لتقريعهم على الاستهزاء وتركِ المُسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة، ٧٢/٢]... إلخ، للتقريع على قتل النفس المُحرَّمةِ وما تبِعه مِن الأمور العظيمة، ولو قُصّت القِصّة على ترتيبها لَفَات الغرض الذي هو تثنية التقريع ولَظُنّ أنّ المجموع تقريع واحد. وأمّا ما نحن فيه فليس ممّا يمكن أن يُراعى فيه مثلُ تلك النُّكتة أصلًا. وما ذُكر مِن جَعْل القرابة الدينيّة غامرةً للقرابة النسبيّة... إلخ، لا يفوت على تقدير سَوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضًا.

[١٤٤و]

بل لأنّ ذِكر[٥] هذا النداءِ كما ترى مُستدعٍ لذِكر ما مرّ مِن الجواب المستدعي لذِكر ما مرّ مِن توبته عليه السلام المؤدِّي ذِكرُها إلى ذِكر قَبولها في ضمن الأمر

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] السياق: فإنّ الذهول... معاملة...

[٣] هود، ٤٣/١١.

[٤] السياق: وتأخير ذكر هذا النداء... ليس لِما قيل...

[٥] السياق: وتأخير النداء... ليس لِما قيل... بل لأنّ ذِكر...

الوارد بنزوله عليه السلام مِن الفُلك بالسلام والبركات الفائضةِ عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجيء مفصَّلًا. ولا ريبَ في أنّ هذه المعانيَ آخذٌ بعضها بحُجْزة[1] بعض، بحيث لا يكاد يُفرَّق الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضُها مِن بعض وأنّ ذلك إنّما يتمّ بتمام القِصّة، ولا ريبَ أنّ ذلك إنّما يكون بتمام الطوفان، فلا جرمَ اقتضى الحال ذِكرَ تمامه[2] قبل هذا النداء، وذلك إنّما يكون عند ذِكر كون كنعانَ مِن المُغرَقين، ولهذه النكتة ازداد حُسن موقع الإيجاز البليغ.

وفيه فائدة أخرى هي التصريح بهلاكه مِن أوّل الأمر، ولو ذُكر النداء الثاني عَقيب / قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[3] لربّما تُوهِّم مِن أوّل الأمر إلى أن يرِد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾... إلخ،[4] أنّه ينجو بدعائه عليه السلام فنُصّ على هلاكه مِن أوّل الأمر، ثمّ ذُكر الأمر الوارد على الأرض والسماء الذي هو عبارةٌ عن تعلّق الإرادة الربانيّة الأزليّة بما ذُكر مِن الغيض والإقلاع وبُيِّن بلوغ أمر الله محلَّه وجريانُ قضائه ونفوذ حُكمه عليهم بهلاك مَن هلَك ونجاةِ مَن نجا بتمام الطوفان واستواءِ الفُلك على الجودي، فقُصّت القِصّة إلى هذه المرتبةِ وبُيِّن ذلك أيَّ بيان. [١٤٤ظ]

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

ثمّ تُعرِّض لِما وقع فِي تضاعيف ذلك ممّا جرى بين نوحٍ وبين ربّ العزّة جلّت حكمتُه فذُكر بعد توبته عليه السلام قبولُها بقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ أي: انزل مِن الفُلك. وقُرئ بضمّ الباء.[5] ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ ملتبِسًا بسلامة مِن المكاره كائنة ﴿مِّنَّا﴾، أو بسلام وتحيّة منّا عليك، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات، ٧٩/٣٧].

---

[1] أصل الحُجْزة: موضع شدّ الإزار، يُستعار للالتجاء والاعتصام والتمسّك والتعلّق به. والأخير هو المراد ههنا. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حجز».

[2] ط س: تمامها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[3] هود، ٤٣/١١.

[4] في الآية السابقة.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٩٢.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ أي: خيرات نامية في نسلِك وما يقوم به معاشك ومعاشهم مِن أنواع الأرزاق، وقُرئ: "بَرَكَةٍ".[١] وهذا إعلام وبِشارة مِن الله تعالى بقَبول توبته وخلاصه مِن الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه في كلّ ما يأتي وما يذر. ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ﴾ ناشئة ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ متشعِّبة منهم، فـ"مِن" ابتدائيّة، والمراد: الأمم المؤمنة المتناسلة ممّن معه إلى يوم القيامة.

﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ أي: ومنهم على أنّه خبرٌ حُذف لدلالة ما سبق عليه، فإنّ إيراد الأمم المُبارَك عليهم المُتشعِّبة منهم نكرةً يدلّ على أنّ بعض مَن يتشعَّب منهم / ليسوا على صفتهم، يعني: ليس جميع مَن تشعَّب منهم مُسلَّمًا ومباركًا عليه؛ بل منهم أُمَم ممتَّعون في الدنيا معذَّبون في الآخرة، وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح عليه السلام مُسلَّمًا ومبارَكًا عليهم صريحًا، وإنّما يُفهَم ذلك مِن كونهم مع نوح عليه السلام ومِن كون ذريّاتِهم كذلك بدلالة النصّ. [١٤٥و]

ويجوز أن تكون "مِن" بيانيّة، أي: وعلى أمم هم الذين معك، وإنّما سُمّوا أُمَمًا لأنّهم أُمَم متحزِّبة وجماعات متفرِّقة، أو لأنّ جميع الأمم إنّما تشعَّبت منهم فحينئذ يكون المراد بالأُمم المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ بعضَ الأمم المتشعِّبة منهم، وهي الأُمَم الكافرة المتناسلة منهم إلى يوم القيامة، ويبقى أمر الأُمَم المؤمنة الناشئة منهم مُبهَمًا غيرَ متعرَّضٍ له ولا مدلولٍ عليه، ومع ذلك ففي دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاءٌ؛ لأنّ "مِن" المذكورةَ بيانيّة والمحذوفةَ تبعيضيّةٌ أو ابتدائيّة. فتأمَّل.

﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾ إمّا في الآخرة أو في الدنيا أيضًا ﴿مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. عن محمّد بن كعب القُرظي: دخل في ذلك السلام كلُّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده مِن المتاع والعذابِ كلُّ كافر.[٢] وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راضٍ،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد العزيز بن يحيى الكناني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥.

[٢] بلفظ قريب جدًا في جامع البيان للطبري، ٤٣٨/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٨٢/٤؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٨/٢.

ثمّ أَخرج منهم نسلًا منهم مَن رَحِم ومنهم مَن عذّب.[١] وقيل: المراد بالأُمَم الممتَّعة: قومُ هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السلام، وبالعذاب: ما نزَل بهم.[٢]

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما قُصّ مِن قصّة نوحٍ عليه السلام، إمّا لكونها بتقضِّيها في حُكم البعيد، أو للدلالة على بُعد منزلَتها. وهي مبتدأ، خبرُه ﴿مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: مِن جنسها، أي ليست مِن قبيل سائر الأنباء؛ بل هي نسيجُ وحدِها منفرِدة عمّا عداها أو بعضِها.

[١٤٥ظ] ﴿نُوحِيهَآ / إِلَيْكَ﴾ خبر ثانٍ، والضمير لها، أي: مُوحاة إليك، أو هو الخبرُ، و﴿مِنْ أَنْبَآءِ﴾ مُتعلِّق به، فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة، أو حال مِن ﴿أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، أي: مُوحاةً إليك.

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ خبر آخرُ، أي: مجهولة عندك وعند قومك ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي: مِن قبل إيحائنا إليك وإخبارِك بها، أو مِن قبل هذا العِلم الذي كسبْتَه بالوحي، أو مِن قَبل هذا الوقت، أو حالٌ مِن الهاء في ﴿نُوحِيهَا﴾، أو الكافِ في ﴿إِلَيْكَ﴾، أي: جاهلًا أنت وقومك بها. وفي ذِكر جهلِهم تنبيهٌ على أنّه عليه السلام لم يتعلّمه، إذ لم يخالِط غيرهم، وأنّهم مع كثرتهم لمّا لم يعلموه فكيف يؤخذ منهم.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ متفرّع على الإيحاء أو العِلمِ المستفادِ منه المدلول عليه بقوله: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، أي: وإذ قد أوحيناها إليك أو علِمتَها بذلك فاصبِر على مشاقّ تبليغ الرسالة وأذيَّةِ قومك كما صبر نوحٌ على ما سمعتَه مِن أنواع البلايا في هذه المدَّة المتطاولة، وهذا ناظرٌ إلى ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ[٣] تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾... إلخ [هود، ١٢/١١].

[١] بلفظ قريب جدًا في جامع البيان للطبري، ٤٣٩/١٢؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٨/٢.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٨/٢.

[٣] م س: ولعلّك.

﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ﴾ بالظفر في الدنيا وبالفوز في الآخرة ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ كما شاهدتَه في نوحٍ عليه السلام وقومه، ولك فيه أُسوةٌ حسنة، وهي تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتعليل للأمر بالصبر، فإنّ كون العاقبة الحميدة للمتّقين وهو عليه السلام[١] في أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلُّهم متّقون ممّا يُسلّيه عليه السلام، ويُهوِّن عليه الخطوب، ويُذهِب عنه ما عسى أن يعتريَه مِن ضيق صدره، وهذا على تقدير أن يُراد بالتقوى المرتبة[٢] الأُولى منه، / أعني التوقّيَ مِن العذاب المُخلَّد بالتبرُّؤ عن الشرك، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الفتح، ٢٦/٤٨]. [١٤٦و]

ويجوز أن يُراد الدرجة[٣] الثالثة منه، وهي أن يَتنزّه عمّا يشغَل سِرَّه عن الحقّ ويتبتَّلَ إليه بشراشِره،[٤] وهو التقوى الحقيقيُّ المطلوب بقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران، ١٠٢/٣]، فإنّ التقوى بهذا المعنى مُنطوٍ على الصبر المذكور، فكأنّه قيل: فاصبر فإنّ العاقبةَ للصابرين.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ۝﴾

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ متعلِّق بمضمَر معطوف على قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾[٥] في قصّة نوحٍ، وهو الناصب لقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمۡ﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم، أي: واحدًا منهم في النسَب كقولهم: "يا أخا العربِ". وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحِذار عن الإضمار قبل الذكر. وقيل: متعلِّق بالفعل المذكور فيما سبق، و﴿أَخَاهُمۡ﴾ معطوف على ﴿نُوحًا﴾،[٦] وقد مرّ في سورة الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿هُودٗا﴾ عطفُ بيان لـ﴿أَخَاهُمۡ﴾، وكان عليه السلام مِن جملتهم، فإنّه هودُ بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن[٧] عَوص بن إرمَ بن

---

١ س - عليه السلام.

٢ م س: الدرجة [صُحّح في هامش م].

٣ هامش م: المرتبة. | ولعلّه تصحيح منه.

٤ الشراشر: النفس والمحبّة جميعًا. وقيل: جميع الجسد. وألقى عليه شراشره: وهو أن يُحبّه حتّى يستهلك في حُبّه. والشراشر: الأثقال. انظر: لسان العرب لابن منظور، «شرر».

٥ هود، ٢٥/١١.

٦ هود، ٢٥/١١. والقول في الكشّاف للزمخشري، ٢٩٨/٢.

٧ ط س - عاد بن.

سامِ بن نوحٍ. وقيل: هودُ بن شالح بن إرفخشذَ بن سام بن نوحٍ ابنِ عمّ أبي عاد. وإنّما جُعل منهم لأنّهم أفهمُ لكلامه وأعرفُ بحاله وأرغبُ في اقتفائه.

﴿قَالَ﴾ لمّا كان ذِكر إرساله عليه السلام إليهم مَظِنّة للسؤال عمّا قال لهم ودعاهم إليه أُجيب عنه بطريق الاستئناف، فقيل: قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحدَه كما يُنبئ عنه قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، فإنّه استئناف يجري مَجرى البيان للعبادة المأمور بها. والتعليل للأمر بها كأنّه قيل: خُصّوه بالعبادة ولا تُشركوا به شيئًا؛ إذ ليس لكم مِن إله سواه. و﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ بالرفع صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبار محلّه. وقُرئ بالجرّ[1] حملًا له[2] على لفظه.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ ما أنتم باتّخاذكم الأصنام شركاءَ له، أو بقولكم: إنّ الله أمرنا بعبادتها. ﴿إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ عليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١﴾

[١٤٦ظ] ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ / إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾ خاطَب به كلُّ نبيّ قومَه إزاحةً لِما عسى يتوهّمونه وإمحاضًا للنصيحة، فإنّها ما دامت مشوبةً بالمطامع بمَعزِل مِن[3] التأثير. وإيراد الموصول للتفخيم. وجعلُ الصلة فِعْل الفطرةِ لكونه أقدم النعم الفائضة مِن جَناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذي لا يتأتّى إلّا بالجرَيان على موجَب أمرِه الغالب، مُعرِضًا عن المطالب الدنيويّة التي مِن جملتها الأجر.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أتغفُلون عن هذه القضيّة؟ أو ألا تتفكّرون فيها فلا تعقِلونها، أو أتجهلون كلَّ شيءٍ فلا تعقلون شيئًا أصلًا؟ فإنّ هذا ممّا لا ينبغي أن يخفى على أحد مِن العقلاء.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾

---

[1] قراءة شاذّة، غيرُ منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٩٨.

[2] ط س – له.

[3] ط س: عن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي اطلُبوا مغفرته لِما سلف منكم مِن الذنوب بالإيمان والطاعة ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: توسّلوا إليه بالتوبة، وأيضًا التبرُؤ عن[1] الغير إنّما يكون بعد الإيمان بالله تعالى والرغبةِ فيما عنده. ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: المطرَ ﴿عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ أي: كثيرَ الدُّرور ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً﴾ مضافةً ومنضمّةً[2] ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ أي: يُضاعفْها لكم، وإنّما رغّبهم بكثرة المطر؛ لأنّهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل: حبس الله تعالى عنهم القطر، وأعقَم أرحامَ نسائهم ثلاث سنينَ، فوعدهم عليه السلام كثرةَ الأمطارِ وتضاعُفَ القوّة بالتناسل على الإيمان والتوبة.[3]

﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾ أي: لا تُعرضوا عمّا دعوتُكم إليه ﴿مُجۡرِمِينَ﴾ مُصِرِّين على ما كنتُم عليه مِن الإجرام.

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣﴾

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ أي: بحجّة تدلّ على صحّة دعواك، وإنّما قالوه لفَرْط عنادهم وعدمِ اعتدادهم بما جاءهم مِن البيّنات الفائتة للحصر. / ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: بتاركي عبادتها ﴿عَن قَوۡلِكَ﴾ أي: صادرين عنه، أي: صادرًا تركُنا عن ذلك بإسناد حال الوصف إلى الموصوف. ومعناه التعليلُ على أبلغ وجه لِدلالته على كونه علّة فاعليه، ولا يُفيده الباء واللام، وهذا كقولهم المنقول عنهم في سورة الأعراف: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف، ٧/٧٠]. [١٤٧و]

﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي بمصدِّقين في شيء ممّا تأتي وتذر، فيَندرِج تحته ما دعاهم إليه مِن التوحيد وتركِ عبادة الآلهة. وفيه مِن الدلالة على شدّة الشكيمة وتجاوزِ الحدّ في العتوّ ما لا يخفى.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾

---

[1] م: عن.
[2] س: ومتضمّنة.
[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٥/١.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أي: ما نقول إلّا قولَنا: اعتراك، أي: أصابك. ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ بجنون لسبِّك إيّاها وصدِّك عن عبادتها وحطِّك لها عن رتبة الألوهيّة والمعبوديّة، بما مرّ مِن قولِك: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.[1] والتنكير في ﴿سُوٓءٍ﴾ للتقليل، كأنّهم لم يُبالغوا في العتوّ، كما يُنبئ عنه نسبة ذلك إلى بعض آلهتِهم دونَ كلِّها. والجملة مقول القولِ، و﴿إِلَّا﴾ لَغوٌ؛ لأنّ الاستثناء مفرَّغ. وهذا الكلام مقرِّر لِما مرّ مِن قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.[2]

فإنّ اعتقادهم بكونه عليه السلام كما قالوا -وحاشاه عن ذلك- يُوجِب عدم الاعتداد بقوله وعدِّه مِن قَبيل الخُرافات فضلًا عن التصديق والعمل بمقتضاه، يَعنون: إنّا لا نعتقد كلامك إلّا مِن قبيل ما لا يحتمل الصِّدق والكذِب مِن الهذَيانات الصادرة عن المجانين، فكيف نُصدِّقه ونُؤمن به ونعمل بموجَبه.

[١٤٧ظ] / ولقد سلكوا في طريقة المخالفة والعِناد إلى سبيل الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى، حيث أَخبَروا أوّلًا عن عدم مجيئه عليه السلام بالبيّنة مع احتمال كون ما جاء به عليه السلام حجّة في نفسه وإن لم تكن واضحة الدلالة على المراد، وثانيًا عن ترك الامتثالِ بقوله عليه السلام بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾،[3] مع إمكان تحقُّق ذلك بتصديقهم له عليه السلام في كلامه، ثمّ نفَوا تصديقهم له عليه السلام بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾،[4] مع كون كلامه عليه السلام ممّا يقبل التصديق، ثمّ نفَوا عنه تلك المرتبة أيضًا حيث قالوا ما قالوا، قاتَلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: مِن إشراككم مِن دون الله، أي: مِن غير أن ينزِّل به سلطانًا كما قال في سورة الأعراف: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف، ٧١/٧]، أو ممّا تشركونه مِن آلهة غير الله.

---

[1] هود، ١١/٥٠.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة.
[4] في الآية السابقة.

أجاب به عن مقالتهم الحمقاء المَبنيّة على اعتقاد كون آلهتهم ممّا يضُرّ أو ينفع وإنّها بمَعزِل مِن ذلك. ولمّا كان ما وقع أوّلًا منه عليه السلام في حقّ آلهتهم مِن كونها بمَعزِل عن[1] الألوهيّة إنّما وقع في ضمن الأمر بعبادة الله تعالى واختصاصِه بها، وقد شقّ عليهم ذلك وعدّوه ممّا يُورِث شَينًا، حتّى زعموا أنّها تصيبه عليه السلام بسوءٍ مُجازاةً لصنيعه معها، صرّح[2] عليه السلام بالحقّ وصدَع به، حيث أُخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسميّة المُصدَّرة بـ"إنّ"، وأَشهدَ الله تعالى على ذلك، وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانةً بهم.

ثمّ أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعًا دون بعض منها، حسبما يُشعر به قولُهم: ﴿بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا﴾، والتعاونِ في إيصال / الكيد إليه عليه السلام، [١٤٨و] ونهاهم عن الإنظار والإمهال في ذلك، فقال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: إن صحّ ما لوَّحتم به مِن كون آلهتكم ممّا يقدِر على إضرار مَن ينال منها ويصُدّ عن عبادتها ولو بطريق ضِمني، فإنّي بريء منها، فكونوا أنتم معها جميعًا وباشروا كيدي، ثمّ لا تُمهلوني ولا تُسامحوني في ذلك. فـ"الفاء" لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتِهم على ما قالوا وعلى البراءة كِليهما.

وهذا مِن أعظم المعجزات، فإنّه عليه السلام كان رجلًا مُفرَدًا بين الجمّ الغفير والجمع الكثير مِن عُتاة عادٍ الغِلاظ الشِّداد، وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقّرهم وآلهتَهم وهيَّجهم على مباشرة مبادي المُضادّة والمُضارّة، وحثّهم على التصدِّي لأسباب المُعازّة والمُعارّة،[3] فلم يقدروا على مباشرة شيءٍ ممّا كُلِّفوه، وظهَر عجزهم عن ذلك ظهورًا بيّنًا، كيف لا، وقد التجأ إلى ركن مَنيع رفيع، واعتصم بحبل متين، حيث قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ يعني: أنكم وإن بذلتم في مُضارّتي مجهودكم لا تقدرون على شيء ممّا تريدون بي، فإنّي متوكِّل على الله تعالى -وإنّما جيء بلفظ الماضي لكونه أدلّ على الإنشاء

---

[1] م: مِن.

[2] السياق: ولمّا كان... صرّح...

[3] المُعازّة: المُغالَبة. المُعارّة: سوء الخلق والشرّ والأذى. انظر: لسان العرب لابن منظور، «عزز»، «عرر».

المناسب للمقام- وواثق بكلاءتي وحفظي عن غوائلكم وهو مالكي ومالككم لا يصدُر عنكم شيء ولا يصيبني أمر إلّا بإرادته ومشيئته.

ثمّ برهن عليه بقوله: ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: إلّا هو مالك لها قادر عليها يُصرِّفها كيف يشاء غيرَ مستعصية عليه، فإنّ الأخذ بالناصية تمثيل لذلك. ﴿إِنَّ رَبِّي / عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تعليل لِما يدل عليه التوكّل مِن عدم قدرتهم على إضراره، أي: هو على الحقّ والعدل فلا يكاد يسلِّطكم عليّ، إذ لا يَضيعُ عنده معتصِم ولا يفتات عليه ظالمٌ. والاقتصار على إضافة "الربّ" إلى نفسه إمّا بطريق الاكتفاء لظهور المراد، وإمّا لأنّ فائدة كونه تعالى مالكًا لهم أيضًا راجعة إليه عليه السلام. [١٤٨ظ]

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: تتولّوا بحذف إحدى التاءين، أي: إن تستمرّوا على ما كنتُم عليه مِن التولّي والإعراض ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي: لم أعاتَب على تفريط في الإبلاغ وكنتُم محجوجين بأن بلغكم الحقّ فأبيتُم إلّا التكذيب والجحود.

﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأنّ الله تعالى يُهلكهم ويستخلف في ديارهم وأموالِهم قومًا آخرين، أو عطفٌ على الجواب بالفاء، ويُؤيِّده قراءةُ ابن مسعود رضي الله عنه بالجزم[1] عطفًا على الموضع، كأنّه قيل: فإن تولّوا يعذِرْني ويُهلكْكم ويستخلفْ مكانكم آخرين. وفي اقتصار إضافة الربّ عليه عليه السلام رمز إلى اللُّطف به والتدميرُ للمخاطَبين.

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ بتولّيكم ﴿شَيۡـًٔا﴾ مِن الضرر لاستحالة ذلك عليه، ومَن جَزَم ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ﴾ أسقَط منه النون.[2] ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: رقيب مهيمِن

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٦.

[2] يريد أن مَن جزمه جزم المعطوف عليه، فيصير "ولا تضروه".

فلا يخفى عليه أعمالكم فيُجازيكم بحسبها، أو حافظٌ مُستولٍ على كلّ شيء فكيف يضُرّه شيء وهو الحافظ للكلّ.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: نزل عذابنا. وفي التعبير عنه بالأمر مضافًا إلى ضميره جلّ جلاله وعن نزوله بالمجيء ما لا يخفى مِن التفخيم والتهويل، أو ورَد أمرنا بالعذاب.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعةَ آلافٍ. / ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَّا﴾، وهي الإيمانُ الذي أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهدايةِ إليه. [١٤٩و]

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: كانت تلك التنجية تنجيةً مِن عذاب غليظ، وهي السَّموم التي كانت تدخل أنوف الكفَرة وتخرج مِن أدبارهم فتقطعهم إرْبًا إرْبًا. وقيل: أريدَ بالثانية التنجية مِن عذاب الآخرة، ولا عذابَ أغلظُ منه وأشدُّ. وهذه التنجية وإن لم تكن مقيَّدةً بمجيء الأمر لكن جيء بها تكملةً للنعمة عليهم، وتعريضًا بأنّ المهلَكين كما عُذِّبوا في الدنيا بالسَّموم فهم معذَّبون في الآخرة بالعذاب الغليظ.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أُنِّث اسم الإشارة باعتبار القبيلة، أو لأنّ الإشارة إلى قبورهم وآثارهم.

﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها بعد ما استيقنوها ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ جُمِع الرسل مع أنّه لم يُرسَل إليهم غيرُ هودٍ عليه السلام تفظيعًا لحالهم وإظهارًا لكمال كفرهم وعنادهم، ببيان أنّ عصيانهم له عليه السلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتّفاق كلمتهم على التوحيد، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٥]، فيجوز أن يُراد بالآيات ما أتى به هودٌ وغيره مِن الأنبياء عليهم السلام، وفيه زيادةُ ملاءمة لِما تقدَّم مِن جَمْع الآيات، وما تأخَّر مِن قوله:

﴿وَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ مِن كُبرائهم ورؤسائهم الدعاة إلى الضلال وإلى تكذيب الرسل، فكأنّه قيل: عصَوا كلّ رسول واتّبعوا أمر كلّ جبّار. وهذا الوصف ليس كما سبق مِن جحود الآيات وعصيانِ الرسل في الشمول لكلّ فردٍ فردٍ منهم، فإنّ الاتّباع للأمر مِن أوصاف الأسافل / دون الرؤساء. [١٤٩ظ]

و﴿عَنِيدٍ﴾: فَعِيل مِن "عَنَد عَنْدًا وعَنَدًا" إذا طغى، والمعنى: عصَوا مَن دعاهم إلى الهدى وأطاعوا مَن حداهم إلى الردى.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ إبعادًا عن الرحمة وعن كلّ خير، أي: جُعلت اللعنة لازمةً لهم، وعُبِّر عن ذلك بالتبعيّة للمبالغة، فكأنّها لا تُفارقهم وإن ذهبوا كلَّ مَذهَب؛ بل تدور معهم حيثما داروا، ولوقوعه في صحبة اتِّباعهم رؤساءهم، يعني أنّهم لمّا اتَّبعوهم أُتبعوا ذلك[١] جزاءً لصنيعهم جزاءً وِفاقًا.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: أُتبِعوا يوم القيامة أيضًا لعنةً وهي: عذاب النار المُخلَّد، حُذفت لدلالة الأُولى عليها، وللإيذان بكون كلّ مِن اللعنتين نوعًا برأسه لم تُجمعا في قرَن[٢] واحد بأن يقال: وأُتبِعوا في هذه الدنيا ويومَ القيامة لعنةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [الأعراف، ١٥٦/٧]، إيذانًا باختلاف نوعَي الحسنتَين، فإنّ المراد بالحسنة الدنيويّة نحو: الصحّة والكَفاف والتوفيق للخير، وبالحسنة الأخرويّة: الثوابُ والرحمة.

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ أي: بربّهم أو نعمةَ ربّهم، حملًا له على نقيضه الذي هو الشكر، أو جحدوه. ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أيَّ هلاكٍ، تسجيلًا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار. وتكرير حرف التنبيه وإعادةُ "عادٍ" للمبالغة في تفظيع حالهم والحثِّ على الاعتبار بقصّتهم.

---

[١] هامش م: لعنة.

[٢] القرَن: الحبل يُقرن به البعيران. انظر: لسان العرب لابن منظور، «قرن».

﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطفُ بيان لـ"عاد"، فائدتُه التمييز عن "عاد" الثانية / عادِ إرمَ. [١٥٠و] والإيماء إلى أنّ استحقاقهم للبُعد بسبب ما جرى بينهم وبين هودٍ عليه السلام وهم قومه.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ عطفٌ على ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾،[١] وثمود: قبيلة مِن العرب سُمّوا باسم أبيهم الأكبر ثمودَ بن عابر بن إرمَ بن سام. وقيل: إنّما سُمّوا بذلك لقِلّة مائهم مِن الثَّمْد وهو: الماء القليل.

وصالح عليه السلام هو ابن عبيد بن آسف بن ماشح بن عبيد بن خادر بن ثمود، ولمّا كان الإخبار بإرساله إليهم مَظِنّة لأنّ يُسأل ويقال: ماذا قال لهم؟ قيل جوابًا عنه بطريق الاستئنافِ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحدَه، وعُلِّل ذلك بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، ثمّ زِيد فيما يبعثهم على الإيمان والتوحيد ويحثّهم على زيادة الإخلاصِ فيه بقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو كوّنكم وخلَقكم منها لا غيرُه، قصر قَلْب أو قصر إفراد، فإنّ خَلْق آدمَ عليه السلام منها خلقٌ لجميع أفراد البشر منها لِما مرّ مرارًا مِن أنّ خِلقته عليه السلام لم تكن مقصورةً على نفسه؛ بل كانت أُنموذجًا منطويًا على خَلْق جميع ذرِّيّاته التي ستُوجد إلى يوم القيامة انطواءً إجماليًا. وقيل: إنّ خَلْق آدمَ عليه السلام وإنشاءَ موادِّ النُّطَف التي منها خُلِق نسلُه مِن التراب إنشاءٌ لجميع الخلقِ مِن الأرض،[٢] فتدبّر.

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ مِن العُمر، أي: عمَّركم واستبقاكم ﴿فِيهَا﴾، أو مِن العِمارة، أي: أقدَركم على عِمارتها أو أمَركم بها. وقيل: هو مِن العُمْرى،[٣] بمعنى:

---

١ هود، ٥٠/١١.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٧/٢.

٣ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٥٣/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٨٥/٤. يقال: أعمرتُه الدار عُمْرى، أي: جعلتُها له يسكُنها مُدّة عُمره، فإذا مات عادت إليّ. وأصل العُمرى مأخوذ مِن العُمر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «عمر».

أعمرَكم فيها ديارَكم ويرِثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم مُعمِّرين ديارَكم تسكُنونها مدَّةَ عُمركم ثمّ تتركونها لمِثلكم.

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فإنّ ما فُصِل مِن فنون الإحسان داعٍ إلى الاستغفار عمّا وقع منهم مِن التفريط والتوبة عمّا كانوا يُباشرونه مِن القبائح، وقد زِيد / في [١٥٠ظ] بيان ما يُوجِب ذلك فقيل: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ﴾ أي: قريبُ الرحمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف، ٥٦/٧]. ﴿مُّجِيبٞ﴾ لمَن دعاه وسأله. وقد روعيَ في النظم الكريم نكتة، حيث قُدِّم ذِكر العِلّة الباعثة المتقدِّمة على الأمر بالاستغفار والتوبة وأُخّر عنه ذِكر الغائيّة المتأخِّرة عنهما في الوجود، أعني الإجابة.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾ أي: كنّا نرجو منك لِما كنّا نرى منك مِن دلائل السَّداد ومَخايل الرشاد أن تكون لنا سيِّدًا ومستشارًا في الأمور. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «فاضلًا خيّرًا نُقدِّمك على جميعنا».[١] وقيل: كنّا نرجو أن تدخُلَ في ديننا وتوافقَنا على ما نحن عليه.[٢] ﴿قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ الذي باشرتَه مِن الدعوة إلى التوحيد وتركِ عبادة الآلهة، أو قبل هذا الوقت، فكأنّهم لم يكونوا إلى الآن على يأس مِن ذلك ولو بعد الدعوة إلى الحقّ، فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا. وقرأ طلحة "مَرْجُوءًا" بالمدّ والهمز.[٣]

﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: عبَدوه. والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية. ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ مِن التوحيد وتركِ عبادة الأوثان وغيرِ ذلك مِن الاستغفار والتوبة. ﴿مُرِيبٖ﴾ أي: مُوقِع في الريبة، مِن أرابه، أي: أوقَعه في الرِّيبة، أي: قلقِ النفس وانتفاءِ الطمأنينة، أو مِن "أراب" إذا كان ذا رِيبة، وأيّهما كان فالإسنادُ مجازي، والتنوينُ فيه وفي ﴿شَكّٖ﴾ للتفخيم.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٢. وبلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٨٥/٤.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٢.

[٣] ما وقفتُ عليها فيما بين يديَّ مِن المظانّ.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أي: أخبروني. ﴿إِن كُنتُ﴾ في الحقيقة / ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ أي: حجّةٍ ظاهرة وبرهان وبصيرة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ مالكي ومُتولّي أمري. ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ﴾ مِن جهته ﴿رَحۡمَةٗ﴾ نبوّةً. وهذه الأمور وإن كانت محقَّقة الوقوع، لكنّها صُدِّرت بكلمة الشكّ اعتبارًا لحال المخاطَبين ورعايةً لحُسن المحاوَرة لاستنزالهم مِن المكابرة. [١٥١و]

﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: منجيًا مِن عذابه. والعدول إلى الإظهار لزيادة التهويل. و"الفاء" لترتيب إنكار النُّصرة على ما سبق مِن إيتاء النبوّة وكونِه على بيّنة مِن ربّه على تقدير العصيان، حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ أي: بالمساهَلة في تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون، فإنّ العصيان ممّن ذلك شأنه أبعدُ والمؤاخذةَ عليه ألزمُ وإنكارَ نُصرته أدخلُ.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ إذن باستتباعكم إيايَ، كما يُنبئ عنه قولُهم: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾،[١] أي: لا تُفيدونني إذ لم يكن فيه أصل الخُسران حتّى يزيدوه ﴿غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ أي: غيرَ أن تجعلوني خاسرًا بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله تعالى، أو فما تزيدونني بما تقولون غيرَ أن أنسُبَكم إلى الخسران وأقولَ لكم: إنكم لخاسرون، فالزيادة على معناه، و"الفاء" لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم مِن إنكاره على تقدير العصيان مع تحقّق ما ينفيه مِن كونه عليه السلام على بيّنة مِن ربّه وإيتائه النبوّةَ.

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف والتنبيهِ على أنّها مفارِقة لسائر ما يجانسها مِن حيث الخِلْقة ومِن حيث الخَلْق. ﴿لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ معجزةً دالّة على صِدق نبوّتي، وهي حال مِن ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، والعاملُ ما في ﴿هَٰذِهِۦ﴾ مِن معنى الفعلِ.

[١] في الآية السابقة.

و﴿لَكُمْ﴾ حال مِن ﴿ءَايَةً﴾ متقدِّمةً عليها لكونها نكرة، ولو تأخَّرت لكانت صفةً لها. ويجوز أن يكون ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ بدلًا مِن ﴿هَٰذِهِ﴾ أو عطف بيان، و﴿لَكُمْ﴾ خبرًا وعاملًا.

﴿فَذَرُوهَا﴾ خلُّوها وشأنَها ﴿تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ ترعى نباتها وتشرب ماءها. وإضافة "الأرض" إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ عزّ وجلّ لتربية استحقاقها لذلك وتعليلِ الأمر بتركها وشأنَها. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بُولغ في النهي عن التعرّض لها بما يضرّها، حيث نُهيَ عن المسّ الذي هو مِن مبادي الإصابة ونُكِّر "السوء"، أي: لا تضربوها ولا تطردوها ولا تقرَبوها بشيء مِن السُّوء فضلًا عن عَقرها وقتلها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي: قريبُ النزول.

[١٥١ظ] رُوي أنّهم / طلبوا منه أن يُخرِج مِن صخرة تُسمّى "الكاثبة" ناقةً عُشَراءَ[1] مُختَرَجةً[2] جوفاءَ وَبْراءَ، وقالوا: «إن فعلتَ ذلك صدّقناك»، فأخذ صالح عليهم مواثيقَهم: «لئن فعلتُ ذلك ليُؤمِنُنّ؟» فقالوا: «نعم»، فصلّى ودعا ربَّه فتمخَّضت الصخرة تمخُّضَ النُّتوج[3] بولدها، فانصدعت عن ناقة عُشراءَ كما وصفوا وهم ينظرون، ثمّ أنتجت ولدًا مثلَها في العِظَم، فآمن به جُندَع بن عمرو[4] في جماعة، ومَنَع الباقين مِن الإيمان دؤاب[5] بن عمرو والحُباب صاحب أوثانهم وربابٌ كاهنهم، فمكث الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتَرِد الماء غِبًّا فما ترفع رأسها مِن البئر حتّى تشرب كلَّ ما فيها، ثمّ تتفحّج[6] فيحلبون ما شاءوا حتّى تمتلئ أوانيهم

---

[1] ناقة عُشَراء: مضى لحملها عشرة أشهر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «عشر».

[2] في جامع البيان للطبري، ١٠/٢٨٧ (الأعراف، ٧/٧٣): «المُختَرَجة: ما شاكلت البُخت مِن الإبل». وهي التي جُبلت على خِلقة الجمل، وهي أكبر منه وأعظم. انظر: لسان العرب لابن منظور، «خرج».

[3] النتوج: الحامل مِن الدوابّ. انظر: لسان العرب لابن منظور، «نتج».

[4] هو جندع بن عمرو بن الدبيل بن إرم بن ثمود، كان مِن رؤساء قوم ثمود، وبُعث صالح في أيّامه وآمن بالناقة، وقيل: كفر مع مَن كفر. انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ١/٣١١؛ وتاريخ ابن خلدون، ٢/٢٣.

[5] كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوع معالم التنزيل وجامع البيان: ذؤاب.

[6] التفحُّج: تفريجُ ما بين الرِّجلين. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فحج».

فيشربون ويدَّخرون، وكانت تَصيف بظهر الوادي فتهرُب منها أنعامهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشقّ عليهم ذلك.[١]

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قيل: زَيَّنت عقرَها لهم عُنيزةُ أمُّ غَنْم وصدَقةُ بنت المختار.[٢] فعقروها واقتسموا لحمها فرَقِيَ سَقْبُها[٣] جبلًا اسمه قارة فرغا[٤] ثلاثًا، فقال صالح لهم: أدرِكوا الفصيل عسى أن يُرفَع عنكم العذاب فلم يقدِروا عليه، وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها.

﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ أي: عِيشوا ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ أي: في منازلكم، أو في الدنيا ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ قيل: قال لهم: تصبح وجوهكم غدًا مُصفرَّةً، وبعد غدٍ مُحمرَّةً، واليومَ الثالثَ مُسودَّةً، ثمّ يُصبِّحكم العذاب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما يدلّ عليه الأمر بالتمتّع ثلاثةَ أيّام مِن نزول العذاب عَقيبَها، والمراد بما فيه مِن معنى البُعد تفخيمُه. ﴿وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ / أي: غيرُ مكذوب فيه، فحُذف الجارّ للاتّساع المشهور، كقوله: [١٥٢و]

ويومٍ شهِدناه سُليمًا وعامرًا[٥]

أو غيرُ مكذوب، كأنّ الواعد قال له: "آتي بك"، فإن وفى به صدَقه وإلّا كذَبه، أو وعدٌ غيرُ كذِب على أنّه مصدر كالمجلود والمعقول.

---

١ القصّة بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٤٩/٣-٢٥٠ (الأعراف، ٧٩/٧)، وبعضها في جامع البيان للطبري، ٢٨٧/١٠-٢٨٨ (الأعراف، ٧٣/٧).

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٨٩/١٠ (الأعراف، ٧٣/٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٠/٣ (الأعراف، ٧٩/٧)، وفيهما أنّ اسم الثانية: صَدوف بنت المُحيَا.

٣ السَّقْب: ولد الناقة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سقب».

٤ الرُّغاء: صوت الإبل. رغا البعيرُ والناقة ترغو رُغاءً: صوّتت فضجَّت. انظر: لسان العرب لابن منظور، «رغو».

٥ لا يُعرَف قائله، وعجزه:

قليلٍ سوى الطَّعنِ النِّهالِ نوافلُه

وهو بلا نسبة في كتاب سيبويه، ١٧٨/١؛ والكامل للمُبرِّد، ٤٩/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٢، ١٣٢/٣ (الحج، ٧٨/٢٢). والتقدير فيه: شهِدنا فيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾[١] أي: عذابنا أو أمرنا بنزوله، وفيه ما لا يخفى مِن التهويل. ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ متعلّق بـ﴿نَجَّيْنَا﴾، أو بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ بسبب رحمة عظيمة ﴿مِّنَّا﴾ وهي بالنسبة إلى صالح النبوّةُ وإلى المؤمنين الإيمانُ كما مرّ، أو مُلتبِسين برحمة ورأفة منّا. ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: ونجيناهم مِن خزي يومئذ، وهو هلاكهم بالصيحة، كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ٥٨/١١]، على معنى أنّه: وكانت تلك التنجيةُ تنجيةً مِن خزي يومئذ، أي: مِن ذلّه ومهانته، أو ذلُّهم وفضيحتُهم يوم القيامة، كما فُسِّر به العذاب الغليظ فيما سبق، فيكون المعنى: ونجّيناهم مِن عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا إيّاهم مِن عذاب الدنيا.

وعن نافع[٢] بالفتح على اكتساء المضاف البناءَ مِن المضاف إليه هنا وفي "المعارج" في قوله: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ [المعارج، ١١/٧٠]،[٣] وقُرئ بالتنوين ونصبِ ﴿يَوْمِئِذٍ﴾.[٤]

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على كلّ شيء، والغالبُ عليه لا غيرُه.

[١٥٢ظ] ولكون الإخبار / بتنجية الأولياء لاسيّما عند الإنباء بحلول العذاب أهمَّ ذَكَرها أوّلًا ثمّ أخبر بهلاك الأعداء فقال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عُدل عن المُضمَر إلى المُظهَر تسجيلًا عليهم بالظلم وإشعارًا بعلّيّته لنزول العذاب بهم.

---

[١] وفي هامش م تعليق مِن المُصنِّف لم أتبيّنه.

[٢] هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي بالولاء المدني، مختلف في كنيته وأشهره أبو رويم (ت. ١٦٩هـ/٧٨٥م). المقرئ المدني، أحد القرّاء السبعة وإمام أهل المدينة، وهو في الطبقة الثالثة بعد الصحابة رضوان الله عليهم، وكان أسود اللون حالكًا صبيحَ الوجه حسَن الخُلق محتسبًا فيه دُعابة. قيل: أصله مِن أصبهان. قرأ على أبي ميمونة مولى أمّ سلمة رضي الله عنها، وله راويان ورش وقالون. ومات في المدينة وقد أقرأ الناس نيّفًا وسبعين سنةً. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٣٨/٥؛ **وغاية النهاية** لابن الجزري، ٣٣/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/٨.

[٣] قرأ به في الموضعين نافع والكسائي وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني وابن قُطيب وخارجة بن نافع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٣٦.

﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ أي: صيحةُ جبريلَ عليه السلام. وقيل: أتتهم مِن السماء صيحة فيها صوتُ كلّ صاعقة وصوتُ كلّ شيء في الأرض فتقطّعت قلوبهم في صدورهم.[1] وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف، ٧٨/٧]، ولعلّها وقعت عَقيبَ الصيحة المستتبِعة لتموُّج الهواء.

﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ أي: صاروا ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ أي: بلادهم أو مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ هامدين موتى لا يتحرّكون، والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم مِن غير اضطراب وحركة، كما يكون ذلك عند الموت المعتاد، ولا يخفى ما فيه مِن الدلالة على شدّة الأخذ وسرعته. اللّٰهمّ إنّا نعوذ بك مِن حلول غضبك.

قيل: لمّا رأوا العلامات التي بيّنها صالحٌ مِن اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمَدوا إلى قتله عليه السلام، فنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين، ولمّا كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنّطوا وتكفّنوا بالأنطاع، فأتتهم الصيحةُ فتقطعت قلوبُهم فهلكوا.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾ أي: كأنّهم لم يقيموا ﴿فِيهَا﴾ في بلادهم أو في مساكنهم، وهو في موقع الحال، أي: أصبحوا جاثمين مماثلين لمَن لم يُوجَد ولم يُقِم في مقام قطُّ.

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ وُضع موضعَ المضمر لزيادة البيان، ونوّنه أبو بكر هنا وفي "النجم"،[2] وقرأ حفص هنا وفي "الفرقان" و"العنكبوت" بغير تنوين.[3] ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ صرّح بكفرهم مع كونه معلومًا / ممّا سبق مِن أحوالهم تقبيحًا لحالهم [١٥٣و] وتعليلًا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاكِ في قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾. وقرأ الكسائي بالتنوين.[4]

---

١ في معالم التنزيل للبغوي، ١٨٧/٤.

٢ قرأ أبو بكر بالتنوين هنا، وبغير تنوين في "النجم". النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢-٢٩٠.

٣ قرأ بغير تنوين حمزة ويعقوب وحفص، ووافقهم أبو بكر في "النجم". النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢-٢٩٠.

٤ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهم الملائكةُ. عن ابن عبّاس: أنّهم جبريلُ عليه السلام وملَكان.[١] وقيل: هم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ عليهم السلام. وقال الضحّاك: كانوا تسعةً. وعن محمّد بن كعب: جبريلُ ومعه سبعة. وعن السُّدّيّ: أحدَ عشرَ على صور الغلمان الوِضاءِ وجوهُهم. وعن مقاتل: كانوا اثني عشر ملَكًا عليهم السلام.[٢]

وإنّما أُسنِد إليهم مُطلَق المجيء بالبشرى دون الإرسال[٣] لأنّهم لم يكونوا مرسَلين إليه عليه السلام؛ بل إلى قوم لوط لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾،[٤] وإنّما جاءوه لداعية البُشرى. ولمّا كان المقصود في السورة الكريمةِ ذِكرَ سُوء صنيع الأُمم السالفةِ مع الرسل المُرسَلة إليهم ولحوقِ العذاب بهم بسبب ذلك، ولم يكن جميع قوم إبراهيمَ عليه السلام ممّن لحِق بهم العذابُ؛ بل إنّما لحِق بقوم لوط منهم خاصّة، غُيِّر[٥] الأسلوب المُطَّرد فيما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾،[٦] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾،[٧] ثمّ رُجع إليه حيث قيل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.[٨]

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: مُلتبِسين بها قيل: هي مطلق البشرى المنتظمة للبِشارة بالولد مِن سارةَ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ الآية،[٩] وقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ[١٠] بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات، ١٠١/٣٧]، وقوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات، ٢٨/٥١]، وللبِشارة بعدم لحوق الضررِ به[١١] لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ

---

[١] عن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢، وبلا نسبة في جامع البيان للطبري، ٤٦٥/١٢.
[٢] هذه الأقوال الخمسة في معالم التنزيل للبغوي، ١٨٧/٤؛ وبعضها في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢.
[٣] وفي هامش م: مصدر مِن المبنيّ للمفعول. «منه».
[٤] في الآية التالية.
[٥] السياق: ولمّا كان... غُيِّر...
[٦] هود، ٥٠/١١.
[٧] هود، ٦١/١١.
[٨] سيأتي في هود، ٨٤/١١.
[٩] سيأتي في هود، ٧١/١١.
[١٠] م س: وبشّرناه.
[١١] م + لقوله: لا تخف. | كأنّ المصنِّف ضرب عليها، وليست في س.

﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾،[١] لظهور تفرُّع المجادلة على مجيئها كما سيأتي. وقيل: هي البِشارةُ بهلاك قوم لوط.[٢] ويأباه مجادلته عليه السلام في شأنهم. والأظهر أنّها البِشارة بالولد، وستعرِف سرّ تفرُّع المجادلة على ذلك.

ولمّا كان الإخبارُ بمجيئهم بالبشرى مَظِنَّةً لسؤال السامع بأنّهم ما قالوا / أجيبَ بأنّهم ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: سلّمنا، أو نسلّم عليك سلامًا. ويجوز أن يكون [١٥٣ظ] نَصْبُه بـ﴿قَالُواْ﴾، أي: قالوا قولًا ذا سلام، أو ذكَروا سلامًا. ﴿قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ أي: عليكم سلامٌ، أو سلامٌ عليكم. حيّاهم بأحسنَ مِن تحيَّتهم.[٣] وقُرئ: "سِلْمٌ"[٤] كـ"حِزم" في "حَرام"، وقرأ ابن أبي عبلة: "قَالَ سَلَامًا"،[٥] وعنه أنّه قرأ بالرفع فيهما.[٦]

﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي: إبراهيمُ. ﴿أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ﴾ أي: في المجيء به، أو ما لبث مجيئُه بعِجل. ﴿حَنِيذٖ﴾ أي: مشويّ بالرَّضْف[٧] في الأُخدود. وقيل: سمين يقطُر وَدَكُه،[٨] كقوله: "بعجل سمين" مِن "حنذتُ الفَرس" إذا عرَّقتَه بالجِلال.[٩]

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ۝٧٠﴾

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ لا يمُدّون إليه أيديَهم للأكل ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ أي: أنكرهم يقال: "نكِره وأنكره واستنكره" بمعنى، وإنّما أنكرهم لأنّهم كانوا إذا نزل بهم ضيف ولم يأكُل مِن طعامهم ظنُّوا أنّه لم يجئ بخير، وقد رُوي أنّهم كانوا ينكُتون بقِداح كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل إليه أيديهم.[١٠]

---

١ سيأتي في هود، ١١/٧٤.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٣.
٣ انظر تفصيل ذلك في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٦ (الفاتحة، ١/٢).
٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٠.
٥ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٧.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٩٦.
٧ الرَّضْف: الحجارة التي حمِيت بالشمس أو بالنار. انظر: لسان العرب لابن منظور، «رضف».
٨ الودك: الدَّسم، وقيل: دسم اللحم. انظر: لسان العرب لابن منظور، «ودك».
٩ أي: ألقيتُ عليه الجِلال ليَعرَق. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٣.
١٠ انظر: جامع البيان للطبري، ١٢/٤٧١؛ والمُحرَّر الوجير لابن عطيّة، ٣/١٨٨.

وهذا الإنكار منه عليه السلام راجعٌ إلى فِعلهم المذكور، وأمّا إنكاره المتعلّق بأنفسهم فلا تعلُّقَ له برؤية عدم أكلهم، وإنّما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونِهم مِن جنس ما كان يعهده مِن الناس، ألا يُرى إلى قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات، ٢٥/٥١].

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾ أي: أحسّ أو أضمَر مِن جهتهم ﴿خِيفَةً﴾ لِما ظُنّ أنّ نزولَهم لأمر أنكره الله تعالى عليه أو لتعذيب قومِه. وإنّما أُخِّر المفعول الصريح عن الظرف، لأنّ المراد الإخبار بأنّه عليه السلام أوجس مِن جهتهم شيئًا هو الخِيفة لا أنّه أوجس الخِيفةَ مِن جهتهم لا مِن جهة غيرِهم. وتحقيقه أنّ تأخير ما حقُّه التقديم يُوجِب ترقُّب النفس إليه، فيتمكَّن عند وروده عليها فضلَ تمكُّن.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ ما قالوه بمجرَّد ما رأوا منه مخايلَ الخوف إزالةً له منه؛ بل بعد إظهاره عليه السلام له، قال تعالى في سورة الحِجر: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر، ٥٢/١٥]، ولم يُذكَر ذلك ههنا اكتفاءً بذلك. ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَا﴾ ظاهره أنّه استئناف في معنى التعليل للنهي المذكور، كما أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [الحجر، ٥٣/١٥] تعليلٌ لذلك، فإنّ إرسالهم إلى قوم آخرين يُوجِب أمنهم مِن الخوف، أي: أُرسلنا بالعذاب ﴿إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ خاصّة إلّا أنّه ليس كذلك، فإنّ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر، ٥٧/١٥-٥٨] صريحٌ في أنّهم قالوه جوابًا عن سؤاله عليهم السلام، وقد أُوجزَ الكلام اكتفاء بذلك.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾

[١٥٤و] ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ / وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم، أو على رءوسهم للخدمة حسبما هو المعتاد. والجملة حال مِن ضمير ﴿قَالُواْ﴾،[١] أي: قالوه وهي قائمة تسمع مقالتهم.

﴿فَضَحِكَتْ﴾ سرورًا بزوال الخوف، أو بهلاك أهل الفساد، أو بهما جميعًا. وقيل: بوقوع الأمر حسبما كانت تقول فيما سلف، فإنّها كانت تقول لإبراهيمَ

[١] في الآية السابقة.

اضمُم إليك لوطًا فإنّي أرى أنّ العذاب نازلٌ بهؤلاء القوم.[١] وقيل: ضحِكت: حاضَت، ومنه "ضحِكت الشجرة" إذا سال صمغُها.[٢] وهو بعيد. وقُرئ بفتح الحاء.[٣]

﴿فَبَشَّرۡنَـٰهَا بِإِسۡحَـٰقَ﴾ أي: عقّبنا سرورها بسرور أتمّ منه على ألسنة رُسلنا.

﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَـٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ بالنصب على أنّه مفعول لِما دلّ عليه قوله: ﴿بَشَّرۡنَـٰهَا﴾، أي وهبنا لها مِن وراء إسحاقَ يعقوبَ، وقُرئ بالرفع[٤] على الابتداء خبرُه الظرف، أي: مِن بعد إسحاقَ يعقوبُ مولودٌ أو موجودٌ. وكلا الاسمين داخل في البِشارة كـ"يحيى"، أو واقعٌ في الحكاية بعد أن وُلدا فسُمِّيا بذلك. وتوجيهُ البِشارة هنا إليها مع أنّ الأصل في ذلك إبراهيمُ عليه السلام، وقد وُجِّهت إليه حيث قيل: ﴿فَبَشَّرۡنَـٰهُ[٥] بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات، ١٠١/٣٧]، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات، ٢٨/٥١] للإيذان بأنّ ما بُشِّر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد.

﴿قَالَتۡ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٌ ٧٢﴾

﴿قَالَتۡ﴾ استئناف وردَ جوابًا عن سؤال مَن سأل وقال: فما فعلتْ إذ بُشِّرتْ بذلك؟ فقيل: قالت: ﴿يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ أصل الويل: الخزيُ، ثمّ شاع في كلّ أمر فظيع، والألف مُبدَلة مِن ياء الإضافة كما في "يا لَهْفَا" و"يا عَجَبا". وقرأ الحسن على الأصل،[٦] وأمالها أبو عمرو وعاصم[٧] في رواية.[٨] / ومعناه: يا ويلتي احضُري [١٥٤ظ]

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٢.

[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٠/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن زيد الأعرابي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٧.

[٤] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

[٥] م س: وبشّرناه.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن قُطيب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥.

[٧] هو عاصم بن أبي النَّجُود الكوفي مولى بني أسد، أبو بكر (ت. ١٢٧هـ). الإمام الكبير، وأحد القرّاء السبعة والمشار إليه في القراءات. وكان ذا أدب ونُسُك وفصاحة وصوت جميل. أخذ القراءة مِن أبي عبد الرحمن السُّلمي وزِرّ بن حُبيش، وأخذ عنه أبو بكر بن عيّاش وحفص بن سليمان وغيرهما كثير. مات بالكوفة. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٩/٣؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٥٦/٥-٢٥٩؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ٣٤٦/١.

[٨] ما نقله المصنِّف ههنا هو المذكور في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٥٧/٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٢٦/١٠. والمذكور في كتب القراءات أنّ الإمالة فيها قراءة حمزة والكسائي وخلف، وأبو عمرو في رواية الدُّوري ونافع في رواية ورش عنه بخلاف يُميلانها بين بين. النشر لابن الجزري، ٣٧/٢، ٤٨، ٥١، ٥٣.

فهذا أوانُ حضورِك. وقيل: هي ألفُ النُّدبةِ ويوقف عليها بهاء السكت.[١] ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ بنت تسعين أو تسع وتسعين سنةً.

﴿وَهَٰذَا﴾ الذي تُشاهدونه ﴿بَعْلِي﴾ أي: زوجي، وأصل البَعل: القائمُ بالأمر. ﴿شَيْخًا﴾ وكان ابنَ مائة وعشرين سنةً، ونصبُه على الحال، والعاملُ معنى الإشارة. وقُرئ بالرفع[٢] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو شيخ أو خبرٌ بعد خبر، أو هو الخبر و﴿بَعْلِي﴾ بدل مِن اسم الإشارة، أو بيانٌ له، وكلتا الجملتين وقعَت حالًا مِن الضمير في ﴿ءَأَلِدُ﴾ لتقرير ما فيه مِن معنى[٣] الاستبعاد وتعليله، أي: أألد وكلانا على حالة منافية لذلك؟

وإنّما قدَّمت بيانَ حالها على بيان حاله عليه السلام لأنّ مُباينة حالها لِما ذُكر مِن الولادة أكثرُ؛ إذ ربّما يُولد للشيوخ مِن الشوابّ، أمّا العجائز داؤهنّ عُقام، ولأنّ البِشارة متوجِّهة إليها صريحًا، ولأنّ العكس في البيان ربّما يُوهِم مِن أوّل الأمر نسبة المانِع عن الولادة إلى جانب إبراهيمَ عليه السلام، وفيه ما لا يخفى مِن المحذور. واقتصارها الاستبعاد على ولادتها مِن غير تعرّض لحال النافلة لأنّها المُستبعَد، وأمّا ولادةُ ولدها فلا يتعلّق بها استبعاد.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي ما ذُكر مِن حصول الولد مِن هَرِمَين مثلِنا. ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ بالنسبة إلى سُنّة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده، وهذه الجملة لتعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقي، ومقصدُها استعظام نعمة الله عزّ وجلّ عليها في ضمن الاستعجاب العادي، لا استبعادُ ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه وتعالى.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

[١٥٥و] / ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: قدرتِه وحكمته أو تكوينه أو شأنِه، أنكروا عليها تعجُّبها مِن ذلك لأنّها كانت ناشئة في بيت النبوّة ومَهبِط الوحي والآيات

---

[١] القول في اللباب لابن عادل، ١٠/٥٢٦-٥٢٧.

[٢] قراءة شاذّة، مروية عن ابن مسعود والأعمش وكِرداب عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٧؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٩٧.

[٣] م ط - معنى.

ومَظهَر المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان حقُّها أن تتوقَّر ولا يزدهِيَها ما يزدهي سائرَ النساء مِن أمثال هذه الخوارقِ مِن ألطاف الله الخفيّة ولطائفِ صنعِه الفائضة على كلّ أحد ممّن يتعلّق بذلك مشيئته الأزليّة، لاسيّما على أهل بيت النبوّة التي ليست مرتبتُهم عند الله سبحانه كمراتب سائرِ الناس، وأن تُسبّح الله تعالى وتحمَدَه وتُمجِّدَه، وإلى ذلك أشاروا بقوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾ التي وسِعت كلّ شيء واستتبعت كلّ خير، وإنّما وُضع المظهَر موضعَ المُضمَر لزيادة تشريفِها.

﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ أي: خيراته النامية المُتكاثرة في كلّ باب التي مِن جملتها هِبةُ الأولاد. وقيل: الرحمة: النبوّة، والبركات: الأسباط مِن بني إسرائيلَ لأنّ الأنبياءَ منهم وكلُّهم مِن ولد إبراهيمَ عليهم السلام.[1]

﴿عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ نَصْب على المدح أو الاختصاصِ لأنّهم أهل بيت خليل الرحمن. وصَرفُ الخطاب مِن صيغة الواحدة إلى جمع المذكّر لتعميم حُكمِه لإبراهيمَ عليه السلام أيضًا، ليكون جوابهم لها جوابًا له أيضًا إن خطر بباله مثلُ ما خطر ببالها. والجملة كلام مستأنَف عُلِّل به إنكار تعجُّبها، كأنّه قيل: ليس المقام مقامَ التعجّب، فإنّ الله تعالى على كلّ شيء قدير، ولستُم يا أهل بيت النبوّة والكرامة والزُّلفى كسائر الطوائف؛ بل رحمتُه المستتبِعة لكلّ خير الواسعةُ لكلّ شيء، و﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾، أي: خيراته النامية الفائضة / منه بواسطة [١٥٥ظ] تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تُفارقكم.

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ﴾ فاعلٌ ما يستوجب الحمدَ ﴿مَّجِيدٞ﴾ كثيرُ الخير والإحسان إلى عباده. والجملة لتعليل ما سبق مِن قوله: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ أي: ما أوجس منهم مِن الخِيفة واطمأنّ قلبه بعِرفانهم وعِرفان سبب مجيئهم. و"الفاءُ" لربط بعض أحوال إبراهيمَ عليه السلام

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٤.

ببعضٍ غِبَّ انفصالها بما ليس بأجنبي مِن كلّ وجه؛ بل له مَدخَل تامّ في السِّباق والسِّياق. وتأخير الفاعل عن الظرف لأنّه مَصَبّ الفائدة، فإنّ بتأخير ما حقُّه التقديم تبقى النفس مُترقِّبة مُنتظِرةً إلى وروده فيتمكّن فيها عند وروده إليها فضلَ تمكُّن.

﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ إن فُسِّرت البُشرى بقولهم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾[1] فسببيّتُه ذهاب الخوف ومجيء السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ أي: جادَل رسلنا في شأنهم، وعُدل إلى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها أو طفِق يجادلنا، ظاهرةٌ.[2]

وأمّا إن فُسِّرت ببِشارة الولدِ أو بما يعُمُّها فلعلّ سببيّتَها لها مِن حيث إنّها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة أهله كافةً، ومجادلتُه إيّاهم أنّه قال لهم حين قالوا له: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [العنكبوت، ٣١/٢٩]: «أرأيتُم لو كان فيها خمسون رجلًا مِن المؤمنين أتُهلكونها؟» قالوا: «لا»، قال: «فأربعون؟» قالوا: «لا»، قال: «فثلاثون؟» قالوا: «لا»، حتّى بلغ العشرةَ قالوا: «لا»، قال: «أرأيتم إن كان فيها رجلٌ مسلمٌ أتُهلكونها؟» قالوا: «لا»، فعند ذلك قال: «إن فيها لوطًا»، قالوا: «نحن أعلمُ بمن فيها لَنُنجِّينّه وأهلَه».[3]

إن قيل: المتبادر مِن هذا الكلامِ أن يكون إبراهيمُ عليه السلام قد علِم أنّهم مُرسَلون لإهلاك قومِ لوطٍ قبل ذهابِ الرَّوع عن نفسه، ولكن لم يقدِر على مُجادلتهم في شأنهم لاشتغاله / بشأن نفسه، فلمّا ذهب عنه الرَّوع فرَغ لها، مع أنّ ذهاب الرَّوع إنّما هو قبل العِلم بذلك لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ﴾؛[4] قلنا: كان لوطٌ عليه السلام على شريعة إبراهيمَ عليه السلام وقومُه مُكلَّفين بها، فلمّا رأى مِن الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافّة أمّتِه التي مِن جملتهم قومُ لوطٍ، ولا ريب في تقدّم هذا الخوف على قولهم:

[١٥٦و]

---

[1] هود، ٧٠/١١.

[2] وفي هامش م: خبر لقوله: فسببيته ذهاب الخوف. «منه».

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٢؛ وتفسير الرازي، ٣٧٦/١٨.

[4] هود، ٧٠/١١.

﴿لَا تَخَفْ﴾،[١] وأمّا الذي علِمه عليه السلام بعد النهي عن الخوف فهو اختصاص قوم لوطٍ بالهلاك لا دخولُهم تحت العموم. فتأمَّل، والله الموفِّق.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غيرُ عَجول على الانتقام ممّن أساء إليه، ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثيرُ التأوُّه على الذنوب والتأسُّف على الناس، ﴿مُّنِيبٌ﴾ راجع إلى الله تعالى. والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيانُ ما حَمله عليه السلام على ما صدر عنه مِن المجادلة.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: قالت الملائكة: يا إبراهيمُ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الجِدال ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشأنَ ﴿قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: قَدَرُه الجاري على وَفق قضائه الأزلي الذي هو عبارة عن الإرادة الأزليّة والعِناية الإلهيّة المُقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاصّ حسب تعلُّقها بالأشياء في أوقاتها، وهو المعبَّر عنه بالقدَر.

﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ لا بجِدال ولا بدعاء ولا بغيرهما.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: انطلَقوا مِن عند إبراهيمَ عليه السلام إلى لوطٍ عليه السلام وبين القريتين أربعةُ فراسخَ، ودخلوا عليه في صوَر غِلمان مُرْد حِسان الوجوه،[٢] فلذلك ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: ساءه مجيئهم لِظنّه أنّهم أناس، فخاف أن يقصِدهم قومه ويعجِزَ عن مدافعتهم. / وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو عمرو: "سِيءَ" و"سِيئَتْ" [الملك، ٢٧/٦٧] بإشمام السين الضمَّ.[٣] [١٥٦ظ]

---

[١] هود، ٧٠/١١.

[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤١/٢.

[٣] قرأ بها الكسائي ونافع وأبو جعفر وابن عامر في رواية هشام عنه ويعقوب في رواية رويس عنه. النشر لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

رُوي أنّ الله تعالى قال للملائكة: «لا تُهلكوهم حتّى يشهَد عليهم لوطٌ أربعَ شهادات»، فلمّا مشى معهم منطلِقًا بهم إلى منزله قال لهم: «أمَا بلَغكم أمر هذه القرية؟» قالوا: «وما أمرُها؟» قال: «أشهَد بالله إنّها لشرُّ قريةٍ في الأرض عملًا»، يقول ذلك أربعَ مرّات، فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت به قومها وقالت: «إن في بيت لوط رجالًا ما رأيتُ مثلَ وجوههم قطّ».[١]

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق بمكانهم صدره أو قلبه، أو وُسعه وطاقته، وهو كناية عن شدّة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه. وقيل: ضاقت نفسُه عن هذا الحادث، وذِكرُ الذَّرْع مَثَل، وهو المِساحة، وكأنّه قدْرُ البدن مجازًا، أي: إنّ بدنه ضاق قدرُه مِن احتمال ما وقع. وقيل: الذِّراع اسم للجارحة مِن المِرفق إلى الأنامل، والذَّرْعُ: مدُّها، ومعنى ضِيق الذَّرع في قوله: ﴿ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: قِصَرُها، كما أنّ معنى سَعتها وبسطتها: طُولها. ووجهُ التمثيل بذلك أنّ القصير الذَّرع إذا مدَّها ليتناول ما يتناوله الطويل الذَّرعِ تقاصر عنه وعجِز عن تعاطيه، فضُرب مثلًا للذي قصُرت طاقتُه دون بلوغ الأمر.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديدٌ، مِن "عصَبه إذا شدّه".

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَجَآءَهُۥ﴾ أي: لوطًا وهو في بيته مع أضيافه ﴿قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يُسرِعون كأنّما يُدفَعون دَفعًا لطلب الفاحشة مِن أضيافه. والجملة حال مِن قومه، وكذا قوله: / ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ هذا الوقت. ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: جاءوا مُسرعين والحال أنّهم كانوا مُنهمِكين في عمل السيّئات فضَرُوا[٢] بها وتمرّنوا فيها حتّى لم يبقَ عندهم قباحتُها، ولذلك لم يستحيُوا ممّا فعلوا مِن مجيئهم مُهرِعين مُجاهِرين. [١٥٧و]

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٥.

٢ ضريَ به ضرًا وضراوة: لَهِج. والضراوة: العادة، يقال: ضريَ الشيءُ بالشيء إذا اعتاده فلا يكاد يصبر عليه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «ضري».

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فتزوّجوهنّ، وكانوا يطلُبونهنّ مِن قبلُ ولا يُجيبهم لخُبثهم وعدمِ كفاءتهم لا لعدم مشروعيّته، فإنّ تزويج المسلماتِ مِن الكفّار كان جائزًا، وقد زوّج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ابنتيه مِن عُتبةَ بن أبي لهَبٍ[1] وأبي العاص بن الرَّبيع[2] قبل الوحي وهما كافران.[3] وقيل: كان لهم سيّدان مُطاعان فأراد أن يُزوّجَهما ابنتيه.[4]

وأيًّا ما كان فقد أراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرَم. وقيل: ما كان ذلك القول منه مُجرًى على الحقيقة مِن إرادة النكاح؛ بل كان ذلك مبالغةً في التواضع لهم وإظهارًا لشدّة امتِعاضِه ممّا أوردوا عليه طمعًا في أن يستحيوا منه ويرِقّوا له إذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا عليه، مع ظهور الأمر واستقرارِ العلم عنده وعندهم جميعا بألّا مُناكحةَ بينهم، وهو الأنسبُ بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾،[5] كما ستقف عليه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الفواحش أو بإيثارهنّ عليهم. ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: لا تفضحوني في شأنهم فإنّ إخزاء ضيفِ الرجل وجارِه إخزاءٌ له، أو لا تُخجلوني

---

[1] هو عتبة بن عبد العزّى المعروف بأبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ، وأمّه أمّ جميل بنت حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ، وهو ابن عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وقد تزوّج ابنته رقيّة قبل النبوّة، وقيل: قبل الهجرة، ولمّا نزلت الآية: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد، ١/١١١] أمره أبوه بطلاقها ففعل، وتزوّجها عثمان بن عفّان رضي الله عنه. دعا عليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «اللّهمّ سلّط عليه كلبًا مِن كلابك»، فأكله أسدٌ وهو هارب إلى الشام. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٥١/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٣٨٧/١٣.

[2] هو أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب القرشي، وأمّه هالة بنت خويلد، مختلف باسمه، قيل: لقيط، وقيل: الزبير، وقيل: هشيم. وكان يلقب جرو البطحاء، وقيل: الأمين (ت. ١٢هـ/٦٣٣م). وهو زوج زينب بنت النبيّ عليه الصلاة والسلام وابن خالتها، وقصّة إسلامه مفصّلة في كتب التراجم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٣٠/١؛ والإصابة لابن حجر، ٤٠٧/١٢-٤١٠.

[3] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٦/٢، وفيه «أبي العاص بن وائل» مكان «أبي العاص بن الرّبيع»، فصحّحه المُصنّف، ونبّه على خطأ الزمخشري في ذلك ابن حجر في الكافي الشاف، ص ٨٦-٨٧، وتخريجه فيه وفي تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٤٦/١-١٤٧.

[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٦/٢.

[5] في الآية التالية.

مِن الخَزاية وهي الحياء. ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحقّ الصريح ويرعوي عن الباطل القبيح.

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾

﴿قَالُواْ﴾ معرضِين عمّا نصحهم به مِن الأمر بتقوى الله تعالى والنهي عن إخزائه مجيبين عن أوّل كلامه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ / مستشهِدين بعلِمه بذلك، يعنُون إنّك قد علمتَ ألّا سبيلَ إلى المناكحة بيننا وبينك وما عرْضُك إلّا عرضٌ سابريٌ[1] ولا مَطمعَ لنا في ذلك. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ مِن إتيان الذُّكران. [١٥٧ظ]

ولمّا يئس عليه السلام مِن ارعوائهم عمّا هم عليه مِن الغَي ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: لفعلتُ بكم ما فعلتُ وصنعتُ ما صنعتُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ[2] أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد، ٣١/١٣].

﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّ لِي بِكُمْ﴾... إلخ، لِما فيه مِن معنى الفعل، أي: لو قوِيتُ على دفعكم بنفسي أو أويتُ إلى ناصر عزيز قويّ أتمنّع به عنكم، شَبّهه برُكن الجبل في الشدّة والمَنَعة. ورُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رحِم الله أخي لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد».[3]

رُوي أنّه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يُجادِلهم مِن وراء الباب، فتسوّروا الجدار، فلمّا رأت الملائكة ما على لوطٍ مِن الكَرْب[4] ﴿قَالُواْ﴾ أي:

---

[1] قول العامة: عرضٌ سابريٌّ، أي: رقيق ليس بمُحقَّق، يقال لمَن يُعرَض عليه الشيء عرضًا لا يُبالغ فيه؛ لأنّ السابري مِن أجود الثياب يُرغَب فيه بأدنى عَرْض. وفي تفسيره أقوال أخرى. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سبر»، «عرض». وقد يُدرَج هذا القول في الأمثال. انظر: جمهرة الأمثال للعسكري، ٤٨/٢.

[2] م س – ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾.

[3] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٤٧/٤ (٣٣٧٢)؛ وصحيح مسلم، ١٣٣/١ (٢٣٨). وبلفظه ههنا في جامع البيان للطبري، ٥١٠/١٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٧/٢.

[4] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٩٢/٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٢/٢.

الرسل لمّا شاهدوا عَجْزه عن مُدافَعة قومه: ﴿يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ بضرر ولا مكروه، فافتح الباب ودَعنا وإيّاهم، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريلُ عليه السلام ربَّه ربَّ العزّة جلّ جلاله في عقوبتهم، فأذِن له فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه، وله جناحان وعليه وِشاح مِن دُرّ منظوم وهو برّاق الثنايا، فضرب بجناحه وجوههم فطمَس أعينهم وأعماهم، كما قال عزّ وعلا: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر، ٣٧/٥٤]، فصاروا لا يعرِفون الطريق، فخرجوا وهم يقولون: النجاءَ النجاءَ فإنّ في بيت لوطٍ قومًا سَحَرة.[1]

/ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بالقَطع مِن "الإسراء"، وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء في القرآن[2] مِن السُّرى، و"الفاء" لترتيب الأمر بالإسراء على الإخبار برسالتهم المُؤذِنة بورود الأمر والنهي مِن جنابه عزّ وجلّ إليه عليه السلام. [١٥٨و]

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بطائفة منه ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ﴾ أي: لا يتخلَّف أو لا ينظُر إلى ورائه ﴿أَحَدٌ﴾ منك ومِن أهلك، وإنما نُهوا عن ذلك ليجِدّوا في السير فإنّ مَن يلتفت إلى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وقفة، أو لئلّا يرَوا ما ينزل بقومهم مِن العذاب فيرِقّوا لهم.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ استثناء مِن قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، ويُؤيِّده أنّه قُرئ: "فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا امْرَأَتَكَ"،[3] وقُرئ بالرفع[4] على البدل مِن ﴿أَحَدٌ﴾، فالالتفاتُ بمعنى التخلّف، لا بمعنى النظر إلى الخَلف كيلا يلزمَ التناقضُ بين القراءتين المتواترتين، فإنّ النصب يقتضي كونه عليه السلام غيرَ مأمور بالإسراء بها، والرفعَ كونَه مأمورًا بذلك.

والاعتذار بأنّ مقتضى الرفع إنّما هو مجرَّد كونها معهم، وذلك لا يستدعي الأمر بالإسراء بها حتّى يلزَم المُناقضةَ؛ لجواز أن تسريَ هي بنفسها، كما يُرى

---

[1] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٦.

[2] قرأ بذلك ابن كثير ونافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ٢٣٧.

[4] قراءة شاذّة، غير منسوبة، أوردها الزمخشري في الكشّاف، ٣٠٧/٢-٣٠٨.

أنّه عليه السلام لمّا أسرى بأهله تبِعَتْهم، فلمّا سمعت هِدّة العذاب التفتت وقالت: «يا قوماه»، فأدرَكها حجر فقتلها؛[1] وأن يسريَ بها عليه السلام مِن غير أمرٍ بذلك، إذ مُوجَب النصبِ إنّما هو عدم الأمر بالإسراء بها لا النهيُ عن الإسراء بها حتّى يكونَ عليه السلام بالإسراء بها مخالفًا للنهي، لا يجدي نفعًا؛[2] لأنّ انصراف الاستثناء إلى الالتفات يستدعي / بقاء "الأهل" على العموم،[3] [١٥٨ظ] فيكون الإسراء بها مأمورًا به قطعًا. وفي حَمْل الأهليّة في إحدى القراءتين على الأهليّة الدينيّة وفي الأخرى على النَّسَبيّة -مع أنّ فيه ما لا يخفى مِن التحكّم والاعتساف- كرٌّ على ما فُرّ منه مِن المناقضة.

فالأَولى حينئذ جَعْل الاستثناء على القراءتين مِن قوله: ﴿لَا يَلْتَفِتْ﴾ مثلَ الذي في قوله تعالى: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء، ٦٦/٤]، فإنّ ابن عامر قرأه بالنصب،[4] وإن كان الأفصَح الرفعَ على البدل، ولا بُعد في كون أكثر القرّاء على غير الأفصح. ولا يلزَم مِن ذلك أمرها بالالتفات؛ بل عدمُ نهيها عنه بطريق الاستصلاح، ولذلك علّله على طريقة الاستئناف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مِن العذاب، وهو إمطارُ الحَجَر وإن لم يصبها الخَسْف. والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشأن. وقوله تعالى: ﴿مُصِيبُهَا﴾ خبر. وقوله: ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مبتدأ، والجملة خبر لـ﴿إِنَّ﴾ الذي اسمه ضمير الشأن. وفيه ما لا يخفى مِن تفخيم شأن ما أصابهم. ولا يحسُن جَعْل الاستثناء منقطِعًا على قراءة الرفع.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي: موعدَ عذابهم وهلاكهم. تعليلٌ للأمر بالإسراء والنهي عن الالتفات المُشعِر بالحثّ على الإسراع.

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ تأكيد للتعليل، فإنّ قُرب الصبح داعٍ إلى الإسراع في الإسراء للتباعُد عن مواقع العذاب. ورُوي أنّه قال للملائكة عليهم السلام: «متى موعد هلاكهم؟» قالوا: «الصبحُ»، قال: «أُريد أسرعَ مِن ذلك»، فقالوا:

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٥١٦/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢.

[2] السياق: والاعتذار... لا يجدي نفعًا...

[3] وفي هامش م: عمومه.

[4] النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

«ذلك».[١] وإنّما جُعل مِيقات هلاكِهم الصبحَ / لأنّه وقت الدَّعة والراحة، فيكون [١٥٩و] حلول العذاب حينئذ أفظعَ، ولأنّه أنسب بكون ذلك عِبرة للناظرين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: وقتُ عذابنا وموعده، وهو الصبح ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ أي: عاليَ قُرى قوم لوطٍ وهي التي عُبّر عنها بـ﴿ٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ [التوبة، ٧٠/٩]، وهي خمس مدائنَ فيها أربعمائة ألفِ ألفٍ.[٢]

﴿سَافِلَهَا﴾ أي: قلبناها على تلك الهيئة، وجُعِل ﴿عَٰلِيَهَا﴾ مفعولًا أوّل للجَعْل و﴿سَافِلَهَا﴾ مفعولًا ثانيًا له، وإن تحقَّق القلب بالعكس أيضًا لتهويل الأمر وتفظيع الخَطْب؛ لأنّ جَعْل عالِيها الذي هو مَقارّهم ومساكنهم سافلَها أشدُّ عليهم وأشقُّ مِن جَعْل سافِلها عاليَها وإن كان مُستلزِمًا له. رُوي أنّه جعلَ جبريلُ عليه السلام جناحه في أسفلها ثمّ رفعها إلى السماء حتّى سمع أهل السماء نُباحَ الكلاب وصياحَ الدِّيَكة، ثمّ قلبها عليهم.[٣] وإسنادُ الجَعْل والإمطار إلى ضميره سبحانه باعتبار أنّه المسبِّب لتفخيم الأمر وتهويل الخطب.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ على أهل المدائنِ أو شُذّاذهم ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ مِن طين متحجِّر، كقوله: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات، ٣٣/٥١]. وأصلُه "سنك كل"[٤] فعُرّب، وقيل: هو مِن "أسجَله" إذا أرسله، أو "أدرّ عطيّته"،[٥] والمعنى: مِن مِثل الشيء المرسَل أو مِثلَ العطيّة في الإدرار، أو مِن السِّجلّ، أي: ممّا كتب الله تعالى أن يعذِّبهم به. وقيل: أصله "مِن سِجّين" أي مِن جهنّم، فأُبدِلت لامه نونًا.[٦]

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ٥١٥/١٢-٥١٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٦.

[٢] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٦.

[٣] انظر: جامع البيان للطبري، ٥١٦/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢.

[٤] انظر: جامع البيان للطبري، ٥٢٦/١٢-٥٢٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢. و"سنك كل" معناها بالفارسيّة: الحجر والطين. انظر لتفصيل الكلام عليه والأقوال فيه: المُعرَّب للجواليقي، ص ٣٦٤-٣٦٦، وحواشي مُحقِّقه.

[٥] القول في جامع البيان للطبري، ٥٢٨/١٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢.

[٦] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٣/٢.

﴿مَنضُودٍ﴾ نُضِد في السماء نَضْدًا مُعدًّا للعذاب. وقيل: يُرسَل بعضه إثرَ بعض كقِطار الأمطار.[1]

﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾

﴿مُسَوَّمَةً﴾ مُعْلَمة للعذاب، وقيل: مُعْلَمةً ببياض وحُمرة أو بسِيما تتميَّز به عن حجارة الأرض، أو باسم مَنْ ترمى به.[2] ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ / في خزائنه التي لا يتصرَّف فيها غيره عزّ وجلّ. [١٥٩ظ]

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: الحجارة الموصوفة. ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن كلّ ظالم ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فإنّهم بسبب ظلمِهم مستحقُّون لها وملابَسون بها. وفيه وعيدٌ شديد لأهل الظلم كافّة.

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه سأل جبريلَ عليه السلام فقال: «يعني ظالمي أمّتِك ما مِن ظالم منهم إلّا وهو بعرض حَجرٍ يسقط عليه مِن ساعة إلى ساعة».[3] وقيل: الضمير للقُرى، أي: هي قريبة مِن ظالمي مكّةَ يمرّون بها في مَسايرهم وأسفارِهم إلى الشام.

وتذكيرُ "البعيد" على تأويل الحِجارة بالحَجر، أو إجرائه على موصوف مذكّر، أي: بشيء بعيد أو بمكان بعيد، فإنّها وإن كانت في السماء وهي في غاية البُعد مِن الأرض إلّا أنّها حين هَوَت منها فهي أسرعُ شيء لحُوقًا بهم، فكأنّها بمكان قريبٍ منهم. أو لأنّه على زِنة المصدر كالزفير والصهيل، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكّر والمؤنّث.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤﴾

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢؛ وجامع البيان للطبري، ٥٣١/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٦.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥١٩/١١؛ واللباب لابن عادل، ٥٤٢/١٠. وأورده البغوي بقوله: «وفي بعض الآثار» في معالم التنزيل، ١٩٤/٦. ولم أجِده في مظانّه. وقال عنه الزَّيلعيُّ في تخريج أحاديث الكشّاف، ١٤٨/٢: «غريب».

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي: أولاد مدينَ بن إبراهيمَ عليه السلام، أو جُعِل اسمًا للقبيلة بالغَلَبة، أو أهل مدينَ وهو بلد بناه مَدينُ فسُمّي باسمه. ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: نسيبَهم ﴿شُعَيْبًا﴾ وهو ابن ميكيلَ بن يشجرَ بن مدينَ، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحُسن مراجعتِه قومَه. والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾،[1] أي: وأرسلنا إلى مدينَ شعيبًا.

/ ﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام، فكأنّه قيل: [١٦٠و] فماذا قال لهم؟ فقيل: قال كما قال مَن قبله مِن الرسل عليهم السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحدَه ولا تشركوا به شيئًا، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ تحقيق للتوحيد وتعليل للأمر به، وبعد ما أمرهم بما هو ملاكُ أمر الدين وأوّلُ ما يجب على المكلَّفين نهاهم عن ترتيب مبادي ما اعتادوه مِن البَخس والتطفيف عادةً مستمرَّة، فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كي تتوسَّلوا بذلك إلى بَخْس حقوق الناس.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: ملتبسين بثروة وسَعة تُغنيكم عن ذلك، أو بنعمة مِن الله تعالى حقُّها أن تُقابَل بغير ما تأتونه مِن المُسامَحة والتفضّل على الناس شكرًا عليها، أو أراكم بخير فلا تُزِيلوه بما أنتم عليه مِن الشرّ، وهو على كلّ حال علّة للنهي عُقّبت بعلّة أخرى، أعني قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تنتهوا عن ذلك ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ لا يشِذّ منه شاذٌّ منكم.

وقيل: عذابَ يوم مُهلِك، مِن قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف، ٤٢/١٨]، وأصلُه مِن إحاطة العدوّ.[2] والمراد عذاب يوم القيامة، أو عذابُ الاستئصال. ووصفُ اليوم بالإحاطة وهي حال العذاب على الإسناد المجازي، وفيه مِن المبالغة ما لا يخفى، فإنّ "اليوم" زمان يشتمِل على ما وقع فيه مِن الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذَّب ما اشتمل عليه منه، كما إذا أحاط بنعيمه، ويجوز أن يكون هذا تعليلًا للأمر والنهي جميعًا.

---

[1] هود، ٦١/١١.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٨/٢.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: بالعدل مِن غير زيادة ولا نقصان، فإنّ الزيادة في الكيل والوزن وإن كان تفضُّلًا مندوبًا إليه، لكنّها في الآلة محظورة كالنقص، فلعلّ الزائدَ للاستعمال عند الاكتيال والناقصَ للاستعمال وقتَ الكيل، وإنّما أُمر بتسويتهما وتعديلِهما صريحًا / [١٦٠ظ] بعد النهي عن نقصهما مبالغةً في الحمل على الإيفاء والمنعِ مِن البخس، وتنبيهًا على أنّه لا يكفيهم مجرَّد الكفِّ عن النقص والبَخس؛ بل يجب عليهم إصلاح ما أفسدوه وجعلوه معيارًا لظلمهم وقانونًا لعدوانهم.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ﴾ بسبب نقصِهما وعدم اعتدالِهما ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ التي يشترونها بهما، وقد صُرِّح بالنهي[١] عن البَخس بعد ما عُلم ذلك في ضمن النهي عن نَقْص المِعيار والأمرِ بإيفائه اهتمامًا بشأنه وترغيبًا في إيفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها. ويجوز أن يكون المراد بالأمر بإيفاء المكيال والميزان الأمرَ بإيفاء المَكيلاتِ والموزونات، ويكونَ النهيُ عن البخس عامًّا للنقص في المقدار وغيره تعميمًا بعد التخصيص، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، فإنّ العَثْيَ يعمّ نقص الحقوق وغيرَه مِن أنواع الفساد. وقيل: البَخس: المَكس، كأخذ العشور في المعامَلات.[٢] قال زُهير بن أبي سُلمى:

أفـي كـلّ أسـواق الـعـراقِ إتـاوةٌ ... وفي كلّ ما باع امرؤ مَكْسُ[٣] درهمِ[٤]

والعَثْيُ في الأرض: السرقة وقَطْع الطريق والغارة. وفائدةُ الحال إخراج ما يُقصَد به الإصلاح كما فعله الخَضِر عليه السلام مِن خرق السفينة وقتلِ الغلام. وقيل: معناه: ولا تعثَوا في الأرض مفسِدين أمْرَ آخرتكم ومصالحَ دينكم.[٥]

---

١ س: النهي.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٩.

٣ وفي هامش م: بخس.

٤ تابَع المُصنِّف الزمخشري في نسبة هذا البيت إلى زهير في الكشّاف، ٢/٣٠٩. والصواب أنّه لجابر بن حُنَيّ التغلبي كما في المفضّليّات للضبّي، ص ٢١١؛ والحيوان للجاحظ، ١/٢١٥؛ وأساس البلاغة للزمخشري، «أتي».

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٤٤.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝٨٦﴾

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أبقاه لكم مِن الحلال بعد التنزّه عن تعاطي المُحرَّمات ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ممّا تجمعون بالبَخْس والتطفيف، فإنّ ذلك هباء منثور؛ بل شرّ محض، وإن زعمتُم أنّ فيه خيرًا كقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة، ٢/٢٧٦].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا، فإنّ خيريّتها / باستتباع الثوابِ مع النجاة، وذلك مشروط بالإيمان لا محالةَ، أو إن كنتم مصدِّقين بي في مقالتي لكم. وقيل: البقيّة: الطاعة، كقوله عزّ وعلا: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الكهف، ١٨/٤٦].[1] وقُرئ: "تَقِيَّةُ اللهِ"[2] بالفوقانيّة، وهي تقواه عن المعاصي. [١٦١و]

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم مِن القبائح، أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم، وإنّما أنا ناصح مُبلِّغ، وقد أعذرتُ إذ أَنْذرتُ ولم آلُ في ذلك جُهدًا، أو ما أنا بحافظ ومُستبْقٍ عليكم نِعمَ الله تعالى إن لم تتركوا ما أنتم عليه مِن سوء الصنيع.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ مِن الأوثان، أجابوا بذلك أمرَه عليه السلام إيّاهم بعبادة الله تعالى وحدَه المتضمِّنَ لنهيهم عن عبادة الأصنام، ولقد بالغوا في ذلك وبلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال، حيث لم يكتفوا بإنكار الوحي الآمر بذلك حتّى ادّعَوا ألّا آمرَ به مِن العقل واللُّبّ أصلًا، وأنّه مِن أحكام الوسوسة والجنون، وعلى ذلك بنَوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء: أصلاتُك التي هي مِن نتائج الوسوسة وأفاعيلِ المجانين تأمُركَ بأن نترُك عبادة الأوثان التي توارَثْناها أبًا عن جدّ؟

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٠٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ٢٣٨.

وإنّما جعلوه عليه السلام مأمورًا مع أنّ الصادر عنه إنّما هو الأمر بعبادة الله تعالى وغيرُ ذلك مِن الشرائع، لأنّه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك مِن تلقاء نفسه؛ بل مِن جهة الوحي، وأنّه كان يُعلِمهم بأنّه مأمور بتبليغه إليهم. وتخصيصُهم بإسناد الأمر إلى الصلاة / مِن بين سائر أحكام النبوّة لأنّه عليه السلام كان كثير الصلاة معروفًا بذلك، وكانوا إذا رأوه يصلّي يتغامزون ويتضاحكون، فكان هي مِن بين سائر شعائر الدِّين ضُحْكةً لهم. وقُرئ: "أَصَلَوَاتُكَ".[1] [١٦١ظ]

﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ جواب عن أمره عليه السلام[2] بإيفاء الحقوق ونهيِه عن البَخْس والنقصِ معطوفٌ على ﴿مَا﴾، أي: أو أن نتركَ أن نفعل في أموالنا ما نشاء مِن الأخذ والإعطاءِ والزيادة والنقص، وقُرئ بالتاء في الفعلين[3] عطفًا على مفعول ﴿تَأۡمُرُكَ﴾، أي: أصلاتُك تأمرك أن تفعل أنت في أموالنا ما تشاء؟ وتجويزُ العطف على ﴿مَا﴾ على ما قيل[4] يستدعي أن يُراد بالترك معنيان متخالفان.[5]

والمراد بفعله عليه السلام إيجابُ الإيفاء والعدلِ في معاملاتهم، لا نفسُ الإيفاء، فإنّ ذلك ليس مِن أفعاله عليه السلام؛ بل مِن أفعالهم. وإنّما لم يقُل عطفًا على ﴿أَن نَّتۡرُكَ﴾؛ لأنّ الترك ليس مأمورًا به على الحقيقة، بل المأمورُ به تكليفه عليه السلام إيّاهم وأمرُه بذلك، والمعنى: أصلاتُك تأمرُك أن تُكلّفَنا أن نترك ما يعبد آباؤنا. وحملُه على معنى: أصلاتُك تأمرك بما ليس في وُسعك وعُهدتك مِن أفاعيل غيرِك؟ ليكون ذلك تعريضًا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاءً به مِن تلك الجهة، يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الأمر، ويستدعي أن يصدُر عنه عليه السلام في أثناء الدعوة ما يدلّ على ذلك أو يُوهِمه، وأنّى ذلك؟ فتأمَّل.

---

[1] قرأ بذلك نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٠.

[2] س – عليه السلام.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن أبي عبلة والوليد بن مسلم. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٩٩٩.

[4] وفي هامش م: قاله صاحب اللباب. | انظر: اللباب لابن أبي عادل، ١٠/٥٤٦.

[5] وفي هامش م: الرفض في الأوّل والترك على حاله في الثاني. «منه».

وقُرئ بالنون في الأوّل والتاء في الثاني[1] عطفًا على ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾، أي: أو أن نفعل نحن في أموالنا عند المعاملة ما تشاء أنت مِن التسوية والإيفاء.

/ ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ وصفوه عليه السلام بالوصفَين على طريقة التهكُّم، وإنّما أرادوا بذلك وصفه بضدّيهما كقول الخَزَنة: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان، ٤٤/٤٩]، ويجوز أن يكون تعليلًا لِما سبق مِن استبعاد ما ذكروه على معنى: إنّك لأنت الحليم الرشيد على زعمك، وأمّا وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقامُ الاستهزاء، اللّٰهمّ إلّا أن يُراد بالصلاة الدِّين كما قيل. [١٦٢و]

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجّةٍ واضحة وبرهان نيّر، عُبّر بهما عمّا آتاه الله تعالى مِن النبوّة والحكمة ردًّا على مقالتهم الشنعاء في جَعْلهم أمرَه ونهيَه غيرَ مستنِد إلى سَند. ﴿مِّن رَّبِّي﴾ ومالكِ أموري. وإيرادُ حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه مِن البيّنات والحُجج لاعتبار حال المخاطَبين ومراعاةِ حُسن المحاورة معهم، كما ذكرناه في نظائره.

﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ أي مِن لدنه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو النبوّة والحِكمة أيضًا، عُبّر عنهما بذلك تنبيهًا على أنّهما مع كونهما بيّنة رِزق حسَن، كيف لا، وذلك مناط الحياة الأبديّة له ولأمّته. وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه فحوى الكلام، أي: أتقولون في شأني ما تقولون؟

والمعنى: إنكم نظمتُموني في سِلك السُّفهاء الغُواة وعدَدتُم ما صدر عنّي مِن الأوامر والنواهي مِن قبيل ما لا يصِحّ أن يتفوّه به عاقل، وجعلتموه مِن أحكام الوسوسة والجنون، واستهزأتُم بي وبأفعالي حتّى قلتُم إنّ ما أمرتُكم به مِن التوحيد وتركِ عبادة الأصنام والاجتناب عن البَخْس والتطفيف ليس ممّا يأمُر به

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والسُّلمي والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٨.

[١٦٢ظ] آمرُ العقل ويقضي به قاضيُ الفِطنة، / وإنّما تأمُر به صلاتك التي هي مِن أحكام الوسوسة والجنون، فأخبِروني إن كنتُ مِن جهة ربّي ومالك أموري ثابتًا على النبوّة والحِكمة التي ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمَح لطامح ورزقني بذلك رِزقًا حسنًا: أتقولون في شأني وشأن أفعالي ما تقولون ممّا لا خيرَ فيه ولا شرَّ وراءه؟ هذا هو الجواب الذي يستدعيه السِّباق ويساعده النظم الكريم.

وأمّا ما قيل مِن أن المحذوفَ: أيصِحّ لي ألّا آمُرَكم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصي؟ أو هل يسَع لي مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحانيّة والجسمانيّة أن أخُون في وحيه وأخالفَه في أمره ونهيِه فبمَعزِل مِن ذلك.

وإنّما يُناسب تقديرُه إن حُمِل كلامهم على الحقيقة وأريدَ بالصلاة الدِّينُ، على معنى: أدينُك يأمرك أن تُكلِّفنا بترك عبادة آلهتنا القديمة وتركِ التصرّفِ المُطلَق في أموالنا وتُخالفَنا في ذلك وتشُقَّ عَصانا؟ وهذا ممّا لا ينبغي أن يصدُر عنك؛ فإنّك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرُّشد الكامل فيما بيننا. كما كان قول قوم صالح: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ [هود، ٦٢/١١] مسرودًا على ذلك النمط فأُجيبوا بما أُجيبوا به، وعلى هذا الوجه يكون المراد بـ"الرزق الحسَن" الحلالَ الذي آتاه الله تعالى، والمعنى حينئذ: أخبروني إن كنتُ نبيًّا مِن عند الله تعالى ورزقني مالًا حلالًا أستغني به عن العالمين: أيصِحّ أن أُخالِف أمره وأوافقَكم فيما تأتون وما تذَرون؟

﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ بنهيي إيّاكم عمّا أنهاكم[١] عنه مِن البَخْس والتطفيف. ﴿أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ / إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ أي: أقصِدَه بعد ما ولَّيتُم عنه وأَستبِدَّ به دونكم. [١٦٣و] يقال: "خالفتُ زيدًا إلى كذا" إذا قصدتَه وهو مُوَلٍّ عنه، و"خالفتُه عن كذا" إذا كان الأمر على العكس.[٢]

﴿إِنۡ أُرِيدُ﴾ أي: ما أُريد بما أُباشره مِن الأمر والنهي ﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ إلّا أن أُصلِحكم بالنصيحة والموعظة ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ أي: مقدارَ ما استطعتُه مِن الإصلاح.

---

١ س – عمّا أنهاكم.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٢.

والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالإصلاح في الجملة، لا عن إرادة ما ليس في وُسعه منه.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أي: كوني موفَّقًا لتحقيق ما أنتحيه مِن إصلاحكم ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بتأييده ومعونتِه؛ بل الإصلاح مِن حيث الخلقُ مُستنِدٌ إليه سبحانه، وإنّما أنا مِن مباديه الظاهرة، قاله عليه السلام تحقيقًا للحقّ وإزاحة لِما عسى يُوهِمه إسنادُ الاستطاعة إليه بإرادته مِن استبداده بذلك.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في ذلك مُعرِضًا عمّا عداه فإنّه القادر على كلّ مقدور، وما عداه عاجز مَحض في حدّ ذاته؛ بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمَعزِل مِن مرتبة الاستمداد به والاستظهار. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجِع فيما أنا بصدَده. ويجوز أن يكون المراد: وما كوني موفَّقًا لإصابة الحقّ والصواب في كلّ ما آتي وأذر إلّا بهدايته ومعونته، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهو إشارةٌ إلى مَحْض التوحيد الذاتي / والفعلي، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: عليه أُقبِل بشراشِر نفسي[1] في مجامع أموري. [١٦٣ظ]

وإيثارُ صيغة الاستقبال على الماضي الأنسبِ للتقرّر والتحقّق كما في التوكّل لاستحضار الصورة والدلالةِ على الاستمرار. ولا يخفى ما في جوابه عليه السلام مِن مراعاة لُطف المراجعة ورِفق الاستنزال، والمحافظةِ على قواعد حسن المُجاراة والمحاورة، وتمهيدِ معاقد الحقّ بطلب التوفيق مِن جَناب الله عزّ وجلّ والاستعانةِ به في أموره، وحسمِ أطماع الكفّار وإظهارِ الفراغِ عنهم وعدمِ المبالاة بمُعاداتهم، وأمّا تهديدهم بالرجوع إلى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا؛ لأنّ الإنابة إنّما هي الرجوع الاختياري بالفعل إلى الله تعالى لا الرجوعُ الاضطراريُّ للجزاء أو ما يعمّه.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يَكسِبنكم، مِن "جرَمتُه ذنبًا" مثلُ "كسبتُه مالًا".

---

[1] الشراشر: النفس والمحبّة جميعًا. وقيل: جميع الجسد. وألقى عليه شراشره: وهو أن يُحبّه حتّى يستهلك في حُبّه. والشراشر: الأثقال. انظر: لسان العرب لابن منظور، «شرر».

﴿شِقَاقِيٓ﴾ مُعاداتي، وأصلُهما أنّ أحد المتعادِيَين يكون في عُدوةٍ وشقّ والآخرُ في آخرَ.

﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾، أي: لا يكسِبنّكم معاداتُكم لي أن يُصيبكم ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ مِن الغرق ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ مِن الريح ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ﴾ مِن الصيحة والرجفة.

وقرأ ابن كثير بضمّ الياء[1] مِن "أجرمتُه ذنبًا" إذا جعلتَه جارِمًا له،[2] أي: كاسبًا، وهو منقول مِن "جَرَم" المتعدّي إلى مفعول واحد، / [١٦٤و] كما نُقِل "أكسَبه المالَ" مِن "كسَب المالَ"، فكما لا فرقَ بين "كسَبتُه مالًا" و"أكسبتُه إيّاه" لا فرقَ بين "جَرَمتُه ذنبًا" و"أجرمتُه إيّاه" في المعنى، إلّا أنّ الأوّل أصحّ وأدوَرُ على ألسنة الفصحاء.[3]

وقرأ أبو حَيْوَة: "مثلَ مَا أَصابَ"[4] بالفتح لإضافته إلى غير متمكّن، كقوله:

لم يَمنَعِ الشُّربَ منها غيرَ أن نطَقتْ حمامةٌ في غُصون ذاتُ أوقالِ[5]

وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيًا للشقاق عن كسب إصابة العذاب لكنّه في الحقيقة نهيٌ للكَفرة عن مشاقّته عليه السلام على ألطَف أسلوب وأبدعِه كما مرّ في سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ الآية، [المائدة، ٨/٥].

﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ زمانًا أو مكانًا، فإن لم تعتبِروا بمَن قَبلهم مِن الأُمم المعدودة فاعتبِروا بهم، فكأنّه إنّما غُيِّر أسلوب التحذير بهم ولم يُصرَّح

---

[1] لم أجِدها منسوبة إليه فيما وقفتُ عليه مِن كتب القراءة، ولعلّ المُصنِّف تابع في ذلك الزمخشريَّ في الكشّاف، ٣١١/٢؛ والبيضاويَّ في أنوار التنزيل، ١٤٦/٢. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش وابن أبي ليلى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠٠.

[2] س: إليه.

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وابن أبي إسحاق والجَحدري وابن حَيْوَة وابن أبي عبلة والشافعي وابن كثير في رواية وأبي قُرّة عن نافع والقُورُسي عن أبي جعفر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠٠.

[5] البيت للكناني في كتاب سيبويه، ٣٢٩/٢. ولأبي قيس بن الأسلت في شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٣٩٦/٣. وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٣١٢/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤٦/٢، وهو فيها جميعًا شاهد لِما نحن فيه. و"الأوقال" جمع "وَقْل"، وهي: الثمار. انظر: لسان العرب لابن منظور، «وقل».

بما أصابهم؛ بل اكتُفيَ بذِكْر قربهم إيذانًا بأنّ ذلك مُغنٍ عن ذِكْره لشُهرة كونه منظومًا في سِمْطِ[1] ما ذُكر مِن دواهي الأُمم المرقومة. أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمعاصي، فلا يبعُد أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابهم، وإفرادُ البعيد مع تذكيره لأنّ المراد: "وما إهلاكُهم" على نيّة المضاف. أو وما هم بشيء بعيد، لأنّ المقصود إفادةُ عدم بُعدِهم على الإطلاق لا مِن حيث خصوصيّةُ كونِهم قومًا. أو ما هم في زمان بعيد أو مكان بعيد، ولا يبعُد أن يكون ذلك لكونه على زِنة المصادر كـ"النهيق" و"الشهيق".

ولمّا أنذَرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقّبه طمعًا في ارعوائهم عمّا كانوا فيه يعمهون مِن طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة / فقال: [١٦٤ظ] ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾، مرّ تفسيرُ مِثله في أوّل السورة.[2]

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ عظيمُ الرحمة للتائبين ﴿وَدُودٌ﴾ مبالِغٌ في فَعل ما يفعل البليغ المودّةِ بمَن يودّه مِن اللطف والإحسان، وهذا تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة وحثّ عليهما.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٩٢﴾

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ الفِقه: معرفة غرض المتكلِّم مِن كلامه، أي: ما نفهَم مرادك، وإنّما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائلَ الحقّ المُبين على أحسن وجه وأبلغِه، وضاقت عليهم الحِيَل، وعيَّتْ بهم العِلَل، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلًا سوى الصدود عن منهاج العقل والسلوك إلى سبيل الشقاء، كما هو ديدَن المُفحَم المحجوج يقابل البيّنات بالسبّ والإبراق والإرعاد، فجعلوا كلامه المُشتمِلَ على فنون الحِكَم والمواعظ وأنواعِ العلوم والمعارف

---

[1] السِّمط: خيط النظم مادام فيه الخَرَز، وإلّا فهو سِلك. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سمط».

[2] في الآية الثالثة منها.

مِن قبيل ما لا يُفهَم معناه ولا يُدرَك فحواه، وأدمجوا في ضمن ذلك أنّ في تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون مِن المؤاخَذة والعقاب، ولعلّ ذلك ما فيه مِن التحذير مِن عواقب الأُمم السالفة، ولذلك قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا﴾ فيما بيننا ﴿ضَعِيفًا﴾ لا قوّة لك ولا قدرةَ على شيء مِن الضرّ والنفع والإيقاع والدفع.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ لولا مراعاةُ جانبهم، لا لولاهم يُمانعوننا ويُدافعوننا ﴿لَرَجَمْنَـٰكَ﴾ فإنّ ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة / إلى السبعة أو إلى العشرة [١٦٥و] لهم، وهم ألوف مؤلَّفة ممّا لا يكاد يُتوهَّم، وقد أُيِّد ذلك بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ مُكرَّم محترَم حتّى نمتنع مِن رجمك، وإنّما نكفّ عنه للمحافظة على حُرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتَّبعوك دوننا. وإيلاءُ الضمير حرفَ النفي وإن لم يكن الخبرُ فعليًّا غيرُ خالٍ عن الدلالة على رجوع النفي إلى الفاعل دون الفعل لا سيّما مع قرينة قولِه: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾، كأنّه قيل: وما أنت علينا بعزيز؛ بل رهطُك هم الأعزّة علينا.

وحيث كان غرضهم مِن عظيمتهم هذه عائدًا إلى نفي ما فيه عليه السلام مِن القوّة والعِزّة الربّانيّتين حسبما يوجبه كونُه على بيّنة مِن ربّه مُؤيَّدًا مِن عنده وتقتضيه قضيّة طلب التوفيق منه والتوكّلِ عليه والإنابةِ إليه، وإلى إسقاط ذلك كلِّه عن درجة الاعتداد به والاعتبار.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام في جوابهم ﴿يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فإنّ الاستهانة بمَن لا يَتعزّز إلّا به عزّ وجلّ استهانةٌ بجَنابه العزيز، وإنّما أنكر عليهم أعزِّيّة رهطِه منه تعالى مع أنّ ما أثبتوه إنّما هو مُطلَق عزّة رهطه لا أعزّيّتهم منه عزّ وجلّ مع الاشتراك في أصل العزّة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ، حيث أنكر عليهم أوّلًا ترجيح جنَبة الرهطِ على جنَبة الله تعالى، وثانيًا بنفي العِزّة بالمرّة، والمعنى: أرهطي أعزّ عليكم مِن الله؟ فإنّه ممّا لا يكاد يصحّ والحال أنّكم لم تجعلوا له تعالى حظًّا مِن العِزّة أصلًا.

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ / بسبب عدم اعتدادكم بمَن لا يَرِد ولا يصدُر إلّا بأمره. [١٦٥ظ] ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: شيئًا منبوذًا وراء الظهر مَنسيًّا لا يُبالى به، منسوبٌ إلى الظهر،

والكسر لتغيير النسب كـ"الإِمسيّ" في النِّسبة إلى "الأمس".[١]

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن الأعمال السيّئة التي مِن جملتها عدم مراعاتِكم لجانبه ﴿مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه منها خافية، وإن جعلتموه منسيًّا فيُجازيكم عليها. ويحتمل أن يكون الإنكار للردّ والتكذيب، فإنّهم لمّا ادَّعَوا أنّهم لا يكفُّون عن رجمه عليه السلام لقوّته وعزّته؛ بل لمراعاة جانب رهطه ردّ عليهم ذلك بأنكم ما قدَّرتم الله حقَّ قَدْره العزيز، ولم تُراعُوا جَنابه القويَّ، فكيف تُراعون جانب رهطي الأذِلّة؟

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ٩٣﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ﴾ لمّا رأى عليه السلام إصرارهم على الكفر وأنّهم لا يَرْعَوون عمّا هم عليه مِن المعاصي حتّى اجترءوا على العظيمة التي هي الاستهانة به والعزيمة على رجمه لولا حُرمة رهطه، قال لهم على طريقة التهديد: اعملوا ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على غاية تمكّنِكم واستطاعتكم، يقال: "مَكُن مَكانةً" إذا تمكّن أبلغَ التمكّن.[٢] وإنّما قاله عليه السلام ردًّا لِما ادَّعَوا أنّهم أقوياء قادرون على رَجمه وأنّه ضعيفٌ فيما بينهم لا عِزّةَ له، أو على ناحيتكم وجِهَتكم التي أنتم عليها مِن قولهم: "مكان" و"مَكانة" كـ"مَقام" و"مَقامة"، والمعنى: اثبُتوا على ما أنتم عليه مِن الكفر والمُشاقّة لي وسائرِ ما أنتم عليه ممّا لا خيرَ فيه، وابذُلوا جُهدكم في مضارّتي / وإيقاعي ما في نيّتكم وإخراج ما في أمنيّتكم مِن القوّة إلى الفعل. [١٦٦و]

﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ على مكانتي حسبما يُؤيّدني الله ويُوفّقني بأنواع التأييد والتوفيق. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمّا هدّدهم عليه السلام بقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ كان مَظِنّةَ أن يسأل منهم سائل فيقول: فماذا يكون بعد ذلك؟ فقيل: سوف تعلمون.

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٣.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٣.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ وُصِف العذاب بالإخزاء تعريضًا بما أوعدوه عليه السلام به مِن الرجم، فإنّه مع كونه عذابًا فيه خِزي ظاهر، حيث لا يكون إلّا بجِناية عظيمة تُوجِبه.

﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عطفٌ على ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ لا على أنّه قسيمه؛ بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل: سوف تعلمون مَن المُعذِّبُ والكاذب. وفيه تعريض بكذبهم في ادّعائهم القوّةَ والقُدرةَ على رجمه عليه السلام، وفي نسبته إلى الضعف والهوان، وفي ادّعائهم الإبقاءَ عليه لرعاية جانب الرهط. والاختلاف بين المعطوفَين بالفعليّة والاسميّة لأنّ كَذِب الكاذب ليس بمُرتقَب كإتيان العذاب؛ بل إنّما المُرتقَب ظهور الكذب السابق المُستمرّ. و﴿مَن﴾ إمّا استفهاميّة معلِّقة للعِلم عن العمل، كأنّه قيل: سوف تعلمون أيُّنا يأتيه عذابٌ يُخزيه وأيُّنا كاذبٌ؛ وإمّا موصولة، أي: سوف تعرِفون الذي يأتيه عذاب والذي هو كاذب.

﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ وانتظروا مآلَ ما أقول ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظِر، "فعيل" بمعنى: "الراقب" / كـ"الصريم"،[1] أو "المُراقِب" كـ"العشير"،[2] أو "المُرتقِب" كـ"الرفيع".[3] [١٦٦ظ]
وفي زيادة ﴿مَعَكُمْ﴾ إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾،[4] أو وقتُه، فإنّ الارتقاب مؤذِن بذلك.

﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وهي[5] الإيمان الذي وفّقناهم له، أو بمَرحمة كائنةٍ منّا لهم، وإنّما ذُكر بالواو كما في قصّة عاد[6] لِما أنّه لم يسبِقه فيها ذِكر وعدٍ يجري مَجرى السبب المقتضي لدخول الفاء في معلوله، كما في قصّتَي

---

[1] بمعنى: الصارم. الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٢.
[2] بمعنى: المُعاشِر.
[3] بمعنى: المُرتفِع. الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٢.
[4] في الآية السابقة.
[5] وفي هامش م: بالنسبة إلى شعيب النبوّة وبالنسبة إلى المؤمنين الإيمان. «منه».
[6] وفي هامش م: هود.

صالح ولوط. فإنّه قد سبق هنالك سابقة الوعد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٍ﴾ [هود، ٦٥/١١]، وقوله: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ [هود، ٨١/١١].

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ عُدل إليه عن الضمير تسجيلًا عليهم بالظلم وإشعارًا بأنّ ما أخذهم إنّما أخذهم بسبب ظلمِهم الذي فُصِّل فيما سبق فنونُه. ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ قيل: صاح بهم جبريلُ عليه السلام فهلَكوا،[١] وفي سورة الأعراف ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف، ٧٨/٧]، وفي سورة العنكبوت ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [العنكبوت، ٣٧/٢٩] أي: الزلزلة، ولعلّها مِن روادف الصيحة المستتبِعة لتموُّج الهواء المُفضي إليها، كما مرّ فيما قبل.

﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ ميّتين لازمين لأماكنهم لا بَراحَ لهم منها، ولمّا لم يُجعل متعلَّقُ العِلم في قوله تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ﴾...[٢] إلخ، نفسَ مجيءِ العذاب؛ بل مَن يجيئه ذلك[٣] جُعل مجيئه بعد ذلك أمرًا مُسلَّمَ الوقوع غنيًّا عن الإخبار به، حيث جُعل شرطًا / وجُعل تنجية شعيب عليه السلام وإهلاكُ الكفرة [١٦٧و] جوابًا له ومقصودَ الإفادة. وإنّما قُدّم تنجيتُه اهتمامًا بشأنها وإيذانًا بسبق الرحمةِ التي هي مقتضى الربوبيّة على الغضب الذي يظهر أثرُه بموجب جرائرهم وجرائمهم.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدًا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾ أي: لم يقيموا ﴿فِيهَا﴾ متصرِّفين في أطرافها متقلِّبين في أكنافها.

﴿أَلَا بُعۡدًا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ العدول عن الإضمار إلى الإظهار ليكون أدلّ على طغيانهم الذي أدّاهم إلى هذه المرتبة، وليكون أنسبَ بمَن شُبِّه هلاكُهم بهلاكهم، أعني: ثمودَ، وإنما شُبِّه هلاكُهم بهلاكهم لأنّهما أُهلكتا بنوع مِن العذاب وهو الصيحة، غير أنّ هؤلاء صِيح بهم مِن فوقهم وأولئك مِن تحتهم. وقُرئ: "بَعُدَتْ" بالضمّ على الأصل، فإنّ الكسر تغيير لتخصيص معنى البُعد بما يكون بسبب الهلاك، والبُعدُ مصدر لهما والبَعدُ مصدر للمكسور.

---

[١] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٩٧/٤.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] وفي هامش م: أي: العذاب المذكور. «منه».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي الآيات التسع المفصّلات التي هي: العصا، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، ونقص الثمراتِ والأنفسِ،[1] ومنهم مَن جعلهما آية واحدة وعدّ منها إظلالَ الجبل.[2] وليس كذلك، فإنّه لقَبول أحكام التوراة حين أباه بنو إسرائيلَ. و"الباء" متعلقةٌ بمحذوف وقع حالًا مِن مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أو نعتًا لمصدره المُؤكَّد، أي: أرسلناه حال كونه ملتبسًا بآياتنا، أو أرسلناه إرسالًا ملتبِسًا بها. ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو المعجزات الباهرة منها، أو هو العصا.

والإفراد بالذِّكر لإظهار شرفِها لكونها أبهرَها، أو المرادُ بـ"الآيات" ما عداها، أو هما عبارتان عن شيء واحد، أي: أرسلناه بالجامع بين كونه آياتِنا وبين كونه سلطانًا له على نبوّته واضحًا في نفسه أو موضِحًا / إيّاها، مِن "أبان" [١٦٧ظ] لازمًا ومتعدِّيًا، أو هو الغلَبة والاستيلاء، كقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ [القصص، ٣٥/٢٨]. ويجوز أن يكون المراد ما بيّنه عليه السلام في تضاعيف دعوته حين قال له فرعونُ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه، ٤٩/٢٠]، ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه، ٥١/٢٠] مِن الحقائق الرائقة والدقائقِ اللائقة.

وجعلُه عبارةً عن التوراة أو إدراجُها في جملة الآيات يردّه قولُه عزّ وجلّ: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾، فإنّ نزولها إنّما كان بعد مهلِك فرعونَ وقومه قاطبةً ليعمل بها بنو إسرائيلَ فيما يأتون وما يذرون، وأمّا فرعونُ وقومه فإنّما كانوا مأمورين بعبادة ربّ العالمين عزّ سلطانُه وتركِ العظيمة[3] الشنعاء التي كان يدّعيها الطاغيةُ وتقبلها منه فئتُه الباغية، وبإرسال بني إسرائيلَ مِن الأسر والقسر.

---

[1] وفي هامش م: هكذا ذكره صاحب اللباب. والصحيح ما ذُكِر في "الأعراف" مِن السنين [الأعراف، ١٣٠/٧]. ولعلّه أدرج في نقص الثمرات نقص الحبوب، وأراد بنقص الأنفس الطاعون. «منه». | انظر: اللباب لابن عادل، ٥٥٧/١٠.

[2] نقله ابن عادل في اللباب، ٥٥٧/١٠.

[3] وفي هامش م: أي: قول اللّعين: أنا ربّكم الأعلى. «منه».

وتخصيص ملئِه بالذِّكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافّة لأصالتهم في الرأي وتدبير الأمور واتّباع غيرهم لهم في الورود والصدور، وإنّما لم يُصرِّح بكفر فرعونَ بآيات الله تعالى وانهماكه فيما كان عليه مِن الضلال والإضلال؛ بل اقتُصر على ذِكر شأن ملئِه، فقيل: ﴿فَاتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: أمرَه بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام مِن الحقّ المُبين للإيذان بوضوح حالِه، فكأنّ كفره وأمْرَ ملئِه بذلك أمرٌ مُحقَّقُ الوجود غيرُ محتاج إلى الذِّكر صريحًا، وإنّما المحتاج إلى ذلك شأن ملئِه المتردِّدين بين هادٍ إلى الحقّ وداعٍ إلى الضلال، فنعى عليهم / سوءَ اختيارهم. [١٦٨و]

وإيرادُ الفاء في اتّباعهم المترتِّب على أَمْر فرعونَ المَبنيّ على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للإشعار بمفاجأتهم في الاتّباع ومسارعةِ فرعونَ إلى الكفر وأمرِهم به، فكأنّ ذلك كلّه لم يتراخَ عن الإرسال والتبليغ؛ بل وقع جميع ذلك في وقت واحد فوقع إثرَ ذلك اتّباعُهم.

ويجوز أن يُراد بـ﴿أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾: شأنُه المشهور وطريقتُه الزائغة، فيكون معنى ﴿فَاتَّبَعُوٓاْ﴾: فاستمرّوا على الاتّباع، و"الفاء" مثل ما في قولك: "وعظتُه فلم يتّعظ وصِحتُ به فلم ينزجِر"، فإنّ الإتيان بالشيء بعد ورود ما يُوجِب الإقلاع عنه وإن كان استمرارًا عليه لكنّه بحسب العنوان فِعل جديد وصُنْع حادث، فتأمَّل.

وتركُ الإضمار لدفع توهّم الرجوع إلى موسى عليه السلام مِن أوّل الأمر ولزيادة تقبيح حال المتّبِعين، فإنّ فرعونَ عَلَم في الفساد والإفساد والضلال والإضلال فاتّباعُه لفَرْط الجهالة وعدمِ الاستبصار، وكذا الحالُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ الرُّشدُ: ضدّ الغيّ، وقد يراد به محموديّة العاقبة، فهو على الأوّل بمعنى المُرشِد أو ذي الرَّشَد حقيقةٌ لغويّةٌ والإسنادُ مجازي، وعلى الثاني مجازٌ والإسنادُ حقيقي.

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ جميعًا مِن الأشراف وغيرهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: يتقدّمهم، مِن قَدَمَه بمعنى تقدّمه، وهو استئناف لبيان حالِه في الآخرة، أي: كما كان قدوةً لهم

[١٦٨ظ] في الضلال كذلك يتقدّمهم إلى النار وهم يتّبعونه، أو لتوضيح عدم / صلاح مآلِ أمره وسوءِ عاقبته.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: يُورِدُهم. وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على تحقّق الوقوع لا محالةَ، شُبّه فرعونُ بالفارط الذي يتقدّم الواردة إلى الماء، وأتباعُه بالواردة، والنارُ بالماء الذي يَرِدُونه، ثمّ قيل: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي: بئس الوِردُ الذي يرِدونه النارُ، لأنّ الوِرد إنّما يُراد لتسكين العطش وتبريدِ الأكباد والنارُ على ضدّ ذلك.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩﴾

﴿وَأُتْبِعُواْ﴾ أي: الملأ الذين اتّبعوا أمرَ فرعونَ ﴿فِى هَـٰذِهِۦ﴾ أي: في الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ عظيمةً حيث يلعنهم مَن بعدهم مِن الأمم إلى يوم القيامة.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أيضًا حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة، فهي تابعة لهم حيثما ساروا دائرةٌ معهم أينما داروا في الموقف، فكما اتّبعوا فرعونَ اتّبعتهم اللعنة في الدارين جزاء وفاقًا، واكتُفِيَ ببيان حالهم الفظيع وشأنهم الشنيع عن بيان حال فرعونَ، إذ حين كان حالُهم هكذا فما ظنُّك بحال مَن أغواهم وألقاهم في هذا الضلال البعيد، وحيث كان شأن الأتباع أن يكونوا أعوانًا للمتبوع جُعلت اللعنة رِفدًا لهم على طريقة التهكّم فقيل: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: بئس العون المُعان.

وقد فُسِّر الرِّفد بالعطاء،[١] ولا يلائمه المقام. وأصلُه ما يضاف إلى غيره ليَعمِده. والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: رفدُهم، وهي اللعنة في الدارين، وكونُه مرفودًا مِن حيث أنّ كلّ لعنة منها مُعِينة ومُمِدّة لصاحبتها ومؤيِّدة لها.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠﴾

[١٦٩و] ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما قُصّ مِن أنباء الأُممِ، وبُعده باعتبار تقضّيه / في الذِّكر. والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو مبتدأ، خبرُه ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ المُهلَكة بما جنَته أيدي أهلها.

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٣.

﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾ خبرٌ بعد خبر، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك ﴿مِنۡهَا﴾ أي: مِن تلك القرى ﴿قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ أي: ومنها حصيد، حُذف لدلالة الأوّل عليه، شُبِّه ما بقيَ منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطَل بالحصيد، والجملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب.

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بأن أهلكناهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بأن جعلوها عُرضةً للهلاك باقتراف ما يُوجبه، ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ﴾ فما نفعتهم ولا دفعت بأسَ الله تعالى عنهم ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ﴾ أي: يعبدونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أُوثر صيغة المضارع حكايةً للحال الماضية، أو دلالة على استمرار عبادتِهم لها.

﴿مِن شَيۡءٖ﴾ في موضع المصدر، أي: شيئًا مِن الإغناء ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ أي: حين مجيء عذابه، وهو منصوب بـ﴿أَغۡنَتۡ﴾، وقُرئ: "آلِهَتُهُم اللَّاتي"،[1] و"يُدْعَونَ"[2] على البناء للمجهول.

﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ أي: إهلاك وتخسير، فإنّهم إنّما هلَكوا وخسِروا بسبب عبادتهم لها.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك الأخذ الذي مرّ بيانه، وهو رفع على الابتداء، وخبرُه قوله: ﴿أَخۡذُ رَبِّكَ﴾. وقُرئ: "أَخَذَ رَبُّكَ"،[3] فمحلُّ الكاف النصب على أنّه مصدر مؤكِّد.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أصحاب ابن مسعود والأعمش وابن مِقسَم والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠١.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أصحاب ابن مسعود والأعمش والزعفراني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والجَحدري والجريري عن يعقوبَ وعصمة واللؤلئي عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠١.

﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلَها، وإنّما أُسنِد إليها للإشعار بسَريان أثره إليها حسبما ذُكر، وقُرئ: / "إذ[1] أَخَذَ".[2] ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حال مِن ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾، وهي في الحقيقة لأهلها، لكنّها لمّا أُقيمت مُقامهم في الأخذ أُجريت الحال عليها، وفائدتُها الإشعار بأنّهم إنّما أُخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرةً لكلّ ظالم. [١٦٩ظ]

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع صعب على المأخوذ لا يُرجى منه الخلاص. وفيه ما لا يخفى مِن التهديد والتحذير.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في أَخْذه تعالى للأمم المُهلَكة أو في قصصهم ﴿لَءَايَةً﴾ لعِبرةً ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، فإنّه المُعتبَر به حيث يُستدلّ بما حاق بهم مِن العذاب الشديد بسبب ما عملوا مِن السيّئات على أحوال عذاب الآخرة، وأمّا مَن أنكر الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شيء مِن أحواله مستندًا إلى الفاعل المختار، وأنّ ما يقع فيه مِن الحوادث فإنّما يقع لأسباب تقتضيه مِن أوضاع فلكيّة تتّفق في بعض الأوقات، لا لِما ذُكر مِن المعاصي التي يقترفها الأُمم الهالكة، فهو بمَعزِل[3] مِن هذا الاعتبارِ، تبًّا لهم ولِما لهم مِن الأفكار.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة المدلولِ عليه بذِكر الآخرة. ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يُجمَع له الناس للمحاسبة والجزاء، والتغييرُ للدلالة على ثبات معنى الجَمْع وتحقُّق وقوعه لا محالةَ وعدم انفكاك الناس عنه، فهو أبلغ مِن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن، ٩/٦٤].

﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: يومُ القيامة مع ملاحظة عنوان جَمْع الناس له ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ / أي: مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السماوات والأرَضِين، فاتُّسع فيه بإجراء [١٧٠و]

---

[1] ط س: إذا. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والجَحدري والجريري عن يعقوبَ وعصمة واللؤلئي عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠١.

[3] السياق: وأمّا مَن أنكر... فهو بمَعزِل...

الظرف مُجرى المفعول به، كما في قوله:

في مَحفَل مِن نواصي الناس مشهودِ[1]

أي: كثيرٌ شاهِدوه، ولو جُعل نفس اليوم مشهودًا لَفات ما هو الغرض مِن تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره، فإنّ سائر الأيّام أيضًا كذلك.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ ١٠٤﴾

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: ذلك اليومَ الملحوظ بعنوانَي الجَمْع والشهود. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾ إلّا لانقضاء مدّة قليلة مضروبة حسبما يقتضيه الحكمة.

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ أي: حين يأتي ذلك اليوم المؤخَّر بانقضاء أجله، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ[2] تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [يوسف، ١٢/١٠٧]. وقيل: يومَ يأتي الجزاء الواقع فيه. وقيل: أي: الله عزّ وجلّ،[3] فإنّ المقام مقامُ تفخيمِ شأنِ اليوم. وقُرئ بإثبات الياء على الأصل.[4]

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ﴾ أي: لا تتكلّم بما ينفع وينجّي مِن جواب أو شفاعة، وهو العامل في الظرف، أو الانتهاءُ المحذوف في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾،[5] أي: ينتهي الأجل يومَ يأتي أو المضمَر المعهود، أعني: "اذكر".

﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ عزّ سلطانه في التكلّم، كقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [النبأ، ٧٨/٣٨]. وهذا في موطن مِن مواطن ذلك اليوم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ۞ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات، ٧٧/٣٥-٣٦] في موقف آخرَ مِن مواقفه، كما أنّ قوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل، ١٦/١١١] في آخرَ منها. والمأذون فيه / الجوابات الحقّة، [١٧٠ظ]

---

[1] عجز بيت، صدره:
ومَشهَد قد كفيتُ الغائبين بهِ
وهو بلا نسبة في الفائق للزمخشري، ٣/٤٣٤؛ وعجزه بلا نسبة في الكشّاف ١/٣١٦، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٤٩.

[2] م س: أن.

[3] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٥٠.

[4] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/١٨٢.

[5] في الآية السابقة.

والممنوع عنه الأعذار الباطلة، نعم قد يُؤذَن فيها أيضًا لإظهار بطلانها كما في قول الكفَرة: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٢٣/٦] ونظائرِه.

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ وجبت له النارُ بموجَب الوعيد، ﴿وَسَعِيدٌ﴾ أي: ومنهم سعيدٌ، حُذف الخبر لدلالة الأوّل عليه، وهو مَن وجبت له الجنّة بمقتضى الوعد، والضميرُ لأهل الموقف المدلول عليهم بقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ أو للناس، وتقديمُ الشقي على السعيد لأنّ المقام مقام التحذير والإنذار.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ أي: سبقَت لهم الشقاوة ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ أي: مستقرّون فيها ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير: إخراجُ النفَسِ، والشهيق: ردُّه، واستعمالُهما في أوّل النهيق وآخرِه، قال الشمّاخ يصف حمارَ الوحش:

بعيدُ مَدى التطريبِ[١] أوّلُ صوتِه زفيرٌ ويتلوه شهيقٌ مُحَشرَجِ[٢]

والمراد بهما وصفُ شدّة كربهم وتشبيهُ حالهم بحال مَن استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحُه، أو تشبيهُ صراخهم بأصوات الحمير. وقُرئ: "شُقُوا"[٣] بالضمّ.[٤] والجملة مستأنَفة، كأنّ سائلًا قال: ما شأنُهم فيها؟ فقيل: لهم فيها كذا وكذا، أو منصوبةُ المحلّ على الحاليّة مِن ﴿ٱلنَّارِ﴾، أو مِن الضمير في الجارّ والمجرور، كقوله عزّ اسمه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ خلا أنّه إن أريدَ حدوث كونهم في النار فالحال مقدَّرة.

---

[١] وفي هامش م: التطريب في الصوت: مدُّه وتحسينه. ص [اختصارًا مِن "الصحاح"]. | انظر: **الصحاح** للجوهري، «طرب».

[٢] وفي هامش م: حشرجة الحمار: صوتُه يردِّده في حلقه. ص [اختصارًا مِن "الصحاح"]. | انظر: **الصحاح** للجوهري، «حشرج». والبيت في ديوان **الشمّاخ بن ضِرار**، ص ٨٨، والرِّواية فيه:
بعيد مدى التطريب أُولى نُهاقِه
سحيلٌ وأُخراه خَفيٌّ المُحشرَجِ
وهو بروايته ههنا في **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٧/٢؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥٦٦/١٠، وجاء الرَّويُّ مرفوعًا في مطبوعهما، والصواب الكسر.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش وطلحة وأبي حَيْوَة. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٦٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٣٩.

[٤] وفي هامش م: شقاه الله وأشقاه. قاموس. | انظر: **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «شقي».

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: مدّةَ دوامِهما، وهذا التوقيت عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع بتًّا / على منهاج قولِ العرب: "ما دام تِعارٌ"،[1] و"ما أقامَ ثَبيرٌ"،[2] و"ما لاح كوكب"، و"ما اختلف الليل والنهار"، و"ما طما[3] البحرُ"، وغيرِ ذلك مِن كلمات التأبيد،[4] لا تعليقِ قرارهم فيها[5] بدوام هذه السماوات والأرض، فإنّ النصوص القاطعة دالّة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما، وإن أُريدَ التعليق فالمراد سماوات الآخرة وأرضها، كما تدلّ على ذلك النصوصُ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم، ٤٨/١٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر، ٧٤/٣٩]، وجَزْمُ كلّ أحد بأنّ أهل الآخرةِ لا بدّ لهم مِن مُظِلّة ومُقِلّة دائمتين يكفي في تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما، ولا حاجةَ إلى الوقوف على تفاصيل أحوالهما وكيفيّاتهما. [١٧١و]

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء مِن الخلود على طريقة قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان، ٥٦/٤٤]، وقولِه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء، ٢٢/٤]، وقولِه: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف، ٤٠/٧] غيرَ أنّ استحالة الأمور المذكورة معلومةٌ بحكم العقل، واستحالةَ تعلّق المشيئةِ بعدم الخلودِ معلومةٌ بحكم النقل، يعني أنّهم مستقرّون في النار في جميع الأزمنة إلّا في زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها.

وإذ لا إمكانَ لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا إمكانَ لانتهاء مدّة قرارهم فيها ولدفع ما عسى يُتوّهم مِن كون استحالة تعلُّق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود / بطريق الوجوبِ على الله تعالى، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ يعني أنّه في تخليد الأشقياء في النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعّالٌ بموجَب إرادته، قاضٍ بمقتضى مشيئتِه الجارية [١٧١ظ]

---

[1] تِعارٌ: جبل في بلاد قيس. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣٣/٢.

[2] ثَبير: جبل مِن جبال مكّة بينها وبين عرفة، ويُطلق على غيره. انظر: معجم البلدان للحموي، ٧٢/٢.

[3] طما الماء: علا وغمر، وطما البحر: ارتفع موجه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «طما».

[4] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٢.

[5] السياق: عبارة عن التأبيد... لا تعليق قرارهم...

على سَنن حكمته الداعية إلى ترتيب الأجزيةِ على أفعال العباد. والعدولُ مِن الإضمار إلى الإظهار لتربية المَهابة وزيادةِ التقرير.

وقيل: هو استثناء مِن الخلود في عذاب النار، فإنّهم لا يخلّدون فيه؛ بل يُعذَّبون بالزَّمْهَرير وبأنواع أُخرَ مِن العذاب، وبما هو أغلظُ منها كلِّها وهو سخط الله تعالى عليهم وخَسْؤه لهم وإهانتُه إيّاهم.[1] وأنت تدري أنّا وإن سلّمنا أنّ المراد بالنار ليس مطلقَ دار العذاب المشتملةِ على أنواع العذاب؛ بل نفسَ النار فما خلا عذابَ الزَّمْهَرير مِن تلك الأنواع مقارِن لعذاب النار فلا مِصداقَ في ذلك للاستثناء.

ولك أن تقول إنّهم ليسوا بمخلَّدين في العذاب الجسماني الذي هو عذاب النار؛ بل لهم مِن أفانين العذاب ما لا يعلمه إلّا الله سبحانه، وهي العقوبات والآلام الروحانيّة التي لا يقف عليها في هذه الحياة الدنيا المنغمِسون في أحكام الطبيعةِ المقصورُ إدراكُهم على ما أَلِفوا مِن الأحوال الجسمانيّة، وليس لهم استعدادٌ لتلقّي ما وراء ذلك مِن الأحوال الروحانيّة إذا أُلقيَ إليهم، ولذلك لم يُتعرَّض لبيانه واكتُفي بهذه المرتبة الإجماليّة المنبئة عن التهويل، وهذه العقوبات / [١٧٢و] وإن كانت تعتريهم وهم في النار لكنّهم ينسَون بها عذاب النار ولا يُحِسُّون بها، وهذه المرتبة كافية في تحقيق معنى الاستثناء هذا.

وقد قيل: إلّا بمعنى "سوى"، وهو أوفَق بما ذُكر.[2] وقيل: ﴿مَا﴾ بمعنى "مَن"، على إرادة معنى الوصفيّة، فالمعنى: إنّ الذين شَقُوا في النار مقدِّرين الخلود فيها إلّا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عُصاة المؤمنين.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ١٠٨﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما سبق، خلا أنّه لم يُذكَر ههنا أنّ لهم فيها بهجةً وسرورًا كما ذُكر في أهل النار مِن أنّه لهم فيها زفيرٌ وشهيق، لأنّ المقام مقام التحذير والإنذار.

---

[1] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٣١٧.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٥١.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ إن حُمل على طريقة التعليق بالمُحال فقوله سبحانه: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ نَصْب على المصدريّة مِن معنى الجملة، لأنّ قوله: ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقتضي إعطاءً وإنعامًا، فكأنّه قيل: يُعطيهم عطاءً. وهو إمّا اسم مصدر هو الإعطاء، أو مصدرٌ بحذف الزوائد كقوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح، ١٧/٧١].[١]

وإن حُمل على ما أعدّ الله تعالى لعباده الصالحين مِن النعيم الروحاني الذي عُبّر عنه بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمِعت ولا خطَر على قلب بشر،[٢] فهو نصبٌ على الحاليّة مِن المفعول المقدَّر للمشيئة، أو تمييزٌ فإنّ نسبة مشيئة الخروج إلى الله تعالى يحتمل أن يكون على جهة عطاء مجذوذ، وعلى جهة عطاء غير مجذوذ، فهو رافع للإبهام عن النسبة.

قال ابن زيد: «أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنّة فقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، ولم يُخبرنا بالذي يشاء لأهل النار».[٣] ويجوز أن يتعلّق بكلا النعيمين، أو بالأوّل دفعًا لِما يُتوهَّم مِن ظاهر الاستثناء مِن انقطاعه.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي: في شكّ، / و"الفاء" لترتيب النهي على ما قُصّ مِن القصص وبيّن في تضاعيفها مِن العواقب الدنيويّة والأخرويّة. [١٧٢ظ]

﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: مِن جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها، أو مِن حال ما يعبدونه مِن الأوثان في عدم نفعه لهم. ولمّا كان مَساق النظم الكريم

---

[١] وفي هامش م: لباب ابن عادل. | انظر: اللباب لابن عادل، ٥٧٣/١٠-٥٧٤.

[٢] وفي هامش م: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. واقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية، [السجدة، ١٧/٣٢]. صحيح البخاري. | انظر: صحيح البخاري، ١١٨/٤ (٣٢٤٤).

[٣] جامع البيان للطبري، ٥٨٣/١٢-٥٨٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٠١/٤؛ اللباب لابن عادل، ٥٧٤/١٠.

قُبيل الشروع في القصص لبيان غايةِ سوء حال الكفَرة وكمالِ حسن حال المؤمنين، وقد ضُرب لهم مَثل فقيل: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود، ٢٤/١١]، وقد قُصّ عَقيبَ ذلك مِن أنباء الأُمم السالفة مع رُسلهم المبعوثة إليهم ما يتذكَّر به المتذكِّر نُهي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن كونه في شكٍّ مِن مصير أمر هؤلاءِ المشركين في العاجل والآجل، ثمّ عُلِّل ذلك بطريق الاستئناف فقيل: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ الذين قُصّت عليك قصصهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: هم وآباؤهم سواء في الشِّرك، ما يعبدون عبادةً إلّا كعبادتهم، أو ما يعبدون شيئًا إلّا مثلَ ما عبدوه مِن الأوثان، والعدولُ إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضيةِ لاستحضار صورتها، أو مثلَ ما كانوا يعبدونه فحُذف "كان" لدلالة قوله: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ عليه، ولقد بلغك ما لحِق بآبائهم فسيلحقهم مثلُ ذلك فإنّ تماثُل الأسباب يقتضي تماثُل المسبَّبات.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ﴾ أي: هؤلاء الكفرة ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ أي: حظَّهم المُعيَّن لهم حسب جرائمهم وجرائرهم مِن العذاب عاجلًا وآجلًا، كما وفّينا آباءهم أنصباءهم المُقدَّرة لهم، أو مِن الرّزق المقسوم لهم، فيكون بيانًا لوجه تأخّر العذاب عنهم مع تحقّق ما يُوجِبه.

[١٧٣و] ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال مؤكِّدة مِن النصيب كقوله تعالى: / ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة، ٢٥/٩]، وفائدته دفعُ توهّمِ التجوّز، وجعلُها مُقيدِّةً له لدفع احتمال كونه منقوصًا في حدّ نفسه مبنيٌّ على الذهول عن كون العامل هو التوفيةَ. فتأمَّل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة. ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: في شأنه وكونه مِن عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون، فلا تبالِ باختلاف قومك فيما آتيناك مِن القرآن وقولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود، ١٢/١١]، وزعمِهم أنّك افتريتَه.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي كلمة القضاء بإنظارهم إلى يوم القيامةِ على حسب الحِكمة الداعية إلى ذلك. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لأُوقِع القضاء بين المختلفين مِن قومك بإنزال العذاب الذي يستحقه المبطِلون ليتميّزوا به عن المُحِقّين. وقيل: بين قوم موسى،[1] وليس بذاك.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: وإنّ كفّار قومك، أريدَ به بعضُ مِن رجَع إليهم ضميرُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ للأمن مِن الإلباس. ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن القرآن وإن لم يجْرِ له ذِكرٌ، فإنّ ذِكر إيتاء كتاب موسى ووقوعِ الاختلاف فيه لاسيّما بصدَد التسلية ينادي به نداءً غيرَ خفيّ. ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوقِع في الرِّيبة.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١﴾

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ التنوين عِوض مِن المضاف إليه، أي: وإنّ كلّ المختلِفين فيه المؤمنين منهم والكافرين. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإعمال[2] اعتبارًا للأصل.

﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أجزِيةَ أعمالِهم، و"اللام" الأُولى مُوطِّئةٌ للقسَم والثانيةُ جواب للقسَم المحذوف. و﴿لَّمَّا﴾ مركَّبةٌ مِن "مِن" الجارّة و"ما" الموصولة أو الموصوفة، وأصلها "لمِن ما" فقُلِبت النون ميمًا للإدغام فاجتمع ثلاث ميماتٍ فحُذفت أُولاهنّ، والمعنى: لَمِن الذين أو لمِن خلْقٍ أو لمِن فريقٍ واللهِ ليوفّينّهم ربُّك.[3] وقُرئ: "لَمَا"[4] بالتخفيف على أنّ "ما" مزيدة للفصل بين اللامين، والمعنى: وإنّ جميعهم واللهِ ليوفِّينهم الآية. وقُرئ: "لَمًّا"[5] بالتنوين، أي: جميعًا كقوله سبحانه: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر، ١٩/٨٩]. وقرأ أُبيّ: "وإنْ كلٌّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ"[6] على أنّ "إنْ" نافية و"لمّا" بمعنى "إلّا"، وقد قُرئ به.[7]

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٢.

٢ النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢-٢٩١.

٣ انظر: اللباب لابن عادل، ٥٧٧/١٠.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٩١/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري وسليمان بن الأرقم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦.

[١٧٣ظ] ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما يعمله / كلُّ فردٍ مِن المختلِفين مِن الخير والشرّ ﴿خَبِيرٌ﴾ بحيث لا يخفى عليه شيء مِن جلائله ودقائقه، وهو تعليل لِما سبق مِن توفية أجزِية أعمالهم، فإنّ الإحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما يستوجبه كلُّ عمل بمقتضى الحكمة مِن الجزاء المخصوص يُوجِب توفيةَ كلّ ذي حقّ حقَّه، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرّ.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ لمّا بُيِّن في تضاعيف القصص المَحكيّة عن الأُمم الماضية سوءُ عاقبة الكفر وعصيانِ الرسل، وأشيرَ إلى أنّ حال هؤلاء الكفَرة في الكفر والضلال واستحقاق العذاب مِثلُ أولئك المعذَّبين، وأنّ نصيبهم مِن العذاب واصل إليهم مِن غير نقص،[١] وأنّ تكذيبهم للقرآن مثلُ تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة، وأنّه لو لم تسبِق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامّة ومؤاخذتهم التامّة إلى يوم القيامة لفُعِل بهم ما فُعِل بآبائهم مِن قبلُ، وأنّهم يُوفَّون نصيبهم غيرَ منقوص،[٢] وأنّ كلّ واحد مِن المؤمنين والكافرين يوفّى جزاءَ عمله، أُمر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بالاستقامة،[٣] كما أُمِر به في العقائد والأعمال المشترَكة بينه وبين سائر المؤمنين، ولاسيّما الأعمال الخاصّة به مِن تبليغ الأحكام الشرعيّة والقيام بوظائف النبوّة وتحمُّل أعباء الرسالة، بحيث يدخُل تحته ما أُمِر به فيما سبق مِن قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ الآية، [هود، ١٢/١١].

وبالجملة فهذا الأمر منتظِم لجميع محاسن الأحكام الأصليّة والفرعيّة والكمالات النظريّة والعمليّة، والخروجُ عن عُهدته في غاية ما يكون مِن الصعوبة،

---

[١] وفي هامش م: كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾. «منه».

[٢] وفي هامش م: أي: كما يلوّح به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ الآية، وإفراد توفية نصيب هؤلاء بالذِّكر دون الاكتفاء باندراجها تحت بيان توفية أجزِية أعمال الكفرة قاطبة حسبما يُفصح عنه ما بعده مِن قوله: "وأنّ كلّ واحد"... إلخ، للمسارعة إلى بيان تحتُّم وقوع عقوبتهم المؤخَّرة قطعًا، والمبادرة إلى قطع أطماعهم عن الخلاص بالمرّة. «منه».

[٣] السياق: لمّا بُيِّن... أُمِر...

ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «شيَّبتني سورةُ هود».[١]

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: تاب مِن الشِّرك والكفرِ وشاركك في الإيمان وهو المعنيُّ بالمعيّة، وهو معطوف على المستكنّ في قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، وحسُن مِن غير تأكيد / لمكان الفاصل القائم مَقامَه، وفي الحقيقة هو مِن عطف الجملة [١٧٤و] على الجملة، إذ المعنى وليَستقم مَن تاب معك. وقيل: هو منصوب على أنّه مفعول معه، كما قاله أبو البقاء،[٢] والمعنى: استقم مصاحبًا لمَن تاب معك.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ ولا تنحرفوا عما حُدّ لكم بإفراط أو تفريط، فإنّ كلا طرفي قَصْدِ الأمور ذميم، وإنّما سُمّي ذلك طغيانًا، وهو تجاوزُ الحدّ تغليظًا أو تغليبًا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكم على ذلك وهو تعليل للأمر والنهي، وفي الآية دلالةٌ على وجوب اتّباع المنصوص عليه مِن غير انحراف بمجرَّد الرأي، فإنّه طغيان وضلال، وأمّا العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعِلَل النصوص فذلك مِن باب الاستقامة كما أُمِر على موجَب النصوص الآمرة بالاجتهاد.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ أي: لا تميلوا أدنى مَيْل ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: إلى الذين وُجِد منهم الظلم في الجملة، ومدارُ النهي هو الظلمُ، والجمعُ باعتبار جمعيّة المخاطَبين. وما قيل مِن أن ذلك للمبالغة في النهي مِن حيث إنّ كونهم جماعةً مَظِنّة الرُّخصة في مُداهنتهم إنّما يتمّ أن لو كان المراد النهي عن الركون إليهم مِن حيث إنّهم جماعة وليس كذلك. ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱلنَّارُ﴾.

وإذا كان حال المَيْل في الجملة إلى مَن وُجد منه ظلم ما في الإفضاء إلى مِساس النار هكذا، فما ظنُّك بمَن يميل إلى الراسخين في الظلم والعُدوان

---

[١] سنن الترمذي، ٤٠٢/٥ (٣٢٩٧)؛ المعجم الكبير للطبراني، ١٤٨/٦ (٥٨٠٤)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٣/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٢.

[٢] انظر: التبيان للعكبري، ٧١٧/٢.

ميلًا عظيمًا، ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتِهم، ويُلقي شراشِرَه على مؤانستهم ومعاشرتهم، ويبتهج بالتزيّي بزيّهم، ويمُدّ عينيه إلى زهرتهم الفانية، ويغبِطهم بما أوتوا مِن القطوف الدانية، وهو في الحقيقة مِن الحبّة طفيف ومِن جناح البعوض خفيف، بمَعزِل مِن أن تميل إليه القلوب، ضعُف الطالب والمطلوب.

والآيةُ أبلغُ ما يُتصوَّر في النهي عن الظلم والتهديد عليه. وخطابُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومَن معه مِن المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإنّ المَيْل إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره. وقُرِئ: "تِرْكَنُوا"[1] على لغة تميم، و"تُرْكَنُوا"[2] / على صيغة البناء للمفعول مِن "أركَنه". [١٧٤ظ]

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: مِن أنصار يُنقِذونكم مِن النار، والجملة نَصْب على الحاليّة مِن قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾. ونفيُ الأولياء ليس بطريق نفيِ أن يكون لكلّ واحدٍ منهم أولياءُ حتّى يصدُق مع أن يكون له وليٌّ؛ بل لمكان ﴿لَكُم﴾ بطريق انقسام الآحادِ على الآحاد، لكن لا على معنى نفي استقلال كلّ منهم بنصير، بل على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصير، بقرينة المقام.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ مِن جهة الله سبحانه إذ قد سبق في حكمه أن يعذِّبكم بركونكم إليهم ولا يُبقيَ عليكم، و﴿ثُمَّ﴾ لتراخي رتبة كونهم غيرَ منصورين مِن جهته تعالى بعدما أوعَدهم بالعذاب وأوجَبه عليهم. ويجوز أن يكون منزَّلًا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد،[3] فإنّه لمّا بيّن أن الله تعالى معذِّبهم وأنّ غيره لا ينقذهم أنتج أنّهم لا يُنصرون أصلًا.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: غُدوةً وعَشيّةً. وانتصابه على الظرفيّة لكونه

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن وثّاب ومحبوب عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٩.

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٢١.

مضافًا إلى الوقت. ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: ساعاتٍ منه قريبةً مِن النهار، فإنّه مِن "أزلفه" إذا قرّبه، جمعُ "زُلفة"، عطفٌ على ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ والمراد بصلاتهما صلاةُ الغداة والعصر[١] -وقيل: الظُّهر موضعَ العصر،[٢] لأنّ ما بعد الزوال عشيٌّ- وبصلاة الزُّلَف المغربُ والعشاء.[٣] وقُرئ: "زُلُفًا" بضمّتين[٤] وضمّة وسكون،[٥] كـ"يُسُر ويُسْر"، و"زُلفى" بمعنى "زُلفة"، كـ"قُربى" و"قُربة".

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ﴾ التي مِن جُملتها؛ بل عُمدتُها ما أُمِرتَ به مِن الصلوات ﴿يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ التي قلّما يخلو منها البشر، أي: يُكفِّرنَها، وفي الحديث: «إنّ الصلاة إلى الصلاة كفّارة لِما بينهما ما اجتُنب الكبائرُ».[٦] وقيل: نزلت في أبي اليَسَر الأنصاري إذ قبّل امرأة ثمّ ندِم، فأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبره بما فعل، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «أنتظرُ أمرَ ربّي»، فلمّا صلّى صلاة العصر نزلت،[٧] فقال[٨] عليه السلام: «نعم،[٩] اذهبْ فإنّها كفّارة لِما عمِلتَ».[١٠] أو يمنعْنَ مِن اقترافها،[١١] كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٤٥].

---

١ وفي هامش م: قاله الضحّاك. «منه». | مرويٌّ عنه في جامع البيان للطبريّ، ١٢/٦٠٤.

٢ وفي هامش م: قاله مقاتل. «منه». | انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢/٣٠٠.

٣ وفي هامش م: وقيل الفجر والظهر والعصر. «منه». | عن محمّد بن كعب القُرظبي في جامع البيان للطبري، ١٢/٦٠٢-٦٠٣.

٤ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مُحيصن واليماني ومجاهد وأبي السَّمّال وخارجة وابن المنادي عن نافع ونصر بن عليّ عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠٥.

٦ بمعناه في المعجم الكبير للطبراني، ٩/١٤٧ (٨٧٣٨)؛ وجامع البيان للطبري، ١٢/٦١٢-٦١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤/٢٠٥.

٧ ط س - نزلت.

٨ ط س: قال.

٩ وفي هامش م: أي: نعم تقبل توبتك. «منه».

١٠ وفي هامش م: وفي رواية: فلمّا صلّى صلاة العصر قال عليه السلام أين أبو اليَسَر؟ فقال: ها أنا يا رسول الله، قال: أشهِدتَ معنا صلاة العصر؟ قال: نعم، قال: اذهب، فإنّها كفّارة لِما عملتَ. «منه». | والرّواية الأولى بلفظها ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٢١-٣٢٢؛ والثانية بلفظها في الكشف والبيان للثعلبي، ١٤/٤٦٨. والروايتان بمعناهما في سنن الترمذي، ٥/٢٩٢ (٣١١٥)؛ وجامع البيان للطبري، ١٢/٦١٧-٦١٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤/٢٠٥.

١١ السياق: يُكفِّرنها... أو يمنعْنَ...

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾[1] فما بعده، وقيل: إلى القرآن.[2] ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي: عظةٌ للمتّعظين.

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١١٥﴾

[١٧٥و] ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على مشاقّ ما أُمِرتَ به في تضاعيف / الأوامر السابقة، وأمّا ما نُهيَ عنه مِن الطغيان والرُّكون إلى الذين ظلموا فليس في الانتهاء عنه مشقَّة، فلا وجهَ لتعميم الصبر له، اللّٰهمّ إلّا أن يُراد به ما لا يمكن عادة خلوُّ البشرِ عنه مِن أدنى مَيْل بحُكم الطبيعة مِن الاستقامة المأمورِ بها، ومِن يسير مَيْل بحُكم البشريّة إلى مَن وُجد منه ظلم ما، فإنّ في الاحتراز عن أمثاله مِن المشقّة ما لا يخفى.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يُوفِّيهم أجورَ أعمالهم مِن غير بَخْس أصلًا، وإنّما عُبِّر عن ذلك بنفي الإضاعة مع أنّ عدم إعطاء الأجر ليس بإضاعة حقيقةً، كيف لا، والأعمالُ غير موجِبةٍ للثواب حتّى يلزَم مِن تخلُّفه عنها ضَياعها، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه مِن القبائح وإبرازِ الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه، وإنّما عُدِل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدة عامّة لكلّ مَن يتّصف به، وهو تعليل للأمر بالصبر. وفيه إيماءٌ إلى أنّ الصبر على ما ذُكِر مِن باب الإحسان.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ١١٦﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ فهلا كان ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الكائنة ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ على رأي مَن جوّز حذفَ الموصول مع بعض صلته، أو كائنةً مِن قبلكم ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ مِن الرأي والعقل أو أولو فضل وخير، وسُمِّيا بها لأنّ الرجل إنّما يستبقي ممّا يُخرِجه عادة أجودَه وأفضله، فصار مثلًا في الجَودة والفضل، ويقال: فلان مِن بقيّة القوم،

[1] هود، ١١/١١٢.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٥٤.

أي: مِن خِيارهم، ومنه ما قيل: «في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا»،[١] ويجوز أن يكون "البقيّة" بمعنى "البَقوى" كـ"التُّقيّة" مِن "التقوى"، أي: فهلّا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها مِن سخط الله تعالى وعقابه، يؤيّده أنّه قُرئ: "أُولُو بَقْيَةٍ"[٢] وهي المرّةُ مِن مصدر "بَقاه يَبْقيه": إذا راقبه وانتظره، أي: أولو مراقبة وخشية مِن عذاب الله، كأنّهم ينتظرون نزوله لإشفاقهم.

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الواقع منهم حسب ما حُكيَ عنهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطِع، أي: لكنّ قليلًا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفة، على أنّ ﴿مَنْ﴾ للبيان لا للتبعيض، لأنّ جميع الناجين ناهون، ولا صحّة للاتّصال على ظاهر الكلام، لأنّه يكون تحضيضًا لأولي البقيّة على النهي المذكور إلّا للقليل مِن الناجين منهم، كما إذا قلتَ: هلّا قرأ قومك القرآن إلّا الصلحاءَ منهم، مريدًا لاستثناء الصلحاء مِن المُحضَّضين على القراءة، نعم يصِحّ ذلك إن جُعل استثناءً مِن النفي اللازم للتحضيض، فكأنّه قيل: ما كان مِن القرون أولو بقية إلّا قليلًا منهم، لكنّ الرفع هو الأفصح حينئذ[٣] على البدليّة.

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بمباشرة الفساد وتَرْكِ النهي عنه ﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: أُنعموا مِن الشهوات واهتموا بتحصيلها، أمّا المباشِرون فظاهرٌ وأمّا المساهِلون فلِما لهم في ذلك مِن نَيل حظوظِهم الفاسدة. وقيل: المرادُ بهم تاركو النهي.[٤] وأنت خبير بأنّه يلزم منه عدم دخول مباشِري الفساد في الظلم والإجرام عبارةً.

﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي: كافرين، فهو بيان لسبب استئصال الأمم المُهلَكة وهو فشوّ الظلم واتباعُ الهوى فيهم وشيوعُ تَرْك النهي عن المنكرات مع الكفر.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ عَطْف على مضمَر دلّ عليه الكلام، أي: لم ينهَوا واتّبع... إلخ، فيكون العدول إلى المُظهَر لإدراج المباشِرين معهم في الحُكم والتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بعلّيّة ذلك لِمَا حاق بهم مِن العذاب؛

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٢/٢.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الهاشمي عن أبي جعفر وابن أبي أُويس عن نافع ونصر بن عليّ عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠٦.

٣ س - حينئذ.

٤ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٢.

أو على استئنافٍ[١] يترتّب على قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلّا قليلًا ممّن أنجينا منهم نهَوا عن الفساد واتّبع الذين ظلموا مِن مباشِري الفساد وتاركي النهي عنه، فيكون الإظهارُ مقتضى الظاهِر.

وقوله: ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ عَطْف على ﴿أُتْرِفُواْ﴾ أي: اتّبعوا الإتراف وكونَهم مجرمين، لأنّ تابع الشهواتِ مغمور بالآثام، أو أُريد بالإجرام إغفالُهم للشكر،[٢] أو على ﴿ٱتَّبَعَ﴾ أي: اتّبعوا شهواتِهم وكانوا بذلك الاتّباع مجرمين. / [١٧٥ظ] ويجوز أن يكون اعتراضًا وتسجيلًا عليهم بأنّهم قوم مجرمون.[٣] وقُرئ: "وَأُتْبِعَ"[٤] أي: أُتبعوا جزاءَ ما أُترفوا، فيكون الواو للحال، ويجوز أن تُفسَّر به المشهورة، ويعضُده تقدُّم الإنجاء.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: ما صحّ وما استقام؛ بل استحال في الحكمة أن يُهلِك القرى التي أهلكها حسبَ ما بلغك أنباؤها، ويُعلَم مِن ذلك حال باقيها مِن القرى الظالمة، و"اللام" لتأكيد النفي.

وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: ملتبِسًا به، قيل: هو حال مِن الفاعل،[٥] أي: ظالمًا لها. والتنكير للتفخيم والإيذانِ بأنّ إهلاك المصلحين ظلم عظيم. والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلّيّة بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى، وإلّا فلا ظلمَ فيما فعله الله تعالى بعباده كائنًا ما كان، لِما تقرّر مِن قاعدة أهل السنة، وقد مرّ تفصيله في سورة آل عمرانَ عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران، ١٨٢/٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ حال مِن المفعول والعاملُ عامله، ولكن لا باعتبار تقيُّده بما وقع حالًا مِن فاعله أعني بظلم لدلالته على تقيّد نفي الإهلاك ظلمًا بحال كون أهلها مصلِحين، ولا ريبَ في فساده؛ بل مطلقًا عن ذلك.

---

١ السياق: عطف على مضمر... أو على استئناف...
٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٢.
٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٢.
٤ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسين الجُعفي والهمداني والأزرق كلُّهم عن أبي عمرو والضحّاك والعلاء بن سباتة وجعفر بن محمّد وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٠٥.
٥ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٢.

وقيل: المراد بالظلم الشِّرك، والباء للسببيّة، أي: لا يُهلِك القرى بسبب إشراك أهلِها وهم مصلِحون يتعاطَون الحقّ فيما بينهم، ولا يضمُّون إلى شِركهم فسادًا آخرَ،[١] وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى، وعن ذلك قدَّم الفقهاء عند تزاحُم الحقوق حقوقَ العباد الفقراءِ على حقوق الله الغنيّ الحميد. وقيل: المُلكُ يبقى مع الشِّرك ولا يبقى مع الظلم.[٢]

وأنت تدري أنّ مقام النهي عن المنكَرات التي أقبحُها الإشراك بالله لا يلائمه، فإنّ الشِّرك داخل في الفساد في الأرض دخولًا أوّليًا، ولذلك كان ينهى كلٌّ مِن الرسل الذين قُصّت أنباؤهم أمّتَه أوّلًا عن الإشراك ثمّ عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطَونها. فالوجهُ حَمْل الظلم على مطلَق الفساد الشامل للشِّرك وغيره مِن أصناف المعاصي، وحَمْلُ الإصلاح على إصلاحه والإقلاع عنه بكون بعضهم متصدِّين للنهي عنه وبعضِهم متوجِّهين إلى الاتّعاظ غيرَ مُصرّين على ما هم عليه مِن الشرك وغيره مِن أنواع الفساد.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مجمِعةً على الحقّ ودين الإسلام، بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد، ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متّفقة على الحقّ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الحقّ، أي: مخالِفين له كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة، ٢/٢١٣].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إلّا قومًا قد هداهم الله تعالى بفضله إلى الحقّ فاتّفقوا عليه ولم يختلفوا فيه، أي: لم يخالِفوه. وحملُه على مطلَق الاختلاف الشامل لِما يصدُر مِن المُحقّ والمُبطِل،[٣] يأباه الاستثناء المذكور. ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ أي: لِما ذُكِر مِن الاختلاف ﴿خَلَقَهُمْ﴾ أي: الذين بقُوا بعد الثُّنْيا[٤] وهم المختلِفون، فـ"اللام" للعاقبة

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٣٢٣.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٥٥.

٣ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٥٥.

٤ الثُّنيا والثُّنوى: ما استثنيتَه. لسان العرب لابن منظور، «ثنو».

أو للرُّحم، فالضميرُ لـ﴿مَن﴾ و"اللام" في معناها، أو لهما معًا، فالضميرُ للناس كافةً و"اللام" بمعنى مجازي عامّ لكلا المعنيين.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: وعيده.[١] وقيل: قولُه للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: مِن عُصاتهما أجمعين، أو منهما أجمعين، لا مِن أحدهما.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿وَكُلًّا﴾ أي: وكلَّ نبأ، فالتنوينُ عِوَض مِن المضاف إليه. ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نُخبِرك به، وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ بيان لـ﴿كُلًّا﴾، وقولُه تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ بدل منه. والأظهر أن يكون المضاف إليه المحذوف / في ﴿كُلًّا﴾ المفعولَ المطلق لـ﴿نَقُصُّ﴾، أي: كلَّ اقتصاص، أي: كلّ أسلوب مِن أساليبه نقصُّ عليك مِن أنباء الرسل. وقوله سبحانه: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ مفعولُ ﴿نَقُصُّ﴾، وفائدتُه التنبيه على أنّ المقصود بالاقتصاص زيادةُ يقينه عليه السلام وطمأنينةُ قلبه وثباتُ نفسه على أداء الرسالة واحتمالِ أذيّة الكفّار بالوقوف على تفاصيل أحوالِ الأمم السالفة في تماديهم في الضلال وما لقيَ الرُّسل مِن جهتهم مِن مكابَدة المَشاقّ. [١٧٦و]

﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ السورة أو الأنباءِ المقصوصة عليك ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا محيدَ عنه ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الجامع بين كونه حقًّا في نفسه وكونهِ موعظةً وذكرى للمؤمنين، ولكون الوصف الأوّل حالًا له في نفسه، حُلّي بـ"اللام" دون ما هو وصف له بالقياس إلى غيره.

وتقديم الظرف، أعني: ﴿فِى هَٰذِهِ﴾ على الفاعل؛ لأنّ المقصود بيانُ منافع السورة أو الأنباءِ المقصوصة فيها واشتمالِها على ما ذُكر مِن المنافع المفصّلة، لا بيانُ كون ذلك فيها لا في غيرها، ولأنّ عند تأخير ما حقُّه التقديم تبقى النفس مترقِّبة إليه فيتمكّن فيها عند الورود فضل تمكّن، ولأنّ في المُؤخَّر نوعَ طول

---

[١] وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف، ١٨/٧]، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٤/٣٨-٨٥]، كما سيأتي تحقيقه في سورة ص. «منه».

يُخِلّ تقديمه بتجاوُب أطراف النظم الكريم.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الحقّ ولا يتّعظون به ولا يتذكّرون: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم وجِهتِكم التي هي عدم الإيمان، ﴿إِنَّا عَـٰمِلُونَ﴾ على حالنا وهو الإيمان به والاتّعاظ والتذكّر به.

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ بنا الدوائرَ ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحوُ ما نزَل بأمثالكم مِن الكفَرة.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فيرجع لا محالةَ أمرك وأمرهم إليه. وقُرئ على البناء للفاعل[١] مِن "رجَع رجوعًا". ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنّه كافيك، و"الفاءُ" لترتيب الأمر بالعبادة والتوكّل على كون مرجع الأمور كلّها إلى الله عزّ وجلّ. وفي تأخير الأمر بالتوكّل عن الأمر بالعبادة إشعارٌ بأنّه لا ينفع دونها.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم بموجبه. وقُرئ: "تَعْمَلُونَ"[٢] على تغليب المخاطَب، أي: أنت وهم، فيُجازي كلًّا منك ومنهم بموجَب الاستحقاق.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة هودٍ أُعطيَ عشر حسناتٍ بعدد مَن صدّق كلّ واحد مِن الأنبياء المعدودين فيها عليهم السلام، وبعدد مَن كذّبهم، وكان يوم القيامة مِن السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى».[٣]

---

١ قرأ بها العشرة إلّا نافعًا وحفصًا. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

٢ وفي هامش م: وهي قراءة حفص. «منه». | قرأ بها نافع وابن عامر وحفص ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٢. | وليس من عادته التنبيه على قراءة حفص، لأنّها الأصل المُعوَّل عليه في تفسيره.

٣ بلفظ قريب في التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٥٦٣ (هود، ١١/١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٣٢٤. وهو جزء من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠. وانظر الكلام عليه في تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/١٥٥.

سورة يوسف

مكيّة، وهي مائة وإحدى عشرة آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾

﴿الٓر﴾ / الكلامُ فيه وفي محلّه وفيما أريدَ بالإشارة والآيات والكتاب في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عين ما سلَف في مطلع سورة يونس. [١٧٦ظ]

﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ مِن أبانَ بمعنى بانَ، أي: الظاهرِ أمرُه في كونه مِن عند الله تعالى وفي إعجازه بنوعيه، لا سيّما الإخبار عن الغيب، أو الواضحِ معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه، ولا يلتبس لديهم دقائقُه؛ لنزوله على لغتهم، أو بمعنى بيّن، أي: المبيِّنِ لِما فيه مِن الأحكام والشرائع وخفايا المُلك والمَلكوت وأسرار النشأتين في الدارين وغيرِ ذلك مِن الحِكَم والمعارف والقصص.

وعلى تقدير كون ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عبارةً عن السورة فإبانته إنباؤه عن قصّة يوسف، فإنّه قد رُوي أنّ أحبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين: سلوا محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم: لماذا انتقل آل يعقوب عليه السلام مِن الشام إلى مصر؟ وعن قصّة يوسف عليه السلام، ففعلوا ذلك.[١] فيكون وصف ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بالإبانة مِن قَبيل براعة الاستهلال لِما سيأتي.

ولمّا وُصِفَ الكتابُ بما يدلّ على الشرف الذاتي عُقّب ذلك بما يدلّ على الشرف الإضافي فقيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ المنعوت بما ذُكر مِن النعوت الجليلة، فإن كان عبارةً عن الكلّ -وهو الأظهر الأنسب بقوله تعالى: ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾؛ إذ هو المشهور بهذا الاسم، المعروفُ بهذا النعت، المتسارعُ إلى الفهم

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٤٠؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣/١٥٤.

عند إطلاقهما- فالأمر ظاهر. وإن جُعل عبارةً عن السورة فتسميتها قرآنًا لِما عرفته فيما سلف. والسرّ في ذلك أنّه اسم جنس في الأصل يقع على الكلّ والبعض كالكتاب، أو لأنّه مصدر بمعنى المفعول، أي: أنزلناه حال كونه مقروءًا بلغتكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لِكي تفهموا معانيَه طُرًّا، وتحيطوا بما فيه مِن البدائع خُبرًا، وتطّلعوا على أنّه خارج عن طَوق البشر، مُنَزّلٌ مِن عند خلّاق القوى والقُدَر.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نخبرك ونحدّثك. واشتقاقه مِن "قصّ أثرَه" إذا اتّبعه؛ لأنّ مَن يَقُصّ الحديث يتبع ما حفِظ منه شيئًا فشيئًا، كما يقال: تَلا القرآن؛ لأنّه يتبع ما حفظ منه آيةً بعد آيةٍ.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ أي: أحسن الاقتصاص، فنصبه على المصدريّة. وفيه مع بيان الواقع إيهام لِما في اقتصاص أهل الكتاب مِن القُبح والخَلل. وتركُ المفعول إمّا للاعتماد على انفهامه مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَا﴾ أي: بإيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: هذه السورةَ، فإنّ كونها موحاةً منبئٌ عن كون ما في ضِمنها مقصوصًا. والتعرّض لعنوان قرآنيّتها لتحقيق أنّ الاقتصاص ليس بطريق الإلهام أو الوحي غيرِ المتلوّ. وإمّا لظهوره مِن سؤال المشركين بتلقين علماء اليهود.

وأحسنيّتُه لأنّه قد اقتُصّ على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة، وأعجبِ الأساليب الفائقة اللائقة، كما لا يكاد يخفى على مَن طالع القصّة مِن كتب الأوّلين والآخِرين، وإن كان لا يميّز الغثَّ / مِن السمين، ولا يفرّق بين الشمال واليمين. [١٧٧و]

وفي كلمة ﴿هَٰذَا﴾ إيماء إلى مغايرة ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ لِما في قوله تعالى: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[١] بأن يكون المراد بذلك المجموعَ، فتأمّل.

[١] في الآية السابقة.

أو نقصّ عليك أحسنَ ما يُقَصّ مِن الأنباءِ، وهو قصّة آل يعقوب عليه السلام، على أنّ ﴿ٱلْقَصَصِ﴾ "فَعَل" بمعنى المفعول، كالنبأ والخَبَر، أو مصدر سُمّي به المفعول، كالخَلق والصيد. ونصبُ ﴿أَحْسَنَ﴾ على المفعوليّة. وأحسنيّتها لتضمّنها مِن الحِكَم والعِبر ما لا يخفى كمالُ حُسنه.

﴿وَإِن كُنتَ﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن الواقعُ اسمًا لها محذوف، واللام فارقة، والجملة خبر. والمعنى: وإنّ الشأن كنتَ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ مِن قبل إيحائنا إليك هذه السورة ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن هذه القصّة، لم تخطر ببالك، ولم تقرَع سمعَك قطّ. وهو تعليل لكونه موحًى. والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وإن غفِل عنه بعض الغافلين.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ نصب بإضمار "اذكر"،[1] وشروع في القصّة إنجازًا للوعد بأحسن الاقتصاص، أو بدل مِن ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ -على تقدير كونه مفعولًا- بدل الاشتمال، فإنّ اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص مِن حيث اشتمالُه عليه اقتصاصٌ للمقصوص. و"يوسف" اسم عبري لا عربي، لخلوّه عن سبب آخرَ غيرِ التعريف. وفتحُ السين وكسرُها على بعض القراءات[2] بناء على التلقّب به، لا على أنّه مضارع بُنِيَ للمفعول أو الفاعل مِن "آسَف"، لشهادة المشهورة بعُجمته.

﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم عليهم السلام، وقد رُوي عنه عليه السلام: / «إنّ الكريم ابنَ[3] الكريم ابنِ[4] الكريم ابنِ[5] الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم».[6] [١٧٧ظ]

---

[1] وفي هامش م: وفي تذكير الوقت ما مرّ مرارًا مِن النكتة الرائعة. «منه».

[2] كسر السين قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة وعاصم والأعمش والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٧.

[3] س: بن.

[4] س: بن.

[5] س: بن.

[6] صحيح البخاري، ١٥١/٤ (٣٣٩٠).

﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ أصله "يا أبي"، فعُوّض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة، فلذلك قُلبَت هاءً في الوقف على قراءة ابن[1] كثير وأبي عمرو ويعقوب.[2] وكسْرَتُها لأنّها عِوض حرفٍ يناسبها. وفَتَحها ابن عامر في كلّ القرآن؛[3] لأنّها حركة أصلِها، أو لأنّ الأصل "يا أبتا"، فحُذف الألف وبقي الفتحة. وإنّما لم يجز "يا أبتي" لأنّه جمع بين العوض والمعوَّض. وقُرئ بالضمّ[4] إجراءً لها مُجرى الألفاظ المؤنّثة بالتاء مِن غير اعتبار التعويض. وعدم تسكينِها كأصلها لأنّها حرف صحيح منزّل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ مِن الرؤيا، لا مِن الرؤية؛ لقوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾،[5] ﴿هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰيَ﴾.[6] ولأنّ الظاهر أنّ وقوع مثل هذه الأمور البديعة في عالم الشهادة لا يختصّ برؤيته[7] راءٍ دونَ راءٍ، فيكون طامّةً كبرى لا يخفى على أحد مِن الناس.

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ رُوي عن جابر رضي الله عنه: أنّ يهوديًّا جاء إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أخبرني يا محمّد عن النجوم التي رآهنّ يوسف عليه السلام»، فسكت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، فقال عليه السلام: «إذا أخبرتك بذلك هل تُسلم؟» قال: «نعم»، قال عليه الصلاة والسلام:[8] «جَريانُ والطارق والذيّال وقابس وعمودان والفليق والمُصَبِّح والضَّروحُ[9] والفَرغ ووَثّاب / وذو الكتفين [١٧٨و] رآها يوسف، والشمس والقمر نزلن مِن السماء وسجدن له» فقال اليهوديّ: «إي واللهِ إنّها لأسماؤها».[10]

---

[1] س: بن.

[2] وكذا أبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ١٣١/٢.

[3] وكذا أبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٩٣/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤١.

[5] في الآية التالية.

[6] يوسف، ١٠٠/١٢.

[7] ط س: برؤية.

[8] س: عليه السلام.

[9] ط س: والضُّروج.

[10] جامع البيان للطبري، ١٣/١٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٨/٥. وأخرجه الحاكم في المستدرك، ٤٣٨/٤ (٨١٩٦)، بنحوه.

وقيل: الشمس والقمر أبواه. وقيل: أبوه وخالته، والكواكب إخوته. وإنّما أخّر الشمس والقمر عن الكواكب لإظهار مزيّتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها، كما في عطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام.[١] وقد جُوّز أن تكون "الواو" بمعنى "مع"، أي: رأيت الكواكبَ مع الشمس والقمر. ولا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى تأخّر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لإخوته.

وعن وَهب أن يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبعِ سنينَ أنّ إحدى عشرة عصًا طوالًا كانت مركوزةً في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصًا صغيرة تَثِبُ عليها حتّى اقْتَلَعَتْهَا وغلَبتها، فوصف ذلك لأبيه، فقال: إيّاك أن تذكر هذا لإخوتك. ثمّ رأى وهو ابن ثِنتَي عشرة سنةً الشمسَ والقمرَ والكواكبَ تسجد له، فقصّها على أبيه، فقال: لا تَقُصَّها عليهم فيَبغُوا لك الغوائل.[٢]

وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصيرِ إخوته إليه أربعون سنةً. وقيل: ثمانون.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ استئناف ببيان حالهم التي رآهم عليها، كأنّ سائلًا سأل فقال: كيف رأيتَهم؟ فأجاب بذلك. وإنّما أُجريت مُجرى العقلاءِ في الضمير لوصفها بوصف العقلاء، أعني: السجود. وتقديم الجارّ والمجرور لإظهار العناية والاهتمام بما هو الأهمّ، مع ما في ضمنه مِن رعاية الفاصلة.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝﴾

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ صغّره للشفقة، أو لها ولِصغر السنّ. وهو أيضًا / استئنافٌ مبنيّ على سؤال مَن قال: فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة؟ ولمّا عرف يعقوبُ عليه السلام مِن هذه الرؤيا أنّ يوسف[٣] يُبلغه تعالى مبلغًا جليلًا مِن الحكمة ويصطفيه للنبوّة ويُنعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام [١٧٨ظ]

---

١ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ الآية [البقرة، ٢/٩٨].

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٨/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٣/٢. | الغوائل: الدواهي. الصحاح للجوهري، «غيل».

٣ س + عليه السلام.

خاف عليه حسَد الإخوة وبغيَهم فقال صيانةً لهم مِن ذلك، وله مِن مُعاناة المشاقّ ومُقاساة الأحزان، وإن كان واثقًا بأنّ الله تعالى سيحقّق ذلك لا محالةَ، وطمعًا في حصوله بلا مشقّة: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ هي ما في المنام، كما أنّ الرؤية ما في اليقظة، فُرّق بينهما بحرفَي التأنيث، كما في القربى والقربة.

وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدِرة مِن أفق المتخيِّلة إلى الحسّ المشترَك. والصادقة منها إنّما تكون باتّصال النفس بالملكوت لِما بينهما مِن التناسب عند فراغها مِن تدبير البدن أدنى فراغ، فَتَتصوَّرُ[١] بما فيها ممّا يليق مِن المعاني الحاصلةِ هناك، ثمّ إنّ المتخيِّلة تُحاكيه بصورةٍ تُناسبه فترسلها إلى الحسّ المشترَك فتصير مشاهَدة، ثمّ إذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلّا بالكلّيّة والجزئيّة استغنت الرؤيا عن التعبير، وإلّا احتاجت إليه.

﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ﴾ نصب بإضمار "أن"، أي: فيفعلوا ﴿لَكَ﴾ أي: لأجلك ولإهلاكك ﴿كَيْدًا﴾ متينًا راسخًا لا تَقدر على التفَصّي عنه، أو خفيًّا عن فهمك لا تَتصدّى لمدافعته. وهذا أوفق بمقام التحذير، وإن كان يعقوب عليه السلام يعلم أنّهم ليسوا / بقادرين على تحويل ما دلّت الرؤيا على وقوعه. [١٧٩و] وهذا الأسلوب آكد مِن أن يقال: فيكيدوك كيدًا، إذ ليس فيه دلالةٌ على كون نفس الفعل مقصودَ الإيقاع. وقد قيل: إنّما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدّي باللام ليفيد معنى المضمَّن، والمضمَّن فيه للتأكيد، أي: فيحتالوا لك ولإهلاكك حيلةً وكيدًا.

والمراد بإخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكائدهم مِن بني عَلّاته الأحد عشر، وهم: يهوذا، ورُوبين،[٢] وشَمعون، ولاوي، وزيلون،[٣] ويشسوخور،[٤] ودوان؛[٥] بنو يعقوب مِن ليّا بنت خالته. ودَانٌ، وتفثونا،[٦] وجادٌ، وآشَرَ؛ بنوه مِن سُرِّيَّتين

---

[١] وفي هامش م: أي: يتشكّل. «منه».

[٢] م: ورويبل [صُحّح في الهامش].

[٣] م: وريالون [صُحّح في الهامش]. | وهو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٧/١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ١٣٨/٦: "زبولون" بالباء.

[٤] م: ويشجر [صُحّح في الهامش].

[٥] م: ودينة [صُحّح في الهامش].

[٦] م: ويفثالى [صُحّح في الهامش].

زُلْفَة وبُلْهَة.[١] وهؤلاء هم المشار إليهم بالكواكب الأحدَ عشر. وأمّا بِنيامين الذي هو شقيق يوسف عليه السلام وأمّهما راحيل التي تزوّجها يعقوب عليه السلام بعد وفاة أختها ليَا، أو في حياتها إذ لم يكن جمعُ الأختين إذ ذاك محرّمًا، فليس بداخل تحت هذا النهي، إذ لا يُتوهّم مضرّته ولا يُخشى معرّته، ولم يكن معدودًا معهم في الرؤيا، إذ لم يكن معهم في السجود ليوسف. والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلًّا أو بعضًا.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فلا يألو جُهدًا في إغواء إخوتك وإضلالهم وحَملهم على ما لا خير فيه. وهو استئناف، كأنّ يوسف عليه السلام قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوّة؟ فقيل: إنّ الشيطان يحملهم على ذلك.

/ ولمّا نبّهه عليهما السلام على أنّ لرؤياه شأنًا عظيمًا يستتبع منافعَ وحذّره إشاعَتَهَا المؤدّيةَ إلى أن يحول إخوتُه بينها وبين ظهور آثارها وحصولها أَوْ يُوَعِّرُوا سبيلَ وصولها شَرَعَ في تعبيرها وتأويلها على وجه إجمالي فقال: [١٧٩ظ]

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك الاجتباء البديع الذي شاهدت آثارَه في عالم المثال مِن سجود تلك الأجرام العلويّة النيّرة لك وبحسبه وعلى وَفقه ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يختارك لجَناب كبريائه ويستنبئك -افتعال مِن "جَباه" إذا جمعه- ويصطفيك على أشراف الخلائق وسَرَاةِ الناس قاطبةً، ويُبرز مصداقَ تلك الرؤيا في عالم الشهادة حسبما عاينته مِن غير قصور.

---

[١] قال الشهاب الخفاجي: «الأسماء المذكورة منها ما هو معروف كـ"بِنيامين" بوزن إسرافيل، و"رُوبِين" بضمّ الراء وكسر الباء وياء ونون، وقال البيساني: الصحيح فيه "رُوبيل" باللام. ومنها ما هو غير معروف؛ لأنّها ليست بعربيّة، فلم يُقدَم على ضبطها مِن غير نقل». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢/٢٤٠.

والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحقّقة بين الصور المرئيّة في عالم المثال وبين ما وقعت هي صورًا وأشباحًا له مِن الكائنات الظاهرة بحسبها في عالم الشهادة، أي: كما سُخِّرت لك تلك الأجرام العظام يُسَخَّرُ لَكَ وجوهُ الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة، ومراده بيان إطاعة أبويه وإخوتِه له، لكنّه إنّما لم يصرّح به حذرًا مِن إذاعته.

﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه، أرادَ به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقها وتوطينَ نفس يوسف عليه السلام بما أُخبر به على طريقة التعبير والتأويل، كأنّه قال: وهو يعلّمك ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: ذلك الجنس مِن العلوم[١] أو طَرفًا صالحًا منه[٢] فتطّلِع على حقّيّة ما أقول. ولا يخفى ما فيه مِن تأكيد ما سبق، والبعثِ على تلقّي ما سيأتي بالقبول.

والمراد بـ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ تعبير الرؤى، إذ هي أحاديث المَلَك إن كانت صادقة، أو أحاديث النفس أو الشيطان إن لم يكن كذلك. و﴿ٱلْأَحَادِيثِ﴾ اسم جمع للحديث، كأباطيل اسم جمع للباطل، لا جمع "أُحدوثة". وقيل: كأنّهم جمعوا "حديثًا" على "أَحْدِثة"، ثمّ جمعوا الجمع على "أحاديث"، كقطيع وأقطعة وأقاطيع. وقيل: هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء عليهم السلام. والأوّل هو الأظهر.[٣]

وتسمية التعبير تأويلًا لأنّه جعلُ المرئي آيِلًا إلى ما يذكره المعبّر بصدَد التعبير ورَجْعُه إليه، فكأنّه عليه السلام أشار بذلك إلى ما سيقع مِن يوسف عليه السلام مِن تعبيره لرؤيا صاحبَي السجن ورؤيا الملِك، وكونِ ذلك ذريعةً إلى ما يبلّغه الله تعالى إليه مِن الرياسة العظمى التي عُبّر عنها بإتمام النعمة. / وإنّما [١٨٠و] عرف يعقوب ذلك منه عليهما السلام مِن جهة الوحي.

أو أراد[٤] كونَ هذه الخصلة سببًا لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق، فيجوز حينئذ أن يكون معرفته عليه السلام بذلك بطريق الفراسة والاستدلال

---

١ وفي هامش م: على أن يكون ﴿مِن﴾ للبيان. «منه».
٢ وفي هامش م: على أن يكون للتبعيض. «منه».
٣ ط س – وقيل: هو تأويلُ غوامضِ كتب الله تعالى وسَنن الأنبياء عليهم السلام، والأوّلُ هو الأظهر.
٤ وفي هامش م: معطوف على "أشار". «منه».

مِن الشواهد والدلائل والأمارات والمخائل بأنّ مَن وفّقه الله تعالى لمِثل هذه الرؤيا لا بدّ مِن توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها، وتمييزِ ما هو آفاقي منها ممّا هو أنفسي. كيف لا، وهي تدلّ على كمال تمكّن نفسه عليه السلام في عالم المِثال وقوّةِ تصرّفاتها فيه؟ فيكون أقبلَ لفيضان المعارفِ المتعلّقة بذلك العالَم، وبما يحاكيه مِن الأمور الواقعة بحسبها في عالَم الشهادة، وأقوى وقوفًا على النِسَب الواقعة بين الصور المعايَنة في أحد ذَينك العالَمَين وبين الكائنات الظاهرة على وَفقها في العالم الآخر، وأنّ هذا الشأن البديع لا بدّ أن يكون أُنْمُوذَجًا لِظهور أمرِ مَن اتّصَف به ومدارًا لِجَريان أحكامه، فإنّ لكلّ نبيّ مِن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزةً بها يظهر آثاره ويجري أحكامه.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بأن يضمّ إلى النبوّة المستفادة مِن الاجتباء المُلكَ ويجعلَه تتمّةً لها. وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه مِن لوازم النبوّة والاجتباء، ولرعاية ترتيب الوجود الخارجي، ولِما أشرنا إليه مِن كون أثره وسيلةً إلى تمام النعمة. ويجوز أن يعدّ نفس الرؤيا مِن نِعَمِ الله تعالى عليه، فيكون جميع النِّعم الواصلة إليه بحسبها مصداقًا لها تمامًا لتلك النعمة.

﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وهم أهله مِن بنيه وغيرهم، فإنّ رؤيةَ يوسف عليه السلام إخوتَه كواكبَ يُهتدى بأنوارها مِن نِعم الله تعالى عليهم؛ لدلالتها على مصير أمرهم إلى النبوّة، فيقع كلّ ما يخرج / مِن القوّة إلى الفعل مِن كمالاتهم بحسب ذلك تمامًا لتلك النعمة لا محالةَ. وأمّا إذا أريدَ بتمام النعمة المُلك فكونه كذلك بالنسبة إليهم باعتبار أنّهم يغتنمون آثاره مِن العزّ والجاه والمال. [١٨٠ظ]

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ نصبٌ على المصدريّة، أي: ويُتمّ نعمته عليك إتمامًا كائنًا كإتمام نعمته على أبويك، وهي نعمة الرسالة والنبوّة. وإتمامُها على إبراهيم عليه السلام باتّخاذه خليلًا وإنجائه مِن النار ومِن ذبح الولد. وعلى إسحاقَ بإنجائه مِن الذبح[١] وفدائه بذِبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط مِن صلبه.

---

[١] وفي هامش م: على إحدى الروايتين. «منه».

وكلّ ذلك نِعم جليلة وقعت تتمّةً لنعمة النبوّة. ولا يجب في تحقيق التشبيه كون ذلك في جانب المشبَّه به مثلَ ما وقع في جانب المشبَّه مِن كلّ وجه.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ هذا الوقت، أو مِن قبلك. ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لـ﴿أَبَوَيْكَ﴾. والتعبير عنهما بالأب مِن كونهما أبا جدّه وأبا أبيه للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام عليهم السلام، وتذكيرِ معنًى: "الولدُ سرّ أبيه"؛ ليطمئنّ قلبه بما أخبر به في ضِمن التعبير الإجمالي لرؤياه. والاقتصار في المشبَّه به على ذكر إتمام النعمة مِن غير تعرّض للاجتباء مِن باب الاكتفاء، فإنّ إتمام النعمة يقتضي سابقةَ النعمة المستدعية للاجتباءِ لا محالةَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة، أي: يفعل ما ذُكر لأنّه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلّ شيء، فيعلم مَن يستحقّ الاجتباء وما يتفرّع عليه مِن التعليم المذكورِ وإتمام النعمة العامّة على الوجه المذكور. ﴿حَكِيمٌ﴾ فاعل لكلّ شيء حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة، فيفعل ما يفعل كما يفعل جريًا على سَنن علمه وحكمته. والتعرّضِ لعنوان الربوبيّة في الموضعين لتربيةِ تحقّق وقوع ما ذُكر مِن الأفاعيل.[١]

[١٨١و] / هذا وقد قيل في تفسير الآية الكريمة: أي: وكما اجتباك لمِثل هذه الرؤيا الدالّة على شرفٍ وعزٍّ وكمالِ نفسٍ يجتبيك ربّك للنبوّة والمُلك، أو لأمور عِظام، ويتمّ نعمته عليك بالنبوّة، أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكًا، ونقلهم عنها إلى الدرجات العُلا في الجنّة، كما أتمّها على أبويك بالرسالة. فتأمّل، والله الهادي.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي: في قصّتهم. والمراد بهم ههنا إمّا جميعُهم، فإنّ لبِنيامين أيضًا حصّةً مِن القصّة، أو بنو عَلّاته المعدودون فيما سلف، إذ عليهم تَدور رَحَاها.

---

[١] وفي هامش م: وهي الاجتباء، وتعليم تأويل الأحاديث، وإتمام النعمة. «منه».

﴿ءَايَٰتٌ﴾ علامات عظيمة الشأن دالّة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمتِه الباهرة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لكلّ مَن سأل عن قصّتهم وعرفها، أو الطالبين للآيات المعتبِرين بها، فإنّهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون مَن عداهم ممّن اندرج تحت قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف، ١٢/١٠٥]. فالمراد بالقصّة نفس المقصوص.

أو على نبوّته صلّى الله عليه وسلّم[1] لمَن سأله مِن المشركين أو اليهود عن قصّتهم فأخبرهم بذلك على ما هي عليه مِن غير سماع مِن أحدٍ ولا ممارسةِ شيء مِن الكتب، فالمراد بها اقتصاصُها، وجمع "الآيات" حينئذ للإشعار بأنّ اقتصاص كلّ طائفة مِن القصّة آيةٌ بيّنة كافية في الدلالة على نبوّته صلّى الله عليه وسلّم على نحو ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران، ٣/٩٧] على تقدير كونه عطف بيانٍ لقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [آل عمران، ٣/٩٧]. لا لِما قيل مِن أنّه لتعدّد جهة الإعجاز لفظًا ومعنى.

وقرأ ابن كثير: "آيَةٌ"،[2] وفي بعض المصاحف: "عِبْرَةٌ".[3]

وقيل: إنّما قصّ الله تعالى على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خبر يوسف وبَغْيَ إخوته عليه لِما رأى مِن بَغيِ قومه عليه ليأتسيَ به.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ / وَأَخُوهُ﴾ أي: شقيقه بِنيامين، وإنّما لم يُذكَر باسمه تلويحًا بأنّ مدار المحبّة أُخوّتُه لِيوسف مِن الطرفين، ألا يُرى إلى أنّهم كيف اكتفوا بإخراج يوسف مِن البَين مِن غير تعرّضٍ له حيث قالوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾... إلخ. [١٨١ظ]

﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وُحّدَ الخبرُ مَع تعدّد المبتدأ؛ لأنّ "أفعلَ مِن كذا" لا يُفرّق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكّر والمؤنّث. نعم إذا عُرّف وجب الفرق،

---

[1] السياق: دالّة على قدرة الله... أو على نبوّته صلّى الله عليه وسلّم...

[2] انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٥. وعزاه أبو حيّان إلى مصحف أُبيّ رضي الله عنه. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٤١.

وإذا أضيف جاز الأمران. وفائدةُ لام الابتداء في ﴿لَيُوسُفُ﴾ تحقيق مضمون الجملة وتأكيده.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: والحال أنّا جماعة قادرون على الحلّ والعقد، أحقّاءُ بالمحبّة. و"العُصبَة" و"العِصابة": العشَرة مِن الرجال فصاعدًا، سُمُّوا بذلك لأنّ الأمور تُعصَب بهم. ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ في ترجيحهما علينا في المحبّة مع فضلنا عليهما، وكونهما بمَعزِل مِن كفاية الأمور بالصِّغَر والقِلّة. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهابٍ عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كلّ منّا منزلته. ﴿مُبِينٍ﴾ ظاهرِ الحال.

رُوي أنّه كان أحبَّ إليه لِما يرى فيه مِن مخائل الخير، وكانت إخوته يحسدونه، فلمّا رأى الرؤيا ضاعف له المحبّةَ بحيث لم يصبر عنه، فتضاعف حسدُهم حتّى حملهم على مباشرة ما قُصّ عنهم.[1]

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ مِن جملة ما حُكي بعد قوله: ﴿إِذْ قَالُواْ﴾.[2] وقد قاله بعض منهم مخاطبًا للباقين بقضيّة الصيغة، فكأنّهم رضوا بذلك، كما يروى أنّ القائل شمعون أو دَانٌ، والباقون كانوا راضين إلّا مَن قال: ﴿لَا تَقْتُلُواْ﴾... إلخ،[3] فجُعِلوا كأنّهم القائلون، وأُدرِجوا تحت القول المسنَد إلى الجميع. أو قاله كلّ واحدٍ منهم مخاطبًا للبقيّة، وهو أدلُّ على مسارعتهم إلى ذلك القول. وتنكير ﴿أَرْضًا﴾ وإخلاؤها مِن الوصف للإبهام، أي: أرضًا مِن كُورة مجهولة بعيدة مِن العمران، ولذلك / نُصبت نصبَ الظروف المبهمة. [١٨٢و]

﴿يَخْلُ﴾ بالجزم جواب للأمر، أي: يَخلُص ﴿لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فيُقبِل عليكم بكلّيته ولا يلتفت عنكم إلى غيركم، ولا يساهمكم في محبّته أحد. فذِكر "الوجه" لتصوير معنى إقباله عليهم. ﴿وَتَكُونُواْ﴾ بالجزم عطفًا على ﴿يَخْلُ﴾،

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٤٤٥/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٦/٣.

[2] في الآية السابقة.

[3] في الآية التالية.

أو بالنصب على إضمار "أن"، أو "الواو" بمعنى "مع"، مثل قوله: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ [البقرة، ٢/٤٢]. وإيثار الخطاب في ﴿لَكُمۡ﴾ وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول، فإنّ اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامَه بتحصيل منافعه أتمّ وأكمل.

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ مِن بعد يوسف، أي: مِن بعد الفراغ مِن أمره، أو قتلِه، أو طرحِه.[١] ﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى الله تعالى عمّا جَنيتم، أو صالحين مع أبيكم بإصلاح ما بينكم وبينه بعذرٍ تمهّدونه، أو صالحين في أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلوّ وجه أبيكم.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ هو يهوذا وكان أحسنَهم فيه رأيًا، وهو الذي قال: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾... إلخ [يوسف، ١٢/٨٠]. وقيل: رُوبيل. وهو استئناف مبنيّ على سؤال مَن سأل وقال: أَتَّفقوا[٢] على ما عُرض عليهم مِن خَصْلَتَي الضَبُعِ[٣] أم خالفهم في ذلك أحد؟ فقيل: قال قائل منهم: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾، أظهره في مقام الإضمار استجلابًا لشفقتهم عليه أو استعظامًا لقتله وهو هو، فإنّه يُروى أنّه قال لهم: "القتل عظيم".[٤]

ولم يصرّح بنهيهم عن الخَصلة الأخرى، وأحاله على أولويّة ما عرضه عليهم بقوله: ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ أي: في قَعره وغَوره. سُمّي بها لغيبته عن عين الناظر. و﴿ٱلۡجُبِّ﴾: البئر التي لم تُطْوَ بَعْدُ؛ لأنّها أرض جُبّت جَبًّا مِن غير أن يُزادَ على ذلك شيء.

---

١ وفي هامش م: على أن يرجع الضمير إلى مصدر "اقتلوه أو اطرَحوه". «منه».

٢ في الأصول الخطيّة: "اِتّفقوا". والصواب إسقاط همزة الوصل.

٣ وفي هامش م: يقال: "عرَض عليه خَصلتَي الضبُع" إذا خيّره بين خَصلتين مكروهتين. وأصله فيما يقال على ألسنة البهائم أنّ الضبع صادت ثعلبًا، فقال لها الثعلب: مُنّي عليّ أمَّ عامر، قالت: أُخيّرك بين خَصلتين فاختر أيّهما شئت، إمّا أن آكلك، وإمّا أن آكلك. مِن الخرائد. | فرائد الخرائد للخويي، ص ٣٥٥.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٥٦.

[١٨٢ظ] وقرأ نافعٌ: "فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ" في الموضعين،[١] كأنّ لتلك الجُبّ / غَياباتٍ، أو أراد بـ﴿ٱلْجُبِّ﴾ الجنس، أي: في بعض غَيابات الجُبّ، وقُرئ: "غَيَّابَاتِ"[٢] و"غَيْبَةِ".[٣]

﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف، فإنّ الالتقاط أخذ شيء مشرِف على الضياع. ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: بعض طائفة تسير في الأرض. و"اللام" في ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ كما في ﴿ٱلْجُبِّ﴾. وما فيهما وفي "البعض" مِن الإبهام لتحقيق ما يتوخّاه مِن ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذي هو تَنائي يوسف عنهم بحيث لا يُدْرَى أثرُه ولا يُروَى خبرُه.

وقُرئ: "تَلْتَقِطْهُ" على التأنيث،[٤] لأنّ بعض السيّارة سيّارة، كقوله:

كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ مِن الدمِ[٥]

ومنه: قُطِعَتْ بعضُ أصابعه.

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ بمَشورتي. لم يبتَّ القولَ عليهم؛ بل إنّما عرض عليهم ذلك تأليفًا لقلبهم وتوجيهًا لهم إلى رأيه، وحذَرًا مِن نسبتهم له إلى التحكّم والافتيات. أو ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ما أزمعتم عليه مِن إزالته مِن عند أبيه لا محالةَ. ولمّا كان هذا مظِنّةً لسؤال سائل يقول: "فما فعلوا بعد ذلك؟ هل قبلوا ذلك منه أم لا؟" فأجيب بطريق الاستئناف على وجهٍ أُدرج في تضاعيفه قبولُهم له بما سيجيء مِن قوله: ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.[٦]

---

[١] وكذا أبو جعفر المدني. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

[٢] قراءة شاذّة، ذكرها الكرماني بغير نسبة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤١.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٢.

[٥] صدره:

وتَشرَقَ بالقولِ الذي قد أذعتَهُ

وهو للأعشى الكبير في ديوانه، ص ١٢٣. يخاطب عمير بن عبد الله بن المنذر بن عبدان، من بني تَغلب. ومعنى "تَشرَقَ": ينقطع في حلقك. يريد: أنّه ينقطع كلامك حتّى لا تقدر على أن تتكلّم بما تسمعه من هجائي لك. "كما شَرِقَت صدر القناةِ"، يريد: أنّ الدمَ إذا وقع على صدر القناة وكثر عليها لم يتجاوز الصدر إلى غيره؛ لأنّه يجمد عليه. فأراد أنّ كلامه يقِف في حلقه كما يقِف الدم على صدر القناة فلا يذهب. شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ١/٤٢.

[٦] يوسف، ١٢/١٥.

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾

فقيل: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا﴾ خاطَبوه بذلك تحريكًا لسلسلة النسب بينه وبينهم، وتذكيرًا لرابطة الأخوّة بينهم وبين يوسف؛ ليتسبّبوا بذلك إلى استنزاله عليه السلام عن رأيه في حفظه منهم لمّا أحسّ منهم بأمارات الحسد والبغي، فكأنّهم قالوا: ﴿مَا لَكَ﴾ أي: أيّ شيء لك ﴿لَا تَأۡمَ۫نَّا﴾ أي: لا تجعلنا أُمَناءَ ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مع أنّك أبونا / ونحن بنوك وهو أخونا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ مريدون له الخيرَ [١٨٣و] ومشفقون عليه، ليس فينا ما يُخلّ بالنصيحة والمِقَةِ[١] قطّ. والقراءة المشهورة بالإدغام والإشمام، وعن نافع تركُ الإشمام.[٢] ومِن الشواذّ ترك الإدغام.[٣]

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرۡتَعۡ﴾ أي: يَتَّسِعْ في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرَّتْع هو الاتساع في الملاذّ. ﴿وَيَلۡعَبۡ﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرهما ممّا يعدّ مِن باب التأهّب للغزو، وإنّما عَبّروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقًا لِمَا رَامُوهُ مِن استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله عليه السلام.

وقُرئ: "نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ" بالنون.[٤] وقرأ ابن كثير: "نَرْتَعِ"[٥] مِن ارتعى. ونافع بالكسر والياء فيه وفي ﴿يَلۡعَبۡ﴾.[٦] وقُرئ: "يُرْتِعْ"[٧] مِن أرتَع ماشيتَه، و"يَرْتَعِ"

---

١ المِقة: المحبّة. الصّحاح للجوهري، «ومق».

٢ هي طريق شاذّة مرويّة عن قالون عنه، والجمهور على خلافه. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٠٤.

٣ أي: ترك الإدغام من غير روم. أمّا مع روم الضمّة فوجه صحيح لجميع القرّاء غير أبي جعفر. قال ابن الجزري: «أجمَعوا على إدغامه، واختلفوا في اللفظ به؛ فقرأ أبو جعفر بإدغامه إدغامًا محضًا مِن غير إشارة؛ بل يلفظ بالنون مفتوحة مشدّدة. وقرأ الباقون بالإشارة، واختلفوا فيها؛ فبعضهم يجعلها رَومًا، فتكون حينئذ إخفاء، ولا يتمّ معها الإدغام الصحيح، وبعضهم يجعلها إشمامًا، فيُشير إلى ضمّ النون بعد الإدغام، فيصحّ معه حينئذ الإدغام». النشر لابن الجزري، ١/٣٠٣.

٤ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

٥ قرأ بها ابن كثير بخلف عن قنبل، والوجه الثاني له بإثبات ياء ساكنة بعد العين. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

٦ وقرأ كذلك أبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٢٢٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٤٥.

بكسر العين "وَيَلْعَبُ" بالرفع على الابتداء.[١]

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ مِن أن يناله مكروه. أكّدوا مقالتهم بأصناف التأكيد مِن إيراد الجملة اسميّة، وتحليتها بـ"إنّ" و"اللام"، وإسناد الحفظ إلى كلّهم، وتقديم ﴿لَهُۥ﴾ على الخبر احتيالًا في تحصيل مقصدهم.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال مَن يقول: فماذا قال يعقوب عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ "اللام" للابتداء كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل، ١٦/١٢٤].

﴿أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ لشدّة مفارقته عليّ وقلّة صبري عنه، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لأنّ الأرض كانت مَذْأَبَةً.[٢] والحُزن: ألم القلب بفَوت المحبوب. والخوف: انزعاج النفس لنزول المكروه. / ولذلك أسند الأوّل إلى الذهاب به المفوِّت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف، والثاني إلى ما يتوقّع نزوله مِن أكل الذئب. وقيل: رأى في المنام أنّه قد شدّ عليه عليه السلام ذئب، وكان يحذره فقال ذلك، وقد[٣] لقّنهم العلّةَ، «إنّ البلاء موكَّلٌ بالمنطقِ».[٤]

[١٨٣ظ]

وقرأ ابن كثير ونافع في رواية اليزيدي[٥] بالهمز على الأصل.[٦] وأبو عمرو وقفًا.[٧]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن العلاء بن سيّابة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٤٨.

٢ أرضٌ مَذْأَبَةٌ، أي: ذاتُ ذِئاب. **الصحاح** للجوهري، «ذأب».

٣ س: ولقد.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٤٨. | قوله: «إنّ البلاء موكَّلٌ بالمنطقِ» أي: ربّما نطق الإنسان بما يكون فيه بلاء. **الأمثال** للهاشمي، ١/٩١. قال المفضّل: يقال: إنّ أوّل مَن قال ذلك أبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه فيما ذكره ابن عبّاس رضي الله عنهما. **مجمع الأمثال** للميداني، ١/١٧. وأخرجه القضاعي في **مسند الشهاب**، ١/١٦١ (٢٢٧)، مرفوعًا.

٥ هو يحيى بن المبارك اليزيدي البصري، أبو محمّد (ت. ٢٠٢هـ/٨١٨م)، النحوي، المقرئ. عُرف باليزيدي لاتّصاله بيزيد بن منصور خال المهدي يؤدّب ولدَه. جوّد القرآن على أبي عمرو، وحدّث عنه وعن ابن جريج. وقرأ عليه الدوري والسوسي، وأحمد بن جبير الأنطاكي، وأبو أيّوب الخيّاط، وطائفة سواهم، وله اختيار كان يقرئ به أيضًا خالف فيه أبا عمرو في أماكن يسيرة، وكان ثقة علامة فصيحًا مفوّهًا، بارعًا في اللغات والآداب، أخذ عن الخليل وغيره، وله عدّة تصانيف، منها كتاب النوادر، وكتاب المقصور، وكتاب الشكل، وكتاب نوادر اللغة، »

وعاصم، وابنُ عامر.[8] وحمزةُ درجًا.[9] وقيل: اشتقاقه مِن "تذاءَبَت الريح" إذا هاجت مِن كلّ جانب. وقال الأصمعيّ: الأمر بالعكس، وهو أظهر لفظًا ومعنًى. ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتْع واللعب، أو لقِلّة اهتمامكم بحفظه.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: والحال أنّا جماعة كثيرة جديرة بأن يُعصَب بنا الأمور العظام، وَتُكْفَى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا. واللام الداخلة على الشرط موطّئة للقسَم.

وقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ جواب مُجْزِئٌ عن الجزاء، أي: لَهالِكون ضعفًا وخَوَرًا وَعَجْزًا، أو مستحقّون للهلاك، إذ لا غَناءَ عندنا ولا جدوى في حياتنا، أو مستحِقّون لِأن يُدعَى علينا بالخَسار والدَّمار، ويقالَ: خسّرهم الله ودمّرهم حيث أكل الذئبُ بعضَهم وهم حُضور. وقيل: إن لم نقدر على حفظه -وهو أعزّ شيء عندنا- فقد هلكَت مَواشينا إذن وخَسِرناها.

وإنّما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام مِن أكل الذئب لأنّه السبب القويّ في المنع دون الحزن لِقصر مدّته بناءً على أنّهم يأتون به عن قريب.

< وكتاب في النحو مختصر. انظر: معرفة القرّاء للذهبي، ص ٩٠؛ والأعلام للزركلي، ٨/١٦٣.

[6] في العبارة سهو، والعبارة كما هي عند البيضاوي: «وقد همزَها على الأصل ابن كثير ونافع في رواية قالون، وفي رواية اليزيدي، وأبو عمرو وقفًا». أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٥٧. ورواية اليزيدي عن نافع غير معروفة، ويحيى اليزيدي هو الراوي لقراءة أبي عمرو البصري. انظر: النشر لابن الجزري، ١/١٣٣. والهمز ثابت عن نافع من رواية قالون. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٩٤.

[7] لأبي عمرو وجهان صحيحان، الهمز والإبدال. وكلاهما في الوصل والوقف. وأمّا القول بأنّ الإبدال له في الوقف دون الوصل فلا يصحّ، قال الحافظ ابن الجزري: «ليس في ذلك نقل يُتّبع، ولا قياس يُستمع». انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٩٢.

[8] وكذا يعقوب قرأ بالهمز. وقرأ بإبدال الهمزة ياءً أبو جعفر والكسائي وخَلف ووَرش عن نافع، وهو أحد الوجهين عن أبي عمرو. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٩٠-٣٩٤.

[9] قوله: "دَرَجًا" عائد إلى قراءة حمزة، دون قراءة عاصم وابن عامر. فإنّ حمزة الزيّات يقرأ بالهمز في الوصل، وبالإبدال في الوقف، وذلك بناءً على أصله في الهمز. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٢٨.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ أي: أزمَعوا ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ﴾ مفعول لـ﴿أَجۡمَعُوٓاْ﴾. يقال: أجمع الأمرَ، ومنه: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ [يونس، ١٠/٧١]. / ولا يستعمل ذلك إلّا في الأفعال التي قوِيت الدواعي إلى فعلها. [١٨٤و]

﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ قيل: هي بئر بأرض الأردنّ. وقيل: بين مصر ومَدين. وقيل: على ثلاثة فراسخ مِن منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التي هي مِن نواحي الأردنّ، كما أنّ مَدين كذلك. وأمّا ما يقال مِن أنّها بئر بيت المقدس[١] فيردّه التعليل بالتقاط السيّارة ومجيئُهم أباهم عِشاءَ ذلك اليوم، فإنّ بين منزل يعقوب[٢] وبين بيت المقدس مراحلَ. وجواب لمّا محذوف إيذانًا بظهوره، وإشعارًا بأنّ تفصيلَه ممّا لا يحويه فلَك العبارة، ومُجمله فعلوا به مِن الأذيّة ما فعلوا.

يُروى أنّهم لمّا برزوا إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتّى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث، فقال يهوذا: أما عاهدتُموني أن لا تقتلوه؟ فأتَوا به إلى البئر، فتعلّق بثيابهم، فنزعوها مِن يديه، فدَلَّوه فيها، فتعلّق بشَفيرها، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه لِما عزموا عليه مِن تلطيخه بالدم احتيالًا لأبيه، فقال: يا إخوتاه ردّوا عليّ قميصي أَتوارى به، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحدَ عشر كوكبًا تُؤنِسك. فدلَّوه فيها، فلمّا بلغ نصفها ألقَوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثمّ أوَى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي، فنادَوه وظنّ أنّها رحمة أدركَتْهم، فأجابهم، فأرادوا أن يرضَخوه فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام كلّ يوم.[٣]

ويُروى أنّ إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار وجُرِّد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص مِن حرير الجنّة فألبسه إيّاه، فدفعه إبراهيمُ إلى إسحاق،

---

[١] قاله قتادة. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٠٠؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٦٠٢.

[٢] ط س + عليه السلام.

[٣] جامع البيان للطبري، ١٣/٢٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٠٢.

وإسحاقُ إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تَميمة، وعلّقها في عنق يوسف، / فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه مِن التميمة وألبسه[١] إيّاه.[٢] [١٨٤ظ]

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ عند ذلك تبشيرًا له بما يئُول إليه أمره وإزالةً لوَحشته وإيناسًا له. قيل: كان ذلك قبل إدراكه كما أُوحي إلى يحيى وعيسى. وقيل: كان إذ ذاك مدرِكًا. قال الحسَن: «كان له سبعَ عشرة سنةً».[٣]

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: لَتتخلّصنّ ممّا أنت فيه مِن سوء الحال، وضيق المجال، ولتُحدِّثَنّ إخوتك بما فعلوا بك، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنّك يوسف، لتَبايُن حالَيك؛ حالِك هذا وحالِك يومئذ؛ لعلوّ شأنك، وكبرياء سلطانك، وبُعد حالك مِن أوهامهم.

وقيل: لبعد العهد المبدِّل للهيئات المغيِّر للأشكال. والأوّل أدخل في التسلية. رُوي أنّهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرَفهم وهم له منكرون دعا بالصُّواع فوضعه على يده ثمّ نقَره فطَنّ، فقال: إنّه لَيُخبرني هذا الجامُ أنّه كان لكم أخٌ مِن أبيكم يقال له: يوسف، وكان يُدنيه دونكم، وأنّكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجبّ، وقلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبِعتموه بثمن بَخْس.[٤]

ويجوز أن يتعلّق ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بالإيحاء على معنى: أنّا آنسناه بالوحي، وأزلنا عن قلبه الوحشة التي أورثوه وهم لا يشعرون بذلك، ويحسبون أنّه مُرهَق مستوحِش لا أنيس له.

وقُرئ: "لَنُنَبِّئَنَّهُمْ" بالنون[٥] على أنّه وعيد لهم، فقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿أَوْحَيْنَا﴾ لا غير.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦﴾

---

[١] ط س: فألبسه.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٥٧.

[٣] جامع البيان للطبري، ١٣/٣٦٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٥٩.

[٤] جامع البيان للطبري، ١٣/٣٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٠١.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن سلام. شواذّ القراءات للكرماني، ص٢٤٣.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ﴾ آخرَ النهار. وقُرئ: "عُشَيًّا"،[١] وهو تصغير عشيّ، و"عُشًى" بالضمّ والقصر،[٢] جمع "أعشى"، أي: عُشْوًا مِن البكاء.[٣] ﴿يَبۡكُونَ﴾ متباكين. رُوي أنّه لمّا سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع وقال: «ما لكم يا بَنيّ؟ وأين يوسف؟»[٤]

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾

[١٨٥و] ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي: متسابقين في العَدْو أو الرمي. / وقد يشترك الافتعال والتفاعل، كالانتضال والتناضل ونظائرهما. ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: ما نتمتّع به مِن الثياب والأزواد وغيرهما. ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ عقيب ذلك مِن غير مضيّ زمان يُعتاد فيه التفقّد والتعهّد.

وحيث لا يكاد يُطرح المتاع عادةً إلّا في مقام يؤمَن فيه الغوائل لم يُعدّ تركه عليه السلام عنده مِن باب الغفلة وترك الحفظ الملتزَم، لا سيّما إذا لم يَبرَحُوه ولم يَغيبوا عنه. فكأنّهم قالوا: إنّا لم نقصّر في محافظته، ولم نغفُل عن مراقبته؛ بل تركناه في مَأمَننا ومَجمعنا بمرأى منّا؛ لأنّ ميدان السباق لا يكون عادةً إلّا بحيث يتراءى غايتاه، وما فارقناه إلّا ساعةً يسيرة، بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ بمصدّق لنا في هذه المقالة الدالّة على عدم تقصيرنا في أمره، ﴿وَلَوۡ كُنَّا﴾ عندك وفي اعتقادك ﴿صَٰدِقِينَ﴾ موصوفين بالصدق والثقة؛ لشدّة محبّتك ليوسف، فكيف وأنت سيّء الظنّ بنا، غيرُ واثق بقولنا؟

وكلمةُ "لو" في أمثال هذه المواقع لبيان تحقّق ما يفيده الكلام السابق مِن الحُكم الموجَب أو المنفي على كلّ حال مفروض مِن الأحوال المقارِنة له

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٥٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن كذلك. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٦/٢٤٩.

٣ العَشا: سوء البصر بالليل والنهار، وقد عَشِيَ يَعشَى عَشًى، وهو عَشٍ وأَعشَى، والأنثى عَشْواء، والعُشْوُ جمع الأعشَى. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «عشا».

٤ انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥/٢٠٢؛ **والتفسير الوسيط** للواحدي، ٢/٦٠٣.

على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدّها منافاةً له؛ ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره مِن الأحوال بطريق الأولويّة، لِما أنّ الشيء متى تحقّق مع المُنافي القويّ فلأن يتحقّق مع غيره أولى، ولذلك لا يذكر معه شيء مِن سائر الأحوال، ويُكتفَى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابِلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعدّدها.

وقد مرّ تفصيله في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة، ٢/١٧٠]، وفي سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف، ٧/٨٨].

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ محلُّه النصب على الظرفيّة مِن قوله: ﴿بِدَمٍ﴾ أي: جاءوا فوق قميصه بدم، كما يقول: جاء على جِماله بأحمال. أو على الحاليّة منه، والخلافُ في تقدّم الحال على المجرور فيما إذا لم يكن الحالُ ظرفًا.

﴿كَذِبٍ﴾ مصدر وُصف به "الدم" مبالغة، أو مصدر بمعنى المفعول، أي: مكذوب فيه، أو بمعنى: ذِي كذِب، أي: ملابِس للكذب. وقُرئ: "كَذِبًا"[١] على أنّه حال مِن الضمير، أي: جاءوا كاذبين، أو مفعول له. وقرأت عائشة رضي الله عنها بغير المعجمة،[٢] أي: كدِرٍ. وقيل: طريّ. قال ابن جنّي: «أصله مِن الكَدَب؛ وهو الفُوف؛ البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث، كأنّه دم قد أثّر في قميصه».[٣]

رُوي أنّهم ذبحوا سَخْلةً ولطّخوه / بدمها، وزلّ عنهم أن يمزّقوه، فلمّا سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال: «أين القميص؟» [١٨٥ظ]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن أبي عبلة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٥٠؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٣.

[٢] أي: "كَدِبٍ" بالدال. قراءة شاذّة، ونسبها ابن جنّي إلى الحسَن، والكرماني إلى أبي السَّمّال. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١/٣٣٥؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٣.

[٣] المحتسب لابن جنّي، ١/٣٣٥.

فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتّى خضّب وجهه بدم القميص، وقال: «تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلمَ مِن هذا، أكَل ابني ولم يمزّق عليه قميصه».[١]

وقيل: كان في قميص يوسف عليه السلام ثلاثُ آيات؛ كان دليلًا ليعقوب على كذِبهم، وألقاه على وجهه فارتدّ بصيرًا، ودليلًا على براءة يوسف[٢] حين قُدَّ مِن دُبرٍ.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال، فكأنّه قيل: ما قال يعقوب؟ هل صدّقهم فيما قالوا أو[٣] لا؟ فقيل: قال: لم يكن ذلك. ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: زيّنت وسهّلت، قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما.[٤] والتسويل: تقدير شيء في النفس مع الطمَع في إتمامه. قال الأزهريّ: «كأنّ التسويل تَفعيل مِن سُول الإنسان؛ وهو أمنيّته[٥] التي يطلبها فتزيّن لطالبها الباطلَ وغيرَه. وأصله مهموز».[٦] وقيل: مِن السَّوَل، وهو الاسترخاء.

﴿أَمْرًا﴾ مِن الأمور منكَرًا لا يوصَف ولا يعرف. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل أو أمثل. وفي الحديث: «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه»،[٧] أي: إلى الخَلق، وإلّا فقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف، ٨٦/١٢].

وقيل: سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بعصابة، فقيل له: «ما هذا؟» قال: «طول الزمان وكثرة الأحزان»، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: «يا يعقوبُ، أتشكوني؟» قال: «يا ربّ خطيئة فاغفرها لي».[٨]

وقرأ أُبيّ: "فَصَبْرًا جَمِيلًا".[٩]

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٢.

٢ ط س + عليه السلام.

٣ ط س: أم.

٤ اللباب لابن عادل، ٤٣/١١.

٥ س: أمنيّة.

٦ تهذيب اللغة للأزهري، باب السين واللام، «سَول».

٧ جامع البيان للطبري، ٤٠/١٣؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٢١١٢/٧.

٨ جامع البيان للطبري، ٤٢/١٣.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عنه رضي الله عنه، وعزاها الكرماني إلى الأشهب وأبي السَّمّال. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٣.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي: المطلوب منه العون، وهو إنشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرّة. / ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ على إظهار حال ما تصفون، وبيانِ كونه كذبًا، وإظهارِ سلامته، فإنّه عَلَم في الكذب، قال سبحانه: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات، ١٨٠/٣٧]، وهو الأليق بما سيجيء مِن قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف، ٨٣/١٢]. وتفسير "المستَعان عليه" باحتمال ما يصفون مِن هلاك يوسف والصبرِ على الرُّزْءِ فيه[١] يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك، ولا يساعده الصيغة، فإنّها قد غلَبت في وصف الشيء بما ليس فيه كما أشيرَ إليه. [١٨٦و]

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَجَآءَتْ﴾ شروع في بيان ما جرى على يوسف في الجُبّ بعد الفراغ عن ذكر ما وقع بين إخوته وبين أبيه. والتعبير بالمجيء ليس بالنسبة إلى مكانهم، فإنّ كنعان ليس بالجانب المِصري مِن مَدين؛ بل إلى مكان يوسف. وفي إيثاره على المرور أو الإتيان أو نحوهما إيماء إلى كونه عليه السلام في الكرامة والزُّلفى عند مليك مقتدر.

والظاهر أنّ الجُبّ كان في الأَمَمِ المِيتاءِ،[٢] فإنّ المتبادر مِن إسناد المجيء إلى السيّارة مطلقًا في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ -أي: رُفْقة تسير مِن جهة مَدين إلى مِصر- وقوعُه باعتبار سيرهم المعتاد، وهو الذي يقتضيه قوله تعالى فيما سلف: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾.[٣] وقد قيل: إنّه كان في قَفرة بعيدة مِن العمران لم يكن إلّا للرعاة، فأخطئوا الطريق فنزلوا قريبًا منه. وقيل: كان ماؤه مِلحًا فعَذُب حين ألقي فيه عليه السلام.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/٢.

٢ الأَمَم -بالفتح-: القُرب، يقال: أخذت ذلك مِن أَمَم، أي: مِن قُرب. وداري أَمَم داره، أي: مقابلتها. والمِيتاء: الطريق العامِر المسلوك. انظر: لسان العرب لابن منظور، «أمم»، «أتي». والمراد أنّ الجُبّ كان في طريق قريب عامِر يسلكه الناس عادة.

٣ يوسف، ١٠/١٢.

﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ الذي يرِد الماء ويستقي لهم، وكان ذلك مالك بن ذُعرٍ الخزاعيّ.[١] وإنّما لم يُذكر منتهى الإرسال كما لم يُذكر منتهى المجيء -أعني الجُبّ- للإيذان بأنّ ذلك معهود لا يضرب عنه الذِّكر صفحًا.

﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥ﴾ أي: أرسلها إلى الجُبّ -والحذف لِما عرفتَه- فتدلّى بها يوسف فخرج. / ﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال يقتضيه الحال. ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ كأنّه نادى البشرى، وقال: تعالَيْ، فهذا أوانكِ، حيث فاز بنعمة باردة -وأيّ نعمة؟- مكان ما يوجد مباحًا مِن الماء. وقيل: هو اسم صاحب له ناداه ليُعينه على إخراجه. [١٨٦ظ]

وقرأ غيرُ الكوفيّين: "يا بشرايَ".[٢] وأمال فتحةَ الراء حمزةُ والكسائيُّ،[٣] وقرأ وَرش بين اللفظين.[٤] وقُرئ: "يا بُشْرَيَّ" بالإدغام،[٥] وهي لغة، و"بشرايْ"[٦] على قصد الوقف.

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أي: أخفاه الوارد وأصحابه عن بقيّة الرُّفْقة. وقيل: أخفَوا أمره ووِجدانَهم له في الجُبّ، وقالوا لهم: دفَعه إلينا أهلُ الماء لنبيعه لهم بمصر.

وقيل: الضمير لإخوة يوسف، وذلك أنّ يهوذا كان يأتيه كلّ يوم بطعام، فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته، فأتَوا الرُّفْقة وقالوا: هذا غلامنا أبَقَ منّا، فاشترَوه منهم، وسكتَ يوسف مخافة أن يقتلوه.[٧] ولا يخفى ما فيه مِن البُعد.

---

[١] هو مالك بن ذعر بن ثويب بن عنقاء بن مديان بن إبراهيم عليه السلام. وقيل: مالك بن ذُعر بن حجر بن جزيلة بن لخم. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٦١/١٣؛ **والاشتقاق** لابن دريد، ص ٣٧٨؛ **وجمهرة أنساب العرب** لابن حزم، ٤٢٤/١.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٣/٢.

[٣] وكذا أمالها خلف البزّار، وهو أحد الوجهين عن ابن ذكوان وشعبة، وأحد الأوجه الثلاثة لأبي عمرو البصري. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٣٥/٢-٤٠-٤١.

[٤] وهو أحد الأوجه الثلاثة لأبي عمرو البصري، وهي: الفتح والتقليل والإمالة. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٤٠/٢-٤١.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن إسحاق والجحدري وابن أبي عَبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ورش عن نافع. انظر: **الكامل** للهذلي، ص ٥٧٥؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٥٢/٦.

[٧] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٤/٥؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٥٨/٣.

﴿بِضَٰعَةً﴾ نصب على الحاليّة، أي: أخفَوه حال كونه بضاعةً، أي: متاعًا للتجارة، فإنّها قطعة مِن المال بُضعت عنه -أي: قُطعت- للتجارة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ وعيد لهم على ما صنعوا مِن جعلهم مثلَ يوسف -وهو هو- عرضةً للابتذال بالبيع والشِّرى، وما دبّروا في ذلك مِن الحِيَل.

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾

﴿وَشَرَوۡهُ﴾ أي: باعوه. والضمير للوارد وأصحابه. ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ زَيف ناقص العِيار ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل مِن ﴿ثَمَنِ﴾، أي: لا دنانير. ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ أي: غيرِ موزونة، فهو بيان لقلّته ونقصانه مقدارًا بعد بيان نقصانه في نفسه، إذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العَدُّ دون الوزن، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّها كانت عشرين دِرهمًا.[١] وعن السدّي أنّها كانت اثنين وعشرين دِرهمًا.[٢]

/ ﴿وَكَانُواْ﴾ أي: البائعون ﴿فِيهِ﴾ في يوسف ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ مِن الذين لا يرغبون فيما بأيديهم، فلذلك باعوه بما ذُكر مِن الثمن البخس. وسبب ذلك أنّهم التقطوه، والملتقِط للشيء متهاون به، أو غيرُ واثق بأمره، يخاف أن يظهر له مستحِقّ فينتزعه منه، فيبيعه مِن أوّل مساوِم بأوكَسِ ثمن. [١٨٧و]

ويجوز أن يكون معنى ﴿شَرَوۡهُ﴾: اشتروه مِن إخوته -على ما حُكي- وهم غير راغبين في شِراه خشيةَ ذهاب مالهم لِما ظَنّ في أذنهم مِن الإباق. والعدول عن صيغة الافتعال المُنبئة عن الاتّخاذ لِما مرّ مِن أنّ أخذهم إنّما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء.

و﴿فِيهِ﴾ متعلّق بـ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إن جعل "اللام" للتعريف، وبيان لِما زهدوا فيه إن جعلت موصولة، كأنّه قيل: في أيّ شيء زهِدوا؟ فقيل: زهِدوا فيه؛ لأنّ ما يتعلّق بالصِّلة لا يتقدّم على الموصول.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢؛ اللباب لابن عادل، ٥١/١١. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٧/١٣.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢؛ اللباب لابن عادل، ٥١/١١. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٧/١٣.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائنه، واسمه قِطفير أو إِطفير. وبيان كونه مِن مصر لتربية ما يتفرّع عليه مِن الأمور مع الإشعار بكونه غيرَ مَن اشتراه مِن الملتقطِين بما ذُكر مِن الثمن البَخس. وكان الملِك يومئذ الريّان بن الوليد العِمْلِيقي،[١] ومات في حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمَن به، فملَك بعده قابوس بن مصعب،[٢] فدعاه إلى الإسلام فأبى.

وقيل: كان الملِك في أيّامه فرعونَ موسى عليه السلام، عاش أربعمائة سنةٍ، لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر، ٣٤/٤٠]. وقيل: فرعون موسى مِن أولاد فرعون يوسف عليه السلام،[٣] والآية مِن قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء.

واختلف في مقدار ما اشتراه به العزيز؛ فقيل: بعشرين دينارًا وزوجَي نَعل وثوبين أبيضَين.[٤] وقيل: أدخلوه في السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتّى بلغ ثمنُه وزنَه مِسكًا، / ووزنَه ورِقًا، ووزنَه حريرًا، فاشتراه قطفير بذلك المبلغ.[٥] وكان سِنّه إذ ذاك سبعَ عشرة سنةً، وأقام في منزله مع ما مرّ عليه مِن مدّة لبثه في السجن ثلاثَ عشرة سنةً، واستوزره الريّان وهو ابنُ ثلاثين سنةً، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابنُ ثلاث وثلاثين سنةً، وتُوفّي وهو ابنُ مائة وعشرين سنةً.[٦] [١٨٧ظ]

---

[١] هو الريّان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن قاران بن عمرو بن عِملاق بن لاوِذ بن سام بن نوح عليه السلام. تاريخ الطبري، ٣٣٥/١.

[٢] هو قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن قاران بن عمرو بن عِملاق بن لاوِذ بن سام بن نوح عليه السلام. تاريخ الطبري، ٣٣٦/١.

[٣] م - عليه السلام.

[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٥/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٥/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢.

[٦] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٩/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥٤/٦.

﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيل أو زليخا. وقيل: اسمها هو الأوّل، والثاني لقَبُها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿قَالَ﴾، لا بـ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾. ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ اجعلي محلّ إقامته كريمًا مَرضيًا، والمعنى: أحسني تعهّده. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ضياعنا وأموالنا، ونستظهر به في مصالحنا، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: نتبنّاه. وكان ذلك لِما تفرّس فيه مِن مَخائل الرشد والنجابة، ولذلك قيل: أفرَس الناس ثلاثة: عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص، ٢٦/٢٨]، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما.[1]

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ نصب على المصدريّة. و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما يفهم مِن كلام العزيز، وما فيه مِن معنى البعد لتفخيمه، أي: مثل ذلك التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له فيها مكانًا، يقال: مكّنه فيه، أي: أثبته فيه، ومكّن له فيه، أي: جعل له فيه مكانًا، ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كلّ منهما في محلّ الآخر، قال عزّ وجلّ: ﴿كَمْ[2] أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام، ٦/٦]، أي: ما لم نمكّنكم فيها، أو مكّنّا لهم في الأرض... إلخ.

والمعنى: كما جعلنا له مثوًى كريمًا في منزل العزيز أو مكانًا عليًا في قلبه حتّى أمَر امرأته دون سائر حواشيه بإكرام مثواه جعلنا له مكانةً رفيعةً في أرض مصر. ولعلّه عبارةٌ عن جعله وجيهًا فيما بين أهلها ومحبّبًا في قلوبهم كافّةً كما في قلب العزيز؛ لأنّه الذي يؤدّي إلى الغاية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: نوفّقه لتعبير بعض / المنامات التي عُمدتها [١٨٨و] رؤيا الملِك وصاحبَي السجن، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف، ٣٧/١٢]، سواء جعلناه معطوفًا على غاية مقدَّرة ينساق إليها الكلام ويستدعيها النظام، كأنّه قيل: ومثل ذلك التمكين مكّنّا ليوسف في الأرض وجعلنا قلوب أهلها كافّةً محالَّ مَحبّته؛ ليترتّب عليه ما ترتّب ممّا جرى بينه وبين امرأة العزيز،

---

[1] المستدرك للحاكم، ٣٧٦/٢ (٣٣٢٠)؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ٤٣٤/٧ (٣٧٠٥٨)، من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

[2] م ط س: وكم.

ولنعلّمه بعض تأويل الأحاديث، وهو تأويل الرؤى المذكورة، فيؤدّي ذلك إلى الرِّياسة العظمى. ولعلّ تركَ المعطوف عليه للإشعار بعدم كونه مرادًا بالذات. أو جعلناه علّةً[1] لمعلَّلٍ محذوف، كأنّه قيل: ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين، دون غيرها ممّا ليس له عاقبة حميدة.

هذا ولا يخفى عليك أنّ الذي عليه يدور هذه الأمور إنّما هو التمكين في جانب العزيز. وأمّا التمكين في جانب الناس كافّةً فتأديته إلى ذلك إنّما هي باعتبار اشتماله على ذلك التمكين. فإذن الحقّ أن يكون ذلك إشارةً إلى مصدر قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ على أن يكون هو عبارة عن التمكين في قلب العزيز أو في منزله، وكون ذلك تمكينًا في الأرض بملابسة أنّه عزيز فيها، لا عن تمكين آخر يشبَّه هو[2] به، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢] مِن أنّ ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده، لا إلى جعلٍ آخر يُقصد تشبيه هذا الجَعل به. فالكاف مُقحَم للدلالة على فخامة شأن المشار إليه إقحامًا لا يكاد يترك في لغة العرب ولا في غيرها، ومن ذلك قولهم: مثلك لا يبخل.

وهكذا ينبغي أن يحقّق المقام، وأمّا التمكين بمعنى جعله ملِكًا يتصرّف في أرض مِصر بالأمر والنهي[3] فهو مِن آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرّعة عليه كما عرفته، لا مِن مباديه المؤدّية إليه، فلا سبيل إلى جعله غاية له، ولم يُعهَد منه عليه السلام في تضاعيف قضاياه العمل بموجَب المنامات المنبّهة على الحوادث قبل وقوعها عهدًا مصحِّحًا لجعله غايةً لولايته، وما وقع مِن التدارك في أمر السنين فإنّما هو عمل بموجَب الرؤيا السابقة المعهودة، اللّهمّ / إلّا أن [١٨٨ظ] يراد بتعليم تأويل الأحاديث ما سبق مِن تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهيّة ودقائق سَنن الأنبياء عليهم السلام، فيكون المعنى حينئذٍ: مكّنّا له في أرض مصر لِيتصرّف فيها بالعدل، ولِنعلّمه معانيَ كتب الله تعالى وأحكامَها ودقائق سَنن الأنبياء، فيقضي بها فيما بين أهلها.

---

[1] السياق: سواء جعلناه معطوفًا... أو جعلناه علّةً...
[2] م ط س - هو ["صح" في هامش م].
[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٥٤/٢.

والتعليم الإجمالي لتلك المعاني والأحكام وإن كان غيرَ متأخّر عن تمكينه بذلك المعنى إلّا أنّ تعليم كلّ معنى شخصي يتّفق في ضمن الحوادث والإرشادَ إلى الحقّ في كلّ نازلة مِن النوازل متأخّرٌ عن ذلك صالحٌ لِأن يكون غايةً له.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يستعصي عليه أمر، ولا يمانعه شيء؛ بل إنّما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون، فيدخل في ذلك شئونه المتعلّقة بيوسف دخولًا أوّليًا. أو متولٍّ على أمر يوسف لا يَكِلُه إلَى غيره، وقد أُريدَ به مِن الفتنة ما أُريدَ مرّةً غِبَّ مرّة، فلم يكن إلّا ما أراد الله له مِن العاقبة الحميدة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك، فيأتون ويذرون زعمًا منهم أنّ لهم مِن الأمر شيئًا، وأنّى لهم ذلك، وإنّ الأمر كلَّه لله عزّ وجلّ، أو لا يعلمون لطائف صُنعه وخفايا فضله.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: منتهى اشتداد جسمه وقوّته، وهو سنّ الوقوف[1] ما بين الثلاثين إلى الأربعين. وقيل: سنّ الشباب ومبدأ بلوغ الحلُم. والأوّل هو الأظهر، لقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكمةً؛ وهو العلم المؤيَّد بالعمل، أو حُكمًا بين الناس وفقهًا، أو نبوّةً، ﴿وَعِلْمًا﴾ أي: تفقّهًا في الدين. وتنكيرهما للتفخيم، أي: حُكمًا وعِلمًا لا يُكتنَه كُنهُهما، ولا يقادَر قدرهما، فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه، سواء كانا عبارة عن النبوّة والحُكم بين الناس أو غيرِهما. كيف لا، وقد جُعل إيتاؤهما جزاءً لعمله عليه السلام حيث قيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاءِ العجيب ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كلَّ مَن يُحسن في عمله، فيجب أن يكون / ذلك [١٨٩و] بعد انقضاء أعماله الحسنة التي مِن جملتها معاناة الأحزان والشدائد.

وقد فُسّر العلم بعلم تأويلِ الأحاديث،[2] ولا صحّةَ له إلّا أن يُخصّ بعلم تأويل رؤيا الملِك، فإنّ ذلك حيث كان عند تناهي أيّام البلاء صحّ أن يُعَدّ إيتاؤه

---

[1] يعني: الوقوف عن النموّ؛ لأنّ الإنسان ينمو جسمه في ابتداء أمره إلى تمام الشباب، وبعده يقف عن النموّ والانحطاط إلى زمان الشيخوخة. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٦٥/٥.

[2] فسّره بذلك البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٥٩/٣.

مِن جملة الجزاء. وأمّا رؤيا صاحبَي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرِها في السجن بِضع سنين.

وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلّيّة الإحسان له، وتنبيه على أنّه سبحانه إنّما آتاه ما آتاه لكونه محسنًا في أعماله متّقيًا في عُنفوان أمرِه، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن، ٥٥/٦٠].

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ رجوع إلى شَرح ما جرى عليه في منزل العزيزِ بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾[1] إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجًا للقصّة؛ ليعلم السامع مِن أوّل الأمر أنّ ما لقيَه عليه السلام مِن الفتن التي ستُحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة، وأنّه عليه السلام مُحسن في جميع أعماله لم يصدر عنه في حالتي السرّاء والضرّاء ما يخلّ بنزاهته.

ولا يخفى أنّ مدار حسنِ التخلّص إلى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة إنّما هو التمكين البالغ المفهوم مِن كلام العزيز، فإدراجُ الإنجاءِ السابق تحت الإشارة بذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا﴾[2] كما فعله الجمهور ناءٍ مِن التقريب، فتأمّل.

والمراودة: المطالبة، مِن "راد يَرود" إذا جاء وذهب لطلب شيء، ومنه الرائد لطالب الماء والكلأ. وهي مفاعلة مِن واحد، نحو: مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطبيب، ونظائرها ممّا يكون مِن أحد الجانبين الفعلُ، ومن الآخر سببُه، فإنّ هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لمّا كانت أسبابُها صادرة عن الجانب الآخر جُعلت كأنّها صادرة عنهما.

---

[1] يوسف، ١٢/٢١.

[2] يوسف، ١٢/٢١.

وهذا باب لطيف المسلك مبنيّ على اعتبار دقيقٍ، / تحقيقه أنّ سبب [١٨٩ظ] الشيء يُقام مُقامه، ويطلق عليه اسمه، كما في قولهم: «كما تَدين تُدان»،[١] أي: كما تَجزي تُجزَى، فإنّ فعل البادئ وإن لم يكن جزاءً لكنّه لكونه سببًا للجزاء أطلق عليه اسمه، وكذلك إرادة القيام إلى الصلاة وإرادة قراءة القرآنِ حيث كانتا سببًا للقيام والقراءة عبّر عنهما بهما فقيل: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة، ٦/٥]، ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النحل، ٩٨/١٦]، وهذه قاعدة مطّردة مستمرّة.

ولمّا كانت أسباب الأفعال المذكورة فيما نحن فيه صادرةً عن الجانب المقابل لجانب فاعلها، فإنّ مطالبةَ الدائن للمماطلة التي هي مِن جانب الغريم، وهي منه للمطالبة التي هي مِن جانب الدائنِ، وكذا مداواة الطبيب للمرض الذي هو مِن جانب المريض، وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام، نُزِّل صدورُها عن محالّها بمنزلة صدور مسبَّباتها التي هي تلك الأفعال، فبُني الصيغة على ذلك، وروعي جانب الحقيقة بأن أُسند الفعل إلى الفاعل، وأوقع على صاحب السبب، فتأمّل.

ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرّد المبالغة. وقيل: الصيغة على بابها، بمعنى: أنّها طلبت منه الفعل، وهو منها الترك. ويجوز أن يكون مِن الرُّويد، وهو الرفق والتمهّل.[٢]

وتعديتها بـ﴿عَن﴾ لتضمينها معنى المخادعة، فالمعنى: خادعته ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجه عن يده، وهو يحتال أن يأخذه منه، وهي عبارة عن التمحّل في مواقعته إيّاها.

والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السرّ، أو للاستهجان بذكره. وإيراد الموصول لتقرير المراودة، فإنّ كونَه في بيتها ممّا يدعو إلى ذلك -قيل لواحدة: ما حمَلكِ على ما أنتِ عليه ممّا لا خير فيه؟ قالت: قربُ الوِساد وطولُ السواد- ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام، فإنّ عدمَ مَيله إليها

---

[١] انظر: مجمع الأمثال للميداني، ١٥٥/٢.

[٢] ط س: والتحمّل.

مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادي لكونه عليه السلام / في أعلى معارج العفّة والنزاهة. [١٩٠و]

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ قيل: كانت سبعةً، ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الإفعال. وقيل: للمبالغة في الإيثاق والإحكام.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ قُرئ: بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء،[١] وبناؤه كبناء أَين وعِيطَ.[٢] و"هَيْتِ"[٣] كجَيرِ، و"هَيْتُ"[٤] كحَيث، اسم فعل معناه: أقبِل وبادِر، واللام للبيان، أي: لك أقول هذا كما في "هلمّ لك". وقُرئ: "هِئتُ" على صيغة الفعل[٥] بمعنى تهيّأت، يقال: هاء يهيء -كجاء يجيء- إذا تهيّأ. و"هُيِّئْتُ لَكَ"،[٦] و"اللام" صلة للفعل.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله معاذًا ممّا تَدعُوِينَنِي[٧] إليه. وهذا اجتناب منه على أتمّ الوجوه، وإشارة إلى التعليل بأنّه منكَرٌ هائل يجب أن يُعاذ بالله تعالى للخلاص منه، وما ذاك إلّا لأنّه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى مِن البرهان النيّر على ما هو عليه في حدّ ذاته مِن غاية القبح ونهاية السوء.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجيّة ممّا عسى يكون مؤثّرًا عندها وداعيًا لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتي الذي[٨] لا تكاد تقبله لِما سوَّلَتْه لها نفسُها.

---

١ قرأ "هَيْتَ" بفتح الهاء والتاء أبو عمرو ويعقوب وعاصم وحمزة والكسائي وخلف. وقرأ "هِيتَ" بكسر الهاء وفتح التاء نافع وأبو جعفر وابن ذكوان. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

٢ عِيطَ، بالكسر مبنيّة: صوت الفتيان النزِقين إذا تصايحوا، أو كلمة يُنادى بها عند السُكر أو عند الغلبة. **القاموس المحيط** للفيروزأبادي، «عيط».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والحسن البصري. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٤؛ و**النشر** لابن الجزري، ٢/٢٩٤.

٤ قرأ بها ابن كثير. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٩٤.

٥ بكسر التاء وضمّها قرأ هشام عن ابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٤.

٧ كذا في الأصل، قال الجوهري: «تقول للمرأة: أنت تَدعِين، وفيه لغة ثانية: أنت تَدعُوِين، وفيه لغة ثالثة: أنت تَدعُين بإشمام العين الضمّة». **الصحاح** للجوهري، «دعا». قال ابن برّي: «قوله في اللغة الثانية: أنت تَدعُوِين؛ لغة غير معروفة». **لسان العرب** لابن منظور، «دعا».

٨ س: الذاتي.

والضمير للشأن، ومدارُ وضعه موضعَه ادّعاءُ شهرته المُغنية عن ذكره. وفائدة تصدير الجملة به الإيذانُ بفخامة مضمونها مع ما فيه مِن زيادة تقريره في الذهن، فإنّ الضمير لا يُفهم منه مِن أوّل الأمر إلّا شأن مبهم له خطر، فيبقى الذهن مترقّبًا لِما يعقُبه، فيتمكّن عند وروده له فضل تمكّن، فكأنّه قيل: إنّ الشأن الخطير هذا، وهو ربّي -أي: سيّدي العزيز- أحسنَ مثواي، أي: أحسن تعهّدي حيث أمركِ بإكرامي، فكيف يمكن أن أُسيء إليه بالخيانة في حَرَمه؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية حقّ العزيز بألطف وجه.

/ وقيل: الضمير لله عزّ وجلّ، و﴿رَبِّيٓ﴾ خبر "إنّ"، و﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ خبر ثانٍ. أو هو الخبر والأوّل بدل مِن الضمير. والمعنى: أنّ الحال هذا، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة؟ وفيه تحذير لها مِن عقاب الله عزّ وجلّ. [١٩٠ظ]

وعلى التقديرين ففي الاقتصار على ذِكر هذه الحالة مِن غير تعرّض لاقتضائها الامتناعَ عمّا دعته إليه إيذانٌ بأنّ هذه المرتبة مِن البيان كافيةٌ في الدلالة على استحالته، وكونِه ممّا لا يدخل تحت الوقوع أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل للامتناع المذكورِ غِبَّ تعليل. والفلاح: الظفَر. وقيل: البقاءُ في الخير. ومعنى "أفلح": دخل فيه، كأصبح وأخواته. والمراد بـ"الظالمين": كلّ مَن ظلم كائنًا مَن كان، فيدخل في ذلك المُجازون للإحسان بالإساءة والعُصاة لأمر الله تعالى دخولًا أوّليًا. وقيل: الزُناة؛ لأنّهم ظالمون لأنفسهم وللمزني بأهله.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٢٤﴾

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ بمخالطته، إذ الهَمّ لا يتعلّق بالأعيان، أي: قصدَتها وعزمَت عليها عزمًا جازمًا لا يلويها عنه صارف بعد ما باشَرت مباديَها، وفعلَت ما فعلَت مِن المراودة وتغليق الأبواب ودعوته عليه السلام إلى نفسها بقولها: هيتَ لك، ولعلّها تصدّت هنالك لأفعال أُخَر مِن بسط يدها إليه وقصد المعانقة وغير ذلك

ممّا يضطّره عليه السلام إلى الهرب نحو الباب. والتأكيد لدفع ما عسى يتوهّم مِن احتمال إقلاعها عمّا كانت عليه بما في مقالته عليه السلام مِن الزواجر.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بمخالطتها، أي: مال إليها بمقتضى الطبيعة البشريّة وشهوة الشباب وقَرَمه[١] ميلًا جِبلِّيًا لا يكاد يدخل تحت التكليف، لا أنّه قصدها قصدًا اختياريًّا، ألا يُرى إلى ما سبق مِن استعصامه المنبئ عن كمال كراهته له ونفرته عنه وحكمه بعدم إفلاح الظالمين، وهل هو إلّا تسجيل باستحالة صدور الهمّ منه عليه السلام تسجيلًا مُحكمًا؟ وإنّما عبّر عنه بالهمّ لمجرّد وقوعه في صحبة همّها في الذكرِ بطريق المشاكلة، لا لشَبَهِهِ به كما قيل.[٢] ولقد أشيرَ إلى تباينهما حيث لم يُلَزَّا[٣] في قَرَن[٤] واحد مِن التعبير بأن قيل: ولقد همّا بالمخالطة، أو همّ كلٌّ منهما بالآخَر. [١٩١و] / وصُدّر الأوّل بما يقرّر وجوده مِن التوكيد القَسمي، وعُقّب الثاني بما يعفو أَثَره مِن قوله تعالى:[٥] ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حجّته الباهرة الدالّة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله.

والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها، ومشاهدته لها مشاهدةً واصلةً إلى مرتبة عين اليقين الذي يتجلّى هناك حقائق الأشياء بصورها الحقيقيّة، وتنخلع عن صورها المستعارة التي بها تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قولُه عليه السلام: «حُفَّت الجنّة بالمَكاره، وحُفَّت النار بالشهوات».[٦] وكان عليه السلام قد شاهد الزنا بموجَب ذلك البرهان النيّر على ما هو عليه في حدّ ذاته أقبحَ ما يكون وأوجبَ ما يجب أن يُحذر منه، ولذلك فعَل ما فعل مِن الاستعصام والحُكم بعدم إفلاح مَن يرتكبه.

وجواب ﴿لولا﴾ محذوف يدلّ عليه الكلام، أي: لولا مشاهدته برهانَ ربّه في شأن الزنا لَجرى على موجَب ميلِه الجِبلّي، ولكنّه حيث كان مشاهِدًا له مِن قبلُ

---

١ القرَم، محرّكة: شدّة شَهوة اللحم، وكثُر حتى قيل في الشّوق إلى الحبيب. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «قرم».

٢ انظر: **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٢٣٣/٣.

٣ لزّه يلزُّه لزًّا، أي: شدّه وألصقه. **الصحاح** للجوهري، «لزز».

٤ القَرَن بالتحريك: الجُعبة. **الصحاح** للجوهري، «قرن».

٥ ط س: عزّ وجلّ.

٦ **صحيح مسلم**، ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٢). وهو في **صحيح البخاري**، ١٠٢/٨ (٦٤٨٧)، بلفظ: "حُجِبت" بدل "حُفَّت".

استمرّ على ما هو عليه مِن قضيّة البرهان. وفائدة هذه الشرطيّة بيانُ أنّ امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم المساعدة[١] مِن جهة الطبيعة؛ بل لمحض العفّة والنزاهة مع وفور الدواعي الداخليّة وترتّب المقدّمات الخارجيّة الموجبة لظهور الأحكام الطبيعيّة.

هذا وقد نصّ أئمّة الصناعة على أنّ "لولا" في أمثال هذه المواقع جارٍ مِن حيث المعنى -لا مِن حيث الصيغةُ- مَجرى التقييدِ للحُكم المطلَق، كما في مثل قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان، ٤٢/٢٥]، فلا يتحقق هناك همٌّ أصلًا.

وقد جُوِّز أن يكون ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جوابَ ﴿لولا﴾ جريًا على قاعدة الكوفيّين في جواز التقديم، فالهمّ حينئذ على معناه الحقيقي. فالمعنى: لولا أنّه قد شاهد برهان ربّه لهَمّ بها كما همّت به، ولكن حيث انتفى / عدم المشاهدة بدليل [١٩١ظ] استعصامه وما يتفرّع عليه انتفى الهمّ رأسًا.

هذا وقد فُسِّر هَمُّه عليه السلام بأنّه عليه السلام[٢] حلّ الهِميان وجلس مَجلس الخِتان.[٣] وبأنّه حلّ تِكّة سراويلِه وقعد بين شُعَبها.[٤] ورؤيتُه للبرهان بأنّه سمع صوتًا: إيّاك وإيّاها، فلم يكترث، ثمّ وثمّ إلى أن تَمثّل له يعقوب عليه السلام عاضًا على أُنملته.[٥] وقيل: ضرب على صدره فخرجت شهوته مِن أنامله.[٦]

وقيل: بدَت كفّ فيما بينهما ليس فيها عضُد ولا مِعصم، مكتوب فيها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار، ١٠/٨٢-١١]، فلم ينصرف، ثمّ رأى فيها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء، ٣٢/١٧]، فلم ينتهِ، ثمّ رأى فيها: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢٨١/٢]، فلم ينجع، فقال الله عزّ وجلّ لجبريل عليه السلام: «أدرك عبدي قبل أن يُصيب الخطيئة»،

---

١ ط س: مساعدة.
٢ ط س - عليه السلام.
٣ جامع البيان للطبري، ٨٥/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٩/٥.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٧/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٨٥/١٣.
٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٧/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٨٨/١٣.
٦ جامع البيان للطبري، ٩٠/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١١/٥.

فانحطّ جبريل عليه السلام وهو يقول: «يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟»[١] وقيل: رأى تمثال العزيز.[٢]

وقيلَ وقيل... إنْ كلّ ذلك إلّا خُرافات وأباطيل تَمُجُّها الآذان، وتَرُدّها العقول والأذهان، ويل لمن لَاكَها ولفّقها، أو سمعها وصدّقَها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف منصوب المحلّ. و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإراءة المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مثل ذلك التبصير والتعريف عرّفناه برهاننا فيما قبلُ. أو إلى التثبيت اللازم له، أي: مثل ذلك التثبيت ثبّتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ على الإطلاق، فيدخل فيه خيانة السيّد دخولًا أوّليًّا. ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ والزنا؛ لأنّه مفرط القبح، وفيه آية بيّنة وحجّة قاطعة على أنّه عليه السلام لم يقع منه همّ بالمعصية، ولا توجّه إليها قطّ، وإلّا لقيل: لنَصرفه عن السوء والفحشاء، وإنّما توجّه إليه ذلك مِن خارج، فصرفه تعالى عنه بما فيه مِن موجبات العفّة والعصمة، فتأمّل.

[١٩٢و] / وقرئ: "لِيَصْرِفَ"[٣] على إسناد الصرف إلى ضمير الربّ.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لِما سبق مِن مضمون الجملة بطريق التحقيق، والمخلصون: هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عمّا هو قادح فيها. وقُرئ على صيغة الفاعل،[٤] وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه، وعلى كلا المعنيين فهو منتظِم في سلكهم داخلٌ في زمرتهم مِن أوّل أمره بقضيّة الجملة الاسميّة، لا أنّ ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك، فانحسم مادّة احتمال صدور الهَمّ بالسوء منه عليه السلام بالكلّيّة.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٢/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٦٠٩/٢.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٧/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٤.

٤ أي: "الْمُخْلِصِينَ" بكسر اللام. قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ متصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾.[١] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾... إلى آخره اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريرًا لنزاهته عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام، ٦/٧٥].

والمعنى: لقد همّت به وأبى هو. ﴿وَٱسْتَبَقَا﴾ أي: تسابقا إلى الباب البرّاني الذي هو المُخلِّص، ولذلك وُحِّد بعد الجمع فيما سلف، وحُذف حرف الجرّ وأُوصل الفعل إلى المجرور، نحو: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين، ٨٣/٣]، أو ضُمِّنَ الاستباق معنى الابتدار. وإسناد السبق في ضِمن الاستباق إليها مع أنّ مرادها مجرّد منعِ يوسف، وذا لا يوجب الانتهاء إلى الباب لأنّها لمّا رأته يسرع إلى الباب ليتخلّص منها أسرعت هي أيضًا لتسبقه إليه وتمنعه عن الفتح والخروج. أو عبّر عن إسراعها إثرَه بذلك مبالغة.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته مِن ورائه فانشقّ طولًا، وهو القَدّ؛ كما أنّ الشقّ عرضًا هو القطّ، وقد قيل في وصف عليّ كرّم الله تعالى[٢] وجهه: «إنّه كان إذا اعتلى قَدّ، وإذا اعترض قَطّ».[٣] وإسناد القدّ إليها خاصّةً مع أنّ لقوّة يوسف أيضًا دخلًا فيه إمّا لأنّها الجزء الأخير للعلّة التامّة، وإمّا للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفَوت المحبوب، أو لخوف الافتضاح.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي: صادَفا زوجها. وإذ لم يكن مِلكه ليوسف عليه السلام صحيحًا لم يقل: "سيّدَهما". قيل: ألفياه مُقبِلًا. / وقيل: كان جالسًا مع ابن عمّ للمرأة. ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي: البرّاني كما مرّ. روى كعب: أنّه لمّا هرَب يوسف جعل فَراشُ القُفل[٤] يتناثر ويسقط حتّى خرج مِن الأبواب.[٥]

[١٩٢ظ]

---

١ في الآية السابقة.

٢ ط س - تعالى.

٣ مجمل اللغة لابن فارس، «بكر»، بإسناده.

٤ فَراشة القُفل: ما يَنشَب فيه، أي: يعلق فيه. انظر: الصحاح للجوهري، «فرش»، «نشب».

٥ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٨؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٥٩.

﴿قَالَتْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال سائل يقول: فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب؟ فقيل: قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ مِن الزنا ونحوِه ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، أي: ليس جزاؤه إلّا السجن أو العذاب الأليم. قيل: المراد به الضرب بالسياط، أو استفهاميّة، أي: أيّ شيء جزاؤه غير ذاك أو ذلك؟

ولقد أتت في تلك الحالة التي تُدهش فيها الفَطن حيث شاهدَها العزيز على تلك الهيئة المُريبة بحِيلةٍ جمعت فيها غرَضَيْها، وهما تبرئة ساحتها ممّا يلوح مِن ظاهر الحال، واستنزالُ يوسف عن رأيه في استعصائه عليها وعدمِ مُواتاته على مرادها بإلقاء الرعب في قلبه مِن مَكْرها طمعًا في مواقعته لها كُرهًا عند يأسها عن ذلك اختيارًا، كما قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف، ١٢/٣٢].

ثمّ إنّها جعلت صدورَ الإرادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرًا محقَّقًا مفروغًا عنه غنيًّا عن الإخبار بوقوعه، وأنّ[١] ما هي عليه مِن الأفاعيل لأجل تحقيق جزائها، فهي تريد إيقاعه[٢] حسبما يقتضيه قانون الإيالة. وفي إبهام المريد تهويلٌ لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونًا مطّردًا في حقّ كلّ أحد كائنًا مَن كان، وفي ذكرِ نفسها بعنوان أهليّة العزيز إعظامٌ للخَطْب وإغراءٌ له على تحقيق ما تتوخّاه بحُكم الغضب والحميّة.

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف وجواب عمّا يقال: فماذا قال يوسف حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ أي: طالبتني للمُواتاة، لا أنّي أردت بها سوءًا كما قالت. وإنّما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عمّا أسندَ إليه مِن الخيانة وعدمِ معرفة حقّ السيّد،

---

[١] وفي هامش م: عطفٌ على وقوعه. والمعنى: أنّها جعلت الإرادة المذكورة محقّقةً غنيّةً عن الإخبار بوقوعها، ويكون أفعالها -مِن سعيها خلفه عليه السلام وغيره- لأجل تحقيق جزائها. «منه».

[٢] وفي هامش م: أي: إيقاعَ جزائها. «منه».

ودفعِ ما عرّضته له مِن الأمْرَين الأمَرَّين. / وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون [١٩٣و] الخطاب أو اسم الإشارة مراعاة لحسن الأدب مع الإيماء إلى الإعراض عنها.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل:[١] هو ابن عمّها. وقيل: هو الذي كان جالسًا مع زوجها لَدَى الباب. وقيل: كان حكيمًا يرجع إليه الملِك ويستشيره. وقد جُوّز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها مِن حيث لا تشعر، فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحقّ. وإنّما ألقى الله سبحانه الشهادة إلى مَن هو مِن أهلها ليكون أدلَّ على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة.

وقيل: كان الشاهد ابنَ خال لها صبيًّا في المهد، أنطقه الله تعالى ببراءته، وهو الأظهر، فإنّه رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٢] قال: «تكلّم أربعة وهم صِغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى عليه السلام»، رواه الحاكم[٣] عن أبي هريرة، وقال: صحيح على شرط الشيخين.[٤] وذِكر كونه مِن أهلها لبيان الواقع، إذ لا يختلف الحال في هذه الصورة بين كون الشاهد مِن أهلها أو مِن غيرهم.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: إن عُلم أنّه قُدَّ مِن قَبْلُ مِن قُبُلٍ. ونظيره: إن أحسنتَ إليّ فقد أحسنتُ إليك فيما قَبْلُ، فإنّ معناه: إن تعتدَّ بإحسانك إليّ فأعتدُّ بإحساني السابق إليك.

---

[١] س: وقيل.

[٢] م - وسلّم.

[٣] هو محمّد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبّي النيسابوري، الشهير بالحاكم، أبو عبد الله (ت. ٤٠٥هـ/١٠١٤م)، مِن أكابر حفّاظ الحديث، والمصنّفين فيه. مولده ووفاته في نيسابور. رحَل إلى العراق، وجالَ في بلاد خراسان وما وراء النهر، وأخذ عن نحو ألفَي شيخ. ووَلِي قضاء نيسابور، ثمّ قُلِّد قضاء جرجان، فامتنع. وهو مِن أعلم الناس بصحيح الحديث وتمييزه عن سقيمه. صنّف كتبًا كثيرة، قال ابن عساكر: «وقع مِن تصانيفه المسموعة في أيدي الناس ما يبلغ ألفًا وخمسمائة جزء». منها: تاريخ نيسابور، قال فيه السبكي: «وهو عندي مِن أعود التواريخ على الفقهاء بفائدة، ومَن نظَره عرَف تفنُّن الرجل في العلوم جميعها»، والمستدرَك على الصحيحين، والإكليل، والمدخل في أصول الحديث، وتراجم الشيوخ، وفضائل الشافعي، وتسمية مَن أخرجهم البخاري ومسلم، ومعرفة أصول الحديث وعلومه وكتبه. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٦٢/١٧؛ والأعلام للزركلي، ٢٢٧/٦.

[٤] المستدرك للحاكم، ٦٥٠/٢ (٤١٦١).

﴿فَصَدَقَتْ﴾ بتقدير "قد"؛ لأنّها تُقرِّب الماضي إلى الحال، أي: فقد صدقَت، وكذا الحال في قوله: ﴿فَكَذَبَتْ﴾.[١] وهي وإن لم تصرّح بأنّه عليه السلام أراد بها سوءًا إلّا أنّ كلامها حيث كان واضِحَ الدلالة عليه أُسند إليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار، فإنّهما كما يَعرضان للكلام باعتبار منطوقه يَعرضان له باعتبار ما يستلزمه، وبذلك الاعتبار يعتريان للإنشاءات.

[١٩٣ظ] ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وهذه الشرطيّة / -حيث لا ملازمة عقليّةً ولا عاديّةً بين مقدَّمها وتاليها- ليست مِن الشهادة في شيء، وإنّما ذُكرت توسيعًا للدائرة وإرخاءً للعَنان إلى جانب المرأة بإجراءِ ما عسى يحتمله الحال في الجملة -بأن يقع القَدّ مِن قُبُلٍ بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند إرادته المخالطة والتكشّف- مُجرى الظاهر الغالب الوقوعِ تقريبًا لِما هو المقصود بإقامة الشهادة -أعني: مضمون الشرطيّة الثانية التي هي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾- إلى التسليم والقبول عند السامع؛ لكونه أقربَ إلى الوقوع وأدلَّ على المطلوب، وإن لم يكن بين طرفَيها أيضًا ملازمة.

وحكاية الشرطيّة بعد فعل الشهادة لكونها مِن قبيل الأقوال، أو بتقدير القول، أي: شهد قائلًا... إلخ.

وتسميتها شهادة مع أنّه لا حكمَ فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤدّاها؛ بل لأنّها شهادة على الحقيقة، وحُكمٌ بصدقه وكذبها. أمّا على تقدير كون الشاهد هو الصبيّ فظاهر، إذ هو إخبار بهما مِن قِبَل علّام الغيوب، والتصويرُ بصورة الشرطيّة للإيذان بأنّ ذلك ظاهر مِن العلائم أيضًا. وأمّا على تقدير كونه غيرَه فلِأنّ الظاهر أنّ صورة الحال[٢] معلومةٌ له على ما هي عليه، إمّا مشاهدةً أو إخبارًا، فهو مُتَيقِّن بعدم مقدَّم الشرطيّة الأولى، وبوجودِ مقدَّم الشرطيّة الثانية، ومِن ضرورته الجزمُ بانتفاءِ تالي الأولى، وبوقوع تالي الثانية، فإذن هو إخبار بكذبها وصدقِه عليه السلام، لكنّه ساق شهادته مَساقًا مأمونًا مِن الجرح والطعن حيث صوّرها بصورة الشرطيّة المتردّدة ظاهرًا بين نفعها ونفعه.

---

[١] في الآية التالية.

[٢] وفي هامش م: مِن قدِّ القميص مِن دُبر.

وإمّا حقيقةً،[1] فلا تردّد فيها قطعًا؛ لأنّ الشرطيّة / الأولى تعليق لِصِدقها بما [١٩٤و] يستحيل وجوده مِن قدِّ القميص مِن قُبُل، فيكون مُحالًا لا محالةَ، ومِن ضرورته تقرّر كذبها. والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقَّقِ الوجود، وهو القدّ مِن دُبُر، فيكون محققًا البتّة. وهذا كما قيل فيمَن قال لامرأة: "زوّجيني نفسَكِ"، فقالت: "لي زوج"، فكذّبها في ذلك، فقالت: "إن لم يكن لي زوج فقد زوّجتُكَ نفسي"، فقَبِل الرجل، فإذًا لا زوجَ لها فهو نكاح،[2] إذ تعليق الشيء بأمرٍ مقرَّر تنجيز له.

وقُرئ: "مِن قُبُلُ" و"مِن دُبُرُ" بالضمّ؛[3] لأنهما قُطِعا عن الإضافة، كقَبلُ وبَعدُ. وبالفتح،[4] كأنّهما جُعلا علَمين للجهتين، فمُنعا الصرفَ للتأنيث والعلميّة. وقُرئ بسكون العين.[5]

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ۝٢٨﴾

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ كأنّه لم يكن رأى ذلك بعدُ، أو لم يتدبّره، فلمّا تنبّه له وعلِم حقيقة الحال ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: الأمر الذي وقع فيه التشاجر، وهو عبارة عن إرادة السوء التي أُسنِدَت إلى يوسف وتدبيرِ عقوبته بقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾... إلى آخره،[6] لكن لا مِن حيث صدور تلك الإرادة والإسناد عنها؛ بل مع قطع النظر عن ذلك؛ لئلّا يخلوَ قوله تعالى: ﴿مِن كَيۡدِكُنَّ﴾ -أي: مِن جنس حِيلتكنّ ومَكركنّ أيّتها النساءُ، لا مِن غيركنّ- عن الإفادة.

---

١ السياق: إمّا مشاهدةً أو إخبارًا... وإمّا حقيقةً...

٢ هذا على مذهب الإمام أبي حنيفة. انظر: **البحر الرائق** لابن نجيم، ٦/٢٠٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر والجارود بن أبي سبرة ونوح وابن أبي إسحاق. **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٣/٢٣٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٤.

٥ أي: بسكون الباء منهما. قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بإسكان الباءين والتنوين، ورُويت عن أبي عمرو. ورُوي عن نوح القاري أنّه أسكن الباءين وضمّ الأواخر ولم ينوّن، ورواها عن ابن أبي إسحاق عن يحيى بن يعمر. **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٣/٢٣٦.

٦ يوسف، ١٢/٢٥.

وتدبير العقوبة وإن لم يكن تجريدُه عن الإضافة إليها إلّا أنّها لمّا صوّرَتْه بصورة الحقّ أفاد الحُكم بكونه مِن كيدهنّ إفادة ظاهرة، فتأمّل. وتعميم الخطاب للتنبيه على أنّ ذلك خُلقٌ لَهنّ عَرِيقٌ:

ولا تحسَبا هِندًا لَها الغدر وحدَها سجيّةَ نفسٍ، كلُّ غانيةٍ هندُ[1]

ورَجعُ الضمير إلى قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ فقط[2] عدولٌ عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع مِن أنّ إرادة السوء ممّن هي إلى البحث عن شُعبة مِن شُعَبه. وجعلُه للسوء أو للأمر المعبَّر به عن طمعها في يوسف عليه السلام[3] يأباه الخبر، فإنّ الكيد يستدعي أن يعتبر مع ذلك هَنَاتٌ[4] أُخرُ مِن قِبَلها كما أشرنا إليه.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإنّه ألطف وأعلَق بالقلب، وأشدّ تأثيرًا في النفس. وعن بعض العلماء: أنا أخاف مِن النساء ما لا أخاف مِن الشيطان، / فإنّه تعالى يقول: [١٩٤ظ] ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء، ٧٦/٤]، وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ولأنّ الشيطان يوسوس مسارقةً، وهنّ يواجِهن به الرجال.[5]

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يُوسُفُ﴾ حُذف عنه حرف النداءِ لقربه وكمال تفطّنِه للحديث. وفيه تقريب له وتلطيف لمحلّه. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: عن هذا الأمر وعن التحديث به واكتمه، فقد ظهر صدقك ونزاهتك. ﴿وَٱسْتَغْفِرِي﴾ أنتِ يا هذه ﴿لِذَنۢبِكِ﴾ الذي صدر عنكِ وثبَت عليكِ.

﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ مِن جملة القوم المتعمِّدين للذنب، أو مِن جنسهم. يقال: خطِئ إذا أذنب عمدًا. وهو تعليل للأمر بالاستغفار. والتذكير لتغليب الذكور على الإناث. وكان العزيز رجلًا حليمًا فاكتفى بهذا القدر مِن مؤاخذتها. وقيل: كان قليل الغَيرة.

---

[1] لأبي تمّام في ديوانه بشرح التبريزي، ص ٨١.
[2] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦١/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦١/٣.
[3] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦١/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦١/٣.
[4] هَنَات: جمع هَنٍ على وزن أخ: كلمة كناية، ومعناه: شيء. انظر: **الصحاح** للجوهري، «هنو».
[5] **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦١/٢.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ أي: جماعة مِن النساء، وكنّ خمسًا: امرأة الساقي، وامرأة الخبّاز، وامرأة صاحب الدوابّ، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب.[1] والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيثه غير حقيقي، كتأنيث اللُّمَةِ؛ وهي اسم لجماعة النساء، والثُّبَةِ؛ وهي اسم لجماعة الرجال، ولذلك لم يَلحق فعلَه تاءُ التأنيث.

﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ ظرف لـ﴿قَالَ﴾، أي: أشعنَ الأمر في مصر. أو صفة لـ﴿نِسْوَةٌ﴾.

﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الملِك، يُردن قطفيرَ. وإضافتهنّ لها إليه بذلك العنوان دون أن يُصرّحن باسمها أو اسمه ليست لقصد المبالغة في إشاعة الخبر بحكم أنّ النفوس إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أميَل كما قيل،[2] إذ ليس مرادهنّ تفضيح العزيز؛ بل هي لقصد الإشباع في لومها بقولهنّ: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ أي: تطالبه بمواقعته لها، وتتمحّل في ذلك وتخادعه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾. وقيل: تطلب منه الفاحشة.

وإيثارهنّ لصيغة المضارع / للدلالة على دوام المراودة. والفتى مِن الناس: [١٩٥و] الشابّ، وأصله: فَتَيٌ؛ لقولهم: فَتَيان، والفُتوّة شاذّة، وجمعه فِتْية وفِتْيان، ويستعار للمملوك، وهو المراد هنهنا، وفي الحديث: «لا يقُل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي أو فتاتي».[3]

وتعبيرهنّ عن يوسف عليه السلام بذلك مضافًا إليها لا إلى العزيز الذي لا يستلزم الإضافةُ إليه الهوانَ؛ بل ربّما يُشعر بنوع عزّةٍ؛ لإبانة ما بينهما مِن التباين البيّن الناشئ عن المالكيّة والمملوكيّة. وكلّ ذلك لتربية ما مرّ مِن المبالغة والإشباع في اللَوم، فإنّ مَن لا زوج لها مِن النساء أو لها زوج دنيء قد تُعذَر في مراودة الأخدان، لا سيّما إذا كان فيهم علوّ الجناب، وأمّا التي لها زوج

---

[1] قاله مقاتل. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٦/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٦٢/٢.

[2] قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٢٦٦/٦.

[3] صحيح البخاري، ١٥٠/٣ (٢٥٥٢)؛ صحيح مسلم، ١٧٦٤/٤ (٢٢٤٩).

-وأيُّ زوجٍ؛ عزيزُ مصرَ- فمراودتها لغيره لا سيّما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلًا وتماديها في ذلك غايةُ الغيّ ونهاية الضلال.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: شقَّ حبُّه شِغافَ قلبها -وهو حجابُه، أو جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب- حتّى وصل إلى فؤادها.

وقُرئ: "شَعَفَهَا" بالعين،[1] مِن شعَفَ البعيرَ إذا هنَأَه[2] فأحرقه بالقَطِران. وعن الضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «الشغَف: الحبّ القاتل، والشعَف: حبّ دون ذلك».[3] وكان الشعبي يقول: «الشغَف: حبّ، والشعَف: جنون».[4]

والجملة خبر ثانٍ، أو حال مِن فاعل ﴿تُرَاوِدُ﴾، أو مِن مفعوله. وأيًّا ما كان فهو تكرير للّوم وتأكيد للعذْل ببيان اختلال أحوالها القلبيّة كأحوالها القالَبيّة. وجعلُها تعليلًا لدوام المراودة[5] مِن حيث الإنّيّة[6] مصيرٌ إلى الاستدلال على الأجلى بالأخفى، ومِن حيث اللمّيّة ميل إلى تمهيد العذر مِن قِبلها، ولَسْنَ بذاك المقام. وانتصاب ﴿حُبًّا﴾ على التمييز لنقله عن الفاعليّة، إذ الأصل: قد شغفها حُبُّه، كما أشيرَ إليه.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ أي: نعلمها علمًا متاخِمًا للمشاهدة والعيان فيما صنعَتْ مِن المراودة والمحبّة المفرطة مستقرّةً ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن طريق الرشد والصواب أو سنن العقل ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح لا يخفى كونه ضلالًا على أحد، أو مُظهر لأمرها بين الناس. فالجملة مقرّرة لمضمون الجملتين السابقتين المَسوقتين للّوم والتشنيع، وتسجيلٌ عليها بأنّها في أمرها على خطأ عظيم. وإنّما لم يقلن: إنّها لفي ضلال مبين؛

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والزهري والأعرج والشافعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٥.

[2] هنَأت البعيرَ أهنُؤه، إذا طليتُه بالهِناء، وهو القَطِران. الصحاح للجوهري، «هنأ».

[3] تفسير ابن أبي حاتم، ٢١٣١/٧؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ٥٢٧/٤.

[4] تفسير ابن أبي حاتم، ٢١٣١/٧؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٣٨/٣.

[5] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٦٦/٦.

[6] قال الخادمي: «اعلم أنّ البرهان إمّا لِمّي إن كان الاستدلال مِن العلّة إلى المعلول، وإمّا إنّي إن كان المعلول إلى العلّة. وإن شئت قلت: إن كان الوسط علّة في الذهن والخارج فلِمّي، وإن كان في الذهن دون الخارج فإنّي، كالاستدلال بالنار على الدخان في اللِّمّي، وبالدخان على النار في الإنّي، كالاستدلال بالأثر على المؤثّر». بَريقة محموديّة للخادمي، ١٤٨/١.

إشعارًا بأنّ ذلك الحكم غير صادر عنهنّ مجازفةً؛ بل عن علم ورأي مع التلويح بأنّهنّ متنزِّهات عن أمثال ما هي عليه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهنّ وسُوء قالَتِهنّ وقولِهنّ: امرأة العزيز عشِقَت عبدَها الكنعاني، وهو مَقَتَها.[1] وتسميته "مكرًا" لكونه خُفيةً منها كمكر الماكر، وإن كان ظاهرًا لغيرها. / وقيل: استكْتَمَتْهنّ سرّها فأفْشَيْنه عَلَيْها. وقيل: إنّما قلن ذلك لِتُرِيَهُنَّ يوسفَ عليه السلام. [١٩٥ظ]

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهنّ، قيل: دَعَتْ أربعين امرأة، منهنّ الخمس المذكورات، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي: أحضرت وهيّأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: ما يتّكِئن عليه مِن النمارق والوسائد، أو رتّبت لهنّ مجلس طعام وشراب؛ لأنّهم كانوا يتّكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترَفين، ولذلك نُهِي الرجلُ أن يأكل متّكِئًا.[2] وقيل: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ طعامًا، مِن قولهم: اتّكأنا عند فلان، أي: طَعِمنا، قال جميل:[3]

فظَلِلْنا بنعمةٍ واتّكأنا وشرِبْنا الحلال مِن قُلَلِهْ[4]

وعن مجاهد: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ طعامًا يُحزّ حزًّا، كأنّ المعنى يُعْتَمَدُ بالسكّين عند القطع؛ لأنّ القاطع يتّكِئ على المقطوع بالسكّين.

---

١ وفي هامش م: أبغضها بغضًا شديدًا.

٢ عن أبي جحيفة: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا آكل متّكئًا». **صحيح البخاري**، ٧٢/٧ (٥٣٩٨).

٣ هو جميل بن عبد الله بن مَعمر العذري القضاعي، أبو عمرو (ت. ٨٢هـ/٧٠١م)، شاعر مِن عشّاق العرب. افتتَنَ ببثينة مِن فتيات قومه، أحبّها وهو صغير، فلمّا كبر خطبها فرُدّ عنها، فقال الشعر فيها، شعره يذوب رِقّة، أقلُّ ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر. وكانت منازل بني عُذرة في وادي القرى مِن أعمال المدينة، ورحلوا إلى أطراف الشام الجنوبيّة، فقصَد جميل مصر وافدًا على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه عبد العزيز وأمر له بمنزل، فأقام قليلًا ومات فيه. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٤٣٦/١؛ **وتاريخ الإسلام** للذهبي، ١٠٦٨/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ١٣٨/٢.

٤ **ديوان جميل بثينة**، ص ١٨٨.

وقُرئ بغير همز.[١] وقُرئ بالمدّ بإشباع حركة الكاف،[٢] كمُنتَزاح في مُنتزَح، ويَنْباع في يَنبَع. وقُرئ: "مُتْكًا"،[٣] وهو الأُترُجّ، وأنشد:

وأهــــدَت مُـتْـكـةً لبـني أبيـهـا تَـخُـبُّ بـهـا العَـثَـمْـثَـمَـةُ الـوَقـاحُ[٤]

أو ما يُقطع، مِن "مَتَكَ الشيءَ" إذا بتَكَه. و"مَتْكأً"[٥] مِن تَكِئ إذا اتّكأ.

﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ لتَستعمِله في قطع ما يُعهَد قطعه ممّا قُدِّمَ بين أيديهنّ وقُرِّب إليهنّ مِن اللحوم والفواكه ونحوها وهنّ متّكئات، وغرضها مِن ذلك ما سيقع مِن تقطيع أيديهنّ.

﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف وهنّ مشغولات بمعالجة السكاكين وإعمالها فيما بأيديهنّ مِن الفواكه وأضرابها، والعطف بالواو ربّما يشير إلى أنّ قولها: ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ﴾ -أي: ابْرُزْ لهُنّ- لم يكن عقيب ترتيب أمورهنّ ليتمّ غرضها مِن استِغفالِهنّ.

[١٩٦و] ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ﴾ / عطف على مقدّر يستدعيه الأمر بالخروج، وينسحب عليه الكلام، أي: فخرج عليهنّ فرأينه، وإنّما حُذف تحقيقًا لمفاجأة رؤيتهنّ، كأنّها تفوت عند ذكر خروجه عليهنّ، كما حُذف لتحقيق السرعة في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ بعد قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ [النمل، ٢٧/٤٠]. وفيه إيذان بسرعة امتثاله عليه السلام لأمرها فيما لا يشاهد مضرّته مِن الأفاعيل.

﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ عظّمنه وهِبْنَ حُسْنَه الفائقَ وجمالَه الرائع الرائق، فإنّ فضل جماله على جمال كلّ جميل كان كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب.

---

١ أي: "مُتَّكًا". قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن عمر رضي الله عنهم ومجاهد وقتادة والضحّاك والجحدري والكلبي وإبان بن تَغلب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٦٨.

٤ أنشده الزمخشري في الكشّاف، ٢/٤٦٤. قال: «وكانت أهدَت أُترُجّة على ناقة». و"العَثَمْثَمَةُ": الناقة الصلبة، و"الوَقاحُ": شديد الحافر. انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٨/٣١٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٦٤.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر».[١] وقيل: كان يُرى تلألؤ وجهه على الجُدران كما يرى نور الشمس من الماءِ عليها،[٢] وقيل: معنى "أكبَرْن": حِضْنَ، والهاء للسكت، أو ضمير راجع إلى يوسف عليه السلام على حذف اللام، أي: حِضنَ له مِن شدّة الشبَق، كما قال المتنبّي:[٣]

خَفِ الله واستُر ذا الجمالَ ببُرقُعٍ فإن لُحْتَ حاضتْ في الخُدور العواتِقُ[٤]

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جرَحنها بما في أيديهنّ مِن السكاكين لفرط دهشتهنّ وخروج حركات جوارحهنّ عن منهاج الاختيار والاعتياد حتّى لم يعلمنَ ما فعلنَ. وفي التعبير عن الجرح بالقطع ما لا يخفى مِن الدلالة على كثرة جرحهنّ، ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا له سبحانه عن صفات النقص والعجز، وتعجّبًا مِن قدرته على مثل ذاك الصنع البديع. وأصلُه: "حَاشَا" كما قرأه أبو عمرو في الدَّرْج،[٥] فحُذفت ألفه الأخيرة تخفيفًا. وهو حرف جرّ يفيد معنى / التنزيه في باب الاستثناء، فلا يستثنى به إلّا ما يكون موجِبًا للتنزيه، فوضع موضعه، فمعنى "حَاشَا اللهِ": تنزيهُ اللهِ وبراءةُ اللهِ، وهي[٦] قراءة ابن مسعود.[٧] [١٩٦ظ]

---

١ نحوه في جامع البيان للطبري، ١٤/٤٣٦؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢١٨. وأخرجه كذلك الحاكم في المستدرك، ٢/٦٢٣.

٢ ط س - عليها.

٣ هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجُعفي الكوفي الكِندي، أبو الطيّب المتنبّي (ت. ٣٥٤هـ/٩٦٥م)، الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب مَن يعدّه أشعرَ الإسلاميّين. وُلد بالكوفة في محلّة تسمّى "كِندة" وإليها نسبته. ونشأ بالشام، ثمّ تنقّل في البادية يطلب الأدبَ وعلم العربيّة وأيّام الناس. وقال الشعر صبيًّا. أمّا ديوان شعره فمشروح شروحًا وافية. وقد جمع الصاحب ابن عبّاد لفَخر الدولة نخبة مِن أمثال المتنبّي وحِكمه. وتبارى الكتّاب قديمًا وحديثًا في الكتابة عنه، فألّف الجُرجاني الوساطة بين المتنبّي وخصومه، والثعالبي أبو الطيّب المتنبّي وما له وما عليه. انظر: يتيمة الدهر للثعالبي، ١/١٣٩؛ ونزهة الألبّاء للأنباري، ص ٢١٩؛ والأعلام للزركلي، ١/١١٥.

٤ ديوان المتنبّي، ص ٢٦٤، بلفظ: فإن لُحْتَ ذابت... قال القاضي الجرجاني: «لمّا أُنكِر عليه "حاضت" غيّره فجعله "ذابت"». الوَساطة للجرجاني، ص ٩٠.

٥ قرأ أبو عمرو بألف بعد الشين وصلًا، وحذفها وقفًا. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

٦ وفي هامش م: أي: "حَاشَا اللهِ" بالإضافة.

٧ قراءة شاذّة، وهي مرويّة كذلك عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٥.

و"اللام" لبيان المنزَّه والمبرَّأ كما في "سُقيًا لك". والدليل على وضعه موضع المصدر قراءةُ أبي السَّمّال:[١] "حَاشًا" بالتنوين،[٢] وقراءةُ أبي عمرو بحذف الألف الأخيرة،[٣] وقراءةُ الأعمش بحذف الأولى،[٤] فإنّ التصرّف مِن خصائص الاسم، فيدلّ على تنزيله منزلته. وعدمُ التنوين لمراعاة أصلِه، كما في قولك: جلست مِن عن يمينه، وقوله:

غــــــدَت مِـــــن عَــلَـــيْـــه[٥]

منقَلِبَ الألف إلى الياء مع الضمير. وقُرئ: "حَاشْ للهِ" بسكون الشين[٦] إتباعًا للفتحةِ الألفَ في الإسقاط. و"حَاشَ الإلَهِ".[٧]

وقيل: ﴿حَٰشَ﴾ "فاعَلَ" مِن "الحَشا" الذي هو الناحية، وفاعله ضمير يوسف، أي: صار في ناحيةٍ مِن أن يُقارف ما رمته به، ﴿لِلَّهِ﴾ أي: لطاعته، أو لمكانه؛ أو جانَبَ المعصيةَ لأجل الله.

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ على إعمال ﴿مَا﴾ بمعنى "ليس"، وهي لغة أهل الحجاز؛ لمشاركتهما في نفي الحال. وقُرئ: "بَشَرٌ"[٨] على لغة تميم، و"بِشِرًى"،[٩] أي: بعبد مَشْريّ لئيم.

---

[١] هو قَعنب بن أبي قَعنب أبو السَّمّال -بفتح "السين" وتشديد "الميم" وبـ"اللام"- العدوي البصري، له اختيار في القراءة شاذّ عن العامة رواه عنه أبو زيد سعيد بن أوس، وأسند الهُذلي قراءة أبي السَّمّال عن هشام البربري عن عبّاد بن راشد عن الحسن عن سمرة عن عمر. وهذا سند لا يصحّ. **غاية النهاية** لابن الجزري، ٢/٢٧.

[٢] قراءة شاذّة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٦٥.

[٣] أي: في حالة الوقف.

[٤] قراءة شاذّة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٦٥.

[٥] وفي هامش م: تمامه:

...بــعـــدَ مـــا تـــمّ ظَــمْـؤهـا
تَصِلُ وعن قَيضٍ بِبيداءَ مَجهلِ

«منه». | وهو مِن قول مُزاحم العقيلي، يصف قَطاة في أشدّ أحوالها وحاجتها إلى الطيران مِن عطشها وحاجة فرخها إلى الريّ؛ لأنّها غدت في اليوم الخامس مِن شربها وجوفها يصوّت مِن يبَسه وبُعد عهده عن الماء. انظر: **المقاصد النحويّة** للعيني، ٣/١٢٤٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٥.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٥.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٦٥.

[٩] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي الحُويرث المدني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٦.

نَفَينَ عنه البشريّة لِما شاهدن فيه مِن الجمال العبقري الذي لم يُعهَد مثالُه في البشر، وقصَرنَه على الملَكيّة بقولهنّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بناءً على ما رُكِزَ في العقول مِن أن لا حيَّ أحسن مِن الملَك كما رُكّب فيها أن لا أقبحَ مِن الشيطان، ولذلك لا يزال يُشبَّهُ بهما كلُّ متَناهٍ في الحسن والقبح، وغرضُهنّ وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ﴾ الفاء فصيحة. / والخطاب للنسوة. والإشارة إلى يوسف بالعنوان الذي وصَفْنَه به الآنَ مِن الخروج في الحسن والجمالِ عن المراتب البشريّة والاقتصار على الملَكيّة، فاسم الإشارة مبتدأ، والموصول خبره. [١٩٧و]

والمعنى: إن كان الأمر كما قلتنّ فذلكنّ الملَك الكريم النائي عن المراتب البشريّة هو ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: عَيَّرتُنَّنِي في الافتِتان به، حيث رَبَأْتُنَّ بمحلّي بنسبتي إلى العزيز، ووضعتنّ قدره بكونه مِن المماليك.

أو بالعنوان[١] الذي وصفنه به فيما سبق بقولهنّ: امرأةُ العزيز عشقت عبدَها الكنعاني. فهو خبر لمبتدأ محذوف، أي: فهو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتنّ في أنفسكنّ وقلتُنّ فيه وفيّ ما قلتنّ، فالآن قد علِمتُنّ مَن هو وما قولكنّ فينا.

وأمّا ما يقال: تعني أنكنّ لم تصوّرنه بحقّ صورته، ولو صوّرتُنّه بما عاينتُنّ لعَذرتُنّني في الافتتان به؛[٢] فلا يلائم المقام، فإنّ مرادها بدعوتِهنّ وتمهيد ما مَهّدَتْهُ لهنّ تبكيتُهنّ وتنديمُهنّ على ما صدَر عنهنّ مِن اللّوم، وقد فعلت ذلك بما لا مزيد عليه، وما ذُكر مِن المَقال فحقّ المُعتذر[٣] قبل ظهور معذرته.

---

١ السياق: والإشارة إلى يوسف بالعنوان... أو بالعنوان...

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٦٧/٢.

٣ وفي هامش م: أو الذي يلقّنُهنّ العذر. «منه».

وقد قيل في تعليل الملَكيّة: أنّ الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعِصمة البالغة مِن الخواصّ الملَكيّة،[١] وهو أيضًا لا يلائم قولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾، فإنّ عنوان العِصمة ممّا ينافي تمشيةَ مَرامها.

ثمّ بعد ما أقامت عليهنّ الحجّة وأوضحت لديهنّ عذرها وقد أصابَهُنّ مِن قِبَله عليه السلام ما أصابَها / بَاحَتْ لَهُنَّ ببَقِيّة سرِّها فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ حسبما قلتُنّ وسمعتُنّ ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ امتنع طالبًا للعصمة. وهو بناء مبالغة يدُلّ على الامتناع البليغ والتحفّظ الشديد، كأنّه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها، كما في استمسك واستجمع الرأيَ. وفيه برهان نيّر على أنّه لم يصدر عنه عليه السلام شيء مخلّ باستعصامه بقوله: ﴿معاذ الله﴾ مِن الهمّ وغيره. [١٩٧ظ]

اعترفَتْ لهنّ أوّلًا بما كنّ يسمَعنه مِن مراودتها له، وأكّدتْه إظهارًا لابتهاجها بذلك، ثمّ زادت على ذلك أنّه أعرض عنها على أبلغ ما يكون، ولم يمِل إليها قطّ، ثمّ زادت عليه أيضًا أنّها مستمرّة على ما كانت عليه غيرُ مُرْعَوِيةٍ عنه، لا بلوم العواذل، ولا بإعراضِ الحبيب، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي: آمر به فيما سيأتي، كما لم يفعل فيما مضى. فحُذف الجارّ، وأُوصل الفِعلُ إلى الضمير، كما في "أمرتك الخيرَ"، فالضمير للموصول. أو أمري إيّاه،[٢] أي: موجَبَ أمري ومقتضاه، فـ﴿مَا﴾ مصدريّة، والضمير ليوسف، وعبّرت عن مراودتها بالأمر إظهارًا لِجريان حكومتها عليه، واقتضاءً للامتثال بأمرها.

﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بالنون المثقّلة. آثرت بناءَ الفعل للمفعول جريًا على رَسْمِ الملوك، أو إيهامًا لسُرعة ترتّب ذلك على عدم امتثاله بأمرها،[٣] كأنّه لا يدخل بينهما فِعل فاعلٍ. ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالمخفّفة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الأذلّاء في السِجن.

وقد قُرئ الفعلان بالتثقيل،[٤] ولكنّ المشهورة أولى؛ لأنّ النون كتبت في المصحف ألِفًا على حكم الوقف.

---

١ قاله البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ١٦٢/٣.

٢ وفي هامش م: يوسف.

٣ س: لأمرها.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها الزجّاج بغير نسبة ونقلها الكرماني عنه. انظر: **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ١٠٨/٣؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٦.

و"اللام" الداخلة على حرف الشرط موطّئة للقسم، وجوابه سادّ مَسدّ الجوابين. ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوي على فنون التأكيد بمَحضر منهنّ ليعلم يوسف أنّها ليست في أمرها على خُفية ولا خِيفة مِن أحدٍ، فتَضِيقَ عليه الحِيلُ ويَعْيى بهِ العِلَلُ، وينصَحْنَ له ويُرشِدْنَه إلى مُوافَقَتِها.

ولمّا كان هذا الإبراقُ والإرْعَادُ منها مظِنّةً لِسؤال سائل يقول: فما صنَع يوسف حينئذ؟ قيل: ﴿قَالَ﴾ مناجيًا لربّه عزّ سلطانه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ﴾ الذي أَوْعدَتْني بالإلقاءِ فيه. وقرأ يعقوبُ بالفتح[1] على المصدر. ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي: آثَرُ عِندي؛ لِأنّه مشقّة قليلة نافذة، / إثرَها راحات جليلة أبديّة. ﴿مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [١٩٨و] مِن مواتاتها التي تؤدّي إلى الشقاء والعذاب الأليم.

وهذا الكلام منه عليه السلام مبنيّ على ما مرّ مِن انكشاف الحقائق لديه وبروز كلّ منها بصورتها اللائقة بها، فصيغة التفضيل ليست على بابها، إذ ليس له شائبة محبّةٍ لِما دعته إليه، وإنّما هو والسجنُ شرّان أهونهما وأقربهما إلى الإيثار السجنُ.

والتعبير عن الإيثار بالمحبّة لحسم مادّة طمعها عن المساعدة خوفًا مِن الحبس. والاقتصار على ذكر السجن مِن حيث إنّ الصَّغار مِن فروعه ومستتبعاته. وإسناد الدعوة إليهنّ جميعًا لأنّ النسوة رَغَّبْنَهُ في مطاوعتها، وخوَّفْنه مِن مُخالفتها. وقيل: دعَونه إلى أنفسهنّ. وقيل: إنّما ابتُلِي عليه السلام بالسجن لقوله هذا، وكان الأَولى به أن يسأل الله تعالى العافيةَ، ولذلك ردّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على مَن كان يسأل الصَبر.[2]

﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ﴾ أي: إن لم تصرف ﴿عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه لديّ بأن تُثبّتني على ما أنا عليه مِن العصمة والعفّة ﴿أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ أي: أمِل إلى إجابتهنّ أو إلى أنفسهنّ على قضيّة الطبيعة وحكم القوّة الشهويّة.

---

[1] وفي هامش م: أي: فتح السين. | أي: "السَّجْنُ". انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

[2] عن معاذ بن جبل، قال: سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم رجلًا يدعو يقول: اللّهمّ إنّي أسألك الصبر، فقال: «سألتَ الله البلاء فسَله العافية». سنن الترمذي، ٥/٥٤١ (٣٥٢٧).

وهذا فزَع منه عليه السلام إلى ألطاف الله تعالى جريًا على سَنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عزّ وجلّ، وسلبِ القوى والقُدَرِ عن أنفسهم، ومبالغةٌ في استدعاءِ لطفه في صرف كيدهنّ عنه[1] بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث: أَدركني وإلّا هلكتُ، لا أنّه يطلب الإجبار والإلجاءَ إلى العصمة والعفّة وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهنّ.

والصبوة الميلُ إلى الهوى، ومنه الصَّبا؛ لأنّ النفوس تصبو إليها لطِيب نسيمها ورَوحها. وقُرئ: "أَصَبُّ إِلَيْهِنَّ"[2] مِن الصَّبابة؛ وهي رقّة الشوق.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنّ مَن لا جدوى لعِلمه / فهو والجاهل سواء، أو مِن السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه مِن القبائح؛ لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح. [١٩٨ظ]

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ دعاءَه الذي تضمّنه قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾... إلخ،[3] فإنّ فيه استدعاءً لصرف كيدهنّ على أبلغ وجه وألطفه كما مرّ. وفي إسناد الاستجابة إلى الربّ مضافًا إليه عليه السلام ما لا يخفى مِن إظهار اللطف.

﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ حسب دعائه وثبّته على العِصمة والعفّة. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء المتضرّعين إليه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر للعزيز وأصحابه المتصدّين للحلّ والعقد ريثما اكتفَوا بأمر يوسف بالكتمان والإعراض عن ذلك ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الصارفةَ لهم عن ذلك البَداء، وهي الشواهد الدالّة على براءته عليه السلام. وفاعل ﴿بَدَا﴾ إمّا مصدرُه، أو الرأي المفهوم مِن السياق، أو المصدر المدلول عليه بقوله: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾.

---

١ ط س - عنه.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٦.

٣ في الآية السابقة.

والمعنى: بدا لهم بداء أو رأي أو سَجْنُه المحتومُ قائلين: واللهِ ليسجننّه. فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدَّر حالًا مِن ضميرهم، وما كان ذلك البَداء إلّا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه في الذِّروة والغارب،[1] وكان مِطواعة لها تقوده حيث شاءت.

قال السدّي: «إنّها قالت للعزيز: إنّ هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، يخبرهم بأنّي راودته عن نفسه، فإمّا أن تأذن لي فأخرج فأعتذر إلى الناس، وإمّا أن تحبِسه، فحبَسه».[2]

ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قَرونته[3] لِما انصرمَتْ حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وبأعوانها.

/ وقُرئ: "لَتَسْجُنُنَّهُ"[4] على صيغة الخطاب، بأن خاطب بعضُهم العزيز ومَن يليه، أو العزيزَ وحده على وجه التعظيم، أو خاطب به العزيزُ ومَن عنده مِن أصحاب الرأي المباشرين للسجن والحبس. [١٩٩و]

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى حين انقطاع قالةِ الناسِ، وهذا بادي الرأي عند العزيز وذويه. وأمّا عندها فحتّى يذلّله السجن ويسخّره لها ويحسب الناس أنّه المجرم. وقُرئ: "عَتَّى حِينٍ"،[5] بلغة هذيل.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ أي: في صحبته ﴿ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ مِن فتيان الملِك ومماليكه، أحدهما شرابيّه، والآخر خبّازه.

---

١ قولهم: «فتَل في الذِّروة والغارب» يقال ذلك للرجل لا يزال يخدع صاحبه حتى يظفر به. وذروة البعير: أعلاه، وكذلك ذروة كل شيء. والغارب: مقدّم السنام. **جمهرة الأمثال** للعسكري، ٩٨/٢.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٢٠/٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٩٩/١١.

٣ القَرون والقَرونة والقَرينة والقَرين: النفْس. **لسان العرب** لابن منظور، «قرن».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٨/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: **المحتسب** لابن جنّي، ٣٤٣/١؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٤٦٨/٢.

رُوي أنّ جماعة مِن أهل مصر ضمنوا لهما مالًا ليَسُمّا الملِك في طعامه وشرابه، فأجاباهم إلى ذلك، ثمّ إنّ الساقي نكَل عن ذلك، ومضى عليه الخبّاز فسمّ الخبز، فلمّا حضر الطعام قال الساقي: لا تأكل أيّها الملِك، فإنّ الخبز مسموم، وقال الخبّاز: لا تشرب أيّها الملِك، فإنّ الشراب مسموم. فقال الملِك للساقي: اشرَبه، فشرِبه فلم يضرّه، وقال للخبّاز: كُلْه، فأبى، فجرّب بدابّة، فهلكت، فأمر بحبسهما، فاتّفق أن أُدخِلاه[1] معه.

وتأخير الفاعل عن المفعول لِما مرّ غير مرّة مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر؛ ليتمكّن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكّن. ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً﴾ [الذاريات، ٥١/٢٨]. وتأخير السجن عن الظرف لإيهام العكس؛ أن يكون الظرف / خبرًا مقدَّمًا على المبتدأ، ويكونَ الجملة حالًا مِن فاعل «دَخَلَ»، فتأمّل. [١٩٩ظ]

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال مَن يقول: ما صنَعا بعد ما دخلا معه السجن؟ فأجيب بأنّه «قَالَ أَحَدُهُمَا»[2] وهو الشرابيّ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي: رأيتُني. والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية. ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: عنبًا. سمّاه بما يئول إليه لكونه المقصود مِن العصر. وقيل: الخمر بلغة عُمان اسم للعِنب. وفي قراءة ابن مسعود: "أَعْصِرُ عِنَبًا".[3]

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الخبّاز ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا﴾ تأخير المفعول عن الظرف لِما مرّ آنفًا. وقوله ﴿تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ أي: تنهَس منه، صفة للخبز، أو استئناف مبنيّ على السؤال. ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ بتأويل ما ذُكر مِن الرؤيَيَين، أو ما رُئي، بإجراء الضمير مُجرى "ذلك" بطريق الاستعارة، فإنّ اسم الإشارة يشار به إلى متعدّد كما في قوله:

فيها خطوطٌ مِن سوادٍ وبلَقْ   كأنّه في الجِلد تَوليعُ البَهقْ[4]

أي: كأنّ ذلك.

---

[1] وفي هامش م: أي: السجن. «منه».

[2] وفي هامش م: لكن لا عند دخولهما؛ بل بعد حينٍ كما سيأتي. «منه».

[3] انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٧.

[4] لرؤبة بن العجّاج في ديوانه، ص ١٠٤. "فيها": يعني الأُتُن، وجعل ما فيها مِن البياض بلَقًا. »

والسرّ في المصير إلى إجراء الضمير مُجرى اسم الإشارة -مع أنّه لا حاجة إليه بعد تأويل المَرجع بـ"ما ذُكِر" أو بـ"ما رُئِيَ"- أنّ الضمير إنّما يتعرّض لنفس المَرجع مِن حيث هو مِن غير تعرّض لحالٍ مِن أحواله، فلا يتسنّى تأويله بأحد الاعتبارين إلّا بإجرائه مُجرى اسم الإشارة الذي يدلّ على المشار إليه بالاعتبار الذي جرى عليه في الكلام، فتأمّل.

هذا إذا قالاه معًا، أو قاله أحدهما مِن جهتهما معًا، وأمّا إذا قاله كلّ منهما إثر ما قصّ ما رآه فالخطاب المذكور ليس عبارتَهما، ولا عبارةَ أحدهما مِن جهتهما؛ ليتعدّد المرجع؛ بل عبارةُ كلّ منهما: "نبّئني بتأويله" مستفسِرًا لِما رآه. وصيغة المتكلّم مع الغير واقعة في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣]، فإنّهم لم يخاطَبوا بذلك دفعةً؛ بل خوطب كلّ منهم في زمانه بصيغةٍ مفردةٍ خاصّة به.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ﴾ تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارها / منه عليه السلام ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مِن الذين يجيدون عبارة الرؤيا؛ لِما رأياه يقصّ عليه بعض أهل السجن رؤياه فيئوّلها له تأويلا حسنًا، أو مِن العلماء لِما سَمِعاه يذكر للناس ما يدلّ على علمه وفضله. [٢٠٠و]

أو مِن المحسنين إلى أهل السجن، أي: فأحسن إلينا بكشف غمّتنا إن كنت قادرًا على ذلك. رُوِي أنّه عليه السلام كان إذا مرض منهم رجل قام عليه، وإذا ضاق مكانُه أوسع له، وإذا احتاج جمَع له.[١]

وعن قتادة كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤُهم وطال حزنهم، فجعل يقول: «أبشروا واصبروا تؤجروا»، فقالوا: «بارك الله عليك، ما أحسنَ وجهك؟ وما أحسنَ خُلقك؟ لقد بُورك لنا في جوارك، فمن أنت يا فتى؟» قال: «أنا يوسف ابنُ[٢] صفيّ الله يعقوبَ ابنِ ذبيح الله إسحاقَ ابن خليل الله إبراهيم»،

« والتوليع في البقر وغيرها: خطوط مِن بياض، يقال: بقر مولعة. و"البَهَق": نوع مِن البَرَص إلّا أنّه أخفُّ منه. وقوله: "كأنّه" وحّد الضمير بعد قوله: "فيها خطوط"، لأنّه حمله على الجنس. شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٤٨/٨.

[١] جامع البيان للطبري، ١٥٦/١٣؛ تفسير ابن أبي حاتم، ١٥٦/١٣.

[٢] ط س: بن.

فقال له عامل السجن: «لو استطعت خلّيتُ سبيلك، ولكنّي أُحْسِنُ جوارَك، فكن في أيّ بيوت السجن شئتَ».[١]

وعن الشعبيّ: أنّهما تحالَما له ليمتحناه، فقال الشرابيّ: «أراني في بستان، فإذا بأصل حَبَلة[٢] عليها ثلاثةُ عناقيد مِن عنب، فقطعتُها وعصرتها في كأس الملِك وسقيته»، وقال الخبّاز: «إنّي أراني وفوق رأسي ثلاث سِلال فيها أنواع الأطعمة، وإذا سباع الطير تنهَس منها».[٣]

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧﴾

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ في مقامكما هذا حسب عادتكما المطَّردة ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا يأتيكما طعام في حال مِن الأحوال إلّا حالَ ما نبّأتكما به بأن بيّنت لكما ماهيّته وكيفيّته وسائرَ أحواله[٤] ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ وإطلاق التأويل عليه إمّا بطريق الاستعارة، فإنّ / ذلك بالنسبة إلى مطلَق الطعام المبهَم بمنزلة التأويل بالنظر إلى ما رُئي في المنام وشبيه له. وإمّا بطريق المشاكَلة حسبما وقع في عبارتهما مِن قولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾.[٥] [٢٠٠ظ]

ولا يَبعد أن يُراد بالتأويل الشيء الآيِل، لا المآلُ، فإنّه في الأصل: جعلُ شيء آيِلًا إلى شيء آخر. فكما يجوز أن يُراد به الثاني يجوز أن يُراد به الأوّل. فالمعنى: إلّا نبّأتكما بما يئول إليه مِن الكلام والخبرِ المطابق للواقع. وكان عليه السلام يقول لهما: اليوم يأتيكما طعام مِن صفته كَيت وكَيت، فيَجدانه كذلك.

---

[١] جامع البيان للطبري، ١٥٧/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٣/٥.

[٢] الحَبَلة: شجرة العنب، جمعها حَبَل. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حبل».

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٤٦٩/٢. ونحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه في جامع البيان للطبري، ١٥٣/١٣.

[٤] وفي هامش م: وحاصله إلّا حال كونه منبّأً بتأويله، فهو حال مِن ﴿طَعَامٌ﴾ لتخصّصه بالصفة، أعني: قوله: ﴿تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾. «منه».

[٥] في الآية السابقة.

ومراده عليه السلام بذلك بيان كلّ ما يهمّهما مِن الأمور المترقَّبة قبل وقوعها. وإنّما تخصيص الطعام بالذِّكر لكونه عريقًا في ذلك[١] بحسب الحال، مع ما فيه مِن مراعاة حسن التخلّص إليه ممّا استعبراه مِن الرؤيَيَين المتعلّقتَين بالشراب والطعام.

وقد جُعل الضمير لِما قصّا مِن الرؤيَيَين، على معنى: لا يأتيكما طعام ترزَقانه حسب عادتكما إلّا أخبرتكما بتأويل ما قَصصتما عليّ قبل أن يأتيَكما ذلك الطعام الموقّتُ مرادًا به الإخبار بالاستعجال في التنبئة.

وأنت خبير بأنّ النظم الكريم ظاهر في تعدّد إتيان الطعام والإخبارِ بالتأويل وتجدّدهما، وأنّ المقام مقام إظهار فضله في فنون العلوم بحيث يدخل في ذلك تأويل رؤياهما دخولًا أوّليًا.

وإنّما لم يكتف عليه السلام بمجرّد تأويل رؤياهما مع أنّ فيه دلالة على فضله؛ لأنّهما لمّا نَعَتاهُ عليه السلام بالانتظام في سَمط المحسنين، وأنّهما قد علما ذلك حيث قالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٢] توسّم عليه السلام فيهما خيرًا وتوجّها إلى قبول الحقّ، فأراد أن يَخْرُجَ آثِرَ ذي أثِيرٍ عمّا في عُهدته مِن دعوة الخَلق إلى الحقّ، فمهّد قبلَ الخوض في ذلك مقدّمةً تزيدهما عِلمًا بعِظم شأنه وثقةً بأمره ووقوفًا على علوّ طبقته في بدائع العلوم توسّلًا بذلك إلى تحقيق ما يتوخّاه، وقد تخلّص إليها مِن كلامهما،[٣] فكأنّه قال: تأويل ما قَصَصْتُماه عَلَيّ في طَرَف الثُّمام،[٤] حيث رأيتما مِثاله في المنام، وإنّي أُبيّن لكما كلّ جليل ودقيق مِن الأمور المستقبَلة، وإن لم يكن هناك مقدّمة المنام، حتّى إنّ الطعام الموظّف الذي يأتيكما كلّ يوم أُبيّنه لكما قبل إتيانه.

---

[١] وفي هامش م: أي: في الاهتمام به والترقّب. «منه».

[٢] في الآية السابقة.

[٣] وفي هامش م: كما أشرنا إليه. «منه».

[٤] الثُّمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص، وربما حُشي به وسُدّ به خصاص البيوت، الواحدة ثُمامة. الصحاح للجوهري، «ثمم». والعرب تقول للشيء الذي لا يعسُر تناوله: هو على طرف الثُّمام، وذلك أن الثمام لا يطول فيشقّ تناوله. لسان العرب لابن منظور، «ثمم».

[٢٠١و] ثمّ أخبرهما بأنّ علمه ذلك ليس مِن قَبيل / علوم الكهَنة والعرّافين؛ بل هو فضل إلهي يؤتيه مَن يشاء ممّن يصطفيه للنبوّة، فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيَّبات. ومعنى البعد في "ذلك" للإشارة إلى علوّ درجته وبُعد منزلته. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ بالوحي والإلهام، أي: بعض منه، أو مِن ذلك الجنس الذي لا يحوم حول إدراكه العقول، ولقد دلّهما بذلك على أنّ له علومًا جمّةً، ما سمعاه قطعةٌ مِن جملتها، وشعبة مِن دَوحتها.

ثمّ بيّن أنّ نيل تلك الكرامة بسبب اتّباعه ملّة آبائه الأنبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وهو استئناف وقَع جوابًا عن سؤال نشأ مِن قوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾، وتعليلًا له، لا للتعليم الواقع صلة للموصول؛ لتأديته إلى معنى أنّه ممّا علّمني ربّي لهذا السبب دون غيره، ولا لِمضمون الجملة الخبريّة؛ لأنّ ما ذُكر بصدد التعليل ليس بعلّة؛ لكون التأويل المذكور بعضًا ممّا علّمه ربّه، أو لكونه مِن جنسه؛ بل لنفس تعليم ما علّمه، فكأنّه قيل: لماذا علّمك ربّك تلك العلوم البديعة؟ فقيل: لأنّي تركت ملّة الكفرة، أي: دينَهم الذي اجتمعوا عليه مِن الشرك وعبادة الأوثان.

والمراد بتركِها الامتناع عنها رأسًا كما يُفصح عنه قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، لا تركها بعد ملابستها. وإنّما عبّر عنه بذلك لكونه أَدخَل بحسب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام.

والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الإيمان به للتنصيص على أنّ عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليس بإيمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود، ١١/٤٦].

﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ﴾ وما فيها مِن الجزاء ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ على الخصوص دون غيرهم؛ لإفراطهم في الكفر.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني أنّه إنّما حاز هذه الكمالاتِ

وفاز بتلك الكرامات بسبب أنّه اتّبع ملّة آبائه الكرام، ولم يتّبع ملّة قوم كفروا بالمَبدأ والمَعاد. وإنّما قاله عليه السلام ترغيبًا لصاحِبَيه في الإيمان والتوحيد، / وتنفيرًا لهما عمّا كانا عليه مِن الشرك والضلال. وقدّم ذِكر تركه لملّتهم على ذِكر اتّباعه لملّة آبائه لأنّ التَّخلِية متقدّمة على التَّحلِية. [٢٠١ظ]

﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحّ وما استقام فضلًا عن الوقوع ﴿لَنَا﴾ معاشر الأنبياء؛ لقوّة نفوسنا ووُفور علومنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أيَّ شيء كان مِن مَلَكٍ أو جنّي أو إنسي فضلًا عن الجماد البَحت. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التوحيد المدلول عليه بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: ناشئٌ مِن تأييده لنا بالنبوّة، وترشيحِه إيّانا لِقِيادة الأُمّة وهدايتهم إلى الحقّ. وذلك -مع كونه مِن موجبات التوحيد ودواعيه- نعمةٌ جليلةٌ وفضلٌ عظيمٌ علينا بالذات ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كافّةً بواسطتنا.

وحيث عُبِّر عن ذلك بذلك العنوان عُبِّر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر فقيل: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يوحّدون، فإنّ التوحيد مع كونه مِن آثار ما ذُكر مِن التأييد شكرٌ لله عزّ وجلّ على تلك النعمة. وإنّما وُضع الظاهر مَوضع الضمير الراجع إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لزيادة توضيحٍ وبيانٍ، ولِقطع توهّم رجوعه إلى المجموع[١] المُوهم لعدم[٢] اختصاصِ غير الشاكر بالناس.

وقيل: ذلك التوحيد مِن فضل الله علينا حيث نصَب لنا أدلّةً ننظر فيها ونستدلّ بها على الحقّ. وقد نصَب مثل تلك الأدلّة لسائر الناس أيضًا، ولكنّ أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلّون بها اتّباعًا لأهوائهم فيبقَوْنَ كافرين غير شاكرين.

ولك أن تقول: ذلك التوحيد مِن فضل الله علينا حيث أعطانا عقولًا ومشاعرَ نستعملها في دلائل التوحيد التي مهّدها في الأنفس والآفاق، وقد أعطى سائرَ الناس أيضًا مثلَها، ولكنّ أكثرهم لا يشكرون، أي: لا يَصرِفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خُلِقَت هي له، ولا يستعملونها فيما ذُكر مِن أدلّة التوحيد الآفاقيّة والأنفُسيّة، والعقليّة والنقليّة.

---

[١] وفي هامش م: أي: منهم ومِن الناس.

[٢] ط س: بعدم.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾

[٢٠٢و] ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أي: يا صاحبيَّ في السجن، كما تقول: / يا سارقَ الليلةِ. ناداهما بعنوان الصحبة في مدارِ الأشجان ودارِ الأحزان التي تصفو فيها المودّة وتخلص النصيحة؛ ليُقْبِلا عليه ويَقْبَلا مَقالتَه. وقد ضَربَ لَهما مثلًا يتّضح به الحقّ عندهما حقَّ اتّضاحٍ فقال: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ لا ارتباط بينهم ولا اتّفاق، يَسْتَعْبِدكما[١] كلٌّ منهم حسبما أراد غير مراقب للآخَرين مع عدمِ استقلاله ﴿خَيۡرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ المعبود بالحقّ ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المتفرّد بالألوهيّة ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد.

وبعد ما نبّههما على فساد تعدّدِ الأرباب بيّن لهما سقوطَ آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسًا فضلًا عن الألوهيّة فقال معمِّمًا للخطاب لهما ولمَن على دينهما: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: مِن دون الله شيئًا ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ﴾ فارغةً لا مطابِقَ لها في الخارج؛ لأنّ ما ليس فيه مصداق إطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلًا، فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط.

﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ جعلتموها أسماءً. وإنّما لم يذكر المسمَّيات تربيةً لِما يقتضيه المقام مِن إسقاطِها عن مرتبة الوجود، وإيذانًا بأنّ تسميتهم في البطلان حيث كانت بلا مسمًّى كعبادتهم حيث كانت بلا معبودٍ. ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمحض جهلكم وضلالتكم. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: بتلك التسميةِ المستتبعة للعبادة ﴿مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ مِن حجّة تدلّ على صحّتها.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ في أمر العبادة المتفرّعة على تلك التسمية ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ عزّ سلطانه؛ لأنّه المستحِقّ لها بالذات، إذ هو الواجب بالذات، الموجِد للكلّ، والمالك لأمره. ﴿أَمَرَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ ناشئٍ مِن قوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فكأنّه قيل: فماذا حَكَم الله تعالى في هذا الشأن؟ فقيل: أَمَر على ألسنة

---

[١] س: يستعيدكما.

الأنبياء عليهم السلام ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ أي: بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ حسبما تقضي به قضيّة العقل أيضًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ الثابت المستقيم الذي تعاضدت عليه البراهين عقلًا ونقلًا، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنّ ذلك هو الدين القيّم لجهلهم بتلك البراهين. أو لا يعلمون شيئًا أصلًا، فيعبدون أسماءً سمَّوها مِن تلقاء أنفسهم مُعرِضين عن البرهان العقلي والسلطان النقلي.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾

وبعد تحقيق الحقّ ودعوتهما إليه وبيانِه لهما مقدارَه الرفيعَ ومرتبةَ علمِه الواسع شرَع في تفسير ما استفسراه، ولكونه بحثًا مغايرًا لِما سبق فَصَلَه عنه بتكرير الخطاب، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الشرابي، وإنّما لم يعيّنه ثقةً بدلالة التعبير وتوسّلًا بذلك إلى إبهام أمر صاحبه حِذارَ مشافهته بما يَسُوءهُ. ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ﴾ أي: سيّده ﴿خَمۡرٗا﴾. رُوي أنّه عليه السلام قال له: «ما رأيتَ مِن الكَرمة وحُسنها المَلِكُ وحُسنُ حالك عنده، وأمّا القُضبان الثلاثة فثلاثة أيّام تمضي في السجن، ثمّ تخرج وتَعُودُ إلى ما كنت عليه».[1] وقرأ عِكرمة: "فَيُسْقَى رَبُّهُ"[2] على البناء للمفعول، أي: يُسْقَى مَا يَرْوَى به.

﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الخبّاز ﴿فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾ رُوي أنّه عليه السلام قال له: ما رأيتَ مِن السِّلال الثلاث ثلاثةُ أيّام تمرّ ثمّ تَخرج فتُقتل.[3]

﴿قُضِيَ﴾ أي: أُتِمَّ وأُحكِم ﴿ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ وهو ما رأياه مِن الرُّؤيَيين قطعًا، لا مَآلُه الذي هو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر كما يوهمه إسناد القضاء إليه، إذ الاستفتاء إنّما يكون في الحادثة لا في حكمها.

---

[1] **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧١/٢؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٧٩/٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والجحدري. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧١/٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٧.

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧١/٢؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٧٩/٦.

[٢٠٢ظ] يقال: استفتى الفقيهَ / في الحادثة، أي: طلب منه بيانَ حكمها، ولا يقال: استفتاه في حكمها. وكذا الإفتاء، فإنّه يقال: أفتى فلان في الواقعة الفلانيّة بكذا، ولا يقال: أفتى في حكمها أو جوابها بكذا. وممّا هو علَم في ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ﴾.[1]

ومعنى استفتائهما فيه: طلبُهما لِتأويله بقولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.[2] وإنّما عُبّر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلًا لأمره، وتفخيمًا لشأنه، إذ الاستفتاء إنّما يكون في النوازل المُشكِلة الحكمِ المُبهَمة الجوابِ.

وإيثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما في ذلك لِما أنّهما بصدده إلى أن يقضي عليه السلام مِن الجواب وطَرَه. وإسناد القضاء إليه مع أنّه مِن أحوال مآلِه لأنّه في الحقيقة عَيْنُ ذلك المآل، وقد ظهر في عالم المثال بتلك الصورة.

وأمّا توحيده مع تعدّد رؤياهما فوارد على حسب ما وحّداه في قولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾،[3] لَا لِأَنّ الأمرَ ما اتُّهِمَا بهِ وسُجِنَا لِأجله مِن سَمّ الملِك، فإنّهما لم يستفتيا فيه، ولا فيما هو صورته؛ بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمّل. وإنّما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقًا لتعبيره وتأكيدًا له.

وقيل: لمّا عَبّر رؤياهما جحدا وقالا: ما رأينا شيئًا فأخبرهما أنّ ذلك كائن، صدّقتما أو كذّبتما. ولعلّ الجحودَ مِن الخبّاز؛ إذ لا داعي إلى جحود الشرابي إلّا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَقَالَ﴾ أي: يوسف عليه السلام **﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾** أُوثِر على صيغة المضارع مبالغة في الدلالة على تحقّق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.[4] وهو السرّ في إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال:

---

[1] يوسف، ١٢/٤٣.
[2] يوسف، ١٢/٣٦.
[3] يوسف، ١٢/٣٦.
[4] في الآية السابقة.

للذي ظنّه ناجيًا ﴿مِنْهُمَا﴾ مِن صاحبَيه. وإنّما ذُكر بوصف النجاة تمهيدًا لِمَناط التوصية بالذِّكر عند الملِك. وعنوان التقرّب المفهوم من التعبير المذكور وإن كان أدخل في ذلك وأدعَى إلى تحقيق ما وصّاه به لكنّه ليس بوصف فارِقٍ يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك.

والظانّ هو يوسف عليه السلام، لا صاحبه؛ لأنّ التوصية المذكورة لا تدور على ظنّ الناجي؛ بل على ظنّ يوسف، وهو بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة، ٢٠/٦٩]. فالتعبيرُ بالوحي[١] كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾... إلخ. وقيل: هو بمعناه، والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضًا اجتهادي.

﴿ٱذْكُرْنِي﴾ بما أنا عليه مِن الحال والصفة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ سيّدِك، وصِفْني له بصِفتي التي شاهدتها، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أَنْسَى الشَرَابِيَّ بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالًا تَعُوقُه عن الذِّكر، وإلّا فالإنساء في الحقيقة لله عزّ وجلّ. والفاء للسببيّة، فإنّ توصيته عليه السلام المتضمّنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثةً لِما ذُكر مِن الإنساء. ﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ذكر الشرابي له عليه السلام عند الملِك، والإضافة لأدنى ملابسة. أو ذِكرَ إخبار ربّه.

﴿فَلَبِثَ﴾ أي: يوسف بسبب ذلك الإنساءِ أو القولِ ﴿فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البِضع: ما بين الثلاث إلى التسع، مِن البَضع، وهو القَطع. وأكثر الأقاويل أنّه لبِث فيه سبع سنين. ورُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رحِم الله أخي يوسف لو لم يقل: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لَما لبِث في السِّجن سبعًا بعد الخمس».[٢]

---

١ وفي هامش م: "فالتعبير" مبتدأ، "بالوحي" خبره.

٢ وفي هامش م: وأكثر المفسّرين على أن "البِضع" في هذه الآية سبعُ سنين، وكان قد لبِثَ قبله خمس سنين، فجملته اثْنَتَا عشرة سنةً. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لمّا تضرّع يوسف عليه السلام لذلك الرجل كان قد قرب وقتُ خروجه، فلمّا ذكر ذلك لبث في السجن بعده سبع سنين». وفيه دلالة على أنّ رؤيا صاحبَيه عليه السلام لم تقع في أثناء دخولهما السجن معه عليه السلام؛ بل بعد بُرهةٍ مِن الدهر. «منه». | غرائب التفسير للكرماني، ٥٣٨/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٥/٣. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٧٣/١٣.

والاستعانة بالعباد وإن كانت مرخّصة لكن اللائق بمناصب الأنبياء عليهم السلام[١] الأخذ بالعزائم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ أي: الريّان ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ أي: رأيت. وإيثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية. ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ جمع سَمين وسَمينة، ككرام في جمع كريم وكريمة، يقال: رجال كِرام، ونِسوة كرام. ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ أي: أكَلَهنّ. والعدول إلى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبًا. والجملة حال مِن "البقرات" أو صفة.

﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي: سبع بقرات عِجاف، وهي جمع "عجفاء"، والقياس "عُجْفٌ"؛ لأنّ فَعلاء وأفعل لا يجمع على فِعال، ولكن عُدل به عن القياس حملًا لأحد النقيضين على الآخر. وإنّما لم يقل: سَبعُ عجافٍ بالإضافة لأنّ التمييز موضوع لبيان الجنس، والصفةُ ليست بصالحة لذلك، فلا يقال: ثلاثةُ ضِخام، وأربعةُ غِلاظ. وأمّا قولك: ثلاثة فرسان، وخمسة رُكبان، فلِجريان الفارس، والراكب مجرى الأسماء.

رُوِي أنّه رأى سبع بقرات سِمانٍ خَرَجْن مِن نَهرٍ يابس، وخرج عَقيبَهنّ سبع بقرات عِجاف في غاية الهزال، فابتلعت العِجافُ السِّمانَ.[٢]

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حَبّها ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي: وسبعًا أُخَرَ يابسَاتٍ قد أدركَتْ / والْتَوَتْ على الخُضر حتّى غَلَبْنَها على ما رُوي.[٣] ولعلّ عدمَ التعرّض لذِكره للاكتفاء بما ذُكر مِن حال البقرات. [٢٠٣و]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ خطاب للأشراف مِن العلماء والحكماء، ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ هذه، أي: عَبِّروها وبيّنُوا حُكمَها وما تئول إليه مِن العاقبة. والتعبير عن التعبير بالإفتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه.

---

١ س – عليهم السلام.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٣/٢.

٣ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٦/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٧٣/٢.

﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ أي: تعلمون عِبارةَ جنس الرؤيا عِلمًا مستمرًّا؛ وهي الانتقال مِن الصور الخياليّة المشاهَدة في المنام إلى ما هي صور وأمثلة لها مِن الأمور الآفاقيّة أو الأنفُسيّة الواقعة في الخارج. مِن العبور؛ وهو المجاوزة، تقول: "عبَرتُ النهرَ" إذا قطعتَه وجاوزتَه. ونحوه: أوَّلتُها، أي: ذكرتُ مَآلَها. و"عَبَرْتُ الرؤيا عِبَارةً" أَثْبتُ مِن "عَبَّرتُها تعبيرًا".

والجمع بين الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشيرَ إليه. و"اللام" للبيان، أو لتقوية العامل المؤخَّر لرعاية الفواصل،[1] أو لتضمين ﴿تَعۡبُرُونَ﴾ معنى فعلٍ متعدٍّ باللام، كأنّه قيل: إن كنتم تَنتَدِبون لعِبارتها. ويجوز أن يكون ﴿لِلرُّءۡيَا﴾ خبرَ "كان"، كما يقال: فلان لهذا الأمر إذا كان مستقِلًّا به متمكِّنًا منه. و﴿تَعۡبُرُونَ﴾ خبر آخَر.

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال الملأُ للملِك؟ فقيل: قالوا: هي ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ أي: تَخاليطها، جمع "ضِغْث"، وهو في الأصل ما جُمع مِن أخلاط النبات وحُزِم، ثمّ استُعير لِما تجمعه القوّة المتخيِّلة مِن أحاديث النفس ووَساوس الشيطان / وَتُريها[2] في المنام. و"الأَحلام" جمع "حُلم"، وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقةَ لها. [٢٠٣ظ]

والإضافة بمعنى "مِن"، أي: هي أضغاثٌ مِن أحلام. أخرَجوها مِن جنس الرُّؤَى التي لها عاقبة تئول إليها ويُعْتَنَى بِأَمرِها وجَمعوها وهي رُؤيا واحدةٌ مبالغةً في وصفها بالبطلان، كما في قولهم: فلان يركب الخيل ويلبس العَمائم، لمَن لا يملك إلّا فرَسًا واحدًا وعمامة فَردة. أو لتضمّنها أشياء مختلفة مِن البقرات السبعِ السمان، والسبعِ العجاف، والسنابلِ السبع الخضر، والأُخَر اليابسات، فتأمّل حُسن مَوقع الأضغاث مع السنابل، فلله درُّ شأن التنزيل.

---

١ وفي هامش م: متعلق بـ"المؤخّر".

٢ وفي هامش م: راجع إلى "ما" المبيّن بالأحاديث والوساوس. «منه».

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ أي: المنامات الباطلة التي لا أصل لها ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ لا لأنّ لها تأويلًا ولكن لا نعلمه؛ بل لأنّه لا تأويل لها، وإنّما التأويل للمنامات الصادقة. ويجوز أن يكون ذلك اعترافًا منهم بقُصور عِلمهم، وأنّهم ليسوا بنَحارِيرَ في تأويل الأحلام مع أنّ لها تأويلًا كما يُشعِر به عُدولهم عمّا وَقع فِي كلامِ الملِك مِن العِبارة[١] المُعرِبة عن مجرّد الانتقال مِن الدالّ إلى المدلول -حيث لم يقولوا: بتعبير الأحلام، أو عِبارتِها- إلى التأويل المُنبئ عن التصرّف والتكلّف في ذلك؛ لِما بين الآيِل والمآل مِن البعد، ويؤيّده قوله عزّ وجلّ: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.[٢]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: مِن صاحبَي يوسف، وهو الشرابي. ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بغير المعجمة، وهو الفصيح. وعن الحسَن بالمعجمة.[٣] أي: تذكّر يوسفَ عليه السلام[٤] وشئونَه التي شاهدها، ووصيتَه بتقريب رُؤيا الملِك وإشكالِ تأويلِها على الملأ. ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدّة طويلة، وقُرئ: "إِمَّةٍ" بالكسر؛[٥] وهي النعمة، أي: بعد ما أُنعِم عليه بالنجاة، / و"أَمَةٍ"،[٦] أي: نسيانٍ. [٢٠٤و]

والجملة حال مِن الموصول، أو مِن ضميره في الصلة. وقيل: معطوفة على ﴿نَجَا﴾،[٧] وليس بذاك؛ لأنّ حقّ كلّ مِن الصفة والصلة أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلِّم، ولذلك قيل: إنّ الصفات قبل العِلم بها أخبارٌ، والأخبارَ بعد العِلم بها صفاتٌ. وأنت تدري

---

[١] وفي هامش م س: أي في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف، ١٢/٤٣]. «منه».

[٢] في الآية التالية.

[٣] أي: "وَاذَّكَرَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والضحّاك وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

[٤] م - عليه السلام.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب العقيلي. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٢٤٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٨٤.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبيدة وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

[٧] ذكره في اللباب ابن عادل، ١١/١١٩.

أنّ تذكّره بعد أُمّة إنّما عُلِم بهذه الجملة، فلا مجال لنظمه مع نَجاته المعلومة قبلُ في سِلك الصلة.

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: أُخبِركم به بالتلقّي عمّن عنده عِلمه، لا مِن تلقاء نفسي، ولذلك لم يقل: أنا أُفتِيكم فيها، وعَقَّبه بقوله: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ أي: إلى يوسف.

وإنّما لم يُذكَر ثقةً بما سبَق مِن التذكّر، وما لَحِق مِن قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي: أُرسِل إليه، فأتاه فقال: يا يوسف. ووصفَه بالمبالغة في الصدق حَسبما شاهده وذاق أحوالَه وجرّبها لكونه بصدَد اغتنام آثاره، واقتباسِ أنواره، فهو مِن باب براعة الاستهلال.

﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ[1] سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ أي: في رؤيا ذلك. وإنّما لم يصرّح به لوضوح مَرامه بقرينة ما سبَق مِن معاملتهما، ولدلالة مضمون الحادثة عليه، حيث لا إمكان لوقوعه في عالم الشهادة. أي: بيِّنْ لَنا مآلَها وحكمَها. وحيث عاين علوَّ رتبته عليه السلام في الفضل عَبّر عن ذلك بالإفتاءِ، ولم يَقل كما قال هو وصاحبه أوّلًا: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾.[2]

وفي قولِه: ﴿أَفۡتِنَا﴾ -مع أنّه المستفتي وحده- إشعارٌ بأنّ الرؤيا ليست له؛ بل لغيره ممّن له ملابسة بأمور العامّة، وأنّه في ذلك معبِّر وسَفير كما آذَنَ بذلك حيث قال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى الملِك ومَن عنده، أو إلى أهل البَلَدِ إن كان السجنُ في الخارجِ كما قيل، فأنبّئُهم بذلك ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك ويعملون بمقتضاه، أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه مِن الحال / فتتخلّص منه. وإنّما لم يبتّ القول في ذلك مجاراةً معه على نهج الأدب، [٢٠٤ظ] واحترازًا عن المجازَفة، إذ لم يكن على يقين مِن الرجوع، فربّما اختُرِم دونه.

لعلَّ المنايا دون ما تعِداني[3]

ولا مِن علمهم بذلك، فربّما لم يعلموه.

---

[1] وفي هامش م: حال مِن ﴿سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ﴾ باعتبار كونها مرئيّة في المنام. «منه».

[2] يوسف، ١٢/٣٦.

[3] وفي هامش م: صدره:

ولا تعِداني أن أعيشَ إلى غدِ

«منه». | البيت لأبي جعفر الأعمى التليطلي في قلائد العقيان للفتح بن خاقان، ص ٢٧١.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال يوسف عليه السلام في التأويل؟ فقيل: قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ قُرئ بفتح الهمزة[١] وسكونها،[٢] وكلاهما مصدر دَأَب في العمل إذا جدّ فيه وتعِبَ. وانتصابه على الحاليّة مِن فاعل ﴿تَزْرَعُونَ﴾، أي: دائبين، أو تدأَبون[٣] دَأَبًا على أنّه مصدر مؤكِّد لفعلٍ هو الحال.

أوّلَ عليه السلام البقرات السِّمان والسنبلاتِ الخضرَ بسنين مَخَاصِيبَ، والعجافَ واليابساتِ بسنين مُجْدِبة، فأخبرهم بأنّهم يواظِبون سبعَ سنين على الزراعة، ويبالغون فيها، إذ بذلك يتحقّق الخِصب الذي هو مِصداق البقرات السِّمان وتأويلها. ودلّهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ أي: في كلّ سنةٍ ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ﴾ ولا تُذَرُّوهُ كَيلا يأكلَه السوس، كما هو شأن غِلالِ مِصر ونواحيها. ولعلّه عليه السلام استدلّ على ذلك بالسنبلات الخضر. وإنّما أمرهم بذلك -إذ لم يكن معتادًا فيما بينهم، وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها- وجعلَها أمرًا محقّق الوقوع وتأويلًا للرؤيا مصداقًا لِما فيها مِن البقرات السمان.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين. وفيه إرشاد منه عليه السلام لهم إلى التقليل في الأكل. والاقتصارُ على استثناء المأكول دون البَذْر لكون ذلك معلومًا مِن قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾.

وبعد إتمام ما أمرهم به شَرَع فِي بيان بَقيّة التأويل التي يظهر منها حِكمة الأمر المذكور فقال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي﴾ وهو عطفٌ على ﴿تَزْرَعُونَ﴾، فلا وجه لجعله بمعنى الأمر حثًّا لهم على الجِدّ والمبالغة في الزراعة،[٤] على أنّه يحصل بالإخبار

---

[١] قرأ بها حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

[٢] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

[٣] ط س: تأدبون.

[٤] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٦.

بذلك أيضًا. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد السنين السبع المذكورات. وإنّما لم يقل "مِن بعدهنّ" قصدًا إلى الإشارة إلى وصفهِنّ، فإنّ الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلّيّة.

﴿سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾ أي: سبع سنين صِعَاب على الناس ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ مِن الحبوب المتروكة / في سنابلها. وفيه تنبيه على أنّ أمره عليه السلام بذلك [٢٠٥و] كان لوقت الضرورة. وإسناد الأكل إليهنّ مع أنّه حال الناس فيهنّ مجازي، كما في "نهارُه صائم". وفيه تلويح بأنّه تأويل لأكل العِجافِ السِّمانَ. و"اللام" في ﴿لَهُنَّ﴾ ترشيح لذلك، فكأنّ ما ادُّخر في السنابل مِن الحبوب شيء قد هُيِّئَ وقُدِّم لهنّ كالذي يقدَّم للنازل، وإلّا فهو في الحقيقة مقدَّم للناس فيهنّ. ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ تُحرِزُون لبذور الزراعة.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد السِنين الموصوفة بما ذُكر مِن الشدّة وأكل الغِلال المدَّخرة ﴿عَامٞ﴾ لم يعبّر عنه بالسَّنة تَحاشِيًا عن المدلول الأصلي لها مِن عام القحط، وتنبيهًا مِن أوّل الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق. ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ مِن الغيث، أي: يُمطَرون، يقال: غِيثَت البلاد إذا مُطِرت في وقت الحاجة، أو من الغَوث، يقال: أغاثنا الله تعالى، أي: أمدّنا برفع المَكاره حين أظلّتْنا.

﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ أي: ما مِن شأنه أن يُعصَر مِن العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها مِن الفواكه لكثرتها. والتعرّض لذكر العَصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزِم له عادة كما اكتُفي به عن ذِكر تصرّفهم في الحبوب إمّا لأنّ استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب، إذ المذكورات يتوقّف صلاحها على مبادٍ أخرى غير المطر، وإمّا لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصّة به بِشارةً له، وهي التي يدور عليها حُسن موقع تغليبه على الناس في القراءة بالفوقانيّة.[١]

---

١ أي: "تَعْصِرُونَ" بتاء الخطاب. قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢،٢٩٥.

وقيل: معنى ﴿يَعْصِرُونَ﴾ يحلبون الضُّروعَ. وتكريرُ ﴿فِيهِ﴾ إمّا لِلإشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه مِن الغيث والعَصر زمانًا، وهو ظاهر، وعنوانًا، فإنّ الغيث والغوث مِن فضل الله تعالى، والعَصرَ مِن فعل الناس، وإمّا لأنّ المقام مقامُ تعداد منافع ذلك العام، / ولأجله قُدِّم في الموضعين على الفعلين، فإنّ [٢٠٥ظ] المقصود الأصلي بيانُ أنّه يقع في ذلك العام هذا النفعُ وذاك النفعُ، لا بيانُ أنّهما يقعان في ذلك العام كما يفيده التأخير. ويجوز أن يكون التقديم للقَصر على معنى أنّ غَيثهم وعَصرهم في سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة إلى عامِهم ذلك، وأن يكون ذلك في الأخير لمراعاة الفواصل، وفي الأوّل لرعاية حاله.

وقُرئ: "يُعْصَرُونَ"[١] على البناء للمفعول، مِن عصَره إذا أنجاه، وهو المناسب للإغاثة. ويجوز أن يكون المبنيّ للفاعل أيضًا منه، كأنّه قيل: فيه يغاث الناسُ وفيه يُغيثون، أي: يغيثُهم الله، ويُغيثُ بَعضُهم بعضًا. وقيل: معنى "يُعْصَرُونَ": يُمطَرُون، مِن أَعصَرتِ السحابة، إمّا بِتضمين "أعصَرَت" معنى "مَطَرت" وتعديتِه تعديتَه، وإمّا بحذف الجارّ وإيصال الفِعل، على أنّ الأصل أعصَرت عليهم.

وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبَطةً مِن رؤيا الملِك، وإنّما تلقّاها عليه السلام مِن جهة الوحي، فبشّرهم بها بعد ما أوّلَ الرؤيا بما أوّل، وأمرهم بالتدبير اللائق في شأنه إبانةً لعلوّ كَعبه ورسوخ قدَمه في الفضل، وأنّه محيط بما لم يخطر ببال أحدٍ، فضلًا عمّا يُرَى صورته في المنام، على نحو قوله لصاحبَيه عند استفتائهما في منامهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾،[٢] وإتمامًا للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام في العِلم بوقوعها أحد ولو برؤية ما يدلّ عليها في المنام.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ بعد ما جاءه السفير بالتعبير وسمع منه ما سمع مِن نقير وقطمير:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وابن الأعرج وجعفر بن محمد وأبي البرَهْسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

[٢] يوسف، ٣٧/١٢.

﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ لِما عَلِم من علمه وفضله. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ أي: يوسفَ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ واستدعاه إلى الملِك ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيّدِك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ أي: فتّشه / عن شأنهنّ. وإنّما لم يقل: فاسأله أن يفتّش عن ذلك؛ حثًّا للملِك على الجِدّ في التفتيش؛ ليتبيّن براءته، ويتّضح نزاهته، إذ السؤال ممّا يهيّج الإنسان على الاهتمام في البحث للتقصّي عمّا توجّه إليه، وأمّا الطلب فممّا قد يُتسامَح ويُتساهَل فيه ولا يُبالَى به. [٢٠٦و]

وإنّما لم يتعرّض لامرأة العزيز مع ما لقي منها ما لقي مِن مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجان محافظةً على مواجب الحقوق واحترازًا عن مَكْرها، حيث اعتقدها مقيمةً في عُدوة العداوة.

وأمّا النسوة فقد كان يطمعُ في صدعهنّ بالحقّ وشهادتِهنّ بإقْرارها بأنّها راودته عن نفسه فاستعصم، ولذلك اقتصر على وصفهنّ بتقطيع الأيدي، ولم يصرّح بمراودتهنّ له وقولهنّ: أطِع مولاتك، واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ مجامَلةً معهنّ، واحترازًا عن سوء قالَتهنّ عند الملِك، وانتصابِهنّ للخصومة مدافَعةً عن أنفسهنّ متى سمِعن بنسبته لهنّ إلى الفساد.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال الملِك إثر ما بلّغه الرسولُ الخبرَ وأحضرهنّ: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ أي: شأنكنّ، وهو الأمر الذي يحِقّ لعِظَمه أن يُخاطِب المرءُ فيه صاحِبَه. ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ وخادعتُنّه ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ ورغّبتُنّه في إطاعة مولاته؛ هل وجدتنّ فيه شيئًا مِن سُوءٍ وريبة؟ ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا له وتعجّبًا مِن نزاهته وعِفّته، ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ بالَغنَ في نفي جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة ﴿مِن﴾.

﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ وكانت حاضرة في المجلس. وقيل: أقبلَت النسوةُ عليها يقرّرنها. وقيل: خافت أن يشهدنَ عليها بما قالت لهنّ: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ

[٢٠٦ظ] ﴿فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾،[١] فأقرّتْ / قائلةً: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ثبت واستقرّ، أو تبيّن وظهر بعد خفاءٍ، قاله الخليل.[٢] وقيل: هو مأخوذ مِن الحِصّة، وهي القطعة مِن الجملة، أي: تبيّن حِصّة الحقّ مِن حِصّة الباطل، كما تتبيّن حِصص الأراضي وغيرها. وقيل: بان وظهر، مِن "حَصّ شعرَه" إذا استأصله بحيث ظهرت بشَرةُ رأسه.

وقُرئ على البناء للمفعول،[٣] مِن "حَصحَص البعير مَبارِكَه"، أي: ألقاها في الأرض للإناخة، قال:

فحَصحَصَ في صُمّ الصفا ثَفِناتِه ونـاءَ بسَلمى نـوأةً ثـمّ صمّما[٤]

والمعنى: أُقِرَّ الحقُّ في مقرّه، ووُضع في موضعه.

ولم تُرِدْ بذلك مجرّدَ ظهور ما ظهر بشهادتهنّ مِن مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهنّ مِن غير تعرّضٍ لنزاهته في سائر المواطن خصوصًا فيما وقع فيه التشاجر بمَحضر العزيز، ولا بحثٍ عن حال نفسها وما صنعَتْ في ذلك؛ بل أرادت ظهورَ ما هو متحقّق في نفس الأمر وثبوتَه مِن نزاهته عليه السلام في محلّ النزاع وخيانتها، فقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لا أنّه راودني عن نفسي ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في قوله حين افتريت عليه: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.[٥]

وأرادت بـ﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾ زمانَ تكلّمها بهذا الكلام، لا زمان شهادتهنّ.

فتأمّل أيّها المنصف، هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهةً، حيث لم تتمالك الخُصماء مِن الشهادة بها، والفضلُ ما شهدت به الخُصماء؟ وإنّما تصدّى عليه السلام لتمهيد هذه المقدّمة قبل الخروج ليُظهر براءة ساحته عمّا قُرِف به لا سيّما عند العزيزِ قبل أن يُحَلَّ ما عَقَده كما يُعرِب عنه قوله عليه السلام لمّا رجع إليه الرسولُ وأخبره بكلامهنّ.

---

[١] يوسف، ٣٢/١٢.

[٢] انظر: العين للخليل بن أحمد، ١٤/٣.

[٣] أي: "حُصْحِصَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

[٤] لحُميد بن ثور في الصحاح للجوهري، «حصص». يقول: أثبتَ البعيرُ قوائمَه في الأرض ونَهَض بثقَلٍ لما عليه مِن ثِقَلِ الجارية ثمّ مضى في سَيْره. والمصمّم مِن السيوف: الذي يَمضي في الضَّريبة. معجم ديوان الأدب للفارابي، ١٧٣/٣.

[٥] يوسف، ٢٦/١٢.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك التثبّت المؤدّي إلى ظهور حقيقة الحال ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ أي: العزيزُ ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ في حرمته كما زعمه، لا علمًا مطلقًا، فإنّ ذلك / لا [٢٠٧و] يستدعي تقديم التفتيش على الخروج مِن السجن؛ بل قبل ما ذُكِر مِن نقض ما أبرمه، ولعلّه لمراعاة حقوق السيادة؛ لأنّ المباشرة للخروج مِن حبسه قبل ظهور بطلان ما جعله سببًا له -وإن كان ذلك بأمر الملِك- ممّا يوهم الافتيات على رأيه. وأمّا أن يَكُون ذلك لئلّا يتمكّن مِن تقبيح أمره عند الملِك تمحّلًا لإمضاء ما قضاه،[1] فلا يليق بشأنه عليه السلام في الوثوق بأمره، والتوكّل على ربّه جلّ جلاله.

﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: بظهر الغيب. وهو حال مِن الفاعل أو المفعول، أي: لم أخنه وأنا غائب عنه، أو وهو غائب عنّي؛ أو ظرف، أي: بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة. وأيًّا ما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة، وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وليعلم أنّه تعالى ﴿لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أي: لا يُنفذه ولا يسدّده؛ بل يبطله ويزهقه. أو لا يهديهم في كيدهم إيقاعًا للفعل على الكيد مبالغةً، كما في قوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة، ٣٠/٩]، أي: يضاهئونَهم في قولهم. وفيه تعريض بامرأته في خيانتها أمانتَه، وبه في خيانته أمانةَ الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد ما رأوا آيات نزاهته عليه السلام. ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته، وأنّه لو كان خائنًا لَما هدى الله عزّ وجلّ أمره وأحسن عاقبته.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ أي: لا أُنزّهها عن السوء. قاله عليه السلام هَضمًا لِنفسه الكريمة البريئة عن كلّ سوءٍ، ورَبأً بمكانها عن التزكية والإعجابِ بحالها

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٧٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٦/٣.

عند ظهور كمال نزاهتها، على أسلوب قوله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»،[1] أو تحديثًا بنعمة الله عزّ وجلّ عليه، وإبرازًا لِسرّه المكنون في شأن أفعال العباد، أي: لا أنزّهها عن السوء مِن حيث هي هيَ، ولا أُسنِدُ هذه الفضيلة إليها بمقتضى / طبعها مِن غير توفيق مِن الله عزّ وعلا. [٢٠٧ظ]

﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾ البشريّة التي مِن جملتها نفسي في حدّ ذاتها ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ مائلةٌ إلى الشهوات، مستعمِلةٌ للقوى والآلات في تحصيلها؛ بل إنّما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ مِن النفوس التي يعصمها مِن[2] الوقوع في المَهالك، ومِن جملتها نفسي. أو هي أمّارة بالسوء في كلّ وقت إلّا وقتَ رحمة ربّي وعصمته لها. وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن رحمة ربّي هي التي تصرف عنها السوء، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾ [يس، ٣٦/٤٣-٤٤].

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عظيم المغفرة لِما يعتري النفوسَ بموجَب طباعها، ومبالِغ في الرحمة لها بعِصمتها مِن الجريان بمقتضى ذلك. وإيثار الإظهار في مقام الإضمار مع التعرّض لعنوان الربوبيّة لتربية مبادي المغفرة والرحمة.

وقيل: إلى هنا مِن كلام امرأة العزيز، والمعنى: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف عليه السلام[3] أنّي لم أخُنه، ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بما هو الحقّ الواقع، وما أبرّئ نفسي مع ذلك مِن الخيانة، حيث قلت في حقّه ما قلت، وفعلت به ما فعلت، إنّ كلّ نفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربّي، أي: إلّا نفسًا رحمها الله تعالى بالعصمة كنفس يوسف، إنّ ربّي غفورٌ لمَن استغفر لذنبه واعترف به، رحيمٌ له.

فعلى هذا يكون تأنّيه عليه السلام في الخروج عن السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملِك وأمرُه بين بين، ففعل ما فعل حتّى يتبيّن نزاهته،

---

[1] سنن الترمذي، ٥/٣٠٨ (٣١٤٨). وهو في صحيح مسلم، ٤/١٧٨٢ (٢٢٧٨)، دون قوله: «ولا فخر».

[2] ط س: عن.

[3] م - عليه السلام.

وأنّه إنّما سُجن بظلم عظيم، مع ما له مِن الفضل ونباهة الشأن؛ ليتلقّاه الملِك بما يليق به مِن الإعظام والإجلال، وقد وقع.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ﴾ أجعلْه خالِصًا ﴿لِنَفْسِي﴾ وخاصًّا بي. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: فأتَوا به. فحُذف للإيذان بسرعة الإتيان به، فكأنّه لم يكن بين الأمر بإحضاره / والخطاب معه زمان أصلًا. والضمير المستكِنّ في ﴿كَلَّمَهُۥ﴾ [٢٠٨و] ليوسف، والبارز للملِك، أي: فلمّا كلّمه يوسف إثرَ ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانةٍ ومنزلةٍ رفيعة، ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمَن على كلّ شيء. و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ليس بمعيار لمدّة المكانة والأمانة؛ بل هو آن التكلّم، والمراد تحديد مبدئهما احترازًا عن احتمال كونهما بعد حين.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا جاءه الرسول خرَج مِن السجن، ودعا لأهله، واغتسل ولبس ثيابًا جددًا، فلمّا دخل على الملِك قال: «اللّٰهمّ إنّي أسألك بخيرك مِن خيره، وأعوذ بعزّتك وقدرتك مِن شرّه»، ثمّ سلّم عليه ودعا له بالعبرانيّة، فقال: «ما هذا اللسان؟» قال: «لسان آبائي». وكان الملِك يعرف سبعين لسانًا، فكلّمه بها، فأجابه بجميعها فتعجّب منه، فقال: أحبّ أن أسمعَ منك رؤياي. فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها، فأجلسه على السرير وفوّض إليه أمرَه.[1]

وقيل: توفّي قِطفير في تلك الليالي، فنصّبه منصبه، وزوّجه راعيل، فوجدها عذراء، وولدت له إفرائيم وميشا.[2] ولعلّ ذلك إنّما كان بعد تعيينه عليه السلام

---

[1] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣١/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٧/٣.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٧/٣. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢٢٠/١٣.

لِما عُيِّن له مِن أمر الخزائن، كما يُعرِب عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مِصر، أي: ولِّني أمرها مِن الإيراد والصرف. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لها ممّن لا يستحقها، ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرّف فيها. وفيه دليل على جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممّن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة وإن كان مِن يد الجائر أو الكافر. وعن مجاهد أنّه أسلم الملِك على يده عليه السلام.[١]

ولعلّ إيثارَه عليه السلام لتلك الولاية خاصّة إنّما كان للقيام بما هو أهمّ أمور السلطنة، إذ ذاك مِن تدبير أمر السنين حسبما فصّل في التأويل؛ لكونه مِن فروع تلك الولاية، لا لمجرّد عموم الفائدة وجموم العائدة كما قيل.[٢]

وإنّما لم يُذكَر إجابة الملِك إلى ما سأله عليه السلام مِن جعله على خزائن الأرض إيذانًا بأنّ ذلك أمرٌ لا مردّ له، غنيّ عن التصريح به، لا سيّما بعد تقديم ما يندرج تحته أحكام السلطنة بحذافيرها مِن قوله: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

وللتنبيه على أنّ كلّ ذلك مِن الله عزّ وجلّ وإنّما الملِك آلة في ذلك قيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي: جعلنا له مكانًا ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر. رُوي أنّها كانت أربعين فرسخًا في أربعين.[٣]

وفي التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين في الأرض مسنَدًا إلى ضميره عزّ سلطانه مِن تشريفه عليه السلام والمبالغةِ في كمال ولايته والإشارةِ إلى حصول ذلك مِن أوّل الأمر -لا أنّه حصل بعد السؤال- ما لا يخفى.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ ينزل مِن بلادها ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ ويتّخذه مَباءةً. وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرّف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه، فكأنّها منزله يتصرّف فيها كما يتصرّف الرجل في منزله. وقرأ ابن كثير بالنون.[٤]

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٢٢/١٣؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٣/٥.

[٢] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٦٨/٣.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٤٨٣/٢. وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٧٩٧/٣.

[٤] انظر: النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

/ رُوي أنّ الملِك تَوّجَهُ، وخَتَمَه بِخَاتَمِه، ورَدَّاهُ بسيفهِ، ووضع له سَريرًا مِن [٢٠٨ظ] ذهب مكلَّلًا بالدُّرّ والياقوت، فقال عليه السلام: «أمّا السرير فأشدُّ به ملكَك، وأمّا الخاتم فأُدَبِّرُ به أمرَك، وأمّا التاج فليس مِن لبَاسي ولا لباسِ آبائي»، فقال: «قد وضعته إجلالًا لك، وإقرارًا بفضلك»، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، وفوّض إليه الملِك أمرَه، وأقام العدلَ بمصر، وأحَبَّتْه الرجال والنساء. وباع مِن أهل مصر في سني القحط الطعامَ في السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفي الثانية بالحليّ والجواهر، وفي الثالثة بالدوابّ، ثمّ بالضِياع والعقار، ثمّ برقابهم حتّى استرقّهم جميعًا، فقالوا: «ما رأينا كاليوم ملِكًا أجلّ وأعظم منه». ثمّ أعتقهم وردّ إليهم أملاكهم. وكان لا يبيع مِن أحدٍ مِن الممتارين أكثرَ مِن حِمل بعير تَقْسِيطًا بين الناس.[١]

﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا﴾ بعطائنا في الدنيا مِن المُلك والغنى وغيرهما مِن النعم ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بل نوفّيه بكماله. وفيه إشعار بأنّ مدار المشيئة المذكورة إحسان مَن تصيبه الرحمة المرقومة، وأنّها أجر له.

ولدفع توهّم انحصار ثمرات الإحسان فيما ذُكر مِن الأجر العاجل قيل على سبيل التوكيد: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: أجرهم[٢] في الآخرة، فالإضافة للملابسة، وهو النعيم المقيم الذي لا نَفادَ له. ﴿خَيۡرٞ﴾ لهم أي: للمحسنين المذكورين. وإنّما وضع موضعه الموصول فقيل: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ تنبيهًا على أنّ المراد بالإحسان إنّما هو الإيمان والثبات على التقوى المستفادُ مِن جمع صيغتي الماضي والمستقبل.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ﴾ ممتارين لِما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب[٣] مصر، وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعًا غير بنيامين. ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٣/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٢/٦. وأوّله في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٢/٥.

٢ وفي هامش م: أي: للمحسنين. «منه».

٣ س + أرض.

أي: على يوسف وهو في مجلس ولايته، ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لقوّة فهمه، وعدمِ مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ؛ لمفارقته إيّاهم وهم رجال، وتَشابهِ هيئاتهم / وزيّهم في الحالين، ولكون همّته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم، لا سيّما في زمن القحط. وعن الحسن: «ما عرفهم حتّى تعرّفوا له».[1] [٢٠٩و]

﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: والحال أنّهم منكرون له لطول العهد وتباينِ ما بين حالَيه عليه السلام في نفسه ومنزلته وزيّه، ولاعتقادهم أنّه هلك. وحيث كان إنكارهم له أمرًا مستمرًّا في حالتَي المَحضَر والمَغيَب أخبر عنه بالجملة الاسميّة، بخلاف عِرفانه عليه السلام إيّاهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: أصلحهم بعدّتهم مِن الزاد، وما يحتاج إليه المسافر، وأوقر ركائبهم بما جاءوا له مِن المِيرة.[2] وقُرئ بكسر الجيم.[3]

﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ لم يقل: بأخيكم؛ مبالغةً في إظهار عدم معرفته لهم، ولعلّه عليه السلام إنّما قاله لِما قيل مِن أنّهم سألوه عليه السلام[4] حِملًا زائدًا عَلى المعتاد لبِنْيَامِين، فأعطاهم ذلك، وشرطهم أن يأتوا به.

لا لِما قيل[5] مِن أنّه لمّا رأوه وكلّموه بالعبريّة قال لهم: «مَن أنتم فإنّي أنكركم؟» فقالوا: «نحن قوم مِن أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نَمتار». فقال لهم: «لعلّكم جئتم عُيونًا؟» فقالوا: «معاذَ اللهِ، نحن إخوة بنو أبٍ واحدٍ، وهو شيخ كبير صدّيق نبيّ مِن الأنبياء[6] اسمه يعقوب». قال: «كم أنتم؟» قالوا:

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٤٨٤/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٢/٦.

[2] الميرة: الطعام يمتاره الإنسان. قال ابن سِيده: الميرة جلب الطعام، وفي التهذيب: جلب الطعام للبيع. لسان العرب لابن منظور، «مير».

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

[4] س - عليه السلام.

[5] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٥/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٤/٢.

[6] س: أنبياء الله.

«كنّا اثنَي عشر، فهلك منّا واحد». فقال: «كم أنتم ههنا؟» قالوا: «عشرة». قال: «فأين الحادي عشر؟» قالوا: «هو عند أبيه يتسلّى به مِن الهالك». قال: «فمَن يشهد لكم أنّكم لستم عيونًا، وأنّ ما تقولون حقّ؟» قالوا: «نحن ببلاد لا يعرِفنا فيها أحد فيشهدَ لنا». قال: «فدَعُوا بعضكم عندي رهينةً، وائتوني بأخيكم مِن أبيكم وهو يحمل رسالة مِن أبيكم حتّى أصدّقكم». فاقترعوا، فأصاب القرعة شمعون، فخلّفوه عنده، إذ لا يساعده ورود الأمر بالإتيان به عند التجهيز، ولا الحثُّ عليه بإيفاء الكيل، ولا الإحسانُ في الإنزال، ولا الاقتصارُ على منع الكيل على تقدير عدم الإتيان به، ولا جعلُ بضاعتهم في رحالهم لأجل رجوعِهم، ولا عِدَتُهم بالإتيان به بطريق المراودة، ولا تعليلُهم عند أبيهم إرسالَ أخيهم بمنع الكيل مِن غير ذِكر الرسالة، على أنّ استبقاء / شمعون لو وقع لكان [٢٠٩ظ] ذلك طامّةً يُنْسى عندها كلّ قيل وقال.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أُتِمُّه لكم. وإيثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أنّ ذلك عادة له مستمرّة. ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ جملة حاليّة، أي: ألا ترَون أنّي أوفي الكيل لكم إيفاءً مستمرًّا، والحال أنّي في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم، وقد كان الأمر كذلك.

وتخصيص الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثنائه. وأمّا الإحسان في الإنزال فقد كان مستمرًّا فيما سبَق ولحِق، ولذلك أُخبر عنه بالجملة الاسميّة. ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان؛ بل لحثّهم على تحقيق ما أمرهم به. والاقتصارُ في الكيل على ذكر الإيفاء لأنّ معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العدل. وأمّا الضيافةُ فليس للناس فيها حقّ فخصّهم في ذلك بما شاء.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ مِن بعدُ فضلًا عن إيفائه، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ بدخول بلادي فضلًا عن الإحسان في الإنزال والضيافة. وهو إمّا نهي أو نفي

معطوف على محلّ الجزاء. وفيه دليل على أنّهم كانوا على نيّة الامتيار مرّة بعد أخرى، وأنّ ذلك كان معلومًا له عليه السلام.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١﴾

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنخادعه عنه، ونحتال في انتزاعه مِن يده، ونجتهد في ذلك. وفيه تنبيه على عزّة المطلب وصعوبة مناله. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك غير مفرّطين فيه ولا متوانين، أو لقادرون عليه لا نَتَعايَى به.

﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٦٢﴾

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾ غِلمانه الكيّالين. جمع "فتًى". وقُرِئَ: "لِفِتْيَتِهِ"،[١] وهي جمع قِلّة له.

﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ﴾ فإنّه وكّل بكلّ رَحْلٍ رَجُلًا يعبّئ فيه بضاعتهم التي شرَوا بها الطعام، وكانت نِعالًا وأدَمًا. وإنّما فعله عليه السلام تفضّلًا عليهم وخوفًا مِن أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرّة أخرى. وكلّ ذلك لتحقيق ما يتوخّاه مِن رجوعهم بأخيه كما يؤذِن به قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَا﴾ أي: يعرِفون حقّ ردّها والتكرّمَ في ذلك، أو لكي يعرفوها. وهو ظاهر التعلّق بقوله: ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ﴾ فإنّ معرفتهم لها مقيّدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعًا. وأمّا [٢١٠و] / معرفة حقّ التكرّم في ردّها فهي وإن كانت في ذاتها غيرَ مقيّدة بذلك لكن لمّا كان ابتداؤها حينئذ قُيّدت به.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ حسبما أمرتهم به، فإنّ التفضّل عليهم بإعطاء البدلَين ولا سيّما عند إعواز البِضاعة مِن أقوى الدواعي إلى الرجوع. وما قيل إنّما فعله عليه السلام لمّا لم يَرَ مِن الكرم أن يأخذ مِن أبيه وإخوته ثمنًا[٢] فكلامٌ حقّ في نفسه، ولكن يأباه التعليل المذكور.

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

[٢] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٤٨٥.

وأمّا أنّ عليّة الجعل المذكور للرجوع مِن حيث إنّ ديانتهم تحملُهم على ردّ البضاعة لأنّهم لا يستحلّون إمساكها؛[١] فمدارُه حِسبانُهم أنّها بقيت في رحالهم نسيانًا، وظاهر أنّ ذلك ممّا لا يخطر ببال أحد أصلًا، فإنّ هيئة التعبية تنادي بأنّ ذلك بطريق التفضّل. ألا يُرى أنّهم كيف جزموا بذلك حين رأوها، وجعلوا ذلك دليلًا على التفضّلات السابقة كما ستحيط به خُبرًا؟

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ﴾ قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ أي: فيما بعدُ. وفيه ما لا يخفى مِن الدلالة على كون الامتيار مرّة بعد مرّة معهودًا فيما بينهم وبينه عليه السلام. ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر. وفيه إيذان بأنّ مدار المنع عدمُ كونه معهم. ﴿نَكۡتَلۡ﴾ بسببه مِن الطعام ما نشاء.

وقرأ حمزة والكسائي بالياء[٢] على إسناده إلى الأخ لكونه سببًا للاكتيال، أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ مِن أن يُصيبه مكروه.

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبۡلُ﴾ وقد قلتم في حقّه أيضًا ما قلتم، ثمّ فعلتم به ما فعلتم، فلا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنّما أفوّض الأمر إلى الله. ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ وقُرئ: "حِفْظًا".[٣] وانتصابهما على التمييز. والحاليّة على القراءة الأولى توهم تقيّد الخيريّة بتلك الحالة.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٥.

[٢] وكذا خَلف البزار. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

[٣] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع عليّ مصيبتَين. وهذا كما ترى مَيل منه عليه السلام إلى الإذن والإرسالِ، لِما رأى فيه مِن المصلحة.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تفضّلًا، وقد علموا ذلك بما مرّ مِن دلالة الحال. وقُرِئ بنقل حركة الدال المدغَمة إلى الراء،[1] كما قيل: قِيل وكِيل.

[٢١٠ظ] ﴿قَالُوا﴾ استئناف / مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: ماذا قالوا حينئذ؟ فقيل: قالوا لأبيهم، ولعلّه كان حاضرًا عند الفتح: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ إذا فُسّر البغي بالطلب فـ﴿ما﴾ إمّا استفهاميّة منصوبةٌ به، فالمعنى: ماذا نبتغي وراء ما وصفنا لك مِن إحسان الملِك إلينا وكرمه الداعي إلى امتثال أمره والمراجعة إليه في الحوائج. وقد كانوا أخبروه بذلك، وقالوا له: إنّا قدِمنا على خير رجل، أَنْزَلَنا وأكرمَنا كرامةً لو كان رجلًا مِن آل يعقوب ما أكرمَنا كرامتَه.

وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ جملة مستأنَفة موضّحةٌ لِما دلّ عليه الإنكار مِن بلوغ اللطف غايتَه، كأنّهم قالوا: كيف لا وهذه بضاعتنا ردّها إلينا تفضّلًا مِن حيث لا ندري بعد ما مَنّ علينا مِن المِنَن العظام، هل مِن مزيدٍ على هذا فنطلُبَه؟ ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقًا، والتقاعدَ عن طلب نظائرِه؛ بل أرادوا الاكتفاءَ به في استيجاب الامتثالِ لأمره، والالتجاءِ إليه في استجلاب المزيدِ كما أشرنا إليه.

وقوله تعالى: ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ حال مِن ﴿بِضَاعَتُنَا﴾، والعامل معنى الإشارة. وإيثار صيغة البناء للمفعول للإيذان بكمال الإحسان الناشئ عن كمال الإخفاءِ المفهوم مِن كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله.

---

[1] أي: "رِدَّتْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن علقمة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نجلب إليهم الطعامَ مِن عند الملِك، معطوف على مقدَّر ينسحب عليه ردُّ البضاعة، أي: فنستظهر بها، ونمير أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ مِن المكاره حسبما وُعِدنا، فما يصيبه مِن مكروه، ﴿وَنَزْدَادُ﴾ أي: بواسطته. ولذلك وسّط الإخبار بحفظه بين الأصل والمزيد. ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: وَسق[1] بعير زائدًا على أوساق أباعرنا على قضيّة التقسيط.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما يحمله أباعرنا ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: مكيل قليل لا يقوم بأَوَدِنا. فهو استئناف وقع تعليلًا لِما سبق، كأنّه قيل: أيّ حاجة إلى الازدياد؟ فقيل ما قيل. أو ذلك الكَيل الزائد شيء قليل لا يضايقنا فيه الملِك. أو سهل عليه لا يتعاظمه.

أو[2] أيَّ مطلب نطلب مِن مهمّاتنا. والجُمَل / الواقعة بعده توضيح وبيان لِما [٢١١و] يشعر به الإنكار مِن كونهم فائزين ببعض المطالب، أو متمكّنين مِن تحصيله، فكأنّهم قالوا: بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها، ونمير أهلَنا، ونحفظ أخانا، فما يصيبه شيء مِن المكاره، ونزداد بسببه غير ما نكتاله لأنفسنا كيلَ بعير، فأيّ شيء نبتغِي وراء هذه المباغي؟

وقُرئ: "مَا تَبْغِي"[3] على خطاب يعقوب عليه السلام، أي:[4] أيّ شيء تبغي وراء هذه المباغي المشتملة على سلامة أخينا وسَعَة ذات أيدينا؟ أو[5] وَراءَ ما فعل بنا الملِك مِن الإحسان داعيًا إلى التوجّه إليه؟ والجملة الاستئنافيّة موضحة لذلك. أو أيّ شيء تبغي شاهدًا على صِدقنا فيما وصفنا لك مِن إحسانه؟ والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفَحوى الإنكار.

وإمّا[6] نافية، فالمعنى: ما نبغي شيئًا غير ما رأينا مِن إحسان الملِك في وجوب المراجعة إليه، أو ما نبغي غير هذه المباغي. وقيل: ما نطلب منك بضاعةً أخرى. والجملة المستأنَفة تعليل له.

---

١ قال الخليل: الوَسْق: هو حِمْل البعير. والوِقْر: حِمل البغل أو الحمار. الصحاح للجوهري، «وسق».

٢ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "ماذا نبتَغي". «منه».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

٤ وفي هامش م: على التفسير الأخير، وإنّما قدّمه على الأوّل لئلّا يقع... [بياض].

٥ وفي هامش م: على التفسير الأوّل. «منه».

٦ وفي هامش م: معطوف على قوله: "إمّا استفهاميّة". «منه».

وأمّا[1] إذا فسِّر البغي بمجاوزة الحدّ فـ﴿مَا﴾ نافية فقط، والمعنى: ما نبغي في القول، وما نتزيّد فيما وصفنا لك مِن إحسان الملِك إلينا وكرَمه الموجِب لِما ذكر. والجملة المستأنَفة لبيان ما ادّعوا مِن عدم البغي، وقوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ عطفٌ على ﴿مَا نَبْغِي﴾، أي: ما نبغي فيما ذكرنا مِن إحسانه ونُحَصِّلُ أَمثالَه مِن مَيْر أهلنا وحفظ أخينا، فإنّ ذلك أهون شيء بواسطة إحسانه.

وقد جُوّز أن يكون كلامًا مبتدأً، أي: جملة اعتراضيّة تذييليّة، على معنى: وينبغي أن نمير أهلَنا، وشُبِّهَ ذلك بقولك: سعيت في حاجة فلان، ويجب أن أسعى. وأنت خبير بأنّ شأن الجملِ التذييليّة أن يكون مؤكّدة لمضمون الصدر، ومقرّرة له، كما في المثال المذكور وقولِك: فلان ينطق بالحقّ فالحقّ أبلَج، وأنّ قوله: ﴿وَنَمِيرُ﴾... إلخ -وإن ساعدنا في حَمْله على معنى: ينبغي أن نمير أهلنا- بمَعزِل مِن ذلك.

أو ما نبغي في الرأي، وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك مِن إرسال أخينا معنا. والجُمَل إلى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيهم وإصابة رأيهم، أي: بضاعتنا حاضرة نستظهر بها، ونمير أهلنا، ونصنع كيت وذيت،[2] فتأمّل.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾ بعد ما عاينت منكم ما عاينت ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أتوثّق به مِن جهة الله عزّ وجلّ. وإنّما جعله مَوثقًا منه تعالى لأنّ توكيد العهود به مأذون فيه مِن جهته تعالى، فهو إذَنْ منه عزّ وعلا.

﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦ﴾ جواب القسم، إذ المعنى: حتّى تحلفوا بالله لتأتُنّني ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلّا أن تُغلَبوا فلا تطيقوا به، أو إلّا أن تهلَكوا. وأصله مِن أَحاطَه العدوّ، فإنّ مَن أحاط به العدوّ فقد هلك غالبًا. وهو استثناء مِن أعمّ الأحوال

---

[1] وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "إذا فسّر البغي". «منه».

[2] قولهم: "كَيت وذَيت" هو كناية عن الحديث. المصباح المنير للفيّومي، ٢١٣/١.

أو أعمّ العلل على تأويل الكلام بالنفي الذي ينساق إليه، أي: لتأتُنّني به ولا تمتنعنّ منه في حال مِن الأحوال أو لعلّة مِن العلل إلّا حالَ الإحاطة بكم، أو لعلّة الإحاطة بكم.

ونظيره قولهم: أقسمت عليك لمّا فعلتَ، وإلّا فعلتَ، أي: ما أريد منك إلّا فعلَك. وقد جُوّز الأوّل بلا تأويل أيضًا، أي: لتأتُنّني به على كل حالٍ / إلّا حالَ الإحاطة بكم. وأنت تدري أنّه حيث لم يكن الإتيان به مِن الأفعال الممتدّة الشاملة للأحوال على سبيل المعيّة، كما في قولك: لألزمنّك إلّا أن تعطيَني حقّي. [٢١١ظ]

ولم يكن مراده عليه السلام مقارنتَه على سبيل البدل لِما عدا الحالَ المستثناة، كما إذا قلت: صَلِّ إلّا أن تكون مُحدِثًا؛ بل مجرّد تحقّقه ووقوعه مِن غير إخلال به، كما في قولك: لأَحُجَّنَّ العامَ إلّا أَن أُحصَر، فإنّ مرادك إنّما هو الإخبار بعدم منع ما سوى حال الإحصار عن الحجّ، لا الإخبار بمقارنته لتلك الأحوال على سبيل البدل، كما هو مرادك في مثال الصلاة. كأنّ اعتبار الأحوال معه مِن حيث عدمُ منعها منه، فآل المعنى إلى التأويل المذكور.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عهدهم مِن الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أي: على ما قلنا في أثناء طلب المَوثق وإيتائه مِن الجانبين. وإيثار صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدّي إلى تثبّتهم ومحافظتهم على تذكّره ومراقبته. ﴿وَكِيلٌ﴾ مطّلع رقيب. يريد به عرض ثقته بالله تعالى، وحثّهم على مراعاة ميثاقهم.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾

﴿وَقَالَ﴾ ناصحًا لهم لمّا أزمع على إرسالهم جميعًا: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ﴾ مصر ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ نهاهم عن ذلك حذارًا مِن إصابة العين، فإنّهم كانوا ذوي جمال وشارة حسنةٍ. وقد كانوا تجمّلوا في هذه الكَرّة أكثرَ ممّا في المرّة الأولى، وقد اشتُهروا في مصر بالكرامة والزلفى لدى الملِك، بخلاف النوبة الأولى، فكانوا مَئِنّةً لِدُنُوِّ كلِّ ناظرٍ، وطُمُوح كلّ طامح.

وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست ممّا يُنكر، وقد ورد عنه عليه السلام: «إنّ العين حقّ».[١] وعنه عليه السلام: «إنّ العين لتُدخل الرجلَ القبر والجملَ القِدرَ».[٢] وقد كان صلّى الله عليه وسلّم يعوّذ الحَسنين رضي الله عنهما بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامّة، مِن كلّ شيطان وهامّة، ومِن كلّ عين لامّة»، وكان يقول: «كان أبوكما يعوّذ بها إسماعيل وإسحاق عليهم السلام»، رواه البخاري في **صحيحه**،[٣] وقد شهدت بذلك التجارِب.

ولمّا لم يكن عدم الدخول مِن باب واحد مستلزمًا للدخول مِن أبواب متفرّقة وكان في دخولهم مِن بابين أو ثلاثة بعضُ ما في الدخول مِن باب واحدٍ مِن نوع اجتماع مصحِّح لوقوع المحذور قال: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ بيانًا لِما هو المراد بالنهي. وإنّما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزمًا له إظهارًا لِكمال العناية به، وإيذانًا بأنّه المراد بالأمر المذكور، لا تحقيقُ شيء آخر.

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم﴾ أي: لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: شيئًا ممّا قضى عليكم، فإنّ الحذَر لا يمنع القدَر. ولم يُرِدْ به عليه السلام إلغاءَ الحذَر بالمرّة، كيف لا وقد قال عزّ قائلًا: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢]، وقال: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء، ٧١/٤]؟ بل أراد بيان أنّ ما وصّاهم به ليس ممّا يستوجب المراد لا محالةَ؛ بل هو تدبير في الجملة، وإنّما التأثير وترتّب المنفعة عليه مِن العزيز القدير، وأنّ ذلك ليس بمدافعة للقدَر؛ بل هو استعانة بالله تعالى، وهرَب منه إليه.

[٢١٢و] / ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ مطلقًا ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء. ﴿عَلَيۡهِ﴾ لا على أحد سواه ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ في كل ما آتي وأذَر. وفيه دلالة على أنّ ترتيب الأسباب غير مُخِلّ بالتوكّل.

---

[١] **صحيح البخاري**، ١٣٢/٧ (٥٧٤٠)؛ **صحيح مسلم**، ١٧١٩/٤ (٢١٨٧).

[٢] **حلية الأولياء لأبي نعيم**، ٩٠/٧. وقال: «غريب مِن حديث الثوري تفرّد به معاوية».

[٣] **صحيح البخاري**، ١٤٧/٤ (٣٣٧١).

﴿وَعَلَيْهِ﴾ دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جمع بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص، مفيدًا بالواو عطفَ فعل غيره مِن تخصيص التوكّل بالله عزّ وجلّ على فعل نفسه، وبالفاء سببيّةَ فعله لكونه نبيًّا لفعل غيره مِن المقتدين به، فيدخل فيهم بَنوه دخولًا أوّليًّا. وفيه ما لا يخفى مِن حُسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكّل فيما هم بصدَده على الله عزّ وجلّ، غير مغترّين بما وصّاهم به مِن التدبير.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ مِن الأبواب المتفرّقة مِن البلد. قيل: كانت له أربعة أبواب، فدخلوا منها. وإنّما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عمّا نهوا عنه. ﴿مَا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِي﴾ فيما سيأتي عند وقوع ما وقع ﴿عَنْهُم﴾ عن الداخلين؛ لأنّ المقصود به استدفاع الضرر عنهم.

والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب ﴿لَمَّا﴾ ومدخوله، فإنّ عدم الإغناء بالفعل إنّما يتحقّق عند نزول المحذور، لا وقت الدخول، وإنّما المتحقّق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور مِن عدم كون الدخول المذكور مُغنيًا فيما سيأتي، فتأمّل.

﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ مِن جهته ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا ممّا قضاه عليهم مع كونه مَظِنّة لذلك في بادي الرأي حيث وصّاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجَبه واثقين بجدواه مِن فضل الله تعالى.

فليس المرادُ بيانَ / سببيّة الدخول المذكور لعدم الإغناء، كما في قوله عزّ وعلا:[١] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر، ٤٢/٣٥]، فإنّ مجيء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم؛ بل بيانَ عدم سببيّته للإغناء مع كونها متوقّعة في بادي الرأي، كما في قولك: حلَف أن يعطيني حقّي عند حلول الأجل، [٢١٢ظ]

١ ط س: تعالى.

فلمّا حلّ لم يعطني شيئًا. فإنّ المراد بيان عدم سببيّة حلول الأجل للإعطاء مع كونها مرجوّة بموجَب الحلِف، لا بيانُ سببيّته لعدم الإعطاء.

فالمآل بيانُ عدمِ ترتّب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجوّ الوجود، لا بيانُ ترتّب عدمه عليه. ويجوز أن يراد ذلك أيضًا بناءً على ما ذكره عليه السلام في تضاعيف وصيّته مِن أنّه لا يغني عنهم مِن الله شيئًا، فكأنّه قيل: ولمّا فعلوا ما وصّاهم به لم يُفِد ذلك شيئًا، ووقع الأمر حسبما قال عليه السلام، فلقوا ما لقوا، فيكون مِن باب وقوع المتوقَّع، فتأمّل.

﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن حاجة وحزازة كائنة ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي: أظهرها ووصّاهم بها دفعًا للخاطرة، غيرَ معتقد أنّ للتدبير تأثيرًا في تغيير التقدير. وقد جُعل ضمير الفاعل في ﴿قَضَىٰهَا﴾ للدخول على معنى أنّ ذلك الدخول قضى حاجةً في نفس يعقوب، وهي إرادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرّقة. فالمعنى: ما كان ذلك الدخول يُغني عنهم مِن جهة الله شيئًا، ولكن قضى حاجة حاصلةً في نفس يعقوب بوقوعه حسب إرادته، فالاستثناء منقطع أيضًا. وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة، وأمّا إصابة العين فإنّما لم تقع لكونها غير مقدّرة عليهم، لا لأنّها اندفعت بذلك مع كونها مقضيّة عليهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ جليلٍ ﴿لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ لتعليمنا إيّاه بالوحي ونصب الأدلّة، حيث لم يعتقد / أنّ الحذَر يدفع القدر وأنّ التدبير له حظّ مِن التأثير حتّى يتبيّن الخلل في رأيه عند تخلّف الأثر. أو حيث بَتَّ القول بأنّه لا يغني عنهم مِن الله شيئًا، فكان الحال كما قال. [٢١٣و]

وفي تأكيد الجملة بـ"إنّ" و"اللام" وتنكيرِ العِلم وتعليلِه بالتعليم المسنَد إلى ذاته سبحانه مِن الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلوّ مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أسرار القدَر، ويزعمون أنّه يُغني عنه الحذر. وأمّا ما يقال مِن أنّ المعنى: لا يعلمون إيجاب الحذر مع أنّه لا يغني شيئًا مِن القدَر؛ فيأباه مقامُ بيان تخلّف المطلوب عن المبادي.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾ بِنيامين أي: ضمّه إليه في الطعام، أو في المنزل، أو فيهما.

رُوي أنّهم لمّا دخلوا عليه قالوا له: «هذا أخونا قد جئناك به». فقال لهم: «أحسنتم، وستجدون ذلك عندي». فأكرمهم ثمّ أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى، فبقي بنيامين وحيدًا، فبكى وقال: «لو كان أخي يوسف حيًّا لأجلسني معه»، فقال يوسف: «بقي أخوكم فريدًا». وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله، ثمّ أنزل كلّ اثنين منهم بيتًا، فقال: «هذا لا ثاني معه فيكون معي»، فبات يوسف يضمّه إليه ويشمّ رائحته حتّى أصبح، وسأله عن ولَده فقال: «لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم مِن اسم أخٍ لي هلَك»، فقال له: «أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟» قال: «مَن يجد أخًا مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل.» فبكى يوسف، وقام إليه وعانقه، وتعرّف إليه،[1] وعند ذلك ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي: فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى، فإنّ الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا بخيرٍ، ولا تُعلِمهم بما أَعلمتك. قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما.[2]

وعن وهب أنّه لم يتعرّف إليه؛ بل قال له: «أنا أخوك بدل أخيك / المفقود».[3] [٢١٣ظ]

ومعنى ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾: لا تحزن بما كنت تَلقى منهم[4] مِن الحسد والأذى فقد أَمِنْتَهُم.

ورُوي أنّه[5] قال له: «فأنا لا أفارقك»، قال: «قد علمت باغتمام والدي بي، فإذا حبستك يزداد غمّه، ولا سبيل إلى ذلك إلّا أن أنسِبَك إلى ما لا يجمل».

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٣٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٩.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٣٠١.

٣ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٩.

٤ ط س: تلقاهم.

٥ وفي هامش م: على التفسير الأوّل.

قال: «لا أبالي، فافعل ما بدا لك»، قال: «أدسّ صاعي في رحلك، ثمّ أنادي عليك بأنّك سرقته ليتهيّأ لي ردّك بعد تسريحك معهم»، قال: «افعل».[١]

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ أي: المشربة. قيل: كانت مشربة جُعلت صاعًا يُكال به. وقيل: كانت تُسقَى بها الدوابّ ويكال بها الحبوب، وكانت مِن فضّة. وقيل: مِن ذهب. وقيل: مِن فضّة مُموّهة بالذهب. وقيل: كانت إناءً مستطيلةً تشبه المكّوك[٢] الفارسي الذي يلتقي طرفاه يستعمله الأعاجم. وقيل: كانت مرصّعةً بالجواهر. ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين. وقُرئ: "وَجَعَلَ"[٣] على حذف جواب ﴿لَمَّا﴾، تقديره: أمهَلَهم حتّى انطلَقوا.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى منادٍ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ وهي الإبل التي عليها الأحمال؛ لأنّها تَعِير، أي: تذهب وتجيء. وقيل: هي قافلة الحمير، ثمّ كثر حتّى قيل لكلّ قافلةٍ: عيرٌ، كأنّها جمع "عَيْر"، وأصلها فُعُلٌ، مثل: سَقْف وسُقُف، ففُعِل به ما فُعِل ببِيضٍ وغِيدٍ. والمراد أصحابُها كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «يا خيل الله اركبي».[٤]

رُوي أنّهم ارتحلوا، وأمهَلَهم يوسف حتّى انطلقوا منزلًا.[٥] وقيل: خرجوا مِن العِمارة، ثمّ أمر بهم فأُدرِكوا ونُودوا:[٦] ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ هذا الخطاب إن كان بأمر يوسف فلعلّه أُريدَ بالسرقة أَخذُهم له مِن أبيه، ودخولُ بِنيامين فيه بطريق التغليب، وإلّا فهو مِن قِبَل المؤذّن بناء على زعمه. والأوّل هو الأظهر الأوفق للسياق. وقرأ اليماني: "سَارِقُونَ" بلا لام.[٧]

---

١ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٣٩/٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٨٩/٢.

٢ المكّوك: مكيال. **الصحاح** للجوهري، «مكك».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٩٠/٢؛ **والمحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٥٤/٦.

٤ انظر: **جامع البيان** للطبري، ٣٦٢/٨؛ **والكشف والبيان** للثعلبي، ٥٥/٤.

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٣٩/٥؛ **التفسير الوسيط** للواحدي؛ ٦٢٣/٢؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٩٠/٢.

٦ **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٦٠/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٢٦٠/١١.

٧ انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٩.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ٧٢﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: الإخوة ﴿وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم﴾ جملة حاليّة مِن ضمير ﴿قَالُواْ﴾ جِيء بها للدلالة على انزعاجهم ممّا سمعوه لمباينته لحالهم.[١] / [٢١٤و] ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي: تَعْدَمُون، تقول: "فَقَدْتُ الشيءَ" إذا عَدِمْتَه بأن ضلّ عنك لا بفعلك. والمآل: ماذا ضاعَ عنكم. وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة.

وقُرئ: "تُفْقِدُونَ"[٢] مِن "أَفْقَدتُه" إذا وَجَدتَه فقِيدًا، وعلى التقديرين فالعدول عمّا يقتضيه الظاهر مِن قولهم: ماذا سُرِق منكم؟ لبيان كمال نزاهتهم بإظهار أنّه لم يُسْرَقْ منهم شيء فضلًا أن يكونوا هم السارقين له، وإنّما الممكن أن[٣] يضيع منهم شيء فيسألونهم أنّه ماذا؟ وفيه إرشاد لهم إلى مراعاة حُسنِ الأدب والاحتراز عن المجازَفة ونسبة البُرَآءِ إلى ما لا خير فيه، لا سيّما بطريق التوكيد، فلذلك غيَّرُوا كلامهم حيث ﴿قَالُواْ﴾ في جوابهم: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ ولم يقولوا سَرَقْتُمُوهُ أو سُرِق.

وقُرئ: "صَاعَ"[٤] و"صُوعَ"[٥] و"صَوغَ"[٦] بفتح الصاد وضمّها، وبإهمال العين وإعجامها مِن الصياغة.

ثمّ قالوا تَربيةً لِما تلقّوه مِن قبلهم، وإراءةً لِاعتقادِ أنّه إنّما بقي في رحلهم اتّفاقًا: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ مِن عند نفسه مُظهِرًا له قبل التفتيش ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ مِن الطعام، جُعلًا له لا على نيّة تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط، وعزمهم على ما لا يخفى مِن أخذ مَن وُجد في رحله. ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ كفيل أُؤدّيه إليه. وهو قول المؤذّن.

---

١ وفي هامش م: أي: قالوا وقد أقبلوا إلى المؤذّن وأصحابه. «منه».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

٣ س: لن.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي هريرة رضي الله عنه ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ﴾ الجمهور على أنّ التاء بدل مِن الواو، ولذلك لا تدخل إلّا على الجلالة المعظَّمة، أو الربِّ المضاف إلى الكعبة، أو الرحمنِ في قول ضعيف. ولو قلتَ: "تالرحيم" لم يجُز. وقيل: مِن الباء. وقيل: أصل بنفسها. وأيًّا ما كان ففيه تعجّب.

﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ علمًا جازمًا مطابقًا للواقع ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لنَسْرِقَ، فإنّه مِن أعظم أنواع الإفساد. أو لنفسد فيها أيّ إفساد كان، ممّا عزّ أو هان، فضلًا عمّا نسبتمونا إليه مِن السرقة.

ونفي المَجيء للإفساد وإن لم يكن مستلزمًا لِما هو مقتضى المقام مِن نفي الإفساد مطلقًا لكنّهم جعلوا / المجيء الذي يترتّب عليه ذلك ولو بطريق الاتّفاق مجيئًا لغرض الإفساد مفعولًا لأجله ادّعاءً إظهارًا لكمال قبحه عندهم وتربيةً لاستحالة صدوره عنهم، كما قيل في قوله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق، ٢٩/٥٠] الدالّ بظاهره على نفي المبالغة في الظلم، دون نفي الظلم في الجملة الذي هو مقتضى المقام مِن أنّ المعنى: إذا عذّبتُ مَن لا يَستحقّ التعذيب كنت ظلّامًا مُفرطًا في الظلم. [٢١٤ظ]

فكأنّهم قالوا: إن صدر عنّا إفساد كان مجيئنا لذلك، مريدين به تقبيحَ حاله وإظهارَ كمال نزاهتهم عنه. يعنون أنّه قد شاع بينكم في كرّتَي مجيئنا ما نحن عليه -وقد كانوا على غاية ما يكون مِن الديانة والصيانة فيما يأتون ويذَرون، حتّى رُوي أنّهم دخلوا مصر وأفواهُ رواحلهم مَعكومة[1] لئلّا تتناول زرعًا أو طعامًا لأحدٍ، وكانوا مثابرين على فنون الطاعات-[2] وعلمتم بذلك أنّه لا يصدر عنّا إفسادٌ ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي: ما كنّا نوصف بالسرقة قطّ.

وإنّما حكموا بعلمهم ذلك لأنّ العِلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العِلم بأحوالهم الغائبة. وإنّما لم يكتفوا بنفي الأمرين المذكورين؛ بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزامًا للحجّة عليهم، وتحقيقًا للتعجّب المفهوم مِن تاء القَسَم.

---

[1] م: مَكعومة [صحح في الهامش]. وفي هامش م: يقال: كَعمت البعير وعكَمته، أي: شددتُ فاه. «منه». | انظر: الصحاح للجوهري، «كعم» «عكم».

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٢.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: أصحابُ يوسف عليه السلام ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ الضمير للصُواع، على حذف المضاف، أي: فما جزاء سرقته عندكم وفي شريعتكم ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ لا في دعوى البراءة عن السرقة، فإنّهم صادقون فيها؛ بل فيما يستلزمه ذلك مِن نفي كون الصُّواع فيهم كما يؤذن به قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ أي: أَخْذُ مَنْ وُجِد الصواعُ ﴿فِي رَحۡلِهِۦ﴾ حيث ذُكر بعنوان الوجدان في الرحل دون عنوان السرقة، وإن كان ذلك[1] مستلزمًا لها في اعتقادهم المبنيّ على قواعد العادة، ولذلك أجابوا بما أجابوا. فإنّ الأخذ والاسترقاق سنَةً إنّما هو جزاء السارق دون مَن وُجِدَ فِي يده مال غيره كيفما كان، فتأمّل، واحمِل كلام كلّ فريق على ما لا يزاحم رأيَهُ، / فإنّه أقرب إلى معنى الكيد وأبعد مِن الافتراء. [٢١٥و]

وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقرير لذلك الحكم، أي: فأخذه جزاؤه، كقولك: حقّ الضيف أَن يُكرَم فهو حقّه. ويجوز أن يكون ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأً، والجملة الشرطيّة كما هي خبرَه، على إقامة الظاهر مُقام المُضمَر. والأصل: جزاؤه مَن وُجد في رحله فهو، على أنّ **الأوّل** لـ«مَن»، و**الثاني** للظاهر الذي وُضع مَوضعه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالسرقة. تأكيد للحكم المذكور غِبَّ تأكيدٍ، وبيانٌ لقبح السرقة، ولقد فعلوا ذلك ثقةً بكمال براءتهم عنها، وهم عمّا فُعِلَ بهم غافِلون.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦﴾

﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف بعد ما رَجَعُوا إليه للتفتيش ﴿بِأَوۡعِيَتِهِمۡ﴾ بأوعية الإخوة العشرة، أي: بتفتيشها ﴿قَبۡلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين لنفي التهمة. رُوي

[1] س - ذلك.

أنّه لمّا بلغت النوبة إلى وِعائه قال: «ما أظنّ هذا أخذ شيئًا»، فقالوا: «والله لا نتركه حتّى تنظر في رحله، فإنّه أطيب لنفسك وأنفسنا».[١]

﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ أي: السقاية، أو الصواع، فإنّه يذكّر ويؤنّث. ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لم يُقَل: منه، على رجع الضمير إلى الوعاء، أو مِن وعائه، على رجعه إلى ﴿أخيه﴾؛ قصدًا إلى زيادة كشف وبيان. وقُرئ بضمّ الواو،[٢] وبقلبها همزة،[٣] كما في إِشاح في وِشاح.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب على المصدريّة، والكاف مُقحَمة للدلالة على فخامة المشار إليه. وكذا ما في "ذلك" مِن معنى البُعد، أي: مثلَ ذلك الكَيد العجيب. وهو عبارة عن إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين مِن حيث لم يحتسبوا، فمعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾: صنعنا له ودبّرنا لأجل تحصيل غرضه مِن المقدّمات التي رتّبها مِن دسّ الصواع وما يتلوه، فـ"اللام" ليست كما في قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ / كَيۡدًا﴾،[٤] فإنّها داخلة على المتضرِّر على ما هو الاستعمال الشائع. [٢١٥ظ]

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ استئناف وتعليل لذلك الكَيد وصنعه، لا تفسير وبيان له كما قيل،[٥] كأنّه قيل: لماذا فُعِل ذلك؟ فقيل: لأنّه لم يكن ليأخذ أخاه[٦] بما فعله في دين الملِك في أمر السارق -أي: في سلطانه، قاله ابن عبّاس،[٧] أو في حكمه وقضائه، قاله قتادة-[٨] إلّا به؛ لأنّ جزاء السارق في دينه إنّما كان ضربَه وتغريمَه ضِعفَ ما أخذ، دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة

---

١ جامع البيان للطبري، ٢٦٠/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤١/٥.

٢ أي: "وُعَاءِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠.

٣ أي: "إِعَاءِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠.

٤ يوسف، ٥/١٢.

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٧٢/٣.

٦ وفي هامش م: وإنّما خصّصنا عجزه عن أخذه بذلك؛ إذ لا علاقة بين عجزه المطلق وبين حكم الملِك في خصوص أمر السارق. «منه».

٧ جامع البيان للطبري، ٢٦٤/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٢/٥.

٨ جامع البيان للطبري، ٢٦٥/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٢/٥.

يعقوب عليه السلام، فلم يكن يتمكّن بما صنعه مِن أخذ أخيه بالسرقة التي نسبها إليه في حال من الأحوال.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلّا حالَ مشيئته التي هي عبارة عن إرادته لذلك الكيدِ، أو إلّا حالَ مشيئته[1] للأخذ بذلك الوجه.

ويجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مَباديه المؤدّية إليه جميعًا مِن إرشاد يوسف وقومه إلى ما صدر عنهم مِن الأفعال والأقوال حسبما شرح مرتَّبًا، لكن لا على أن يكون القصر المستفاد مِن تقديم المجرور مأخوذًا بالنسبة إلى غيره مطلقًا على معنى: مثل ذلك الكيدِ كدنا، لا كيدًا آخر، إذ لا معنى لتعليله بعجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه في دين الملِك في شأن السارق قطعًا، إذ لا علاقة بين مطلَق الكيد ودِين الملِك في أمر السارق أصلًا؛ بل بالنسبة إلى بعضه، على معنى: مثلَ ذلك الكيد البالغ إلى هذا الحدّ كِدنا له، ولم نكتف ببعضٍ مِن ذلك؛ لأنّه لم يكن يأخذ أخاه في دين الملِك به إلّا حالَ مشيئتنا له بإيجاد ما يجري مَجرى الجزء الصوري مِن العلّة التامّة -وهو إرشاد إخوته- إلى الإفتاء المذكور.

وعلى هذا ينبغي أن يحمل القصر في تفسير مَن فسّر[2] قوله تعالى: ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ بقوله: علّمناه إيّاه وأوحينا به إليه. أي: مثلَ ذلك التعليم المستتبع لِما شُرح مرتّبًا علّمناه دون بعضٍ مِن ذلك فقط... إلخ.

وعلى كلّ حال فالاستثناء مِن أعمّ الأحوال كما أشيرَ إليه،[3] ويجوز أن يكون مِن أعمّ العلل والأسباب، أي: لم يكن يأخذ أخاه لعلّة مِن العلل أو بسببٍ من الأسباب إلّا لعلّة مشيئته تعالى، أو إلّا بسبب مشيئته تعالى. وأيًا ما كان فهو متّصل؛ / لأنّ أخذ السارق إذا كان ممّن يرى ذلك ويعتقده دينًا لا سيّما عند رضاه وإفتائه به ليس مخالفًا لدِين الملِك. [٢١٦و]

---

١ وفي هامش م: قال ابن عطيّة: «والاستثناء حال، والتقدير: إلّا أن يشاء الله ما وقع مِن هذه الحيلة». لباب. «منه». | المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٦٦/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٧١/١١.

٢ وهو الزمخشري في الكشّاف، ٤٩١/٢؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١٧٢/٣.

٣ م ط س - كما أشيرَ إليه. [«صح» في هامش م].

وقد قيل: معنى الاستثناء: إلّا أن يشاءَ الله أن يجعل ذلك الحكمَ حكمَ الملِك.[١] وأنت تدري أنّ المراد بـ"دِينه" ما عليه حينئذ، فتغييره مخلّ بالاتّصال. وإرادةُ مطلق ما يتديّن به أعمّ منه وممّا يحدث تُفضي إلى كون الاستثناءِ مِن قبيل التعليق بالمحال؛ إذ المقصود بيانُ عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ، ولم يتعلّق المشيئة بالجعل المذكور إذ ذاك. وإرادة عجزه مطلقًا تؤدّي إلى خلاف المراد، فإنّ استثناءَ حال المشيئة المذكورة مِن أحوال عجزه عليه السلام ممّا يُشعر بعدم الحاجة إلى الكيد المذكور، فتدبّر.

وقد جُوّز الانقطاع، أي: لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه في دِين غير دِين الملِك.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: رُتَبًا كثيرةً عاليةً مِن العِلم. وانتصابها على المصدريّة، أو الظرفيّة، أو على نزع الخافض، أي: إلى درجات. والمفعول قولُه تعالى: ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ أي: نشاء رفعَه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف. وإيثارُ صيغة الاستقبال للإشعار بأنّ ذلك سنّة مستمرّة غير مختصّة بهذه المادّة. والجملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ﴾ مِن أولئك المرفوعين ﴿عَلِيمٌ﴾ لا ينالون شَأوَهُ.

واعلم أنّه إن جعل الكيد عبارة عن المعنيَين الأوّلَين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتُبِر فيه بالشرطيّة أو الشطريّة مِن إرشاده عليه السلام إلى دسّ الصواع في رحل أخيه وما يتفرّع عليه مِن المقدّمات المرتّبة لاستبقاء أخيه ممّا يتمّ مِن قبله.

والمعنى: أرشَدْنا إخوته إلى الإفتاء المذكور؛ لأنّه لم يكن متمكّنًا مِن أخذ أخيه بدونه، أو أرشَدْنا كلًّا منهم ومِن يوسف وأصحابه إلى ما صدَر عنهم، ولم نكتف بما تمّ مِن قبل يوسف فقط؛ لأنّه لم يكن متمكّنًا مِن أخذ أخيه بذلك، فقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ توضيح لذلك على معنى

---

[١] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٧٢/٣.

أنّ الرفع المذكور / لا يوجب تمام مرامه، إذ ليس ذلك بحيث لا يعزُب عن [٢١٦ظ] علمه شيء؛ بل إنّما نرفع كلّ مَن نرفع حسب استعداده، وفوق كلّ واحد منهم عليم لا يقادَر قدرُ علمه، ولا يُكتَنه كُنهُه، يرفع كلًّا منهم إلى ما يليق به مِن معارج العِلم ومدارجه، وقد رفع يوسف إلى ما يليق به مِن الدرجات العالية، وعلم أنّ ما حواه دائرة علمه لا يفي بمَرامه، فأرشد إخوته إلى الإفتاء المذكور، فكان ما كان.

وكأنّه عليه السلام لم يكن على يقين مِن صدور الإفتاء المذكور عن إخوته وإن كان على طمعٍ منه، فإنّ ذلك إلى الله عزّ وجلّ وجودًا وعِلمًا.

والتعرّض لوصف العِلم لتعيين جهة الفوقيّة. وفي صيغة المبالغة مع التنكير والالتفاتِ إلى الغيبة مِن الدلالة على فخامة شأنه عزّ وعلا وجلالةِ مقدار علمه المحيط ما لا يخفى.

وأمّا إن جُعل عبارةً عن التعليم المستتبع للإفتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم. والإفتاءُ وإن لم يكن داخلًا تحت قدرته عليه السلام لكنّه كان داخلًا تحت علمه بواسطة الوحي والتعليم. والمعنى: مثل ذلك التعليم البالغ إلى هذا الحدّ علّمناه، ولم نقتصر على تعليم ما عدا الإفتاء الذي سيصدر عن إخوته؛ إذ لم يكن متمكّنًا مِن أخذ أخيه إلّا بذلك.

فقوله: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ توضيح لقوله: ﴿كِدۡنَا﴾ وبيان؛ لأنّ ذلك مِن باب الرفع إلى الدرجات العالية مِن العِلم، ومدح ليوسف برفعه إليها. وقوله: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ تذييل له، أي: نرفع درجات عالية مِن العلم مَن نشاء رفعه، وفوق كلّ منهم عليم هو أعلى درجة.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[١] «فوقَ كلّ عالِمٍ عالِمٌ إلى أن ينتهي العِلم إلى الله تعالى».[٢] والمعنى: إنّ إخوة يوسف كانوا علماء إلّا أنّ يوسف أفضل منهم.

---

١ م - رضي الله عنهما.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٢/٥؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٦٢٤/٢. وهو في جامع البيان للطبري، ٢٧٠/١٣، مِن قول الحسن.

وقُرئ: "دَرَجَاتِ مَن نَّشَاءُ" بالإضافة.[1] والأوّل أنسب بالتذييل حيث نُسب فيه الرفع إلى مَن نُسب إليه الفوقيّة، لا إلى درجته. ويجوز كون "العليم" في هذا التفسير أيضًا عبارةً عن الله عزّ وجلّ، أي: وفوق كلّ مِن أولئك المرفوعين عليم، يرفع كلًّا منهم إلى درجته اللائقة به، / والله تعالى أعلم. [٢١٧و]

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه مِن جهة عمّته على ما قيل مِن أنّها كانت تحضنه، فلمّا شبّ أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها، وكانت لا تصبر عنه ساعةً. وكانت لها مِنطَقة وَرِثَتْها مِن أبيها إسحاق عليه السلام، فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمَدَتْ إلى المِنطَقة فحَزَمَتْها عليه مِن تحت ثيابه، ثمّ قالت: فُقِدت مِنطَقة إسحاق، فانظروا مَن أخذها، فوجدوها محزومةً على يوسف، فقالت: إنّه لي سَلَم أفعل به ما أشاءُ، فخلّاه يعقوب عندها حتّى ماتَتْ.[2]

وقيل: كان أخذ في صباه صنمًا لأبي أمّه فكسره وألقاه في الجِيَف.[3] وقيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالًا صغيرًا مِن ذهَب كانوا يعبدونه فدفنه.[4]

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ أي: أكنّ الحزازة الحاصلة ممّا قالوا ﴿فِي نَفۡسِهِۦ﴾ لا أنّه أسرّها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح، ٩/٧١]. ﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾ لا قولًا ولا فعلًا صفحًا عنهم وحِلمًا. وهو تأكيد لِما سبق.

﴿قَالَ﴾ أي: في نفسه. وهو استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن الإخبار بالإسرار المذكور، كأنّه قيل: فماذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك الإسرار؟ فقيل: قال: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي: منزلةً حيث سرقتم أخاكم مِن أبيكم ثمّ طَفِقتُم

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٩٣/٢.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٤٩٢/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٢/٣.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٤٩٢/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٢/٣.

تَفترُون على البريء. وقيل: بدل مِن ﴿أَسَرَّهَا﴾، والضمير للمقالة المفسَّرة بقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: عالم عِلمًا بالغًا إلى أقصى المراتب، فإنّ الأمر ليس كما تصفون مِن صدور السرقة منّا؛ بل إنّما هو افتراء علينا، فالصيغة لمجرّد المبالغة، لا لتفضيل علمه عزّ وجلّ على علمهم، كيف لا وليس لهم بذلك مِن علم؟

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالُواْ﴾ عندما شاهدوا مَخائل أخذ بنيامين مستعطِفين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا﴾ لم يريدوا بذلك الإخبار بأنّ له أبًا، فإنّ ذلك معلوم ممّا سبق،[1] وإنّما أرادوا الإخبار بأنّ له أبًا / ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السنّ لا يكاد يستطيع فِراقه، وهو [٢١٧ظ] عُلَالةٌ به يَتعلّل عن شقيقه الهالك، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ فلسنا عنده بمنزلته مِن المحبّة والشفَقة. ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا، فأتمم إحسانَك بهذه التتمّة، أو المتعوّدين بالإحسان، فلا تُغيّرْ عادَتك.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعوذ بالله مَعاذًا مِن ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ فحُذف الفعل، وأُقيم مُقامه المصدر مضافًا إلى المفعول به بعد حذف الجارّ. ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥ﴾ لأنّ أخذَنا له إنّما هو بقضيّة فتواكم، فليس لنا الإخلال بموجَبها. وإيثار صيغة التكلّم مع الغير مع كون الخطاب مِن جانب إخوته على التوحيد مِن باب السلوك إلى سَنن الملوك، أو للإشعار بأنّ الأخذ والإعطاء ليس ممّا يستبدّ به؛ بل هو مَنوط بآراء أولي الحلّ والعقد.

وإيثارُ ﴿مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥ﴾ دون "مَن سرق متاعنا" لتحقيق الحقّ، والاحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرام، فإنّهم لا يَحملون وجدان الصواع في الرحل على مَحمل غير السرقة.

---

[1] وفي هامش: مِن قولهم: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف، ٦١/١٢]. «منه».

﴿إِنَّآ إِذٗا﴾ أي: إذا أخذنا غير مَن وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ في مذهبكم وما لنا ذلك. وهذا المعنى هو الذي أريدَ بالكلام في أثناء الحِوار. وله معنى باطن؛ هو أنّ الله عزّ وجلّ إنّما أمرني بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالِحَ عَلِمَها الله في ذلك، فلو أخذتُ غيره كنت ظالمًا وعاملًا بخلاف الوحي.

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨٠﴾

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ﴾ أي: يئسوا مِن يوسف وإجابتِه لهم أشدّ يأس، بدِلالة صيغة الاستفعال. وإنّما حصلت لهم هذه المرتبة مِن اليأس لِما شاهدوه مِن عوَذه بالله ممّا طلبوه الدالِّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة، وأنّه ممّا يجب أن يحترز عنه ويُعاذَ منه بالله عزّ وجلّ، ومِن تسميته ظلمًا بقوله: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾.[١]

﴿خَلَصُواْ﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس ﴿نَجِيّٗا﴾ أي: ذَوِي نجوى، على أن يكون بمعنى النجوى والتناجي، أو فوجًا نجيًا، على أن يكون بمعنى المناجي، كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمُسَامِر، / ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم، ٥٢/١٩]. ويجوز أن يقال: هم نَجيّ، كما يقال: هم صديق؛ لأنّه بزِنة المصادر مِن الزفير والزئير. [٢١٨و]

﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ في السنّ، وهو روبيل، أو في العقل، وهو يهوذا؛ أو رئيسهم، وهو شمعون: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾ كأنّهم أجمعوا عند التناجي على الانقلاب جملةً ولم يرضَ به، فقال منكِرًا عليهم: أَلَم تعلموا ﴿أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عهدًا يوثَق به، وهو حلفهم بالله تعالى. وكونه مِن الله لإذنه فيه وكونِ الحلف باسمه الكريم.

---

[١] في الآية السابقة.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قَبلِ هذا[1] ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ قصّرتم في شأنه، ولم تحفظوا عهدَ أبيكم وقد قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾،[2] ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.[3] و﴿مَا﴾ مزيدة أو مصدريّة. ومحلّ المصدر النصب عطفًا على مفعول ﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾، أي: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقًا وتفريطَكم السابقَ في شأن يوسف. ولا ضَيرَ في الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف.

وقد جوّز النصب عطفًا على اسم ﴿أَنَّ﴾، والخبر ﴿فِي يُوسُفَ﴾ أو ﴿مِن قَبْلُ﴾، على معنى: ألم تعلموا أنّ تفريطكم السابق وقع في شأن يوسف؟ أو أنّ تفريطكم الكائن أو كائنًا في شأن يوسف وقع مِن قبلُ؟ وفيه أنّ مقتضى المقام إنّما هو الإخبار بوقوع ذلك التفريط، لا بِكون تفريطهم السابق واقعًا في شأن يوسف كما هو مَفادُ الأوّل، ولا بكون تفريطهم الكائن في شأنه واقعًا مِن قبلُ كما هو مفادُ الثاني، على أنّ الظرف المقطوع عن الإضافة لا يقع خبرًا ولا صفةً ولا صِلة ولا حالًا عند البعض كما تقرّر في موضعه.

وقيل: محلّه الرفع على الابتداء، والخبرُ ﴿مِن قَبْلُ﴾، وفيه ما فيه. وقيل: ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، ومحلّها النصب أو الرفع، والحقّ هو النصب عطفًا على مفعول ﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾، أي: ما فرطّتموه بمعنى قدّمتموه في حقّه مِن الخيانة. وأمّا النصب عطفًا على اسم ﴿أَنَّ﴾ أو الرفع على الابتداء فقد عرفتَ حاله.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ متفرّع على ما ذكره وذكّره إيّاهم مِن ميثاق أبيه وقوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.[4] أي: فلن أفارق أرض مصر جريًا على قضيّة الميثاق ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ في البَراح بالانصراف إليه. وكأنّ أَيمانَهم كانت معقودةً على عدم الرجوع بغير إذن يعقوب عليه السلام. ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها على وجه / لا يؤدّي إلى نقض الميثاق، أو بخلاص أخي بسبب مِن الأسباب. [٢١٨ظ]

رُوي أنّهم كلّموا العزيز في إطلاقه، فقال رُوبيل: أيّها الملِك؛ لتردّنّ إلينا أخانا أو لَأَصِيحَنَّ صَيْحةً لا تبقى بمصر حامل إلّا ألقت ولدها، وقفّت كل شعرة

---

١ وفي هامش م: إشارة إلى أخذ الميثاق. «منه».
٢ يوسف، ١٢/١١.
٣ يوسف، ١٢/٦٦.
٤ يوسف، ١٢/١٢.

في جسده فخرجت مِن ثيابه. وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لا يطاقون، خَلا أنّه إذا مسّ مَن غضب واحدٌ منهم سكن غضبه، فقال يوسف لابنه: قم إلى جنبه فَمَسَّه، فَمَسَّه، فقال روبيل: مَن هذا؟ إنّ في هذا البلد بَذْرًا مِنْ بَذْر يعقوبَ.[١]

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يحكم إلّا بالحقّ والعدل.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿ٱرْجِعُوٓاْ﴾ أنتم ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ على ظاهر الحال. وقُرِئ: "سُرِّقَ"،[٢] أي: نُسب إلى السرقة. ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ وشاهدنا أنّ الصواع استخرِج مِن وعائه، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ أي: باطن الحال ﴿حَٰفِظِينَ﴾ فما ندري أنّ حقيقة الأمر كما شاهدنا أم بخلافه. أو ما كنّا عالمين حين أعطيناك المَوثق أنّه سيسرق، أو أنّا نلاقي هذا الأمر، أو أنّك تُصاب به كما أُصبت بيوسف.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ أي: مصر، أو قرية بقربها لحِقهم المنادي عندها، أي: أرسل إلى أهلها، واسألهم عن القصّة. ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: أصحابَها، فإنّ القصّة معروفة فيما بينهم، وكانوا قومًا مِن كنعان مِن جيزان يعقوب. وقيل: مِن صنعاءَ. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تأكيد في محلّ القسَم.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: يعقوب عليه السلام. وهو استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ ممّا سبق، فكأنّه قيل: فماذا كان عند قول المتوقّف لإخوته ما قال؟ فقيل:

---

١ جامع البيان للطبري، ٢٧٨/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٤/٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي البرهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠. وعزاها ابن عطيّة إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبي رزين. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٧٠/٣.

قال يعقوب[١] عندما رجعوا إليه، فقالوا له ما قالوا، وإنّما حُذف للإيذان بأنّ مسارعتهم إلى قَبوله ورجوعهم به إلى أبيهم أمر مسلّم غنيّ عن البيان، وإنّما المحتاج إليه جواب أبيهم.

﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زيّنت وسهّلت. وهو إضراب لا عن صريح كلامهم، فإنّهم صادقون في ذلك؛ بل عمّا يتضمّنه مِن ادّعاءِ البراءة / عن التسبّب فيما [٢١٩و] نزل به، وأنّه لم يصدر منهم ما يؤدّي إلى ذلك مِن قول أو فعل، كأنّه قيل: لم يكن الأمر كذلك؛ بل زيّنت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ مِن الأمور فأتيتموه. يريد بذلك فُتْيَاهُم بأخذ السارق بسرقته.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسف وأخيه والمتوقّف بمصر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لم يبتلِني إلّا لحكمةٍ بالغة.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ كراهة لِما سمع منهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الأسَف: أشدّ الحزن والحسرة. أَضَافَه إلى نفسه -والألِف بدل مِن الياء- فناداه، أي: يا أسفي[٢] تعالَ، فهذا أوانك. وإنّما تأسّف على يوسف مع أنّ الحادث مصيبة أخويه لأنّ رُزأه كان قاعدةَ الأرْزَاءِ، غَضًّا عنده وإن تَقَادَم عهدُه، آخِذًا بمَجامع قلبه لا ينساه، ولأنّه كان واثقًا بحياتهما، عالِمًا بمكانهما، طامعًا في إيابهما. وأمّا يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرّك سلسلة رَجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله.

وفي الخبر: «لم تُعطَ أمّة مِن الأمم "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"، إلّا أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[٣] ألا يُرى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع؛ بل قال ما قال.

---

١ س + عليه السلام.
٢ س: يا أسفا.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٤٧. ونحوه في المعجم الكبير للطبراني، ١٢/٤٠ (١٢٤١١)؛ والدعاء للطبراني، ص ٣٧٠.

والتجانس بين لفظَي "الأسف" و"يوسف" ممّا يزيد النظم الكريم بهجةً، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام، ٢٦/٦]، وقوله: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم﴾ [التوبة، ٣٨/٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل، ٦٩/١٦]، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل، ٢٢/٢٧]، ونظائرِها.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ الموجب للبكاء، فإنّ العَبْرة إذا كثرت مَحَقَتْ سواد العين / وقَلَبتْه إلى بياضٍ كَدِرٍ. قيل: قد عَمِي بَصَرُه.[1] وقيل: كان يُدرِك إدراكًا ضعيفًا. [٢١٩ظ]

رُوي أنّه ما جَفَّتْ عَيْنَا يعقوبَ مِن يوم فِراقِ يوسف إلى حين لقائه ثمانين عامًا وما عَلى وَجهِ الأرضِ أكرم على الله عزّ وجلّ مِن يعقوب عليه السلام.[2]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنّه سأل جبريلَ عليه السلام: ما بلغ مِن وَجْد يعقوب على يوسف؟ قال: وَجْد سبعين ثكلى، قال: فما كان له مِن الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما ساءَ ظنّه بالله تعالى ساعةً قطّ».[3]

وفيه دليل على جواز التأسّف والبكاء عند النوائب، فإنّ الكفّ عن ذلك ممّا لا يدخل تحت التكليف، فإنّه قلّ مَن يَمْلكُ نفسَه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ولده إبراهيم وقال: «القلب يحزَن، والعين تدمع، ولا نقول ما يُسْخِط الربَّ، وإنّا عليك يا إبراهيم لمَحزونون».[4] وإنّما الذي لا يجوز ما يفعله الجهلة مِن الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشقّ الجيوب وتمزيق الثياب. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه، فقيل: يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: «ما نهيتكم عن البكاء، وإنّما نهيتكم عن صوتين أحمقين؛ صوتٍ عند الفرح، وصوتٍ عند الترح».[5]

---

١ وفي هامش م: لقوله: ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف، ٩٦/١٢].

٢ جامع البيان للطبري، ٣٦١/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢.

٣ جامع البيان للطبري، ٣٠٧/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢.

٤ صحيح البخاري، ٨٣/٢ (١٣٠٣)؛ صحيح مسلم، ١٨٠٧/٤ (٢٣١٥).

٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/٢. والصحيح أنّ هذا في موت إبراهيم ولد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما أخرجه الترمذي في السنن، ٣١٩/٣ (١٠٠٥).

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء مِن الغيظ على أولاده، ممسك له في قلبه لا يظهره. فَعيل بمعنى مفعول، بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٌ﴾ [القلم، ٤٨/٦٨]، مِن "كظَم السقاء" إذا شدّه على مِلْئِه. أو بمعنى فاعل، كقوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران، ١٣٤/٣]، مِن "كظَم الغيظ" إذا اجترعه، وأصله: كظَم البعيرُ جِرّتَه[1] إذا رَدّها في جوفه.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ﴾ أي: لا تفتؤ[2] ولا تزال ﴿تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ تفجّعًا عليه. فحُذف حرف النفي كما في قوله:

فَـقُـلْـتُ يَـمِـيـنُ الله أبـــرَحُ قـاعِـدًا[3]

لعدم الالتباس بالإثبات، فإنّ القسَم إذا لم يكن معه علامة الإثبات يكون على النفي البتّة.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضًا مُشفيًا على الهلاك. وقيل: الحرَض مَن أذابه همّ أو مرض. وهو / في الأصل مصدر، ولذلك لا يؤنَّث ولا يثنّى ولا يُجمع، [٢٢٠و] والنَعتُ منه بالكسر كَدَنِف، وقد قُرئ به،[4] وبضمّتين،[5] كجُنُب وغرِب. ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ أي: الميّتين.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾ البثّ أصعب الهمّ الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثّه إلى الناس، أي: ينشره، فكأنّهم قالوا لَهُ مَا قالوا بطريق التسلية والإشكاءِ،

---

[1] الجِرّة بالكسر: ما يخرجه البعير للاجترار. الصحاح للجوهري، «جرر».

[2] س: لا تفتأ.

[3] تمامه:

ولو قَطعوا رأسي لدَيك وأوصالي

وهو لامرئ القيس في ديوانه، ص ٣٢. رفعوا "يمينُ الله" بالابتداء وحذفوا خبره، وتقديره: يمينُ الله قسمي، وهو مثل: لعمرُ الله لأفعلنّ. والمعنى: أنّ هذه المرأة لمّا وصل إليها امرؤ القيس زجرته، وأرادت أن ينصرف، فحلف أنه لا يبرح حتى ينال حاجته ولو ضُرب رأسه وأوصاله. وأوصاله: أعضاؤه الواحد منها وِصْل. شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ٢٠٤/٢.

[4] أي: "حَرِضًا". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذَكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٢.

[5] أي: "حُرُضًا". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن البصري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١.

فقال لهم: إنّي لا أشكو ما بي إليكم أو إلى غيركم حتّى تتصدّوا لتسليتي، وإنّما أشكو همّي ﴿وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى ملتجِئًا إلى جنابه متضرِّعًا لدى بابه في دفعه. وقُرئ بفتحتين،[١] وضمّتين.[٢]

﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مِن لطفه ورحمته، فأرجو أن يرحمني، ويَلطُفَ بي، ولا يُخيِّب رجائي، أو أعلَم وَحيًا أو إلهامًا مِن جهته ما لا تعلمون مِن حياة يوسف. قيل: رأى ملَك الموت عليه السلام في المنام فسأله عنه، فقال: هو حيّ.[٣] وقيل: علِم مِن رؤيا يوسف عليه السلام أنّه سيخرّ له أبواه وإخوته سجّدًا.[٤]

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾ أي: تعرّفوا. وهو تَفَعّل مِن الحِسّ. وقُرئ بالجيم[٥] مِن الجَسّ؛ وهو الطلب، أي: تطلّبوا ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: مِن خبرهما. ولم يذكر الثالث لأنّ غيبته اختياريّة لا يعسر إزالتها. ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ لا تقنَطوا مِن فرَجه وتنفيسه.

وقُرئ بضمّ الراء،[٦] أي: مِن رحمته التي يُحيي بها العباد. وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أبهم في قوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.[٧] ثمّ حذّرهم عن ترك العمل بموجَب نهيه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته، فإنّ العارف لا يقنَط في حال مِن الأحوال.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٤/٣.

[٤] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٤/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٩٣/١١.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب والنخعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة وعمر بن عبد العزيز. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١

[٧] في الآية السابقة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزْجَىٰةٖ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ٨٨ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر بموجَب أمر أبيهم. وإنّما لم يذكر ذلك إيذانًا بمسارعتهم إلى ما أُمِروا به، وإشعارًا بأنّ ذلك أمر محقَّق لا يفتقر إلى الذكر والبيان. ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الملك القادر المتمنّع، ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الهزال مِن شدّة الجوع، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزْجَىٰةٖ﴾ مدفوعةٍ / يدفعها كلّ تاجر رغبةً عنها واحتقارًا لها، مِن "أزْجَيْتُه" إذا دفعتَه وطردتَه، والريح تُزجي السحاب. [٢٢٠ظ]

قيل: كانت بضاعتهم مِن متاع الأعراب صوفًا وسَمنًا. وقيل: الصنوبر وحبّة الخضراء. وقيل: سَوِيق المُقْل والأَقِط. وقيل: دراهم زيوفًا لا تؤخذ إلّا بوَضيعة. وإنّما قدّموا ذلك ليكون ذريعة إلى إسعاف مَرامهم ببعثِ الشفَقة، وهزّ العطف والرأفة، وتحريك سلسلة المرحمة.

ثمّ قالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أتمِمه لنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بردّ أخينا إلينا، قاله الضحّاك وابن جريج، وهو الأنسب بحالهم نظرًا إلى أمر أبيهم، أو بالإيفاء، أو بالمسامحة وقبول المُزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها تفضّلًا. وإنّما سمّوه تصدّقًا تواضعًا، أو أرادوا التصدّق فوق ما يعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبيّنا صلّى الله عليه وسلّم.

وإنّما لم يبدئوا بما أُمِروا به استجلابًا للرأفة والشفَقة ليبعثوا بما قدّموا مِن رقّةِ الحال رقّةَ القلب والحنوَّ، على أنّ ما ساقوه كلام ذو وَجهين، فإنّ قولهم: وتصدّق علينا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يحتمل الحملَ على المَحملين، فلعلّه عليه السلام حمله على المَحمل الأوّل، ولذلك ﴿قَالَ﴾ مُجيبًا عمّا عرّضوا به وضمّنوه كلامهم مِن طلب ردّ أخيهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وكان الظاهر أن يتعرّض لِما فعلوا بأخيه فقط، وإنّما تعرّض لِما فعلوا بيوسف لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما، فإنّ المراد بذلك إفرادهم له عن يوسف

وإذلاله بذلك حتّى كان لا يستطيع أن يكلّمهم إلّا بعجز وذلّة، أي: هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه؟ فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمُه.

﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ بقبحه، فلذلك أقدمتم على ذلك، أو جاهلون عاقبتَه. وإنّما قاله نُصحًا لهم وتحريضًا على التوبة وشفَقة عليهم لمّا رأى عجزهم وتمسكُنهم، لا معاتبةً وتثريبًا. ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام / منقطعًا عن كلامهم وتنبيهًا لهم على ما هو حقّهم ووظيفتهم مِن الإعراض [٢٢١و] عن جميع المطالب والتمحّض في طلب بنيامين؛ بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الإلهام على وصيّة أبيه وإرساله إيّاهم للتحسّس منه ومِن أخيه، فلمّا رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال.

وقيل: أعطَوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كُتب فيه:[١] «مِن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله[٢] ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أمّا بعد، فإنّا أهل بيت موكّل بنا البلاء، أمّا جدّي فشُدَّت يَداه ورِجلاه فرُمي به في النار، فنجّاه الله تعالى، وجُعلت النار له بردًا وسلامًا. وأمّا أبي فوُضع السكّين على قفاه ليُقتل ففَداه الله. وأمّا أنا فكان لي ابن، وكان أحبَّ أولادي إليّ، فذهب به إخوته إلى البرّيّة، ثمّ أتوني بقميصه ملطّخًا بالدم، فقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي مِن بكائِي عليه، ثمّ كان لي ابن، وكان أخاه مِن أمّه، وكنت أتسلّى به، فذهبوا به، ثمّ رجعوا وقالوا: إنّه سَرق، وأنّك حبسته، وإنّا أهل بيت لا نسرِق ولا نلِد سارقًا، فإن رددتَه عليّ وإلّا دعوت عليك دعوة تدرك السابع مِن ولدك، والسلام». فلمّا قرأه لم يتمالك، وعِيل صبره، فقال لهم ما قال.[٣] وقيل: لمّا قرأه بكى، وكتب الجواب: «اصبِر كما صبروا تظفر كما ظفروا».[٤]

---

١ وفي هامش م: كتاب يعقوب عليه السلام.

٢ اختُلف في الذبيح مَن هو؟ إسحاق أم إسماعيل عليهما السلام، وهذا الكتاب أحد حجج القائلين بأنّه إسحاق عليه السلام، والأكثر على أنّه إسماعيل عليه السلام. وكان الزجّاج يقول: الله أعلم أيّهما الذبيح. انظر: تفسير الرازي، ٣٤٨/٢٦ (الصافات، ١٠٢/٣٧).

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٢/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٦٢٧/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٢.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ استفهامُ تقرير، ولذلك أكّدُوهُ بـ"إنّ" و"اللام". قالوه استغرابًا وتعجّبًا. وقُرئ: "إِنَّكَ" بالإيجاب.[1] قيل: عرفوه برُوائه[2] وشمائله حين كلّمهم به. وقيل: تبسّم فعرفوه بثناياه. وقيل: رفع التاج عن رأسه فرأوا علامةً بقَرنه تشبه الشامة البيضاء، وكان لسارة ويعقوب مثلها. وقُرئ: "أَإِنَّكَ أَوْ أَنْتَ يُوسُفُ"[3] / على معنى: أئنّك يوسف أو أنت يوسف، فحُذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، وفيه زيادة استغراب. [٢٢١ظ]

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ جوابًا عن مسألتهم، وقد زاد عليه قوله: ﴿وَهَٰذَآ أَخِي﴾ أي: مِن أبويّ مبالغةً في تعريف نفسه، وتفخيمًا لشأن أخيه، وتكمِلةً لِما أفاده قوله: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾،[4] حسبما يفيده قوله: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ[5] عَلَيۡنَا﴾ فكأنّه قال: هل علمتم ما فعلتم بنا مِن التفريق والإذلال؟ فأنا يوسف وهذا أخي، قد منّ الله علينا بالخلاص عمّا ابتُلِينا به، والاجتماعِ بعد الفرقة، والعزّة بعد الذّلة، والأُنس بعد الوَحشة، ولا يبعد أن يكون فيه إشارةٌ إلى الجواب عن طلبهم لردّ بنيامين بأنّه أخي لا أخوكم، فلا وجه لطلبكم.

ثمّ علّل ذلك بطريق الاستئناف التعليلي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أي: يفعل التقوى في جميع أحواله،[6] أو يَقِ نفسه عمّا يوجب سخطَ الله تعالى وعذابَه ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ على المِحَن، أو على مشقّة الطاعاتِ، أو عن المعاصي التي يستلذّها النفس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: أجرَهم، وإنّما وُضع المُظهَر موضع المُضمَر تنبيهًا على أنّ المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان.[7]

---

١ قرأ بها أبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/١.

٢ الرُّواء، بالضمّ: حُسن المنظر في البهاء والجمال. لسان العرب لابن منظور، «رأى».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٢.

٤ في الآية السابقة.

٥ م + تعالى.

٦ وفي هامش م: يخف الله وعقابه. «كشّاف». | الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٢.

٧ وفي هامش م: تنبيه على أنّ المحسن مَن جمع بين التقوى والصبر. «قاضي». | أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٣.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضّلك علينا بما ذكرت مِن النعوت الجليلة ﴿وَإِن كُنَّا﴾ وإنّ الشأن إنّا كنّا ﴿لَخَٰطِـِٔينَ﴾ لَمتعمّدين للذنْب؛ إذ فعلنا بك ما فعلنا، ولذلك أعزّك وأذلّنا. وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار، ولذلك ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ أي: لا عتَب ولا تأنيب ﴿عَلَيْكُمُ﴾ وهو تفعيل مِن الثَّرب، وهو الشحم الغاشي للكَرِش، ومعناه: إزالته، كما أنّ التجليد إزالة الجِلد، والتقريع إزالة القَرَع؛ / لأنّه [٢٢٢و] إذا ذهب كان ذلك غايةَ الهُزال، فضُرب مثلًا للتقريع الذي يَذهب بماء الوجوه.

وقوله عزّ وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منصوب بـ"التثريب"، أو بالمقدّر خبرًا لِـ﴿لَا﴾، أي: لا أثرّبكم، أو لا تثريب مستقرّ عليكم اليومَ الذي هو مظِنّة له، فما ظنّكم بسائر الأيّام، أو بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنّه حينئذ صَفَح عن جريمتهم، وعفَا عن جريرتهم بما فعلوا مِن التوبة.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضّل على التائب بالقبول.

ومِن كرمه عليه السلام أنّ إخوته أرسلوا إليه أنّك تدعونا إلى طعامك بُكرةً وعشيًّا، ونحن نستحيي منك بما فرَط مِنّا فيك، فقال عليه السلام: إنّ أهلَ مِصرَ وإن ملكتُ فيهم كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان مَن بلّغ عبدًا بِيع بعشرين درهمًا ما بلّغ، ولقد شرُفتُ بكم الآنَ، وعظُمتُ في العيون، حيث علِم الناس أنّكم إخوتي، وأنّي مِن حفَدة إبراهيم عليه السلام.[1]

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣﴾

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ قيل: هو الذي كان عليه حينئذ. وقيل: هو القميص المتوارَث الذي كان في التعويذ، أمره جبريل عليه السلام بإرساله إليه، وأوحى إليه أنّ فيح ريح الجنّة لا يقع على مبتلًى إلّا عُوفِيَ.[2]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٣.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٦٣٢/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢.

﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يكن بصيرًا، أو يأتِ إليّ بصيرًا، وينصره قوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بأبي وغيره ممّن ينتظمه لفظ الأهل جميعًا مِن النساء والذراري. قيل: إنّما حمل القميصَ يَهُوذا، وَقال: أنا أَحْزَنْتُه بحمل القميص مُلَطّخًا بالدم إليه فأُفرّحه كما أَحْزَنْتُه. وقيل: حمَله وهو حافٍ حاسِر مِن مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخًا.[1]

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ خرجت مِن عريش مصر. يقال: "فصل مِن البلد فصولًا" إذا انفصل منه وجاوز حيطانَه. وقرأ ابن عبّاس: "انْفَصَلَ الْعِيرُ".[2]

/ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمَن عنده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجده الله سبحانه ما عبِق بالقميص مِن ريح يوسف مِن ثمانين فرسخًا حين أقبل به يَهوذا. ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: تنسبوني إلى الفَنَد؛ وهو الخرَف وإنكار العقل وفساد الرأي مِن هرَم، يقال: شيخ مفنّد، ولا يقال: عجوز مفنّدة؛ إذ لم تكن في شبيبتها ذاتَ رأي فتُفنَّدَ في كبرها. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف، أي: لصدّقْتموني. [٢٢٢ظ]

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: الحاضرون عنده: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قِدمًا في إفراط محبّتك ليوسف، ولَهَجك بذِكره، ورجائك للقائه، وكان عندهم أنّه قد مات.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ وهو يَهوذا ﴿أَلْقَىٰهُ﴾ أي: ألقى البشيرُ القميصَ ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه، ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ عاد ﴿بَصِيرًا﴾ لِما انتعش فيه مِن القوّة.

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢.

[2] قراءة شاذّة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٢. وهي في مطبوع شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٢: "انفَصَلَتِ العِيرُ".

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يعني قولَه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾،[١] فالخطاب لمَن كان عنده بكنعان، أو قولَه: ﴿وَلَا تَاْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾،[٢] فالخطاب لبنيه، وهو الأنسب بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإنّ مدار النهي المذكور إنّما هو العلم الذي أوتي يعقوب مِن جهة الله سبحانه. وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقولَ القول، أي: ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر، وأمرتكم بالتحسّس، ونهيتكم عن اليأس مِن رَوح الله تعالى: أعلم مِن الله ما لا تعلمون مِن حياة يوسف.

رُوي أنّه سأل البشيرَ: «كيف يوسف؟» فقال: «هو ملِك مصر،» قال: «ما أصنع بالملِك؟ على أيّ دين تركته؟» قال: «على دين الإسلام»، قال: «الآن تمّت النِّعمة».[٣]

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ ومِن حقّ مَن اعترف بذنبه أن يُصفَح عنه ويُستَغفَر له. / فكأنّهم كانوا على ثقةٍ مِن عفوه عليه السلام، ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار، أو أدرجوا ذلك في الاستغفار. [٢٢٣و]

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا مُشعِر بعفوه. قِيل: أخّر الاستغفار إلى وقت السحَر. وقيل: إلى ليلة الجمعة ليتحرّى به وقت الإجابة.

وقيل: أخّره إلى أن يستحِلّ لهم مِن يوسف عليه السلام، أو يعلمَ أنّه قد عفا عنهم، فإنّ عفو المظلوم شرط المغفرة. ويعضُده أنّه رُوي عنه أنّه استقبل القِبلة قائمًا يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمّن، وقاموا خلفهما أذلّةً خاشعين عشرين سنةً، حتّى إذا بلغ جهدهم وظنّوا أنّها الهلَكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إنّ الله قد أجاب دعوتك في ولدك، وعقد مواثيقهم بعدَك على النبوّة.[٤] فإن صحّ ثبت نبوّتهم، وأنّ ما صدر عنهم إنّما صدر قبل الاستنباء.

---

[١] يوسف، ٩٤/١٢.
[٢] يوسف، ٨٧/١٢.
[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٤/٢؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٢٤/٦.
[٤] **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٤/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٧٦/٣.

وقيل: المراد الاستمرار على الدعاء. فقد رُوي أنّه كان يستغفر كلّ ليلة جمعة في نَيِّفٍ وعشرين سنةً.[1] وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحَر، فلمّا فرغ رفع يديه فقال: اللّٰهمّ اغفر لي جزَعي على يوسف، وقلّة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتَوا إلى أخيهم، فأوحى الله إليه أنّ الله قد غفَر لك ولهم أجمعين.[2]

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ رُوي أنّه وجّه يوسف إلى أبيه جَهازًا ومِائتي راحلة؛ ليتجهّز إليه بمَن معه، فاستقبله يوسف والملِك في أربعة آلاف مِن الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقَّوْا يعقوبَ عليه السلام وهو يمشي متوكّئًا على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس، فقال: «يا يَهوذا، أَهَذا فرعون مصر؟»، قال: «لا بل ولَدك»، فلمّا لقِيه قال: «السلام عليك يا مُذهب الأحزان».[3]

/ وقيل: قال له يوسف: «يا أبتِ بكيتَ عليّ حتّى ذهب بصرك، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا؟» فقال: «بلى، ولكنّي خشيتُ أن يُسلب دينك، فيُحالَ بيني وبينك».[4] [٢٢٣ظ]

وقيل: إنّ يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى ستّمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلًا سوى الذرّيّة والهرمى، وكانت الذرّيّة ألفَ ألفٍ ومائتَي ألف.[5]

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أي: أباه وخالتَه. وتنزيلُها منزلة الأمّ كتنزيل العمّ منزلة الأب في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة، ١٣٣/٢]،

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٢.

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٦٣٤/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٥/٢.

٤ عن سفيان الثوري في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/٥. وأخرجه الواحدي بإسناده في التفسير الوسيط، ٦٣٤/٢، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٠/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٥/٢.

أو لأنّ يعقوبَ عليه السلام تزوّجها بعد أمّه. وقال الحسين[١] وابن إسحاق: كانت أمُّه في الحياة،[٢] فلا حاجة إلى التأويل.

ومعنى ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾: ضمّهما إليه واعتنقهما، وكأنّه عليه السلام ضرَب في الملتقى مضربًا، فنزل فيه، فدخلوا عليه، فآواهما إليه.[٣]

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ مِن الشدائد والمَكاره قاطبة. والمشيئة متعلّقة بالدخول على الأمن.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ﴾ عند نزولهم بمصر ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ على السرير تكرِمة لهما فوق ما فعله لإخوته. ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ أي: أبواه وإخوته ﴿سُجَّدٗا﴾ تحيّة له، فإنّه كان السجود عندهم جاريًا مَجرى التحيّة والتكرِمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مِن عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير.

وقيل: ما كان ذلك إلّا انحناءً دون تعفير الجِباه. ويأباه الخرور.

[٢٢٤و] وقيل: خرّوا لأجله سجّدًا لله شكرًا.[٤] ويردّه قوله تعالى: / ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ التي رأيتها وقصصتها عليك ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في زمن الصِبا. ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ صدقًا واقعًا بعينه.

---

[١] كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب "الحسن"، وهو الحسن البصري. انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٥١٥/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٦/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢١٢/١١.

[٢] س: بالحياة.

[٣] س - إليه.

[٤] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٧/٣. وفي البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٧/٦: قال الحسَن: الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على الله، أي: خرّوا لله سجّدًا، شكرًا على ما أوزَعهم مِن هذه النعمة.

والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القِبلة، وجعلُ "اللام" كما في قوله:

أَلَيس أوّلَ مَن صلّى لقِبلتكم[1]

تعسّف لا يخفى.

وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنصّ في ذلك؛ لأنّ الترتيب الذِّكري لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعي، فلعلّ تأخيرَه عنه ليَصل به ذِكرَ كونه تعبيرًا لرؤياه وما يتّصل به مِن قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾.

المشهور استعمال الإحسان بـ"إلى"، وقد يستعمل بالباء أيضًا، كما في قوله عزّ اسمه: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة، ٢/٨٣]. وقيل: هذا بتضمين "لَطُفَ"، وهو الإحسان الخفيّ، كما يؤذِن به قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاء﴾. وفيه فائدة لا تخفى، أي: لطف بي محسنًا إليّ غيرَ هذا الإحسان، ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ بعدما ابتُلِيتُ به.

ولم يصرّح بقصّة الجُبّ حذارًا مِن تثريب إخوته؛ لأنّ الظاهر حضورهم؛ لوقوع الكلام عقيب خُرورهم سُجّدًا، واكتفاءً بما يتضمّنه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي: البادية ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: أفسد بيننا بالإغواء. وأصله مِن نخَس الرائض الدابّة وحمَله على الجري، يقال: "نزَغه ونسَغه" إذا نخسه، ولقد بالغ عليه السلام في الإحسان حيث أسند ذلك إلى الشيطان.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ / لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي: لطيف التدبير لأجله، رفيق حتّى يجيء على وجه الحكمة والصواب، ما مِن صعب إلّا وهو بالنسبة إلى تدبيره سهل. [٢٢٤ظ]

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كلّ شيء على قضيّة الحكمة.

---

[1] تمامه:

وأعرفَ الناس بالقرآن والسننِ

لحسّان بن ثابت في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧١/١ (البقرة، ٣٤/٢)؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٧/٦، ولم أجده في ديوانه. وهذا الاعتذار ذكره أبو حيّان في البحر المحيط، ٣٢٧/٦؛ وابن عادل في اللباب، ٢١٤/١١.

رُوي أنّ يوسف أخذ بيد يعقوب عليهما السلام، فطاف به في خزائنه، فأدخله في خزائن الوَرِق والذهَب، وخزائن الحُليّ، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح، وغير ذلك، فلمّا أدخله خزائن القراطيس قال: «يا بنيّ ما أعقّك! عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثماني مراحل؟» قال: «أمرني جبريل»، قال: «أَوَ ما تَسْأَلُه؟» قال: «أنتَ أبْسَطُ إليه منّي»، فسَألَه، قال جبريلُ: «الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿أَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾،[1] قال: فهلّا خِفْتني».[2]

ورُوي أنّ يعقوب أقام معه أربعًا وعشرين سنةً ثمّ مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فمضى بنفسه وَدَفَنَه ثمّة ثمّ عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثًا وعشرين سنةً، فلمّا تمّ أمره وعلِم أنّه لا يدوم له تَاقَتْ نفسُه إلى المُلكِ الدائم الخالد فتمنّى الموت،[3] فقال: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي: بعضًا منه عظيمًا، وهو مُلك مصر. ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ أي: بعضًا مِن ذلك.

كذلك إن أريد بتعليم تأويل الأحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهيّة ودقائق سَنن الأنبياء عليهم السلام فالترتيب ظاهر. وأمّا إن أريد به تعليم تعبيرِ الرُّؤى -كما هو الظاهر- فلعلّ تقديمَ "إيتاءِ المُلكِ" عليه في الذِكر لأنّه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه مِن الله سبحانه، والمُلك / أعرق في كونه نعمة مِن التعليم المذكور، وإن كان ذلك أيضًا نعمة جليلة في نفسه. [٢٢٥و]

ولا يمكن تمشية هذا الاعتذار فيما سبَق؛ لأنّ التعليم هنالك وارد على نهج العلّة الغائيّة للتمكين، فإن حُمِل على معنى التمليك لزم تأخّره عنه، وأمّا الواقع ههنا فمجرّد التأخير في الذِّكر، والعطفُ بحرف الواو، ولا يستدعي ذلك الترتيبَ في الوجود.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مبدعَهما وخالقَهما. نصب على أنّه صفةٌ للمنادى، أو منادى آخر وَصَفه تعالى به بعد وصفه بالربوبيّة مبالغةً في ترتيب مبادي

---

[1] يوسف، ١٢/١٣.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٧٧.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٦. وأوّله إلى عوده إلى مصر في الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٦٠.

ما يعقبه مِن قوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ مالك أموري ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أو الذي يتولّاني بالنعمة فيهما، وإذ قد أتممت عليّ نعمة الدنيا ﴿تَوَفَّنِي﴾ اقبضني ﴿مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِن آبائي، أو بعامّة الصالحين في الرتبة والكرامة، فإنّما تتمّ النعمة بذلك.

قيل: لمّا دعا توفّاه الله عزّ وجلّ طيّبًا طاهرًا، فتخاصم أهل مصر في دفنه، وتشاجّوا في ذلك حتّى همّوا بالقتال، فرأَوا أن يصنعوا له تابوتًا مِن مَرمَر فجعلوه فيه، ودفنوه في النيل؛ ليمرّ عليه ثمّ يصل إلى مصر ليَكونوا شرعًا واحدًا في التبرّك به. ووُلِد له أفراييم وميشا، ولأفراييم نون، ولنون يوشع فتى موسى عليه السلام. ولقد توارثت الفراعنة مِن العمالقة بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ / إشارة إلى ما سبق مِن نبأ يوسف. وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ مرارًا مِن الدلالة على بُعد منزلته، أو كونه بالانقضاء في حكم البعيد. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم. وهو مبتدأ، خبره ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الذي لا يحوم حوله أحد. وقوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾ خبر بعد خبر، أو حال مِن الضمير في الخبر. ويجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسمًا موصولًا، و﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ صلته، ويكون الخبر ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾. [٢٢٥ظ]

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ يريد إخوة يوسف ﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ وهو جعلهم إيّاه في غيابة الجُبّ، ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ به، ويبغون له الغوائل حتّى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها، وتطّلعَ على سرائرهم طرًّا، وتحيط بما لديهم خُبرًا. وليس المراد مجرّد نفي حضوره عليه السلام في مشهد إجماعهم ومكرهم فقط؛ بل في سائر المشاهد أيضًا، وإنّما تخصيصه بالذكر لكونه مطلعَ القصّة وأخفى أحوالها، كما يُنبئ عنه قوله: ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾.

والخطاب وإن كان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لكنّ المراد إلزام المكذّبين، والمعنى: ذلك مِن أنباء الغيب نوحيه إليك؛ إذ لا سبيل إلى معرفتك إيّاه سوى ذلك، إذ عدم سماعك ذلك مِن الغير وعدمُ مطالعتك للكتب أمر لا يَشكّ فيه المكذّبون أيضًا، ولم تَكُنْ بَيْن ظهرانِيهم عند وقوع الأمر حتّى تعرفَه كما هو فتبلغَه إليهم. وفيه تهكّم بالكفّار، فكأنّهم يشكّون في ذلك، / فيدفع شكّهم. [٢٢٦و]

وفيه أيضًا إيذان بأنّ ما ذُكر مِن النبأ هو الحقّ المطابق للواقع. وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه. يعني أنّ مثل هذا التحقيق بلا وَحي لا يتصوّر إلّا بالحضور والمشاهدة، وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي. ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران، ٣/٤٤]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص، ٢٨/٤٤].

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ يريد به العموم أو أهلَ مكّة ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ أي: على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات القاطعة الدالّة على صدقك ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لتصميمهم على الكفر وإصرارهم على العناد.

رُوي أنّ اليهود وقريشًا لمّا سألوا عن قصّة يوسف وَعَدُوا أَن يُسلموا، فلمّا أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يُسلموا حَزِن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقيل له ذلك.[1]

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الإنباء، أو على القرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ مِن جُعْلٍ كما يفعله حَمَلَة الأخبار. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظة مِن الله تعالى ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ كافّة، لا أنّ ذلك مختصّ بهم.

---

[1] التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٢٣٧؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤/٢٨٢.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: كأيّ عددٍ شئتَ مِن الآيات والعلامات الدالّة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غيرَ هذه الآية التي جئتَ بها ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كائنةٍ فيهما مِن الأجرام الفلكيّة، وما فيها من النجوم وتغيّر أحوالها، ومن الجبال والبحار، وسائر ما في الأرض مِن العجائب الفائتة للحصر ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي: يشاهدونها / ولا يَعْبَئُون بها. [٢٢٦ظ]

وقُرئ برفع ﴿ٱلْأَرْضِ﴾[1] على الابتداء، و﴿يَمُرُّونَ﴾ خبره. وقُرئ بنصبها[2] على معنى: ويطئون الأرض يمرّون عليها. وفي مصحف عبد الله: "وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا".[3]

والمراد ما يرون فيها مِن آثار الأمم الهالكة وغيرِ ذلك مِن الآيات والعِبَر ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ غيرَ ناظرين إليها، ولا متفكّرين فيها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيّته ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادتهم لغيره، أو باتّخاذهم الأحْبار والرهبان أربابًا، أو بقولهم باتّخاذه تعالى ولدًا، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، أو بالنور والظلمة. وهي جملة حاليّة، أي: لا يؤمن أكثرهم إلّا في حال شركهم.

قيل: نزلت الآية في أهل مكّة. وقيل: في المنافقين. وقيل: في أهل الكتاب.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأةً مِن غير سابقةِ علامة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدّين لها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وابن عمير وابن فايد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُّدّي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٢.

٣ جامع البيان للطبري، ٣٧٢/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٨/٢.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ وهي الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالإخلاص. وفسّرها بقوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي:[1] بيانٍ وحجّةٍ واضحةٍ غير عمياء. أو هي[2] حال مِن الضمير في ﴿سَبِيلِىٓ﴾، والعامل فيها معنى الإشارة.

﴿أَنَا۠﴾ تأكيد للمستكنّ في ﴿أَدْعُوٓا۟﴾ و﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ لأنّه حال منه، أو مبتدأ خبره ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾. / ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطف عليه. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [٢٢٧و] مؤكِّد لِما سبق مِن الدعوة إلى الله.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ ردّ لقولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٣/٢٤]. ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ كما أوحينا إليك. وقُرئ بالياء.[3] ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لأنّهم أعلَم وأحلَم. وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن المكذّبين بالرسل والآيات، فيحذروا تكذيبك. ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لدار الحال أو[4] الساعة، أو الحياة الآخرة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك والمعاصي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتستعملوا عقولكم؛ لتعرفوا خيريّة دار الآخرة. وقُرئ بـ"الياء"[5] على أنّه غير داخل تحت ﴿قُلْ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

---

١ ط س - أي.

٢ ط س: وهي.

٣ أي: "يُوحَى" مبنيًا للمفعول. قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٦.

٤ م ط س - لدار الحال أو ["صح" في هامش م].

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٧.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غاية لمحذوف دلّ عليه السياق، أي: لا يغرّنّهم تماديهم فيما هم فيه مِن الدَّعة والرخاء، فإنّ مَن قبلهم قد أُمهلوا حتّى أيِس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا، أو مِن إيمانهم لانهماكهم في الكفر، وتماديهم في الطغيان مِن غير وازع.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ كَذَّبَتْهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنّهم يُنصَرون عليهم، أو كذّبهم رجاؤهم، فإنّه يوصف بالصدق والكذب. والمعنى: أنّ مدّة التكذيب والعداوة مِن الكفّار وانتظار النصر مِن الله تعالى قد تطاولت وتمادَت حتّى استشعروا القُنوط، وتوهّموا أن لا نصر لهم في الدنيا.

﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ فجأة، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: / «وظنّوا أنّهم قد أُخلِفوا ما وعدَهم الله مِن النصر».[1] فإن صحّ ذلك عنه فلعلّه أراد بالظنّ ما يخطر بالبال من شِبه الوسوسة وحديث النفس، وإنّما عبّر عنه بالظنّ تهويلًا للخطب. وأمّا الظنُّ الذي هو ترجّح أحد الجانبين على الآخر فلا يتصوّر ذلك مِن آحاد الأمّة، فما ظنّك بالأنبياء عليهم السلام وهم هم، ومنزلتهم في معرفة شئون الله سبحانه منزلتهم. [٢٢٧ظ]

وقيل: الضميران للمُرسَل إليهم. وقيل: الأوّل لهم، والثاني للرسل.

وقرئ بالتشديد،[2] أي: ظنّ الرسل أنّ القوم كذّبوهم فيما وعدوهم. وقُرئ بالتخفيف على بناء الفاعل،[3] على أنّ الضميرين للرسل، أي: ظنّوا أنّهم كذّبوا عند قومهم فيما حدّثوا به لمّا تراخى عنهم ولم يروا له أثرًا، أو على أنّ الأوّل لقومهم.

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ هم الرسل والمؤمنون بهم. وقُرئ: "فَنُنْجِي" على لفظ المستقبل بالتخفيف[4] والتشديد.[5] وقُرئ: "فَنَجَا".[6] ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٥١٠/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٩/٣.

[2] أي: "كُذِّبُوا". قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٦/٢.

[3] أي: "كَذَبُوا". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٣.

[4] أي: "فَنُنْجِي". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٩٦/٢.

[5] أي: "فَنُنَجِّي". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. انظر: شواذّ القراءات للكرماني؛ ص ٢٥٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٧/٦.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن ومجاهد وابن السميفع. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٣؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٨٩/٣.

إذا نزل بهم. وفيه بيان لِمَن تعلّق بهم المشيئة.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصص الأنبياء وأممهم، وينصره قراءة مَن قرأ بكسر القاف،[1] أو قصص يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول المبرّأة عن شوائب أحكام الحسّ.

﴿مَا كَانَ﴾ أي: القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن الكتب السماويّة. وقُرئ بالرفع[2] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممّا يحتاج إليه في الدين؛ إذ ما مِن أمر ديني إلّا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بوسط. ﴿وَهُدًى﴾ مِن الضلالة، ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خير الدارين ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدّقونه لأنّهم المنتفعون به، وأمّا مَن عداهم فلا يهتدون بهداه، ولا ينتفعون بجَدواه.

[٢٢٨و] / عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «علّموا أرقّاءَكم سورة يوسف، فإنّه أيّما مسلم تلاها وعلّمها أهله وما ملكت يمينه هوّن الله عليه سكَرات الموت، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلمًا».[3]

والحمد لله وحده.[4]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمد بن جَبر الأنطاكي عن الكسائي، والقصبي عن عبد الوارث عن أبي عمرو. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة وعمران بن عثمان. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٣.

[3] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٩٦/٥؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٩٩/٢. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

[4] س: والحمد لله ربّ العالمين.



Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları
Yayın No. 1000-1
İSAM Yayınları 236
Klasik Eserler Dizisi 46

İRŞÂDÜ'L-AKLİ's-SELÎM ilâ MEZÂYA'l-KİTÂBİ'l-KERÎM
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
Cilt 4

Tahkik
Mehmet Taha Boyalık - Ahmet Aytep [Mukaddime - Bakara 98; Nisâ - Tevbe]
Ziyaüddin el-Kaliş [Bakara 99 - Âl-i İmrân 32; Yûnus - Hûd; Hicr - Tâhâ; Zâriyât - Nâs]
Muhammed İmâd el-Nabulsî [Âl-i İmrân 33-200; Yûsuf - İbrâhim; Enbiyâ - Kâf]



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.
İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
İnceleme kısmı üslup okuma (Türkçe) Metin Karabaşoğlu
Tercüme (Arapçaya) Merve Dağıstanlı Barsik
Tashih (Arapça) Said Kayacı, Münzir Şeyhhasan, Mohamed Shahin
(Türkçe) İsa Kayaalp, Abdülkadir Şenel, İnayet Bebek
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, İbrahim Dervişmüezzin (Uygulama),
Hasan Hüseyin Can (Kapak), Ramzi Haj Mustafa (Kapak Hattı)
Yayın takip Münzir Şeyhhasan, Sema Doğan



Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayınlanmıştır.

Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
01/06/2020 tarihli ve 2020/05 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: Ankara, Temmuz 2021 m. / 1442 h.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.)
978-625-7581-35-6 (4. Cilt)



Basım Yayın ve Dağıtım
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle/Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No. 48058

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] / Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî ; tahkik Mehmet Taha Boyalık , Ahmet Aytep , Ziyaüddin el-Kaliş , Muhammed İmâd el-Nabulsî. – Ankara : Türkiye Diyanet Vakfı, 2021.
4. c. , 628 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 1000-1. İSAM Yayınları ; 236. Klasik Eserler Dizisi ; 46)

Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.) 978-625-7581-35-6 (4. Cilt)



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm

Ebussuûd Tefsiri

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
(ö. 982 h. / 1574 m.)

Kendisine ait notlarla (minhüvât) birlikte
müellif nüshasından ilk neşir

Tahkik

Mehmet Taha Boyalık   Ahmet Aytep
Ziyaüddin el-Kaliş   Muhammed İmâd el-Nabulsî

Proje Yürütme ve İlmî Kontrol
Mehmet Taha Boyalık

Dördüncü Cilt


TÜRKİYE DİYANET VAKFI YAYINLARI

İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamıştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahrâaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlûkler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usûlünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkâdir-i Geylânî ve Kâdirilik*, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Müntekā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ, Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kādî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kâsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Takrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr*, (thk. Bahattin Dartma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsir Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddin es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akāid*; Cürcânî, *Hâşiyetü't-Tecrîd*; *Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkıtî), 2020
Sığnâkī, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Alî Kuşçu, *Hâşiyetü Alî el-Kuşcî alâ Şerhi'l-Keşşâf* li't-Teftâzânî (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukūdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. Mehmet Taha Boyalık, Ahmet Aytep, Ziyaüddin el-Kaliş, Muhammed İmâd el-Nabulsî), I-IX, 2021



İrşâdü'l-akli's-selîm
ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm